حميد تيتاو

الحرب والمجتمع
بالمغرب خلال العصر المريني



1 أبحاث



Scanned by CamScanner



Scanned by CamScanner

حميد تيتاو

الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني

609-869هـ/1212-1465م

إسهام في دراسة انعكاسات الحرب على البنيات الاقتصادية والاجتماعية والذهنية



Scanned by CamScanner

تندرج الكتب المنشورة ضمن سلسلة أبحاث في إطار برنامج أطلقته مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء سنة 2008؛ برنامج يقضي بنشر رسائل وأطروحات جامعية لباحثين شباب تتميز بقيمتها العلمية ودقتها الأكاديمية وتتناول بالدرس موضوعات خاصة بالبلاد المغاربية وبمحيطها التاريخي والثقافي، وذلك بغض النظر عن جنسيات المؤلفين ولغتهم.

صدر في نفس السلسلة

- فن المنقوشات الكتابية في الغرب الإسلامي / الحاج موسى عوني، ديسمبر 2009
- مقاربة سياسية للاستثمارات الأجنبية في المغرب / جواد النوحي، ديسمبر 2009

توزيع خارج المغرب
منشورات زين، بيروت
الشياح - طريق صيدا القديمة - لبنان
00961 1 391 391 - 00961 3 433 733
wassim@zeinjuridique.com - www.zeinjuridique.com

الإيداع القانوني 2009 MO 3324
ردمك 5 - 3595 - 0 - 9954 - 978

© مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود
للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية

(سلسلة أبحاث) الدار البيضاء، ديسمبر 2009
زنقة المرجان، عين الذياب، أنفا – الدار البيضاء
الهاتف: 30 / 27 10 39 22 05 (212)
الفاكس: 31 10 39 22 05 (212)
البريد الإلكتروني: secretariat@fondation.org.ma
موقع المؤسسة: http://www.fondation.org.ma

الطباعة : منشورات عكاظ – 2010

Scanned by CamScanner

إهداء

إلى الجدة عيشة موحى
التي ربتني وليدا، فأذاقتني طعم الصبر
والمثابرة منذ الفطام...
إلى بلدتَيّ التوأم إلي وملاعب، حيث خفق القلب لأول مرة،
وسيظل يخفق من أجلهما...
إلى كل من أبى إلا أن يتعلم في زمان،
القابض فيه على العلم كالقابض على الجمر...

Scanned by CamScanner



Scanned by CamScanner

لحظة شكر وامتنان

حري بي في البداية أن أعترف بالدين، كل الدين، لهؤلاء الذين بصموا جل مراحل وخطوات هذا العمل:

– الأستاذ الفاضل الذي علمني أبجديات البحث والتنقيب في تاريخ المغرب، ودلل كل المصاعب التي اعتورت سبيل هذا العمل: الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش.

– أساتذة أفاضل تحملوا عبء قراءة هذا العمل وتصحيح هناته ومناقشته، أعضاء اللجنة العلمية الموقرة: عبد الواحد شعيب، مصطفى نشاط، أحمد المحمودي، السعيد لمليح، جمال حيمر.

– أساتذة أفاضل شرفوني بصداقتهم وأفادوني بعلمهم ومساعداتهم، ووضعوا مكتباتهم رهن إشارتي: السعيد المليح، محمد ياسر الهلالي، إبراهيم فسكاوي.

– أساتذة أفاضل جلست منهم مجلس الدرس والتحصيل في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس وفي وحدة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للغرب الإسلامي: أحمد المحمودي، جمال حيمر، أحمد الطاهري، محمد علوي المراني، محمد تضغوت، م. هاشم العلوي القاسمي، عبد السلام حيمر، نادية العشيري، بلكامل البيضاوية، محمد معكول، عمر علوي المراني.

– أساتذة أفاضل فاتني الجلوس منهم بمجلس الدرس والتحصيل، فعوضت بعضا مما فاتني بمؤلفاتهم: المرحوم محمد المنوني، محمود إسماعيل عبد الرزاق، محمد عابد الجابري، محمد القبلي، عبد الأحد السبتي، مصطفى نشاط، محمد استيتو، عبد الإلاه بلمليح، محمد

Scanned by CamScanner

بوكبوط، محمد الشريف، امحمد بنعبود، حسن حافظي علوي، رحمة بورقية، المرحوم الحسين بولقطيب.

– أصدقاء رافقوني في محنة البحث وشاركوني لذة الألم في لحظات تاه فيها القلم عن مساره: حماد لطيف، لحسن مزهور، مصطفى تيتاو، علي وسعيد ومصطفى هموري، حميد لطيف، امبارك أوحمي، لحسن حسى، سليمان هجى، حساين وامبارك بوريك، محمد بوهجيج، الإخوة شكري، عبد الله عدي، ابراهيم الريبوز، مصطفى عمراوي، عبد السلام الزيادي، مصطفى شيشاوي، محمد العزاوي، عبد الله وأحمد الدرويش، محمد عكوري، محمد أغروض، عمر وعبد الله تالسينت، سعيد بنحمادة، مغار حسن، باسيدي علوي، عبد العالي المحمدي، عبد الإله هيلالي، حميد امهوض، هشام بكري، احمد لمغاري، فاضل باساين، امحمد واعلوا، احماد تيتاو أوحمي، عسو فلاح، حميد ولحسن وموحى زرور.

– رمز البراءة ونكران الذات، التي ضحت بما تملك وبما لا تملك من أجل أن يصبح هذا العمل على ما هو عليه الآن: خديجة تانورت.

– جميع أفراد الأسرة بإكلي وملاعب.

إلى كل هؤلاء ولغيرهم من الذين لازلت أحتفظ لهم بكل جميل، أتقدم بعظيم شكري وامتناني. كما أجزل خالص الشكر لمؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود على ما قدمته لي من مساعدات طيلة السنوات التي أنجزت فيها هذا العمل، وعلى العمل الجبار الذي تقوم به خدمة للعلم وأهله في هذا البلد العزيز، والشكر موصول من خلالها إلى جميع موظفيها وأطرها.

حميد تيتاو

إملشيل في 15 ماي 2009

Scanned by CamScanner

دليل بعض الرموز المستعملة

ج: الجزء.
س: السفر.
ق: القسم.
مج: المجلد.
و: ورقة.
هـ: هجرية
م: ميلادية
ت.: توفي
ص: الصفحة.
ص ص: من الصفحة كذا إلى الصفحة كذا.
ط: الطبعة.
ع: العدد.
د.ت: دون تاريخ.
[ ] ما بين المعقوفتين في نص توثيقي هو تصرف فيه، بإضافة حرف أو كلمة حتى يستقيم سياق الجملة
مخ.خ.ع: مخطوط الخزانة العامة بالرباط.
مخ.خ.ح: مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط.
ض.م: ضمن مجموع.

p. : page
pp. : pages
T : Tome
V : Volume
éd. : édition
Op. cit. : Ouvrage pré-cité
Ibid (adv. lat.) : le même ouvrage
A.E.S.C. : Annales, Economie, Société, Civilisation
A.I.E.O. : Annales de l'Institut d'Etudes Orientales
A.B. : Archives berbères

Scanned by CamScanner



Scanned by CamScanner

فهرس المحتويات

Scanned by CamScanner

Scanned by CamScanner

تقديم

يسعدني أن أقدم هذا الكتاب لباحث يعتبر من خيرة الباحثين الذين أنجبتهم وحدة التكوين والبحث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للغرب الإسلامي بكلية الآداب بمكناس.

وتأتي أهمية موضوع «الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني» الذي درسه الباحث بصبر وأناة لمدة تربو على السبع سنوات من كونه يفتح ورشا جديدا لا في مجال الدراسات التاريخية العسكرية فحسب، بل يقتحم فضاءً أحسب أنه لا يزال بعيدا عن الأضواء، وهو مجال تاريخ الذهنيات، حيث إن الباحث في معالجته لتيمة الحرب خرج عن المسار المألوف الذي يجعل منها مجرد مشاهد تعكس قعقعات السيوف، ليشق مسارا جديدا يروم البحث والتنقيب في العلاقة الجدلية بين الحرب والمجتمع، من أجل الكشف عن انعكاسات الحروب في بنيات المجتمع المغربي خلال العصر المريني وفي نظمه ومؤسساته، وأثر ذلك في وجدان الفرد ومشاعره وعاداته وسلوكياته، وتحليل الآلية الذهنية المعقدة المرافقة للحروب، ويرصد مجموعة من التموجات الذهنية حسب تعبير فرناندو بروديل، ويجس نبض الأحاسيس والمشاعر لإنسان المغرب المريني، ويفك كثيرا من الشفرات التي ظلت حبيسة الحشمة والكتمان في الإسطوغرافيا الوسيطية.

وقد آثر المؤلف اختيار الحقبة المرينية كفضاء زمني ليبحر فيها ذهابا وإيابا، وهو اختيار أتصور أنه لم يكن اعتباطيا، بل كان اختيارا محسوبا، ذلك أن العصر المريني يعد بكل المقاييس مرحلة تحول عميق، جسد بداية تراجع المغرب وانكماشه، وتوالد الأزمات والإخفاقات والشروخ في نسيجه الاجتماعي، وانفلات المجال المتوسطي من السيطرة المغربية كما لاحظ ذلك ابن خلدون، وهو ما سيكون له انعكاس أمين على العقلية المغربية.

وقد اعتمد المؤلف في هذه الدراسة على ترسانة ضخمة من المتون النصية، بما في ذلك المتون المخطوطة التي تستغل لأول مرة، واستطاع أن يتحرر من إكراهات المصادر التقليدية المشدودة إلى مراكز السلطة، البارعة في وصف الحروب وتمجيد الانتصارات، ليستند إلى مصادر أخرى

Scanned by CamScanner

شكلت ثقوبا استطاع من خلالها أن يرتحل من عالم الحروب إلى عالم المسكوت عنه في الحروب، فيكشف عن دورها في عملية الحراك الاجتماعي، ووقعها على الجانب النفسي وعلى المشاعر والأحاسيس، وعلى إنتاج عالم من القيم المناقضة لقيم زمن السلم، وعقليات ينعدم فيها التوازن بين ذهنية المنتصر وذهنية المنهزم، ناهيك عن أثرها في الإنتاج الاقتصادي والتركيبة الديموغرافية، وغيرها من القضايا التي تعد بحق قيمة مضافة للمساحات المغيبة في حقل البحث التاريخي المعاصر.

ولعلّ مما يزيد من قيمة هذا الكتاب اعتماد صاحبه على منهج توثيقي صارم يمتح مادته من أمهات الأصول، مع تطعيمها بآراء مدرسة علم الاجتماع العسكري، وعلم النفس الحربي، إلى جانب آخر صيحة من صيحات علم الحروب «البوليمولوجي». ناهيك عن تبنيه النسق التحليلي الشمولي اعتمادا على مقاربات منهجية يتقاطع فيها المنهج الاستقرائي مع المنهج المقارن، والرؤى السوسيولوجية والتحليل النفسي، وتوظيف المنهج السيميائي أحيانا لقراءة العلامات المرتبطة بالحروب، واستجلاء مضمراتها، واستنباط مغلقاتها.

تأسيسا على ذلك، أعتقد أن نشر هذا العمل الذي أجمعت اللجنة العلمية إجماعا مطلقا على التنويه به، والتوصية بنشره، يعد إضافة نوعية لتاريخ الذهنيات الذي لا يزال الخلف من أبنائنا الباحثين يقطعون فيه رحلة الألف خطوة بالرغم من وعورة مسالكه، وظلمة دروبه، وذلك بهدف إعادة قراءة التاريخ المغربي قراءة عميقة بعيدة عن التسطيح والابتسار، وتجاوز القشور إلى اللب، لفك بعض الشفرات التي لا تزال تحجب عنّا الرؤية الصحيحة، تمهيدا لملء البياضات التي تخترقه.

وفق الله الباحث للمزيد من العطاء والتألق العلمي، وشكر الله لمؤسسة الملك عبد العزيز للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية نشر إنتاجات الباحثين الجادين، والله ولي التوفيق.

بقلم د. ابراهيم القادري بوتشيش

مكناسة الزيتون في 6 مايو 2009

Scanned by CamScanner

مقدمة

تعد الحرب من أقدم الظواهر الاجتماعية، والواقعة الأكثر تكرارا في تاريخ الوجود البشري منذ ظهوره؛ فلا يكاد يخلو تاريخ أمة من الأمم من أمجادها أو إخفاقاتها. لذلك حق القول إنها ظلت، ولا تزال، تمثل أشد علامات التاريخ وضوحا؛ فانطلاقا من معيار العنف الجماعي المنظم، يمكن الجزم بأن تاريخ الشعوب موسوم بمتتالية السلم والحرب المستمرة. وإلى يومنا هذا، تبدو الحرب بطابعها الخاص المتجدد، ووجهها المتغير، وغوامضها وأشكالها التنظيمية، أبرز الظواهر إثارة للانتباه، وأشدها إثارة للخلاف، وقبل ذلك أكثرها إنتاجا لردود الأفعال.

وإذا استبعدنا ردود الأفعال المتمثلة في التيارات السلمية القائمة أساسا على العواطف والآراء المثالية، وبغض النظر عما كتب عن الحرب من وجهة النظر القانونية أو الفلسفية أو السياسية أو التقنية، وهو تراث ضخم بحجم كثافة هذه الظاهرة وأهميتها، يمكن القول جملة إن ما كتب عنها باعتبارها ظاهرة اجتماعية يظل في حكم النادر، ورهين عثرات البداية. وقد بدأ منذ مدة تحول ثلة من السوسيولوجيين الغربيين إلى البحث في ظاهرة الحرب في علاقتها بالمجتمع، والعمل على استكناه بواعثها وميكانزماتها ومظاهرها وانعكاساتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. ويمثل علم الحروب (Polémologie)، الذي ترجع بداياته الإبيستيمولوجية الأولى إلى منتصف القرن الماضي، أبرز ممثل لهذا الاتجاه، إلا أن ثمراته العلمية لم تتجاوز بعد طور المقدمات.

ومن وجهة نظر تاريخية، كرس عدد هام من المؤرخين الغربيين في السنوات الأخيرة دراساتهم، في إطار بحوث «الحرب والمجتمع»، لتناول الحرب وصلتها بالمجتمعات الأوربية من خلال مقاربات جديدة، تجلت في تجاوز المؤلفات التي تناولت في الغالب الحملات العسكرية، ودرستها من زاوية العسكري المحترف، ومالت إلى فصل الجانب القتالي عن إطاره الاجتماعي. وقد بدا لهؤلاء أن المؤرخ العسكري، وإن كان بإمكانه أن يسجل تسجيلا ملائما نتائج الحرب الاقتصادية والسياسية، إلا أنه لن يستطيع الإسهام بالكثير في

Scanned by CamScanner

الكشف عن الأبعاد الاجتماعية للحرب، ومن ثم تأتي الحاجة إلى حقل علمي جديد يهتم بدراسة مكان الحرب والاستعداد لها في قلوب أفراد المجتمع وعقولهم وحياتهم اليومية؛ سواء كانوا منتجين أو مستهلكين، رعية ومواطنين، أزواجا أو نساء أو أطفالا.

وفي الوقت الذي بدا فيه لبعض الباحثين أن مصطلح «الحرب والمجتمع» دخل في نطاق الاستعمال التاريخي الشائع، يجد البعض الآخر نفسه، حسب علمنا، أمام فراغ مهول في هذا المجال بالنسبة للدراسات التاريخية في العالم العربي الإسلامي عامة، والمغرب الأقصى خاصة. وحري بنا أن نستثني الأبحاث التي اهتمت بظاهرة الحرب وفعلها التاريخي، من خلال محاولتها تصنيف مجتمع المغرب الأقصى ضمن إحدى التشكيلات الاقتصادية والاجتماعية المعروفة، فقادتها اجتهاداتها إلى القول بنمط معين للإنتاج تقوم فيه الحرب بدور محوري وأساس، ونقصد بالأساس ما كتبه محمد عابد الجابري[1] في دراسته لمقدمة ابن خلدون، وإن اقتصر على «المقدمة»، لكن ما قدمه ينم عن وعي دقيق بتأثير الظاهرة، وعمق أهميتها. وما توصل إليه إبراهيم القادري بوتشيش[2] من خلاصات رصينة، بعد تشريحه للمجتمع والدولة خلال العصر المرابطي، انطلاقا من المقولات الخلدونية وغيرها من المظان المتنوعة، مما منح لاستنتاجاته كثيرا من الأصالة والدقة والعمق. ثم ما توصل إليه الحسين بولقطيب[3]، في دراسته للدولة الموحدية وعلاقتها بمجال المغرب الأقصى، وخلص فيها إلى أنها لم تكن سوى نسخة مطابقة للدولة التي سبقتها في اعتماد الحرب وسيلة أساسية في مسارها السياسي.

في كل الأحوال، نؤكد أن المعالجة المتخصصة في مجال «الحرب والمجتمع» أو «سوسيولوجيا الحرب» ليست شائعة بالرغم من أهميتها التاريخية، لذلك كله جاء اختيارنا لموضوع «الحرب والمجتمع بالمغرب الأقصى خلال العصر المريني، 609-869هـ/1212-1465م: إسهام في دراسة انعكاسات الحرب على البنيات الاقتصادية والاجتماعية والذهنية»، اقتناعا منا أن إعادة النظر في إشكالية الحرب خلال العصر المريني من خلال تصور علمي جديد، يتجاوز سرد الأحداث العسكرية والوقائع الحربية، إلى البحث في حقائقها وبناها ومتغيراتها الحضارية، والكشف عن آثارها في البنيات والنظم والمؤسسات، وفي مختلف مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، كفيل بالكشف عن عناصر جديدة من شأنها أن تغني البحث التاريخي المغربي، وتدفع به نحو الكشف عن الكثير من القضايا الحضارية لمجتمعنا، التاريخية منها والراهنة.

Scanned by CamScanner

إن اختيار العصر المريني إطارا زمنيا لهذه الدراسة لم يكن بمحض المصادفة، بل مثل حافزا هاما في اختيارنا للموضوع؛ فقد شكل هذا العصر امتدادا لتحولات عميقة مست بلاد الغرب الإسلامي برمتها منذ منتصف القرن 5هـ/11م، وتميزت باقتران بداية تقلص ريادته للحوض الغربي للبحر المتوسط، وانتقاله في علاقته بـ «دار الحرب» من موقع الهجوم إلى موقع الدفاع، ببداية الاجتياحات البدوية الهامشية، وبروز «الدولة العامة الاستيلاء، العظيمة الملك» القائمة على مبدأ الغلبة والحرب، المنبثقة من بنية قبلية تعتمد الحرب أسلوبا للبقاء، وطريقا للوصول إلى الملك وخيراته، وما أفرزه ذلك التحول من انعكاسات عميقة في البنيات والنظم والمؤسسات، وفي مختلف مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

واختيارنا للعصر المريني ليس فقط بغرض سد فجوة من الفراغ العلمي في دراسة هذا العصر الذي لم ينل بعد الاهتمام الكافي من قبل الباحثين، لتبين تلك التحولات وإفراز نتائجها، بل أيضا لأن بوادر التراجع والانهيار العام تبدو أكثر وضوحا وتجليا فيه، إن لم نقل إنه يمثل المنعطف الأكبر الذي ترك أثره الواضح على تطورات لاحقة شهدها هذا البلد كمسار طبيعي لحركة التاريخ، والزمن العصيب الذي انتقلت فيه موازين القوى والثقل الحضاري لصالح الأوروبيين.

ولا شك أن هزيمة الموحدين في معركة العقاب (609هـ/1212م) باعتبارها هزيمة عسكرية واقتصادية واجتماعية ونفسية، تمثل نقطة البداية لهذا التراجع الشامل الذي طال كل الميادين؛ إذ بعدها انفرطت الوحدة التي حققها الموحدون في بلاد الغرب الإسلامي، وتحركت قبائل بني مرين لتسيطر على مركز المغرب الأقصى، وتدخل بعد ذلك في حروب مستمرة لا تهدأ واحدة إلا لتبدأ أخرى ضداً على الكيانات السياسية التي تقاسمت معها الإرث السياسي الموحدي، وبعدها أيضا لم تعد المطالبة بالملك تستند على أي أساس نظري أو ديني، وإنما على القوة والشوكة والغلبة. كما بدأت في الداخل هجمات البدو تزداد حدة، وطلائع الهجمات المسيحية في الخارج تصل إلى الشواطئ المغربية، فضلا عن الكوارث الطبيعية التي توالت على المغرب الأقصى طيلة هذا العصر، أبرزها الطاعون الجارف الذي طوى البساط بما فيه. كل ذلك نجم عنه، ولا شك، تأثير على جميع المستويات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. كما أنها تمثل مؤشرات هامة لتحول عام عبر عنه ابن خلدون، الذي عاصره، بزمن «الانقلاب» أو «التبدل بالجملة».

Scanned by CamScanner

وإذا كان الموضوع يهدف إلى البحث في العلاقة الجدلية بين الحرب والمجتمع، فإن غايتنا المنهجية تروم تجاوز الرؤى الاختزالية التي تنظر إلى الحرب من حيث غائياتها السياسية أو القانونية، أو حتى الاقتصادية، إلى النظر إليها من منظور شمولي يتخطى حدود المشهد الحدثي ليبحث في بنياتها الداخلية، ووصف العمليات والظواهر والتفاعلات الاجتماعية والثقافية التي أحدثتها في المجتمع وتحليلها، وربط ذلك بالتحولات الحضارية الكبرى التي عرفها العصر المريني، والقرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي على وجه التحديد.

تسعى فصول هذه الدراسة إلى إماطة اللثام عن كثير من القضايا التي أفرزتها حروب العصر المريني، وإثارة أسئلة مفتوحة في حقل لم تسبر أغواره بشكل عميق، و لم ينل بعد ما يستحقه من اهتمام من قبل الدراسات التاريخية المغربية المعاصرة. من أجل ذلك وجهنا اهتمامنا لتبين البنى التي تنتجها الحرب، والتغيرات التي تحدثها عبر تحليل عناصرها وتعريفها وتتبع تطورها، ومعرفة الوقوف على درجة إسهام الأفراد والجماعات في إحداثها، ثم دراسة وظائفها الاجتماعية المختلفة، والآثار التي خلفتها في الديموغرافيا والاقتصاد والجغرافيا والمجتمع والثقافة.

وإدراكا منا بأهمية الجانب الاقتصادي في دراسة العلاقة الجدلية بين الحرب والمجتمع، فإن عملنا هذا استهدف الغوص في العمق لإلقاء أضواء كاشفة على القضايا الاقتصادية المرتبطة بظاهرة الحرب من قبيل التمويل والتعبئة وإعلان النفير العام، ومسألة الإعداد الاقتصادي المسبق للحرب. كما سعى إلى إجراء قراءة واسعة في مفاهيم عدة تمثل مفاتيح للكشف عن العلاقة الاقتصادية والاجتماعية بين الحرب والمجتمع، مثل «اقتصاد الحرب» و«خزانة الحرب»، وأوجه الصرف العسكري و«الميزانية العسكرية»، والتأثير العسكري في توزيع المداخيل، إلى جانب الاستهلاك المتعجل للثروات، والتخريب الذي لا يعدو أن يكون صورة من صور الاستهلاك في زمن الحرب، وأخيرا دور الحرب في انتقال الثروات بين الأطراف المتحاربة، وفي تطوير بعض المجالات الاقتصادية بعينها.

وعلاوة على ذلك، نعتقد أن الجانب الاجتماعي في علاقة الحرب بالمجتمع يمثل إحدى أبرز نقاط الجذب في قضايا هذا الموضوع، إذ يهدف البحث فيه إلى الكشف عن دور الحرب في عملية الحراك الاجتماعي، وأثرها في بناء أو تفكك المؤسسات الاجتماعية، وكذا في وضع الأسرة زمن الحرب وبعدها. وعلى الخصوص البحث في أوضاع المجندين

Scanned by CamScanner

الاجتماعية وعلاقتهم بأسرهم وقضايا التكيف والاندماج في الجيش أولا، وفي المجتمع ثانيا.

وحيث إن الحرب، من حيث هي حالة جمعية، تولد مجموعة من الانفعالات والتصورات والسلوكات الاجتماعية، نجد أنفسنا -ولأول مرة فيما نعلم- بصدد بناء وتركيب إحدى الحلقات المفقودة في تاريخ الذهنيات بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط عامة، والمريني على وجه الخصوص، وتتعلق بدراسة دور الحرب في توليد قيم المجتمع وتغيير مسلماته؛ إذ تنتج الحرب في الغالب عالما سيكولوجيا مختلفا تنقلب فيه القيم وتتغير فيه العقلية تغيرا جذريا عن حالها زمن السلم، لذلك تنحو هذه الدراسة إلى الإحاطة بالجانب النفسي لآثار الحرب، وتحليل كيفية بروز الميولات الحربية في المجتمع، وكيف تنمو الرغبة في الحرب، أو على الأقل قبول فكرتها. كما تسعى إلى فهم ذهنية المنتصرين وفرزها عن ذهنية المنهزمين، واللحظات التي تبرز فيها نزعات السلم والسلام.

وإيمانا منا أن الانفلات من الجمود النظري في الكتابة التاريخية المغربية لا يكمن فقط في فتح أوراش جديدة، وطرق مفاهيم معرفية مستمدة من تراثنا الإسلامي، أو من بعض المدارس الأوروبية، ومنها مصطلح «الحرب والمجتمع»، بل أيضا في القدرة على استكشاف المادة العلمية الكفيلة بسبكها وصياغتها صياغة جديدة بعيدا عن التعسف والتأويل المفرط[4]. لذلك حتمت علينا طبيعة الموضوع النهل من مختلف أنواع المصادر، مثل كتب الحوليات التاريخية، والآداب السلطانية، والجغرافيا، والرحلات، والفقه والنوازل، والتراجم والطبقات، والفهارس، والمناقب والتصوف، والتنجيم، والأدب والأمثال الشعبية وغيرها مما أمكننا الاطلاع عليه. ومن نافلة القول التأكيد على أنه بالرغم من الطفرة الكمية والنوعية، إلى حد ما، التي عرفتها الاسطوغرافيا خلال العصر المريني، والتي أشاد بها بعض الباحثين، إلا أن ما تقدمه لتناول قضايا الاقتصاد والمجتمع والذهنيات يظل في حكم المفقود أحيانا، وحكم النادر والشارد والمتفرق أحيانا أخرى، ويحتاج إلى مضاعفة الجهد في تبينه، وإلى كثير من الصبر والدقة والتروي في تمحيصه ونقده، قبل أن يصبح مادة علمية كفيلة بأن تجيب عن بعض مستغلقات العلاقة بين الحرب والمجتمع المغربي خلال العصر المريني.

إن طبيعة موضوعنا التي تستحضر عنصر الحرب في علاقتها بالمجتمع فرض علينا الاستفادة، ما أمكن، من كتب الحوليات التاريخية التي مكنتنا من وضع تصور واضح

Scanned by CamScanner

لطبيعة الحروب التي شهدتها هذه الحقبة التاريخية، ومستوياتها وموقعها في الزمان والمكان، ودائرة وقوعها، ودوريتها وتواترها، وحدتها، بل ووضعتنا أحيانا أمام الأسباب الثاوية وراء اندلاعها وتفشيها، والنتائج العامة التي خلفتها في الساكنة والمجال. ويأتي في طليعة هذه المصادر «الأنيس المطرب» و«الذخيرة السنية» لابن أبي زرع الفاسي (ت. 741هـ/1340م)، وكتاب «العبر» لابن خلدون (ت. 808هـ/1405م)، التي وفرت مادة هامة في هذا الصدد بحكم قرب مؤلفيها لدواليب الدولة المرينية، دون أن نعدم قيمتها في تتبع الحملات العسكرية وتحديد مددها، وفي فهم وظائف الحرب، خاصة وظيفتها التدميرية والنزف المزدوج للبشر والثروات، وانتقال الأموال بين الأطراف المتحاربة، وكذا قضايا التمويل والتعبئة وإعلان النفير العام، والإعداد الاقتصادي والاجتماعي المسبق للحرب، وأوجه الصرف والميزانية العسكرية. وهو ما تولى كتاب «المسند الصحيح الحسن» لابن مرزوق (ت. 781هـ/1379م) إبرازه بكثير من الدقة والوضوح، دون أن نغفل ما قدمته عناوين أخرى في هذا المجال. غير أن المادة المستوحاة من هذا النوع من المصادر تحتاج إلى كثير من التمحيص والنقد، لتخليصها من الشوائب العالقة بها بحكم انتماءات أصحابها وميولهم السياسية، وتنوع مواقفهم من الأطراف المتحاربة.

ومن خلال مقابلة كتب الحوليات التاريخية بكتب الآداب السلطانية، وفي مقدمتها «مقامة السياسة» لابن الخطيب (ت. 776هـ/1374م)، و«الشهب اللامعة في السياسة النافعة» لابن رضوان (ت. 783هـ/1381م)، و«واسطة السلوك في سياسة الملوك» لأبي حمو الزياني (ت. 791هـ/1388م)، و«بدائع السلك في طبائع الملك» لابن الأزرق (ت. 896هـ/1490م)، أمكننا التوقف عند أهمية الحرب في بنية الدولة وتاريخيتها، وأدوارها المادية والرمزية، وموقعها ضمن مجمل اهتمامات السلطان ومشاركيه في الحكم، وفي طريقة تدبيره. كما زودتنا بمادة ذات بال للوقوف على العلاقة بين السلطان وشركائه العسكريين، وبينه وبين الجنود والمتطوعة فيما يخص شؤون العطاء والتموين وتدبير قضاياهم الاقتصادية والاجتماعية.

وبالإضافة إلى هذين الصنفين، انصب اهتمامنا على كتب الجغرافية والرحلات من مثيل «مسالك» البكري (ت. 478هـ/1085م)، و«نزهة» الإدريسي (ت. 562هـ/1166م)، و«استبصار» المؤلف المجهول (ق. 6هـ/12م)، و«آثار» القزويني (ت. 686هـ/1287م)، و«نفاضة» ابن الخطيب، و«التعريف بابن خلدون» لصاحبها ابن خلدون، و«تحفة» ابن

Scanned by CamScanner

بطوطة (ت. 779هـ/1377م)، و«روض» الحميري (ت. 866هـ/1461م). وعلى الرغم مما شاب بعضها من اختلاف في الوصف، وتكرار للمعلومات، وتجاوزات في النقل، إلا أنها مكنتنا من التقاط إشارات جيدة لتحديد الملامح الطبيعية والعمرانية والبشرية، ورصد مواقع القبائل وعلاقتها بالأرض والمجال، ودور الحرب في تحديد هذه الملامح، وإحداث التغييرات فيها. ومن خلال انتقالنا بين مصادر الفترة المعنية بالدراسة، والمصادر التي ألفت قبلها ثم بعدها، أمكن رصد أهم التطورات التي لحقت بالمجال والساكنة، وموقع الحرب ضمن مجمل العوامل التي ساهمت في إحداثها.

ويجدر بنا هنا أن ننوه بالمادة العلمية القيمة التي زودنا بها كتاب «مسالك الأبصار في عجائب الأمصار» للعمري (ت. 749هـ/1348م) الذي مكننا من تقدير حجم الإنفاق العسكري، وتحديد أعداد الجند المريني ورواتبهم بمختلف أصولهم ومراتبهم، ووصف أزيائهم، وأسلوب تنظيمهم. فضلا عن المعلومات الفريدة التي ساعدتنا في الكشف عن بعض تمظهرات الحضور المكثف للحرب في يوميات السلطان المريني وحاشيته وجنده. والأهمية نفسها اكتستها رحلة ابن الحاج النميري «فيض العباب» التي أمدتنا بصورة واضحة لأسلوب تنقل الجيش المريني، وطريقة تنظيم المحلة السلطانية في سيرها وتوقفها. كما ننوه بشكل خاص بكتاب «وصف إفريقيا» لصاحبه الحسن الوزان (ت. حوالي 957هـ/1550م)، إذ بالرغم من انتمائه لفترة متأخرة عن زمن هذه الدراسة، إلا أنه احتفظ لنا بإشارات في غاية الأهمية تخص العصر المريني؛ من مثيل تحديد الخريطة البشرية للقبائل، ودور حروب العصر المريني في تحريكها وزعزعتها، وفي تحديد نمط عيش هذه القبائل، وأسباب ممارستها للغزو والحرب. كما قدم معلومات دقيقة عن انعكاسات الحرب في الاقتصاد والمجتمع والعمران، وساعدنا في دراسة أنواع السلوك الاجتماعي، ودور الحرب في توجيهه وصقله.

وبالمثل، كانت الاستفادة مكثفة من «أدب الفروسية وركوب الخيل»؛ إذ مكننا هذا النوع من التأليف على الوقوف عند الأهمية التي أضحت للحرب في واقع هذه المرحلة، وموقع القيم الحربية ضمن مجمل القيم التي مجدها المغاربة. فضلا عما زودتنا به من معلومات تخص أنواع الألعاب وأشكال التسلية التي مورست كشكل من أشكال إعادة إنتاج الحرب في المتخيل والرمز. ويمثل كتاب «تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس» لابن

Scanned by CamScanner

هذيل (ت. 763هـ/1361م)، وكتاب «كامل الصناعة في الفروسية والشجاعة» لمؤلف مجهول (ق. 8هـ/14م) أهم المصنفات التي اعتمدناها في هذا السياق.

وعلى المنوال نفسه، استفاد البحث من كتب الفقه والنوازل التي قدمت صورة دقيقة عن مجتمع المغرب الأقصى زمن المرينيين، والمشاكل التي اعترضت السير العادي لحياته اليومية، وقد ألقت الحروب بظلالها على نوازل هذا العصر، فقدمت أجوبة هامة لكثير من الأسئلة التي ظلت عالقة في تعاملنا مع المتون السابق ذكرها، وغطت النقص الحاصل فيها؛ فكشفت عن الآثار التي خلفتها الحرب على المنتجين ومنتوجهم، وقدمت مادة هامة ساعدتنا في سبر أغوار المشاكل الاجتماعية والنفسية الداخلية في التنظيم العسكري، خاصة منها قضايا الاغتراب والتكيف الاجتماعي والنفسي والجنسي، وقضية اندماج الجنود بعد العودة إلى وسطهم الاجتماعي والأسري. وبالمثل قدمت كتب النوازل الفقهية معلومات دقيقة للوقوف على وضع الأسرة جراء تفشي ظاهرة الحرب واستمرارها، وأماطت اللثام عن حال المرأة زمن الحرب، وأوضاع النساء اللواتي فقدن أزواجهن بسببها إما موتا أو أسرا أو غيابا قسريا أو طوعيا، والأوضاع العامة لشريحة «أطفال الحرب» سواء منهم أبناء الغائبين أو المفقودين أو الأسرى والمسترقين، أو «أيتام الحرب» وغيرهم من الأطفال المتضررين من الحرب وآفاتها. وفي هذا الصدد تندرج أهمية «الدر النثير» لأبي الحسن الصغير (ت. 719هـ/1319م)، و«أسئلة وأجوبة القباب» أبي العباس (ت. 778هـ/1376م)، وأجوبة ابن مرزوق الحفيد (ت. 842هـ/1438م)، والموسوعة النوازلية للونشريسي (ت. 914هـ/1513م) «المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي فقهاء أهل إفريقية والأندلس والمغرب» التي ضمت معظم هذه النوازل وغيرها. ولا شك أن أهمية هذه المصنفات، إذا تجاوزنا مشكل التحديد الزمني لنوازلها، ومشكل الافتراض التي مثلت أبرز عائق وقف أمام الاستغلال الأمثل لمادتها، تتمثل في انتماء أصحابها للفترة موضوع الدراسة، ومكانتهم في مجتمع عصرهم.

وعلى عكس ما ذهب إليه بعض الباحثين من عدم جدوى الاهتمام بجواب الفقيه المفتي، باعتباره اقتراحا لحل المشكل استنادا على الشرع الإسلامي، أولينا اهتماما خاصا لهذه الأجوبة إيمانا منا أنها تمثل مواقف الفقهاء التي طالما كان لها دور ما في توجيه قرارات الأفراد والجماعات، وفي تحديد موقف السلطة من كثير من القضايا المعروضة عليهم، لذلك أدرجنا هذه الأجوبة ضمن مواقف الفقهاء التي بحثنا عنها في كتب الفقه العامة، من مثل

Scanned by CamScanner

كتاب «الإنجاد في أبواب الجهاد» لابن المناصف (ت. 620هـ/1205م)، و«القوانين الفقهية» لابن جزي (ت. 741هـ/1340م)، و«تحفة» ابن عاصم (ت. 829هـ/1425م)، و«كليات» ابن غازي (ت. 919هـ/1513م) وغيرها.

ومن بين القضايا التي بحثنا عنها في أجوبة الفقهاء وآرائهم الموقف من تقديم العون البشري والمادي لأهل الأندلس، ومن شرعية الحروب الداخلية، والأموال التي تفرض على الرعية بقصد المعونة على الحرب والجهاد، ووضعية الأسرى والمعطوبين وأيتام الحرب وأراملها ضمن مجمل الاعتبارات التي وضعوها في صرف أموال الفيء والغنيمة، ودور الدولة في كفالتهم. وموقفهم من القضايا المعروضة عليهم من قبل النساء المطالبات بالتطليق، بحكم الضرر أو الإعسار في النفقة في ظل غياب الأزواج بسبب الحرب.

يضاف إلى ما سبق ما ورد من مادة متناثرة في كتب الوثائق التي أفادتنا في تحديد نوعية العوائق التي اعترضت سبيل الفئات المنتجة في أوقات الحرب، وفي هذا السياق، استقينا معلومات لا بأس بها من كتاب «وثائق الفشتالي». ويضاهيه في الأهمية كتاب «اختصار النهاية والتمام في معرفة الوثائق والأحكام» لأبي عبد الله بن هارون الكناني (ت. 750هـ/1349م) الذي أسدى لنا خدمة طيبة للكشف عن نوعية العقود التي تدوولت بين الناس نتيجة التطورات التي أحدثتها الحرب في مجال الأحوال الشخصية للأسرة المغربية.

أما كتب التراجم والطبقات والفهارس، فقد أسعفتنا في فهم طبيعة العلاقات والروابط الاجتماعية التي أفرزتها الحرب، وأشكال السلوك والقيم، وردود الأفعال الجماعية المتخذة زمن الحرب وبعدها، سواء التضامنية منها أو العدوانية، ودور الحرب في عمليات الحراك البشري والاجتماعي. كما عثرنا بين ثناياها على مادة هامة أتاحت لنا إمكانية تتبع دور الحرب في بلورة بعض القيم التي يجدها المغاربة آنذاك لمسايرة هذه الظاهرة ونشرها، والتفاعل مع مستجداتها، دون أن نعدم منها ما يهم أوضاع المجندين الاجتماعية، وعلاقتهم بأسرهم ووسطهم الاجتماعي، والقيم المتحكمة في تنشئة هؤلاء وتربيتهم العسكرية وموقعهم في التسلسل الاجتماعي. ومن بين المصنفات التي نهلنا منها، كتاب «سبك المقال لفك العقال» لابن الطواح (كان حيا. 718هـ/1318م)، و«نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان» لابن الأحمر (ت. 808هـ/1405م)، و«بلغة الأمنية» للمؤلف المجهول (كان حيا. 820هـ/1417م)، و«نفح الطيب» للمقري (ت. 1040هـ/1630م).

Scanned by CamScanner

ولم يكن البحث ليغفل استثمار ما تقدمه كتب المناقب والتصوف وكتب البدع من معلومات كفيلة بأن تميط اللثام عن جملة الانفعالات وردود الأفعال الذهنية التي أفرزتها الحرب، فكان «المقصد الشريف» للبادسي (ت. 722هـ/1322م)، و«أنس الفقير» لابن قنفذ (ت. 809هـ/1406م)، و«البستان» لابن مريم، و«السلسل العذب» للحضرمي، و«تحفة الزائر» لابن عاشر الحافي (ت. 1163هـ/1749م)، من أهم المصادر التي اعتمدنا عليها لتبين سلوك المتضررين من الحرب، وذهنيتهم المتأثرة بواقع الحروب والفتن، ودورها في بلورة المكانة السامية للمتصوفة والصلحاء في مجتمع هذه الحقبة التاريخية، والأدوار التي اضطلع بها هؤلاء في مواجهة آثار الحرب وانعكاساتها. كما أفادتنا مؤلفات أخرى مثل «الرسائل الصغرى» و«الرسائل الكبرى» لابن عباد الرندي (ت. 792هـ/1389م)، و«تحفة الناظر» للعقباني (ت. 871هـ/1466م) في تتبع دور الأولياء في بروز نزعات السلم والسلام الداخلي، وموقفهم من الحروب الداخلية.

وإلى جانب كتب المناقب والتصوف، يجدر بنا أن ننوه بأهمية المادة المصدرية التي زودتنا بها كتب التنجيم، التي قدمت لنا صورة عن الإنسان المغربي وهو يحاول تجاوز الأزمات التي كانت الحرب من أهم مسبباتها، ويسعى إلى إيجاد حلول لطوارقها في المعتقد الغيبي، والإيمان بخوارق المنجمين والعرافين والسحرة والمعزمين. وهو ما تولى ابن قنفذ القسنطيني توضيحه في أرجوزته في الأحكام النجومية التي شرحها علي بن أبي الرجال، وابن هيدور التادلي الفاسي (ت. 816هـ/1413م) في مؤلفه «الاعتبارات النظرية في الأحكام النجومية». وبالرغم من الطابع النظري والافتراضي لهذه المؤلفات، فإنها كشفت عن ذهنية هذه المرحلة، والأسئلة الحرجة التي سعى هؤلاء المؤلفون لتقديم إجابات عنها، كما أنها لم تخل من وقائع تاريخية موثقة بالزمان والمكان.

ومن المصادر التي طعمت هذا العمل كتب الأدب والموسوعات والمعاجم اللغوية، مثل الدواوين والأزجال والأمثال الشعبية التي مثلت وعاء هاما لتأملات أصحابها، ومرآة موضوعية، وتمثلا دقيقا لذهنية المجتمع ووجدانه، وتعبيرا عن مواقفهم من استفحال الحروب ونكباتها. وقد استطاع هذا النوع من المتون، من خلال تعبيراته الوجدانية، أن يشخص الأبعاد والمسافات التي انتهت إليها آثار الحرب المتفشية أكثر مما استطاعت كتب التاريخ. وتمثل «ملعبة» الكفيف الزرهوني (ق 8هـ/14م) أبرز نموذج في هذا الصدد، بالنظر للمادة الغزيرة التي انفردت بها عن أوضاع المجندين الاقتصادية والاجتماعية وأوضاع أسرهم،

Scanned by CamScanner

وأحوال المجتمع زمن الحملات العسكرية المتواصلة، وموقفه منها، ودور ذلك في إفشال المشاريع العسكرية الكبرى التي رام بعض السلاطين المرينيين تحقيقها. أما في مجال الشعر فإن «نظم السلوك» للملزوزي (ت. 697هـ/1297م)، و«رقم الحلل» لابن الخطيب، وعلى الرغم من طابعهما التأريخي والسياسي، فإنهما ضما مادة طيبة للوقوف على الآثار التدميرية التي خلفتها الحرب في المجتمع. ولاستكمال الصورة العامة عن الحرب في الشعر طعمنا هذه الدواوين بالمقطوعات الشعرية المتناثرة بين صفحات «نفح الطيب» للمقري، فكانت تلك النماذج المستقاة خير تعبير عن القلق الثاوي في النفوس من آلام الحرب ومآسيها. والقول نفسه يسري على الأمثال الشعبية التي تزودنا بمعظمها من «أمثال العوام» للزجالي (ت. 694هـ/1295م)، فضلا عن بعض الأمثال الأمازيغية.

وإذا كنا قد حرصنا على أن لا ندمج مقدمة ابن خلدون ضمن أحد هذه الأصناف المصدرية، فلأنها مثلت بالنسبة إلينا المورد الأول لكل مضامين هذا العمل، والملاذ الذي استندنا إليه في جل تحليلاتنا لقضاياه. وإننا نكتفي هنا بتقرير هذه الأهمية وتأكيدها، على أن نقدم تبيانا مفصلا ومتماسكا للإمكانات الخصبة التي وفرتها لنا من الناحية المعرفية والمنهجية، في دراستنا لأثر الحرب في الإنتاج الثقافي العالِم، بوجه خاص، وفي مختلف فصول هذه الدراسة ومباحثها على نحو عام.

وفضلا عن المادة المصدرية التي تم استغلالها بشكل مكثف في فصول هذا البحث ومباحثه، وسعنا مجال الاطلاع ليشمل العديد من الدراسات المعاصرة من مختلف التخصصات العلمية لتساعدنا على بناء رؤية إشكالية للموضوع، خاصة تلك التي لامست أطروحة هذا العمل، وأفادته في بلورة إشكالياته، وصياغة أسئلته، وإمداده بالعون معرفيا أيضا لفك مستغلقاته. ويأتي في مقدمتها أعمال إبراهيم القادري بوتشيش الذي يرجع له الفضل كله في إثراء معرفتنا بقضايا التاريخ الاجتماعي، وتوجيهنا نحو الكشف عن الجوانب المعتمة فيه. كما استفاد البحث من أعمال محمد عابد الجابري وسالم حميش والحسين بولقطيب التي أحاطت أيضا ببعض إشكاليات هذا الموضوع. وفضلا عن ذلك استفادت الدراسة من أبحاث بعض الدارسين الذين طرقوا زمن هذه الأطروحة بأسئلة تاريخية مغايرة أمثال الفقيه العلامة المرحوم محمد المنوني ومحمد القبلي ومصطفى نشاط وأحمد خنبوبي ومحمد ياسر الهلالي وإيرمان بيك ودوفورك وغيرهم ممن أفادوا البحث دون أن يسلبه ذلك حرية مناقشة آرائهم تأكيدا أو تفنيدا.

Scanned by CamScanner

علاوة على ذلك، كان ضروريا كذلك أن نستفيد معرفيا ومنهجيا من حقول معرفية متنوعة، حسب حاجيات البحث، إيمانا منا بعقم التخصص الضيق. وكان أكثر ما تم الاستفادة منه، أعمال جاستون بوتول في علم البوليمولوجي، وأحمد إبراهيم خضر في علم الاجتماع العسكري، وغسان يعقوب ومحمد عثمان في علم النفس الحربي، وبيار كلاستر وجورج بالانديه وتركي علي الربيعو وعبد الله حمودي في الأنتروبولوجيا. فضلا عن أعمال أخرى في علم الحرب، وعلم الاجتماع السياسي، وعلم النفس والجغرافيا التاريخية وغيرها.

واعتمادا على ما وفرته المصادر من معلومات، ومقدمة ابن خلدون من تفسيرات، والدراسات من مناهج، عقدنا العزم على إنجاز هذا العمل، ضمن حدود الآلة العلمية التي نحوزها؛ معولين على الجانب التوثيقي، والاحتكام إلى النصوص، والرصد الأمين للوقائع التاريخية، لملء الفراغ، وترميم المبتور، والكشف عن الجديد إن أمكن. ساعين إلى تقديم أقرب صورة للموضوع انطلاقا من مقاربة تاريخية شمولية تحرص على أن تجد للأجزاء مكانها في الكل، وتأخذ بعين الاعتبار تكامل عناصر الظاهرة التاريخية. معتمدين في ذلك، ما أمكن، على الوصف والتحليل والتفكيك والاستنباط والتأويل المقيد بشروط الزمن والمكان المدروسين، ثم إعادة التركيب والنقد والتعميم الحذر وتغليب السؤال على الإقرار، والكائن على الممكن، وحرصنا جهد المستطاع ألا نقع في أخطاء الاختزال والتبسيط والتبرير والإسقاط واعتساف التأويل. كما لم ندخر جهدا في إنجاز المقارنة، كلما أمكننا ذلك، بين الأزمنة أولا لتبين الثابت والمتحول، ثم بين الأمكنة ثانيا للكشف عن الخاص والعام في التجربة الحضارية الإسلامية خاصة، والإنسانية عامة.

وقد كان من اللازم، كيما يكتمل طرح المعالم والأبعاد العامة للظاهرة المدروسة، أن نحاول النفاذ إلى الجيوب التاريخية والذاكرة الخفية للحقبة مدار الدرس، وملامحها في الحقب التي أعقبتها قصد فهمها وإدراك مغزاها، وفهم أصولها ومدى تفاعلاتها لاحقا، وربطها بالمنعطفات التاريخية والحضارية الكبرى، وذلك في إطار إيماننا بأهمية تبني الزمن الطويل في دراسة قضايا المجتمع والذهنيات.

وبفضل ما أمكننا الاطلاع عليه، وانطلاقا من الرؤية المنهجية التي أطرت تعاملنا مع الموضوع، أمكن تقسيم البحث إلى بابين يضمان سبعة فصول ومقدمة ومدخلاً وخاتمة. خصص المدخل لوضع مصطلح «الحرب والمجتمع» في إطاره الإبيستيمولوجي، وتحديد

Scanned by CamScanner

الإطار التشريعي لظاهرة الحرب في الفقه المالكي. أما الباب الأول فقد اهتم بتقصي ظاهرة الحرب في بنيات المجتمع المغربي وتنظيماته خلال العصر المريني؛ حيث عالج الفصل الأول القبيلة في علاقتها بالحرب، وتناولنا فيه بالدراسة والتحليل والنقد أهم ما قيل عن ظاهرة الحرب القبلية في الدراسات الأنتروبولوجية، كما تصدينا فيه للكشف عن المحددات الاقتصادية والاجتماعية والجينالوجية والتاريخية لهذه الظاهرة، ومقاصدها السياسية، وتمظهراتها العامة والتنظيمات التي أفرزتها، والأعراف التي أنتجت لتدبيرها ومسايرتها.

وتطرق الفصل الثاني لدراسة الدولة المرينية في علاقتها بالحرب، وتضمن عرضا لمقومات الدولة خلال العصر المريني؛ حيث توقفنا عند المقوم البشري المتمثل في الجند، فعرضنا لتركيبته ومكونيه القبلي والارتزاقي، وطبيعة العلاقة التي ربطت بين الجند والدولة، كما تصدى لدراسة دور الحرب في تمويل خزينة الدولة، وفي استنزافها، وتضمن تحليلا لتجليات الحرب في مؤسسة الدولة والأبعاد الرمزية التي اضطلعت بتنفيذها.

أما الفصل الثالث، فخصص لتتبع «آثار الحرب في الأنشطة الإنتاجية»، وضمناه تحليلا لأهم الانعكاسات التي خلفتها هذه الظاهرة في النشاط الفلاحي والحرفي والتجاري بشقيه الداخلي والخارجي.

أما الباب الثاني فتوقف عند «انعكاسات الحرب في المجتمع والذهنيات»، حيث تناول الفصل الرابع مظاهر الحرب وانعكاساتها الاجتماعية، وتضمن رصدا لآثار الحرب في التركيبة الديموغرافية، ولمسألة الأسرى والمسترقين، خاصة أوضاعهم وسبل افتكاكهم. وأعقبنا ذلك بالتفصيل في الفصل الخامس في «الانعكاسات الاجتماعية والأسرية للحرب»؛ وفيه عرض لأوضاع الجند والآثار الاجتماعية لحياتهم العسكرية، ووضع المرأة زمن الحرب، وخاصة أوضاع نساء الغائبين والمفقودين بسبب الحرب، ونساء الأسرى وأرامل الحرب، كما تطرقنا للانعكاسات الاجتماعية والنفسية التي خلفتها الحرب في شريحة الأطفال، وفصلنا بشكل أكبر في أحوال أبناء الجنود والأسرى والمفقودين وفي أحوال أيتام الحرب.

أما الفصل السادس فخصص لتتبع «ترسبات الحرب في الذهنية والسلوك الاجتماعي»، وعالجنا فيه ترسبات الحرب في القيم والتمثلات الجماعية، وفي أشكال السلوك الاجتماعي، كما وقفنا عند أثر الحرب في الإنتاج الثقافي الشعبي والعالم، وتصدى أيضا

Scanned by CamScanner

لمجمل الآثار السيكولوجية للحرب في المجتمع، ودورها في بروز التصوف والمعتقدات الشعبية كأساليب دفاعية لمواجهتها. لذلك توقفنا عند موقع الحرب ضمن الأسباب العامة التي صنعت المجال الحيوي لتدخل الأولياء، ودور هؤلاء في منع الحرب أو التخفيف من آثارها، كما عرضنا فيه لمجمل المعتقدات الشعبية التي أفرزتها الحرب. في حين خصصنا الفصل السابع والأخير لدراسة «انعكاسات الحرب على العمران»، وفيه جرد لدور الحرب في خراب العمران البدوي والحضري، ودورها أيضا في تهيئة المجال المعماري.

---

[1] محمد عابد الجابري، **فكر ابن خلدون، العصبية والدولة، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي**، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ط. 2، 1979م.

[2] إبراهيم القادري بوتشيش، **الحياة الاجتماعية في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين**، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة مولاي إسماعيل، مكناس، 1990–1991م. (مرقونة)

[3] الحسين بولقطيب، **الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى**، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجديدة، 1998–1999م. (مرقونة)

[4] راجع إبراهيم القادري بوتشيش، «تجديد التاريخ الإسلامي، كيف ومن أين نبدأ»، **مجلة الاجتهاد**، ع. 22، السنة السادسة، 1994، ص ص، 131–145.

Scanned by CamScanner

مدخل تمهيدي

المبحث الأول: لمحة تاريخية عن الدولة المرينية

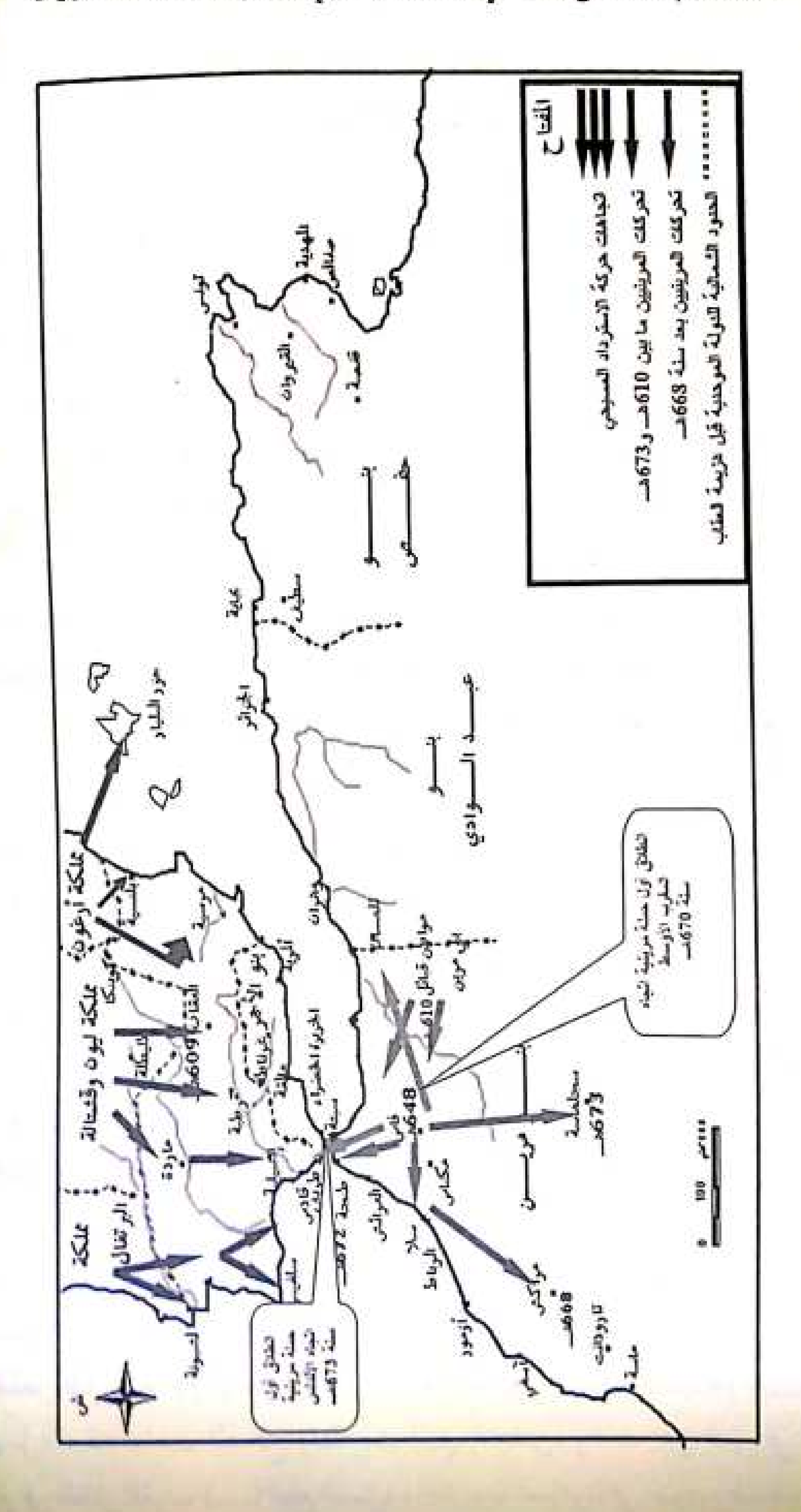
1. هزيمة العقاب [609هـ-1212م] والمتغيرات الجديدة

تجمع المصادر التي تعرضت بالذكر لملامح الواقع السياسي ببلاد الغرب الإسلامي خلال القرنين 7 و8هـ/13 و14م على ربطها بالهزيمة الكبرى التي تلقتها الجيوش الموحدية في معركة العقاب سنة 609هـ/1212م؛ إذ بعدها انفرط عقد الوحدة التي حققها الموحدون، وتقوضت خلافتهم على مجموع هذه البلاد،[1] حيث استبد الحفصيون ببلاد إفريقية،[2] وبسط بنو عبد الواد سلطتهم على معظم بلاد المغرب الأوسط،[3] وبرز بنو الأحمر في غرناطة، وما تبقى من أرض الأندلس بعد أن استرد المسيحيون معظمها،[4] بينما سيطر بنو مرين على المغرب الأقصى مركز الدولة الموحدية، مما يحيل إلى واقع سياسي معقد تميز بعدم الاستقرار والاضطراب المستمرين.

وإن ما شجع على قيام تلك الكيانات السياسية ودعم نزعاتها الاستقلالية، هو ما خلفته الهزيمة المذكورة من اختلال في الأوضاع العامة بالمغرب الأقصى مركز الدولة المصمودية. فقد قام بأمر الموحدين، بعدها، يوسف المستنصر بالله (610-620هـ/1213-1223م) «فأضاع الحزم وأغفل الأمور، وتواكل الموحدون بما أرخى لهم من طيل الدالة عليه، (...) فضاعت الثغور وضعفت الحامية، وتهاونوا بأمرهم، وفشلت ريحهم».[5] وخلال الفترة نفسها برزت الحركة المرينية على ساحة الأحداث بالمغرب الأقصى، وسعت إلى بسط سلطتها على المجال والساكنة، والقضاء على ملك الموحدين، فدخلت معهم في حروب طويلة امتدت أكثر من نصف قرن. ونتيجة لهذه المتغيرات الجديدة «كثرت الفتن بين قبائل المغرب، واشتد الخوف في الطرقات، ونبذ أكثر القبائل الطاعة، وفارقوا الجماعة، (...) فانقطع الحرث، واشتد الغلاء في البلاد بسبب ذلك الإهمال والفساد».[6] وبسبب ذلك «تقلص ظل حكام [الموحدين] عن البدو جملة، وفسدت السابلة واختلط المرعى بالهمل»[7]، فـ«ضاعت المصالح وتطاولت أيدي المعتدين، وعاث أهل البغي في الأرض، وكثر في أقطار المغرب (...) قطع السبل، والمحاربون الساعون في الأرض فسادا».[8]

Scanned by CamScanner

خريطة رقم 1: الوضع السياسي بالغرب الإسلامي بعد هزيمة العقاب سنة 609هـ



Scanned by CamScanner

وإن ما شجع على قيام تلك الكيانات السياسية ودعم نزعاتها الاستقلالية، هو ما خلفته الهزيمة المذكورة من اختلال في الأوضاع العامة بالمغرب الأقصى مركز الدولة المصمودية. فقد قام بأمر الموحدين، بعدها، يوسف المستنصر بالله (610-620هـ/1213-1223م) «فأضاع الحزم وأغفل الأمور، وتواكل الموحدون بما أرخى لهم من طيل الدالة عليه، (...) فضاعت الثغور وضعفت الحامية، وتهاونوا بأمرهم، وفشلت ريحهم».[5] وخلال الفترة نفسها برزت الحركة المرينية على ساحة الأحداث بالمغرب الأقصى، وسعت إلى بسط سلطتها على المجال والساكنة، والقضاء على ملك الموحدين، فدخلت معهم في حروب طويلة امتدت أكثر من نصف قرن. ونتيجة لهذه المتغيرات الجديدة «كثرت الفتن بين قبائل المغرب، واشتد الخوف في الطرقات، ونبذ أكثر القبائل الطاعة، وفارقوا الجماعة، (...) فانقطع الحرث، واشتد الغلاء في البلاد بسبب ذلك الإهمال والفساد».[6] وبسبب ذلك «تقلص ظل حكام [الموحدين] عن البدو جملة، وفسدت السابلة واختلط المرعى بالهمل»[7]، فـ«ضاعت المصالح وتطاولت أيدي المعتدين، وعاث أهل البغي في الأرض، وكثر في أقطار المغرب (...) قطع السبل، والمحاربون الساعون في الأرض فسادا».[8]

2. مرحلة القبيلة، والنزوع نحو الخصب (510-542هـ/1213-1244م)

بنو مرين فرع من زناتة،[9] تجتمع مع غيرها من القبائل الزناتية، مثل بني عبد الواد ومغراوة وبني يفرن وتجين وزواغة وغيرها، حسب شجرة النسب التي أوردتها بعض المصادر، في جدها الأعلى «جانا بن يحيى بن مولاة بن مازيغ».[10] بينما تتفرع قبائل بني مرين عن تلك القبائل انطلاقا من جدها «مرين بن ورتاجن بن ماخوخ الزناتي».[11] وكانت هذه القبائل، قبل اقتحامها لمجال المغرب الأقصى تستوطن «مجالات القفر من فكيك إلى سجلماسة إلى ملوية، وربما يخطون في ظعنهم إلى بلاد الزاب»،[12] حيث يتنقلون في تلك البراري والقفار من مرعى إلى آخر.[13] و«كانت طائفة منهم يدخلون بلاد المغرب في زمن الصيف يكتالون ميرتهم، ويرعون أنعامهم، فإذا توسط الخريف اجتمعوا ببلاد كرسيف، ثم شدوا رحالهم وانصرفوا إلى بلادهم».[14]

وما كاد ضعف الموحدين يتجلى بعد هزيمة العقاب، حتى تطلع بنو مرين لاكتساح المجال الخصيب من المغرب الأقصى؛ فبعد أن علموا بحال البلاد وخصبها، لم يترددوا في انتهاز «الفرصة وتخطوا إليه القفر، ودخلوا ثناياه، وتفرقوا في جهاته، وأرجفوا بخيلهم وركابهم على ساكنه، واكتسحوا بالغارة والنهب عامة بسائطهم».[15] وبعد ذلك خاض بنو مرين

Scanned by CamScanner

سلسلة طويلة من الحروب بزعامة الأمراء عبد الحق بن محيو (592-614هـ/1195-1217م)، ثم أبو سعيد عثمان بن عبد الحق (614-638هـ/1217-1240م)، ثم أبو معرف محمد بن عبد الحق (638-642هـ/1240-1244م)، سواء ضداً على الجيوش الموحدية،[16] أو قبائل رياح،[17] واستطاعوا خلالها إلحاق خسائر فادحة بتلك الأطراف، وضم عدد كثير من قبائل المغرب الأقصى، وإلزامها بأداء الإتاوات، والخضوع لسلطتهم.[18] واستطاعوا بذلك بسط نفوذهم على معظم «بوادي المغرب، وضيق[وا] الواسع على ملوك الموحدين».[19]

3. من القبيلة إلى الدولة، مرحلة التوطيد (642-673هـ/1244-1274م)

كان للنتائج التي حققها بنو مرين في المرحلة التي أعقبت اكتساحهم للمجال الخصيب من المغرب الأقصى، فضلا عن الأزمات التي عصفت بالبيت الموحدي بسبب تخلي المأمون عن العقيدة التومرتية،[20] والصراعات التي نشبت بين الأمراء الموحدين على السلطة،[21] دور هام في دفع بني مرين إلى أن يـ«مدوا أعينهم إلى تملك الأمصار»،[22] ولأبي بكر بن عبد الحق (642-656هـ/1244-1258م) إلى أن يحس «من نفسه الاستبداد، ومن قبيله الاستيلاء، فاتخذ الآلة»،[23] مما يؤكد أن المشروع السياسي لبني مرين لم يتبلور إلا في عهد هذا الأمير.

وتمثل المرحلة الممتدة بين 642هـ/1244 م و668هـ/1269م مرحلة حاسمة في بلورة مشروع الدولة المرينية وتقويض الحكم الموحدي. فقد قاد أبو بكر بن عبد الحق حملاته للسيطرة على أهم المدن المغربية، فاستولى على فاس، ثم أخضع مكناسة، فسلا، فرباط الفتح، وبذلك تملك «الأمير أبو يحيى هذه البلاد الأربعة أمهات أمصار المغرب، واستولى على نواحيها إلى وادي أم الربيع».[24] وفي غضون تلك الأحداث اصطدم الأمير المريني بالجيش الموحدي، وجيوش يغمراسن الزياني في أكثر من وقعة، وكان النصر حليفه في معظمها.[25] وقد ولي بعده الإمارة يعقوب بن عبد الحق سنة 656هـ/1258م، الذي استطاع -بعد سلسلة من الحروب والمناوشات، سواء ضداً على الحشود الزيانية أو ضد الجيش الموحدي في نواحي مراكش[26]- أن يقضي على أبي دبوس آخر خلفاء الموحدين، ويقتحم العاصمة مراكش يوم الأحد الثاني من صفر سنة 668هـ/1 شتنبر عام 1269م.[27]

ومباشرة بعد سقوط مراكش لم يتردد يعقوب بن عبد الحق في قطع الدعوة للحفصيين، والتلقب بأمير المسلمين،[28] إذ كان المرينيون قبل ذلك يعتبرون أنفسهم ولاة للدولة الحفصية

Scanned by CamScanner

على مجال المغرب الاقصى.[29] ثم عمل على استكمال تمهيد المجال، واستطاع أن يوحد بلاد المغرب الأقصى تحت سلطته، بعد التغلب على طنجة سنة 672هـ/1273م،[30] ثم سجلماسة سنة 673هـ/1274م،[31] وإلزام العزفيين في سبتة على تقديم إتاوة سنوية مقابل احتفاظهم بحكم المدينة،[32] وبذلك «أطاعته (...) عامة بلاد المغرب».[33]

4. مرحلة الاستقرار والتوسع (673–759هـ/1274–1357م)

ما إن أتم يعقوب بن عبد الحق توحيد المغرب الأقصى، حتى مد بصره نحو بلاد الأندلس، اعتبارا لظروف الدولة المرينية التي قامت إلى حدود هذه المرحلة دون أي تغطية دينية تبرر انتزاعها للملك بالسيف وتشرّع وجودها، مما جعل من الجهاد في العدوة الأندلسية عنصرا هاما لتحقيق ذلك،[34] فضلا عن أهميتها المالية بالنسبة لدول المرحلة، حيث كان الجهاد موردا للغنائم والأنفال.[35] وقد سارع السلطان المريني إلى عقد هدنة مع أعدائه في تلمسان،[36] وعبر بجيوشه نحو الأندلس أربع مرات، حقق خلالها انتصارات حازت تقدير مصادر المرحلة،[37] اعتبارا للظروف الحرجة التي كانت تمر بها الجزيرة خلال ذلك، إذ «ضاعت فيها ثغور المسلمين واستبيح حماهم، والتهم العدو بلادهم وأموالهم نهبا في الحروب، ووضيعة ومداراة في السلم»[38]؛ فأحرز سنة 674هـ/1275م، بالقرب من استيجة، على نصر عده البعض ثأرا للمسلمين على هزيمة العقاب.[39] وأعقبته انتصارات أخرى سنة 678هـ/1279م،[40] ثم سنة 684هـ/1285م،[41] أسهمت كلها في تعزيز مكانة المرينيين بالجناح الغربي للبحر المتوسط.[42]

غير أن هذا الوضع لم يستمر طويلاً اعتبارا لتعقد ظروف الأندلس التي أصبحت مجالا لتنازع ما تبقى من حكامها، وتحالفهم في أكثر من مرة مع الطرف المسيحي،[43] فضلا عن كون الاستراتيجية المرينية التي اختارت الجبهة الشمالية قد أفضت إلى تزايد النفوذ العبدوادي في المنطقة.[44] وقد دفعت هذه المتغيرات الأمير المريني الجديد أبا يعقوب يوسف الناصر (685–706هـ/1286–1306م) إلى أن يوجه أنظاره نحو الشرق، ويميل إلى بسط سلطته على تلمسان التي كانت قد حققت إلى حدود هذا التاريخ تطورا اقتصاديا وسياسيا ملحوظا.[45] وبعد مجابهة العديد من التمردات التي رافقت انتقال الحكم إليه،[46] شرع السلطان يوسف بن يعقوب في توجيه حملاته نحو تلمسان ابتداء من سنة 689هـ،[47] انتهت، لعدم جدواها، إلى أن يضرب حصاره الطويل على هذه المدينة ما بين 698هـ/1286م و706هـ/1307م،[48] وخلال مدة الحصار أغارت الجيوش المرينية على كثير من مدن المغرب

Scanned by CamScanner

الأوسط، وبسطت نفوذها عليها، مثل شرشال، ومليانة، ووانشريس، ومستغانم، ووهران، والجزائر، والمدية.[49]

ونظرا لطول مدة الحصار دون التمكن من اقتحام تلمسان، أقدم الأمير المريني على إنشاء مدينة جديدة بالقرب منها سماها المنصورة،[50] وفي مدة قياسية أضحت المنصورة «من أعظم الأمصار والمدن، وأحفلها اتساع خطة، وكثرة عمران، ونفاق أسواق».[51] وخلال هذه الأحداث «خطب الملوك سلم [أبي يعقوب يوسف] ووده، ووفدت عليه رسل الموحدين وهداياهم من تونس وبجاية، وكذلك رسل صاحب مصر والشام وهديتهم، واعتز اعتزازا لا كفاء له».[52] غير أن بناء المنصورة، بالرغم مما أنفق عليها من أموال،[53] لم يمكن سلطان بني مرين من دخول العاصمة الزيانية؛ إذ حدث أن اغتيل على يد أحد عبيده الخصيان في خبائه بالمنصورة،[54] وأجهض بوفاته مشروع التوسع نحو الشرق إلى حين، بعد أن انتهت المشورة التي عقدها السلطان الجديد أبو ثابت عامر (706–708هـ/1307–1308م) مع شيوخ بني مرين ورؤساء الجند بضرورة «الرحيل والانصراف» عن هذه المدينة التي أرهقهم حصارها،[55] ففك الحصار وعاد إلى فاس بعد أن عقد الصلح مع أمير بني عبد الواد، «وصرف عليه جميع البلاد التي كان أخذها جده لهم».[56]

على أن الفترة الممتدة بين سنة 706هـ/1307م و731هـ/1330م والتي شملت حكم السلاطين أبي ثابت عامر، وأبي الربيع سليمان ثم أبي سعيد عثمان، مرت الدولة المرينية خلالها بضعف ملحوظ على مستوى التوسع الخارجي، بسبب انشغالها بقضاياها الداخلية.[57] فقد تميزت فترة حكم السلطانين الأولين بقصر مدتها (ما بين 706هـ/1307م و710هـ/1310م)، وخلالها اشتغل كل منهما بقضية سبتة التي تغلب عليها بنو الأحمر منذ سنة 703هـ/1304م إلى أن استرجعت سنة 709هـ/1309م،[58] فضلا عن إخماد التمردات الداخلية.[59] أما السلطان أبو سعيد عثمان، فقد شغله تمرد ابنه أبي علي عمر (ما بين 714–715 و720هـ/1314–1315 و1320م) الذي انتزى «بسجلماسة، فأقام بها ملكا، ودون الدواوين، واستلحق واستركب، وفرض العطاء».[60]

وبالرغم من التراجع الذي سجلته سياسة بني مرين الخارجية على مستوى مشروع توحيد المجال، واستعادة التجربة الموحدية خلال هذه الفترة، فقد كانت بحق مرحلة «جني ثمرات الملك» التي تجاوز فيها بنو مرين «ضرورات العيش وخشونته إلى نوافله ورقة زينته».[61] وحسبنا دليلا على ذلك، ما وصف به أحد الإخباريين فترة حكم أبي الربيع

Scanned by CamScanner

سليمان، التي كانت «خير أيام هدنة وسكونا وترفا لأهل الدولة. وفي أيامه تغالى الناس في أثمان العقار، فبلغت قيمتها فوق المعتاد، حتى لقد بيع كثير من الدور بفاس بألف دينار من الذهب العين. وتنافس الناس في البناء فعالوا الصروح، واتخذوا القصور المشيدة بالصخر والرخام، وزخرفوها بالزليج والنقوش، وتناغوا في لبس الحرير، وركوب الفاره، وأكل الطيب، واقتناء الحلي من الذهب والفضة، واستبحر العمران، وظهرت الزينة والترف».[62]

وقد كانت الفترة المذكورة، مع ما شهدته من استقرار نسبي، وانتعاش اقتصادي وعمراني هام، بمثابة تمهيد لفترة حكم السلطان أبي الحسن المريني (731–752هـ/1331–1351م)، الذي كان «في مستوى كبار الملوك المغاربة، بعلمه وهمته وأخلاقه وورعه وعدله».[63] وفي عهده تبلور مشروع المرينيين الحقيقي في إعادة توحيد بلاد المغرب على حساب بني عبد الواد وبني حفص، والسير على آثار الموحدين الأوائل؛ فبعد أن قضى على انتزاء أخيه أبي علي عمر بسجلماسة وسوس سنة 733هـ/1333م،[64] واسترجع الجزيرة الخضراء سنة 733هـ/1333م،[65] توجه شرقا فبسط سلطته على تلمسان سنة 737هـ،[66] واستتبع قبائل بني عبد الواد وقبائل المغرب الأوسط تحت رايته، فاتسع «نطاق ملكه، وأصبح ملك زناتة بعد أن كان ملك بني مرين، وسلطان العدوتين بعد أن كان سلطان المغرب».[67]

5. المتغيرات الجديدة في تاريخ الدولة: هزيمة طريف، ونكبة القيروان، والطاعون الجارف

لم تدم نشوة النصر طويلا، إذ اصطدم طموح أبي الحسن بهزيمة طريف سنة 741هـ/1340م التي «محق الله بها المسلمين حسبما هو مشهور، وأهلكت نفوسهم»،[68] وانتهت بها مرحلة التدخل المغربي الرسمي في الأندلس لحساب العمل الجهادي التطوعي، ونعى المرينيون رغبتهم في بسط سلطتهم على العدوة الاندلسية،[69] وبرزت بالمقابل الرغبة في التوسع شرقا نحو تونس الحفصية التي اضطربت أوضاعها بعد وفاة السلطان أبي بكر الحفصي سنة 746هـ/1347م.[70] وبالرغم من أن أبا الحسن تمكن من اقتحام العاصمة الحفصية في ظرف وجيز، فإن جيوشه ما لبثت أن تلقت هزيمة جديدة قرب القيروان عام 749هـ/1348م[71] أمام القبائل العربية التي اعتز أمرها في هذه المرحلة، وتدمرت من إصلاحات أبي الحسن التي أفقدتها سلطتها على بوادي إفريقية.[72]

Scanned by CamScanner

وبانهزام السلطان المريني في هذه الوقعة تقدم ابنه أبو عنان للبيعة، واستلحق فلول الجند التي التحقت به بعد الهزيمة،[73] واستعاد الزيانيون عاصمتهم تلمسان،[74] وعاد الأمراء الحفصيون إلى تونس.[75] ولم تكلل محاولات السلطان أبي الحسن، بعد أن نجا من غرق أسطوله في البحر المتوسط،[76] باستعادة ملكه من ابنه أبي عنان بالنجاح، فقد انهزم أمامه بالقرب من نهر أم الربيع سنة 751هـ/1350م.[77]

وافق هذه الاضطرابات ظهور الطاعون الأسود الجارف بالمغرب سنة 749هـ/1348م،[78] الذي طبع ببصماته الواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي لهذه المرحلة بطابع سلبي، لأنه «تحيف الأمم، وذهب بأهل الجيل، وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها، وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها، فقلص من ضلالها وفل من حدها، وأوهن من سلطانها، وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أحوالها، وانتقض عمران الأرض بانتقاض البشر، فخربت الامصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم، وخلت الديار والمنازل، وضعفت الدول والقبائل».[79] وهي المعالم العامة لمغرب ما بعد عهد السلطان أبي عنان (752–759هـ/1351–1357م).

حاول أبو عنان إتمام ما بدأه والده، فاستعاد تلمسان سنة 753هـ/1352م،[80] وبسط سلطته لمدة قصيرة على معظم بلاد المغرب الأوسط، ووجه أنظاره نحو إفريقية لاستعادة تجربة والده، إلا أنه لم يتمكن من اقتحام العاصمة تونس، وتوقفت حملته قبل الوصول إليها بسبب انكشاف الجيش عنه ورفضه الاستمرار في هذه الحملة، فـ«تمشت رجالاته في الانفضاض، وداخلوا الوزير بن ميمون فوافقهم عليه، وأذن المشيخة والنقباء لمن تحت أيديهم من القبائل في اللحاق بالمغرب حتى تفردوا، وأنهى إلى السلطان أنهم تآمروا على قتله، فرأى قلة العساكر، وعلم بانفضاضهم، فكر راجعاً إلى المغرب».[81] ولم يستمر حكمه إلا قليلا إذ مات مخنوقا على يد أحد وزرائه سنة 759هـ/1357م،[82] ليدخل المغرب عقب ذلك في مرحلة طويلة من الانهيار والانحطاط في جميع الميادين.

6. مرحلة التراجع والأفول (759–869هـ/1357–1465م)

اتسمت هذه المرحلة، التي امتدت أكثر من قرن من الزمن، بتعدد الانقلابات والحروب والفتن والتمردات والاغتيالات بإيعاز من الوزراء وكبار رجال الدولة في حق السلاطين الذين تعاقبوا على الحكم، كما يبدو من خلال هذا الجدول:

Scanned by CamScanner

جدول رقم 1: سلاطين بني مرين ما بين 759-869هـ/1357-1465م[83]

اسم السلطان	طبيعة وفاته	المصدر والصفحة
أبو بكر محمد السعيد بن أبي عنان	خلع يوم الثلاثاء 12 شعبان سنة 760هـ/1358م ومات غرقا في البحر.	روضة النسرين، ص. 37.
أبو سالم إبراهيم بن علي	قتل يوم الخميس 21 ذي القعدة سنة 762هـ/1360م.	روضة النسرين، ص. 41.
أبو عمر تاشفين بن علي	خلع يوم الاثنين 21 صفر سنة 763هـ/1361م.	روضة النسرين، ص. 42.
أبو زيان محمد (الثاني) المنتصر بن أبي عبد الرحمان	مات غرقا بالسانية في روض الغزلان بفاس يوم الأحد 22 ذي الحجة عام 767هـ/1366م.	روضة النسرين، ص. 43.
أبو فارس عبد العزيز المستنصر بن علي	توفي يوم الخميس 22 ربيع الآخر سنة 774هـ/1372م.	روضة النسرين، ص. 43.
أبو زيان محمد الثالث السعيد بن عبد العزيز	خلع يوم الأحد 6 محرم سنة 776هـ/1374م.	روضة النسرين، ص. 44.
أبو العباس أحمد المستنصر بن إبراهيم (بفاس)	خلع يوم الأحد 30 ربيع الأول سنة 786هـ/1384م.	روضة النسرين، ص. 45.
موسى بن أبي عنان المتوكل على الله أبو فارس	مات مسموما يوم الجمعة 3 رمضان عام 788هـ/1386م.	روضة النسرين، ص. 47.
أبو زيان الثالث محمد المنتصر بالله بن أحمد	خلع يوم الجمعة 15 شوال عام 788هـ/1386م.	روضة النسرين، ص. 47-48.
أبو زيان الرابع الواثق بالله محمد بن أبي الفضل	خلع يوم الخميس 5 رمضان عام 789هـ/1387م.	روضة النسرين، ص. 48.
أبو العباس أحمد بن أبي سالم	توفي ليلة الخميس 7 محرم عام 796هـ/1393م.	روضة النسرين، ص. 49.
المستنصر بالله أبو فارس عبد العزيز	توفي يوم السبت 8 صفر عام 799هـ/1396م.	روضة النسرين، ص 50.
المستنصر بالله أبو عامر عبد الله	توفي يوم الثلاثاء 30 جمادى الأخرى عام 800هـ/1397م.	روضة النسرين، ص. 51.
أبو سعيد عثمان الثاني	قبض عليه أهل فاس وسجنوه، واستمر في سجن خلفه إلى أن مات (!) عام 823هـ/1420م.	الاستقصا، ج. 4، ص 94.
عبد الحق بن أبي سعيد	قتل من قبل أهل فاس، حيث ضربت عنقه يوم 27 رمضان عام 869هـ/1464م.	الاستقصا، ج. 4، ص. 99.

وخلال هذه الفترة تعاقبت على المغرب الأقصى فترات طويلة من الحروب والفتن والاضطرابات، التي لم تكن تنتهي واحدة منها إلا لتبدأ أخرى، في مختلف المناطق، سواء

Scanned by CamScanner

بين الأمراء المرينيين حول السلطة ومكاسبها،[84] أو بين الدولة وبعض المتنزين الذين استغلوا تقلص ظلها على مناطقهم فأعلنوا تمردهم.[85] فضلا عن تحرشات القبائل ذات النجعة،[86] وعما رافق ذلك كله من ضروب الغصب والتعدي وافقت في أغلب مظاهرها ما يميز الفترة الأخيرة من عمر الدولة، عادة، «من العدوان في الأموال (...) أو الفتن الواقعة في انتقاض الرعايا، وكثرة الخوارج لهرم الدولة»،[87] وكانت أبرز نتائجها «قبض الناس أيديهم عن الفلح في الأكثر».[88] وخلال هذا العهد الطويل من التدهور الشامل انحسر ظل المغرب بعد انتشار، حيث بلغت الهجمات المسيحية إلى الشواطئ المغربية، فاحتل البرتغاليون مدينة سبتة سنة 818هـ/1415م،[89] لتتبعها فيما بعد مدن ساحلية أخرى.

ولا شك أن هذا الوضع المضطرب والمتسم بعدم الاستقرار يثبت أن هزيمة طريف ونكبة القيروان فضلا عن النتائج الكارثية للطاعون الأسود، لا تقل في وقعها ونتائجها عما خلفته هزيمة العقاب، ويؤكد أن القرن 8هـ/14م اقترن بما سماه ابن خلدون بعهد الانقلاب والتبدل بالجملة،[90] مما يجعل أحداث هذا العصر تندرج في إطار «أزمة القرن الرابع عشر»،[91] الذي عده البعض من أسوأ العصور التي عرفتها حضارات البحر الأبيض المتوسط.[92]

المبحث الثاني: «الحرب والمجتمع» بين «علم البوليمولوجيا» و«علم الاجتماع العسكري»: جدلية المفهوم والتخصص العلمي

منذ أقدم العصور، مروراً بزمن هذا البحث، إلى يومنا هذا، عبرت الحرب عن نفسها في الواقع بالأحداث العسكرية من دعاية وتقنية وقتال، وبالأحداث السياسية من استراتيجيات وتحالفات واتفاقيات. غير أن وراء هذه الأحداث الظاهرة، كشفت الحروب في مسارها وتطورها ونتائجها عن حقائق اجتماعية عميقة، بحيث لا تعد تلك الأحداث الظاهرة أكثر من إفراز محدود لها.[93] وإنه لمن المفارقة الغريبة أن يكون ما أنتج في معرفة الحرب من جانب حقائقها الاجتماعية أقل بكثير، إذا صحت المقارنة، مما أنتج في دراسة أحداثها، وفهم تقنياتها واستراتيجياتها؛ فما قيل في حق الحرب من حيث هي ظاهرة اجتماعية ضئيل، وما أنتج من معرفة نظرية متخصصة بها لا يزال رهين عثرات البداية، إذا ما قابلناه بالمعرفة القانونية والفلسفية والتقنية وحتى النفسية والانتروبولوجية المتخصصة في قضايا الحرب والنزاعات التي حققت إنجازات هامة.[94]

Scanned by CamScanner

ولا شك أن معالجة موضوع «الحرب والمجتمع» ليس بالأمر الواضح المعالم، فالمصطلح كما هو مصوغ يحوي عددا من الصعوبات التي أود أن أشرحها بإيجاز، لكي أبرر هذا الربط الجدلي بين ثنائيتيه، وأشرح مدخلي إليها؛ فمجمل الظواهر التي يمكن أن تندرج تحت هذا المصطلح أو سوسيولوجيا الحرب، لا تشكل موضوعاً واضحاً للدراسة، يقره كل المتخصصين في هذا المجال، ولو أن الأمر كان كذلك لكنا اكتفينا بطرح تعريف عادي يلقى قبولا عاماً، ثم نحاول، انطلاقا من هذا التعريف، تبويب وتنسيق المحاور الرئيسة التي يمكن أن يتضمنها هذا التعريف وتنسيقها، غير أن تلك المسألة تظل مستبعدة بالنسبة لدراسة الحرب من جانبها السوسيولوجي.[95]

أولا: الحرب، على سبيل التعريف

ارتبط مفهوم الحرب تاريخيا بمفاهيم العنف والقوة والصراع، وبهذه المعاني عرفت الحرب في كثير من القواميس اللغوية الحديثة،[96] غير أن التحديدات اللغوية التي وضعتها تلك المعاجم، بالرغم من انطلاقها من مفهوم الصراع باعتباره قاعدة مميزة للسلوك الحربي، تثير أسئلة مرتبطة بشروط التعريف الذي يتطلب وضوحاً أكبر، وتعريفا أدق يتيح لنا تحديد ميادين البحث في هذا المجال، ومن هذه الأسئلة، كيف تتميز الحرب من غيرها من ظواهر العنف والصراع؟ وما هي سمات هذه الظاهرة وحدودها؟

يرى جاستون بوتول (Gaston Bouthoul)[97] أن ثمة اتجاها عاما، في تعريف الحرب، لإدماج هذه الظاهرة في جملة ظواهر الخلاف والصراع، غير أن عمومية الفكرة تعقد المسألة بدلا من توضيحها؛ لأن الأمر سوف ينتهي إلى وضع كلمة «صراع» كتعريف لأشد الأفعال تباينا واختلافا. يبدو ذلك واضحاً في تعريف بعض الموسوعات لظاهرة الحرب؛ فقد اعتبرتها دائرة المعارف «بقية من بقايا تنازع الطوائف البشرية على الحياة (...) والوجود كله في حالة تدافع أو حرب مستمرة، فما نبات البذور التي ترميها إلى الأرض إلا أثر حرب شنتها القوى المودعة في تلك البذور بمساعدة الحرارة والضوء على ذرات التراب فحللتها (...) ولو تخطيت هذا العالم المنفعل إلى ما فيه إثارة من الروية والاختيار كعالم الحيوان لرأيت مظاهر الحروب أظهر، وأفاعيلها أكبر».[98] ولتجاوز هذا الخلط يقترح بوتول[99] أن يتم التمييز بين الحرب وأشكال الصراع الأخرى من زاويتي التنظيم والإدارة؛ فالحرب تفترض، على عكس أنواع الصراع الأخرى، وجود عدو نشيط منظم، كما تتضمن تبادلا للفعل الإرادي.

Scanned by CamScanner

ولأن ثمة ظواهر عدة من الصراع التي تأخذ المعنى المشار إليه من مثيل المبارزة واللصوصية والجريمة الفردية، يضع كثير من المهتمين بظاهرة الحرب سمات عدة، وحدودا لابد من توفرها لتأخذ معناها المقصود. وأول هذه السمات صفة الكثرة؛ فظاهرة الحرب ظاهرة جمعية تحدث بين جماعات.[100] ولصعوبة تحديد العدد الذي يمكن أن يتحول فيه عنف متبادل وصراع بين طرفين من مجرد مبارزة أو نزاع فردي إلى ظاهرة جمعية، أي إلى حرب، يعترف هؤلاء بضرورة اتخاذ ضابط مرن كل المرونة فيما يتعلق باتساع الجماعات التي تواجه بعضها البعض في نزاع حربي،[101] إذ يمكن أن تكون هذه الجماعات ضخمة كما هو الحال بالنسبة للدول والممالك والامبراطوريات، ويمكن أيضا أن تكون ضئيلة دون أن تفقد صراعاتها بذلك، صفة الحرب الحقيقية مثل حروب القبائل والجماعات الصغرى.[102]

ومن التعاريف التي صيغت بناءً على الصفة الجمعية للحرب تعريف مارتن (Marten)[103] الذي اعتبر أنها «صراع بين الناس»، أما فون بوجسيلا فسكي (Von Bogulslawski)،[104] فعدها «المعركة التي تشنها جماعة معينة من الرجال أو القبائل أو الأمم أو الشعوب أو الدول ضد جماعة مماثلة أو شبيهة لها»، في حين يضيف لاجورجيت (La gorgette)[105] سمتين أساسيتين لابد أن تتوفرا في شكل الصراع ليسمى حربا وهما الرغبة أو الإرادة ثم التنظيم؛ لذلك يعرف الحرب بأنها «حالة من الصراع العنيف الذي يقوم بين جماعتين، أو عدة جماعات من أفراد منتمية إلى نفس النوع بناء على رغبتهم أو إرادتهم».

وتثير التعاريف السابقة مسألة ذات بال تتعلق بقضية التكافؤ بين الجماعات المتحاربة، ففي رأي المنظرين للحرب، لا يكون العنف أو الاقتتال حربا بالمعنى النظري، أي معنى الدفاع والهجوم إلا في نطاق سياسة مدنية متفرعة عن نظام اجتماعي مدني متميز بأنظمته وصناعاته وعلومه؛ فبقدر تنظيم الجماعة في أساس قومي دستوري، تصبح الحرب دفاعية في جوهرها، وتنتفي الحرب الهجومية بمعنى المباغتة والخطف والغصب.[106] يقول أحد المنظرين لهذه الظاهرة «إن الدول الاستبدادية تهاجم بعضها البعض ولا تحارب، وأما الحرب الحقيقية فتكون بين الأنظمة الملكية الدستورية وحدها».[107] فالحرب إذن بالنسبة لهؤلاء تشترط التكافؤ والتنظيم، فلا يمكن الحديث عنها إلا إذا افترضنا أنها تجري بين قوتين متكافئتين تنظيما وتسليحاً وحماساً، أي داخل النظام الاجتماعي نفسه، أما إذا كان

Scanned by CamScanner

التصادم بين قوتين مختلفتين تمام الاختلاف، فلا تدخل حينئذ بأي حال تحت ضبط العقل، إذ تعد إذ ذاك من باب الكوارث الطبيعية التي لا ينفع فيها التأهب والتحسب، ولا تستحق أن تسمى حرباً. وإن أفرزت في النهاية نتائج مماثلة لنتائج الحرب من انتصار أو انهزام.[108] ونعتقد أن الأمر يتعلق هنا بتصور أصبح الآن في عداد التصورات المتجاوزة؛ لتعقد ظاهرة الحرب، وصعوبة إدماج كافة أنواع الحروب داخل هذه المنظومة، بما في ذلك حروب القبائل.[109]

وبعيدا عن هذا الاتجاه، ركز دارسون آخرون على الجانب التشريعي والقانوني للحرب فوضعوا عنصرا أساسيا اشترطوا توفره في أي نزاع ليأخذ صفة الحرب،[110] ويتعلق الأمر بالصفة التشريعية؛ إذ الحرب «عقد» صحيح بين جماعتين أو جماعات تحكمها قواعد دقيقة دقة كبيرة أو ضئيلة، أو قانون صريح أو عرفي.[111] وأشهر التعاريف التي تأخذ بعين الاعتبار الصفة التشريعية للحرب، تعريف كنسي رايت (Quincy wright)[112] الذي يعتبر أن «الحرب هي الأساس القانوني الذي يتيح لجماعتين، أو عدة جماعات متعادية، أن تحل النزاع فيما بينها بقواتها المسلحة». وهو ما نجد له صدى في بعض القواميس السياسية، من قبيل من يقر أن «الحرب من حيث الواقع حالة قانونية معترف بإمكان قيامها، كوسيلة لفض المنازعات»[113].

ويميل كلاوزفيتز (Clausewitz)،[114] أحد المنظرين المشهورين لظاهرة الحرب، إلى التركيز أكثر في تعريفه لهذه الظاهرة، على جانب الأهداف؛ إذ يعتبر أن الحرب «عمل من أعمال العنف، يستهدف إكراه الخصم على تنفيذ إرادتنا. ويتسلح العنف في مواجهته للعنف، بالفنون والعلوم، ويقترن بقيود صغيرة تكاد لا تذكر، تأخذ اسم قوانين حقوق الأفراد. إلا أن هذه القيود لا تضعف من فاعلية العنف، فالعنف بمعنى العنف البدني هو إذن الوسيلة، أما الغاية فهي فرض إرادتنا على الخصم». ولكي تتحقق هذه الغاية، ينبغي نزع سلاح العدو. ونزع السلاح هذا هو بالتعريف هدف العمليات الحربية الخاص، ويتخذ هذا الهدف مكان الغاية ويبعدها، إذا صح التعبير، كأنها شيء لا يمت إلى الحرب نفسها بصلة.[115]

وجدير بالإشارة أن ظاهرة الحرب لم تنل أي اهتمام من قبل المعاجم والقواميس الاجتماعية والفلسفية، على الأقل في جانب التحديد والتعريف، فقد أدمجتها على ما يبدو ضمن مفاهيم العنف والقوة والصراع،[116] ولعل ذلك ما حدا ببعض المنظرين لهذه الظاهرة

Scanned by CamScanner

إلى أن يقترح تعريفا يأخذ الجانب الاجتماعي للحرب بعين الاعتبار؛ فعرفها على أنها «صراع مسلح ودموي بين جماعات منظمة»117؛ ويضيف موضحاً أن «الحرب صورة من صور العنف لها خاصية أساسية هي أنها منهجية ومنظمة بالنسبة للجماعات التي تقوم بها، وبالنسبة للطرق التي يديرونها بها، وهي قواعد تتغير وتتبدل لأقصى حد تبعاً للأماكن والعصور، وتكمن خاصيتها الأخيرة في كونها دامية، إذ أنه عندما لا تؤدي الحرب إلى تدمير حيوات بشرية، لا تعدو أن تكون نزاعاً، أو تبادل تهديدات»118.

ونحن في غنى عن التأكيد أن هذا التعريف الأخير، على أهميته، يبدو متأثرا بالنزعة السلمية التي انتشرت في أوربا بعد الحرب العالمية الثانية، وما أفرزته من نتائج ديموغرافية خطيرة عجلت ببروز تيارات فكرية تركز على الآثار الديموغرافية للحرب دون غيرها119؛ فقد عرف بعضهم السلم بأنه الهدوء في إطار النظام، وهو الحالة التي تكون فيها نسبة الموتى نتيجة القتل الجماعي ضئيلة إلى أدنى الحدود،120 بينما عرفت الحرب بأنها العنف الهائج والمنظم، أو المجابهة الدموية بين مجموعات داخلية أو دولية، وهي أيضا الحالة التي تكون فيها نسبة الموتى بالقتل الجماعي مرتفعة جداً من الناحية العددية.121 وفي جميع الحالات، فالحرب في نظر أصحاب هذا الاتجاه هي التي تكون فيها الخسائر البشرية المقياس الكمي الأكثر اعتبارا دون غيره من المقاييس أخرى.122

ومهما يكن من أمر، يمكن القول إن الحرب هي صورة من صور الصراع بين الجماعات البشرية الذي يتميز بخصوصيته الجمعية والتنظيمية، وتحكمه قواعد محددة دقيقة دقة كبيرة أو ضئيلة، وإرادة معينة تحدد غايته، وتتخذ من العنف الهائج وسيلة لتحقيقها، لكن هذا الصراع أيضا ينتج آثارا عامة في الجماعات التي تمارسه، والمجتمعات التي يحدث فيها، ولحجم هذه الآثار وكثافتها فإن أي تعريف لا يأخذ مخلفات الحرب بعين الاعتبار سيظل قاصرا عن إدراك حقيقة هذه الظاهرة ودراستها علميا.

ثانيا: «الحرب والمجتمع»، جدلية المفهوم والتخصص العلمي

«الحرب والمجتمع» مصطلح توسع استعماله مؤخرا، وأسرف في تداوله من قبل السوسيولوجيين والمؤرخين، الغربيين على وجه الخصوص، للتعبير عن رد فعل علمي حيال نوع من المؤلفات التي تناولت الحروب والمعارك، ودرستها من زاوية العسكري المحترف، ومالت إلى فصل الجانب القتالي من الحرب عن إطارها التاريخي الكلي، وسعت إلى دراسة

Scanned by CamScanner

الحروب والمعارك والجيوش دون أي اهتمام بطبيعة صلاتها بالمجتمع الذي نشبت فيه الحرب وقامت لأجله.[123]

ويؤكد جيفري بيست (Best, Geoffrey) محرر سلسلة «تاريخ الحرب والمجتمع في أوربا» التي أصدرت جملة من الأبحاث في هذا المجال،[124] أن لرواج دراسات «الحرب والمجتمع» حديثا صلة وثيقة، بلا ريب، بالرغبة في إعادة «البعد العسكري» كله للاستعداد للحرب وإدارتها إلى إطار التاريخ. وكان هذا إلى حد ما، وبلا شك، رد فعل مدني يتصل بالاعتقاد في أن الحرب والحياة العسكرية بالرغم من أنها قديمة ومثيرة للإعجاب، حتى إنها تبدو «اعتيادية»، إلا أنها تستحق بحثا انتقاديا أكثر مما بدا أن العسكريين مستعدون لتنفيذه.[125]

وعلى الرغم من أن بيست في تفسيره هذا لاتساع قاعدة الأبحاث في مصطلح «الحرب والمجتمع»، يدنو من الموضوع مباشرة على أساس من الحكم الأخلاقي،[126] ويبرر رواج تلك الدراسات بكونها تمثل رد فعل أخلاقي تجاه شيء يبدو غير مقبول، وينحو بذلك إلى تحكيم الذات في قضية معرفية من جانب التمجيد أو التجريم، إلا أن الملاحظ أن معظم من صدعوا بأهمية البحث في هذا المفهوم، وأنجزوا أعمالا فيه قد أسسوا لمعرفة علمية تكاد تتمتع باستقلالية ابستيمولوجية عن غيرها من المعارف والعلوم.

وقد كرس عدد هام من علماء الاجتماع والمؤرخين في العقدين الأخيرين جهودهم لدراسة قضايا «الحرب والمجتمع»، ويكفي إلقاء نظرة سريعة على مجلة «القوات المسلحة والمجتمع» Armed forces and Society التي تستعرض المطبوعات الدورية والأبحاث المسجلة في الموضوع، ونشرة «الحرب والمجتمع» Newsletter War and Society، لتبين عددهم الكبير، وأنواع الأبحاث التي أنجزوها.[127] كما أصدر العديد من الباحثين أعمالا متعددة في هذا المجال،[128] وتحول موضوع «الحرب والمجتمع» إلى مسلك يدرس في الجامعات الأوربية،[129] وأنشئت من أجله وحدات للبحث والتكوين،[130] وعقدت عنه ندوات ومؤتمرات،[131] مما يبرز الأهمية التي أضحت لهذا المصطلح ومواضيعه في مجال الدراسات السوسيولوجية والتاريخية في أوربا والولايات المتحدة الأمريكية على الأقل. وإنه لمن الأسف أن يجد الباحث نفسه أمام فراغ مهول في مجال البحث في قضايا «الحرب والمجتمع» بالنسبة للمجال العربي الإسلامي.

Scanned by CamScanner

يهدف المهتمون بقضايا «الحرب والمجتمع» إلى تلمس العوامل الكامنة وراء اندلاع الحروب والنزاعات وإبرازها، وكذا البحث في آلياتها وميكنزماتها وأهدافها.[132] ثم دراسة آثارها الاقتصادية والاجتماعية والذهنية والأخلاقية والسياسية.[133] وذلك من خلال طرق ثلاث حالات أساسية لأي مجتمع في علاقته بالحرب، وهي حالة المجتمع قبل الحرب وأثناءها وبعدها، أو بمعنى آخر، النظر بالدراسة والتحليل لمجتمع الحرب، ومجتمع ما قبل وما بعد الحرب.[134]

ونظرا للأهمية التي يكتسيها الجيش في مواضيع «الحرب والمجتمع»، فإن الباحثين يهتمون في هذا المجال بدراسة موقع القوات المسلحة ضمن هذه المنظومة، فيسعون إلى بيان تغلغل هذه المؤسسة في المجتمع، والأسباب التي تفضي أحيانا إلى استحواذ عقيدة عسكرية الاتجاه على المجتمع بحيث يصبح كل فرد من أفراده جنديا، وتضحى طاقات المجتمع في مجملها موجهة لخدمة الأغراض العسكرية.[135]

تمثل هذه القضايا في جملتها، وهي تشكل أبرز ميادين «الحرب والمجتمع»، أو سوسيولوجيا الحرب، موضوعاً لعلم جديد لم تكتمل بعد معالمه وحدوده بالمعنى الابستيمولوجي، نظرا لتعقد ظاهرة الحرب وتنوعها وتعدد طرائق دراستها وفهمها، ويتعلق الأمر بعلم الحروب (Polémologie)[136]؛ الذي يسعى إلى دراسة الحرب من حيث هي «ظاهرة اجتماعية»[137] أو «حالة اجتماعية» تتيح فرصة ظهور أنماط من السلوك والعلاقات يتعذر أن تشهدها حالة مقابلة هي حالة السلم.[138] ويسعى هذا العلم، حسب مؤسسيه، إلى طرق العلاقة بين الحرب والسلم في حياة الشعوب، ودراسة أشكال الحروب والنزاعات، والكشف عن الأسباب الكامنة وراء تعاقبها وتكرارها، وكذا في الوظائف الاجتماعية للحرب وآثارها المختلفة على الأفراد والجماعات.[139] وبالجملة، فإن علم الحروب يهتم بدراسة مختلف القضايا المرتبطة بالحرب في علاقتها بالمجتمع.[140]

أما التجديد الهام الذي أتى به هذا العلم، فيتمثل أساسا في مستوى المنهج، إذ بدلا من دراسة الحرب وتناولها كظاهرة تدخل في إطار الأخلاق أو الفنون أو الفلسفة أو القانون أو الاقتصاد، ينبغي سبر أغوارها باعتبارها ظاهرة اجتماعية، ومحاولة إخضاعها لطرق الملاحظة والوسائل التجريبية التي تخضع لها دراسة الظواهر الطبيعية، أي البحث في ماهية الحرب وطبيعتها ووظائفها والأدوار التي تؤديها، والنتائج التي تخلفها.[141]

Scanned by CamScanner

وقد أفضى تعدد محاور البحوث المتعلقة بقضايا «الحرب والمجتمع» إلى إعادة تعريف وتشكيل التخصصات العلمية التي تعتبر هذا الميدان مجالا لأبحاثها، وفي هذا السياق يهمنا أن نؤكد التداخل الحاصل بين علم الحروب (Polémologie) وعلم الاجتماع العسكري،[142] فكل منهما يعتبر «الحرب والمجتمع» حقلا لدراساته وأبحاثه.[143]

ويعرف أحد المختصين علم الاجتماع العسكري بكونه التخصص الذي «يعتمد على البحوث النظرية والإمبريقية في دراسة القوات المسلحة كتنظيم اجتماعي، والعلاقات الاجتماعية داخلها وعلاقتها بالمجتمع، والحرب كإحدى وسائل حل الصراعات بين الجماعات والطبقات والأمم وداخل الدولة ذاتها».[144] ويكشف باحث آخر عن تعاريف عدة لهذا العلم الجديد يركز كل تعريف منها على جانب معين من جوانب القوات المسلحة والمجتمع[145]؛ ومنها التعريف الذي يؤكد أن علم الاجتماع العسكري هو الذي يدرس العلاقة الجدلية بين الجيش والمجتمع من جانب الأخذ والعطاء، والفعل ورد الفعل بين الطرفين.[146] ثم التعريف الثاني الذي ينص على أنه العلم الذي يدرس السلوك الاجتماعي في القوات المسلحة.[147] أما التعريف الثالث فهو الذي يجعل علم الاجتماع العسكري مهتما بدراسة طبيعة الخلفية الاجتماعية للظاهرة العسكرية وآثار الظاهرة على المجتمع.[148]

ويبدو من خلال هذه التعاريف أن سوسيولوجيا الحرب تمثل أحد الميادين الأساسية لعلم الاجتماع العسكري، ولا غرو فقد اعتبرها أحد الدارسين أبرز مواضيع هذا العلم، إلى جانب المهنية والتنظيم والأنشطة العسكرية في علاقتها بالمجتمع، ثم العلاقات المدنية-العسكرية.[149]

يهتم علماء الاجتماع العسكري بالحرب من حيث هي ظاهرة عسكرية يتكرر وقوعها، وتحدث آثارا على مجريات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والحضارية لعدد كبير من الناس أولهم العسكريون.[150] وكما يهتم هؤلاء بتتبع جذور هذه الظاهرة وأسبابها، فإنهم يبحثون أيضا في نتائجها الاجتماعية بنوعيها السلبي والإيجابي.[151] وفي كل الأحوال، فإنهم ينطلقون من قاعدة رئيسة هي أن الحرب مؤسسة اجتماعية لها أحكامها ونظمها وتقاليدها وأساليبها وأهدافها.[152]

وكيفما كان الحال، فبالرغم من إصرار بعض المتخصصين في علم الاجتماع العسكري على تأكيد خصوصية هذا العلم، وعدم ارتباطه بقضايا «الحرب والمجتمع»،[153] فإننا نعتقد

Scanned by CamScanner

أن المواضيع التي طرقها الباحثون في هذا التخصص العلمي لم تبتعد قيد أنملة عن مواضيع، ومرد ذلك، على ما يبدو، إلى أن الظاهرة العسكرية والسلوك الاجتماعي داخل المؤسسة العسكرية يجدان بمظهراتهما في حالة الحرب أكثر من حالة السلم.[154] وبمعنى أدق فإن ظاهرة الحرب تتيح فرصة ظهور أنماط من السلوك والعلاقات يتعذر أن تشهدها حالة مقابلة هي حالة السلم،[155] خاصة إذا تعلق الأمر بالسلوك والعلاقات داخل النسق العسكري ومجتمع القوات المسلحة.

ويكفي أن نقدم عرضا مختصراً لأهم القضايا التي حددها علماء الاجتماع العسكري كميادين أساسية لهذا العلم لتبين مدى ارتباطها الوثيق بمفهوم «الحرب والمجتمع»؛ فقد اعتبر هؤلاء أن علم الاجتماع العسكري يهتم أساسا بما يمكن تسميته بالمهنية العسكرية كمهنة شأنها شأن المهن الأخرى، وفي كيفية ظهورها، والعملية التي تمر بها، وكيف تكسب مشروعيتها في المجتمع، ودور التحولات التاريخية والاقتصادية والقوى الاجتماعية في تحديد التنظيم الداخلي والتجنيد في القوات المسلحة، وفي طرق التنشئة والتربية العسكرية.[156] كما يهتم هذا العلم بالتنظيم العسكري بوصفه أبنية تعمل على تنسيق أنشطتها لتضمن النصر في ميدان القتال، ولتأخذ شكل مؤسسات دائمة تحافظ عليها في وقت السلم.[157]

ويرمي علم الاجتماع العسكري إلى دراسة الأنشطة العسكرية في علاقتها بالمجتمع، وفي أوجه التبادل والحاجات المتبادلة بينهما، وطرق تدبير القوات المسلحة لمصادر القوة البشرية والمادية التي يزودها بها المجتمع، وكذا في الحراك والتدرج العسكري، وتوزيع الوظائف بين الأفراد المدنيين والعسكريين، وتأثير ذلك على المجتمع كله.[158] كما يهدف إلى تتبع أوجه الاتصال والتناقض والصراع بين الجيش والمجتمع، وفي وسائل تغلغل العقيدة العسكرية في المجتمع، ومظاهر ذلك التغلغل.[159]

وفي كل الأحوال، وسواء تعلق الأمر بعلم الحروب أو بعلم الاجتماع العسكري، فقد وفر هذان التخصصان العلميان الحديثان مادة منهجية هامة للباحثين والمؤرخين الذين يسعون إلى طرق ظاهرة الحرب في علاقتها بالمجتمعات من زاويتها التاريخية. وفي هذا الاتجاه تسعى دراستنا إلى الاستفادة من هذه الطفرة المنهجية التي تقدمها هذه التخصصات العلمية في الكشف عن أوجه العلاقة بين الحرب والمجتمع في مغرب العصر المريني، وقبل ذلك يجدر بنا أن نلقي نظرة على أهم الملامح الأساسية لتشريع الحرب بالمغرب الأقصى،

Scanned by CamScanner

حتى ندرك على الأقل فلسفة التنظير للحرب في الفكر الإسلامي، والأوربي المعاصر مع اعتبار اختلاف البنيات الثقافية، والتفاوت الزمني.

المبحث الثالث: الإطار التشريعي للحرب بالمغرب الأقصى

أولا: الحرب ومحدداتها في التشريع الإسلامي المالكي

الحرب لغة «القتال بين فئتين... ويقال: قامت الحرب على ساق، اشتد الأمر وصعب الخلاص منه. ورجل حرْب: شديد الحرب شجاع. وحرب لي وعلي: عدو».[160] وقد وردت في المعجم الوسيط كلمة حارب بمعنى قاتل، واحتربوا أي حارب بعضهم بعضا. وهي بتحريك الحاء دلالة على الويل والهلاك؛ إذ يقال واحرباه عند إظهار الحزن والتأسف على الميت. وتأخذ أيضا معاني أخرى أبرزها السلب والغصب؛ فحربه بالكسر، أي سلبه جميع ما يملك. ومعنى الشر والغضب، ويقال: حربت عليه غيري أي أغضبته.[161]

وفي لسان العرب لابن منظور،[162] «الحرب نقيض السلم، أنثى، وأصلها الصفة كأنها مقاتلة حرب... وتصغيرها حريب بغير هاء...وجمعها حروب، ويقال: وقعت بينهم حرب». والرجل المحرب المعروف بالحرب والعارف بها، وفلان حرب فلان أي محاربه. والحرب بالتحريك: نهب مال الإنسان، وتركه لا شيء له. والحارب المشلح أي الغاصب الناهب الذي يعري الناس ثيابهم. والحريبة الغنيمة والسلب.

ويقترن بكلمة «الحرب» في اللغة لفظ آخر هو «القتال»، وإن لم تجعل له المعاجم معنى يقابل الحرب.[163] ومعناه في اللغة قتله إذا أصابه بضرب أو جرح أو سم أو علة، والمنية قاتلة.[164] وكذلك يقترن بها لفظ «الغزو» بمعنى السير إلى قتال العدو وانتهابه وسلبه.[165] وكل هذه المفردات تتمحور حول معنى واحد في اللغة العربية هو قتال العدو، كما أن الحرب يشملها.[166]

وقد وردت كلمة الحرب في القرآن الكريم في غير ما موضع للدلالة على القتال،[167] كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾[168]. وقوله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[169]. وأيضا: ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[170]. وتأخذ بهذا المعنى مفهوم «الصراع المسلح» مع العدو، أي بعيدا عن الطرق السلمية في المعاملة.[171] وهو ما يوضحه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ

Scanned by CamScanner

﴿الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾[172]. وفي الحديث الشريف يقول عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وهو أحد نقباء الأنصار الذين أسست بيعتهم للرسول صلى الله عليه وسلم اللبنة الأولى للدولة الإسلامية، «بايعنا رسول الله بيعة الحرب (...) على السمع والطاعة (...)».[173]

أما القتال، فقد ورد في القرآن الكريم للدلالة المباشرة على النزال والصراع المسلح المباشر،[174] كما في الآيات الكريمة: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾[175]، ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾[176]، ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[177]، ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾[178]. وكما في الحديث النبوي الشريف، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله»[179].

على أن مصطلحي «الحرب» و«القتال»، لم يستعملا كثيراً في المتن التشريعي الإسلامي، بل عقدت مباحثهما وفصولهما دائما وأبداً تحت عنوان ومصطلح آخر هو «الجهاد». يقول ابن خلدون: «إن الحرب أمر طبيعي في البشر، لا تخلو منه أمة ولا جيل، وسبب هذه الحرب إما غيرة ومنافسة، وإما غضب لله ولدينه، وإما غضب للملك وسعيا في تمهيده. فالأول أكثر ما يجري بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة، والثاني وهو العدوان أكثر ما يكون من الأمم المتوحشة الساكنين بالقفر، والثالث وهو المسمى في الشريعة بالجهاد، والرابع وهو حروب الدول مع الخارجين عليها، والمانعين لطاعتها».[180]

الحرب إذن في الشريعة الإسلامية هي «الجهاد»، ومعناه «الجهد وهو المشقة، يقال جهدت الرجل، بلغت مشقته».[181] أو هو «بذل الجهد، وهو الوسع والطاقة أو المبالغة في العمل من الجهد».[182] وفي لسان ابن منظور[183] «الجَهد والجُهد الطاقة، ويقال جاهد العدو مجاهدة وجهاداً قاتله، وجاهد في سبيل الله. والجهاد المبالغة واستفراغ الوسع في الحرب أو اللسان أو ما أطاق من شيء».

ومن ثمة تبدو ملامح التعريف الاصطلاحي للجهاد في الفقه الإسلامي. فقد عرفه ابن رشد (ت. 520هـ/1126م) بكونه «المبالغة في إتعاب الأنفس في ذات الله، وإعلاء كلمته التي جعلها الله طريقا إلى الجنة، وسبيلا إليها».[184] مثلما حدده ابن عرفة (ت. 308هـ

1400/م) بكونه «قتال مسلم كافرا غير ذي عهد لإعلاء كلمة الله، أو حضوره له، أو دخوله أرضه له».[185] وهو بهذا المعنى الحرب التي يعترف بها التشريع الإسلامي «غضبا لله ولرسوله»،[186] ويحض عليها.

ويبدو المفهوم أكثر وضوحا في الفقه الإسلامي لما يتم التأكيد أن الجهاد يشمل مجاهدة النفس ومغالبة الهوى، والنهي عن المنكرات، والصدع بالمعروف، وزجر أهل الباطل، ثم قتال الكفار ومجاهدتهم.[187] غير أن هذا المفهوم غلب في عرف الشرع على جهاد الكفار وقتالهم،[188] و«يقتضي أن لفظ الجهاد إذا أطلق إنما يحمل على هذا النوع بخاصة».[189]

وقد اتفق الفقهاء أن الجهاد فرض على المسلمين،[190] انطلاقا من قوله سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[191]. وقوله عز من قائل: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[192]. إلا أن فرض الجهاد مبدئيا هو من قبيل "فرض الكفاية"[193]؛ وهو ما يفهم من منطوق الآية الكريمة: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[194]. وكذلك انطلاقا من قوله تعالى: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾[195]. ويقرر ابن رشد هذا بقوله إن سول الله صلى الله عليه وسلم لم يخرج قط للغزو إلا وترك بعض الناس، «فإذا اجتمعت هذه اقتضى ذلك كون هذه الوظيفة فرضا على الكفاية».[196]

أما «الكفاية» في الجهاد حسب الفقه المالكي فـ«فرض يحمله من قام به، بإجماع أهل العلم، فإذا جوهد العدو وحميت أطراف المسلمين وسدت ثغورهم، سقط فرض الجهاد عن سائر المسلمين، وكان لهم نافلة وقربة مرغبا فيها».[197] ويعني هذا أن واجب الجهاد يتحقق بأن يعبئ الإمام الثغور والرباطات[198] بمجاهدين أكفاء يمكنهم الوقوف في وجه العدو، وصد هجماته، أو أن يدخل جند المسلمين «دار الحرب»[199] لمقاتلة الكفار في عقر دارهم مرة على الأقل في كل عام على وجه الإصابة، أي إصابة السنة،[200] ومهما احتيج في سد الثغور وصلاح أحوال المسلمين إلى التعهد بأكثر من ذلك فواجب بحسب ما تدعو إليه الحال.[201]

Scanned by CamScanner

غير أن ثمة حالات يتحول فيها الجهاد إلى «فرض عين»، وهي «إذا أطل العدو بلداً أو جانبا من ثغور المسلمين مقاتلا لهم، فيتعين فرض الجهاد حينئذ على كل واحد ممن هنالك من المسلمين في خاصته، وعلى قدر طاقته (...) فإن قصر عدد من هنالك أو قوتهم عن دفاعهم، وجب كذلك على كل من صاقبهم وقرب منهم من المسلمين إعانتهم والنفير إليهم، ثم كذلك أبداً إن غارهم العدو، حتى يعم الفرض جميع المسلمين، أو يقع في استغناء من دون ذلك بمقاومتهم ودفعهم».[202] ويلحق بحالة اقتحام العدو لأرض الإسلام هذه، حالة استنقاذ الأسرى إذا حازهم العدو، وكان على المسلمين قدرة على استرجاعهم بالقتال،[203] وكذلك حالة تعيين الإمام للجهاد، وجعله فرض عين على كل مسلم لضرورة من الضرورات.[204]

أما الحكم فيمن يتوجه إليهم التكليف بعد وجوبه بحسب الأحوال التي قدمناها، فاتفق فقهاء المالكية على أنهم الذكور المسلمون البالغون العاقلون الأحرار سليمو الجسد مع قدرتهم على الإنفاق، واسقطوا التكليف عن غيرهم تنفيذا لقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾[205]، وقوله عز من قائل: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[206]. ويلحق بهؤلاء المعفيين من واجب الجهاد صاحب الدين إن حل، وكان مليئاً أي صاحب قدرة على رد دينه إلا بموافقة غريمه، ومن كان له أبوان ينفق عليهما ويكفلهما إلا بإذنهما.[207]

كما حدد الفقهاء لصحة الجهاد فرائض عدة، أبرزها طاعة الإمام، والغزو مع كل أمير بر أو فجر، والوفاء بالأمان،[208] والثبات عند الزحف،[209] وترك الغلول،[210] وتجنب الفساد كله.[211] كما اشترطوا لجواز الجهاد وصحته شرطا واحدا متى انخرم بطل ولم يصح وهو النية؛ إذ إن من صحة هذا الفرض «وكونه عملا لله وجهاداً في سبيل الله، أن يقصد به وجه الله تعالى، وإعلاء كلمته»،[212] واعتمدوا في ذلك ما صح في الأحاديث الشريفة عن أعرابي أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال «يا رسول الله، الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هي الأعلى فهو في سبيل الله».[213]

Scanned by CamScanner

ثانيا: الجهاد والاقتصاد والمجتمع في التشريع المالكي

تتحدد علاقة الجهاد بالأفراد والمجتمع في ضرورة الإسهام في الحرب ضداً على العدو، وبذل الجهد والطاقة في سبيل الله بالنفس والمال واللسان،[214] وهو ما تؤكده الآية الكريمة: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[215]. فأما الجهاد بالنفس فمعناه خروج المسلم بنفسه للقتال في ساحة الحرب، أو المرابطة في الرباطات والثغور، وهو في نظر الفقهاء أعلى مرتبة، وأعظم أجرا؛ لأنه يتضمن المخاطرة بالنفس.[216]

ويقتضي واجب المشاركة في الحرب وجوب الاستعداد المناسب له، بأن يكون الفرد المسلم على صلة مباشرة ومستمرة بأساليب القتال والمواجهة.[217] وقد تواترت في كتب الجهاد أحاديث شريفة، ودلائل شرعية تؤكد ضرورة إتقان الفرد المسلم أساليب الحرب وتقنيات القتال؛ ومن ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «من ترك الرمي بعد علمه رغبة عنه، فإنها نعمة كفرها»، وبرواية أخرى «من علم الرمي ثم تركه فليس منا، وقد عصى».[218] مما يثبت أن واجب الجهاد لا يتم إلا باكتساب خبرة حربية ملزمة، أساسها تعلم حمل السلاح، وإتقان فنون الحرب والقتال.

وأما الجهاد بالمال، فيعني ضرورة أن يسهم الفرد المسلم في الإعداد المسبق للحرب، والإنفاق في سبيلها، ما دامت في سبيل الله، وذلك عن طريق الإسهام في إعداد السلاح والعتاد والكراع والآلة الحربية، بما في ذلك تموين الجيش وتقديم العون والزاد والعلوفات له،[219] وكذا في تحبيس مال،[220] أو عين[221] أو مركوب.[222] كما يعني أيضا أن يسهم المرء في الإنفاق على عائلة الخارج للجهاد طيلة فترة غيابه،[223] ومن الأحاديث التي تحض على هذا النوع من الجهاد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من جهز غازيا، ومن خلف غازيا في أهله فقد غزا».[224]

وأما الجهاد باللسان، فيتمثل في تحريض الناس على الجهاد والحث عليه،[225] كما يستفاد من منطوق الآية الكريمة: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾[226]. وهو عند بعض الفقهاء، الإخبار عن عورات العدو، والدعاية لضعفه وعجزه، شداً لعزائم المجاهدين، ورفعاً لمعنوياتهم في القتال.[227] ولعل هذا النوع من الجهاد يخص الفقهاء دون غيرهم، كما يبدو

Scanned by CamScanner

من خلال قول الفقيه العزفي: «وأنتم معشر العلماء والصلحاء تلزمكم دون غيركم عهدة التذكير والتبصير (...) وحرضوا على الجهاد عن أرجائكم (...) ولم لا تحرضون بأمكنتكم وتجاهدون قبل الجهاد بألسنتكم».[228]

في كل الأحوال، فقد تداولت كتب الجهاد جملة كبيرة من النصوص الشرعية التي تحض على الجهاد، وترفع من قيمته،[229] ومن ذلك ترديدها لقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[230]. وقوله عز من قائل: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[231].

ومن الأحاديث الشريفة الواردة في كتب الجهاد حضا عليه، ودعوة إليه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «لغدوة في سبيل الله، أو روحة خير من الدنيا وما فيها».[232] وقوله عليه السلام: «تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهادا في سبيلي، وإيمانا بي، وتصديقا برسلي، فهو علي ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة...».[233]

ومن نافلة القول، إن تشريع الحرب في الإسلام أباح للمسلمين غنم عدوهم، والاستيلاء على أمواله وأراضيه فيما يعرف عادة بالغنيمة،[234] وإن لم يجعلها غاية الجهاد ومقصده، بل نتيجة فقط تترتب على الحرب.[235] كما عدت أمرا واقعا يدخل في نطاق إضعاف العدو ومعاقبته، وتعويض ما أنفق على الحرب والقتال، فاعتبر الفقهاء أن المقصود من الجهاد إعلاء كلمة الله تعالى، والذب عن الملة والحوزة، والغنائم تابعة.[236] وبالجملة فالغنيمة ما وصل من العدو، أو كان سببا في وصولها.[237]

والأصل في جواز استباحة أموال الكفار بالاغتنام، وصحة تملك المسلمين ما حازوه منها على وجه الغزو والجهاد، قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾[238]. وقوله عز من قال: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾[239]. وقوله سبحانه: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ﴾[240]. وفي السنة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، الأجر والمغنم».[241]

Scanned by CamScanner

ومعنى الغنيمة في الاصطلاح الفقهي ما أخذ من أموال أهل الحرب عنوة على وجه القهر والغلبة،[242] وبهذا التعريف تتميز عن الأموال التي يأخذها المسلمون من غير قتال ولا معالجة بإيجاف خيل ولا ركاب،[243] مثل «الجزية والخراج ومال الصلح، وعشور أهل الذمة وأهل الحرب إذا اختلفوا في تجارة، وما جلا عنه أهل الحرب خوفا من المسلمين قبل خروج جيش إليهم»،[244] ويعرف ذلك عادة بالفيء انطلاقا من قوله تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[245]. والفرق بين الغنيمة والفيء أن الأولى يجب فيها الخمس الذي سماه الله سبحانه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[246]. ويكون سائر ما بقي منها بعد الخمس لأهل القتال الذين حازوه،[247] والثاني لا يتعين فيه حق لأحد بعينه وإنما يكون جميعه في مصالح المسلمين عموماً.[248]

وقد ذهب الفقهاء إلى تقسيم الغنائم إلى صنفين رئيسين: رقاب الكفار وأسراهم وسبيهم، ثم أموالهم وأرضيهم.[249] فبالنسبة للأرض التي أوجف عليها المسلمون وافتتحوها عنوة، اتفق الفقهاء أن الشرع الإسلامي ينزع ملكية المحارب لها، وتنتقل إلى الفاتحين بمجرد الاستيلاء عليها.[250] وقد رجح الفقهاء المالكية أن الأرض المفتوحة عنوة تصير وقفا على المسلمين، ولا تكون ملكا لأحد،[251] ويصرف خراجها في المصالح العامة للمسلمين، إلا أن يرى الإمام في وقت من الأوقات أن المصلحة تقتضي قسمتها على من أوجف عليها.[252]

وأما الأموال المنقولة فلا خلاف بين الفقهاء وأئمة المذاهب في أنها حق خالص للغانمين بعد أن يؤخذ منها الخمس،[253] ولا خيار للإمام في أمر القسمة.[254] واتفقوا أن من كان حرا ذكرا بالغا عاقلا مسلماً صحيحاً، فإنه يستحق أن يسهم له في المغنم، إذا شهد القتال ما لم يكن تاجراً ولا أجيراً.[255] كما ذهبوا إلى أن العبد والمرأة لا يسهم لهما إذا حضرا القتال بل يرضخ لهما (والرضخ هو العطاء غير الكثير)، وكذلك الصبي إذا لم يطق القتال، ومنعوا الإسهام عن الذمي والمجنون والمريض والأجير إلا في بعض الحالات.[256] أما مقادير السهم فاتفق معظم أهل المذهب المالكي أن للفارس ثلاثة أسهم، سهم له وسهمان لفرسه، وللراجل

Scanned by CamScanner

سهمه. وللإمام أن ينفل الجيش أو بعضهم بمعنى أن يزيد للبعض على نصيبه، إن رأى في ذلك مصلحة تكون للمسلمين.257 وفي الأخير، فإن ما يسلبه المقاتل من المقتول، أو ما يأخذ على وجه الحيلة أو التستر أو السرقة من العدو، فليس ملكا للمحارب بل يضم للغنائم قبل قسمتها.258

وفي صدد تصريف أموال الفيء والخمس المأخوذ من الغنيمة، رأى الفقهاء المالكية أنها توضع في بيت المال لتصرف في مصالح المسلمين259؛ فـ «الفيء وما طاوع الفيء من ذلك أخماس الغنائم وجزية أهل العنوة وأهل الصلح، وخراج الأرض، وما صولح عليه أهل الشرك في الهدنة، وما أخذ من تجار أهل الحرب إذا خرجوا لتجارتهم إلى دار الإسلام، وما أخذ من أهل ذمتنا إذا تجروا من بلد، وخمس الركاز حيث وجد، يبدأ في تفريق ذلك بالفقراء والمساكين واليتامى وابن السبيل، ثم يساوى بين الناس فيما بين شريفهم ووضيعهم، ومنه يرزق والي المسلمين وقاضيهم، ويعطى غارمهم، وتسد ثغورهم، وتبنى مساجدهم وقناطرهم، ويفك أسيرهم وما كان من كافة المصالح التي لا توضع فيها الصدقات».260

ثالثا: دور التشريع الحربي الإسلامي في حماية المدنيين

لما كانت العلة في الجهاد لدى جمهور الفقهاء هي الحرابة والمقاتلة والاعتداء وليس الكفر،261 وأن الحرب في الإسلام ضرورة ملحة محصورة في نطاق محدد هي أن تكون في سبيل إعلاء كلمة الله، ومن منع هذا قوتل باتفاق المسلمين،262 فإن تشريع الحرب في الإسلام أقر أن المسلمين لا يقاتلون إلا من قاتلهم، وغير المقاتل لا يجوز قتاله، وإنما يلتزم معه جانب السلم؛ يقول ابن المناصف،263 إن الجائز باتفاق المسلمين في النكاية في العدو هو«قتل مقاتلتهم في الزحف، وسلب أموالهم، ووطء بلادهم حال القتال»، بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾264، وما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «أنه عليه الصلاة والسلام نهى عن قتل النساء والصبيان، وقال في امرأة مقتولة: ما كانت هذه لتقاتل»،265 لأن العلة في تحريم قتالهم هو القتال، وهؤلاء في العادة لا يقاتلون.266 وينضاف إلى هؤلاء المحظور قتلهم الشيوخ والعميان، والمرضى والزمنى وأصحاب العاهات والعجزة عن القتال والفلاحين في حرثهم وأهل الخدمة والامتهان والرهبان والعباد، كل هؤلاء محميون بحصانة الشرع الإسلامي من القتل زمن الحرب.267

Scanned by CamScanner

على أن ثمة حالات يجوز فيها قتال هؤلاء على غرار المقاتلين، ومنها حالة الغارات على القلاع والمسورات حيث أجاز الفقهاء «رمي الحصون بالمجانيق سواء كانت فيها نساء وذرية أو لم يكن، لما جاء أن النبي صلى الله عليه وسلم نصب المنجنيق على أهل الطائف».[268] ولم يجز مذهب مالك أن يرموا بالنار أو يغرقوا بالماء، كما كره أن يرمى العدو مع من معه من غير المحاربين بالسلاح المسموم.[269] أما في حالة التترس بمن لا يجوز قتلهم، ووضعهم على شكل دروع بشرية، خاصة إذا تعلق الأمر بأسرى المسلمين، فالظاهر عندهم «توقي استعمال ما لا يؤمن فيه إصابتهم»،[270] ولا ينبغي رميهم أو قتالهم في هذه الحالة إلا لضرورة ملحة.[271]

وجدير بالإشارة، نهي الفقهاء، بالدليل الشرعي، عن النكاية في العدو عند القدرة عليه؛ فالمقدور عليه من الأعداء، والمقتول منهم والمأسور أيضا لا يعذب ولا يمثل بجثته،[272] على غرار نهيهم عن قتل العدو بغير السلاح، كالتحريق بالنار والتغريق، والرمي بالسلاح المسموم، وحمل رؤوس القتلى من بلد إلى بلد.[273]

وإذا كان الفقهاء اتفقوا على عدم قتل من لم يقاتل من الكفار، فإنهم أجازوا النكاية في جميعهم عامة بالأسر في الرجال والنساء والذرية، مهما اختلفت أهليتهم القتالية، بما في ذلك المرضى والهرمى والزمنى وغيرهم، باستثناء الرهبان المنقطعين في الصوامع والديارات.[274] وقد ذهب مالك وجمهور أهل العلم إلى أن الامام مخير في الأسرى بين خمسة أشياء: القتل، أو الأسر والاستعباد، أو المن، أو الفداء، أو عقد الذمة وضرب الجزية،[275] ويرى ابن رشد[276] أن التخيير في الأسرى «ليس على الحكم فيهم بالهوى، وإنما على وجه الاجتهاد في النظر للمسلمين».[277]

أما السبي[278] من النساء والصبيان، فإنهم «بنفس الاستيلاء وعليه يرقون بما أحكمته السنة من ذلك، فيصير حكمهم إلى حكم سائر أموال الغنائم في وجوب القسم والتخميس ومن غير اختيار يكون في ذلك للإمام... لكن يكون لمن صار إليه شيء من السبي، إما بالقسم أو بالشراء، أو غير ذلك من وجوه التملك، أن يفدي بهم، ويفادى، ويمن بالعتق، ويتصرف في ذلك بما أباح له الشرع منه».[279]

وبالنسبة لأسرى المسلمين، فالاجماع قائم على وجوب فكهم،[280] وواجب على الإمام افتكاكهم من بيت المال، فإن عجز، تعين ذلك على جميع المسلمين في أموالهم. وإلا توجب على كل أسير أن يجتهد في افتداء نفسه.[281]

Scanned by CamScanner

أما أموال العدو وممتلكاته حال القتال، فقد أجاز الفقهاء «تخريب الديار، وقطع الشجر وإحراقها، وذبح الماشية والدواب، إذا لم يقدروا على إخراجها». 282 وقد مال الإمام مالك إلى أن القطع والتحريق والتخريب أفضل، إلا أن يكون البلد يرجى أن يصير للمسلمين، فيكون التوقف عن ذلك أفضل. 283 غير أن بعض الفقهاء مالوا إلى منع ذلك كله، معتمدين في ذلك على أن الإمام مالك روى في موطئه ما ذهب إليه أبو بكر الصديق في وصيته لأحد أمراء جيشه، مخاطبا إياه: «وإني موصيك بعشر، لا تقتلن امرأة ولا صبيا ولا كبيراً هرماً، ولا تقطعن شجراً مثمرا، ولا تخربن عامراً، ولا تعقرن شاة ولا بعيرا إلا لمأكله، ولا تحرقن نخلا ولا تغرقنه، ولا تغلل، ولا تجبن». 284

رابعا: عقود وقف الحرب وشروطها

ثمة شرط أساس أقره تشريع الحرب في الإسلام يفرض على المسلمين الأخذ به في بداية كل حرب، وهو الدعوة قبل القتال، وتعني تخيير العدو بين الإسلام أو الجزية أو القتال. 285 وتحتيم واحد منها عليهم، إنما كان حيث لم يرهبهم جند المسلمين فيكفوا شرهم، ولم يجنحوا للسلم الذي به دفع العدوان عن المسلمين، أما إذا أرهبهم الاستعداد، وكفوا به عن الشر، أو بدا منهم روح السلم وترك العدوان، فإن الله تعالى يقول في آية السلم: ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾286.

وسواء قامت الحرب أم لم تقم، فإن الفقهاء يقرون جواز الجنوح إلى السلم والمهادنة والصلح مع العدو متى دعا إليه، تنفيذا لقوله عز من قائل: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾287. وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾288.

والصلح الذي تتوقف بواسطته الحرب نوعان، صلح مؤبد وآخر مؤقت. فبالنسبة للصلح المؤقت، أو الموادعة والمهادنة، فعرفه أحد الفقهاء بقوله: «المهادنة عقد المسلم مع الحربي على المسالمة مدة ليس فيها تحت حكم الإسلام». 289 وقد أجازه الفقهاء المالكية «ابتداء من غير سبب إذا رأى ذلك الإمام مصلحة للمسلمين»، 290 وحكم هذا الصلح أنه يلزم الوفاء به وبشروطه الصحيحة لقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

Scanned by CamScanner

﴿الْمُتَّقِينَ﴾[291]. وقوله سبحانه: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[292].

والصلح على المهادنة والموادعة في عرف الفقهاء المالكيين يقع على ثلاثة أوجه، الأول أن يكون مهادنة من الفريقين دون ذكر المال، وذلك جائز عندهم في موضع العذر وطلب المصالح للمسلمين. والثاني أن يكون على مال يؤديه الكفار، «وذلك جائز، لأن أخذ المال منهم على ذلك صغار لهم، وليس هو من سبيل الجزية في شيء، لأن حكم الجزية أن يكونوا بحيث يستوي عليهم نظر المسلمين وسلطانهم ويستوجبون هم مع ذلك ذمة المسلمين حتى يقاتلوا عنهم عدوهم».[293] والثالث أن يكون على مال يؤديه المسلمون، وفي جوازه خلاف،[294] إلا أن معظم الفقهاء المالكية أباحوه في حالة الخوف وتحقق المصلحة منه للمسلمين.[295]

ولجواز عقد المهادنة والموادعة شروط منها ضرورة تحقق مصلحة منه للمسلمين، وأن لا يعقده غير ولي الأمر، وأن يخلو من الشروط الفاسدة المخالفة لمقتضى العقد، أو لم يرد به شرع، أو عرف.[296] وأن يكون لمدة محدودة اختلف فيها، «فقيل أربعة أعوام، وقيل عشرة أعوام، وهو المنقول في السير وأكثر الآثار»،[297] مع إمكان تجديدها كلما رأى الإمام في ذلك مصلحة للمسلمين.[298] وفي كل الأحوال يترتب على عقد الصلح المؤقت عند الفقهاء إنهاء حالة الحرب، فيأمن الموادعون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأبنائهم؛ لأن الموادعة عقد أمان أيضا، ولذا وجب كف الأذى بينهم حتى يتأتى ناقض للعهد منهم.[299]

أما بالنسبة للصلح المؤبد في تشريع الحرب في الإسلام، فيتمثل في عقد الذمة،[300] والأصل في جوازه قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[301]. والثابت عند الفقهاء أن من أعطى الجزية من الأعداء، فإنه يحرم قتاله؛ لأنها إحدى الغايتين المنصوص عليهما في القرآن الكريم.[302]

وتطلق الجزية على العقد، وعلى المال الملتزم به، وهي مأخوذة من المجازاة لكف المسلمين عن أهل الذمة، وتمكينهم من سكنى دار الإسلام، وقيل الجزاء بمعنى القضاء،[303] وقد عرفها ابن عرفة بكونها «ما ألزم الكافر من مال لأمنه باستقراره تحت حكم الإسلام وصونه».[304] وتؤخذ الجزية –حسب المذهب المالكي– «من جميع الكفار سواء في ذلك أهل الكتاب

Scanned by CamScanner

وغيرهم من عبدة الأوثان، وكل جاحد مكذب بالربوبية لا يدين بشيء أصلا».[305] ولا يعقدها غير الإمام،[306] أما إذا عقدها غيره، فالمأخوذة منهم مؤمنون يسقط عنهم القتل والأسر، وللإمام النظر يمضيها أو يردهم لمأمنهم.[307] وتفرض على الرجال الأحرار البالغين، وتسقط عن المرأة والصبي والعبد والمجنون،[308] وتوضع عن الفقير المحتاج والأعمى والمريض مرضا مزمنا والشيخ، الذين لا يقدرون على شيء، وتخفف إن كانوا ممن يقدرون على بعض الشيء، ولا يكلفون ما لا يطيقون، كما تسقط عن الذمي إذا أسلم.[309]

وإذا عقدت الذمة، فالعقد لازم في حق المسلمين لا يملكون نقضه،[310] ومضمون التزامات الذميين تتلخص في لزوم ترك ما فيه ضرر على المسلمين في مال، أو نفس، أو دين.[311] أما التزامات المسلمين، فتتلخص في «الوفاء بالأمان والحماية، ممن أرادهم بعدوان، ولهم بذلك عهد الله وذمته، لا تحل دماؤهم، ولا أموالهم، ولا أبشارهم، ولا بغي عليهم في وجه من الوجوه ما لم يحدثوا حدثاً، ويحملون في ما لهم وعليهم من الحقوق على القسط والعدل»، والأصل في ذلك آيات كريمة وأحاديث شريفة؛ منها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «ألا من ظلم معاهداً، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة».[312]

خامسا: «حروب المصالح» أو تثبيت الأمن الداخلي في الدولة الإسلامية

يؤكد الفقهاء المالكية، وغيرهم، أن الجهاد مشروع في الإسلام «اضطرارا»،[313] كما يستمد من منطوق الآية الكريمة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾[314]، ومن معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تتمنوا لقاء العدو، فإذا لقيتموهم فاصبروا».[315] وبينما يقر هؤلاء أن مناط القتال في الإسلام هو الحرابة والعدوان والمقاتلة وليس الكفر،[316] مما يجعله حروب عدل، غايتها إعلاء كلمة الله،[317] فإنهم يشرعون لنوع آخر من الحروب عبروا عنها بـ «حروب المصالح»،[318] غايتها إعلاء كلمة الخليفة أو الملك أو السلطان في الدولة الإسلامية بتعبير ابن خلدون،[319] وإحقاقا للأمن والعدل والوحدة داخل جسم الأمة والمجتمع الإسلامي حسب تفسير معظم الفقهاء.[320]

وأول هذه الحروب المشروعة في الإسلام، قتال المرتدين،[321] وهو بتعبير أحد كتاب الأحكام «أن يرتد قوم حكم بإسلامهم سواء ولدوا على فطرة الإسلام أو أسلموا عن كفر، فكلا الفريقين في حكم الردة سواء».[322] وأضاف ابن المناصف،[323] بعد أن استشهد بالآية

Scanned by CamScanner

الكريمة: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾324، فقال إن فيها دليلاً على وجوب قتلهم، ورفع احترام ما كان أوجبه الإيمان لهم، وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من بدل دينه فاقتلوه».325

وقد اتفق المالكية أن المرتد عن دينه يستتاب، فإن تاب وإلا قتل،326 كما استحسنوا أن يستتاب ثلاثة أيام، فإن تاب وإلا قتل.327 وتحدث أبو الوليد بن رشد عن ارتداد أهل بلد أو حصن، فأقر أن الذي «ذهب إليه جمهور العلماء وأئمة السلف أن يقاتلوا، فيقتل رجالهم ولا تسبى ذراريهم ونساؤهم وتقسم أموالهم، فهي فيء للمسلمين».328

أما النوع الثاني من الحروب المشروعة في الإسلام، فهو قتال أهل البغي، والخارجين عن طاعة الإمام، والمخالفين للجماعة.329 وأصل مشروعيته قوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾330. والبغاة والمخالفون للجماعة صنفان331؛ فأما الصنف الأول فهم من «امتنعوا عن أداء الحقوق، ونزعوا أيديهم عن الطاعة فسقا ومجونا واجتراء على حدود الله، من غير أن ينصبوا إماماً (...) فهؤلاء أهل كبيرة ومنكر ظاهر يجب تغييره. وإن لم ينفع في ذلك موعظتهم وتذكيرهم بالله تعالى (...) فواجب مقاتلتهم على ذلك حتى يفيئوا إلى الله ويرجعوا إلى الحق».332 وأما الصنف الثاني فأهل تأويل خالفوا على الإمام، وعقدوا بيعتهم لآخر يزعمون أنه أحق بها،333 وهم على حالتين: الحالة الأولى، وهي أن تكون الإمامة صحت وانعقدت بتمام البيعة لرجل عادل مستوف شروط الإمامة، فيخرج عليه بعض من بايعه؛ مثل «أن يدعي من خرج عن الطاعة أنه آخذ على الإمام مآخذ من الباطل والجور، أو أن يكون طالب دنيا فقط، أو متعصبا للباطل وما أشبه ذلك»،334 ورأى الفقهاء أنه على الإمام أن يراجع نفسه في مآخذ هؤلاء وما أنكروه فيه، فإن صح عالجه وقومه، حتى إذا رجع كان عليهم أن يرجعوا عن خروجهم. وإن لم يفعلوا أو كان ما نسبوه إليه باطلا، أو كانوا إنما يطلبون الرياسة أو تعصب أو غير ذلك، ثم وعظوا فلم يرجعوا، «فواجب عند ذلك قتالهم، وعلى الناس المعونة لإمامهم العدل على هؤلاء حتى يراجعوا الحق».335

أما الحالة الثانية، فيعتبرها ابن المناصف حالة الفتنة؛ إذ تنعقد البيعة لإمامين، ويفترق الناس بينهما، و«يكثر العدد في كل فريق من الجهتين، ويشكل الأمر ويجل الخطب، فذلك

Scanned by CamScanner

قبح الفتن. والواجب عند ذلك الكف والتوقف عن كل فريق، وطلب السلامة لدينه بالاعتزال والفرار عن الفتنة».[336]

وإذا كان فقهاء المالكية اتفقوا على مشروعية قتال الفرق الباغية والخارجة عن طاعة الإمام، ولو كان جائزاً درءاً للفتنة،[337] فقد اختلفوا في قتلهم إذا أدبروا منهزمين أو أخذوا مأسورين أو جرحى.[338] أما نظر الفقهاء فيما أنفق من المال والدماء والحقوق أثناء «بغيهم»، فاتفقوا على أنه ينظر فيه على وجهين: ما أنفقه «طالبو الدنيا بالفسوق دون تأويل»؛ فهم «متبعون بكل ما جنوا وأصابوا من دم ومال وحق لذي حق. وكذلك في الحدود إن أصابوا من النساء حراماً وغير ذلك؛ لأن هؤلاء أصابوا ما أصابوه وهم عالمون بالتحريم (...) غير متأولين ولا معتقدين لصواب ذلك من دينهم».[339] أما ما استولي عليه من أموالهم وأحوالهم فهي لهم وعلى ملكهم لا يحل «لأهل العدل» الذين قاتلوهم ولا غيرهم أن يتمسكوا من ذلك بشيء. وأما ما أنفقه أهل التأويل، وما استباحوه من الدماء والأموال،[340] فهو هدر، والدماء موضوعة عنهم وما بقي من الأموال التي أخذوها مردود لصاحبه، وما استهلكوه لم يكلفوا بشيء منه؛ «لأنهم إنما استهلكوها على التأويل».[341]

ويعتبر قتال المحاربين وقطاع الطرق النوع الثالث ضمن أنواع «حروب المصالح» المشروعة في الإسلام. ومشروعيته مستمدة من منطوق الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[342]. وكذلك من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من حمل علينا السلاح فليس منا».[343]

والحرابة «كل فعل يقصد به أخذ المال على وجه يتعذر معه الاستغاثة عادة كإشهار السلاح...والمحارب هو القاطع للطريق المخيف للسبيل، الشاهر للسلاح لطلب فإن أعطي وإلا قاتل عليه كان في الحضر، أو خارج المصر».[344] وقال أكثر الفقهاء إن كل من خرج من المسلمين فسوقا، فشهر السلاح، وحارب المسلمين وأخافهم، يعتبر محاربا لله ورسوله، ويكون حكمه ما ذكر في الآية أعلاه.[345] كما أورد ابن فرحون قولا للإمام مالك في أعراب قطعوا الطريق فقال: «جهادكم أحب إلي من جهاد الروم».[346]

أما أوجه العقاب التي ذكرها الله تعالى في الآية الكريمة، فقد اختلف الفقهاء فيها إن كانت من قبيل التخيير، أم هي مرتبة على قدر ما جناه المحارب وارتكبه من مفاسد.[347]

Scanned by CamScanner

وذهب معظم أهل المذهب المالكي إلى أن الإمام مخير يجتهد فيه وينظر على حساب الحال والمصلحة.[348] وقال أكثرهم «إنه يتناول المحارب المسلم، فإن تاب قبل أن يقدر عليه وكان جنى في حرابته جنايات، سقط عنه ما كان حَد الله، وأخذ بحقوق الآدميين، فاقتضى منه في النفس والجراح، وضمن ما استهلك من الأموال، وأخذ ما وجد من ذلك عنده».[349]

وأما في قتالهم ممتنعين، فيرى الفقهاء أنهم يقاتلون كقتال أهل البغي، إلا أنهم يختلفون عنهم في خمسة أوجه، أحدها أنهم يجوز قتالهم مقبلين مدبرين لاستيفاء الحقوق منهم، عكس أهل البغي. والثاني أنه يجوز أن يعمد في الحرب إلى قتل من قتل منهم. والثالث أنهم يؤاخذون بما استهلكوه من دم ومال في الحرب وغيرها بخلاف أهل البغي. والرابع أنه يجوز حبس من أسر منهم لاستبراء حاله. والخامس أن ما اجتبوه من خراج، وأخذوه من صدقات، فهو كالمأخوذ غصبا ونهبا، لا يسقط عن أهل الخراج والصدقات حقا فيكون غرمه عليهم مستحقا.[350]

واعتمادا على هذه المعطيات نتساءل عن مدى قدرة هذه الأحكام التشريعية النظرية أن تساير المتغيرات التاريخية والحضارية التي ميزت بلاد المغرب الأقصى، والغرب الإسلامي برمته، منذ منتصف القرن 5هـ/11م الهجري المتسم ببروز الدولة العامة، عظيمة الملك، شديدة الاستيلاء، استنادا إلى عصبية قبلية تحقق معنى الغلبة وفق التحليل الخلدوني، ودعوة دينية –أساسها الجهاد– تدعي الإصلاح، وتنشد التبرير الديني والمشروعية السياسية لها؟ ثم مسايرة وضع ما بعد هزيمة العقاب المتسم بتفكك الوحدة العامة لبلاد الغرب الإسلامي إلى كيانات سياسية تتقاتل فيما بينها، في الوقت الذي بدأت فيه السفن المسيحية تهدد أمن البلاد والعباد؟ وبالأساس، هل يمكن إخضاع حروب العصر المريني لهذا الشكل النظري؟ وكيف بدت العلاقة بين الحرب والدولة والمجتمع في واقع المغرب الأقصى خلال العصر موضوع الدراسة؟

---

1 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص. 24. الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م، ص. 242. ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس، خليل شحادة، مراجعة، سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط. 2، 1988م، ج. 7، ص. 224. مؤلف مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار، عبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط. 1، 1979م، ص. 162. الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري، ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954، ج. 2، ص، 226.

Scanned by CamScanner

2 ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص ص، 380–381. ج. 7، ص، 107–239. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 250.

3 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 106.

4 المصدر نفسه، ج. 6، ص ص، 392–393. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 240. راجع عن الوضع السياسي بعد العقاب، محمد القبلي، الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط، علائق وتفاعل، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1987م، ص، 18.

5 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 224.

6 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 36. الأنيس المطرب، ص، 288. مؤلف مجهول، نبذة من تاريخ المغرب الأقصى، مخ.خ.ع، الرباط، رقم د2152، ض.م، ص، 126. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 226. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 4–9. محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 20، مطبعة النجاح الجديدة، 1996، ص ص، 11–13.

7 الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 3.

8 ابن عبد الملك، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1984م، س 8، ق 1، ص، 176. ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب–قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني، محمد بن تاويت، محمد زنيبر، عبد القادر زمامة، دار الثقافة، الدار البيضاء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. 1، 1985م، ص، 351.

9 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص ص، 221–222. ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص ص، 14–23. الأنيس المطرب، ص ص، 278–280.

10 أبو علي صالح، كتاب الأنساب، مخ.خ.ع، الرباط رقم، ك1275، ص، 20، نقلا عن إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، دار الطليعة، بيروت، ط. 1، 1998م، ص، 222.

11 ابن الأحمر، روضة النسرين في دولة بني مرين، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط. 2، 1991م، ص، 19–20. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 278–279، 284.

12 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 221. ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بوعياد، إصدارات المكتبة الوطنية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص، 110. ابن الأحمر، روضة النسرين، ص، 7. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 3–5.

13 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 282. مجهول، نبذة من تاريخ المغرب الأقصى، ص، 125.

14 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 282. الذخيرة السنية، ص، 25. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 5.

15 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 224. مجهول، نبذة من تاريخ المغرب الأقصى، ص، 126. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 283. الذخيرة السنية، ص، 27. ابن غازي، الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، ط. 2، الرباط، 1988م، ص، 12. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 5.

16 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 284.

17 ابن عذاري، البيان المغرب–قسم الموحدين، ص، 351. ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 34–50. ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص، 37.

Scanned by CamScanner

18 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 36. الأنيس المطرب، ص، 288. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 226. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 10.

19 ابن الأحمر، روضة النسرين، ص، 23.

20 ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص، 341. الناصري، الاستقصا، ج. 2، ص، 238.

21 ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص، 351. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 242، 244-245، 248، 252-253. ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص ص، 337-351.

22 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 228.

23 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

24 المصدر نفسه، ص، 230.

25 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 296. مجهول، نبذة من تاريخ المغرب الأقصى، ص، 134. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 233. ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، ص، 113.

26 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ص، 303-306. الذخيرة السنية، ص ص، 116-117. ابن الأحمر، روضة النسرين، ص، 59.

27 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 307. الذخيرة السنية، ص ص، 117-118. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 241. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 26.

28 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 118.

29 محمد المنوني، ورقات، ص ص، 14-15. محمد القبلي، الدولة والولاية، ص، 107.

Kably. M, *Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen-Âge*, Maisonneuve et Larose, Paris, 1986, p. 224.

30 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 247. ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 137.

31 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 249. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 36.

32 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 247. ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 137.

33 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 114.

34 محمد القبلي، الدولة والولاية، ص، 110-111، 113.

Bel Alfred, "Les premiers Emirs Mérinides et l'Islam", in *Mélanges de géographie d'orientalisme*, offerts à E-F. Gautier, Tours, 1937, p. 39.

35 ابن رضوان، الشهب اللامعة في السياسة النافعة، تحقيق علي سامي النشار، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط. 1، 1984، ص، 84.

36 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 314.

37 انظر، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ص، 313-374. الذخيرة السنية، ص ص، 143-159. الملزوزي، نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك، المطبعة الملكية، الرباط، 1963، ص، 100-101، 125، 142. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص ص، 254-256، 259-265، 268-278.

38 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 252.

39 المصدر نفسه، ج. 7، ص، 254.

40 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ص، 331-334. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص ص، 267-268.

41 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ص، 341-358. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص ص، 273-276. ابراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، الجزء الثاني، من بداية المرينيين إلى عهد السعديين، نشر وتوزيع دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط. 3، 1414هـ/1993م، ص ص، 18-24.

Scanned by CamScanner

42 عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1984، ج. 3، ص، 199.

43 المرجع نفسه، ص، 200. مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى في العصر المريني الأول، 668-759 هـ، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية (1) عين الشق، الدار البيضاء، 1988–1989، (مرقونة) ص، 228.

44 عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ص، 200.

45 مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص ص، 224–227. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص ص، 279–282، 287–289.

46 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ص، 377–381، 378–382.

47 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 379–385.

48 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 128. أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، إشراف وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، وضع هوامشه وفهارسه طلاب من كلية الدعوة الإسلامية، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، ط. 1، 1398 من وفاة الرسول/ 1989م، ص، 242. الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية، محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، ط. 2، 1983م، ج. 2، ص، 18.

49 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 292. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 80.

50 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 387.

51 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 293.

52 المصدر نفسه، ص، 128.

53 ابن قنفذ، أنس الفقير وعز الحقير، اعتنى بنشره وتصحيحه، محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965، ص، 70.

54 انظر عن هذا الحدث، ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، س8، ق1، ص، 69. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 388. ابن الخطيب، شرح رقم الحلل في نظم الدول، أعده للطبع وعلق عليه وقدم له، عدنان درويش، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، دمشق، 1990، ص ص، 270–271. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص ص، 129–308. يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، نشره ألفرد بيل Alfred Bel، مطبعة بيير فونطانا الشرقية، الجزائر، 1322هـ/ 1904م، مج. 1، ص، 123–124. التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، حققه وعلق عليه، محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب والمكتبة الوطنية الجزائرية، 1405هـ/ 1985م، ص، 133.

55 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 389.

56 المصدر نفسه، ص، 390.

57 انظر الملحق رقم 2.

58 المصدر نفسه، ج. 7، ص ص، 316–317.

59 المصدر نفسه، ج. 7، ص، 309، 311–313، 315–316.

60 المصدر نفسه، ج. 7، ص، 323.

61 ابن خلدون، المقدمة، ص، 132.

62 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص ص، 314–315.

63 عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ص، 202.

64 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 336.

65 المصدر نفسه، ص، 338.

Scanned by CamScanner

66 المصدر نفسه، ص، 341. العمري، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، من الباب الثامن إلى الباب الرابع عشر، تحقيق، مصطفى أبو ضيف أحمد، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. 1، 1988م، ص، 143. محمد المنوني، **ورقات**، ص ص، 99–100.

67 ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 342.

68 ابن الخطيب، **شرح رقم الحلل**، ص، 276.

69 عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، ص ص، 202–203.

70 ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص ص، 354–355.

71 الكفيف الزرهوني، **ملعبة**، تقديم وتعليق وتحقيق، محمد بن شريفة، المطبعة الملكية، الرابط، 1987، ص، 83. ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 365.

72 ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 361–363–378.

73 المصدر نفسه، ص، 369.

74 المصدر نفسه، ص ص، 371–372.

75 المصدر نفسه، ص ص، 366–367، 373–374.

76 ابن قنفذ القسنطيني، **شرف الطالب**، ضمن كتاب **ألف سنة من الوفيات**، تحقيق محمد حجي، دار المغرب، الرباط، 1976، ص، 19. الناصري، **الاستقصا**، ج. 3، ص، 171.

77 ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص ص، 375–380.

78 الناصري، **الاستقصا**، ج. 3، ص، 181.

79 ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 25.

80 المصدر نفسه، ص، 381. ابن الأحمر، **روضة النسرين**، ص ص، 65–66.

81 ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 394.

82 المصدر نفسه، ص ص، 396–397.

83 سبق لمحمد ياسر الهلالي أن قدم هذا الجدول في عمله، **مجتمع المغرب الأقصى خلال القرنين الثامن والتاسع هـ/XIV-XV**، مساهمة في دراسة بعض مصطلحات التراتب الاجتماعي (العامة–الخاصة) (الطبقة–المرتبة)، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1999–2000م، أنظر الملاحق الخاصة بهذا العمل.

84 ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص ص، 415–416، 418–433، 447–484. الناصري، **الاستقصا**، ج. 4، ص، 3–4–7–32–68.

85 ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 188–189، 416–417–479...

86 المصدر نفسه، ج. 6، ص، 92. الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 126–128–129–355.
Kably, *Société, pouvoir*, *op. cit*, pp. 138 et suivantes.

87 ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 237.

88 المصدر نفسه، الصفحة نفسها. ابن الخطيب، **نفاضة الجراب في علالة الاغتراب**، ج. 3، تقديم وتحقيق السعدية فاغية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. 1، 1989م، ص، 109. ابن الخطيب، **معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار**، تحقيق، محمد كمال شبانة، نشر اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة، مطبعة فضالة، المحمدية، 1976م، ص، 164. ابن غازي، **الروض الهتون**، ص ص، 40–41. الونشريسي، **المعيار**، ج. 6، ص، 116. ج. 7، ص، 43.

89 المنوني، **ورقات**، ص، 17.

90 ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 25.

Scanned by CamScanner

91 إيف لاكوست، العلامة ابن خلدون، ترجمة ميشال سليمان، دار ابن خلدون للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1974م، ص ص، 99–100.

92 Berque (J), "La connaissance au temps d'Ibn Khaldun", In *Histoire et anthropologie du Maghreb*, vol. 2, p. 351-377.

نقلا عن محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون، العصبية والدولة، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ط. 2، 1979م، ص، 21.

93 جاستون بوتول ورنيه كارنير، تحدي الحرب، 1740–1974، قرنان من الحروب والثورات، ترجمة هيثم كيلاني، دار طلاس، دمشق، 1988، ص، 66.

94 للوقوف على مجمل المدارس والمذاهب المختلفة في دراسة الحرب، انظر جاستون بوتول، هذه هي الحرب، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط. 1، 1981، ص ص، 10–36. جاستون بوتول، الحرب والمجتمع، ص ص، 23–44. مجموعة من المؤلفين، الحروب والحضارات، ترجمة أحمد بن عبد الكريم، إصدار المؤسسة الفرنسية للدراسات الدفاع الوطني، دار طلاس، دمشق، 1984، ص ص، 36–39–107–147. أبو هنطش فايز، محمد توهيل، علم الاجتماع السياسي، قضايا العنف والحرب والسلام، دار المستقبل العربي، عمان، 1998، ص ص، 25–120.

Bouthoul, *Traité de polémologie : sociologie des guerres*, Payot, Paris, 1991, pp. 73-109.

95 تلك خلاصة بعض من سبقنا في تحديد ميادين سوسيولوجيا الحرب، انظر أبو هنطش فايز، محمد توهيل، علم الاجتماع السياسي، ص، 46.

96 للوقوف على هذه الخلاصة، راجع كلمة «حرب» في القواميس اللغوية التالية،

Le Robert, illustré d'aujourd'hui, Ed du Club France Loisirs, Paris, 1997. *Le Petit Larousse* illustré, Larousse, Paris, 1991. *Dictionnaire de L'Académie française*, 1762, SUR CD. *Le Petit Larousse in Biblirom. Dictionnaire Littré*, D. *Le Petit Robert*, Dictionnaire de la langue française, Réimpression et mise à jour mars, 1995, sur CD.

97 Bouthoul, *Traité de polémologie*, *op. cit.*, p. 26.

98 محمد فريد وجدي، دائرة المعارف، مطبعة دائرة معارف القرن العشرين، ط. 2، 1923، مج. 3، مادة حرب، ص، 389–390.

99 Bouthoul, *Traité de polémologie*, *op. cit.*, pp. 26-27.

جاستون بوتول، الحرب والمجتمع، ص ص، 45–46.

100 Bouthoul, *Traité de polémologie*, *op. cit.*, p. 30.

101 جاستون بوتول، الحرب والمجتمع، ص، 46.

102 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

103 Bouthoul, *Traité de polémologie*, *op. cit.*, p. 34.

104 *Ibid*, p. 35.

105 *Ibid*, p. 35.

106 عبد الله العروي، مفهوم العقل، مقالة في المفارقات، منشورات المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط. 1، 1996، ص، 340.

107 Montesquieu, *Œuvres complètes*, Seuil, Paris, 1964, p. 578.

نقلا عن عبد الله العروي، المرجع السابق، ص، 339.

108 المرجع نفسه، ص، 327.

وجدير بالإشارة أن فقهاء القانون الدولي يعرفون الحرب بأنها «صراع مسلح بين دولتين أو بين فريق من

الدول ويكون الغرض منه الدفاع عن حقوق ومصالح الدول المتحاربة». أحمد عطية الله، **القاموس السياسي**، دار النهضة العربية، القاهرة، ط. 3، 1968، ص، 442. **الموسوعة العربية**، منشورات الجمهورية العربية السورية، دمشق، ط. 1، 2003، مج. 8، ص ص، 138–139. فالحرب لا تكون إلا بين الدول، أما الصراع المسلح الذي قد يقع بين جماعة من الأفراد ضد دولة أجنبية فلا يعتبر حربا ولا شأن للقانون الدولي العام به. كذلك لا يعتبر حربا بالمعنى الدولي الصراع المسلح الذي يقوم به إقليم ثائر في وجه حكومة الدولة التي يتبعها أو الذي تقوم به إحدى الدول الأعضاء في دولة تعاهدية ضد الحكومة المركزية. غير أن هذا التعريف قد أضحى تقليدا، ويميل الاتجاه الحديث إلى توسيع معنى الحرب بحيث يشكل كل حالة يتم فيها قتال مسلح دولي، ولو لم تتوافر فيه عناصر التعريف السابق، بل إن قواعد القتال تطبق ولو كان القتال يدور بين جماعات لا تتمتع بوصف الدولة وفقا لأحكام القانون الدولي، انظر للتفصيل، وهبة الزحيلي، آثار الحرب في الفقه الإسلامي، ص ص، 35–36.

109 جاستون بوتول، **تحدي الحرب**، ص ص، 67–68. عبد الله العروي في دراسته لظاهرة الحرب والجهاد، **مفهوم العقل**، ص ص، 321–342. وهبة الزحيلي، **آثار الحرب في الفقه الإسلامي**، ص ص، 35–36.

110 Bouthoul, *Traité de polémologie*, *op. cit.*, pp. 36-37

111 جاستون بوتول، **الحرب والمجتمع**، ص، 47.

112 Bouthoul, *Traité de polémologie*, *op. cit.*, p. 35.

113 أحمد عطية الله، القاموس السياسي، ص، 442.

114 كارل فون كلاوزفيتز، **الوجيز في الحرب**، ترجمة أكرم ديري، الهيثم الأيوبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980، ص ص، 74–75. مجموعة من المؤلفين، **ظاهرة الحروب والنزاعات المسلحة، رؤية جغرافية تحليلية**، ضمن حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، رقم 190، 2002–2003، ص، 37. أبو هنطش فايز، **علم الاجتماع السياسي**، ص ص، 58–61.

115 كلاوزفيتز، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

116 ميشيل مان، **موسوعة العلوم الاجتماعية**، نقلها إلى العربية عادل مختار الهواري، سعد عبد العزيز مصلوح، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1999، ص، 144–450–452–544–554. جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت، ج. 2، د.ت، ص ص، 112–113.

117 Bouthoul, *Traité de polémologie*, *op. cit.*, p. 35.

118 جاستون بوتول، **الحرب والمجتمع**، ص، 49.

119 Bouthoul, *Essais de polémologie*, Denoël / Gonthier, Bibliothèque Médiations, Paris, 1976, pp. 18-19.

120 مجموعة من المؤلفين، **الحروب والحضارات**، ص، 24.

121 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

122 جاستون بوتول، رينيه كارير، **تحدي الحرب**، ص ص، 111–112.

123 براين بوند، **الحرب والمجتمع في أوربا، 1870–1970**، ترجمة سمير عبد الرحيم الجلبي، دار المأمون، بغداد، 1988، ص، 9.

124 من الأبحاث التي نشرتها سلسلة «تاريخ الحرب والمجتمع في أوربا»:

- Hale. J.R, *War and Society in Renaissance Europe* (1450-1620), London, 1985.
- Anderson. M.S, *War and Society in Europe of the Old Regime* (1618-1789), London, 1988.
- Best, Geoffrey, *War and Society in Revolutionary Europe (1770-1870)*, Stroud, 1998, 3rd ed, (First published 1982).

125 براين بوند، **الحرب والمجتمع في أوربا**، مقدمة المحرر، ص، 9.

Scanned by CamScanner

126 انظر للتفصيل عن أهمية الفصل بين الجانب الأخلاقي والجانب المعرفي في دراسة مواضيع العنف والحرب والعدوان، بول زواد زكي، الانشغال بموضوعات بغيضة، بعض الاعتبارات الأخلاقية والمعرفية، ضمن أعمال ندوة العنف المفرط، المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية، ع. 174، ديسمبر 2002، منشورات اليونسكو، ص ص، 134–136 عمر بارتوف، العنف المفرط والمجتمع الأكاديمي، ضمن الندوة نفسها، ص ص، 117–131.

127 براين بوند، الحرب والمجتمع في أوربا، ص، 11.

128 من الأمثلة الدالة على اتساع قاعدة الأبحاث التي تتناول «الحرب والمجتمع» كموضوع خاص بها في مجال التاريخ الأوربي الوسيط، أنظر:

- Contamine, Philippe, *Guerre, Etat et société à la fin du Moyen Age : études sur les armées des rois de France 1337-1494*, Ecole des hautes Etudes en Sciences Sociales, Paris, 2 vol., 2004.
- Contamine, P., Guyotjeannin, O., *La guerre, la violence et les gens au Moyen Age*, Parp, Paris, 1996.
- Corvisier André, *Armées et sociétés en Europe de 1494 à 1789*, Presses Universitaires de France, 1976.
- Corvisier André, *Les hommes, la guerre et la mort*, Ed Economica, Paris, 2001.
- Kurt Raaflaub, Nathan Rosenbein, *War and Society in the Ancient and Medieval Worlds*, Centre of Hellenic Studies, London, 1999.

وثمة أبحاث في الحرب والمجتمع خلال الفترات القديمة، ومنها

- John Rich, Grahamshipley, *War and society in the Greek World*, Routledge, London, 1993.
- Hans Van Wees, *War and society in Ancient Greece*, The Classical Press of Wales, 2001.
- Jean-Nicolas et Corvisier, *Guerre et société dans les mondes grecs*, Armand colin, Paris, 1999.

وثمة أبحاث في الحرب والمجتمع خلال الفترات الحديثة والمعاصرة، ومنها

- Chagniot, Jean, *Guerre et société à l'époque moderne*, P.U.F, Paris, 2001.
- Pierre Hassner et Roland Mourchal, *Guerres et sociétés : Etats et violence après la guerre froide*, Karthala, Paris, 2003.
- Philippe Chassazigne, Olivier Dard, Jean-louis Margolin et autres, *La Société, la guerre, la paix*, Cned-Sedes, 2004.

129 انظر براين بوند، الحرب والمجتمع، ص، 13.

130 من الأمثلة في هذا الصدد مركز الأبحاث في التاريخ الدولي والأطلسي بجامعة نانت بفرنسا الذي خصص وحدة للبحث في:

Défense, guerre, et sociétés en Europe de l'Antiquité à nos jours, U.F.R Histoire de l'art et archéologie, Centre de recherches en histoire internationale de Nantes, Université de Nantes. http://www.Palissy.humana.univ-nantes.fr

131 من الأمثلة في هذا المجال،

- Séminaire du Centre d'études et documentation, Guerre et société contemporaine ; Bruxelles, mardi 22 janvier 2002 au 08 mai 2002 ; 16 octobre 2002 au mercredi 18 décembre 2002. http//www.calenda.ruvues.org.
- Colloque, Guerre et société, IX^e-XIII^e siècles, Université Paris Sorbonne-Paris IV, samedi 14 janvier 2006, http:// www.paris4.Sorbonne.fr

132 Bouthoul, *Essais de polémologie*, *op. cit.*, pp. 18-19.

133 براين بوند، الحرب والمجتمع في أوربا، ص ص، 10–11.

134 إحسان محمد الحسن، علم الاجتماع العسكري، دار الطليعة، بيروت، 1990، ص، 35.

135 أبو هنطش فايز، محمد توهيل، علم الاجتماع السياسي، ص، 111. سامي ريحانا، المجتمعات العسكرية عبر التاريخ، دار الحداثة، بيروت، 1966، ص ص، 8–10.

Scanned by CamScanner

Corvisier, André, *Les hommes, la guerre et la mort*, *op. cit.*, pp. 114-115.

136 Polémologie مركب من الكلمة اليونانية Polemos أي الحرب وLogos التي تعني العلم، وتعني في تحديدها اللغوي علم الحروب، وهو تخصص علمي ظهر بعد الحرب العالمية الثانية على يد جاستون بوتول لتمييزه عن علم الحرب الذي يهتم بدراسة الاستراتيجية العسكرية والتقنية والضوابط القانونية والفنية لفن الحرب. لذلك أنشا بوتول ولويس ويس Louise Weiss المعهد الفرنسي لعلم الحرب سنة 1945 لدراسة ظاهرة الحرب علميا. وقد كشفت مجلة Guerres et paix، التي كان يصدرها هذا المعهد، ثم نشرة Etudes polémologiques على مجمل الخطوط العامة لهذا التخصص العلمي الجديد. وما لبثت أن ظهرت في أوربا والولايات المتحدة الأمريكية معاهد جديدة مماثلة تنافست المعهد الفرنسي لعلم الحرب في هذا التخصص وأضافت مجالات أخرى للدراسة.

غير أن مبادرة تأسيس علم الحروب عرفت تراجعا نسبيا بعد موت مؤسسها (1980)، كما ساهمت عوامل عدة كغياب التنظيم وضعف التأطير النظري والتقاليد الابستيمولوجية، وتوقف إصدارات المعهد في إضعاف تقدم الأبحاث في هذا العلم الجديد. انظر للتفصيل

Bouthoul, *Traité de polémologie*, *op. cit.*, p. 5-6. Bouthoul, Essais de Polémologie, pp. 7-24. Polémologie, http://fr.wikipedia.org. "La crise de la polémologie", 24 juillet 2006, http://www.huyghe.fr.

137 Bouthoul, *Traité de polémologie*, *op. cit.*, pp. 5-6.

138 جاستون بوتول، الحرب والمجتمع، ص، 11.

139 Bouthoul, *Essais de polémologie*, *op. cit.*, pp. 8-24.

140 *Ibid*, p. 23-24.

141 *Ibid*, p. 9-24.

142 يقر الباحثون أنه رغم تعدد ووفرة النظريات والبحوث في المجالات السوسيولوجية المختلفة، فإن ذلك لم يكن متوافراً بالنسبة للتنظيمات العسكرية. والحقيقة أن النسق العسكري وعلاقة القوات المسلحة بالمجتمع لم يجد مكانه في البحث السوسيولوجي المنظم إلا بعد سنة 1960 رغم أن بداياته الأولى تعود إلى بدايات الحرب العالمية الثانية حين بدأ بعض السوسيولوجيين الأمريكيين في إنجاز أبحاث واستمارات عن وضع الجنود في حالة التعبئة العامة خلال الحرب. ويفسر أحد الدارسين هذا التأخر في طرق هذا الميدان بموقف السوسيولوجيين السلمي الأخلاقي، وتركيزهم على الدراسات السيكولوجية في المجال العسكري، كما اعتقد بعضهم بأن عصر المجتمعات العسكرية قد ولى وعوضتها المجتمعات الصناعية، ولا حاجة للبحث فيه. وبالرغم من ذلك فإن النتائج الاجتماعية التي أفرزتها حروب القرن العشرين، واستمرار بعض المجتمعات العسكرية وكثافة القضايا المرتبطة بالقوات المسلحة في علاقتها بالمجتمع عجل ببروز أبحاث متخصصة في هذا المجال. انظر للتفصيل، أحمد إبراهيم خضر، **علم الاجتماع العسكري**، ص ص، 33–40. ويؤكد ميشل مان أن تعدد القضايا واختلاف الرؤى في تناولها لا تزال تفرض نفسها أمام تقدم هذا الميدان العلمي الذي يظل، رغم اتساع قاعدة أبحاثه، في بداياته الأولى. **موسوعة العلوم الاجتماعية**، ص، 451–452.

143 خضر، أحمد إبراهيم، **الجيش والمجتمع، دراسات في علم الاجتماع العسكري**، تصدير بقلم محمد الجوهري، دار المعارف، القاهرة، 1985، ص ص، 11–12.

144 خضر أحمد إبراهيم، **علم الاجتماع العسكري**، ص، 40.

145 إحسان محمد الحسن، **علم الاجتماع العسكري**، ص، 29.

146 المرجع نفسه، ص ص، 29–30.

147 Lang, *Military sociology*, pp. 7-8.

Scanned by CamScanner

يقصد بالسلوك العسكري أية حركة أو نشاط يقوم به العسكري في تشكيله العسكري، ويكون مقصوداً من قبله، وله علاقة بوجود الأفراد الآخرين المحيطين به أو الملازمين له. نقلا عن إحسان محمد الحسن، علم الاجتماع العسكري ص، 32–33.

148 Janouwitz, M., *Sociology and Military Establishment*, New York, 1965, pp. 3-5.

والمقصود بالظاهرة العسكرية الحادثة العسكرية التي يتكرر وقوعها بين فترة وأخرى، وأن وقوعها يؤثر على مجريات الحياة الاجتماعية والمادية لكثير من الناس، ومن أمثلة هذه الظاهرة، الحرب والتعبئة وإعلان النفير العام والخدمة الإلزامية والتصنيع الحربي وغيرها. إحسان محمد الحسن، علم الاجتماع العسكري، ص ص، 30–32.

149 ويضيف هؤلاء إلى هذه الميادين، قوات حفظ السلام الدولية، والتجنيد التطوعي، والإلزامي، وقضايا الرقابة على الأسلحة ونزع السلاح، ثم قضايا تجنيد المرأة، كميادين جديدة علم الاجتماع العسكري، أحمد إبراهيم خضر، علم الاجتماع العسكري، ص، 43–57.

150 المرجع نفسه، ص، 43. إحسان محمد الحسن، علم الاجتماع العسكري، ص، 30.

151 إحسان محمد الحسن، المرجع نفسه، ص، 31.

152 المرجع نفسه، ص، 106.

153 أحمد إبراهيم خضر، الجيش والمجتمع، ص، 12–26.

154 Corvisier André, *Armées et société en Europe de 1494 à 1789*, P.U.F, Paris, 1976, p. 189.

155 جاستون بوتول، الحرب والمجتمع، ص، 11.

156 أحمد إبراهيم خضر، الجيش والمجتمع، ص ص، 26–30.

157 أحمد إبراهيم خضر، علم الاجتماع العسكري، ص، 41.

158 إحسان محمد الحسن، علم الاجتماع العسكري، ص ص، 40–41.

159 المرجع نفسه، الصفحة نفسها. أحمد إبراهيم خضر، علم الاجتماع العسكري، ص، 42.

160 مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، قام بإخراجه، إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، وأشرف على طبعه، عبد السلام هارون، المكتبة العلمية، طهران، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، ج. 1، مادة حرب، ص ص، 163–164.

161 المرجع نفسه، ص، 164. مجموعة من المؤلفين، ظاهرة الحروب والنزاعات المسلحة، ص، 35.

162 لسان العرب، قدم له عبد الله العلايلي، إعداد وتصنيف يوسف خياط ونديم مرعشلي، دار لسان العرب، بيروت، د.ت، مادة حرب، ص ص، 595–596.

163 ابن المناصف، كتاب الإنجاد في أبواب الجهاد، دراسة وتحقيق قاسم عزيز الوزاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. 1، 2003، مقدمة المحقق، ص، 41.

164 ابن منظور، لسان العرب، مادة قتل.

165 المصدر نفسه، مادة غزا.

166 الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، دار الجيل، بيروت، ج. 4، ص، 36–372.

167 وهبة الزحيلي، آثار الحرب في الفقه الإسلامي، دراسة مقارنة، دار الفكر، المطبعة العلمية بدمشق، دمشق، ط. 4، 1992، ص، 31.

168 سورة المائدة، الآية، 64.

169 سورة الأنفال، الآية، 57.

170 سورة البقرة، الآية، 279.

171 محمد عمارة، الإسلام والحرب الدينية، دار الوحدة للطباعة والنشر، بيروت، ط. 1، 1982، ص، 8.

Scanned by CamScanner

172 سورة محمد، الآية، 4.

173 البخاري، الجامع الصحيح، اعتنى به، أبو عبد الله محمود بن الجميل، مكتبة الصفا، القاهرة، ط. 1، 2003، ج. 3، ص، 467.

174 محمد عمارة، الإسلام والحرب الدينية، ص ص، 9–10.

175 سورة البقرة، الآية، 190.

176 سورة البقرة، الآية، 191.

177 سورة التوبة، الآية، 5.

178 سورة التوبة، الآية، 14.

179 البخاري، الجامع الصحيح، ج. 2، ص، 49.

180 المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 1، 1993م، ص، 212.

181 ابن المناصف، كتاب الانجاد، ص ص، 87–88.

182 الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج. 1، ص، 296.

183 لسان العرب، ج. 3، مادة جهد، ص، 134.

184 ابن رشد، المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات والتحصيلات المحكمات لأمهات مسائلها المشكلات، تحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. 1، 1988، ج. 1، ص، 341. وعرفه ابن المناصف (ت. 620هـ/1223م) على أنه «بذل الجهد في إكمال النفس وتذليلها في سبيل الشرع والحمل عليها بمخالفة الهوى، ومن الركون إلى الدعة واللذات واتباع الهوى». ابن المناصف، كتاب الانجاد، ص، 88.

185 الرصاع التونسي، شرح حدود الإمام الأكبر البركة القدوة الأنور أبي عبد الله بن عرفة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، المملكة المغربية، 1412هـ/1992م، ص، 193. نجم الدين الهنتاتي، الجهاد بين النظرية والواقع لدى علماء المالكية بإفريقية خلال العهدين الأغلبي والفاطمي، ضمن الكراسات التونسية، مجلة العلوم الإنسانية، مج. 48، ع. 169–170، 1995، ص، 45. إحسان الهندي، أحكام الحرب والسلام في دولة الإسلام، دار النمير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط. 1، 1993، ص، 127.

186 ابن خلدون، المقدمة، ص، 212.

187 ابن رشد، المقدمات الممهدات، ج. 1، ص ص، 341–342.

188 وهبة الزحيلي، آثار الحرب في الفقه الإسلامي، ص، 33.

189 ابن المناصف، كتاب الانجاد، ص، 91.

190 ابن رشد الحفيد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، 1419هـ، ج. 1، ص، 384. ابن رشد، البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة، تحقيق أحمد الحبابي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. 2، 1408هـ، 1988م، ج. 3، ص، 63. المقدمات الممهدات، ص ص، 346–347. ابن المناصف، كتاب الانجاد، ص ص، 102–103. مجهول، الرسالة الوجيزة إلى الحضرة العزيزية في علوم الخلافة، إعداد وتقديم أحمد الدغيرني، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط. 1، 1987، ص، 51.

191 سورة البقرة، الآية، 216.

192 سورة التوبة، الآية، 41.

193 القاضي عبد الوهاب البغدادي، كتاب التلقين في الفقه المالكي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1993، 1413 هـ، ص، 72. ابن رشد، المقدمات الممهدات، ج. 1، ص، 347. ابن رشد الحفيد، بداية المجتهد، ج. 1، ص، 384. ابن المناصف، كتاب الانجاد، ص ص، 102–107. إحسان الهندي، أحكام الحرب والسلام، ص، 132. وهبة الزحيلي، آثار الحرب في الفقه الإسلامي، ص، 87–89.

Scanned by CamScanner

194 **سورة التوبة**، الآية، 122.
195 **سورة النساء**، الآية، 95.
196 **بداية المجتهد**، ج. 1، ص، 384.
197 ابن رشد، **المقدمات الممهدات**، ج، 1 ص، 347. ابن جزي، **القوانين الفقهية**، دار القلم، بيروت، د.ت، ص، 97.
198 يعرف ابن عرفة الرباط بقوله، «الرباط المقام حيث يخشى العدو بأرض الإسلام لدفعه»، الرصاع التونسي، **شرح حدود ابن عرفة**، ص، 197.
199 دار الحرب هي الدار التي لا تطبق فيها أحكام الإسلام الدينية والسياسية لوجودها خارج نطاق السيادة الإسلامية، أو هي «البلاد التي لم تدخل في الفتح الإسلامي، ولا تجري فيها أحكام الإسلام، سواء أكانت بحالة حرب فعلية مع المسلمين أم لا». وهبة الزحيلي، **آثار الحرب في الفقه الإسلامي**، ص، 170. إحسان الهندي، **أحكام الحرب والسلام**، ص، 111. ويقابلها في الاصطلاح «دار الإسلام»، وهي كل ما دخل من البلاد في محيط الإسلام، ونفذت فيها أحكامه، وأقيمت شعائره فيها، ويقتضي هذا المفهوم أن كل اعتداء عليها يوجب على المسلمين أن يدافعوا عنها وجوبا كفائيا بقدر الحاجة، وإلا فوجوبا عينيا وكانوا كلهم آثمين بتركه. وهبة الزحيلي، المرجع نفسه، ص، 169. وتسمى أيضا «دار العدل»، لأن العدل واجب فيها في جميع أهلها بالمساواة. ويقابلها «دار البغي»، وهي جزء من دار الإسلام تفرد به جماعة من المسلمين خرجوا على طاعة الإمام الشرعي، بحجة تأولوها مبررة لخروجهم، ثم إنهم تحصنوا في تلك الدار وأقاموا عليها حاكماً منهم، وصار لهم جيش ومنعة وهبة الزحيلي، المرجع نفسه، ص، 170.
والحقيقة أنه ما اختلف الفقهاء في قضية ما اختلافا بينا أكثر من اختلافهم في قضية العلاقة بين «دار الحرب» و «دار الإسلام»؛ فبينما اعتبر البعض أن الأصل فيها هو السلام، والحرب هي الاستثناء مستندين في ذلك إلى جملة من الآيات والأحاديث النبوية، يرى البعض الآخر أن الأصل فيها الحرب، لأن الدعوة إلى الإسلام واجبة وتتم برأيهم باللسان عن طريق النصح والإرشاد، وبالسنان بقتال كل من يقف في وجه الدعوة أو يعارضها. وقتالهم لا يعني إكراههم على الإسلام، ولكن على أن يدخلوا في الحكم الشرعي الإسلامي ومهادنة المسلمين ودفع الجزية. ويقوم رأي هؤلاء على ثلاثة أسس، الأول، أن الأصل في العلاقة بين المسلمين ومخالفيهم في الدين هو الحرب ما لم يقطعها ما يوجب المسالمة من «إيمان» أو «أمان». والثاني أن الجهاد فرض أزلي وباق ما بقي الكفر، ويكون فرض عين في حالة الاعتداء على دار الإسلام، وفرض كفاية يقوم به البعض ويسقط عن الباقي، اللهم في حالة ضعفهم. والثالث هو النظر إلى دار الحرب على أنها كل منطقة لا تجري عليها أحكام الإسلام، ولا يؤمن من فيها بأمان المسلمين، حتى إذا لم تبادئ هذه المنطقة المسلمين بأعمال العداء. ولهؤلاء أيضا أدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية. وثمة رأي ثالث يوفق بين الرأيين إذ يميز أصحابه بين ما إذا كانت هناك حدود مشتركة لدار الحرب مع دار الإسلام أم لا. فإذا كانت هناك حدود مشتركة تكون العلاقة بينهما علاقة حرب حتى تقطعها موادعة، أما إذا كانت الحدود غير مشتركة فهي علاقة سلم، إلا إذا شنت دار الكفر حربا وعدوانا على دار الإسلام، أو أساءت معاملة المسلمين فيها في نفسهم وعرضهم ومالهم. انظر للتفصيل، إحسان الهندي، أحكام الحرب والسلام، ص ص، 111–126.
200 ابن المناصف، **كتاب الانجاد**، ص، 105. خليل بن اسحاق المالكي، **مختصر العلامة خليل**، أشرف على تصحيحه والتعليق عليه أحمد نصر، دار الفكر، بيروت، 1397هـ، 1978، ص، 103. وهبة الزحيلي، **آثار الحرب في الفقه الإسلامي**، ص ص، 88–89. إحسان الهندي، **أحكام الحرب والسلام**، ص، 133.
201 ابن المناصف، **كتاب الانجاد**، ص، 105. مجهول، **الرسالة الوجيزة**، ص ص، 51–52.

Scanned by CamScanner

202 ابن المناصف، المصدر نفسه، ص، 105. القاضي عبد الوهاب، التلقين، ص، 72. ابن رشد، المقدمات الممهدات، ج. 1، ص، 347. البيان والتحصيل، ج. 2، ص، 521–523. ابن جزي، القوانين الفقهية، ص، 97.

203 ابن المناصف، المصدر نفسه، ص ص، 106–107. ابن جزي، القوانين الفقهية، ص، 97.

204 ابن رشد، المقدمات الممهدات، ج. 1، ص، 347. مجهول، الرسالة الوجيزة، ص، 52. ابن جزي، القوانين الفقهية، ص، 97. خليل ابن إسحاق المالكي، مختصر العلامة خليل، ص، 103.

205 سورة النور، الآية، 61.

206 سورة التوبة، الآية، 91.

207 ابن رشد، المقدمات الممهدات، ج. 1، ص ص، 352–353. ابن رشد، البيان والتحصيل، ج. 2، ص، 529. ج. 3، ص ص، 85–86. خليل بن اسحاق المالكي، مختصر العلامة خليل، ص، 103. ابن جزي، القوانين الفقهية، ص، 97.

208 الماوردي، الأحكام السلطانية، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، 1966م، ص، 48–49. ابن رشد، المقدمات الممهدات، ج. 1، ص، 355. ابن المناصف، كتاب الانجاد، ص ص، 141–142. ابن جزي، القوانين الفقهية، ص، 97.

209 ويلحق به عدم الفرار من معترك القتال إلا إذا فاق عدد العدو عدد المسلمين بأكثر من الضعف، ابن رشد، المقدمات الممهدات، ج. 1، ص، 355. ابن رشد، بداية المجتهد، ج. 1، ص، 390.

210 مالك بن أنس، الموطأ، مراجعة وإشراف نخبة من العلماء، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، مطبعة فضالة، المحمدية، ط. 1، 1412هـ، 1992، ص ص، 401–402. وترك الغلول أي أن لا يغل أحد من المسلمين شيئا حتى يقسم بين جميع الغانمين ممن شهد الواقعة. الماوردي، الأحكام السلطانية، ص، 47.

211 ابن رشد، المقدمات الممهدات،ج. 1، ص، 355. ابن هذيل، تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس، مخ.خ.ع.، الرباط، رقم 904 د، ص، 20.

212 ابن المناصف، كتاب الانجاد، ص ص، 140–141. ابن رشد، المقدمات الممهدات، ج. 1، ص، 354. مجهول، [كتاب سماه أحد الباحثين كتاب الحرب]، مخ.خ.ع، الرباط رقم د1584، ض.م، ظهر. و 43.

213 مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم، الجامع الصحيح، دار الفكر، بيروت، د.ت، ج. 6، ص، 46.

214 إحسان الهندي، أحكام الحرب والسلام، ص ص، 127–128.

215 سورة التوبة، الآية، 41.

216 ابن رشد، المقدمات الممهدات، ج. 1، ص، 343–344. البيان والتحصيل، ج. 2، ص، 543.

217 انظر مثالا على ذلك، ابن المناصف، كتاب الانجاد، ص، 124–125. ابن جزي، القوانين الفقهية، ص، 105. خليل بن إسحاق، مختصر العلامة خليل، ص ص، 110–111.

218 مسلم، الجامع الصحيح، ج. 6، ص، 52.

219 انظر، «ما جاء في فضل الإنفاق في سبيل الله» في كتب الجهاد، ابن المناصف، كتاب الانجاد، ص ص، 125–127.

220 ابن رشد، البيان والتحصيل، ج. 2، ص، 520–527–532–536. 543، 587–588–589.

221 المصدر نفسه، ج. 2، ص، 532، 537–538، 548–546.

222 المصدر نفسه، ج. 2، ص، 528–535–541–546–597. ابن المناصف، كتاب الإنجاد، ص ص، 136–137.

223 ابن المناصف، كتاب الانجاد، ص، 119.

Scanned by CamScanner

224 مسلم، **الجامع الصحيح**، ج. 6، ص، 42. البخاري، **الجامع الصحيح**، ج. 2، ص، 28.

225 ابن هذيل، **تحفة الأنفس**، ص ص، 30–37.

226 سورة النساء، الآية، 84.

227 ابن الحاج، **المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع والعوائد التي انتحلت وبيان شناعتها وقبحها**، طبع على نفقة مصطفى أفندي فهمي الكتبي وشريكه، المطبعة العامرة الشريفة، 1320هـ، ج. 1، ص ص، 22–23.

228 ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، دار المنصور، الرباط، 1972م، ص، 107.

229 راجع في هذا الصدد، ابن رشد، **البيان والتحصيل**، ج. 2، ص، 522–523، 543. ابن رشد، **المقدمات الممهدات**، ج. 1، ص ص، 342–344. ابن المناصف، **كتاب الإنجاد**، ص ص، 117–139. ابن هذيل، **تحفة الأنفس**، ص ص، 6–17.

230 سورة التوبة، الآية، 111.

231 سورة النساء، الآية، 74.

232 مسلم، **الجامع الصحيح**، ج. 6، ص، 36. البخاري، **الجامع الصحيح**، ج. 2، ص، 17–18، 37.

233 مسلم، **الجامع الصحيح**، ج. 6، ص، 33–34. مالك بن أنس، **الموطأ**، ص، 391.

234 ابن المناصف، **كتاب الإنجاد**، ص، 253.

235 الماوردي، **الأحكام السلطانية**، ص، 126.

236 انظر للتفصيل، وهبة الزحيلي، **آثار الحرب في الفقه الإسلامي**، ص ص، 550–552.

237 الماوردي، **الأحكام السلطانية**، ص، 126.

238 سورة الأنفال، الآية، 41.

239 سورة الأنفال، الآية، 69.

240 سورة الفتح، الآية، 20.

241 البخاري، **الجامع الصحيح**، ج. 2، ص، 29–87. مالك بن أنس، **الموطأ**، ص، 408.

242 القاضي عبد الوهاب، **كتاب التلقين**، ص، 72. ابن رشد، **المقدمات الممهدات**، ج. 1، ص، 355.

243 ابن رشد، **المقدمات الممهدات**، ج. 1، ص، 355. ابن رشد الحفيد، **بداية المجتهد**، ج. 1 ص، 405.

244 ابن المناصف، **كتاب الإنجاد**، ص، 329.

245 سورة الحشر، الآيات، 6–7.

246 سورة الأنفال، الآية، 41.

247 ابن المناصف، **كتاب الإنجاد**، ص ص، 329–330.

248 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

249 الماوردي، **الأحكام السلطانية**، ص، 131. ابن المناصف، **كتاب الإنجاد**، ص، 256. ابن جزي، **القوانين الفقهية**، ص، 99.

250 وهبة الزحيلي، **آثار الحرب في الفقه الإسلامي**، ص ص، 556–557.

251 القاضي عبد الوهاب، **كتاب التلقين**، ص، 72. الداودي، **كتاب الأموال**، ص، 58–59. ابن رشد، **المقدمات الممهدات**، ج. 1، ص، 358. ابن رشد الحفيد، **بداية المجتهد**، ج. 1، ص ص، 404–405. ابن جزي، **القوانين الفقهية**، ص، 100.

252 ابن رشد الحفيد، **بداية المجتهد**، ج. 1، ص، 404.

253 ابن المناصف، **كتاب الإنجاد**، ص ص، 259–260.

254 وهبة الزحيلي، **آثار الحرب في الفقه الإسلامي**، ص ص، 608–609.

Scanned by CamScanner

255 مالك بن أنس، **الموطأ**، ص، 400. ابن المناصف، **كتاب الإنجاد**، ص ص، 268–269.
256 انظر للتفصيل، ابن المناصف، **كتاب الإنجاد**، ص ص، 268–275. وكذا، ابن رشد الحفيد، **بداية المجتهد**، ج. 1، ص، 395. ابن جزي، **القوانين الفقهية**، ص ص، 100–101.
257 المصادر نفسها، الصفحات نفسها
258 ابن المناصف، **كتاب الإنجاد**، ص، 310. ابن جزي، **القوانين الفقهية**، ص، 99. خليل بن إسحاق، **مختصر العلامة خليل**، ص ص، 106–107.
259 ابن رشد، **المقدمات الممهدات**، ج. 1، ص، 357. ابن رشد، **بداية المجتهد**، ج. 1، ص، 406. مجهول، **الرسالة الوجيزة**، ص ص، 50–51.
260 ابن المناصف، **كتاب الإنجاد**، ص، 332.
261 انظر للتفصيل في الباعث على القتال في التشريع الاسلامي، وهبة الزحيلي، **آثار الحرب في الفقه الإسلامي**، ص، 106 وما بعدها. نجم الدين الهنتاتي، **الجهاد بين النظرية والواقع**، ص ص، 48–49.
262 ابن رشد، بداية المجتهد، ج. 1، ص، 392.
263 **كتاب الإنجاد**، ص، 186. ابن رشد، **البيان والتحصيل**، ج. 3، ص ص، 30–31. ابن رشد، **بداية المجتهد**، ج. 1، ص ص، 386–387. ابن جزي، **القوانين الفقهية**، ص، 98.
264 سورة البقرة، الآية، 190.
265 مسلم، **الجامع الصحيح**، ج، 6 ص، 144. البخاري، **الجامع الصحيح**، ج. 2، ص، 63. ابن رشد، **بداية المجتهد**، ج. 1، ص، 386.
266 وهبة الزحيلي، **آثار الحرب في الفقه الإسلامي**، ص ص، 496–497.
267 ابن رشد، **البيان والتحصيل**، ج. 2، ص، 525–536، 558–559. ابن رشد الحفيد، **بداية المجتهد**، ج. 1، ص ص، 386–387. ابن المناصف، **كتاب الانجاد**، ص، 188. ابن جزي، **القوانين الفقهية**، ص، 98. خليل بن إسحاق، **مختصر العلامة خليل**، ص ص، 103–104.
268 ابن رشد الحفيد، **بداية المجتهد**، ج. 1، ص، 388. ابن المناصف، **كتاب الانجاد**، ص ص، 191–193. ابن جزي، **القوانين الفقهية**، ص، 98.
269 ابن رشد، **البيان والتحصيل**، ج. 3، ص، 30–44. وكذا المصادر المحال إليها في الهامش السابق، الصفحات نفسها.
270 ابن المناصف، **كتاب الانجاد**، ص، 194.
271 خليل بن إسحاق، **مختصر العلامة خليل**، ص، 104.
272 ابن رشد الحفيد، **بداية المجتهد**، ج. 1، ص، 388.
273 ابن رشد، **البيان والتحصيل**، ج. 3، ص، 44. ابن جزي، **القوانين الفقهية**، ص، 98.
274 ابن رشد الحفيد، **بداية المجتهد**، ج. 1، ص، 385.
275 القاضي عبد الوهاب، **كتاب التلقين**، ص، 73. ابن رشد، **المقدمات الممهدات**، ج. 1، ص، 366. ابن المناصف، **كتاب الإنجاد**، ص، 205. ابن جزي، **القوانين الفقهية**، ص، 99. خليل بن إسحاق، **مختصر العلامة خليل**، ص، 105.
276 **المقدمات الممهدات**، ج. 1، ص، 367.
277 المصدر نفسه، الصفحة نفسها. ابن المناصف، **كتاب الإنجاد**، ص ص، 205–206.
278 السبي والسباء، الأسر، سبى العدو وغيره سبيا وسباء إذا أسره فهو سبي، وكذلك الأنثى بغير هاء، من نسوة سبايا. والسباء والسبي، الاسم، والسبي يقع على النساء خاصة، إما لأنهن يسبين الأفئدة، وإما لأنهن يسبين فيملكن، ولا يقال ذلك للرجال. ابن منظور، **لسان العرب** مادة سبي.

Scanned by CamScanner

279 ابن المناصف، **كتاب الإنجاد**، ص ص، 255–256.

280 **المصدر نفسه**، ص، 216. وانظر للتفصيل، ابن جزي، **القوانين الفقهية**، ص ص، 102–103.

281 ابن رشد، **البيان والتحصيل**، ج. 2، ص، 560.

282 ابن المناصف، **كتاب الانجاد**، ص، 198.

283 ابن رشد، **البيان والتحصيل**، ج. 2، ص، 548.

284 مالك بن أنس، **الموطأ**، ص، 394. راجع في هذا السياق، ابن المناصف، **كتاب الإنجاد**، ص ص، 199–200.

285 القاضي عبد الوهاب، **كتاب التلقين**، ص، 72. ابن رشد، **المقدمات الممهدات**، ص ص، 351–352. ابن رشد، **البيان والتحصيل**، ج. 2، ص ص، 546–547. ج. 3، ص ص، 82–83. ابن رشد الحفيد، **بداية المجتهد**، ج. 1، ص ص، 389–390. ابن المناصف، **كتاب الإنجاد**، ص ص، 157–162. ابن جزي، **القوانين الفقهية**، ص، 98.

286 سورة النساء، الآية، 90.

287 سورة الأنفال، الآية، 61.

288 سورة محمد، الآية، 35.

289 الرصاع التونسي، **شرح حدود ابن عرفة**، ص، 199.

290 ابن رشد الحفيد، **بداية المجتهد**، ج. 1، ص ص، 390–391.

291 سورة التوبة، الآية، 4.

292 سورة التوبة، الآية، 7.

293 ابن المناصف، **كتاب الإنجاد**، ص، 248.

294 **المصدر نفسه**، ص ص، 248–249.

295 وهبة الزحيلي، **آثار الحرب في الفقه الإسلامي**، ص، 270.

296 ابن رشد، **بداية المجتهد**، ج، 1 ص ص، 390–391. ابن جزي، **القوانين الفقهية**، ص، 104. ابن المناصف، **كتاب الإنجاد**، ص ص، 247–249.

297 ابن المناصف، **كتاب الإنجاد**، ص، 247.

298 وهبة الزحيلي، **آثار الحرب في الفقه الإسلامي**، ص، 677.

299 ابن جزي، **القوانين الفقهية**، ص، 104.

300 والذمة في اللغة، العهد وهو الأمان والضمان والكفالة [ابن جزي، **القوانين الفقهية**، ص، 103]. وفي الاصطلاح الفقهي التزام تقرير غير المسلمين في ديار المسلمين وحمايتهم والذب عنهم ببذل الجزية والاستسلام من جهتهم. [ابن رشد، **المقدمات الممهدات**، ج. 1، ص، 368. ابن المناصف، **كتاب الإنجاد**، ص، 247. هامش رقم 5]. وينبغي هنا أن نشير إلى عقد آخر غير عقد المهادنة وعقد الذمة، ويتعلق الأمر بعرف الأمان وعقده، ويعرفه ابن عرفة بقوله، «رفع استباحة دم الحربي ورقه وماله حين قتاله، أو العزم عليه مع استقراره تحت حكم الإسلام مدة ما»، [الرصاع التونسي، **شرح حدود ابن عرفة**، ص، 198]. ويتميز عن أحكام العقدين المشار إليهما في أنه «عقد للواحد أو لعدد خاص على أنفسهم إذا اقتحموا علينا أو احتيج إلى نزولهم للتكلم معهم وما أشبه ذلك». وأجمع المسلمون على وجوب الوفاء بعقد الأمان وتحريم الخيانة فيه، واتفقوا أن الرجل الحر البالغ إذا أمن صح تأمينه، وكذلك أجازوا أمان المرأة الحرة والعبد ولم يجيزوه للصبي وللذمي. كما اعتبر الفقهاء أنه ينبغي التمييز بين خدع الحرب المشروعة والتلويح بالأمان لأنه ما أن يعقده المسلم لزمه. انظر للتفصيل، ابن المناصف، **كتاب الإنجاد**، ص ص، 223–233. ابن جزي، **القوانين الفقهية**، ص، 103.

Scanned by CamScanner

301 سورة التوبة، الآية، 29.

302 ابن المناصف، كتاب الإنجاد، ص، 343–344.

303 المصدر نفسه، ص، 247. هامش المحقق، رقم 5.

304 الرصاع التونسي، شرح حدود بن عرفة، ص، 201.

305 المصدر نفسه، ص ص، 344–348. ابن رشد الحفيد، بداية المجتهد، ج. 1، ص، 407. ابن جزي، القوانين الفقهية، ص ص، 104–105.

306 ابن جزي، القوانين الفقهية، ص، 104.

307 وهبة الزحيلي، آثار الحرب في الفقه الإسلامي، ص، 711.

308 ابن رشد، المقدمات الممهدات، ج، 1 ص، 371. ابن رشد الحفيد، بداية المجتهد، ج. 1، ص، 407. ابن جزي، القوانين الفقهية، ص، 104.

309 ابن المناصف، كتاب الإنجاد، ص، 349. ابن جزي، القوانين الفقهية، ص، 104.

310 ابن المناصف، كتاب الإنجاد، ص، 364.

311 ومن تلك الشروط التي وضعها الفقهاء، وإن اختلفوا في تشديدها أو التخفيف فيها، «أخذهم السنة بالمنع والكف عن تناول شريعة المسلمين وملتهم، وتوقي ما يقدح في شيء من أمور دينهم بشيء من المعابة والطعن والاستخفاف، وذكر النبي صلى الله عليه وسلم بغير ما يحق له، ولو لم يقروا بصحة ذلك، ومنعهم من الدعاء لدينهم، والإعلان بمعالم شرعهم في أمصار المسلمين من ضرب النواقيس، وبناء الكنائس ومجتمع الصلوات، وإظهار الصليب ونحو ذلك. ومن ذلكم منعهم من الإفصاح والإعلان بشركهم، وما يحلون لله من الصاحبة والولد (...) ومن ذلك منعهم من إظهار ما يستبيحونه من شرب الخمر، ومواقعة الفجور، وغير ذلك مما لا يحل للمسلمين خ مع الاطلاع عليه– إقراره. ومن ذلك أن تجري عليهم أحكام المسلمين متى دعاهم إلى ذلك خصم، أو متى ظهر منهم ظلم»، إلى جانب أحكام أخرى تهم تمييزهم بلباس وزي وهيئة ومنع التشبه بالمسلمين. انظر ابن المناصف، كتاب الإنجاد، ص ص، 357–362. ابن جزي، القوانين الفقهية، ص، 105. خليل بن إسحاق، مختصر العلامة خليل، ص ص، 109–110.

312 البخاري، الجامع الصحيح، ج. 2، ص، 100.

313 وهبة الزحيلي، آثار الحرب في الفقه الإسلامي، ص ص، 84–85.

314 سورة البقرة، الآية، 216.

315 مسلم، الجامع الصحيح، ج. 6، ص، 143.

316 نجم الدين الهنتاتي، الجهاد بين النظرية والواقع، ص ص، 48–49.

317 ابن خلدون، المقدمة، ص، 212.

318 الماوردي، الأحكام السلطانية، ص، 55.

319 المقدمة، ص، 212.

320 محمد عبد الحميد أبو زيد، السلم والحرب في الإسلام، النشر العربي، القاهرة، 2001، ص، 157.

321 انظر للتفصيل، المرجع نفسه، ص ص، 184–192.

322 الماوردي، الأحكام السلطانية، ص، 55.

323 كتاب الإنجاد، ص، 381.

324 سورة البقرة، الآية، 217.

325 البخاري، الجامع الصحيح، ج. 2، ص، 63.

326 ابن المناصف، كتاب الإنجاد، ص، 382.

Scanned by CamScanner

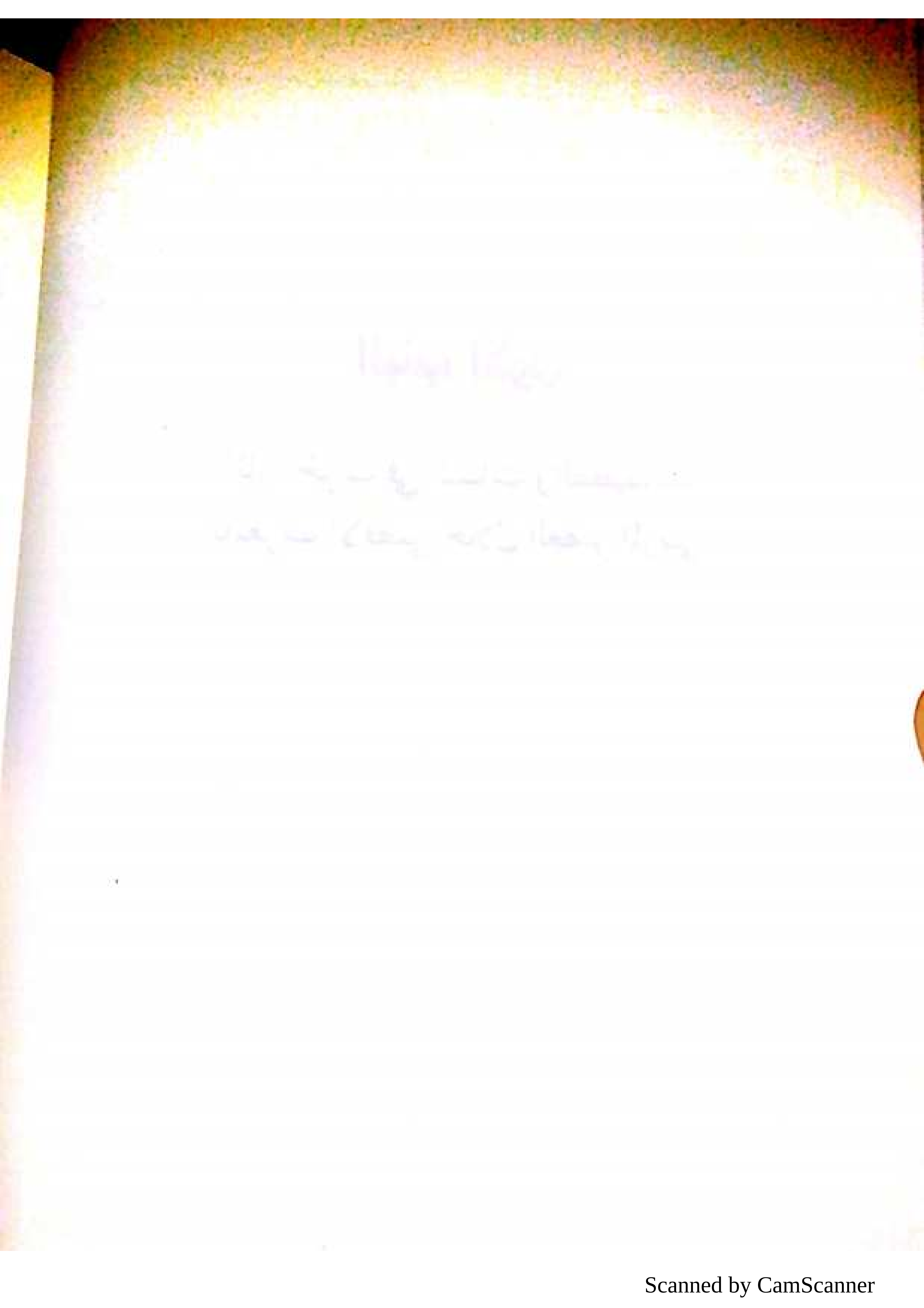
327 المصدر نفسه، ص، 383.
328 البيان والتحصيل، ج. 3، ص ص، 57-58.
329 ابن فرحون، تبصرة الحكام، ص، 276. مجهول، الرسالة الوجيزة، ص ص، 54-55.
330 سورة الحجرات، الآية، 9.
331 راجع الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ص، 58-59. ابن فرحون، تبصرة الحكام، ص، 276.
332 ابن المناصف، كتاب الإنجاد في أبواب الجهاد، ص ص، 403-404.
333 الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، دار الغرب الإسلامي، 1981م، ج. 11، ص، 148.
334 ابن المناصف، كتاب الإنجاد، ص ص، 404-405.
335 ابن المناصف، كتاب الإنجاد، ص، 405.
336 المصدر نفسه، ص ص، 406-407.
337 محمد أبو زيد، السلم والحرب في الإسلام، ص، 159.
338 ابن المناصف، كتاب الإنجاد، ص، 409.
339 المصدر نفسه، ص، 411.
340 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
341 المصدر نفسه، ص ص، 412-415.
342 سورة المائدة، الآية، 33-34.
343 مسلم، الجامع الصحيح، ج. 6، ص، 69.
344 ابن فرحون، تبصرة الحكام، ص، 267.
345 ابن المناصف، كتاب الإنجاد، ص، 393.
346 ابن فرحون، تبصرة الحكام، ص، 269. الونشريسي، المعيار، ج. 2، ص، 404.
347 راجع عن هذه الآراء، محمد أبو زيد، السلم والحرب في الإسلام، ص، 167-184.
348 ابن المناصف، كتاب الإنجاد، ص، 394.
349 المصدر نفسه، ص، 397. الونشريسي، المعيار، ج. 2، ص، 116، 322-323. ج. 6، ص، 156.
350 الماوردي، الأحكام السلطانية، ص، 63.

Scanned by CamScanner

الباب الأول

آثار الحرب في البنيات والتنظيمات
بالمغرب الأقصى خلال العصر المريني

Scanned by CamScanner



الفصل الأول

الحرب والقبيلة

Scanned by CamScanner



Scanned by CamScanner

لا سبيل لإنكار ما يعترض الباحث في تاريخ القبيلة المغربية خلال العصر الوسيط عموما، والمريني على وجه التخصيص، من صعوبات يهم الجانب الأساس منها قلة المادة التاريخية، وضعف المتوفر منها وضحالته. ويزداد الأمر تعقيدا حين يحاول الباحث أن يقارب ظواهر بعينها، ومنها ظاهرة الحرب في القبيلة خلال المرحلة المدروسة؛ فالمصادر، وإن كان يحمد لها التنبيه على الظاهرة، وتأكيد حضورها البين، فإن ما تقدمه من معلومات لا يتجاوز بعض الإشارات والايماءات الخجولة، يخص قسم هام منها القبيلة المرينية، خاصة في بداية القرن السابع الهجري، والقبائل الأخرى في علاقتها بالأولى سواء في «مرحلة القبيلة» أو في «مرحلة الدولة».

وإذا استثنينا المادة الهامة التي أمدنا بها الموروث الخلدوني في هذا الصدد، والملاحظات والإشارات القيمة التي زودتنا بها بعض كتب الجغرافيا والنوازل، فإن الأمر يبدو أشبه بـ«المعضلة» التي نحاول أن نتجاوزها، وفق ما اقترحه أحد المتخصصين[1]، عن طريق لم شتات النصوص المتناثرة حول القبائل برمتها، ومحاولة رسم الخطوط العامة للظاهرة في إطار عملية تركيبية تمكن من الوقوف على الثوابت والمتغيرات بين مختلف القبائل، مع تأكيد ما تقتضيه مثل هذه الظاهرة من ضرورة استحضار الاختلاف بين القبائل من حيث المجال الذي تستوطنه، وأسلوبها في تدبير المعاش، وما يترتب عن ذلك من أشكال التنظيم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي.

وجدير بالإشارة، أن الحرب في القبيلة لا تعني دائما، وبالضرورة، صراعا دمويا حادا، وإنما هي حالة اجتماعية تلازم القبيلة في ظروف تكاد تكون بنيوية، تبرز تمظهراتها سواء داخل القبيلة، أو في علاقتها بغيرها من القبائل، أو في علاقتها بالدولة.

المبحث الأول: الحرب والقبيلة بين الرصد المصدري والتفسير الأنتروبولوجي

أولا: مستويات حضور الحرب القبلية في المصادر الوسيطية

ما من ظاهرة اجتماعية لفتت أنظار أصحاب المظان التي أرخت للمجتمع المغربي خلال العصر الوسيط، والمريني على وجه الخصوص، فيما يخص القبيلة، أكثر من ظاهرة الحرب والصراع بين القبائل. وإذا كان الأمر يبدو طبيعيا بالنسبة لكتب الحوليات التاريخية التي تثير الأحداث الصاخبة، والوقائع المدوية، مؤلفيها من جهة، وارتباطا بمنظورهم التمدني

Scanned by CamScanner

الذي يحفر كل أعمال البدو من جهة ثانية، فإن حضور هذه الظاهرة، وبكثافة، في أوصاف الجغرافيين، ووقعها في كتب الفقه والنوازل والتصوف وغيرها من المصادر، يجعلها أكثر الظواهر الاجتماعية حضورا، وإن كانت تكتفي بمجرد الوصف دون العمل على استكناه أسبابها ودواعيها العميقة.

ويبدو من خلال المادة التي عثرنا عليها في مختلف المتون أن هناك إجماعاً حول هذه النقطة؛ فالقبائل المغربية، في معظمها، تبدو وكأنها مولعة أبدا بممارسة الحرب. ومن خلال أوصاف المؤرخين والجغرافيين وغيرهم[2]، يتضح أن أول ما ينبثق، وبشكل لا جدال فيه، الصورة الأكثر بداهة التي تبدو عليها القبيلة، وهي صورة الحرب، صورة تطغى على كل الأوصاف إلى حد يسمح بتسجيل الملاحظة الأولية الآتية: إن القبائل المغربية مدار الدرس في معظمها محاربة، والوجود الاجتماعي القبلي وجود من أجل الحرب.

يظهر أن هذا الانطباع –على الأقل– هو الذي تكون لدى شهود مباشرين عايشوا هذه الظاهرة وسجلوها؛ فقبل العصر المريني حين «مر عبد الله بن ياسين ببلاد المصامدة بعد منصرفه من الأندلس، وجدهم يغيرون بعضهم على بعض، يغنمون الأموال، ويقتلون الرجال، ويسبون الحريم»[3]. ولما عاد من الصحراء «قاصدا أغمات، طاف على قبائل المصامدة وقبائل تامسنا، فوجدهم على ما كان تركهم من الفتنة»[4]. والصورة نفسها سجلها ابن خلدون[5] فيما بعد عن هذه القبائل؛ إذ يذكر عن قبيلة وريكة –وهي من مصامدة الجبل– أنهم «مجاورون لهنتاتة، وبينهم فتنة قديمة، وحروب متصلة، ودماء مطلولة كانت بينهم سجالا، وهلك فيها من الفريقين أمم».

والانطباع ذاته سجله مجموعة من الجغرافيين عن أهل السوس، وعلى مدى مراحل تاريخية متباعدة طيلة العصر الوسيط؛ إذ يذكر ابن حوقل[6] أن «أهل السوس فرقتان مختلفتان، مالكيون أهل سنة، وموسويون شيعة ... وبينهم القتال المتصل، والدماء الدائمة». ويستعيد الإدريسي[7] خلال القرن 6هـ/12م الملاحظة نفسها مؤكدا أن أهل السوس «بينهم أبدا القتال والفتنة وسفك الدماء وطلب الثأر»، وهم على ما رآه الوزان[8] حتى القرن 10هـ/16م، في «حروب لا تنقطع لكنها حروب أهلية لا تصيب الأجانب».

ولا تعوزنا النصوص التي تسم قبائل صنهاجة بالميسم نفسه، إذ يبدو أنها كانت تعيش في الجو نفسه المملوء بالحرب والعنف؛ فقد كانت من بين مؤاخذات عبد الله بن ياسين على

Scanned by CamScanner

رجالها ما وجدهم «من إغارة بعضهم على بعض».[9] والملاحظة عينها سجلها صاحب «الحلل الموشية»[10] في حديثه عن قبائل الملثمين، إذ يذكر أنه «كانت بينهم فتنة دائمة». وبالمثل تتحدث بعض النصوص عن شخص استفتى الفقيه ابن رشد (ت. 520هـ/1126م) «في قوم من قبائل شتى يتغاصبون فيما بينهم، وليس لهم مال غير الماشية، وهذا الغصب المذكور فيما بينهم من قديم بين آبائهم وأجدادهم»،[11] مما يثبت قدم الظاهرة وشيوعها.

ويبدو أن ظاهرة الحرب القبلية ازدادت تجذرا خلال القرن 6هـ/12م والقرون اللاحقة[12]؛ فقد كانت قبائل بني مرين وغيرها من قبائل زناتة الساكنة بالقفر تعيش في حروب متواصلة، لا تخمد واحدة إلا لتشتعل أخرى، وكان ذلك طبعهم «لا يعرفون الحرث ولا التجارات، ولا يشتغلون بغير الصيد والغارات، جل أموالهم الإبل والخيل، ودأبهم الحرب، وخوضان الليل».[13] وقبل القرن 7هـ/13م، كان هذا القبيل «يملك جميع بوادي زناتة حتى بلاد الزاب... وأذاق لمتونة وملوك تكلاتة الصنهاجيين شرا كثيرا، و لم يزل يغير على بلادهم بتلمسان وبجاية والقلعة وغير ذلك من البلاد، يهزمون وينهبون».[14]

وفي السياق نفسه، يذكر ابن خلدون[15] أن قبائل زناتة من بني مرين وبني عبد الواد وغيرها، كانت تعيش في حروب وتحالفات؛ فقد كانت «بين بني عبد الواد وبني مرين منذ أوليتهم وتقلبهم في القفار فتن وحروب، ولكل منهما أحلاف في المناصرة». ويؤكد في مكان آخر أنه «كانت لهم في محاربة الأحياء والقبائل، ومنافسة الأمم والدول، ومغالبة الملوك أيام ووقائع».[16]

وتكشف كتب النوازل ومصنفات المناقب أيضاً عن مدى استفحال هذه الظاهرة التي أصبحت تدخل في نطاق المألوف، وما جرت به العادة في الحياة القبلية المغربية،[17] إذ أضحت جزءا مما «جرت به المقادير، وشهدت به العوائد»[18]؛ فقد سئل بعض فقهاء العصر المريني «عن أهل بلد بينهم وبين جيرانهم حرب، ووقع بينهم القتل».[19] كما استفتي آخر «عن قبيلتين من البربر اقتتلتا فأرادت إحدى القبيلتين أن تستعين بقبيلة أخرى على التي اقتتلت معها».[20] وسئل الدرعي في فترة متأخرة «عن قوم يتناهبون ويتغاصبون، ينهب هؤلاء وينهب هؤلاء، وأسلافهم كذلك»،[21] مما يكشف عن عادة متأصلة في بعض القبائل التي تتخذ الحرب حرفة لها.

من جانب آخر، تتحدث كتب المناقب عن بعض كرامات المتصوفة في إخماد نار الحرب بين القبائل؛ فقد كان من عادة أبي يعزى أن يتدخل في «مفاتنة القبائل وتحزبهم للحروب،

Scanned by CamScanner

وقتالهم للغوائل، وغضبهم للعصبية».22 كما كان أبو عبد الله الغزواني (ت. 935هـ/1528م) يتدخل في حروب القبائل على عادة شيوخ التصوف في هذه المرحلة،23 «يزعمون أن ذلك طاعة لله عز وجل» حسب رأي أحدهم.24

ولا تنقصنا الدلائل التي تثبت شيوع هذه الظاهرة في مختلف مناطق المغرب الأقصى، واستمرارها حتى فترة تاريخية متأخرة عن زمن البحث؛ فقد سجل الحسن الوزان25 في هذا الصدد ملاحظات هامة تؤكد صدق ما نذهب إليه، ففي حديثه عن سكان غمارة يؤكد أن «هم دائما في حروب وخصام مستمر»،26 مثلهم في ذلك مثل من «يتعايش في بادية تامسنا [من القبائل] متسالمين تارة، ومتحاربين بضراوة تارة أخرى، لعداوة قديمة بينهم».27 فضلا عمن هم «محاربون لجيرانهم على الدوام»،28 كما هو حال قبائل شيشاوة، ومن «يحكمون أنفسهم بأنفسهم، حتى إنهم منقسمون متحاربون في غالب الأحيان».29 وفيما يلي جدول بأهم العبارات التي استعملتها بعض المصادر للدلالة على قدم ظاهرة الحرب القبلية واستمرارها كثابت من ثوابت الحياة القبلية.

الجدول رقم 2: جرد لأهم العبارات التي اعتمدتها المصادر للدلالة على قدم ظاهرة الحرب القبلية واستمرارها

القبيلة والمجال	العبارة	المصدر والصفحة
أهل سوس	«وبينهم القتال المتصل، والدماء الدائمة»	«صورة الأرض»، 90 «نزهة المشتاق»، 228
المغرب الأقصى	كانت الحرب بين القبائل مما «جرت به العادة، وشهدت به العوائد»	«دعامة اليقين»، 41
صنهاجة الصحراء	«كانت بينهم فتنة دائمة»	«الحلل الموشية»، 16
بنو مرين	«ودأبهم الحرب وخوضان الليل (...) وكان ذلك دأبهم على مر الزمان»	«الذخيرة السنية»، 25-26
وريكة وهنتاتة	«بينهم فتنة قديمة وحروب متصلة ودماء مطلولة، كانت بينهم سجالا»	«العبر»، ج. 6، 365
قبائل فازاز من جنانة والعرب والبربر	«يغيرون على القرى المجاشر مع الأحيان والأوقات»	«الأنيس المطرب»، 288
أهل القفار من البدو	«فهم دائما يحملون السلاح»	«المقدمة»، 99-100.
قبائل الصحراء	«أرزاقهم في ظلال رماحهم، ومعاشهم فيما بأيدي غيرهم»	نفسه، 211.
بلاد القبلة	«وقل ما تخلو من الحروب»	«رحلة العبدري»، 8

Scanned by CamScanner

صنهاجة الصحراء	«يتغاصبون فيما بينهم، وهذا الغصب المذكور فيما بينهم من قديم بين آبائهم وأجدادهم»	«المعيار»، ج. 10، 449
قبائل غمارة	«وهم دائما في حروب وخصام مستمر»	«وصف إفريقيا»، ج. 1، 36
قبائل تامسنا	«متسالمين تارة، ومتحاربين بضراوة تارة أخرى»	نفسه، ج. 1، 37
قبائل حاحا	«في حروب لا تنقطع»	نفسه، ج. 1، 102
بنو ورياغل	«يعيشون في عداء مستمر»	نفسه، ج. 1، 337
أهل جبل شيشاوة	«محاربون لجيرانهم على الدوام»	نفسه، ج. 1، 140
قبائل جزولة	«منقسمين متحاربين في غالب الأحيان»	نفسه، ج. 1، 145
أهل جبل بني زروال	«في حرب دائمة مع جيرانهم»	نفسه، ج. 1، 336
قبائل درعة	«في نزاع وقتال دائمين»	نفسه، ج. 1، 119
قبائل الصحراء	«ينهب هؤلاء، وينهب هؤلاء، وأسلافهم كذلك»	«أجوبة الدرعي»، 155

وعلى الشاكلة نفسها تتناسل أوصاف الجغرافيين والمؤرخين عن قوة هذه القبيلة وشراسة تلك، ويتعدى ذلك إلى وصف شجاعة أفرادها، وكثرة عدتهم وعددهم،[30] حيث تبدو القوة الجسمانية، والقدرة على المخاطرة، والمعرفة بأساليب الحرب، مؤهلات ضرورية لأية قبيلة، إذ بمقدار ما تتوفر على مجموعة هامة من الفتيان المحاربين الأقوياء والشجعان، يتسع نفوذها وتعظم هيبتها.[31] ومن تلك النصوص حديث العمري[32] الذي عبر عن شجاعة أحد أبناء مرين بقوله: «ومن هؤلاء يعيش بن يعقوب بن عبد الحق، تعرض له مرة نحو خمسمائة فارس، وهو مرتحل بأهله وعياله من بلاد هسكورة إلى مراكش (...) ثم إنه دفع عنهم ففرق جمعهم، ونجا جميع أهله ومن معه». ومثل هذا الاعتراف نجده في قول «بعض أبطال العرب أنه إذا كان منا مائة ولاقاهم زناتي واحد هربوا أمامه، و لم يتجاسروا على إقدامه ولا ملاقاته، وقال: إذا جاء الزناتي مغيرا فلا يعتقد أن أحدا يهجم عليه».[33]

وإذا كانت هذه النصوص أطنبت في ذكر ما كان بين القبائل من حروب، ووصف قوتها أو ضعفها، فالواضح أنها لم تول أهمية لاستكناه الأسباب العميقة وراءها،[34] واكتفى بعضها بردها إلى العدوان المتأصل في طباع البشر، كما يبدو بشكل جلي من خلال

Scanned by CamScanner

الروايات المشرقية[35] التي عدت ذلك من طباع الإقليم الثالث من الأقاليم التي قسموا إليها العالم، حيث يتميز الإنسان فيه حسب زعمهم أنه «صاحب سفك الدماء وما يتبع ذلك». بل اعتبروا أن المغرب الأقصى يحتل مكان الصدارة في هذا الاتجاه؛ إذ «الغالب على أهله كثرة التنافس المفرط والمفاتنة».[36] وتؤكد بعض النصوص المغربية ذلك، وهو ما نلمسه عند عبد الواحد المراكشي[37] الذي عزا تجذر الحرب لدى المصامدة إلى ما في طباعهم من ميل إلى سفك الدماء، وهو أمر «جبلت عليه فطرهم، واقتضاه ميل إقليمهم».

على عكس هذه المقاربة البيئية، فسرت بعض المصادر الحرب القبلية تفسيرا مذهبيا دينيا، خاصة قبل العصر المريني، وهو ما يستفاد من ابن حوقل[38] والإدريسي،[39] اللذين ربطا بين الحرب القبلية المستمرة في بلاد السوس والاختلاف المذهبي بين قبائله. دون أن نغفل ما طبع النصوص التي أرخت لدول المرحلة من تحقير لتلك الظاهرة، واعتبارها من صنف البغي على الأمير،[40] أو الدب في الأرض فسادا.[41] فضلا عمن أدخلها في صنف الصراع العصبي والتحزب للغوائل والعصبيات.[42]

والخلاصة أن الحرب القبلية في تاريخ المغرب الوسيط عموما، والعصر المريني على وجه التخصيص، هي ظاهرة حاضرة بالقدم والشيوع والاستمرار.

وإذا كنا لا نؤاخذ مؤرخي العصر الوسيط على عدم الذهاب بعيدا في فهم الظاهرة الحربية داخل القبيلة وتفسير أسبابها، فإنه من المستغرب أن نجد دراسات تاريخية تردد ما تذكره النصوص دون أن تعمل على تعقب الظاهرة وتحليلها؛ فقد اعتبرها رواد المدرسة الاستعمارية أدلة كافية للقول بأن تاريخ المغرب كان مجرد صراع مستميت بين القبائل، وأن ذلك يدخل في خضم الفوضى التي تميزه،[43] لتبرير التدخل الأجنبي والتمهيد له. ونعتقد أن ما كتبه بعض المؤرخين المتخصصين[44] كاف لعدم الخوض في هذا النقاش، إذ من غير الخفي مدى زيف هذا التفسير لافتقاده إلى ضوابط البحث التاريخي الموضوعي.[45] فلا التفسير العرقي- العنصري، ولا المذهبي- الديني، يمكنه مقاربة هذه الظاهرة مقاربة علمية، بل الواضح أن لها عوامل موضوعية اقتصادية واجتماعية وتاريخية، تحتاج منا كثيرا من إعمال العقل قصد عقل هذه الظاهرة وتبين أنساقها. وقبل الدخول في صلب الموضوع نعتقد أنه من الأفيد أن نرصد بعض آراء الأنثروبولوجيين في الظاهرة.

Scanned by CamScanner

ثانيا: الحرب والقبيلة، من منظور أنثروبولوجي

على الرغم من الاختلافات التي قد تبدو بين علمي التاريخ والأنثروبولوجيا في مجال الاختصاص وأسلوب التفسير وتقنياته،[46] فثمة كثير من أوجه التشابه بينهما وهو تشابه استحسنه كثير من الباحثين لما ينطوي عليه من رغبة كلا الحقلين في إزالة الغبار عن بعض القضايا العالقة المرتبطة بالمجتمع والثقافة والسياسة، ودور ضوابط التنظيم الاجتماعي والاقتصادي في تشكيل بعض القضايا، مثل اللامساواة الاجتماعية والسلطة السياسية وغيرها. وقد أسهم هذا التشابه بشكل كبير في تقليص المسافة بين المؤرخين والأنثروبولوجيين إزاء محاولتهم المشتركة لإعادة معاينة المجتمع وتاريخه،[47] وتقاطعهم في طرق مواضيع بعينها ليس أقلها ظاهرة الحرب القبلية، والعناصر الفاعلة فيها.

مهما يكن، فإن ما تقدمه الأنثروبولوجيا من تفسيرات حول ظاهرة الحرب في المجتمعات «البدائية»،[48] والتجديدات التي جاءت بها من حيث المنهج والمقاربة، أو من حيث النتائج المتوصل إليها، تستحق منا وقفة نذكر من خلالها بأهم الخلاصات العامة التي توصل إليها الأنثروبولوجيون في تفسير هذه الظاهرة، وهو من شأنه أن يضاعف الأسئلة، ويدعم مقاربتها، إن لم يساعدنا على فك بعض ألغازها.

إن اهتمامنا بما قدمته الأنثروبولوجيا من ملاحظات في هذا المجال ليس اعتباطيا، بل نابعا من اقتناعنا بأن هذا العلم ارتبط ظهوره بهذه الظاهرة التي نحاول أن نسائلها، وإن تعلق الأمر بمجالات غير التي ندرسها، إذ لا يخفى على أي باحث الارتباط الوثيق بين الأنثروبولوجيا والاستعمار،[49] والذي يجمعهما ما سماه أحد الباحثين[50] بعنف التسمية والتصنيف والحكم الذي كان موضوعه المجتمعات المغايرة للمجتمع الأوربي، والذي يقتضي افتراض وجود مجتمعين: مجتمع عنيف حربي (وهو المجتمع المسمى «بدائيا»)، ومجتمع مدني متحضر (هو المجتمع الأوربي). وكثير هم الباحثون الذين تبنوا هذا التصنيف،[51] تحكمهم في ذلك نزعة «أنوية» تجعل كل خارج عن الحضارة الغربية خارجا عن التاريخ والحضارة.[52]

وقبل طرق هذه الملاحظات، يجدر بنا أن ننظر بجدية إلى ما كان حذر منه بول باسكون[53] في مسألة الاختلاف بين القبائل؛ إذ إن تتبع تاريخ قبيلة ما، ودراسته في زمان ومكان معينين، لا يعني بالضرورة مطابقة ذلك التاريخ لقبيلة أخرى في المكان والزمان

Scanned by CamScanner

نفسيهما، فبالأحرى إذا اختلفا.[54] وسيكون علينا ألا نتوقع -لأغراض الدراسة المقارنة- أن يكون ثمة تماثل بين التجمعات القبلية، على مستوى خصائصها والظواهر الفاعلة فيها،[55] أو نعمل على إسقاط النتائج المتوصل إليها في دراسة الظاهرة الحربية في قبائل حديثة بالمغرب أو أماكن أخرى من العالم، وعلى تفسير ظاهرة الحرب القبلية خلال الفترة المدروسة.

من أشهر الآراء التي صيغت حول الظاهرة الحربية في المجتمعات القبلية و«البدائية»، يمكن التمييز بين أربعة اتجاهات أساسية هي: الاتجاه الطبيعي البيولوجي، والاتجاه الاقتصادي، والاتجاه التبادلي، والاتجاه السياسي.

1. الاتجاه البيولوجي:

بالنسبة لهذه الأطروحة، تنظر إلى الحرب باعتبارها خاصية من خصائص النوع البشري، وسنة من سنن الكائن الإنساني، ومظهرا من مظاهر تنازع البقاء الذي يمثل وصفا طبيعيا ملازما للكائنات الحية لا ينفك عنها، وبوصفه سلوكا عدوانيا متأصلا في طبيعة الإنسان البيولوجية. وبما أن هذا السلوك العدواني جعل لتأمين البقاء، فقد شكل منذ البدء تقنية للحصول على الغذاء، تجسدت لدى البدويين من خلال الصيد.[56] فالحرب تصنف وتفهم باعتبارها نوعا من الصيد، أو كأنه تطور لأحد أشكاله، فيصبح آنذاك الدافع إلى الحرب دافعا بيولوجيا مقترنا بالحاجات الغريزية للإنسان، أولها «الحاجة إلى الطعام، والحاجة الثانية هي حاجة الجنس، والحاجة الثالثة هي الحاجة إلى الاطمئنان».[57]

ونجد لمثل هذا التفسير صدى في بعض المعاجم، كذاك الذي يسم الحرب بصفة الحيوانية، ويعتبر أن «الإنسان وهو في أحط درجات اجتماعه لا يفترق عن العجماوات في شهواته ونزواته إلا بفروق ضعيفة، كانت الحرب ديدنه سواء ضد الحيوانات أو ضد بني نوعه؛ فما كان منها ضد الحيوانات جعل لها مبررات كثيرة كقتل ما هو ضار به، أو ذبح ما يصل لغذائه منها أو صيد ما ينفع لإلهائه من أسرابها، وما كان من الحرب ضد بني نوعه ابتكر لها مبررا ت أعلى رتبة كغنم ما لابد له من تقويم حياته من مقومات الجسد أو إجلاء مجاوريه عن أرض لا حياة له إلا بها...».[58] والحقيقة أن مثل هذه الآراء تجد تعبيرها في آراء هوبز الذي يربط الحرب بالطبيعة، أي قبل مرحلة الثقافة،[59] وهو ما دفع ببعض الباحثين[60] إلى اعتبار الحرب أشبه ما تكون بنزعة فطرية أو نتاج تربية خاصة عند البدو، مما يحصر الحرب في المجتمعات البدوية ولا يتعداها.

Scanned by CamScanner

عموما فإن أصحاب هذا الاتجاه يتناولون الحرب في المجتمع البدوي، بوصفها معطى طبيعيا يضرب بجذوره في كينونة الإنسان البيولوجية، وهم بذلك يردون الاجتماعي إلى البيولوجي، ويفسرون ظاهرة تخص علم الاجتماع بالعودة إلى علم الحيوان.[61] وعلاوة على ذلك فإن هذا التفسير يقف عند الحاجات الأولى للإنسان ولا يتعداها، وسيكون من الصعب أن نخضع مثل هذا الرأي للتطبيق على القبائل المغربية المدروسة؛ فبالرغم من مطابقة هذا الرأي لما تصف به المصادر بعض القبائل المتقلبة في القفار من حيث أنهم «لا يعرفون الحرث ولا التجارات، ولا يشتغلون بغير الصيد والغارات»،[62] وأن «معاشهم فيما بأيدي غيرهم، ومن نازعهم عن متاعه آذنوه بالحرب»،[63] فإنه لا يفسر صفة العطاء والكرم التي ميزت هذه القبائل، إذ يتعذر فهم لماذا تحارب هذه القبائل لتكديس المواد الغذائية ثم تعطي،[64] مثلما هو صعب أن نفهم به كيف تنتقل القبيلة من حروب العوز والحاجة إلى حروب الترف والكماليات.

2. الاتجاه الاقتصادي:

يربط هذا الاتجاه الحرب في المجتمع القبلي أولا بعنصر الصحراء،[65] حيث تظهر الحرب وكأنها ردود أفعال ايكولوجية محضة للنزوع نحو الخصب، ثم بعنصر الجوع حين تصبح الحرب وسيلة بدائية لرد غائلته،[66] ومن هنا تبدو الحرب تنافسا بين الجماعات من أجل امتلاك الخيرات المادية. ويستند هذا الطرح الى مقولة «اقتصاد الندرة» و«اقتصاد الكفاف»؛ حيث يقوم الاقتصاد على الضروري الذي يسمح للبدويين بالبقاء على قيد الحياة، والموارد هي من الندرة بحيث لا تكفي للجميع، ومن هنا كان لجوء الجماعات إلى التنافس من أجل الحصول عليها، مما يفضي إلى النزاع المسلح أي الحرب.[67]

لقد سبق لإنجلز[68] – اعتمادا على ملاحظات الأنثروبولوجي مورغان– أن عزا أسباب الحرب في المجتمعات البدائية إلى كونها وسيلة للكسب ورد غائلة الجوع، وأن «الحرب القديمة بين القبائل تتحول إلى عملية نهب وسلب في البر والبحر لأجل الاستيلاء على الماشية والعبيد والكنوز وتتحول بالتالي إلى مصدر عادي للكسب، إلى حرفة، وبكلمة تغدو الثروة موضع إطراء وتبجيل وتقدير بوصفها الخير الأعظم، وتمسي القواعد العشائرية القديمة موضع تحقير لأجل تبرير نهب الثروات بالعنف والقسر». فالحرب إذن ترتبط أشد الارتباط بالفقر وتصبح في هذه الحالة قوام معاش البدويين، ومصدرا عاديا للكسب والعيش.

Scanned by CamScanner

وبرأي كلاستر[69] وبعض الأنثروبولوجيين العرب،[70] لا يشذ التصور الماركسي عن هذا التفسير؛ فقانون الحركة التاريخية والتغير الاجتماعي تفسره المادية التاريخية من خلال ميل قوى الإنتاج الذي لا يقاوم إلى النمو، وهو ما يعني أن التاريخ ينطلق من النقطة التي تكون عندها قوى الإنتاج في أدنى حد ممكن حيث الندرة والقلة في الاقتصاد القبلي.[71] وهو ما ينفيه أصحاب الأنثروبولوجيا السياسية الذين يعتبرون، على النقيض من ذلك، أن الاقتصاد البدوي هو «اقتصاد وفرة»، لا ندرة، وبذلك «فإن المرتكز الاقتصادي للحرب عند البدائيين لم يعد له مبرر».[72]

وإذا كان هؤلاء الأنثروبولوجيون يأخذون على أصحاب هذا التفسير تأكيدهم فكرة «الشقاء البدائي»، حيث يطغى اقتصاد القلة والندرة كما ذكرنا، فإنه من الصعب استبعاد هذا التصور في دراستنا للقبيلة المغربية خلال المرحلة المدروسة، ولا نستطيع إلا تأكيد ما قاله جاستون بوتول[73] في أنه «إذا ما أردنا أن نقول: إن العوامل المعاشية أصل حرب من الحروب لدى المعتدي على الأقل، وجب أن نملك القدرة على أن نثبت أن السبب – أو محرك النزاع على الأقل– معاشي لا يشوبه شيء آخر... ويبدو أن قليلا من الحروب تستجيب لهذا التعريف، وإذا ما أردنا أن نضرب أمثلة لا جدال فيها ألفينا القبائل البدائية المتألمة من معاش غير مرن تغزو جيرانها للاستيلاء على مدخراتهم الغذائية».

3. الاتجاه التبادلي:

بالنسبة لهذا الطرح؛ تتحدد صلة المجتمع بالحرب في كون العلاقات بين القبائل هي علاقات تجارية تبادلية قوامها الأخذ والعطاء. ويتوقف مصير السلم أو الحرب بين القبائل على نجاح هذه المشاريع التجارية أو فشلها.[74] وعليه يربط أصحاب هذا الاتجاه بين التبادل والحرب على نحو يجعل هذه الأخيرة تنشأ عن «اتفاقات فاشلة»،[75] ويصبح التبادل عبارة عن حروب كامنة تجد حلها بطريقة سلمية. فالمجتمع القبلي إذن "مجتمع من أجل التبادل"، أما الحرب فوجودها يبقى عرضيا ومرتبطا بحالة الفشل في التبادل.[76]

بنى ليفي ستراوس، الذي أغنى هذه النظرية بشكل كبير، رأيه في التبادل على مبدأ منع الزواج من المقربات/ منع زواج المحارم، وهو مبدأ إيجابي في نظره، لأنه حين يمنع الشخص من الزواج من قريبته مثلا، فإنه بذلك يدفعه إلى تزويجها بآخر، وهو ما يضمن مبدأ التبادل، ويدفع في اتجاهه.[77]

Scanned by CamScanner

عموما، فإن علاقات التبادل التي تميز المجتمع القبلي، تأخذ طابع الاستمرارية والاعتراف المتبادل بين الطرفين. ويعتبر أحد الباحثين[78] «أنه من الطبيعي أن تتخلل هذه العلاقة فترات من التنافس العنيف (...) إذ لا يصح أن يغيب عن بالنا أن علاقات التبادل في كل المجتمعات هي علاقات تكامل وتنافس في آن معا، علما أن التنافس يمكن أن يتطور إلى اقتتال عنيف في بعض الأحيان»، والحرب تبعا لذلك لا تأخذ بعدا «مؤسسيا» داخل الجماعة القبلية، بل تصبح نفيا لها بما هي اجتماع تبادلي.[79]

على أن ما يعيق هذه النظرية، حسب بعض الباحثين،[80] هو كونها تبني أسس المجتمع على القاعدة فقط؛ فإذا كانت المصاهرة والزواج من الأباعد من حيث المبدأ، إلغاء للحرب، وتأكيدا للتبادل بين المجموعات القبلية، فإنه في الآن ذاته تصبح وسيلة للإعداد للحرب ضداً على آخر لم تشمله عملية التبادل، وهو ما ينطبق أيضا على التحالف.[81] فالتبادل يصبح قاعدة فقط من حيث إنه يفتح مجالات أخرى بما فيها الحرب وممارسة العنف، وسيتأكد هذا عندما نسائل هذا المبدأ في دراستنا للقبيلة المغربية خلال المرحلة المعنية بالدراسة، حيث تبدو الحرب، في بعض الأحيان، وليدة التبادل، ونقيضا له في الآن معا.

4. الاتجاه السياسي:

يعتبر بيار كلاستر[82] وجورج بالانديه[83] من رواد هذا الاتجاه؛ ففي إطار تجديداتهما في حقل الأنثروبولوجيا السياسية، أكدا على البعد السياسي للحرب في بنية المجتمعات القبلية. وينحو بعض الباحثين العرب[84] هذا المنحى، فيحدد للحرب على صعيد هذه المجتمعات وظيفتين أساسيتين، تتعلق الأولى بالتوحيد الداخلي للقبيلة، وتتمثل الثانية في تحقيق تمايزها عن الخارج. وفي هذا الإطار تصبح الحرب في القبيلة تعبيرا عن سياستيها الخارجية والداخلية، حيث تتداخل الظاهرة الحربية بالتحدر النسبي المنبني على نظام القرابة ليشكلا معا النسق السياسي للجماعة القبلية.[85]

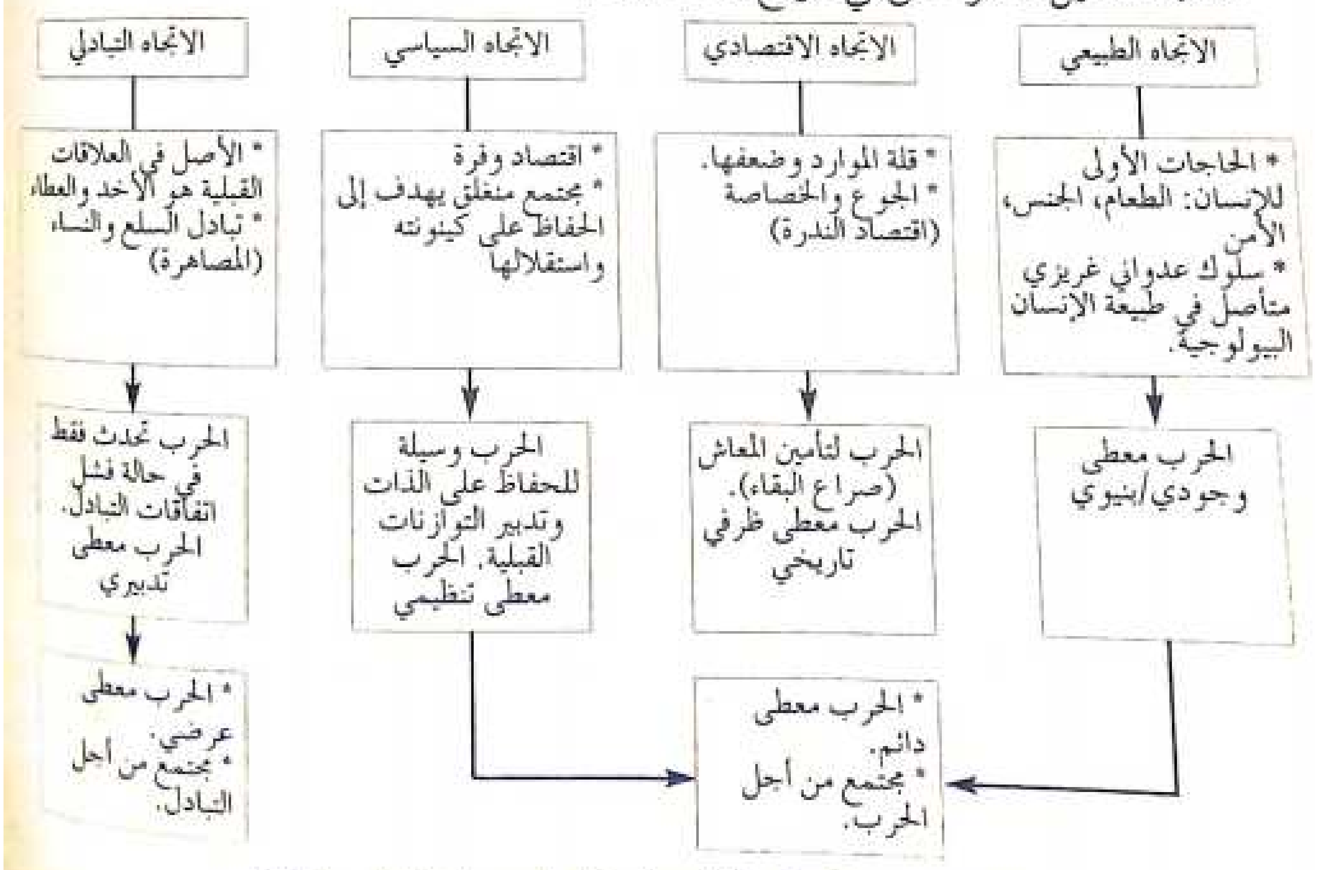
الحرب إذن بالنسبة لأصحاب هذا الاتجاه، لا تفسر بردها إلى خاصية الإنسان البيولوجية، ولا إلى التنافس الحيوي بين الجماعات، أو إلى التبادل، بل هي قبل كل شيء أداة سياسية تحافظ من خلالها الجماعة على هويتها وكينونتها السياسية.[86] وهم بذلك يردون الظاهرة الحربية إلى السياسي قبل الاقتصادي. على أنه تجب الإشارة هنا إلى أنه بقدر ما يرجع أصحاب هذا المقال خطأ المقال الاقتصادي إلى سبب رئيس مفاده أن قدَر المجتمعات

Scanned by CamScanner

البدوية هو الدولة،[87] وأن الاستناد لمبدأ الفوضى، ورد غائلة الجوع «لتفسير حالة الحرب في المجتمعات البدوية يخفي بحق وراء هذا الخطاب رثاية حضارية هدفها تفسير نشأة الدولة»، على حد تعبير تركي علي الربيعو،[88] يجب الاعتراف بأن المغالاة في اعتبار البعد السياسي تقف وراءه رغبة تهدف «لفهم لماذا كان تاريخ المجتمعات البدائية والبدوية هو تاريخ الصراع ضداً على الدولة، ومن هنا يصح وصفها بأنها مجتمعات مضادة للدولة»[89] بتعبير الباحث نفسه. وسيكون من الصعب أن نخضع مثل هذا الرأي، بإطلاقيته على الأقل، للتجربة أثناء الحديث عن القبائل البدوية التي أنتجت الدولة كما عرفها المغرب خلال العصر الوسيط.

وإذا كان كلاستر،[90] أثبت في بعض أبحاثه شقاء المحارب «البدائي» الذي يقضي عمره ساعيا إلى الزعامة دون أن يتوقف، فإن الحالة في المغرب الأقصى لا تبدو كذلك، على الأقل في غايتها، حيث يتمكن في الغالب زعيم قبيلة محاربة من الوصول إلى الحكم، وتأسيس الدولة كما هو الحال عند بني مرين.[91]

تلك أهم الخطوط العريضة التي صيغت عن الظاهرة الحربية في المجتمعات القبلية من قبل الدراسات الأنثروبولوجية (انظر الخطاطة رقم 1)، وأهم الانتقادات التي وجهت لها. بقي أن نسائل مادتنا المصدرية حول القبيلة والظاهرة الحربية خلال العصر المريني، ومدى مطابقة ما قيل لما هو كائن في تاريخ هذه القبيلة.



خطاطة رقم 1: الاتجاهات الأنثروبولوجية في تفسير ظاهرة الحرب القبلية

Scanned by CamScanner

المبحث الثاني: المحددات العامة للحرب القبلية

قد لا نجانب الصواب إن أكدنا – استنادا إلى بعض الدراسات الجادة[92] التي بحثت في تاريخ المغرب الاجتماعي– أن القبيلة[93] شكلت قاعدة التنظيم الاجتماعي في البوادي المغربية، بل نكاد نزعم أن المجتمع المغربي خلال العصر المريني، والوسيط عموما، كان مجتمعا قبليا، قامت فيه هذه المؤسسة بأدوار أساسية ليس أقلها انبثاق الدولة من رحمها. وإذا كانت غايتنا هي الكشف عن الأسباب الكامنة وراء الظاهرة الحربية «شبه الدائمة» التي عرفها المغرب خلال هذه الفترة، فإن البحث ينبغي أن ينصب –في نظرنا– حول الظاهرة القبلية أولا وأخيرا؛ «فسكان البلاد هم في الأعم الأغلب عبارة عن مجموعات من القبائل المتحالفة حينا، والمتطاحنة حينا آخر»،[94] وما حقيقة الدولة التي عرفها المغرب الوسيط وأصلها سوى قبيلة استطاعت أن تخضع لسلطتها ونفوذها، بالحرب أو بالتحالف، مجموعة من القبائل المغلوبة على أمرها، أو المتحالفة معها من أجل مصالح معينة.[95]

أولا: الحرب القبلية وظاهرة العصبية

تتحدد الجماعة القبلية على أساس علاقات القرابة،[96] المعبر عنها بروابط العصبية[97]؛ فكل جماعة قبلية تعيش على شكل وحدات صغيرة، تندمج كل مجموعة منها في وحدة أكبر، وتندمج هذه الوحدات الأكبر بدورها في وحدة أكبر حتى وحدة القبيلة، فالحلف القبلي. وأساس تكوين هذه الوحدات، صغيرة كانت أم كبيرة، هو الانتساب إلى أصل مشترك؛ فأفراد كل وحدة في الغالب الأعم أقارب فيما بينهم.[98] ولظروف موضوعية – سنفصل فيها– تتكتل هذه الوحدات، وتعمل على تنظيم علاقات وثيقة فيما بينها، تشعرها بشكل تلقائي بالتضامن والتآزر والتعاون في كل الأمور التي تهم الحياة اليومية والمصير المشترك،[99] وفي مقدمتها ظاهرة الحرب التي نحن بصدد تحليل ميكانزماتها داخل هذه الجماعات. ويشكل النسب الذي يعبر عنه بانتماء معظم أفراد المجموعة القبلية وجماعاتها إلى جد واحد الرابطة التي تجمعها وتوحدها.[100] فهل لهذه الرابطة دور ما في إنتاج الحرب وتحريكها بين القبائل؟

يأخذ الانتساب إلى جد واحد في النسق التنظيمي للقبيلة طابعا سياسيا؛ فمن الناحية البنيوية، تتفرع كل قبيلة إلى مجموعة من الوحدات، تنحدر من جد واحد حقيقي أو وهمي، ويعبر عن تفرعها أجداد يمثل كل واحد منهم نقطة تفرع وحدات أصغر من الوحدة

Scanned by CamScanner

الأصل.[101] وإذا أردنا أن نقدم مثالا لذلك، ألفينا قبائل بني مرين تشكل إلى جانب قبائل مثل بني عبد الوادي، ومغراوة، وبني يفرن، وتجين، وزواغة، ووجديجة، وبني فاتن، مجموع الوحدات الكبرى التي تشكل قبائل زناتة،[102] وتجتمع – في اعتقادها – في جدها الأعلى «جانانا بن يحيى بن مولاة بن مازيغ».[103]

وتتفرع قبائل بني مرين عن باقي القبائل الزناتية انطلاقا من جدها «مرين بن ورتاجن بن ماخوخ الزناتي»،[104] ثم تتفرع في وحدات أصغر يمثل فيها الأجداد: «فجوس بن جرماط»،[105] ثم «عسكر بن محمد»، و«سجم بن محمد» و«حمامة بن محمد»،[106] لتتفرع وحدات أصغر من أهمها بني عسكر، وبني سجم وبني حمامة الفرع الذي تزعم التحرك المريني في بداية القرن السابع الهجري.[107] ومن الطبيعي أن نؤكد أن هذه البنية المجتمعية المجزأة على وحدات وفروع تؤدي حتما إلى بنية مكانية مجزأة؛ فالمجال المكاني للقبائل المغربية خلال هذه المرحلة يتوزع على وحداتها وفروعها، إذ يسكن كل فرع أرضاً خاصة به، مع شيء من التداخل بين الوحدات المتحالفة والتي ترتبط مع بعضها البعض بعلاقات التصاهر وتبادل النساء. فهل كانت الحرب القبلية تعبيرا عن هذه البنية المجتمعية والمكانية المجزأة؟

يبدو الجانب الوظيفي للتسلسل النسبي من خلال ما يقرره ابن خلدون[108] في أن النسب «طبيعي في البشر إلا في الأقل، ومن صلته النعرة على ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة، فإن القريب يجد في نفسه غضاضة من ظلم قريبه أو العداء عليه، ويود لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك». ففضلا عن كون الانتساب إلى جد أعلى يمثل محددا هاما لهوية الجماعة، ورمزا لاستقلاليتها، فإنه يحدد طبيعة العلاقات التي يجب أن تقام بين الأفراد، أو بين الفروع المنسوبة إلى ذلك الجد،[109] خاصة في حالات الحرب والصراع، أو بمعنى أدق في حالات الحماية أو المطالبة أو المدافعة.

في مثل هذه الحالات يتم استحضار الجد بصفته مرجعية رمزية لتكتل الأفراد والوحدات، واستحضاره يرتبط بطبيعة التكتل الذي قد يقتصر على الجد القريب، وهو ما يبدو واضحا فيما يذكره ابن خلدون[110] عن قبائل زناتة الساكنين بالقفر، في معرض حديثه عن النزاعات بين هذه القبائل، فيقول إنه كانت بين «بني مرين وبني عبد الواد منذ أوليتهم وتقلبهم في القفار فتن وحروب، ولكل منهما أحلاف في المناصرة». ففي مثل هذه الحالات لا يتم استحضار الجد الأعلى لزناتة ما دام الصراع والحاجة إلى التكتل هنا مرتبط

Scanned by CamScanner

بتنازع الوحدات الداخلية للقبيلة الأم. لكن عندما استشار السعيد الموحدي شيوخ دولته في ضرب بني عبد الواد ببني مرين لم يتردد هؤلاء في تذكيره أن «الزناتي أخو الزناتي لا يخذله ولا يسلمه، فنخاف أن يجتمعا على حربك».[111]

إن دور النسب إذن، والانتماء إلى جد واحد يتمثل في تحقيق الوصلة والالتحام بين أفراد القبيلة،[112] فالخطر الخارجي الذي من شأنه أن يهدد وحدة الجماعة، سرعان ما يدفع بصورة ديناميكية وفعالة إلى تناسي الخلافات الداخلية، والتخندق في خندق واحد لمجابهة ذلك الخطر. لكن المرجح تاريخيا، أن هذا الانتساب ليس حقيقة تاريخية،[113] بل هو «أمر وهمي لا حقيقة له، ونفعه إنما هو في هذه الوصلة والالتحام»،[114] والحاجة إلى صياغة علاقات التعاون الواقعية، بصيغة يستخرجها الإنسان من علاقات أخرى هي الأكثر رسوخا ومتانة في الطبيعة، علاقات القرابة والنسب.[115] وتقدم كتب الأنساب والتواريخ أسماء لكثير من القبائل التي لا يجمعها نسب واحد،[116] أو التي التحمت في قبيلة ما وأصبحت منها، كما هو حال «بني كمي» الذين التحموا «ببني مرين وأصبحوا إحدى بطونهم».[117] و«بنو وطاس» الذين تنسبهم بعض النصوص[118] إلى صنهاجة البرانس، ومن حفدة وطاس بن المعز بن يوسف بن تاشفين، والذين قبلوا الاندماج في بني مرين بعد المحنة التي تعرضوا لها من قبل الموحدين، وذلك عقب ثورتهم التي تجسدت في ثورة بني غانية، فهم إذا زناتيون عن طريق التبني والجوار.[119]

وقد أدرك ابن خلدون[120] هذه الحقيقة فاعتبر أن النسب ليس المقصود به القرابة الدموية وحدها، بل كل ما من شأنه أن يبعث على «الأنفة التي تلحق النفس من اهتضام جارها أو قريبها أو نسيبها بوجه من وجوه النسب»، وبعبارة أخرى كل ما من شأنه أن يولد العصبية التي تطبع المجتمع القبلي، وتمنحه القدرة على التكتل من أجل الدفاع أو المواجهة أو الحرب بمعنى أشمل،[121] وكل ما يمنح الفعالية اللازمة لتلك الظاهرة الضرورية، التي يعرفها أحد الباحثين[122] بكونها رابطة اجتماعية-سيكولوجية، شعورية ولاشعورية معا، تربط أفراد جماعة ما، قائمة على القرابة، ربطا مستمرا يبرز ويشتد، عندما يكون هناك خطر يهدد أولئك الأفراد أفراداً أو جماعةً.

ولا نعدم من النصوص ما يدعم هذا القول؛ فرغم ما أحاط به يعقوب بن عبد الحق المريني عبد الله ابن كندوز شيخ قبيلة بني كمي من «المكان الرفيع من دولته، وأقطعهم البلاد التي كفتهم مهماتهم»،[123] لم تتردد هذه القبيلة في نصرة إخوانهم من النسب والعصبية «بما

Scanned by CamScanner

نزل ببني عبد الوادي من بني مرين، وأخذت بني كمي الحمية، وامتعضوا لقومهم، وأجمعوا الخلاف والخروج على السلطان». 124

وبالمقابل، نصادف نصوصا أخرى في غير هذا الاتجاه تكشف عن ميكانزمات خفية لعلاقات التصادم والمجابهة بين الجماعات القبلية؛ فبمجرد استئثار بني حمامة بإتاوة مكناسة دون غيرهم، لم يتردد بنو عسكر في الانشقاق عن بني عصبيتهم، 125 وهم الذين كانت لهم «رياسة مرين في القديم»، 126 فـ«ساروا إلى رياح، ودخلوا عليهم دخيلا أن ينصروهم على حرب بني مرين». 127 مما يثبت أن النسب وحده، والتحدر من جد واحد، وما يوفره من حماية نفسية واجتماعية للأفراد والجماعات في إطار وحدة القبيلة، ليس كافيا ليمنح القبيلة الحماية المطلوبة، والقدرة على المدافعة والمطالبة، ولا يمكن أن يصبح كذلك إلا إذا دخل حيز التطبيق والعمل، فيغدو آنذاك دفاعا عن المصالح المشتركة وصراعا من أجلها. 128

ومن دون شك، فإن أهم ما يستدعي تكتل أعضاء القبيلة وتوحدهم، هو توفرهم على أرض جماعية إلى جانب ملكيتهم العائلية؛ لذلك أضحت حماية الملكية الجماعية، والدفاع عنها ضداً على مهاجميها، من مرتكزات الحياة القبلية. 129 فليست علاقات القرابة الدموية، ولا علاقات التحالف والانتماء وحدها هي ما يمنح للعصبية مفعولها، أكثر مما هي المصالح المادية والذود عنها.

وإجمالا، فالحرب في القبيلة المغربية مدار الدرس تقوم على التلاعب بالقرابة والأنساب، لكنها تخفي ميكانزمات خفية لكنها فعالة، تقف وراء تفشي هذه الظاهرة وتجذرها في المجتمعات القبلية.

ثانيا: الحرب القبلية والمحدد السوسيواقتصادي

تعتبر الحرب ظاهرة اجتماعية، تعود جملة من دوافعها لظروف طبيعية-جغرافية بالخصوص؛ ذلك لأن الجغرافيا التاريخية في المجتمعات ما قبل الصناعية، كما في مغرب العصر الوسيط عموما، تعد مسؤولة في قسم كبير على تحديد المستوى المادي والاجتماعي للأفراد والجماعات. 130 وقد صدق أحد الباحثين عندما أكد أنه «يجب الاعتراف بأن الأرض بما تقدمه من معلومات، هي من بين المستندات التاريخية الأغزر مادة، والأبعد عن الخطأ». 131

Scanned by CamScanner

ويبدو أن المجال الطبيعي، باعتباره مصدرا للثروة والوفرة، أو للندرة والحاجة، قام بدور هام في تحديد أنماط العيش، وأنواع الأقوات وكمياتها. وفي ضوء ذلك، كانت كثرة الثروات أو قلتها، وحالات الوفرة أو الندرة، رهينة بما تجود به الأرض، ويسمح به المناخ، من موارد وإمكانيات، فضلا عن أساليب الاستغلال وأنظمته، والمعوقات الطارئة التي قد تعصف بالمنتوج، وهدر مجهود الإنسان ولأمواله بشكل ينعكس سلبا على الحركة الاقتصادية والحياة الاجتماعية، وما يترتب عنه من ظواهر اجتماعية عدة مثل الفقر والمجاعة والموت،[132] أو الحرب والصراع على الموارد وتنازع البقاء.

1. البيئة البدوية واقتصاد الندرة

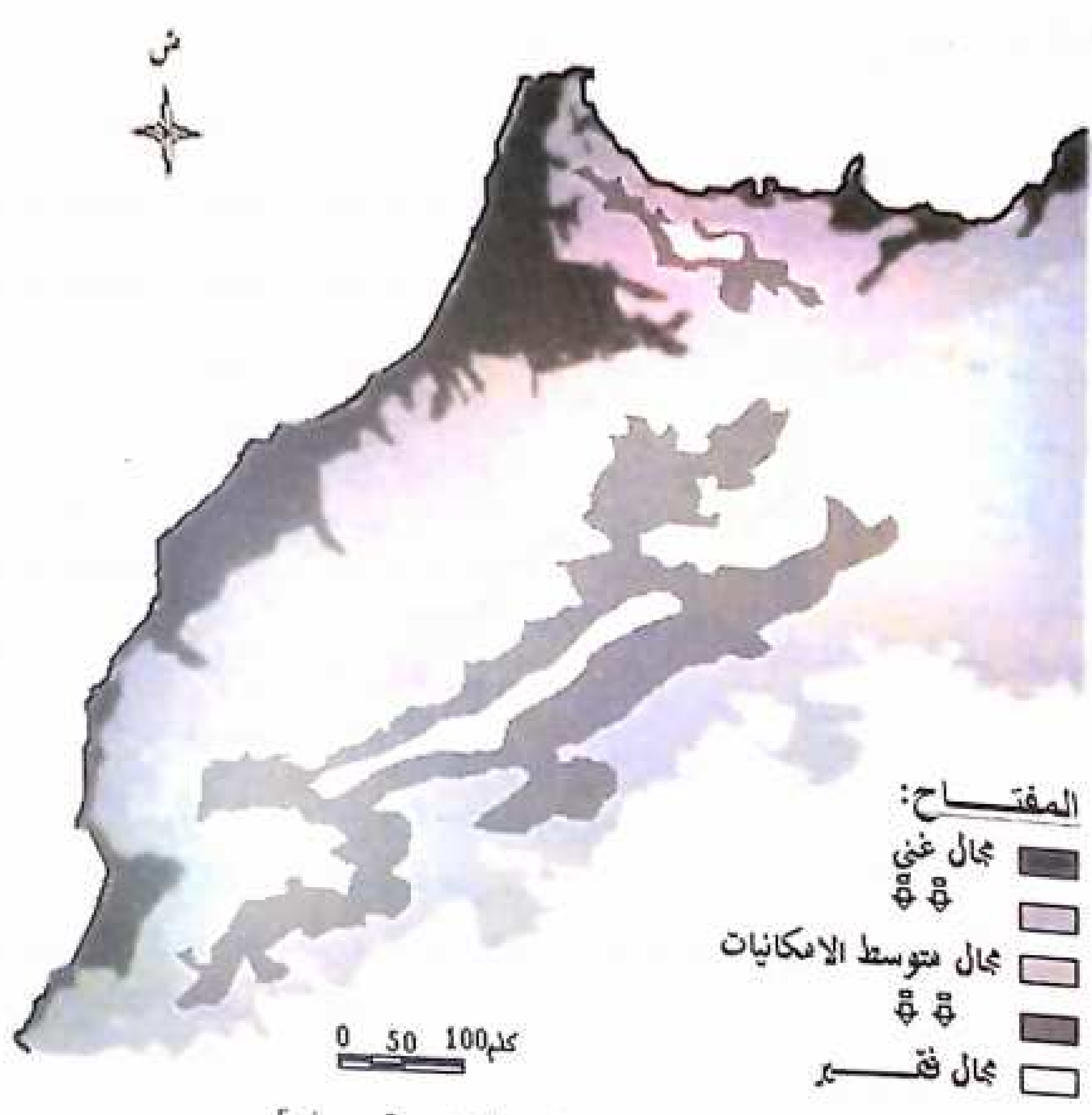
أ. المجال الطبيعي وإكراهاته

الظاهر أن الأرض شكلت المحور الرئيس الذي انتظمت عليه العلاقات الاجتماعية داخل القبيلة، فعليها تقام الفواصل بين الجماعات القبلية عن طريق علاقات القرابة والتحالف أو الانشقاق. وفضلا عن ذلك، فهي وسيلة الإنتاج الرئيسة لبعض القبائل،[133] والمجال الحيوي الذي يوفر لبعضها الآخر ما يتطلبه تنقلها وترحالها.

وإذا كانت الأرض تشكل القاعدة المادية لوجود القبيلة، وأساس تكتل أفرادها وتضامنهم، فإن التعامل مع تلك القاعدة هو الذي يحدد طبيعة ذلك التضامن ومدى قوته أو ضعفه، وقد سبق لجاك بيرك أن لاحظ، في مرحلة لاحقة عن العصر الوسيط، تطابقا بين المستوى الايكولوجي والبنية الاجتماعية، وفي نظره لا يمكن فهم طبيعة العلاقات الاجتماعية دونما ردها إلى ما يقابلها على مستوى مورفولوجية الأرض، أي بمقدار ما تتغير معالم الأرض وتقل أو تكثر مواردها.[134] وتنحو جاك موني[135] هذا المنحى لتؤكد أن دراسة السكان لا يمكن أن يتم بمعزل عن الإطار الجغرافي، وأن معرفة الطبغرافيا والتضاريس ضرورية لفهم أنماط عيش السكان، وتحديد درجات التبادل أو التنافس والصراع بينهم. فهل كان للمجال الطبيعي دور ما في صياغة علاقات التنازع والصراع بين القبائل، وإفراز الحرب كظاهرة اجتماعية لتدبير إكراهاته؟

Scanned by CamScanner

خريطة رقم 1: الإمكانيات الطبيعية والمجال في المغرب الشمالي



المصدر: محمد استيتو: «الفقر والفقراء». [بتصرف]

Scanned by CamScanner

يتميز المنظر الطبيعي لبلاد المغرب الأقصى بتنوع مجالاته وتباينها ما بين مناطق مؤهلة طبيعيا ومناخيا لتصبح مصدرا للخيرات في حالة استغلالها، وأخرى فقيرة قفرة يضطر سكانها للتكيف مع ظروفها القاسية، وبذل جهود مضاعفة للظفر بمستوى من الكفاف، والحفاظ عليه من التراجع.136 وعموما فإن أهم ما يميز المشهد الطبيعي للمغرب هو غلبة طابع الانبساط عليه، كما يتجسد في شساعة السهول الصالحة لمختلف الأنشطة الفلاحية، والهضاب الفسيحة الصالحة للرعي أساسا، ومجالات الحمادات الفقيرة. ووسط هذه المنبسطات تنتصب كتلة جبال الأطلس التي تخترقها من الجنوب الغربي في اتجاه الشمال الشرقي، والمتكونة من جبال جزولة (الأطلس الصغير)، وجبال درن (الأطلس الكبير)، ثم جبال فازاز (الأطلس المتوسط)، علاوة على جبال غمارة (سلسلة جبال الريف) المقابلة في الشمال، والمطلة على البحر المتوسط، والتي لا يفصلها عن كتلة الأطلس إلا ممر تازة.137

تنتظم مساحات شاسعة من الهضاب والسهول الصالحة للإنتاج الفلاحي ما بين كتلتي غمارة وجبال الأطلس، وتمتلك إمكانات هامة تساعد على الاستقرار والزراعة.138 في حين تحيط بهذه السلاسل الجبلية مجالات الهضاب العليا في الشرق، والحمادات القاحلة المتدة في اتجاه أقصى الجنوب والشرق، ويغلب عليها طابع القحولة والجفاف النسبي، وقلة المياه الجارية والجوفية، وما يتبع ذلك من قلة الغطاء النباتي والحيوانات إلى غير ذلك.139

شكلت جبال الأطلس حاجزا وسطا قسم البلاد إلى مجالين مناخيين، يستفيد الأول من التأثيرات المحيطية الرطبة، وتمنع عنه جبال درن وفازاز التأثيرات الصحراوية الجافة. ويعاني الثاني من هذه الأخيرة كما أن ارتفاع قمم سلسلة الأطلس تمنع عنه التأثيرات البحرية الرطبة. مما أفرز مجالين متباينين، متوسطي في الشمال والشمال الغربي، وصحراوي في الجنوب والجنوب الشرقي.140 وتنبع من تلك الجبال أودية وأنهار عدة تخترق السهول الوسطى في اتجاه المحيط. كما تخترق المجالات القفرة في الجنوب، مما سمح بتركز السكان في ضفاف الأودية، وعلى طول مجاريها فيما يعرف بالواحات.141

وقد درجت القبائل في معظم هذه المناطق على التأقلم مع ظروفها وإمكاناتها الطبيعية، فتباينت بذلك أنماط العيش وفقا لتنوع الموارد واختلافها؛ ففي ظروف الصحراء، والحمادات القاحلة في الجنوب، والهضاب العليا في الشرق، غالبا ما تضطر القبيلة إلى الاعتماد أساسا على وسيلتي الرعي والترحال طلبا للماء، والكلأ، كما هو حال مجال «قبلة

Scanned by CamScanner

المغرب الأقصى بتيكورارين ودبدو إلى ملوية وسجلماسة»[142] بالنسبة لقبائل بني مرين، «ومن معهم من سائر قبائل زناتة البربر مثل ورتطغير ومصاب وبني عبد الواد»،[143] يتخذون أرضه مجالا «يرعون به أنعامهم، ويكتالون منه ميرتهم»،[144] من خلال علاقات التبادل مع القبائل الأخرى. في هذه الحالة تصبح الأرض مجالا حيويا ينتفي فيها مفهوم الحدود والفواصل حيث يخضع لخط تنقل القبيلة وانتجاعها، وفي حالة زناتة فهم «ينتجعون جانبي القفر والتل»[145] الشرقي للمغرب الأقصى.

وفي حالات أخرى، تصبح الأرض مجالا للزراعة والرعي معا طبقا لوضعية المجال وخصوصيته[146] كما هو الحال في المناطق الجبلية، من مثل جبال درن التي تمارس فيها قبائل مصمودة زراعة محدودة، وانتجاعا بين قممها وسهول مراكش،[147] وجبال فازاز التي يغلب على قبائلها الظعن[148] والجمع بين الفلح والرعي؛ فأهلها «أصحاب حرث ومواش وجمال، والغالب عليهم الفروسية».[149] كما يصف جغرافي آخر[150] ما يمتد بين صفرو حتى قلعة مهدي بأن «أهلها فلاحون، وزروعهم كثيرة، ولهم جمل ومواش وأنعام»، مثلما هو الحال أيضا في بعض جهات جبال غمارة التي لا يسمح فيها تعقد البنية التضاريسية ووعورتها بإنتاج فلاحي هام،[151] مثل بعض القبائل التي ليس لها «من الأرض الصالحة للزراعة إلا القليل».[152] تنضاف إليها بعض الواحات التي تمتاز بضآلة المجال المزروع وقلته، مما يؤهلها لممارسة نشاط يمزج بين الزراعة المحدودة، والرعي المنتشر.[153]

أما في حالة المنبسطات السهلية، فتصبح الأرض بالنسبة للقبيلة مجالا للزراعة والاستقرار، كما هو حال سهول دكالة[154] والهبط[155] وتانسيفت[156] وتامسنا،[157] وفي مناطق أخرى مثل سوس الذي كان معظم أهله «فلاحين يحرثون أرضهم عندما يفيض النهر».[158] دون أن نغفل التحولات التاريخية التي ميزت هذه المرحلة، والتي حولت كثيرا من المجالات الزراعية إلى مجالات رعوية نتيجة توطين القبائل العربية ذات النجعة في مجالات مثل تامسنا والهبط، واقتحام قبائل بني مرين وبني معقل لمعظم السهول الشمالية والجنوبية، والتغيرات التي أحدثتها هذه التحركات على مستوى التعامل مع الأرض وتدبيرها.[159]

وإجمالا يمكن القول إن اختلاف طبيعة الأرض من حيث الخصب أو الجدب، ووفرة الموارد والإمكانات أو ندرتها، أفضت إلى تنوع أنماط العيش واختلافها بين القبائل، وهو ما يقرره ابن خلدون،[160] الذي يعتبر حجة في مثل هذه المواضيع؛ إذ يؤكد «أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش (...) فمن كان معاشه منهم في

Scanned by CamScanner

الزراعة والقيام بالفلح كان المقام به أولى من الظعن، وهؤلاء سكان المدر والقرى والجبال (...) ومن كان معاشه في السائمة مثل الغنم والبقر فهم ظعن في الأغلب لارتياد المسارح والمياه لحيواناتهم (...) ولا يعدون في القفر لفقدان المسارح الطيبة (...) وأما من كان معاشهم في الإبل فهم أكثر ظعنا، وأبعد في القفر مجالا...».

وتبعا لذلك تتحدد طبيعة العلاقات الاجتماعية بين أفراد القبيلة الواحدة، وبينها وبين القبائل الأخرى، فبمقدار ما تختلف طبيعة الأرض من حيث ما توفره من الشروط المادية للحياة، تختلف أنماط هذه العلاقات بين التداخل والتعارض والتكامل والتنافس والتناحر أيضا،[161] وهو ما يفصل فيه صاحب «المقدمة» في الفصلين الذين وسمهما بـ «في أن سكنى البدو لا يكون إلا للقبائل أهل العصبية»،[162] و«أن الصريح من النسب إنما يوجد للمتوحشين في القفر (...) وذلك لما اختصوا به من نكد العيش، وشظف الأحوال، وسوء المواطن»،[163] فلا يصدق تضامنهم و«دفاعهم وذيادهم إلا إذا كانوا عصبة، وأهل نسب واحد».[164]

يبدو إذن أن أساس الرابطة العصبية التي تكمن في الملكية الجماعية لبعض وسائل الإنتاج؛ والتي يمكن اختصارها في الأراضي الزراعية، والمجال الرعوي، فضلا عن الموارد المائية،[165] حيث تعمل القبيلة من خلالها على إنتاج ما يكفي أفرادها من ضروريات البقاء والاستمرار من غير مزيد عليه؛ فـ«اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والكن والدفاءة، إنما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة، ويحصل بلغة العيش من غير مزيد عليه للعجز عما وراء ذلك».[166] فالتعامل مع الأرض إذن بالنسبة للقبيلة لم يتجاوز إنتاج الضروري للعيش والبقاء، وأصبح بذلك اقتصادها مطبوعا بكونه نشاطا يؤدي إلى تلبية الحاجات البسيطة فقط،[167] خصوصا في ظل تموجات الجفاف والكوارث الطبيعية التي عانى منها النشاط الفلاحي خلال العصر المريني، فضلا عن جملة عوامل بشرية أخرى – سنفصل فيها–،[168] وبدائية وسائل الإنتاج وتقهقرها.[169] ومما زاد من حدة هذا الوضع، أن المناطق الأضعف من حيث الموارد، كالمناطق الجبلية والمرتفعات عموما، والمناطق الجنوبية شبه الجافة أو الصحراوية، هي التي كانت أكثر المجالات سكانا، بينما كانت السهول الخصبة تعرف شبه فراغ بشري، وكاد النشاط الفلاحي يقتصر فيها على الرعي والترحال.[170]

Scanned by CamScanner

والخلاصة أن اختلاف طبيعة الأرض من حيث الجدب أو الخصب سمح بإنتاج علاقات اجتماعية غلب عليها التناحر والصراع، والتي لم تكن في أغلب الحالات إلا صراعا بين قبائل مهاجمة، تعاني من ضيق مجالها أو قساوته وفقره، وبين قبائل مدافعة عن حد الكفاف، وما زاد عليه.

ب. المناخ وتقلباته

غير أن أهم ما عمق هذه الوضعية هو تبعية القبيلة في إنتاجها الفلاحي لأحوال المناخ وتقلباته، وما ينتج عن ذلك من كوارث طبيعية عادة ما تبدأ بالجفاف، فالمجاعة، فالأوبئة،[171] لتعصف في النهاية بالمخدوش من الأرض للفلح، أو الفائض القليل المعد والمخزن لمثل هذه الحالات.

والحقيقة أن القبيلة المغربية مدار الدرس، عاشت رهانا دائما مع الطبيعة من أجل تحصيل المعاش؛ فإذا جادت السماء، تمكنت من زراعة أرضها، وحصلت لماشيتها من الماء، والكلأ ما يكفيها، وإن شحت ضعف المحصول أو توقف إنتاجه، وتسبب ذلك في ظهور المجاعة وما يليها من الوباء.[172]

وتكشف مصادر العصر المريني[173] في نصوص متناثرة عن جملة من الكوارث الطبيعية التي لا تكاد تنتهي واحدة إلا وتبدأ أخرى كما لو كانت تظهر بشكل دوري ومنظم.[174] وإذا كنا لا نهدف إلى التفصيل في هذا الموضوع،[175] فإن الغرض من إثارته هو الكشف عن دور هذه الجوائح في عرقلة إنتاجية القبيلة، وتوليد وإنتاج بعض الممارسات والسلوكات الاجتماعية داخلها، وعلاقة ذلك بظاهرة الحرب التي نحن بصدد البحث عن دوافعها وميكانزماتها.

الظاهر أن للتقلبات المناخية التي عرفها المغرب الأقصى خلال هذه المرحلة، وقبلها أيضا، دوراً هاماً في إذكاء هذه الكوارث وبروز حدتها؛ فقد كانت معظم الأنهار والعيون تعتمد بشكل كبير على التساقطات، وكان صبيبها مرتبطاً أشد الارتباط بوفرة الأمطار أو ندرتها، فالصبيب يرتفع ويصبح على شكل سيل جارف، بينما تأتي فترات الجفاف فينخفض الصبيب ليصل أحيانا إلى مستويات قد ينعدم فيها الجريان.[176] وقد صدق بعض الباحثين المتخصصين[177] عندما اعتبروا – للأسباب ذاتها – أن الماء شكل هاجسا لدى

المغاربة خلال العصر الوسيط عموما، ومن دون شك فإن هذه التقلبات المناخية قامت بدور حيوي في توجيه نشاط القبيلة الفلاحي.

إن ما عرفه المغرب الأقصى خلال المرحلة مدار الدرس من تقلبات مناخية بارزة،[178] دفعت ببعض الباحثين إلى التساؤل عن إمكان حدوث تحول مناخي هام خلال هذه الحقبة. وإذا كنا نعتقد بصعوبة الإقرار بمثل هذا التحول، خاصة مع تلازم مجموعة من القحوط التي توالت على المغرب مع الاضطرابات الاجتماعية والسياسية التي استشرت في المرحلة،[179] فإننا نقر أن كرونولوجيا سنوات الجفاف، وإن كانت غير دقيقة، وما تبعها من مجاعات وأوبئة، كما طرحتها المصادر الوسيطية،[180] كافية للقول إن العنصر الطبيعي-الجغرافي أسهم بشكل أو بآخر في صياغة مجموعة من الظواهر الاجتماعية في بعض جوانبها على الأقل، ومنها الحرب على سبيل التخصيص.

ولعل تظافر تلك الجوائح خلال العصر المعني بالدراسة، أسفر عن ظهور وتفاقم مشاكل زعزعت الأسس المادية للفلاحة. ولما كان الإنسان خلال هذه الفترة يمثل القوة الاقتصادية الهامة، والمحور الأساس لكل المهام الاقتصادية في القبيلة، فقد كان لهلاك كثير من ساكنة البادية نتيجة هذه المحن تأثيره الواضح على الإنتاج الفلاحي. إذ تذكر النصوص أنه خلال بعض المجاعات «كان يدفن في الحفير الواحد المائة من الناس»،[181] و«يحملون من الموتى أربعة أو ثلاثة واثنين على نعش».[182] بل إن المصادر تقدم انطباعات هامة عن «هلكة المجاع وفشو الموتان»[183] في بعض المجاعات، وعن غيرها التي «أهلكت أمم لا تحصى»،[184] أو تلك التي «خلا منها المغرب»،[185] والوباء «الذي تحيف الناس إلا قليلا»،[186] و«احتجز الكثير إلى القبور واعتزل»،[187] أو «الذي تحيف الأمم وذهب بأهل الجيل»،[188] و«طوى البساط بما فيه»،[189] وغيرها من النصوص التي تكشف عن التأثير الديموغرافي الذي تمارسه هذه الكوارث على ساكنة المغرب الأقصى عامة، والبادية على وجه التخصيص.

وعلى غرار ما ذهب إليه بعض الباحثين،[190] نميل إلى القول إن التأثير الديموغرافي لهذه الكوارث -وخاصة الأوبئة منها- على المناطق الجبلية والصحراوية وشبه الصحراوية، لم يكن بالوثيرة نفسها التي كان بها على ساكنة المناطق الداخلية، لعزلتها النسبية، وبعدها عن مناطق العدوى، مما يؤهل تلك المناطق المعزولة لتصبح عنصرا معمرا للمناطق المفرغة بفعل الكوارث. ومن الأمثلة على ذلك ما أكده المختار السوسي[191] في أنه «سمع بعض المطلعين

يقولون إن حربيل دخلت سوس من الصحراء، وهم من بقية لمتونة وكذالة، وأن ذلك كان بعد الطاعون الأسود سنة 749هـ، فخلا كثير من جوانب سوس، فقصدتها هذه القبائل».

وبقدر ما تضرر الإنتاج الفلاحي للقبيلة من جراء فقدان اليد العاملة في مثل هذه الكوارث، فقد تضرر أيضا من هلاك الكثير من دواب الحرث وفنائها في كثير من الجوائح مما كان له بالغ الأثر على مردودية الإنتاج وقيمته.[192]

ولما كانت الحبوب أهم منتوج زراعي للقبيلة التي تفلح أرضها، لتأمين معاشها اليومي،[193] فقد كان فقدها يعني توقف الحياة بالنسبة للغالبية العظمى من أفراد القبيلة،[194] ويعني بداية مجاعة لا تدع ولا تذر. وتكشف النصوص عن هذا المعطى الهام في فهم الوضع المعاشي للقبيلة عندما تربط ذكر المجاعة بأسعار القمح والشعير،[195] وحالهما في كل جفاف. وجدير بالإشارة أن ذلك أكسب الإنسان في مثل هذه البيئات خبرة كبيرة في مقاومة الجوع بالادخار والتقشف،[196] بل أضحى وضعا يفرض على القبيلة الإعداد له ببناء مخازن جماعية تختار لها أمكنة منيعة خوفا من النهب والغارة.[197]

في مثل هذه الحالات كثيرا ما يرتد الاقتصاد البدوي إلى شكله البدائي فيسود القطف والالتقاط.[198] يذكر ابن عذاري[199] أن من جملة ما اقتات به الناس في إحدى المجاعات «عصائد تصنع من نوار الخروب»، و«ما يكرر طحنه من فيتور الزيتون وغيره»، بل من البدويين من كانوا يسلمون أنفسهم وذويهم للغير عبيدا مقابل الطعام، على غرار ما حدث في باديس خلال النصف الأول من القرن السابع الهجري.[200]

ويبدو أن موجات الجفاف أثرت سلبا على الوضع المائي عامة، مما أذكى مجموعة من النزاعات حول مصادر المياه،[201] وذلك بالموازاة مع ضعف تقنيات استغلال المياه الموجودة،[202] وكانت مشكلة الأعالي والأسافل من أشهر القضايا المائية التي أثيرت في نوازل الفترة،[203] مثلما كانت السنوات العجاف تزيد من حدة النزاع بين القبائل الرعوية حول المجالات الحيوية لتنقلاتها.[204]

الحاصل إذن أن القبيلة المغربية خلال هذه الفترة ظلت في تبعية شبه تامة للوسط الطبيعي، والظروف المناخية، مما أبقى إنتاجيتها في حدود الضروري المسكن، وعند مستويات هزيلة من الإنتاج. وأفضى ذلك إلى غلبة العوز والفقر على الكثرة والوفرة في صفوف البدويين. فكان بديهيا أن ترشح على السطح ظواهر اجتماعية هي بمثابة ردود أفعال طبيعية لمواجهة

Scanned by CamScanner

هذا الواقع ومجاراته، ومنها ظاهرة «حروب العوز» التي سنقف عند كثير من مظاهرها في الصفحات الموالية.

ج. بساطة تقنيات الإنتاج ووسائله

شكل الاعتماد على مياه الأمطار الأسلوب الشائع في تدبير الزراعة،[205] وانحصرت تقنيات الري في مجموعة من الوسائل البدائية،[206] بل ظل وجود بعضها محصورا في بعض المناطق دون غيرها،[207] كما بقيت وسائل الحرث أيضا بدائية، واقتصرت في الغالب على المحراث الخشبي والمناجل والمحارف، والقادوم والفؤوس،[208] وكلها مظاهر لبدائية وسائل الإنتاج، إذ لا تعدو أن تكون امتدادا لقوة الإنسان العضلية، خاصة مع سيادة طرق ضعيفة في الزراعة من مثيل ظاهرة الأرض المستريحة، والدورة الزراعية الثلاثية.[209] وفي كل الأحوال فإن الإنتاج في مردوديته يبقى ضعيفا في العادة، ولا يتعدى الضروري للعيش.

وفضلا عن ضغط الوسط الطبيعي، والظروف المناخية، وضعف التقنيات ووسائل الإنتاج، تظافرت على القبيلة المغربية عوامل أخرى أثرت بدورها في إنتاجها المعيشي، وتتمثل في الحروب التي درت بقرنها في طول البلاد وعرضها طيلة القرنين 7 و8هـ/13 و14م، فضلا عن ضغط الضرائب والجبايات المفروضة من قبل السلطة، دون أن نغفل التأثير الهام لتحولات هذه المرحلة، والمتمثلة أساسا في تغلغل النشاط الرعوي داخل المغرب على حساب المساحات المزروعة.[210]

عموما، فقد بقيت إنتاجية العمل تبعا لذلك عند مستويات هزيلة لم تتجاوز سد الرمق، وإنتاج ما يكفي –وقد لا يكفي– أفراد القبيلة في حدود الحاجيات الضرورية بالمقدار الذي يحصنها من المجاعة والعوز.[211] وإن كانت بعض القبائل قد اشتغلت فضلا عن الفلاحة بالتجارة،[212] أو في حماية طرقها بفعل وجودها في مناطق مرور القوافل،[213] وحقق لها ذلك تراكما ماديا تجاوز حالة الكفاف في بعض الأحيان، فـ «بنو سليم قرب نهر درعة يتنقلون عبر الصحراء، وهم أثرياء يذهبون كل سنة ببضائعهم إلى تنبكتو، ولهم بدرعة ممتلكات عديدة، وأرض كثيرة للحرث، وعدد وافر من الإبل».[214]

خلاصة القول إن التراكم المادي كيفما بلغ كمه لدى القبيلة المغربية –خلال المرحلة المدروسة– التي كانت تعيش صراعا دائما مع الطبيعة، وفي ظل وسائل إنتاج بدائية فقيرة، وظروف اجتماعية وسياسية مضطربة، يبقى تراكما مؤقتا ومهددا بالزوال. فإذا أضفنا

Scanned by CamScanner

عنصر المجال بقحولته في الصحراء، وبضآلته وقلته في الواحات، وبصعوبة تدبيره وضعفه في الجبال، أمكن القول إن الأساس الاقتصادي الذي ارتكزت عليه القبيلة مدار الدرس، أساس غير مستقر ومعرض للأزمات في كل حين.

ومما يؤكد هذه الحقيقة ضعف المستوى المعيشي للفلاحين والرعاة خلال هذه الفترة. ويختصر ابن خلدون[215] هذه الحقيقة في قوله «إنهم مقتصرون على الضروري من الأقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد، ومقصرون عما فوق ذلك من حاجي وكمالي، يتخذون البيوت من الشعر والوبر أو الشجر أو من الطين والحجارة غير منجدة، إنما هو قصد الاستظلال والكن لا ما وراءه، وقد يأوون إلى الغيران والكهوف، وأما أقواتهم فيتناولون بها يسيرا بعلاج أو بغير علاج البتة إلا ما مسته النار». ونجد لمثل هذا القول البليغ تأكيدا في نصوص المرحلة سواء على مستوى المأكل،[216] أو الملبس،[217] أو المسكن،[218] وكلها تجمع على المستوى المعيشي المنحط لأهل البادية، وبخاصة منهم الرعاة «سواء منهم سكان الجبال أو سكان السهول [الذين] يعيشون معيشة ضنكى، ويبقون في بؤس وخصاصة على الدوام».[219]

إن غياب الاستقرار واهتزاز اقتصاد القبيلة، يحتم على أفرادها السعي إلى الحفاظ على أعلى درجات التضامن فيما بينهم، فتعاونهم شرط أساس لبقائهم. ويمتد هذا التعاون من الإنتاج حيث تسود الأعمال الجماعية وتعاون الأفراد الإلزامي في حرث الأرض، أو جمع المحصول، أو كنس السواقي وغيرها،[220] إلى التضامن العصبي لدرء أي خطر خارجي قادم، لا يعدو أن يكون قبيلة دفعتها الشروط نفسها أو أقسى منها إلى توجيه أنظارها إلى ما يملكه غيرها في ما يمكن أن نعبر عنه بـ«حروب العوز».

2. دور اقتصاد الكفاف والندرة في إنتاج الحرب والغنيمة

كانت ظروف المعاش، القائمة على الاكتفاء الذاتي، في ظل الأزمات الطبيعية المتلاحقة، فضلا عن تخلف وسائل الإنتاج وضعفها، وثقل الضرائب، وضغط الأعراب، تدفع الإنسان البدوي إلى البحث عن طرق أخرى للكسب هروبا من الفقر والعوز وأحيانا الموت، ومنها أن يمد يده إلى ما بأيدي الناس، يسلبهم أموالهم ومتاعهم، لا يحد في ذلك منكرا ولا ظلما.[221]

Scanned by CamScanner

وكما يختار بعض البدويين امتهان حرف أخرى على هامش حرفهم الأصلية ببواديهم،[222] أو بالمدن القريبة،[223] يضطر البعض الآخر إلى اللجوء إلى الجبال والأحواز ومفترقات الطرق بغية الحصول على العيش عن طريق اللصوصية والحرابة،[224] حيث يصبح معاشهم مرتبطا أشد الارتباط بما تذره عليهم حرفتهم من أسلاب. ففي حديث للشيخ أبي عبد الله الهزميري (ت. 706هـ/1306م) مع بعض قطاع الطرق ينهاهم عن «ترك الصلاة والزنا وشرب الخمر، وقطع الطريق قالوا: كل ما اشترطت علينا نوفي به إلا ما ذكرت من قطع الطريق فليس لنا حرفة تعيش بها أولادنا غيرها».[225] كما وصف أحد الجغرافيين سكان جبل بني خالد من بني زروال بأنهم «لصوص سفاكون بسبب فقرهم، والضرائب التي تثقل كواهلهم»[226]

وإذا كان الفرد في مثل هذه البيئات القاسية يختار، في اتجاه فردي في بعض الأحيان، أن يمتهن ما سبق، فإن إحساسه بالانتماء إلى جماعته، وحاجته إليها لتدفع عنه الخطر وتحميه، يجعله يخضع لشروطها، وأساس تضامنها.[227] ولما كان تعاون أفراد القبيلة – وفقا لما سبق– شرطا ضروريا للبقاء، فإن الظواهر الفردية تصبح شيئا فشيئا جماعية، وتتحول الظاهرة الفردية من حرابة ولصوصية وقطع للطريق لرد غائلة الجوع إلى ظاهرة جماعية، تمارسها القبيلة وتضحى الحرب ممأسسة على أسس وأعراف مشروعة.

وإذا كانت الظواهر الاجتماعية من مثيل الادخار والتقشف،[228] أو الهجرة والنزوح الجماعي،[229] أو تردي الاقتصاد إلى أشكاله البدائية حيث القطف والالتقاط،[230] كلها تمثل مرادفات لإنتاج معاشي استهلاكي معرض لهزات تكاد تكون دورية، وتحيل إلى الفناء والنهاية والتشتت، فإن الحرب تصبح بدورها مرادفا تلقائيا له لحفظ الاستمرارية والبقاء، وضمان وحدة الجماعة.

إن القبيلة المغربية –التي ظلت خلال هذه المرحلة تعيش عالة على الأرض وخيراتها البارزة– وسواء أكانت ممارسة للزراعة أو الرعي، فإن كيانها الاقتصادي كان معتمدا أساسا على خصب التربة وتوفر العشب والماء؛ فإن وجدت نفسها في أرض جدباء قليلة الخصب، أو انحبس المطر، وعم الجدب الأرض، فإنها تضطر إلى التنقل من مكان لآخر، ومن منطقة إلى أخرى طلبا للعيش والكلأ، مما يجعلها تصطدم في الغالب مع القبائل صاحبة الأرض الخصبة. والنتيجة هي الحرب أو صراع البقاء والاستمرار.[231]

Scanned by CamScanner

أ. الحرب وتنازع البقاء في المجال القبلي الواحد

تبدو هذه الظاهرة بوضوح، في المناطق القليلة الخصب، مثل الجبال أو المناطق الصحراوية، وشبه الصحراوية، التي تحول دون قيام زراعة قوية، حيث تضطر القبيلة دوما إلى التنقل بحثا عن الماء والمرعى؛ فقد كانت قبائل بني مرين تتنقل في «مجالات القفر من فكيك إلى سجلماسة إلى ملوية، وربما يخطون في ظعنهم إلى بلاد الزاب»،[232] يتنقلون في تلك البراري والقفار من مرعى إلى آخر،[233] و«كانت طائفة منهم يدخلون بلاد المغرب في زمن الصيف يكتالون ميرتهم، ويرعون أنعامهم، فإذا توسط الخريف اجتمعوا ببلاد كرسيف، ثم شدوا رحالهم وانصرفوا إلى بلادهم».[234] وإذا علمنا أن هذا المجال كان موطن تنقل قبائل مثل بني عبد الواد[235] وقبائل زناتية أخرى،[236] أمكن فهم لماذا «كان بين بني عبد الواد وبني مرين منذ أوليتهم وتقلبهم في القفار، فتن وحروب، ولكل منهما أحلاف في المناصرة وأشياع»،[237] إذ لا يعدو ذلك أن يكون اصطداما بين قبائل رعوية ألفت التنقل بحثا عن الماء والكلأ في مجالات قاحلة كالتي ذكرناها.

وتتأكد الظاهرة نفسها في المجالات القفرة التي كانت موطنا لقبائل بني المعقل من ذوي عبيد الله،[238] وذوي منصور،[239] وذوي حسان،[240] وكلها تنتجع «في الرمال إلى مواطن الملثمين من كدالة ومسوفة ولمتونة»[241]؛ فقد نزلت هذه القبائل في «ما يلي ملوية ورمال تافيلالت، وجاوروا زناتة في القفار الغربية، فعفوا وأنبتوا في صحاري المغرب الأقصى، فعمروا رماله، وتغلبوا في فيافيه، وكانوا هناك أحلافا لزناتة سائر أيامهم»،[242] ينتجعون القفر، ويكثرون الغزو، ويعترضون قوافل التجارة، ويقطعون الطرق على قصور الصحراء.[243]

في مثل ظروف الصحراء بقحولتها، حيث يظل الطابع المميز للقبائل التنقل والترحال،[244] لا تختص قبائل زناتة أو العرب أو صنهاجة عن غيرها من قبائل القفار بظاهرة الحرب والتنافس على الموارد؛ فهؤلاء البدو الذين «لا وطن يرتافون منه، ولا بلد يجنحون إليه، ونسبة الأقطار والمواطن إليهم على السواء»،[245] ويعيشون من منتوج أنعامهم «يقتاتون منها يسيرا بعلاج أو بغير علاج البتة إلا ما مسته النار»،[246] ولا يستقرون في مكان واحد لعدم وجود أرض كافية لرعي ماشيتهم،[247] يبدو قرار خوض الحرب بالنسبة إليهم كما لو كان مماثلا لقرار تغيير المرعى لقحولته وجدبه، أو للحظة بداية تتبع خط النجعة. تبدو الحرب أمرا لابد منه لحفظ البقاء خاصة في سنوات القحط والمجاعة.

Scanned by CamScanner

لذا نعتت المصادر قبائل زناتة الموطنين بالقفر بأنهم «آخذون من شعائر العرب في سكنى الخيام واتخاذ الإبل، وركوب الخيل، والتغلب في الأرض وإيلاف الرحلتين، وتخطف الناس من العمران»،[248] و«ابتغاؤهم الرزق من تخيف السابلة، وفي ظل الرماح المشرعة»،[249] وأن بني مرين منهم كانوا لا يعرفون الحرث ولا التجارات، ولا يشتغلون بغير الصيد والغارات، جل أموالهم الإبل، ودأبهم الحرب وخوضان الليل.[250] وعموما فقد ظلت هذه القبائل وغيرها من أهل الصحراء من صنف الناس الذين جعلوا «أرزاقهم في ظلال رماحهم، ومعاشهم فيما بأيدي غيرهم ومن دافعهم عن متاعه آذنوه بالحرب».[251]

ولا نعدم من القرائن ما يثبت هذا القول؛ فالنصوص تذكر أن عبد المومن بن علي عندما استولى على أموال لمتونة بوهران، وبعث بغنائمه في قافلة إلى تينملل، «بلغ الخبر إلى بني مرين بمكانهم من الزاب، وشيخهم يومئذ المخضب بن عسكر، فأجمع اعتراضها بقومه، ولحق العير بوادي تلاغ، فاحتازها من أيدي الموحدين»،[252] إلا أن عبد المومن استرد غنيمته بعدما كلف أنداده بني عبد الواد بذلك، فـ«اكتسحوا حللهم وذلك سنة أربعين وخمسمائة، فلحق بنو مرين بصحرائهم ومجالات قفرهم».[253] وقد ظل هذا القبيل يمارس نشاطه هذا في هذا المجال حتى بداية القرن 7هـ/13م، «يغير في بلاد تلمسان وبجاية والقلعة وغير ذلك، يهزمون وينهبون».[254]

أما بنو سعيد من بادية رياح، فقد كانوا يغيرون على صنهاجة الملثمين، «وهم أكثر العرب غزوا إلى بلادهم، فيستبيحون من صحبوه منهم، يرمونه في بطون مغاير، فإذا اتصل الصائح بأحيائهم، وركبوا في اتباعهم واعترضوهم على المياه قبل فصولهم من تلك البلاد، فلا يكادون يخلصون، وتشتد الحرب بينهم، فلا يخلص العرب من غوائلهم إلا بعد جهد».[255]

وإذا كان هذا هو حال قبائل الصحراء والقفار والبادية قليلة الخصب، «مثل العرب وزناتة (...) وأهل اللثام من صنهاجة»،[256] فإن الأمر لم يختلف كثيرا في المناطق الداخلية من المغرب الأقصى، وبخاصة الجبال منها، حيث كانت ضآلة الأرض وفقرها، فضلا عن تعاقب سنوات الجفاف وارتباط نشاط القبيلة على الأرض بمدى وفرة المياه، تدفع القبائل إلى غزو بعضها البعض، حيث تبدو الحرب انعكاسا مباشرا لشروط اقتصادية غير ملائمة، وظروف معاشية قاسية.

ولا تعوزنا القرائن الدالة على هذا التفسير؛ فقد كانت قبائل الجبال والبادية قليلة الخصب، لا تكف عن شن الغارة على مجاوريها للحصول على الأسلاب من الماشية

Scanned by CamScanner

والأموال، من أجل ذلك «كانت قبائل فازاز من جناتة وقبائل العرب والبربر يقطعون الطرقات، ويغيرون على القرى والمحاشر مع الأحيان والأوقات».[257] «وكان أشد ضررا على الناس عرب رياح بالاختلاس والافتراس، لاسيما في أحواز مكناسة وفاس»،[258] مثلما كانت «سفيان [من قبائل جشم] يطلبون ضواحي بلاد حاحا من المصامدة (...) وطال عيثهم بضواحي مراكش وإفسادهم».[259] وبسبب تفاقم هذه الظاهرة سئل بعض المفتين عن «قوم يتناهبون ويتغاصبون ينهب هؤلاء، وينهب هؤلاء، وأسلافهم كذلك»،[260] وعن جماعة «من العرب ما بين فارس وراجل قدرها عشرة آلاف أو تزيد، ليس لهم حرفة إلا شن الغارات، وقطع الطرقات على المساكين، وسفك دمائهم، وانتهاب أموالهم بغير حق (...) هذا دأبهم، سلفهم وخلفهم».[261]

وتكشف نصوص أخرى عن ارتباط «ما شهدت به العوائد من مفاتنة القبائل وتحزبهم للحروب»[262] بالرغبة في الاستفادة من موارد الأرض من ماء ومرعى وفلح؛ فقد سئل بعض الفقهاء «عن أهل بلد بينهم وبين جيرانهم حرب، ووقع بينهم قتل، فصالح شيوخ البلد القوم الذين حاربوهم على نصف الوادي الذي يسقون به أهليهم وأراضيهم، وجميع الوادي لخلق كثير».[263] كما تحدث أحد الجغرافيين عن قبائل درعة التي كانت تعيش «في نزاع وقتال دائمين، وبالأخص عندما يجب سقي المزروعات بسبب قلة الماء الجاري».[264] وعن أهل غمارة الذين كانوا يعيشون «في حروب وخصام مستمر»،[265] بسبب ضيق المجال، وضعف مردوديته في بعض المناطق.[266] وأهل جبل مكاصة الذي «لا ينبت فيه سوى القليل من القمح (...) شجعاناً كانوا راجلين أو راكبين (...) ويعطي هذا الجبل حوالي ستة آلاف محارب».[267]

وبسبب قلة الأرض وندرتها في الواحات، يتحدث العبدري[268] عن أهل القبلة الذين «في أكثر بلادهم حصون مجموعة، وأنهار جارية، وقل ما تخلو من الحروب والفتن». والظاهر أن الفقر والعوز كانا يعجلان بإثارة الحرب بين القبائل، إذ يتحدث الوزان[269] – في فترة متأخرة عن زمن البحث– عن بعض قبائل الريف التي ليس «لها من الأرض الصالحة للزراعة إلا القليل (...) ويعيش هؤلاء الجبليون في فقر مدقع، وتوجد بينهم عداوات قديمة، وهم مسلحون باستمرار».

مجمل القول إن القبيلة المغربية خلال العصر المريني وقبله أيضا كانت تنتقل من مرعى إلى آخر، أو تتجمع على واد أو نهر أو عين حيث تتعاطى للرعي أو الزراعة. وبما أن هذين

Scanned by CamScanner

المصدرين لا يكفيان لسد حاجاتها، فإن علاقتها مع قبائل الجوار كانت، في الأغلب، على حالة ثابتة من العداوة تعبر عن نفسها بشكل متفرق عن طريق غزو الماشية، أو احتلال الأرض بمائها وكلأها. وفي كل الحالات، لا يتم ذلك بمعزل عن وضع السلطة المركزية من حيث القوة أو الضعف.

ففي حالة قوة الدولة، غالبا ما تبقى هذه القبائل في منتجعاتها بالقفر،[270] أو في أماكن استقرارها تنتج بعضا مما يكفيها من المعاش، أو يغزو بعضها بعضا كما رأينا سابقا. أما إذا ضعفت الدولة، أو عجزت عن فرض نفوذها على الأطراف، فإن هذه القبائل سرعان ما تتجه نحو الخصب من البلاد، وتتوغل في أراضي القبائل الأخرى،[271] أو في ضواحي المدن للاستئثار بخيرات الأرض، سالبة الأموال من زرع وماشية.[272] والنتيجة حرب دائمة قد تنتهي بفناء هذه القبائل وتشتتها، أو فرارها إلى منتجعاتها، أو انتصارها وتطلعها لأدوار أخرى تحافظ بها على ما اكتسبته من أموال وأرضين.

ب. الهجرات المسلحة الكبرى ونزوع القبائل نحو الخصب

يمثل العصر المريني النموذج الأمثل لمعاينة هذه الظاهرة وارتباطها بالنزوع نحو الخصب من الأرض والاستئثار بها.[273] وينبغي هنا أن نشير، لأغراض الدراسة المقارنة مع الفترات التاريخية السابقة، إلى مطابقة هذا التفسير لتحركات قبائل صنهاجة ومصمودة، وإن كانت قد غلفت بغطاءات دينية ومذهبية[274]؛ فصنهاجة الملثمون لم تدخل بلاد السوس غازية في منتصف ق5هـ/11م[275] إلا عندما «قحطت بلادهم، وماتت مواشيهم، ولقوا شدة عظيمة»،[276] وبعدما «ضاقت الصحراء بـ[هم] لشظفها، فطلبوا إظهار كلمة الحق»،[277] مما يثبت دور العامل السوسيو اقتصادي في نزوع القبيلة نحو الخصب، وتأجيج الحرب القبلية.

ومعلوم أن تحرك قبائل مصمودة من جبال درن في اتجاه سهول مراكش في بداية القرن 6هـ/12م كان أساسا للخروج من الحصار الاقتصادي الذي مارسته صنهاجة عليهم،[278] بعدما استولت على السهول الخصبة التي ينتجعون إليها،[279] فكانت حروب هؤلاء أساسا بحثا عن الخصب والرخاء.

أما إذا انتقلنا إلى بداية القرن 7هـ/13م بدا لنا العامل الاقتصادي أكثر وضوحا؛ فقد كان عامل انتزاع الأرض، واكتساح السهول، والنزوع نحو الخصب، عنصرا واضحا في دفع القبائل إلى الحرب والمغالبة؛ فبعدما كانت قبائل بني مرين تعيش في «البراري والقفار»، لم

Scanned by CamScanner

تتردد في استغلال أول فجوة ظهرت في صرح الدولة الموحدية بعد هزيمة العقاب (609هـ/1212م)، وبعدما استطلعوا «حال البلاد وخصبها، وطيب مزارعها، وسعة مراعيها ومسارحها، والتفاف أشجارها، وغزير مياهها، واطراد عيونها وأنهارها»،[280] لم يترددوا في انتهاز «الفرصة وتخطوا إليه القفر، ودخلوا ثناياه، وتفرقوا في جهاته، وأرجفوا بخيلهم وركابهم على ساكنه، واكتسحوا بالغارة والنهب عامة بسائطهم، ولجأت الرعايا إلى معتصماتهم ومعاقلهم، وكثر شاكيهم، وأظلم الجو بينهم».[281] وعلى هذا فالمحرك الأول للحروب التي ابتدأت بمجرد دخول قبائل بني مرين للمغرب الخصيب في بداية القرن 7هـ/13م، وامتدت لفترات طويلة، كان هو انتزاع الأرض، والنزوح نحو الخصب.

يبدو ذلك واضحا عندما نتتبع خطى هذه القبائل؛ فبعد اكتساحها للمراعي التلية بالشمال الشرقي،[282] كانت الحرب ديدنها الدائم للاستيلاء على سهول الهبط وأزغار،[283] وانتزاعها من قبائل رياح التي استوطنتها قبل ذلك بقليل،[284] وتطلب ذلك حروبا مريرة «استلحمهم فيها بنو مرين إلى أن حق الغلب، واستكانوا العز بني مرين وصولته»،[285] وعلينا أن نتوقع مثل هذا الاصطدام العنيف بين قبائل حديثة العهد بالخصب، ورغبتها الجامحة في النزوع نحوه، فدخلت المغرب «بالخيل والإبل والمراكب والقباب، في جيش كالسيل أو الليل المقمر، وأمم كالنمل أوالجراد المنتشر»،[286] وقبائل بني رياح التي كانت «أقوى قبائل عرب المغرب وأشجعها وأكثرها خيلا وأموالا ورجالا».[287]

بعد ذلك اتجهت هذه القبائل لانتزاع سهل تامسنا من قبائل الخلط وسفيان النازلة به، بعد أن كانت به «حيا حلولا بأطرافه، ويطلبون ضواحي بلاد جاجا من المصامدة (...) وطال عيثهم بضواحي مراكش وإفسادهم».[288]

وهكذا، وبغض النظر عما ارتبط بهذه القواسم الكبرى من حيثيات، تعاملت القبائل المرينية مع باقي المجال،[289] والتي أفاض في تحليلها أحد الباحثين المتخصصين،[290] فإن ما يمكن الاحتفاظ به هنا هو أن الحروب التي شنتها هذه القبائل القادمة من القفر كانت مؤطرة أساسا برغبة أساسية عبرت عنها النصوص في وصف نتائج هذه الحروب على الشكل التالي:

ما يؤكده نص ابن أبي زرع في أن أبا بكر المريني «جمع أشياخ بني مرين ورؤساء قبائلهم وقسم عليهم بلاد المغرب، فأنزل كل قبيلة في ناحية منه، وجعل لها ما نزلت فيه من

Scanned by CamScanner

الأرض، وما غلبت عليه من البلاد، طعمة لا يشاركهم فيها غيرهم». 291

ما ينتج عن كل حرب من الغنائم والأسلاب والتي عادة ما يأمر شيخ هذه القبائل بتقسيمها على كل وحدات القبيلة، فغالبا ما كان يأمر «بجمع السلب والأموال [فتجمع] بين يديه، [ويـ] قسمها في قبائل بني مرين بالسوية والاعتدال، و[يـ]عطي كل شيخ من أشياخ مرين على قدر منزلته وقومه وما يستحق حتى [يـ]رضى الجميع». 292 وكل تملص في هذا التوزيع العادل للغنائم يعني بالضرورة تفككا في وحدة القبيلة. 293

ما تمثل في وضع بني مرين على كل قبيلة مالا أو زرعا معلوما يؤدونه في كل سنة خفارة على بلادهم (...) على أن تؤمن لهم الطرقات، وتكف عنهم الغارات، وتدفع عنهم أذى من كان يؤذيهم من القبائل. 294

ولعل في هذه العناصر الثلاثة ما يثبت أن الحروب القبلية خلال هذه المرحلة كانت «حروب عوز»، ارتبطت أشد الارتباط بمعاش القبائل والرغبة في تأمينه بالاستيلاء على الأسلاب والأموال والأرضين.

ويجدر بنا أن نشير إلى تحركات أخرى صاحبت حروب بني مرين في المغرب الخصيب، وتتمثل أساسا في قبائل المعقل التي كانت فيما سبق تشاطر بني مرين مجالها في القفار، 295 فلما دخلت هذه الأخيرة المجال الخصيب في السهول الأطلسية والمناطق الشمالية، لم تتردد هذه القبائل في اقتحام مناطق الجنوب وبخاصة السوس، «لعدم المزاحم من الظواعن فيها، فأوطنوها وصارت مجالاتهم بقفرها، وغلبوا كزولة وأصاروهم في جملتهم ومن ظعونهم، وغلبوا على القصور التي بتلك المواطن من سوس ونول، ووضعوا عليها الإتاوات». 296 ومن دون شك فإن هذا النص يحيل إلى الدوافع نفسها التي أطرت حروب مرين في الوسط والشمال. 297

الحاصل إذن، أن وطأة الطبيعة، وإكراهات المناخ، وضعف التقنيات، وغيرها من العوامل التي عرضنا لها سلفا، كانت تدفع القبائل إلى البحث عن أسلوب يكفيها ضنك العيش، ويحفظ بقاءها. وفي تنقلها بحثا عن الكلأ والخصب تجد أمامها ندا يدفعها عن ذلك فترده بالحرب، ومنه تكتشف القبيلة مصدرا للعيش لا يقل أهمية عن المصدر الطبيعي، ويتمثل في الغزو أو فيما يمكن أن نسميه بـ«حروب العوز». يكتشف أفراد القبيلة معنى الغنيمة؛ فالرزق وربما الفائض عنه يأتي بغير طرقه الطبيعية: العمل بالأرض في مناخ لا ينذر

Scanned by CamScanner

بوقت شحه أو بوقت كرمه، أو الرعي بقطيع لا يسلم بدوره من آفة الجوع والجفاف أحيانا، ومن السلب والغارة أحيانا أخرى. في هذه الحال يصبح الغزو والحرب مكسبا لثروة جاهزة لم يعمل صاحبها على إنتاجها، بقدر ما أعد لها قوة عظيمة لا تقهر وعتادا لا يرحم.

من أجل ذلك أضحت قيم الفروسية والشجاعة والقوة الجسمانية والقدرة على إتقان فن الحرب من القيم التي مجدتها القبيلة خلال هذه المرحلة،[298] خاصة إذا علمنا أن عمليات الغزو كانت تسمح لأفراد القبيلة، وفي مقدمتهم شيخها، بمراكمة الأموال وتكديسها مما يشجعهم على مضاعفة تلك العمليات.[299]

ثالثا: الحرب القبلية والمحدد التاريخي

فضلا عن العامل السوسيو اقتصادي الذي دفع الكثير من القبائل إلى امتهان الغزو، وعمل على استشراء ظاهرة الحرب خلال المرحلة مدار الدرس، يجدر بنا أن ننوه بدور العامل التاريخي والقرار السياسي في تأكيد الظاهرة وتعميقها، عامل لا نميزه عن سابقه إلا من جانب تاريخية الظاهرة. فالعامل الاقتصادي كان حافزا أساسيا حتى في هذه الحالة. ونقصد بالعامل التاريخي دور الدول والتجارب السابقة في ترسيخ الظاهرة الحربية في الجسم القبلي خلال العصر المريني.

قد يكون من الأجدر بنا أن نذكر بقضية أساسية تمس طبيعة الدولة في تاريخ المغرب الوسيط[300]؛ فكل سلطة أو دولة خلال هذه الفترة في حقيقتها وأصلها قبيلة استطاعت أن تخضع لسلطتها ونفوذها، بشكل مباشر أو غير مباشر، مجموعة من القبائل المغلوبة على أمرها، أو المتحالفة معها من أجل مصالح معينة.[301] فعلى هذا الأساس قامت دولة المرابطين بعدما تمكنت قبيلة لمتونة الصنهاجية، بفضل قوتها، وشكيمة أفرادها، من بسط هيمنتها على المجال وإخضاع قبائله.[302] مثلما قامت دولة الموحدين على سواعد المصمودين وسيوفهم.[303] وإذا سلمنا بهذا الأمر، فإن اتساع أي دولة كان مقترنا أشد الاقتران بمشاركة القبائل الأخرى، عبر استمالتها وإغرائها بالأموال والأرضين، لاستخدام أفرادها في حملات التوسع والانتشار، أو بإدماجها قسرا.[304] فهل كان لهذا الوضع دور ما في ترسيخ أهمية الغزو، واقتصاد الغنيمة في القبيلة المغربية خلال عصر الدراسة؟

وحتى لا نتوقف كثيرا على الحيثيات المرتبطة بتكون هذه الدول، ودور العامل الاقتصادي في توجيه عصبيتي صنهاجة ومصمودة للاستئثار بالحكم، يكفي أن نحيل إلى

Scanned by CamScanner

أعمال رائدة في هذا الصدد،305 فإن ما يهمنا من هذا كله هو دور سياسة التوسع والانتصارات التي حققتها الدولتان في جلب اهتمام الأفراد والقبائل للإقبال على الحشد والتطوع والعسكرة، والنتائج التي يمكن أن تترتب عن هذه المشاركة.

يعتبر أحد الباحثين المتخصصين306 أن الدولة خلال العصر المرابطي كانت أكثر جنوحا نحو الحرب والجهاد، وأن اقتصادها كان قائماً على قوى حربية خاصة الغنائم والأنفال. لذلك فقد كان طبيعيا بالنسبة لقبيلة من «الأمم الوحشية الساكنين بالقفر»،307 والتي يؤطر الغزو توجهات أفرادها، «لأنهم جعلوا أرزاقهم في رماحهم»،308 أن تعتمد على سياسة توسعية باسم «الجهاد»، حتى إن كثيرا من الباحثين309 عدوا مبدأ الجهاد من الأسس الهامة التي قامت عليها دولة المرابطين.

من أجل ذلك كان الاهتمام بالغزو ومباشرة الحرب، وتجنيد القبائل وحشد المتطوعة، وتوسيع الأرزاق، في مقدمة اهتمامات الأمراء المرابطين.310 وبالرغم من الغموض الذي يكتنف النصوص حول طبيعة المشاركة القبلية دون عصبية صنهاجة المؤطرة ونسبتها، فإن المتوفر منها311 كاف للقول بأن الانتصارات التي حققها المرابطون في الأندلس، وما درته عليهم من أموال وغنائم كانت كفيلة بتكثير عدد المتطوعين، حتى أصبح المجتمع في أغلبه مجندا ومعبأ برمته للغزو، فجعلت منه الدولة مجتمع حرب، حسب تعبير باحث متخصص.312

ولم تكن دولة الموحدين في تاريخها سوى نسخة من سابقتها، من حيث الاهتمام بالحرب والغزو والاعتماد على الغنائم في تمويل خزينتها، وقد فرض عليها هذا التوجه الاعتماد بشكل كبير على خزان القبائل في إمدادها بالمحاربين.313 وإذا كانت الدولة في بدايتها اعتمدت أساسا على قبائل مصمودة التي ناصرت الدعوة منذ بدايتها فشكلت هذه القبائل عمدة جيشها،314 فإن توالي الانتصارات، وتضخم عدد القبائل المعتنقة لهذه الدعوة أسهم في إمداد هذا الجيش بالعناصر القبلية المحاربة.315 كما أن تظافر الانتصارات، وتواتر الغنائم، وتضخم إغراءاتها،316 أسهم في ارتفاع أعداد القبائل المشاركة في الغزوات الموحدية.317

ولما كان الإنتاج الفلاحي إبان هذه المرحلة رهينا بالظروف المناخية والبشرية، فقد قامت الحروب بدور هام في تغيير نمط عيش كثير من أبناء القبائل المستقرة؛ إذ تركوا أرضهم

Scanned by CamScanner

تبور، وفضلوا الانخراط في سلك الجندية[318] بعيدا عن مشاكل الجفاف والجبايات والفتن. ويكفي مراجعة بعض الأرقام التي أوردتها المصادر للتأكد من كثرة أعداد الملتحقين بسلك الجند والمتطوعة.[319]

ويجدر بنا أن نشير إلى قضية نعتبرها هامة في فهم تأثير حملات الدولة التوسعية، وما تذره من الغنائم على منظميها والمشاركين فيها، في جلب اهتمام القبائل للمشاركة فيها، ويتعلق الأمر بمشاركة قبائل كانت تعتبر نفسها مستقلة عن الحكم المركزي، وبعيدة عن هضمة أحكامه،[320] كما هو حال قبائل بني مرين التي شاركت في معركة الأرك بمحض رغبتها وجنوحها إلى كسب الأموال والأنفال دونما أي ضغط من السلطة.[321]

وفضلا عن الهاجس الاقتصادي، قام القرار السياسي بدور هام في تأكيد هذه الظاهرة؛ فلما كانت الحروب التي خاضها الموحدون، وقبلهم المرابطون في بلاد المغرب، أفضت إلى إفراغ مناطق بكاملها من ساكنتها،[322] فقد أدت حروب الدولة الموحدية في إفريقية أولا، ورغبة الموحدين في استجاشة قبائل لها خبرة هامة في مجال الغزو والحرب ثانيا، دورا أساسيا في إحلال ساكنة جديدة بالمناطق المفروغة، كما هو الحال في تامسنا التي أنزل فيها الخلفاء الموحدون القبائل العربية، فوطنوا كلا من جشم والخلط والأثبج به،[323] مثلما وطنوا قبائل رياح بإقليم الغرب أو ما يعرف آنذاك بأزغار.[324]

وكيفما كان الحال، فقد قامت هذه القبائل بأدوار جمة في حروب الدولة[325]؛ إذ «لم يزل الموحدون يستنفرونهم في جهادهم بالأندلس، وربما بعثوا إليهم في ذلك المخاطبات الشعرية، فأجازوا مع عبد المومن ويوسف وابنه»،[326] بحيث يمكن القول إنهم شكلوا عمدة الجيش الموحدي في بعض المعارك.

وفي كل الأحوال، يبدو أن النتيجة الموضوعية لمشاركة القبائل في حروب الدولة، والإفادة من غنائمها ومواردها الجاهزة، توزعت بين نقطتين رئيستين هما:

1. توقف موارد الغزو ومحاولة تعويضها بغزو القبائل المجاورة

بمجرد انقطاع موارد الغزو مع هرم الدولة، وتوقف حروب التوسع لديها، تتضرر القبائل المستفيدة، وتحاول تعويض مداخيلها السابقة بغزو القبائل والمدن القريبة منها؛ ولعل أبرز مثال يوضح ذلك ما ميز المرحلة الانتقالية بين الموحدين والمرينيين من حروب وغارات قبلية، إذ بمجرد انهيار الدولة الموحدية، وتتابع هزائمها «كثرت الفتن بين القبائل، واشتد

Scanned by CamScanner

الخوف في الطرقات والمناهل»،[327] و لم تتردد «قبائل فازاز من جانانة وقبائل غمارة وأوربة وصنهاجة والعرب» في قطع الطرقات، والإغارة على «القرى والمجاشر مع الأحيان والأوقات».[328]

ومن الأمثلة الدالة على هذه الثنائية التي تجمع بين موارد الغزو، والسعي إلى تعويضها بمغالبة القبائل الأخرى، ما أعقب انحسار ظل الدولة المرينية عن كثير من مجالات المغرب الأقصى خلال المرحلة الأخيرة من عمرها، إذ كثرت تعسفات القبائل ذات النجعة والحرب، وتضاعفت غاراتها على القبائل والمدن لتعويض تلك الأموال التي اعتادت الحصول عليها من خلال مشاركتها في حروب الدولة،[329] أو في جبي مغارمها،[330] أو في حماية بعض مجالاتها،[331] وبسبب ذلك كان هؤلاء الأعراب يغيرون على القرى والمجاشر «يأكلون كل ما يجدونه من الطيبات»،[332] وأضحى ملوك بني مرين المتأخرين يكثرون من الإقامة في «تازا الصيف كله لحراسة البلاد وحمايتها من أعراب الصحراء».[333] بل أصبح سكان بعض المناطق لا يستطيعون مباشرة «ولو شبر واحد من الأرض الصالحة للفلاحة خارج الأسوار لكثرة تعسفات»هم.[334]

2. إرباك التوازن بين القبائل وتهيئة الجو الملائم للمغالبة

ذلك أن مشاركة القبائل في حروب الدولة، وكيفما كانت نتيجتها، كان لها وقع على الكيان الاجتماعي والسياسي في البلاد؛ فالقبائل المشاركة في «الجهاد» كانت تعود إما أقوى مما كانت عليه بفضل الغنائم في حالة النصر، أو أضعف في حالة الهزيمة. وفي كلتا الحالتين تكون النتيجة واحدة، وهي تغيير موازين القوى في الداخل،[335] حيث يبدأ فصل آخر من الحرب المغالبة والقبلية.

فإذا كنا نرجو، في تقديمنا لهذا العامل، أن يقدم لنا بعض الإجابات عن السؤال المركزي الذي طرحناه منذ البداية: وهو لماذا تبدو القبيلة المغربية خلال العصر المريني وكأن وجودها الاجتماعي كان من أجل الحرب؟ فإن أهم ما نستنتجه هو أن القبيلة إما أن تكون قد شاركت في حروب الدولة المركزية فاستفادت وتقوت من مغانم الانتصارات، وهبات السلاطين، فأصبحت أقوى مما كانت عليه، وأضحت قوة يهابها الجميع، لتبدأ في الاستفادة من هذه القوة في مغالبة القبائل الأخرى، لتحقيق مزيد من الخيرات المادية، وتعويض توقفها نتيجة هرم الدولة. أو أضعف وأهون من حالتها قبل المشاركة، فتصبح في متناول الأولى أو

Scanned by CamScanner

القبائل التي ظلت بعيدة عن سلطة الدولة وأحكامها. وفي كل الأحوال فإن النتيجة هي تأكيد الظاهرة الحربية واستفحالها.

لقد أتت الحرب على كثير من القبائل، خاصة منها التي كانت عصب الدولة وحاملة سريرها، كما هو حال صنهاجة الملثمين التي «هلك من قام بالملك منهم بالعدوتين من مسوفة ولمتونة، أكلتهم الدولة، وابتلعتهم الآفاق والأقطار، وأفناهم الرق، واستلحمهم أمراء الموحدين»،[336] أو قبائل الموحدين ومنهم كومية الزناتية التي «بقي من بقي منهم بمحالهم ومعاقلهم بقية حتوف، وجرت عليهم ذيل زناتة من بعد الملك أذيال الغلب والقهر».[337] وهرغة «قبيل الإمام المهدي [الذين] دثروا وتلاشوا وانتفقوا في القاصية من كل وجه».[338] وفي أحسن الحالات وريكة مجاورو «هنتاتة وبينهم فتنة قديمة وحروب متصلة ودماء مطولة».[339]

وفي غير هذا الاتجاه، ظل بنو مرين، الذين كانوا «لا يعمرون إلا القفار، ولا يؤدون لسلطان بدرهم ولا دينار، ولا يدخلون تحت حاكم ولا سلطان»،[340] وإن شاركوا في حروب الدولة فبلا ذل ولا هوان،[341] من أكثر القبائل قوة «وأشدها في الحروب بأسا وإقداما (...) وأوفرها عددا وأطولها في الشدائد يدا».[342] أما قبائل العرب من جشم ورياح والخلط فنتيجة مشاركاتها المتعددة في حروب الدولة، واستفادتها من غنائم وأعطيات السلطان، أصبحت «لهم صورة غلب واعتزاز على الدولة بكثرتهم وقرب عهدهم بالبداوة»،[343] وخاصة رياح التي كانت «أقوى قبائل عرب المغرب وأشجعها، وأكثرهم خيلا وأموالا ورجالا».[344]

يبدو إذن أن العامل التاريخي وفر الأرضية الملائمة لبعض القبائل لتغالب غيرها مستفيدة من قوتها التي لم تتأثر بالحروب السابقة. ولعل أقرب مثال لذلك ما يذكره ابن خلدون[345] في حديثه عن بني مرين وعرب رياح، إذ يقول إنه لما «اقتحم بنو مرين بلاد المغرب على الموحدين، وملكوا فاس وقريتها، لم تكن فيه حامية أشد منهم بأسا ومن رياح لقرب عهدهم بالبداوة، فكانت لهم معهم وقائع وحروب، استلحمهم فيها بنو مرين». ولعل أوضح نتيجة لما سبق، ما تذكره النصوص عن استفحال أمر القبائل العربية بمجرد انهيار الدولة الموحدية، حين «خربوا ما بين الأعياص، وظاهروا الخلافة وأكثروا الفساد»،[346] وهو ما حدا ببعض الباحثين الأجانب[347] إلى استغلال هذه الصورة، وتحميل هذه القبائل،

دون غيرها، مسؤولية ما آلت إليه الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية منذ بدايات القرن 7هـ/13م.[348]

خلاصة القول إن حضور الحرب بشكل مكثف في بنية الدولة المرابطية والموحدية، واعتمادها بشكل كبير على خزان القبائل، قام بدور حيوي في تأكيد ظاهرة الحرب في القبيلة خلال العصر المريني؛ فإرغام القبائل على المشاركة فيها، أو إغراء بعضها بالأموال والامتيازات، فضلا عما كانت توفره هذه الحروب من غنائم وأنفال شجعت القبائل على الإقبال عليها. إلا أن توقف هذه الحرب بمجرد انهيار الدولة، يعني محاولة تلك القبائل تعويض توقفها بغزو ومحاربة غيرها من القبائل. وفي ضوء ذلك أصبحت الحرب في القبيلة ظاهرة حاضرة باستمرار في طريقة اشتغالها.

المبحث الثالث: المقاصد السياسية لظاهرة الحرب القبلية

الحقيقة أن تحليل الظاهرة الحربية في المجتمع القبلي، وتحديد ميكانزماتها والمحددات المتحكمة في إنتاجها يقتضي اعتبار العوامل غير الاقتصادية التي أسهمت بشكل أو بآخر في هيكلة هذه الظاهرة وترسيخها في الجسم القبلي خلال عصر الدراسة. ففضلا عن كل الدوافع التي تجعل من الحرب ظاهرة تنشب باستمرار بين القبائل، والتي تتفق في كونها ظاهرة سوسيو اقتصادية تؤطر رغبة القبائل في تحسين وضعها الاقتصادي أو علاجه بمغالبة غيرها من القبائل فيما سميناه بـ «حروب العوز»، تبدو هذه الحرب، في بعض دواعيها، وسيلة لغاية سياسية، هي تدبير الاختلاف بين القبائل، ورسم حدود الحقل السياسي للجماعات القبلية.

أولا: الوظيفة التجزيئية للحرب القبلية

الظاهر أن قلة الموارد المادية وندرتها، والتنافس الحياتي، أو صراع البقاء عليها، وما حتمته من نزاعات مستمرة بين القبائل، جعلت من القبيلة كيانا «منغلقا» على ذاته، حيث إن صراع البدوي مع الطبيعة وتنافسه مع غيره في تحصيل عيشه يستهلك جل نشاطه، والعلاقات التي تنشأ بينه وبين غيره تتسم في الغالب بالمحدودية.[349] والنتيجة الموضوعية لهذا «الانغلاق» هي أن الجماعة القبلية تشعر شعورا لا سبيل إلى زعزعته بأن الأرض التي تكسب منها عيشها هي أرضها ما دامت تقيم فيها وتحتلها،[350] «وربما لا يسعهم مفارقة

Scanned by CamScanner

تلك [الأرض] إلى جهات أخرى؛ لأن كل الجهات معمور بالبدو الذين غلبوا عليها ومنعوها من غيرهم».351

ففي إطار القرابة، التي تمثل فيها العصبية الرابطة التي تجمع أفراد الجماعة القبلية ووحداتها في كل شامل، والمصلحة المادية المشتركة التي تمنح لتلك الرابطة فعاليتها، تقوم الجماعة القبلية بإعادة تجميع مختلف مكوناتها، وتتجاوزها بإدراجها في «نحن واحد»، لتمثل وحدة سياسية تجد تعبيرها في الانتماء المكاني المباشر لمساحة من الأرض تعتبرها موطنا لها،352 مع الحق في أن تكون أكثر امتدادا، وغير محدودة بالنسبة للبدو الذين يمتهنون الرعي والظعن، إذ «نسبة الأقطار والمواطن إليهم على السواء».353

وإذا كان هذا الموطن يمثل بحق احتياطيَ الإمكانات المادية للجماعة القبلية، ويمنحها محليتها، فإنه من جهة أخرى يعتبر مجالا تنفرد به لتمارس عليه حقوقها كجماعة ؛ بما يعنيه ذلك من وجود لرئيس ومجلس للجماعة،354 ولأعراف وقوانين اقتصادية واجتماعية وسياسية.355 لكن استخدام هذا المجال، والتفرد به، يتضمن في جانبه الثاني استبعادا للآخر، الذي لا تجري أحكامهم وأحوالهم عليه356 «من النعرة والقود وحمل الديات وسائر الأحوال».357

إن بعدي العصبية والأرض حين يضمنان عدم انقسام القبيلة، يتضمنان الرابطة السياسية بما هي استبعاد للآخر؛ فأول ما ينتج عن هذه الرابطة أن مجال تواصل الشخص مع غيره محدود بحدود عصبيته، وكل ماعداها يعتبر غريبا يجب الحذر منه،358 وهذا الغريب بالضبط هو مصدر وحدة الجماعة، أو بعبارة أحد الباحثين359 «سر بقاء العصبة كوحدة اجتماعية متماسكة ذات كيان واضح». وبفضل ذلك تتوصل الجماعة إلى أن تقدم نفسها على شكل وحدة مستقلة ومتميزة ترفض كل من يهدد استقلالها، فيما يسميه ابن خلدون360 بـ«أهل العز والغلبة» البعيدين عن «هضمة الأحكام وذل المغارم».361

يقتضي الأمر أن تكون السيطرة على أرض معينة تسمح بتحقيق الجماعة لاكتفائها الذاتي على صعيد الموارد المادية،362 فتصبح مستقلة عن غيرها، غير متعلقة به، توقفا للحرب، وربما يعني ذلك أيضا إلغاء لها. إلا أن ندرة الموارد، وعدم تكافئها، ورغبة القبائل في الحفاظ على استقلال كيانها وتميزه، هو على جانب كبير من التوتر الذي يكفي ليجعل حادثا بسيطا يحول بسرعة ذلك الاستقلال المطلوب إلى حرب وتنازع بين الجماعات،

Scanned by CamScanner

ويضحي المجتمع القبلي –من حيث هو مجموع الجماعات التي تبحث عن استقلالها– مؤلفا من مجموعة من الأعداء، يحاول كل واحد أن يهاجم ليثبت استقلالية كيانه، فـ«كل عصبية .. تظن في نفسها منعة وقوة».[363]

بذلك لا نستغرب إن حدثتنا النصوص عن حروب ونزاعات بين القبائل كان الثأر، أو غيره من الأسباب، وراء اندلاع فتنتها[364]؛ يذكر ابن أبي زرع[365] أن بني مرين قبل دخولهم المغرب الأقصى «وقعت بينهم وبين بني عبد الوادي وبني واسين حرب بسبب امرأة». كما تحدث ابن الخطيب[366] بنوع من المبالغة عن عرب تامسنا الذين تقاتلوا فيما بينهم، وسقطت أرواح وبددت أموال، لأن ناقة أحد الطرفين داست فراخ طائر عشش بالقرب من شيخ الطرف الآخر، فقرروا الأخذ بثأر من قتل من الفراخ. وفي السياق نفسه استغرب الوزان[367] من استفحال عادة عند أهل مرنيسة من جبال غمارة؛ إذ إن كل امرأة أصابتها إهانة من زوجها مهما كانت ضئيلة، فرت إلى الجبال الأخرى تاركة أولادها، وتزوجت من رجل آخر، وهذا هو السبب الذي كان يجعل الرجال في الغالب يحملون السلاح، وتكون بينهم مشاجرات دائمة.

فالحرب هنا، وكيفما كانت أسبابها المعلنة، فضلا عما تخفيه من تنازع على الخيرات كما أسلفنا، تمثل خير تعبير عن سياسة القبيلة الخارجية، إذ تعكس موقفها وإرادتها في بقائها ككيان مستقل. إلا أن ذلك يعني، أن كل الجماعات تملك الرغبة نفسها بما تتضمنه هذه الوضعية من استمرار العداء للآخر. ومن ثمة فالحرب هنا وسيلة تعتمدها القبيلة لغاية سياسية، وحالة الحرب باقية ما بقيت الجماعات القبلية قادرة على إثبات استقلاليتها، أما إذا عجزت وتوقفت عن الإسهام في حالة الحرب هذه، فذلك يعني استهلاكها وفناءها في القبائل الأخرى، وهو ما يقره ابن خلدون[368] بقوله إنه «إذا انقرضت العصبية قصر القبيل عن المدافعة والحماية، فضلا عن المطالبة، والتهمتهم الأمم سواهم».

ولا نعدم من القرائن التي تثبت هذا الرأي؛ فالعبدري[369] في وصفه الدقيق لمناطق الجنوب تحدث عن حروب مزمنة منظمة استغرب فيها طبيعة تنظيمها حين عبر عنها بقوله إن «في أكثر بلادهم حصون مجموعة، وأنهار جارية، وقل ما تخلو من الحروب والفتن، وربما تحارب أهل الموضع الواحد، فيتقاتلون عامة النهار، فإذا آواهم الليل أووا إلى بيوتهم لا يهيج أحد منهم صاحبه (...) وقد رأيت عندهم أعجوبة، وهي أن أهل حصن منهم يتحاربون، فأجمعوا رأيهم على أن لا يتقاتلوا في الحصن احتياطا عليه من الفساد الذي

Scanned by CamScanner

زعموا، وجعلوا المعترك خارج الحصن على مسافة منه، ونصبوا لذلك حدودا وأعلاما فهم يتقاتلون من ورائها، فإذا أوتهم حدود الحصن لم يرم أحد منهم حجرا، ولو اجتمع بقاتل حميمه لا يعرض له، فإذا أخرجوا من حرم الحصن اشتعلت نار الحرب بينهم. هذا دأبهم لا يغدرون ولا ينقضون». وفي السياق نفسه أشار الوزان[370] إلى الذين «يحكمون أنفسهم بأنفسهم حتى إنهم منقسمون متحاربون في غالب الأحيان، ولا تطول هدنتهم أكثر من ثلاثة أيام في الأسبوع، وفي خلال أيام الهدنة يمكن للخصوم أن يتجروا فيما بينهم، وأن يتنقلوا من جهة إلى أخرى، لكنهم في غير هذه الأيام يتقاتلون».

تحمل هذه النصوص في طياتها سؤالا يطرح نفسه بإلحاح: ألا يمكن لهذه القبائل أن تستثمر تلك الأعراف التي نظمت من خلالها العملية الحربية فيما بينها، في تنظيم ما يدفعها إلى القتال، ووضع حلول تمنع اندلاعه؟

الواضح أن الحرب هنا تحضر دائما لتذكر بالفوارق، تحضر لحاجة القبائل لها لتأكيد اختلافها واستقلالها، وبتعبير إحدى الباحثات[371] تحضر لتعبر عن القوة التي ينتعش منها الانقسام والاختلاف؛ فالحرب كائنة دائمة لتجعل كل جماعة تستمر في اختلافها، لذلك لم يخطئ أحد الدارسين[372] حين اعتبر أن المجتمع القبلي يقوم على الكثرة داخل الوحدة، وعلى التناصر والتعاضد في إطار التنافس والتناحر، ومن ثم كانت الحياة في البادية حياة صراع دائم.

نعتقد إذن أن الاقتصار في تفسير ظاهرة الحرب القبلية على المعطى الاقتصادي والاجتماعي وحده، بحيث تبدو مجرد صراع حياتي على الموارد والخيرات بين القبائل، لن يعطي للظاهرة حقها من التحليل، إذ سيكون من الصعب أن نفهم لم تحارب بعض القبائل بالرغم من أن لها من الإمكانات المادية ما يغنيها عن ذلك، اللهم إلا في حالة رد أي تعدٍ أو هجوم عليها.

تذكر النصوص أن قبائل الخلط الموطنين بسهل أزغار «أغنياء مجهزون أحسن تجهيز»[373]، وتملك من «المال العين والآنية من الذهب والفضة والإبل والمواشي شيئا تقف دون حصره الأوهام، وتكل عنه الخواطر والأفهام»[374]. وأن بني سليم من بني معقل «أثرياء يذهبون كل سنة ببضائعهم إلى تنبكتو، ولهم بدرعة ممتلكات عديدة، وأرض كثيرة، وعدد وافر من الإبل»[375]. ويصف الوزان[376] بني ورطناج من جبال غمارة بأن جبلهم ينبت كميات

هامة من «القمح والكتان والزيتون والليمون الحامض، والسفرجل الجميل المعطر، وتكثر فيه البهائم (...) والسكان شجعان كرماء يرتدون لباسا لائقا كالحضريين»، فضلا عمن يصف قبيلة بأنها لا تزرع «من أرضها إلا الجزء الذي ينتج كفاية قوتهم، ويتركون سائرها بورا»،[377] وأخرى بأن أفرادها «أثرياء أقوياء»،[378] بل تتحدث المصادر عن قبائل «كلها غنية ومكونة من رجال شجعان وكرماء جدا».[379]

وإذا سلمنا ـ كما أسلفنا ـ أن النزوع نحو الخصب، والصراع على السهول، هو التفسير الوجيه لفهم كثير من الحروب القبلية التي عرفتها المرحلة، فلماذا تستمر بعض تلك القبائل التي استولت على السهول في الاعتماد على الحرب لتدبير معاشها، حتى بعد أن وطنت سهولا من مثيل تامسنا، التي يصفها الوزان[380] بأنها «زهرة (...) الناحية كلها»، والهبط التي هي أرض معروفة «بخصوبتها ووفرة إنتاجها، معظمها سهل تخترقه مجاري مياه عديدة»،[381] وأزغار الموصوف بأنه «عبارة عن سهل أرضه جيدة».[382]

الواضح إذن، أنه فضلا عن كل الدوافع السوسيو اقتصادية التي تدفع بالقبيلة إلى ممارسة الحرب والاستمرار فيها لمراكمة ثروات معرضة للهزات في كل لحظة، تبدو الحرب في جانبها الآخر وسيلة هامة لغاية سياسية، هي تأكيد استقلال كل قبيلة. ويصبح في ضوء هذا التحليل ضروريا على كل قبيلة الإسهام في حالة الحرب، وفي معادلة القوة أو الغلبة لتأكيد وجودها، وحفظ كيانها. وقد تفطن أحد الجغرافيين[383] إلى هذا الدور، فحاول أن يقدم ما تملكه كل قبيلة من الرجال المسلحين، ومدى حسن تجهيزهم أو سوئه لإثبات قوتها أو ضعفها.

لقد ثبت لدينا إذن، أن المقدرة الحربية التي تمتلكها كل جماعة هي شرط استقلالها وتميزها، وأن الحرب تمثل في هذه الحالة الوسيلة التي تستخدمها القبيلة للحفاظ على وحدة وحداتها وتضامنها في مواجهة الغريب الذي يأخذ صفة عدو ينبغي الحذر منه. وسواء وضعت هذه الوسيلة موضع التنفيذ في حرب حقيقية أم لم توضع، أيمكن القول إن الحرب، إذن، حين تحافظ على تضامن الجماعات واستقلالها السياسي تمثل عنصر تقسيم وتجزيء وإلغاء للتبادل بما هو عنصر جمع وتوحيد[384]؟

ثانيا: دور الحرب في إعادة إنتاج التحالفات القبلية

الراجح أن القبيلة، وهي تحارب غيرها لإثبات استقلال كيانها، تشعر أنه من الصعب أن

Scanned by CamScanner

تعتبر الكل أعداء لها، كما هو صعب أن تجعل الكل أصدقاء وحلفاء لها. من أجل ذلك نجدها تعقد تحالفات واتفاقات مع بعض جيرانها، تأخذ في مثل حالة بعض القبائل العربية شكل ميثاق يتعاهدون فيه أن يكونوا صفا واحداً متسانداً، ينفرون إلى القتال معاً، ويحتملون الديات معاً، ويأخذون بثارات بعضهم بعضاً، على حد تعبير أحد الباحثين.[385]

وكنموذج لذلك ما يذكره ابن الخطيب[386] عن تحالف قبائل العاصم والخلط وسفيان وبني جابر والحارث فيما بينها سنة 763هـ/1361م، إذ «شاع عنهم معاقدة بقبر الولي القطب المقصود التربة أبي العباس السبتي، ولقد حدث أنهم احتفروا أفحوصاً واستدعوا لجاماً يجعلونه في أعناقهم عند القسم سجية جاهلية (...) وغمس العرب أيديهم في الدم».[387]

والظاهر أن المصاهرة وتبادل النساء شكل أهم وسيلة لعقد التحالف، باعتبار أن علاقات القرابة[388] في مثل هذه المجتمعات هي الوسيلة الفضلى لضمان نجاح الحلف وتوثيق عقده. وإن كنا نعتبر أن القرابة هنا لا تكفي إلا إذا كانت المصلحة مشتركة بين الطرفين، ومرتبطة بمدى ما يمكن أن تحصل عليه القبيلة من هذا الحلف. وتقدم حالة بني جابر من جشم خير مثال على ذلك، فقد تحيز هذا القبيل «إلى سفح الجبل بتادلا، وما إليها يجاورون هناك صناكة الساكنين بقشتة وهضابه، من البربر، فيسهلون إلى البسيط تارة، ويأوون إلى الجبل في حلف البربر وجوارهم أخرى، إذا داهمتهم مخافة من السلطان أو ذي غلبة».[389]

وكيفما كان الحال، فقد كانت علاقات المصاهرة تكتسي في مثل هذه الحالات صبغة سياسية، يهدف من ورائها الطرف المتحالف إلى تصدير الحرب خارج القبيلة، وتوجيهها للآخر الذي لم يشمله عقد التحالف. وإذا أردنا أن نقدم مثالا لذلك، ألفينا قبائل زناتة تعقد بينها تحالفات عن طريق المصاهرة، خاصة مع بداية القرن 7هـ/13م، لتصدير الحرب التي كانت تنشب بينها باستمرار[390] إلى عدو آخر اتضحت معالمه منذ سنة 601هـ/1204م، التي تؤرخ لآخر حرب كانت بينها في المجالات القفرة التي كانت تستوطنها.[391] من أجل ذلك اتخذ شيخ بني حمامة عبد الحق بن محيو من بني مرين زيجاته من بعض فروع بني مرين الأخرى؛ فاتخذ «النوار بنت تصالت» من بني ونكاسن[392] [أو بني ينجاسن]، و«تاعزونت بنت أبي بكر بن حفص» من بني تنالفت.[393] مثلما اتخذ زيجات أخرى من قبائل زناتية كما هو حال «أم الفرج» من بني عبد الواد،[394] و«أم اليمن بنت محلي البطوي» من بطوية الزناتية.[395]

Scanned by CamScanner

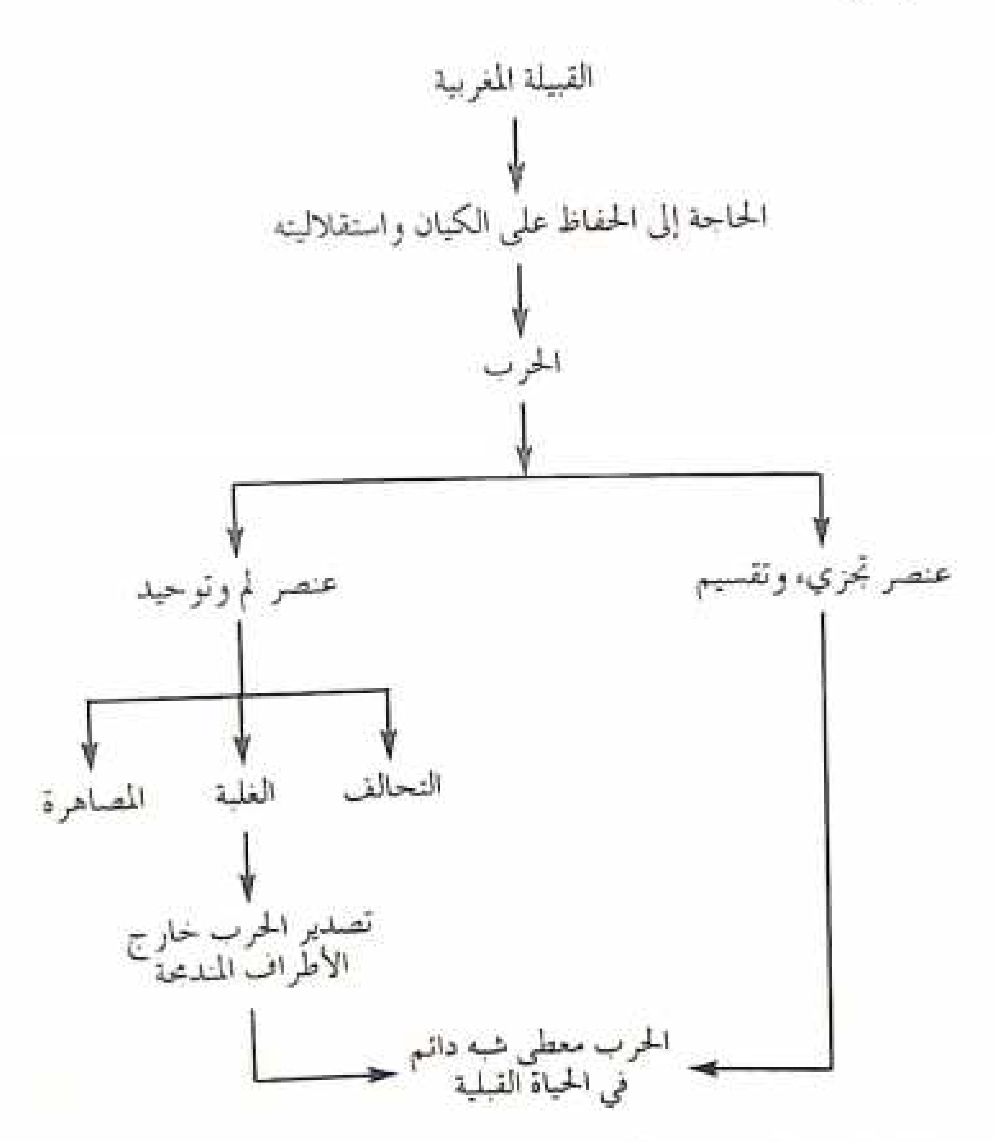
وإذا كانت الحكمة التي تؤطر مثل هذه التحالفات تقتضي أنه إذا كان لنا أعداء فينبغي تعيين حلفاء بتحويلهم إلى أصهار، فإن صلات القربى والمصاهرة لا يمكن أن تقوم بالدور الذي من أجله عقدت إلا إذا ارتبطت بالمصلحة المشتركة، وما يمكن أن يستفيد منه الأطراف منها، لذلك يقتضي التحالف تقسيما عادلا لكل ما يمكن أن ينتج عنه من نفوذ أو أرض أو مال، وهو ما يفسر حرص بني مرين على تقسيم الأرض والغنيمة والنفوذ على كل القبائل المشاركة[396] وفق قاعدة «المساهمة والمشاركة»،[397] وكل خروج عن هذه القاعدة يعني تفككا للتحالف، واستشراف آفاق الحرب، كما حدث لما تفرد بنو حمامة واستأثروا بإتاوة مكناسة، فامتعض بنو عسكر من ذلك «واتصل عيثهم في نواحيها»،[398] وانضموا إلى حلف قبائل الخلط العدو الذي يقابل التحالف الأول.[399]

عموماً، يمكن القول إن الحرب حين تحافظ على استقلال كل جماعة، وعلى وحدة كيانها، تنتج نقيضها الذي هو التحالف وفق قاعدة «المساهمة والمشاركة»، لكن التحالف يقتضي هو أيضا أن يكون أحد الأطراف المتحالفة قويا «لأن الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج في المتكون، والمزاج في المتكون لا يصلح إذا تكافأت العناصر، فلا بد من غلبة أحدها، وإلا لم يتم التكوين (...) ثم إن القبيل الواحد وإن كانت فيه بيوتات متفرقة، وعصبيات متعددة، فلابد من عصبة تكون أقوى من جميعها تغلبها وتستتبعها وتلتحم جميع العصبيات فيها، وتصير كأنها عصبية واحدة كبرى، وإلا وقع الافتراق المفضي إلى الاختلاف والتنازع (...) ثم إذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها، طلبت بطبعها التغلب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها، فإن كافأتها أو مانعتها كانوا أقتالا وأنظاراً، ولكل واحدة منهما التغلب على حوزتها وقومها (...) وإن غلبتها واستتبعتها التحمت بها أيضا، وزادتها قوة في التغلب إلى قوتها، وطلبت غاية من التغلب والتحكم أعلى من الغاية الأولى وأبعد، وهكذا دائما حتى تكافئ بقوتها قوة الدولة، فإن أدركت الدولة في هرمها، ولم يكن لها ممانع من أولياء الدولة أهل العصبيات، استولت عليها، وانتزعت الأمر من يدها، وصار الملك أجمع لها...»،[400] وهو ما يمكن تأكيده بالنسبة لقبائل بني مرين التي استطاعت، بالقوة أو بالتحالف، أن تغالب غيرها من القبائل.

قصارى القول، إن الحرب كانت تحضر باستمرار بين القبائل لتحافظ على اختلافها وتمايزها، لكنها تنتج أيضا نقيضها عندما تحتاج كل قبيلة إلى من يسند ظهرها، ويعينها على عدوها، فتكون بذلك الحرب عنصر تقسيم وتجزيء، وفي الآن ذاته عنصر لم وتوحيد. ومع

Scanned by CamScanner

ذلك، فإنها لم تكن تنتج نقيضها الذي هو التحالف –سواء كان بالطرق التي ذكرناها، أو بضم القبائل الأخرى بالقوة والغلبة– إلا لتنتج حربا أخرى ضداً على كل من لم تشمله عملية التحالف. وفي كل الأحوال تصبح الحرب ظاهرة حاضرة باستمرار في أسلوب اشتغال القبيلة. بقي أن نتساءل: هل تستمر الحرب حتى بعد أن تنتج ذلك «الكل الشامل» الذي يحوي مجمل القبائل أي «الدولة»؟ ولنؤجل الجواب عن هذا السؤال إلى الفصل الثاني من هذا الباب، ونحاول أن نسائل مادتنا المصدرية عن كل ما يمكن أن ينتج عن هذه الظاهرة من تنظيمات وأعراف.



خطاطة رقم 2: الحرب بوصفها ظاهرة سياسية في الحياة القبلية المغربية خلال العصر المريني

Scanned by CamScanner

المبحث الرابع: الحرب والقبيلة: التنظيمات والأعراف

ما من شك في أن الحضور المكثف للظاهرة الحربية في الجسم القبلي المغربي خلال العصر المريني أسهم في إنتاج جملة من المظاهر والتنظيمات، ونوع من التقسيم الاجتماعي للأدوار الحربية سواء داخل القبيلة الواحدة، أو في علاقتها بغيرها من القبائل، أو مع السلطة المركزية. كما أضحى من الطبيعي أن يفرز أعرافا وقوانين لتدبير الظاهرة، واستيعاب نتائجها.

أولا: القبيلة وإنتاج المحاربين

لا يخالجنا شك، في أن الخصائص التي ذكرناها حول القبيلة خلال العصر المريني، والعوامل الفاعلة فيها، قامت بدور خطير في أن تصبح الحرب ظاهرة تنشب باستمرار، وربما حرفة وصناعة لكثير من الأفراد والقبائل،[401] مع التأكيد أن وجود الحرب لا يعني على الدوام وجود صراع دموي حاد، وإنما باعتبارها آلية تلازم القبيلة في ظروف كالتي ذكرناها؛ فالحرب المستمرة بين القبائل، وحضورها في بنية الدولة المغربية خلال هذه المرحلة،[402] جعلت من القوة الجسمانية، والمعرفة بأساليب الحرب، مؤهلات ضرورية لاعتراف القبيلة بمكانة الفرد وقيمته.[403] كما أن مكانة القبيلة تحسب بمقدار ما تنتجه من الذكور المحاربين والقادرين على حمل السلاح وخوض الحرب، لدرجة أن زعيم إحدى القبائل كادت الأرض أن «تهتز لوطأته، والجبال تميد لسطوته، لأن إخوانه الخلط كانوا أزيد من اثني عشر ألفا من الفرسان، ومعهم من الأتباع المتقادين والحشود مثلهم، وأما راجلهم فالجراد المنتشر لا يحصي عددهم إلا خالقهم».[404]

ونتيجة لهذا الوضع، أصبح إنتاج الرجال حاملي السلاح، المهمة الرئيسة للقبيلة، لفرض وجودها المادي من جهة، والاندماج في إطار التحالفات العامة التي ميزت المرحلة سواء بين القبائل، أو بينها وبين الدولة، أو بعض المتنزين من جهة ثانية.[405]

يبدو ذلك واضحا من خلال كثير من النصوص، سواء منها تلك التي تصف بعض القبائل بكثرة العدد والعدة، خاصة منها قريبة العهد بالبداوة والقفر،[406] فكانوا بذلك «أهل عدد وعدة (...) وفيهم الرجالة والخيالة»،[407] وكانت لهم بذلك «عزة وعلياء (...) لمكان الكثرة».[408] أو التي تتحدث عن أفراد قبيلة «في غاية الشجاعة عندما يحملون السلاح»،[409] أو عمن هم «بطبيعتهم أشداء شجعان»،[410] أو من «يخيفون ملوك فاس

ويرعدون فرائصهم، إذ يقدر أن عددهم يصل إلى ستين ألف فارس، ومائتي ألف راجل»،[411] بل منهم من «يعتبر من العار عندهم أن ينتصر فارسان على رجل واحد»،[412] فضلا عما يذكره أحد الجغرافيين أنه رأى »أعجب من ذلك، شيوخا في سن الثمانين أو جاوزوها يشاركون في الحروب، ويصارعون الشبان بشجاعة، وكثيرا ما ينتصرون».[413]

الجدول رقم 3: قبائل المغرب الأقصى وإنتاج المحاربين من خلال «وصف إفريقيا» للحسن الوزان

القبيلة	المجال	عدد المحاربين	الجزء/الصفحة
قبائل الأثبج	دكالة وسهول تادلة	100000 مقاتل نصفهم فرسان	ج. 1، ص 50
الخلط	أزغار	8000 فارس	ج. 1، ص 50
صبيح	السهول بين سلا ومكناسة	4000 فارس	ج. 1، ص 51
الحارث والنظر	سهول حاحا	4000 فارس	ج. 1، ص 52
روحة من بني معقل	الصحاري المجاورة لدادس وفركلة	5000 فارس و8000 راجل	ج. 1، ص 53
بنو سليم	قرب نهر درعة	4000 فارس	ج. 1، ص 53
بنو يحسن	تخوم ماسة	5000 فارس	ج. 1، ص 53
كنانة	أزغار	1000 فارس	ج. 1، ص 53
دليم	صحراء الصنهاجيين ويقصدون درعة	10000 راجل منهم 400 فارس	ج. 1، ص 54
الأوداية	بين وادان وولاتة	70000 راجل وقليل من الخيل	ج. 1، ص 54
المنابهة	صحراء فجيج على مطغرة والرتب	2000 فارس	ج. 1، ص 55
حسين	الأطلس ما بين سجلماسة وفاس	6000 فارس	ج. 1، ص 55
ذوو عبيد الله	صحراء بني كومي وفجيج	4000 فارس	ج. 1، ص 56
العمارنة	صحراء سجلماسة	3000 فارس	ج. 1، ص 54-55
أيت واوزكيت	الجبل المقابل لناحية هسكورة	10000 فارس	ج. 1، ص 170
بنو ورياغل	الريف	12000 مقاتل	ج. 1، ص 337
بنو ورطناج	-	3000 محارب	ج. 1، ص 357-358
زناتة وهوارة	تامسنا	60000 فارس و200000 راجل	ج. 1، ص 196

Scanned by CamScanner

ينفرد الحسن الوزان بذكر هذه الأعداد من الفرسان والمشاة الذين تضمهم كل قبيلة على حدة ومدى حسن تجهيزهم أو سوئه.[414] وبالرغم من تأخر هذه الأوصاف بعض الشيء عن الفترة التي ندرسها، فإن مقارنة تلك الأرقام ببعض النصوص الانطباعية لبعض مؤرخي العصر المريني،[415] تدفعنا إلى القول إن القبيلة المغربية خلال هذا العصر كانت عبارة عن جيش على أهبة الاستعداد الدائم للحرب، وإلا سقطت بين عشية وضحاها فريسة في وجه المغيرين، فيضمحل كيانها، أو تندمج ذليلة في الكيان القبلي المتغلب عليها.[416] يذكر ابن خلدون[417] أن «أهل البدو، لتفردهم عن المجتمع، وتوحشهم في الضواحي، وبعدهم عن الحامية، وانتباذهم عن الأسوار والأبواب، قائمون على المدافعة عن أنفسهم، لا يكلونها إلى سواهم، فهم دائما يحملون السلاح».

ثانيا: «حاميات عسكرية»، وقبائل محمية

يخيل إلينا أن القبائل خلال العصر المريني قد أصبح بعضها يتخصص في توفير الرجال والفرسان، وأضحت مهامها أكثر تخصصا في الحرب والقتال، وتوزعت وظائفها بحسب طبيعة العلاقة مع الدولة ومدى قوة هذه الأخيرة أو ضعفها. وإذا كانت العديد من القبائل المغلوبة على أمرها – فيما يسميه ابن خلدون بالقبائل الحاشدة الغارمة– قد استمرت في التعامل مع الأرض أو القطيع والالتزام بدفع الضرائب،[418] و«الخفوف إلى العسكرة مع السلطان متى دعوا إليها»،[419] إلى جانب القبائل التي عجزت «عن رحلة القفر، وتركوا الإبل، واتخذوا الشاء والبقر، وصاروا في عداد القبائل الغارمة، وربما طالبهم السلطان بالعسكرة معه فيعينون له جندا منهم»[420] وأصبح للدولة على جميع هذه القبائل «حقوق عند الحشد والعسكرة»،[421] فثمة قبائل تخصصت في دور حمل السلاح وتقديم الخدمة العسكرية لمن يدفع مقابلا عنها، سواء تعلق الأمر بالسلطة أو بغيرها من القبائل فيما يبدو بالنسبة لنا، وكأنه بداية لبروز قبائل الكيش المتخصصة، والتي سيعرف العصر الموالي بروزها وتنظيمها.[422]

فمنذ بداية العصر المريني، برزت مجموعة من القبائل على شكل «حاميات عسكرية»، تقدم خدماتها في الدفاع عن غيرها من القبائل أو الحواضر –بحكم قوتها ونزعتها الحربية– مقابل إتاوة معلومة يدفعها المحميون. ولم تكن قبائل بني مرين في لحظة دخولها إلى المغرب الأقصى سوى قبائل غازية، وفي الآن ذاته حامية برجالها وسلاحها لغيرها من القبائل.

Scanned by CamScanner

يذكر ابن خلدون423 في نص دقيق يعبر عن هذه الوضعية أنه بعد اقتحام المرينين للبلاد «كثر الثوار بالمغرب، وامتنع عامة الرعايا من المغرم، وفسدت السابلة (...) وافتقد بنو مرين الحامية دون الوطن والدفاع، فمدوا إلى البلاد يدا، وسار بهم أميرهم أبو سعيد عثمان بن عبد الحق في نواحي المغرب، يتقرى مسالكه وشعوبه، ويضع المغارم على أهله، حتى دخل أكثرهم في أمره (...) ففرض عليهم الخراج، وألزمهم المغارم، ثم فرض على أمصار المغرب مثل فاس وتازا ومكناسة وقصر كتامة، ضريبة معلومة يؤدونها إليه على رأس كل حول».

فبمقدار ما كانت هذه القبائل غازية متغلبة على البلاد بقوة رجالها وشراستهم، حيث كانت الحرب أسلوبهم ضداً على «من نابذهم بالحرب»،424 كانت بقوتها العسكرية حامية «لمن أذعن لهم بالطاعة»425 مقابل «أموال معلومة يؤدونها إلـ[ـها] في كل سنة على أن [تـ] ومن بلادهم، و[تـ]رفع عنهم الغارات، و[تـ]دفع عنهم أذى من كان يؤذيهم من القبائل».426

ويبدو أن الدور نفسه كانت تقوم به بعض القبائل العربية مثل رياح الذين كانوا «أزيد من اثني عشر ألفا من الفرسان، ومعهم من الأتباع المنقادين والحشود مثلهم»،427 فكانوا بذلك «حامية المغرب (...) لحديث عهدهم بالتوحش والعز».428 أو بعض قبائل المعقل التي استوطنت سوس «وصارت مجالاتهم بقفرها، وغلبوا كزولة وأصاروهم في جملتهم ومن ظعونهم، وغلبوا على القصور التي بتلك المواطن من سوس ونول ووضعوا عليها الإتاوات».429 وكما هو الحال أيضا في الريف التي عملت فيه بعض القبائل المعقلية المتغلبة على هذه البلاد430 مع الاجتياح المريني، على مغالبة قبائل هذا المجال، وفرض الإتاوات عليها فيما يشبه نوعا من الحماية المرفوضة من قبل هذه القبائل. يذكر البادسي431 في ترجمة الشيخ إبراهيم بن عيسى بن داوود (ت. 650 هـ/1252م)، وقد «أتاه يوما جماعة من العرب المتغلبين على الريف حين ضعف أمر الموحدين فيه، وكان أولئك العرب يجبرون الناس على مغرم يأخذونه، فطلبوا قبيل بني ورترد بالمغرب، فأبوا عليهم، وتمنعوا ببعض معاقلهم بساحل البحر».

عموما، فإن الدور المناط بهذه القبائل مرتبط أشد الارتباط بمدى ما تتوفر عليه من الرجال حاملي السلاح، حيث يتوزع بين وظيفتي الغزو، أو فرض الإتاوة والمغرم مقابل الحماية. وفي كل الأحوال فقد ظل هذا الوضع مرتبطا بطبيعة الدولة في حالة القوة أو الضعف.

Scanned by CamScanner

فمع تمكن قبائل بني مرين من مغالبة معظم القبائل والحواضر المغربية وإخضاعها، أضحت تلك الخدمات تقدم لصالح الدولة ومن أجلها، وبينما كانت القبائل المغلوبة على أمرها تحشد للسلطان، وتعسكر له في كل حين، كانت القبائل القوية تعرض خدماتها له مقابل إرضائها بالأرضين والأموال.

ارتبط توزيع الأرض من قبل القبيلة المتزعمة بمدى ما توفره من الرجال المحاربين حتى بالنسبة للقبائل المرينية، فعندما وزع أبو بكر المريني أرض المغرب، وقبائل جبايته، على شيوخ قبائله «أمر كل واحد من الأشياخ أن يركب الرجال، ويستكثر من الفرسان للقتال»،432 مثلما أقطعت مناطق وأراضٍ لقبائل أخرى مقابل مهام حربية وجبائية بالأساس؛ فبينما أقطعت قبيلة ذوي عبيد الله من بني معقل المناطق الشمالية الشرقية بين تلمسان ووجدة ومصب واد ملوية لحماية هذه المجالات من تحركات بني عبد الواد،433 أقطعت قبيلة ذوي منصور المناطق الجنوبية الشرقية على امتداد نهر ملوية السفلى من تاوريرت حتى تافيلالت للقيام بالدور نفسه.434

ومن جانب آخر، انضوت قبائل المعقل في السوس ضمن تحركات بعض «الخوارج المنتزين على الدولة»،435 وعرضت عليهم خدماتها، وكان آخرهم إقطاع أبي علي بن سعيد بن عثمان المريني لما انتزى بمجالات سجلماسة ودرعة،436 واستمرت في هذا الوضع إلى أن أقطعها إياها أبو الحسن حين «بعث معهم عساكره (...) وجبى بلاد السوس، وأقطع فيه للحرب، وساسهم للجباية».437 أما بعض القبائل الزناتية فقد وضعت على شكل دروع بشرية تحول دون دخول هذه القبائل إلى المناطق الشمالية للأطلس، من قبيل مكناسة، وبني يرنيان، وبني ينجاسن، وقبيلة بني وريتان الصنهاجية، ثم قبائل سويد العربية المستقدمة من المغرب الأوسط ابتداء من سنة 720 هـ/1320م على عهد أبي سعيد عثمان.438

والظاهر، أن الدور المنوط بهذه القبائل مجتمعة ارتبط أساسا بمقدار ما توفره من المحاربين للمشاركة في حروب السلطة وحماية مجالها، أو لجباية الضرائب التي غالبا ما لا تتم دون ما إشهار للسلاح أو التهديد به، وهو ما يمكن تسميته بـ«إقطاع الحرب والجباية».

استمرت هذه القبائل وغيرها من القبائل الغارمة في تزويد الدولة بالمحاربين في حملاتها ضداً على بني عبد الواد وبني حفص وفي اتجاه الأندلس، وضداً على بعض المنتزين في الداخل، أو بعض القبائل المتمردة؛ حيث يمكن للسلطان «إذا استجاش لحرب عليه أن

Scanned by CamScanner

يخرج في جموع كثيرة لا تكاد تنحصر».439 تذكر النصوص أنه في إحدى حملات يعقوب بن عبد الحق إلى الأندلس «احتفل الناس للبروز، وبرزت قبائل المتطوعة من المصامدة في ذلك اليوم في ثلاثة عشر ألف رجل، وميزت قبائل المغرب من أوربة وغمارة وصنهاجة ومكناسة وصدارتة ولمطة وبني وارثين وبني يازغة وغيرهم».440 ولما عزم «على غزو تلمسان بعث ولده الأمير عبد الواحد إلى مراكش يحشد من بها من قبائل العرب وبني مرين والمصامدة وبني ورى وغمارة وصنهاجة (...)، ولحق به الأمير عبد الواحد في جيوش عظيمة، وحشود كبيرة من قبائل العرب من جشم وسفيان والخلط والعاصم وبني جابر وبني حسان والأثبج والشبانات ورياح».441

وأثناء تمرد «الأمير عثمان بن يوسف الهسكوري بقلعة فندلاوة من جبال بني يازغة، أمر أمير المسلمين يوسف [بن يعقوب] قبائل بني عسكر، ومن بتلك الجهات من قبائل البربر من سدارتة وبني وارثين وبني يازغين وبني سيتان وغيرهم بحصاره وقتاله».442 وحين دخل أبو سعيد من بني الأحمر سبتة واحتلها، بعث يوسف بن يعقوب، وهو في حصاره لتلمسان، «ولده الأمير إبراهيم في جيش عظيم إلى حصارها، وحشد إليها جميع قبائل الريف وبلاد تازا».443

ونتيجة للتحولات والتبدلات الاجتماعية التي أعقبت وفاة أبي عنان (ت. 759هـ/1353م)، والمتمثلة في مجموعة من الصراعات حول السلطة والحروب التي رافقتها، والاضطرابات السياسية التي سببها كثير من المنتزين، خاصة في المناطق الشمالية،444 فضلا عن الحروب القبلية ومحاولة كثير من القبائل تعويض مشاركتها مع السلطة وما تحصل من خلاله من امتيازات بغزو القبائل المجاورة،445 ناهيك عن تحرشات المجموعات القبلية التي منعت من التسرب إلى المناطق الخصبة، والتي بسببها كان ملوك فاس «يقيمون بتازا الصيف كله لحراسة البلاد، وحمايتها من أعراب» تلك المناطق.446

نتيجة لهذا كله، أضحى من الطبيعي أن يتبلور دور أساس لتلك القبائل المتمكنة بفعل قوة رجالها، وكثرة عددهم، والتي سبق ووسمناها بـ«الحاميات العسكرية»، التي بدأت تقدم خدماتها العسكرية لغيرها من القبائل طوعا منها أو كرها. ويختصر ابن خلدون447 هذا الوضع في حديثه عن بلاد السوس بقوله: «ثم انقرض أمر السلطان أبي الحسن (...) ورجع السوس إلى حاله وهو اليوم ضاح من ظل الدولة، والعرب يقتسمون جبايته، ورعاياه من قبائل المصامدة وصنهاجة قبائل الجباية، والظواعن منهم يقتسمونهم خولا للعسكرة

مثل كزولة مع بني حسان وزكرز ولخس من لمطة مع الشبانات، هذه حالهم لهذا العهد».

وإذا استثنينا القبائل التي ظلت تحافظ على استقلاليتها وتدافع عن نفسها بنفسها؛ كما هو حال قبائل جبل آيت واوزكيت الذي «يقابل ناحية هسكورة على منحدر الأطلس المتجه إلى الجنوب [والذين لهم] أمير يحكمهم بصفته رئيسا لهم، يأخذ جبايات الجبل ليصرفها في الحروب التي تنشب بين قومه وسكان جبل تنزيتة، ويعمل تحت إمرته نحو عشرة آلاف فارس، بينما يمثل الأعيان والفرسان مثل هذا العدد بالتقريب».[448] أو جبل مطغرة بالقرب من تازا الذي «لا يدفع سكانه خراجا [لغيرهم قصد حمايتهم إذ] فيهم نحو سبعة آلاف محارب، لأن لهم ما يقرب عن خمسين قرية».[449] أو بعض عرب دكالة الذين «أعفوا من كل التكاليف، محتمين بوفرة عددهم»،[450] فقد كانت معظم القبائل مجبرة على الخضوع لتلك القبائل المحاربة بدفع الإتاوات لها مقابل الحماية، أو التعرض لغزوها وتحرشاتها المستمرة.

فقد كان أهل درعة وسجلماسة وتدغة وتبلبالت مجبرين على أداء الإتاوة لقبائل بني معقل،[451] مثلهم في ذلك مثل أهل تارودانت الذين يدفعون «لهؤلاء الأعراب خراجا كثيرا عن الأراضي الزراعية حسب العادة»،[452] وقبائل حاحا التي تتقاضى قبائل الحارث منها خراجا كثيرا.[453] أما أهل تينزا في مجالات كدميوة، فإن «السكان لا يستطيعون حرثها بسبب إزعاج الأعراب، وإنما يزرعون منحدر الجبل الواقع بين النهر والمدينة، وحتى عن هذا الجزء يؤدون ثلث المحصول كإتاوة للأعراب».[454] وعموما، فكثيرة هي القبائل التي تلعب دور «الحامي العسكري»، والتي «تساهم بتقديم عدد من رجالها كسادة لكثير من الجبال الآهلة بالسكان والمدن والقصور التي أقطعهم إياها مختلف ملوك بني مرين».[455]

ويبدو جليا، أن ما تحصل عليه هذه القبائل من إتاوة في حالة الحماية، أو الغنائم في حالة الحرب شكل عمدة معاشها واقتصادها، ولا أدل على ذلك من أن أفراد قبيلة دليم الذين «ليست لهم قيادة، ولا يتقاضون أي أجر، فهم لذلك صعاليك لصوص، كثيرا ما يأتون إلى درعة ليستبدلوا مواشيهم بالتمر».[456] كما أن قبيلة البرابش التي تقيم في القسم «الموالي لإقليم سوس، وهم كثيرون وضعفاء، (...) يحكمون تشيت التي لا تكفيهم حتى لتصفيح حوافر خيولهم القليلة».[457]

وقد جرت العادة أن تستعين كل قبيلة بخدمات تلك الحاميات وأفرادها «الذين

يتقاضون مقابل ذلك أجرة كبيرة، قدرها نصف مثقال لليوم لكل فارس يقاتل لحسابه، لكن هؤلاء الأعراب تؤدى لهم الأجرة يوما ليوم وعن الأيام التي استعملوا فيها أسلحتهم».[458]

ثالثا: دور الأعراف في تدبير ظاهرة الحرب القبلية

ألقت المستجدات التي أفرزتها الحرب القبلية في مغرب العصر المريني بظلالها على الوضع القانوني التنظيمي، فأصبح من المفروض على الفقيه والمفتي أن يجيب عن كثير من القضايا[459] استنادا إلى العرف والضرورة، وغير ذلك من أصول ما جرى به العمل.[460] فالتطورات التي ميزت العصر المريني، ومنها ما نحن بصدده، دفعت بالمفتي والقاضي والفقيه إلى توسيع مجال أصوله، وأضحى من اللازم أن يعطي للعرف ولما جرت به العادة قيمته.

من تلك الأعراف ما جرت به العادة في تقديم القبيلة المحمية للقبيلة التي تحميها ما يلزمها من العلف لدوابها والضيافة لها؛ ففي بعض نوازل غمارة سئل أحد الفقهاء «عمن هو في قريته غائب، وله بها أفدنة وأجنة ورباع، وهو غير قاطن بها، وليس له بها من النعم شي، أفترون عليه ما يعم أهل القرية القاطنين من ضيافة وعلف دواب الأضياف، وخيل أهل القبيلة التي يدفعون بها عن أنفسهم ما عسى أن ينالهم من جيرانهم من العداوة الشيطانية».[461] كما أفتى بعض شيوخ فاس وتلمسان في نازلة يهود توات وما يلزمهم من الجزية في أن لهم في دفعها «عوائد من قديم الزمان مع الأشياخ في الأعياد وسائر النوائب من الفتن وغيرها من ضيافات العرب وغيرهم».[462]

وفي بعض المناطق التزمت بعض القبائل بضمان ما يحدثه الأعراب الحامين لها من ضرر بالقبائل الأخرى من غارة أو غزو أو نحوه، وألزمت نفسها بتعويض تلك الأضرار؛ فقد سئل أبو القاسم الغبريني «عن أهل قريتين لكل قرية عرب غير عرب قرية أخرى، ووقعت الفتنة بين العرب والعرب، فألحق الضرر أهل القبيلتين معا، فاجتمعوا وضمنوا بينهم على أن ما أخذه العرب من غير قريتهم يضمنه أهل قريتهم لأهل الأخرى ضمانا لازما لزمهم المال والنفس، وحضر العرب هذا الضمان ووافقوهم عليه».[463]

ومن جانب أخر، جرى العرف في بعض المناطق بالتزام جميع أفراد القبيلة بضمان ما يدفع نيابة عنهم من مال وغيره لرد عدوان قبيلة أخرى؛ فقد سئل بعض المفتين «عن قبيلتين من البربر اقتتلتا، فأرادت إحدى القبيلتين أن تستعين بقبيلة أخرى على التي اقتتلت معها،

Scanned by CamScanner

فاشترى رجل من القبيلة المحاربة فرسا من ابن عمه ليهديه إلى رئيس القبيلة التي يرجو أن ينصرهم .. فيطلب البائع الثمن من المشتري، فيقول: أنت تعلم إنما اشتريت على الجماعة.. والعرف عندهم إنما الرشوة على جميع القبيلة»،[464] و«سئل سيدي قاسم العقباني عمن صالح أهل قريته في أموالهم من غاصب. فأجاب بأن قال له الرجوع عليهم بما صالح به على حفظ أموالهم وأمتعتهم من أخذ الغاصب».[465]

والراجح، أن استمرار ظاهرة الحرب القبلية، وثقل ما تخلفه من خسائر على القبائل، هو ما حدا ببعضها إلى سن أعراف تتقي من خلالها بعض ما يشعل فتنتها، وهو ما تكشفه ترجمة محمد بن سليمان الجزولي (ت. 870هـ/1465م) الذي «كان ببلده وقت قتال انفصل فيه الطرفان عن قتيل تبرأ كل من قتله و لم يحضره هو، فأراد إصلاحهم فقال لهم: أنا قتلته، وعادتهم إخراج القاتل من بينهم فيصطلحوا».[466] أو كما يجري عند بعض المصامدة «في رجل يقتل رجلا فلا يصل الحد إلى القصاص (...) فيفتي الشيخ الحاكم الذي سئل عن هذا بأن يحكم بالدية مخافة أن تنزل الفتنة فتؤول إلى هلاك بعضهم».[467]

عموما، فقد أصبحت ظاهرة الحرب في القبيلة المغربية مدار الدرس ظاهرة بنيوية، لدرجة أصبح فيها إمكان التنظيم والتأطير أمرا ممكنا. وأضحى بالإمكان ممارسة الحرب مع ضمان ترتيب الخسائر وتحديد مجالها، وفي الآن نفسه ضمان التبادل وتحقيقه. ولعل هذا ما يبدو جليا من خلال وصف العبدري[468] لمناطق القبلة حين اضطرت قبائلها إلى تنظيم الحرب «الدائمة» بينها بأعراف وقوانين؛ منها «أن أهل حصن منهم يتحاربون، فأجمعوا رأيهم على أن لا يتقاتلوا في الحصن احتياطا عليه من الفساد زعموا، وجعلوا المعترك خارج الحصن على مسافة منه، ونصبوا لذلك حدودا وأعلاما فهم يتقاتلون من ورائها، فإذا آوتهم حدود الحصن لم يرم أحد منهم حجرا، ولو اجتمع بقاتل حميمه لا يعرض له، فإذا أخرجوا من حرم الحصن اشتعلت نار الحرب بينهم، هذا دأبهم لا يغدرون ولا ينقضون». وقبائل جزولة التي اضطرتها تلك الحرب «المزمنة» لتحدد أياما للتبادل، إلا أنها لا تطول «أكثر من ثلاثة أيام في الأسبوع، وفي خلال أيام الهدنة يمكن للخصوم أن يتجروا فيما بينهم وأن يتنقلوا من جهة إلى أخرى، لكنهم في غير هذه الأيام يتقاتلون».[469]

الخلاصة العامة أن ظاهرة الحرب، نظرا لكونها حالة اجتماعية معاكسة لحالة السلم والتبادل، سواء أكانت حربا فعلية أو تعبيرا عنها بأساليب مختلفة، وسواء أكان العدو المقصود بها حقيقيا أو وهميا، أصبحت، في كل الأحوال ونتيجة لظروف موضوعية، ظاهرة

Scanned by CamScanner

حاضرة في أسلوب اشتغال القبيلة، تعتمدها لتأكيد وجودها المادي في ظل ندرة الموارد، وعدم تكافؤ توزيعها، ووجودها المعنوي رغبة من كل قبيلة في أن تبقى كيانا مستقلا ومتميزا عن كل جماعة أخرى على صلة بها. مما ولد أنساقا من السلوك والتعامل الاجتماعي إما لمسايرة الحضور المكثف لهذه الظاهرة، والمساهمة فيها عبر عقد تحالفات واتفاقات ومصاهرات، والاهتمام بما تقتضيه من إنتاج لرجال أقوياء شجعان، من خلالهم تتحدد مكانة القبيلة داخل النسق الاجتماعي القبلي، وإما بإنتاج أعراف وتنظيمات لتدبير الظاهرة، واستيعاب نتائجها.

---

1 مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص ص، 217-216.

2 تبدو أوصاف الحسن الوزان (ت. بعد سنة 957هـ/1550م) في فترة متأخرة عن المرحلة المدروسة، أكثر كثافة ودقة ضمن باقي المظان، انظر، وصف إفريقيا. دون أن نغفل القراءة والملاحظة الدقيقة التي تميز بها الموروث الخلدوني. انظر، ابن خلدون، المقدمة. العبر، الجزء السادس والسابع.

3 ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج. 4، تحقيق، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1980م، ص، 10.

4 المصدر نفسه، ص، 15.

5 العبر، ج. 6، ص، 365.

6 صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992م، ص، 90.

7 نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت، ص، 228.

8 وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 98.

9 النويري، تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق، مصطفى أبو ضيف أحمد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1984م، ص، 380.

10 مجهول، الحلل الموشية، ص، 16.

11 ابن رشد، الفتاوى، تحقيق، المختار بن الطاهر التليلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. 1، 1987م، س. 2، ص ص، 1017-1018 الونشريسي، المعيار، ج. 10، ص، 449.

12 خاصة بعد التحولات التي شهدها المغرب الأقصى خلال هذه الفترة، والمتميزة أساسا بدخول القبائل البدوية إلى قلب بلاد المغرب الأقصى، بداية بالهجرة الصنهاجية التي رافقت قيام الدولة المرابطية في منتصف ق5هـ/11م، ثم بتوطين القبائل العربية في كثير من مناطق المغرب الأقصى خلال العصر الموحدي، وما جاء بعده من اقتحام القبائل المرينية والمعقلية لهذا المجال في بداية القرن 7هـ/13م. عن هذه التحولات انظر، محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، ج. 3، سينا للنشر، القاهرة، ط. 1، 1992م، ص، 16. إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص ص، 12-23. مصطفى أبو ضيف أحمد، أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ط. 1، 1982م.

Kably (M), *Société, pouvoir ..., op. cit.*, pp. 1-40.

13 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 25. مجهول، ورقات في التاريخ، مخ.خ.ع، الرباط، رقم د773، (ض.م)، ص، 106- مجهول، نبذة من تاريخ المغرب الأقصى، ص، 126.

Scanned by CamScanner

14 ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص، 20.

15 **العبر**، ج. 6، ص، 397.

16 **العبر**، ج. 7، ص، 81.

17 محمد المهدي الفاسي، **ممتع الأسماع في الجزولي والتباع، وماله من الأتباع**، تحقيق وتعليق، عبد الحي العمروي وعبد الكريم مراد، مطبعة محمد الخامس، فاس، ط. 1، 1989م، ص، 85.

18 العزفي، **دعامة اليقين في زعامة المتقين**، تحقيق، أحمد التوفيق، مكتبة خدمة الكتاب، الرباط، 1989م، ص، 41.

19 انظر الونشريسي، **المعيار**، ج. 6، ص، 518.

20 نفسه، ج. 6، ص، 182.

21 الدرعي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن ناصر (ت. 1085هـ/1674م)، **الأجوبة**، مخ.خ.ع، الرباط، رقم د1644، ميكروفيلم 2583، (ض.م)، ص، 155.

22 العزفي، **دعامة اليقين**، ص، 41.

23 محمد المهدي الفاسي، **ممتع الأسماع**، ص، 48.

24 أبي عبد الله بن تجلات، **إثمد العينين ونزهة الناظرين في مناقب الأخوين**، تحقيق ودراسة، محمد رابطة الدين، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1986م، ص، 137.

25 **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص ص، 36-37-98-105-108-111-116-121-186-338-339-347.

26 نفسه، ص، 36.

27 نفسه، ص، 37.

28 نفسه، ص، 140.

29 نفسه، ص، 145.

30 ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 77. **المقدمة**، ص، 97. ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص، 13. الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 53-82-170-337-357.

31 محمد عابد الجابري، **العصبية والدولة**، ص، 27.

32 **مسالك الأبصار**، ص، 112.

33 المصدر نفسه، ص، 27.

34 الحسين بولقطيب، **أسس ومكونات الدولة المغربية في العصر الوسيط**، مجلة أبحاث، ع. 24-25، 1990م، ص، 43.

35 يبدو ذلك جليا من خلال نصوص القزويني والعمري والقلقشندي، انظر على التوالي، **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت، د.ت، ص، 163. **مسالك الأبصار**، ص، 106. **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، تحقيق، نبيل خالد الخطيب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط. 1، 1987م، ج. 5، ص، 173.

ويرجح إلينا أن هذا الموقف الذي حكم الرواية المشرقية يرجع بالأساس إلى عدم تمكن أصحابها من استكناه ما عرفه المشرق من تراجع للبنية القبلية، عكس المغرب التي ظلت فيه هذه البنية أكثر ثباتا ورسوخا، وهو ما حذا بهم إلى نعت المغرب بهذه الصفة دون غيره. انظر، ابن خلدون، **المقدمة**، ص ص، 130-131.

36 العمري، **مسالك الأبصار**، ص، 106. القلقشندي، **صبح الأعشى**، ص، 173. وقد أثر هذا التفسير في محقق كتاب **مسالك الأبصار** فاعتبر أن عقلية البدوي المغربي «سواء كان عربيا أو بربريا أنه يختصم مع غيره

Scanned by CamScanner

من الجماعات التي يلم بها أو يمر عليها، لا يستأنس إلا بقبيلته وعصبيته، وكأن من سواهم عدو له، على أن يبدأه بالشر»، انظر، هامش المحقق، ص ص، 112–113.

[37] المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ضبط وتعليق، محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، دار الكتاب، الدار البيضاء، ط. 7، 1978م، ص، 281.

[38] صورة الأرض، ص، 90.

[39] نزهة المشتاق، ص، 228.

[40] ابن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، حققه ووضع مقدمته وحواشيه، عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط. 1، 1981م، ج. 2، ص، 7.

[41] ابن الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، نشر وتعليق، أحمد مختار العبادي، مراجعة عبد العزيز الأهواني، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985م، ج. 2، ص، 67. ج. 3، ص، 109.

[42] العزفي، دعامة اليقين، ص، 41.

[43] Gautier (E.F), *Le passé de L'Afrique du nord*, Paris, 1964, pp. 201-224.
- Terrasse, *Histoire du Maroc des origines à l'établissement du protectorat*, T1, Casablanca, 1946, p. 217.
- Montagne, *Les Berbères et le Makhzen dans le sud de Maroc*, Paris, 1930, p. 29.
- Bulliet, "Botr et Baranis", *Annales* E.S.C, 1980, n° 1, pp. 104-144…

[44] Laroui (A), *Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain*, 1830-1912, Maspero, 1977.

[45] إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص، 216. محمد حسن، القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط، دار الرياح الأربع للنشر، تونس، 1986م، ص، 24. المختار الهراس، القبيلة والسلطة، تطور البنيات الاجتماعية في شمال المغرب، المركز الوطني للتنسيق وتخطيط البحث العلمي والتقني، مطبعة الرسالة، الرباط 1988م، ص، 27. عبد اللطيف أكنوش، السلطة والمؤسسات السياسية في مغرب الأمس واليوم، مكتبة بروفانس، الدار البيضاء، 1988م، ص ص، 21–23.

[46] ديل إكلمان، الأنتروبولوجيا والتاريخ ووضعهما في المجال الأكاديمي، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، محمد الخامس، الرباط، ع. 18، 1993م، ص، 117.

[47] ريتشارد تابر، «الأنتروبولوجيون والمؤرخون والقبيلة، حول القبيلة ونشوء الدولة في المشرق العربي»، مجلة الإجتهاد، ع. 17، السنة الرابعة، خريف 1992م، ص، 105.

[48] للتفصيل انظر ما كتبه بيار كلاستر في هذا المجال، أثريات العنف أو الحرب في المجتمعات البدائية، ترجمة علي حرب، مجلة الفكر العربي، ع. 33–34، السنة الخامسة، 1983م، ص، 102–104. وانظر التقديم الذي خصصه علي حرب للمقال السابق، علي حرب، «الهوية، الثقافة، السياسة، من منظور أنتروبولوجي، تقديم لأثريات العنف لكلاستر»، مجلة الفكر العربي، العدد نفسه، ص ص، 76–100. انظر أيضا، عبد الله حمودي، «مصير المجتمع المغربي، رؤية أنتروبولوجية لقضايا الثقافة والسياسة والدين والعنف»، دفاتر وجهة نظر، ع. 5، 2004م، ص ص، 119–125.

[49] انظر جيرار لكرك، الأنتروبولوجيا والاستعمار، ترجمة، جورج كتورة، معهد الإنماء العربي، كتاب الفكر العربي، بيروت، 1982م. المختار الهراس، القبيلة والسلطة، ص ص، 25–37. فضة مصطفى، «حول مفهوم القبيلة في علم الاجتماع الاستعماري»، مجلة الثقافة الجديدة، ع. 29، 1983م، ص، 79. عبد الفتاح الزين، «السوسيولوجيا في المغرب، من إعلان الحماية الفرنسية الى المرحلة الراهنة»، مجلة المستقبل العربي، السنة 13، ع. 146، أبريل 1991م، ص، 12.

[50] عبد الله حمودي، مصير المجتمع المغربي، ص، 120.

Scanned by CamScanner

51 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

52 كانت هذه الملاحظة وراء الأبحاث التي دشنها الأنتروبولوجي الفرنسي بيار كلاستر في مجال الأنتروبولوجيا السياسية، وفيها يدين تلك النظرة الأوربية المتعالية. انظر، بيار كلاستر، أثريات العنف أو الحرب، م.س.

- Pierre Clastre, "Malheur de guerrier sauvage", *Libre 2*, 8° AC, 77 (2), Paris, 1978, pp. 69-109.

53 Paul Pascon, *Le Haouz de Marrakech*, T1, Rabat, 1983, pp. 145-149.

54 إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص، 217. محمد بن حسن، القبائل والأرياف، ص، 143.

55 ريتشارد تابر، الأنتروبولوجيون والمؤرخون والقبيلة، ص، 110.

56 علي حرب، الهوية، الثقافة، السياسة، ص، 79.

57 مصير المجتمع المغربي، ص، 121.

58 محمد فريد وجدي، دائرة المعارف، مطبعة دائرة معارف القرن العشرين، ط. 2، 1923م، مادة حرب، ص، 330.

59 راجع، مجموعة من الباحثين، قاموس الفكر السياسي، ترجمة أنطون حمصي، دراسات سياسية وفكرية-12- منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، 1994، ج. 1، ص ص، 235-236.

60 محمد المرزوقي، مع البدو في حلهم وترحالهم، الدار العربية للكتاب، 1980م، ص، 28.

61 علي حرب، الهوية، الثقافة، السياسة، ص، 79.

62 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 25.

63 ابن خلدون، المقدمة، ص، 211.

64 عبد الله حمودي، مصير المجتمع المغربي، ص، 122.

65 تركي علي الربيعو، نحو تأسيس إناسة لدراسة المجتمع البدوي، مجلة الاجتهاد، ع. 17، السنة الرابعة، خريف 1992م، ص، 173.

66 يعتبر أحد الباحثين أن استحواذ الصحراء على ثلث مساحة العالم، وعلى نسبة مهمة من الأراضي العربية، حيث الجذب والقحولة، هو وحده ما يبرر أهمية الدراسات السوسيوأنتروبولوجية في المجتمعات البدوية التي تعيش في تلك المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية، انظر، محمد عبده محجوب، مقدمة لدراسة المجتمعات البدوية، منهج وتطبيق، وكالة المطبوعات، الكويت، د.ت، ص، 30.

67 علي حرب، الهوية، الثقافة، السياسة، ص، 79.

68 أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة، بمناسبة أبحاث لويس هنري مورغان، ترجمة إلياس شاهين، دار التقدم، موسكو، د.ت، ص، 141.

69 أثريات العنف أو الحرب، ص ص، 107-108.

70 تركي علي الربيعو، نحو تأسيس إناسة ...، ص، 177.

71 علي حرب، الهوية، الثقافة، السياسة...، ص، 79.

72 تركي علي الربيعو، نحو تأسيس إناسة...، ص، 177.

73 هذه هي الحرب، منشورات عويدات، بيروت، ط. 1، 1981م، ص، 50.

74 بيار كلاستر، أثريات العنف أو الحرب، ص، 110.

75 تركي علي الربيعو، نحو تأسيس إناسة...، ص، 173، ونجد صدى لهذا التصور في كتابات هودجسون في كتابه، "The Venture of Islam" ومونتغمري واط في "Mohamed at Mecca" للتفصيل انظر، الفضل شلق، القبيلة والدولة والمجتمع، مجلة الاجتهاد، ع. 17، س4، خريف 1992، ص ص، 12-13.

76 علي حرب، الهوية، الثقافة، السياسة...، ص، 80.

Scanned by CamScanner

77 عبد الله حمودي، **مصير المجتمع المغربي**، ص ص، 123–124.

78 الفضل شلق، **القبيلة والمجتمع والدولة**، ص، 17.

79 علي حرب، **الهوية، الثقافة، السياسة...**، ص، 80.

80 عبد الله حمودي، **مصير المجتمع المغربي**، ص، 124.

81 رحمة بورقية، **حول القبيلة في المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر**، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ع. 14، 1988م، ص ص، 44–46.

82 انظر أبحاثه في الهوامش السابقة.

83 انظر كتابه **الأنتروبولوجيا السياسية**، ترجمة جورج أبي صالح، معهد الإنماء القومي، بيروت، 1983م.

84 تركي علي الربيعو، **نحو تأسيس إناسة...**، ص ص، 143–182.

85 المرجع نفسه، ص ص، 166–174، وانظر أيضا، رحمة بورقية، **الدولة والسلطة والمجتمع، دراسة في الثابت والمتحول في علاقة الدولة بالقبائل في المغرب**، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط. 1، 1991، ص ص، 98–100. عبد الله حمودي، مصير المجتمع المغربي، ص ص، 126–127.

86 علي حرب، **الهوية، الثقافة، السياسة**، ص، 72.

87 بيار كلاستر، **أثريات العنف أو الحرب**، ص ص، 108–109.

88 **نحو تأسيس إناسة...**، ص، 175.

89 المرجع نفسه، ص، 180.

90 P. Clastres, "Malheur de guerrier sauvage", *art. cit.*, pp, 69-109.

91 سالم حميش، **في سيميائية الاستبداد، أو ابن خلدون أمام الدولة المغاربية**، ضمن كتاب **جدلية الدولة والمجتمع بالمغرب**، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط. 1، 1992م، ص ص، 168–169.

92 من هذه الدراسات، إبراهيم القادري بوتشيش، **مباحث في التاريخ الاجتماعي**، ص ص، 216–247. محمد عابد الجابري، **العصبية والدولة**، ص، 26. إيف لاكوست، **العلامة ابن خلدون**، ص، 27–28–29. عبد القادر جغلول، **الاشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون**، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط. 1، 1980م، ص، 114.

Laroui (A), *L'histoire du Maghreb, un essai de synthèse*, François Maspero, Paris, 1982, pp. 63-65.

وغيرها من الدراسات التي سنحيل إليها في الهوامش اللاحقة.

93 عن مفهوم القبيلة في المغرب انظر، إبراهيم القادري بوتشيش، **مباحث في التاريخ الاجتماعي**، ص، 218–219–220. وعما يطرحه من إشكالات انظر، جاك بيرك، **في مدلول «القبلية» في شمال إفريقيا**، ضمن كتاب **الأنتروبولوجيا والتاريخ، حالة المغرب العربي**، ترجمة عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، دار توبقال، الدار البيضاء، ط. 1، 1988م، ص ص، 113–125. محمد نجيب بوطالب، **سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي**، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط. 1، 2002م، ص ص، 53–62. محمد بن حسن، **القبائل والأرياف**، ص ص، 11–24.

Paul Pascon, *Le Haouz de Marrakech*, *op. cit.*, pp. 145-149.

94 محمد عابد الجابري، **العصبية والدولة**، ص، 26. محمد شقير، **أزمة الأسس الحالية للدولة المغاربية**، المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، عدد مزدوج 7–8، السنة الثانية، صيف/خريف 1988م، ص، 36.

95 محمد عابد الجابري، المرجع نفسه، ص، 29.

96 يعتبر بعض الباحثين أن «علاقات القرابة تنظم مجموع مستويات المجتمع البدوي، ففي إطار الجماعات القبلية يتم تنظيم تقسيم العمل وتملك الأرض...»، انظر، عبد القادر جغلول، **الإشكاليات التاريخية**، ص،

Scanned by CamScanner

114. وانظر أيضا حول أنظمة القرابة، كريم زكي حسام الدين، **القرابة، دراسة انثرولغوية لألفاظ وعلاقات القرابة في الثقافة العربية**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1990م. معن خليل عمر، **علم اجتماع الأسرة**، دار الشروق للنشر والتوزيع، 1994، ط. 1، ص ص، 162–163. دينكن ميتشيل، **معجم علم الاجتماع**، ترجمة ومراجعة، إحسان محمد حسن الحسن، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1981، ط. 1، ص، 58، 130–131.

97 عن مفهوم العصبية انظر، محمد عابد الجابري، **العصبية والدولة**، ص ص، 245–270. إبراهيم القادري بوتشيش، **مباحث في التاريخ الاجتماعي**، ص ص، 223–225. سفيتلانا باستيفا، **العمران البشري في مقدمة ابن خلدون**، ترجمة رضوان إبراهيم، الدار العربية للكتاب، ليبيا–تونس، 1978م، ص ص، 248–249.

98 عادة ما يعتمد التنظيم القبلي في المغرب خلال العصر الوسيط على تسلسل بنيوي «يتكون في القاعدة من الخلية الأولى وهي الأسرة المؤلفة من أب وزوجة أو عدة زوجات وأبناء، ثم يرتفع إلى مستوى العشيرة المشتملة على عدد من الأسر المنتمية إلى جد واحد، وترتبط برابطة القرابة الوشيجة، ثم يرقى إلى مرتبة العمارة أو البطن الذي يجمع عشائر شتى بواسطة المصاهرة أو الجوار والمصلحة المشتركة، وينتهي في القمة بالقبيلة التي تضم عدة بطون تجمع بينها وحدة الدم والنسب. وفي بعض الحالات تشمل عددا من البطون التي لا تؤلف بينها وشائج النسب والدم، بل التحقت بها لسبب من الأسباب، فأصبحت معدودة منها بحكم الحلف والولاء». نقلا عن إبراهيم القادري بوتشيش، **مباحث في التاريخ الاجتماعي**، ص ص، 230–231.

99 محمد ياسر الهلالي، **مجتمع المغرب الأقصى**، ص، 104.

100 يكاد يجمع الباحثون أن النسب الأبوي هو الشائع في المغرب عموما، انظر على سبيل المثال، عبد الله حمودي، **الانقسامية والتراتب الاجتماعي والسلطة السياسية والقداسة، ملاحظات حول أطروحة كلنر**، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ع. 11، 1985م، ص، 197. علي صدقي أزايكو، **حول النظرية التجزيئية مطبقة على المغرب**، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ع. 14، 1988م، ص ص، 16–17. محمد شقرون، **البادية المغربية**، معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، المجلد الثالث، 1991م، ص، 972. محمد ياسر الهلالي، **مجتمع المغرب الأقصى**، ص، 104. مع الإشارة إلى بعض الخصوصية في دراسة هذه البنية عند قبائل صنهاجة الجنوب، حيث تنسب بعض القبائل نفسها إلى امرأة. انظر إبراهيم القادري بوتشيش، **مباحث في التاريخ الاجتماعي**، ص، 223.

101 طبعا ليس النسب هنا مرتبط، بشكل ميكانيكي، بالترابط الدموي بل يشمل علاقات الولاء والأحلاف والجوار والمصاهرة، انظر، محمد ناصح، **جوانب من الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمغرب الوسيط، القرن السادس الهجري، 12م نموذجا**، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1987–1988م ص ص، 213–215. عبد الله حمودي، **الانقسامية والتراتب الاجتماعي**، ص، 199.

102 ابن الأحمر، **روضة النسرين**، ص، 19.

103 أبو علي صالح، **كتاب الأنساب**، ص، 20، نقلا عن إبراهيم القادري بوتشيش، **مباحث في التاريخ الاجتماعي**، ص، 222.

104 ابن الأحمر، **روضة النسرين**، ص ص، 19–20. ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 278–279، 284.

105 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

106 ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص، 21–22. **الأنيس المطرب**، ص، 284.

107 ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص، 22–23. ابن الأحمر، **روضة النسرين**، ص، 19–21.

108 ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 102.

Scanned by CamScanner

109 إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص، 223، ويقول في هذا الصدد، «وظيفة الانتساب إلى جد مشترك تتمثل في تحديد هوية القبيلة، كما تساعد على تحديد واجب كل فرد من أفرادها، ومكانه في دائرة الصراع، بالقدر نفسه تحدد الأشخاص الواجب الدفاع عنهم وعن ممتلكاتهم حسب وضعية الفرد وموقعه في القبيلة وما إذا كان أصيلا فيها أو طارئا عليها».

110 العبر، ج. 6، ص، 397.

111 مجهول، نبذة من تاريخ المغرب الأقصى، ص، 131.

112 ابن خلدون، المقدمة، ص، 103.

113 إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص، 224، محمد عابد الجابري، العصبية والدولة، ص ص، 259–260. الفضل شلق، القبيلة والدولة والمجتمع، ص، 11.

- Maya Shatzmiller, *L'Historiographie mérinide : Ibn Khaldūn et ses contemporains*, Leiden, E.J. Brill, 1982, pp. 142-143.

114 ابن خلدون، المقدمة، ص ص، 102–103.

115 الفضل شلق، القبيلة والدولة والمجتمع، ص، 11.

116 ومنها قبائل بورغواطة التي اعتبرها ابن أبي زرع «قبائل كثيرة، وليس لهم أب واحد وأم واحدة، وإنما هم أخلاط من قبائل شتى من البربر»، الأنيس المطرب، ص، 130.

117 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 200.

118 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 22. في حين اعتبرهم ابن الأحمر من أبناء عمومة بني مرين، انظر ابن الأحمر، روضة النسرين، ص، 20.

119 عبد اللطيف أكنوش، السلطة والمؤسسات السياسية، ص، 70.

120 المقدمة، ص، 102.

121 إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث من التاريخ الاجتماعي، ص، 224.

122 محمد عابد الجابري، العصبية والدولة، ص، 254.

123 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 200.

124 المصدر نفسه، ص، 201.

125 ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص، 345.

126 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 20.

127 المصدر نفسه، ص، 33. الأنيس المطرب، ص ص، 287–288.

128 إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص، 224.

129 المختار الهراس، القبيلة والسلطة، ص، 13.

130 محمد استيتو، الفقر والفقراء في مغرب القرنين 16 و 17م، مؤسسة النخلة للكتاب، ط. 1، 2004، وجدة، ص، 53.

131 غلاب السيد ويسري الجوهري، الجغرافية التاريخية، القاهرة، 1968، ط. 1، ص، 12.

132 محمد استيتو، الفقر والفقراء، ص، 53.

133 إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص، 221.

134 Jacques Berque, *Les structures sociales du Haut-Atlas*, P.U.F, paris, 1925, p. 255.

135 Meunie Jacque, *Le Maroc saharien des origines à 1670*, Klincksieck, Paris, 1982, TI, p. 51.

136 محمد استيتو، الفقر والفقراء، ص، 54.

137 المرجع نفسه، ص، 54–55. محمد الطويل، الفلاحة المغربية، ص ص، 11–12.

Scanned by CamScanner

138 إبراهيم القادري بوتشيش، الحياة الاجتماعية، ج. 1، ص، 148.
139 محمد الطويل، الفلاحة المغربية، ص، 12.
140 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
141 محمد استيتو، الفقر والفقراء، ص، 55.
142 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 84.
143 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 77.
144 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 25.
145 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 78. الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 342.
146 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 2، ص ص، 356–357.
147 ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص، 245. بيجن، تنظيم المجال المغربي عبر التاريخ، المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، عدد مزدوج 7–8، السنة الثانية، صيف/خريف 1988م، ص، 52.
148 الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 10.
149 الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان بيروت، ط. 2، 1984م، ص، 605.
150 الإدريسي، نزهة المشتاق، ص، 243.
151 محمد ياسر الهلالي، مجتمع المغرب الأقصى، ص، 107.
152 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 338.
153 أحمد البوزيدي، التاريخ الاجتماعي لدرعة، مطلع القرن السابع عشر، مطلع القرن العشرين، دراسة في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية من خلال الوثائق المحلية، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1988م، ص، 407.
Larbi Mazzine, *Le Tafilalet, contribution à l'histoire du Maroc aux XVII^e et XVIII^e siècles*, Publications de la Faculté des lettres et des sciences humaines, Rabat, 1987, p. 268.
154 ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج. 2، ص، 74.
155 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 306.
156 ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج. 2، ص 58.
157 المصدر نفسه، ج. 3، ص، 109.
158 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص ص، 113–114.
159 انظر الفصل الثالث من هذا الباب.
160 المقدمة، ص، 96–97.
161 محمد عابد الجابري، العصبية والدولة، ص ص، 216–218.
162 ابن خلدون، المقدمة، ص ص، 101–102.
163 المصدر نفسه، ص، 103.
164 المصدر نفسه، ص، 102.
165 إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص ص، 221–222.
166 ابن خلدون، المقدمة، ص، 96.
167 عبد القادر جغلول، الإشكاليات التاريخية، ص ص، 56–57.
168 انظر للتفصيل الفصل الثالث.
169 محمد فتحة، الأحكام والنوازل والمجتمع، أبحاث في تاريخ المغرب الإسلامي من القرن 12م إلى القرن 15م،

Scanned by CamScanner

أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق، الدار البيضاء، 1995، ص، 585-653.

170 محمد استيتو، **الفقر والفقراء**، ص، 56.

171 ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب-قسم الموحدين**، ص، 345. ابن الخطيب، **نفاضة الجراب**، ج. 3، ص، 61.

ويعتقد بعض من عارك هذا الموضوع أن الكوارث الطبيعية شكلت ثابتا من ثوابت تاريخ المغرب الوسيط، بحيث يصعب الحديث عن ماضي البلاد في غياب إلمام بها أو رصد لآثارها المتعددة الجوانب، انظر، محمد الأمين البزاز، **حول المجاعات والأوبئة بالمغرب خلال العصر الوسيط**، مجلة كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، الرباط، ع. 18، 1993م، ص، 93. الحسين بولقطيب، **الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى**، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجديدة، 1998-1999م، ص ص، 178-197. محمد ياسر الهلالي، **أثر القحوط والمجاعات والأوبئة على الأنشطة الاقتصادية في المغرب الأقصى خلال أواخر العصر الوسيط**، ضمن ندوة **المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب**، جامعة شعيب الدكالي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجديدة، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، سلسلة ندوات ومناظرات، ع. 4، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2004، ص ص، 167-226.

172 عمر بن ميرة، **النوازل والمجتمع**، ج. 2، ص، 363. إبراهيم القادري بوتشيش، **تاريخ الغرب الإسلامي**، دار الطليعة، بيروت، 1994، ص، 22. **حلقات مفقودة من تاريخ الحضارة في الغرب الإسلامي**، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط. 1، 2006، ص، 11. محمد الأمين البزاز، **حول المجاعات**، ص، 94.

173 للتفصيل فيما تقدمه مصادر العصر المريني من معلومات عن هذا الموضوع انظر، محمد ياسر الهلالي، **أثر القحوط والأوبئة**، ص ص، 168-176.

174 اعتبرها أحد الباحثين جد دورية، انظر، محمد فتحة، **جوانب من الحياة الاقتصادية المغربية خلال العصر المريني**، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، ع. 2، 1985م، ص، 164. محمد الأمين البزاز، حول المجاعات، ص ص، 94-95.

Ferhat, H. et Triki H., "Hagiographie et religion au Maroc médiéval", *Hesperis Tamouda*, vol XXVI-XXVII, 1988-1989, p. 42.

175 انظر للتفصيل في الموضوع،

Talbi, M., *Effondrement démographique au Maghreb du XI^e au XV^e siècles*, Cahier de Tunisie, 1977, XXV, pp. 51-60. Rosenberger (B), Triki (H), *Famines et épidémies au Maroc aux XVI^e et XVII^e siècles*, 1^ere partie, H. T, Vol XIV, Fasc-unique, 1973, pp. 109-175.

وانظر الدراسات التي أحلنا إليها في الهوامش السابقة.

176 عز الدين أحمد موسى، **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري**، دار الشروق، ط. 1، بيروت، 1983، ص، 58.

177 عمر بن ميرة، **النوازل والمجتمع**، ج. 2، ص، 363.

178 المرجع نفسه، ج. 2، ص، 370، ويرى هذا الباحث أن المعلومات التي تقدمها المصادر حول سنوات الجفاف وسنوات المطر، هي معلومات ترتبط أكثر بفترات التطرف المناخي، أي أن المصادر لم تذكر إلا بعض الوقائع التي يشتد فيها الجفاف، أو التي تتعرض فيها البلاد لسيول وأمطار جارية.

179 وهو ما سنفصل فيه في الفصل الثالث من هذا الباب.

180 انظر على سبيل المثال لا الحصر، ابن تحلات، **إثمد العينين**، ص، 209. البادسي، **المقصد الشريف**، ص، 61-68. ابن قنفذ، **أنس الفقير**، ص، 23-82. أبو عبد الله بن محمد الوراق، **مناقب سيدي عبد السلام بن مشيش**، مخ.خ.ع الرباط، رقم 1984 د (ض.م)، ص ص، 246-247. الونشريسي، **المعيار**، ج. 4، ص،

Scanned by CamScanner

97- 125 - 185- 290. ج. 7، ص، 83-84. ج. 8، ص، 5-20. الزياتي، **الجواهر المختارة فيما وقفت عليه من النوازل في جبال غمارة**، مخ. خ. ع، الرباط رقم، د 1698، ج. 2، ص، 204. وانظر الجداول التي قدمها بعض الباحثين، ممن أحلنا إلى دراساتهم، حول كرونولوجيا القحوط والمجاعات والأوبئة بمغرب العصر الوسيط.

181 الناصري، **الاستقصا**، ج. 2، ص، 61.

182 ابن ابي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 384.

183 ابن الخطيب، **نفاضة الجراب**، ج. 3، ص، 61.

184 ابن عذاري، **البيان المغرب، قسم الموحدين**، ص ص، 325-326.

185 المصدر نفسه، ص ص، 325-326.

186 الناصري، **الاستقصا**، ج. 3، ص، 14.

187 ابن الخطيب، **نفاضة الجراب**، ج. 3، ص، 90.

188 ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 25.

189 ابن القاضي، **ذيل وفيات الأعيان المسمى درة الحجال في أسماء الرجال**، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، المكتبة العتيقة، تونس، د.ت، ج. 3، ص، 272.

190 محمد الأمين البزاز، **الطاعون الأسود بالمغرب في القرن 14م**، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ع. 16، 1991م، ص، 116.

191 **إيليغ قديما وحديثا**، المطبعة الملكية، الرباط، 1966م، ص ص، 239-240. نقلا عن، محمد الأمين البزاز، المرجع السابق، ص، 116.

192 محمد ياسر الهلالي، **أثر القحوط والمجاعات...**، ص ص، 168-176.

193 القلقشندي، **صبح الأعشى**، ص، 198. الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 62-114-115-123-125.

194 «سئل سيدي علي بن محسود عن الزرع الأخضر والفول الأخضر يحتاج الناس إلى سلفه. فأجاب، ذلك جائز في وقت الحاجة وشدة المجاعة لما فيه من إحياء النفوس»، الونشريسي، **المعيار**، ج. 6، ص، 44. ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 294-302.

195 انظر مثلا، ابن تجلات، **إثمد العينين**، ص، 209. ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 384-401. مجهول، **نبذة من تاريخ المغرب الأقصى**، ص، 136. الناصري، **الاستقصا**، ج. 2، ص، 256.

196 ابن سعيد، **كتاب الجغرافيا**، حققه ووضع مقدمته وعلق عليه إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط. 1، 1970م، ص، 141. ابن الخطيب، **نفاضة الجراب**، ج. 3، ص، 89. الونشريسي، **المعيار**، ج. 2، ص، 116.

197 العلمي، **النوازل**، تحقيق المجلس العلمي بفاس، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الجزء الثالث، الرباط، 1989م، ص، 43. الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 104-342.

198 محمد الأمين البزاز، **أوبئة ومجاعات**، ص، 101.

199 ابن عذاري، **البيان المغرب، قسم الموحدين**، ص، 326 (مجاعة 632هـ).

200 البادسي، **المقصد الشريف**، ص، 61.

201 للتفصيل في هذه النقطة، راجع عمر بن ميرة، **النوازل والمجتمع**، ج. 2، ص ص، 408-435.

202 محمد الطويل، **الفلاحة المغربية**، ص، 26-29-96.

203 الونشريسي، **المعيار**، ج 8، ص ص، 5-20. وللمزيد من التفصيل يمكن الإطلاع على ما كتبه كل من محمد فتحة، **الأحكام والنوازل**، ص ص، 666-667. عمر بنميرة، **النوازل والمجتمع**، ج. 2، ص ص، 409-420.

Scanned by CamScanner

204 أحمد البوزيدي، **التاريخ الاجتماعي لدرعة**، ص، 125.

205 مارمول، **إفريقيا**، ج. 2، ص، 272. عمر بن ميرة، **النوازل والمجتمع**، ق2، ص ص، 360–362. وإن كانت التقلبات المناخية تتحكم بدورها في مصدر المياه هذا «فالأنهار والعيون تعتمد بشكل كبير على التساقطات، ومعظم هذه الأنهار يرتفع صبيبها خلال بضعة شهور من فصلي الخريف والشتاء، إلا أن ذلك لم يتسم أبدا بالانتظام، فالصبيب يرتفع أحيانا ويصبح على شكل سيل عارم بينما تأتي فترات جفاف فينخفض السيل ليصل أحيانا إلى مستويات قد ينعدم فيها الجريان». عمر بن ميرة، **النوازل والمجتمع**، ق 2، ص، 362.

206 انظر للتفصيل، عمر بن ميرة، **النوازل والمجتمع**، ق 2، ص ص، 381–406.

207 كما هو حال تقنية الناعورة التي انحصر وجودها في بعض المغترسات المرينية. عمر بن ميرة، **النوازل والمجتمع**، ق 2، ص ص، 383–385.

208 الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 140–345. مارمول، **إفريقيا**، ج. 2، ص، 47. وإجمالا عن هذه التقنيات انظر، محمد الطويل، **الفلاحة المغربية**، ص ص، 78–84. محمد فتحة، **الأحكام والنوازل والمجتمع**، ص، 585–653.

209 عز الدين أحمد موسى، **النشاط الاقتصادي**، ص، 189. محمد الطويل، **الفلاحة المغربية**، ص ص، 84–90.

210 انظر للتفصيل الفصل الثاني والثالث من هذا الباب.

211 محمد ياسر الهلالي، **مجتمع المغرب الأقصى**، ص، 106.

212 الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 53.

213 عبد الرحمان الفاسي، **شرح العمل الفاسي**، ص، 78. الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 60.

214 الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 53.

215 ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 97.

216 الونشريسي، **المعيار**، ج. 1، ص، 390. السوسي، أحمد بن الحسن، **نوازل أبي مهدي عيسى بن عبد الرحمان الرجراجي السكتاني**، مخ. خ. ع، الرباط، رقم 484ق، ص، 167. الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 53–175–330.

217 الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 54–102–329–330–367، ويتحدث عن بعض ساكنة غمارة فيقول، «ويعيش هؤلاء الجبليون في فقر مدقع يتجلى في لباسهم»، ص، 338. مارمول، **إفريقيا** ص، 283–284. محمد ياسر الهلالي، **مجتمع المغرب الأقصى...**، ص ص، 106–110.

218 ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، ص، 116، ويصف ابن الخطيب مناطق تامسنا بقوله، «ما بين خيام ورعاة غير لئام، وبيوت شعر، ومعاطن وبر... بين خيام قد استدارت كالودائل، واشتملت على الولائد والعقائل، ودشر ركبت الهضاب بأخصاصها... ومدن دورها شعر، ووقودها بعر، وسورها سدر»، **نفاضة الجراب**، ج. 3، ص ص، 89–90. ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 3. إبراهيم القادري بوتشيش، **لماذا غيبت الفئات الشعبية من تاريخ المغرب الشرقي الوسيط، تساؤلات وتطبيق**، ضمن ندوة **المغرب الشرقي بين الماضي والحاضر، الوسط الطبيعي، التاريخ، الثقافة**، منشورات جامعة محمد الأول، كلية الآداب، والعلوم الإنسانية، وجدة، 1986، ص، 313.

219 الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 88.

220 محمد عبد الله الريفي، **جواهر السماط في ذكر مناقب الشريف الرفاعي سيدنا ومولانا عبد الله الخياط**، مخ. خ. ع الرباط، رقم 1185د، و35أ.

221 ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 211.

Scanned by CamScanner

222 ابن هلال، **أجوبة ابن هلال**، رتبها علي ابن أحمد الجزولي الجياني، طبعة حجرية، فاس، د.ت، ص، 151.

223 الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 79.

224 ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**، س8، ق1، ص، 176. ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 312. ابن الطواح، **سبك المقال لفك العقال، تراجم وأعلام من القرنين السابع والثامن الهجريين**، تحقيق ودراسة محمد مسعود جبران، دار الغرب الإسلامي، ط. 1، 1995م، ص، 56. العقباني، **تحفة الناظر وغنية الذاكر في تغير المناكر**، مخ.خ.ع، الرباط، رقم 13ك، ص، 208–209. الونشريسي، **المعيار**، ج. 2، ص، 322–404. العلمي، **النوازل**، ج. 1، ص، 108. الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 54. الناصري، **الاستقصا**، ج. 3، ص ص، 9–10. ج. 4، ص، 83.

225 ابن تجلات، **إثمد العينين**، ج. 1، ص، 213.

226 الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 330.

227 إبراهيم القادري بوتشيش، **مباحث في التاريخ الاجتماعي**، ص، 218.

228 الونشريسي، **المعيار**، ج. 2، ص، 116. ابن الخطيب، **نفاضة الجراب**، ج. 3، ص، 89.

229 ابن الأحمر، **بيوتات فاس الكبرى**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م، ص، 17.

230 ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب، قسم الموحدين**، ص، 326.

231 الجابري، **العصبية والدولة**، ص، 28.

232 ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 221. ابن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن**، ص، 110. ابن الأحمر، **روضة النسرين**، ص، 7. الناصري، **الاستقصا**، ج. 3، ص، 3–5.

233 ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 282. مجهول، **نبذة من تاريخ المغرب الأقصى**، ص، 125.

234 ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 282. الذخيرة السنية، ص، 25. الناصري، **الاستقصا**، ج. 3، ص، 5.

235 ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 77.

236 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

237 ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، ص، 397.

238 «المجاورون لبني عامر ومواطنهم بين تلمسان وتاوريرت في التل وما يواجهها من القبلة»، ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، ص، 77.

239 مواطنهم «من تاوريرت الى بلاد درعة فيستولون على ملوية كلها إلى سجلماسة وعلى درعة وعلى ما يحاذيها من التل»، ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص، 77.

240 «مواطن ذوي حسان من درعة على البحر المحيط ونزل شيوخهم بلاد نول قاعدة السوس، فيستولون على السوس الأقصى وما إليه»، ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص، 77، وانظر للتفصيل أحمد أبو ضيف، **أثر القبائل العربية**، ص ص، 222–230.

241 ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، ص، 77.

242 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

243 أحمد أبو ضيف، **أثر القبائل العربية**، ص، 226.

244 الجابري، **العصبية والدولة**، ص، 219. مروان أبي سمرا، **فرناند بروديل مؤرخ المتوسط والعالم المتوسطي، الصحراء، البدو، والإسلام قطب المتوسط التاريخي**، مجلة الاجتهاد، ع. 17، السنة الرابعة، خريف 1992م، ص، 190.

245 ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 114. مجهول، **الحلل الموشية**، ص، 17.

Scanned by CamScanner

246 ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 97.

247 الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 62. ويضيف، «يقضي هؤلاء الرحالة حياتهم كلها حتى الموت في الصيد واختطاف جمال أعدائهم، ولا يقيمون في أي موطن أكثر من ثلاثة أيام أو أربعة ريثما ترعى إبلهم كلأه»، ص، 59.

248 ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 3. الناصري، **الاستقصا**، ج. 3، ص، 3.

249 ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 81.

250 ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص، 25. **الأنيس المطرب**، ص، 282. مجهول، **نبذة من تاريخ المغرب الأقصى**، ص، 125–126. الناصري، **الاستقصا**، ج. 3، ص، 5.

251 ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 211.

252 ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 222.

253 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

254 ابن الأحمر، **روضة النسرين**، ص ص، 21–22. ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص، 20.

255 ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، ص، 263–264.

256 ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 114.

257 ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 288. **الذخيرة السنية**، ص، 36. الناصري، **الاستقصا**، ج. 3، ص، 10.

258 ابن عذاري، **البيان المغرب**، قسم الموحدين، ص، 351.

259 ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، ص، 39.

260 الدرعي، **الأجوبة**، ص، 155.

261 الونشريسي، **المعيار**، ج. 2، ص ص، 435–436.

262 العزفي، **دعامة اليقين**، ص، 41.

263 ابن مرزوق، أبو عبد الله محمد ابن أحمد، **الأجوبة**، مخ.خ.ع، الرباط، رقم د134، ميكروفيلم 036، ص، 174. الونشريسي، **المعيار**، ج. 6، ص، 518. الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 354.

264 الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 119.

265 المصدر نفسه، ج. 1، ص، 36.

266 المصدر نفسه، ج. 1، ص، 338.

267 المصدر نفسه، ج. 1، ص، 357.

268 **رحلة العبدري**، المسماة الرحلة المغربية، تحقيق وتعليق محمد الفاسي، الرباط، 1986م، ص، 8.

269 الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 338.

270 يقول ابن خلدون عن بعض هذه القبائل، «وأكثر سكان هذه القصور الغربية في الصحراء بنو يالدس هؤلاء، ومعهم من سائر قبائل زناتة البربر مثل ورتطغير ومصاب وبني عبد الواد وبني مرين وهم أهل عديد وعدة، وبعد عن هضيمة الأحكام وذل المغارم»، **العبر**، ج. 7، ص، 77. وتبدو قبائل بني مرين أكثر وضوحا في هذه الظاهرة، يقول ابن أبي زرع، «يتنقلون في البراري والقفار، ولا يؤدون لأمير درهما ولا دينار، ولا يدخلون تحت حكم سلطان»، **الأنيس المطرب**، ص، 282.

271 يبدو ذلك واضحا في هذا النص الذي يصف الوضع عند تدهور الدولة الموحدية، حين «صارت ملوكهم ليس لهم حكم في البوادي، وإنما سلطانهم وأوامرهم في المدن خاصة، وكثرت الفتن بين القبائل، واشتد الخوف في الطرقات والمناهل»، ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 288. **الذخيرة السنية**، ص، 35. الناصري، **الاستقصا**، ج. 3، ص، 9.

Scanned by CamScanner

272 ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص، 297. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 289. الذخيرة السنية، ص، 37. ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص، 39. ابن غازي، الروض الهتون، ص، 17. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 10.

273 راجع ما كتبه محمد القبلي في هذا الصدد،

Kably, *Société, pouvoir..., op. cit.*, pp .1-15.

274 انظر، ابن تومرت، أعز ما يطلب، تحقيق عبد الغني أبو العزم، نشر مؤسسة الغني للنشر، الرباط، ط. 1، 1997م، ص، 406. البيدق، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1970م، ص، 39. ابن القطان، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. 1، 1990م، ص، 225. عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص، 266. النويري، نهاية الأرب، ص، 378. ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، س8، ق1، ص، 321.

275 لمزيد من التفصيل حول طبيعة التحرك المرابطي ومختلف مراحله. انظر، إبراهيم القادري بوتشيش، الحياة الاجتماعية، ج. 1، ص، 61، وما بعدها.

276 النويري، نهاية الأرب، ص، 381.

277 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

278 إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص، 29—30—34. عبد الغني أبو العزم، الدولة والمدينة، مرحلة التأسيس، ضمن أعمال ملتقى مراكش من التأسيس إلى أواخر العصر الموحدي، منشورات جامعة القاضي عياض، مطبعة فضالة، المحمدية، 1989م، ص، 55.

279 مجهول، الحلل الموشية، ص، 112.

280 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 282. الذخيرة السنية، ص، 26. مجهول، نبذة من تاريخ المغرب الأقصى، ص، 126. ابن الأحمر، روضة النسرين، ص، 23. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 5.

281 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 224.

282 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 33.

283 ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص، 351. ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 37. ابن مرزوق، المسند الصحيح، ص، 111.

284 ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص، 37. الحسين بولقطيب، الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى، ق1، ص، 33، وما بعدها.

285 ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص، 37. ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص ص، 33—35.

286 مجهول، نبذة من تاريخ المغرب الأقصى، ص، 126. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 283.

287 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 33. وانظر عن هذه الأحداث، أحمد أبو ضيف، أثر القبائل العربية، ص ص، 163—165.

288 ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص، 39.

289 المصدر نفسه، ج. 7، ص، 247. البادسي، المقصد الشريف، ص، 62. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 13.

290 Kably, *Société, pouvoir... op. cit.*, pp.1-48.

291 مجهول، الحلل الموشية، ص، 174. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 291. الذخيرة السنية، ص، 65. ابن القاضي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973م، ج. 1، ص، 103. الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص ص، 348—349.

Scanned by CamScanner

292 ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص، 35. **الأنيس المطرب**، ص، 286.

293 ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، ص، 345.

294 ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص، 36–37. القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج. 5، ص، 190. الناصري، **الاستقصا**، ج. 3، ص، 10.

295 ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، ص ص، 77–78.

296 المصدر نفسه، ص، 91. وقد صادف ذلك ثورة عبد الله بن زكريا الهزرجي بسوس، فعزروه «ووصلته العرب من جهة الصحراء»، ابن عذاري، **البيان المغرب، قسم الموحدين**، ص، 363. شارل أندري جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية**، تعريب محمد مزالي والبشير سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، ط. 2، 1983م، ج. 2، ص، 224.

297 انظر للتفصيل في هذه النقطة،

Kably, *Société, pouvoir... op. cit.*, pp. 2, et suivantes

298 وهو ما سنفصل فيه في الفصل السادس المتعلق بـ«ترسبات الحرب في الذهنيات».

299 إبراهيم القادري بوتشيش، **تاريخ الغرب الإسلامي**، ص، 25. هاشم العلوي القاسي، **مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري/منتصف القرن العاشر الميلادي**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، الرباط، مطبعة فضالة، المحمدية، 1995م، ج. 1، ص، 45.

- Cheddadi (A), "Le système du pouvoir en Islam d'après Ibn khaldūn", *Annales* E.S.C, 35e année, mai/août, n° 3-4, 1980, p. 542.

300 يرتبط هذا العامل التاريخي أشد الارتباط بطبيعة التحول الذي شهده المغرب الأقصى –على غرار بلاد المشرق– منذ منتصف ق5هـ/11م؛ والمتمثل في بروز الدولة – عظيمة الملك شديدة الاستيلاء– استنادا إلى عصبية قبلية تحقق معنى الغلبة، ودعوة دينية تجمع شمل القبائل و«تفرد الوجهة إلى الحق وتوجهها نحو المطالبة». ولعل أهم ما يميز هذا التحول هو ارتباطه بمدى ما توفره «الشوكة» و«العصبية» من قوة قبلية تمكن صاحبها من كسب المشروعية اللازمة للتغلب على البلاد والعباد، مما جعل القبيلة تمثل حجر الزاوية في هذه الدولة وفي حروبها. انظر للتفصيل، ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 110–125. **فتوى للغزالي** متضمنة في مجموع أوله كتاب الأنساب لأبي حيان، مخ. خ. ع، الرباط، رقم ك 1275، ص، 129. محمد عابد الجابري، **من أجل إعادة بناء الفكر السياسي في الإسلام**، المقالة 44، ضمن سلسلة «**مواقف**»، ع. 28، ط. 1، يونيو 2004م، ص، 27. ومن الدراسات التي تفطنت لهذا التحول ورصدته في أبحاثها. محمود إسماعيل، **سوسيولوجيا الفكر الإسلامي**، سينا للنشر، القاهرة، ط. 1، 1992 الجزء الثالث. عبد الله العروي، **مفهوم الدولة**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط. 3، 1984م. إبراهيم القادري بوتشيش، **الحياة الاجتماعية**. أحمد الطاهري، **عامة إشبيلية في عصر بني عباد**، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، 1995م. أحمد الحمودي، **عامة المغرب الأقصى في العصر الموحدي**، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، 1999–2000م. وللمقارنة مع ما عرفه الشرق الإسلامي في هذا المجال، انظر محمد تضغوت، **الحياة الاقتصادية في العراق وأثرها الاجتماعي والسياسي والثقافي في العصر البويهي**، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، 1997–1998م.

301 محمد عابد الجابري، **العصبية والدولة**، ص، 29.

302 إبراهيم القادري بوتشيش، **الحياة الاجتماعية**، ج. 1، ص، 61، وما بعدها.

303 الحسين بولقطيب، **المصامدة وقيام دولة الموحدين**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز، فاس، 1989م.

Scanned by CamScanner

304 محمد عابد الجابري، **العصبية والدولة**، ص، 29.

305 إبراهيم القادري بوتشيش، **الحياة الاجتماعية**. الحسين بولقطيب، **الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى**.

306 إبراهيم القادري بوتشيش، **أثر الحروب في المجال الضريبي**، مجلة الاجتهاد، ع. 34-35، السنة التاسعة، 1997م، ص، 79. إبراهيم القادري بوتشيش، **حلقات مفقودة**، ص ص، 16-18.

307 ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 114-115، 211.

308 المصدر نفسه، ص، 211.

309 إبراهيم القادري بوتشيش، **الحياة الاجتماعية**، ج. 1، ص، 254.

310 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

311 ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج. 4، ص، 22-94. مجهول، **الحلل الموشية**، ص، 33. النويري، **نهاية الأرب**، ص، 392. الناصري، **الاستقصا**، ج. 2، ص، 19. هوبكنز، **النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى**، ترجمة توفيق أمين الطيبي، تونس، 1980م، ص ص، 142-147. عبد العزيز غوردو، **الارتزاق بالدولة المركزية المغربية الوسيطية**، أطروحة لنيل الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، 2001-2002م، ص، 81.

312 إبراهيم القادري بوتشيش، **الحياة الاجتماعية**، ج. 3، ص، 915.

313 الحسين بولقطيب، **الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى**، ق1، ص، 21-25-62.

314 يبدوا ذلك واضحا في حديث البيدق حول تنظيم المهدي بن تومرت لجيشه حيث يقول إنه «أخذ علما أبيض فدفعه للخليفة الإمام عبد المومن بن علي، وأخرج معه كدميوة، وأخذ علما ثانيا أصفر ودفعه لأبي إبراهيم وقدمه على هرغة، وعلما ثالثا أحمر ودفعه لعبد الله بن ملوية وقدمه على كنفيسة...ثم سائر القبائل على الترتيب»، **أخبار المهدي بن تومرت**، ص ص، 36-37.

315 الحسين بولقطيب، **الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى**، ص ص، 64-65.

316 يكفي في هذا الصدد تتبع حملات الموحدين في الأندلس من خلال كتاب **المن بالإمامة** لابن صاحب الصلاة، للوقوف على ما كانت تدره هذه الحملات على الخزينة الموحدية من أموال.

317 الناصري، **الاستقصا**، ج. 2، ص، 139. النويري، **نهاية الأرب**، ص، 440. ابن عذارى، **البيان المغرب، قسم الموحدين**، ص، 201. ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. 3، 1987م، ص، 148-360. وللتفصيل انظر، الحسين بولقطيب، **الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى**، ق1، ص، 51. وفضلا عن ذلك اعتمدت سياسة الإكراه في التجنيد في بعض مراحل هذه الدولة، يذكر الناصري أن الناصر الموحدي كتب في إحدى الحملات العسكرية «إلى جميع بلاد إفريقية والمغرب وبلاد القبلة يستنفر المسلمين لغزو الكفار، فأجابه خلق كثير وألزم كل قبيلة من قبائل العرب بحصة من الخيل والرجال تخرج للجهاد»، **الاستقصا**، ج. 2، ص، 220. ويورد الجزيري عقدا عن شخص استأجر آخر لينوب عنه في الغزو وهاك نص العقد، «استأجر فلانا الفلاني ومن نعته كذا لينوب عنه في غزوة كذا إلى بلد كذا ويجاهد عنه عدو الله بما استطاع بما قدر عليه من تحريق ثماره، وخراب دياره وإفساد زروعهم...بكذا وكذا دينارا قبضها فلان وصارت في يده وارثة طيبة وشرع في الخروج إلى الغزوة المذكورة... إجارة صحيحة عرفا قدرها ومنتهى مسافة الغزوة»، نقلا عن إبراهيم القادري بوتشيش، **تاريخ الغرب الإسلامي**، ص، 25. انظر أيضا، التادلي، **التشوف إلى رجال التصوف**، نشر وتصحيح أودلف فور، مطبوعات إفريقيا الشمالية، الرباط، 1958م، ص، 186. الحسين بولقطيب، **الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى**، ص، 65.

318 إبراهيم القادري بوتشيش، **تاريخ الغرب الإسلامي**، ص، 26.

319 يذكر ابن أبي زرع أن الناصر «عد في عسكره مائة وستين ألفا بين فارس وراجل، ومن الرحال

Scanned by CamScanner

المحشودين ثلاث مائة ألف راجل، ومن العبيد الذين يمشون بين يديه بالحرب ويدورون عليه ثلاثون ألف عبد ومن الرماة الأغزاز عشرة آلاف دون المرتزقة من الموحدين وزناتة والعرب وغيرهم»، الأنيس المطرب، ص، 240. مجهول، الحلل الموشية، ص، 161. ويذكر ابن أبي زرع في هذا الصدد أيضا أن بني مرين لما دخلوا بلاد المغرب وجدوه «خاليا قد باد أهله ورجاله، وفني خيله وحماته وأبطاله وقتلت قبائله وأقياله قد استشهد الجميع في غزوة العقاب، فأقفرت البلاد وعمرها البوم والسباع والذئاب»، الذخيرة السنية، ص، 26.

320 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 77.

321 مجهول، الحلل الموشية، ص، 175. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 285. عبد اللطيف أكنوش، السلطة والمؤسسات السياسية، ص، 70.

322 انظر للتفصيل حميد تيتاو، أثر الحروب في الحياة الاقتصادية والاجتماعية بالغرب الإسلامي خلال القرنين السادس والسابع الهجريين (12 و13م)، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، 2000–2001، ص ص، 19–40.

323 ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص، 29.

324 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

325 للمزيد من التفصيل في هذه النقطة انظر، أحمد أبو ضيف، أثر القبائل العربية، ص ص، 67–96. الحسين بولقطيب، الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى، ق1، ص ص، 33–40.

326 ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص، 28.

327 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 288.

328 المصدر نفسه، الصفحة نفسها. الذخيرة السنية، ص، 36.

329 راجع المبحث الأول من الفصل الثاني من هذا الباب.

330 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 291. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 11. مجهول، الحلل الموشية، ص، 174. ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ق1، ص، 103.

Kably, *Société, pouvoir…, op. cit.*, pp. 138 et suivantes.
Benchekroune (M), *Le milieu marocain et ses aspects culturels, étude sociologique, institutionnelle, culturelle et artistique à l'époque mérinide et wattaside*, Rabat, 1970, pp. 138-143.

331 Kably, *Société, pouvoir…, op. cit.*, pp.138 et suivantes

332 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 126.

333 المصدر نفسه، ص، 355.

334 المصدر نفسه، ص ص، 128–129.

335 محمد عابد الجابري، العصبية والدولة، ص، 33.

336 ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص، 263.

337 المصدر نفسه، ص، 359.

338 المصدر نفسه، ص ص، 359–360.

339 المصدر نفسه، ص، 365.

340 مجهول، نبذة من تاريخ المغرب الأقصى، ص، 126.

341 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 77.

342 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 278.

343 ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص، 37.

344 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 286. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 7.

Scanned by CamScanner

345 العبر، ج. 6، ص، 37.

346 المصدر نفسه، الصفحة نفسها .

347 شارل أندري جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية**، ج. 1، ص، 166.

Terrasse, *Histoire du Maroc*, *op. cit.*, p. 334.

348 حتى لا نخوض في موضوع –فصل فيه غيرنا– نكتفي بالقول إن القبائل العربية ظلت إلى حدود هذه الفترة مكتفية بتنفيذ المهام الحربية الموكولة إليها، سواء في الأندلس أو داخل البلاد، وحماية مجالها الجديد والدفاع عنه. إلا أن ما آل إليه الوضع السياسي من اكتساح بني مرين للمناطق الشمالية الشرقية، وصراع البيت الموحدي على السلطة أدخلها في دوامة الصراعات السياسية، دون تجاهل ما يجمعها وبعض القبائل الجديدة التي اقتحمت المجال المغربي سواء بني مرين أو بني معقل من اهتمام بالحرب وغنائمه. انظر للتفصيل، الحسين بولقطيب، **الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى**، ق1، ص، 36.

Kably, *Société, Pouvoir...*, *op. cit.*, pp. 24-33

349 محمد عابد الجابري، **العصبية والدولة**، ص، 164. وتبدو هذه الظاهرة أكثر وضوحا في القبائل التي تمتهن الظعن في القفار «لما اختصوا به من نكد العيش، وشظف الأحوال وسوء المواطن، حملتهم عليها الضرورة التي عينت لهم تلك القسمة ... والقفر مكان الشظف والسغب، فلا ينزع إليهم أحد من الأمم أن يساهم في حالهم، ولا يأنس بهم أحد من الأجيال»، ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 103.

350 محمد عابد الجابري، **العصبية والدولة**، ص ص، 264–265.

351 ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 121.

352 انظر للتفصيل المبحث الأول من هذا الفصل

353 ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 114.

354 المصدر نفسه، ص، 104–105. العبر، ج. 6، ص، 39–40. ابن عذاري، **البيان المغرب، قسم الموحدين**، ص، 310. ابن الخطيب، **نفاضة الجراب**، ج. 2، ص، 59. ابن الأحمر، **روضة النسرين**، ص، 21–22–23. ابن مرزوق، **الأجوبة**، ص، 146. العلمي، **النوازل**، ج. 3، ص، 65. وانظر للتفصيل عن صلاحيات الرئيس ومجلس الجماعة، إبراهيم القادري بوتشيش، **مباحث في التاريخ الإجتماعي**، ص، 230–238. عبد الوهاب بن منصور، **قبائل المغرب**، المطبعة الملكية، الرباط، 1968م، ج. 1، ص، 20.

355 محمد عبد الله الريفي، **جواهر السماط في ذكر مناقب الشريف الرفاعي سيدنا ومولانا عبد الله الخياط**، مخ. خ. ع، الرباط، رقم 1185د، و، 35أ. الونشريسي، **المعيار**، ج. 6، ص، 518. التنبكتي، **نيل الابتهاج**، ص، 545. العلمي، **النوازل**، ج. 1، ص، 113. ج. 3، ص، 43. الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 334. وانظر عن هذه الأعراف، إبراهيم القادري بوتشيش، **مباحث في التاريخ الاجتماعي**، ص ص، 240–243.

356 ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 104.

357 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

358 إبراهيم القادري بوتشيش، **مباحث في التاريخ الاجتماعي**، ص، 225. محمد عابد الجابري، **العصبية والدولة**، ص، 255.

359 محمد عابد الجابري، **العصبية والدولة**، ص، 255.

360 ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص، 116. يقول، «ويظعن أهل العز منهم والغلبة لإنتجاع المراعي فيما يقرب من الرحلة، لا يجاوزون فيها الريف إلى الصحراء، والقفار، ومكاسبهم الشاء والبقر والخيل في الغالب للركوب والنتاج وربما كانت الإبل من مكاسب أهل الناجعة منهم شان العرب...ومعاش المعتزين أهل الانتجاع والظعان في نتاج الإبل، وظلال الرماح وقطع السابلة». وبالمقابل يتحدث عن قبائل الذل

Scanned by CamScanner

ويربط هذا الاسم بغياب العصبية فيقول، «وفي هذا أوضح دليل على شأن العصبية وأنها هي التي تكون بها المدافعة والمقاومة والحماية والمطالبة، وأن من فقدها عجز عن جميع ذلك كله. ويلحق بهذا الفصل فيما يوجب المذلة للقبيل شأن المغارم والضرائب، فإن القبيل الغارمين ما أعطوا اليد من ذلك حتى رضوا بالمذلة فيه، لأن في المغرم والضرائب ضيما ومذلة لا تحتملها النفوس الأبية إلا إذا استهونته عن القتل والتلف، وأن عصبيتها حينئذ ضعيفة عن المدافعة والحماية، ومن كانت عصبيته لا تدفع عنه الضيم فكيف له بالمقاومة والمطالبة وقد حصل له الانقياد للذل، والمذلة عائقة»، المقدمة، ص، 112.

361 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 77.

362 خاصة تلك القبائل التي تستوطن المناطق الخصبة بالمغرب، انظر عنها الصفحات الموالية.

363 ابن خلدون، المقدمة، ص، 130.

364 العزفي، دعامة اليقين، ص، 41. البادسي، المقصد الشريف، ص، 144. العلمي، النوازل، ج. 1، ص، 113.

365 الذخيرة السنية، ص ص، 25–26.

366 نفاضة الجراب، ج. 2، ص، 89.

367 وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 334.

368 المقدمة، ص، 111.

369 الرحلة، ص، 8.

370 وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 144.

371 رحمة بورقية، حول القبيلة في المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ع. 14، 1998م، ص، 45.

372 محمد عابد الجابري، العصبية والدولة، ص، 262.

373 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 301.

374 ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص، 310.

375 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 53.

376 المصدر نفسه، ج. ، ص ص، 357–358.

377 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص ص، 122–123.

378 المصدر نفسه، ج. 1، ص، 55.

379 المصدر نفسه، ج. 1، ص، 344.

380 المصدر نفسه، ج. 1، ص، 194.

381 المصدر نفسه، ج. 1، ص، 306.

382 المصدر نفسه، ج. 1، ص، 301.

383 المصدر نفسه، ج. 1، ص، 50–56، 170، 196، 357–358.

384 يرى بعض الأنتروبولوجيين أن منطق المجتمع القبلي، هو منطق النبذ والتعدد، منطق يواجه بما لا يخترق وبأقوى عائق سوسيولوجي ممكن القوة المعاكسة، القوة الجاذبة، ويعني بها منطق التوحيد، منطق الواحد، منطق الدولة باعتبارها علامة اكتمال الانقسام في المجتمع، وباعتبارها عنصر بلوغ التعدد والاستقلال الذي تنشده كل قبيلة، ومن ثم كان المجتمع القبلي مجتمعا ضد الدولة. والمؤسسة التي تعمر بها عن استمرار منطق التعدد واستقلال كل جماعة هي الحرب بوصفها حقيقة العلاقات بين الجماعات وبوصفها الوسيلة السوسيولوجية الرئيسية للإعلاء من شأن قوة التشتيت النابذة ضد قوة التوحيد الجاذبة، انظر للتفصيل بيار كلاستر، أثريات العنف أو الحرب، ص ص، 122–123.

Scanned by CamScanner

385 مصطفى أبو ضيف أحمد، أثر القبائل العربية، ص، 234.

386 نفاضة الجراب، ج. 2، ص، 305–323.

387 بالنسبة لأشكال التحالف وطرقه، لم تسعفنا المادة المصدرية المتاحة في كشف النقاب عنها، لكننا لا نستبعد أن تكون تلك الأشكال التي أحال إليها بعض دارسي الفترة الحديثة، حاضرة حتى في مرحلة بحثنا، ومن ذلك ما يعرف بـ «الطاطا» التي تقنن العلاقات بين بعض القبائل وتأخذ طابعاً شبه ديني ومقدس، «وهي أيضا عقد تحدده قوانين صارمة لا يسمح بخرقها... إن الطاطا تحالف يمر عبر طقس، إذ يتم التحالف عن طريق تبادل الحليب لإرساء علاقة قرابة وهمية تحاكي علاقات القرابة الطبيعية كما أنه يتم أيضا عبر ذبح الكبش. وتسمى «الطاطا» أيضا عند بعض القبائل «بالخاوة» وتجبر خلق علاقات قرابة هذه الأفراد الذين أصبحوا إخوة على الإلتزام بنفس الالتزامات التي تقتضيها الروابط العائلية الحقيقية داخل نفس العائلة...». انظر، رحمة بورقية، حول القبيلة في المجتمع المغربي، ص ص، 45–47.

388 طبعا نميز هنا بين القرابة باعتبارها علاقة دموية، والمصاهرة باعتبارها علاقة زواجية. فـ «القرابة هي علاقة اجتماعية تعتمد على الروابط الدموية الحقيقية أو الخيالية أو المصطنعة، ولا يعني اصطلاح القرابة في الأنتروبولوجيا علاقات العائلة والزواج فقط وإنما يعني أيضا المصاهرة. لكن القرابة هي علاقة دموية والمصاهرة هي علاقة زواجية، فعلاقة الأب بابنه هي علاقة القرابة بينهما وعلاقة الزوج بزوجته هي علاقة مصاهرة...».

انظر للتفصيل، دينكن ميتشيل، معجم علم الاجتماع، ترجمة ومراجعة إحسان محمد الحسن، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط. 1، 1981م، ص ص، 130–131.

389 ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص، 42.

390 المصدر نفسه، ص، 397.

391 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 25–26.

392 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 225.

393 ابن الأحمر، روضة النسرين، ص، 25.

394 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 225.

395 المصدر نفسه، الصفحة نفسها. ابن الأحمر، روضة النسرين، ص، 25.

396 مجهول، الحلل الموشية، ص، 174. ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 65.

397 المقدمة، ص، 132.

398 ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص، 345. الناصري، الاستقصا، ج. 2، ص، 238.

399 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص ص، 33–35. ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص، 37.

400 ابن خلدون، المقدمة، ص، 104–110.

401 ايف لاكوست، العلامة ابن خلدون، ص، 43. محمد عابد الجابري، العصبية والدولة، ص ص، 28–29.

402 انظر الفصل الثاني من هذا الباب.

403 ابراهيم القادري بوتشيش، تاريخ الغرب الإسلامي، ص، 25. محمد عابد الجابري، العصبية والدولة، ص، 29. هاشم العلوي القاسمي، مجتمع المغرب الأقصى، ج. 1، ص، 45.

Cheddadi (A), *Le système du pouvoir en Islam*, *op. cit.*, p. 542.

404 ابن عذارى، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص، 310.

405 استفاض محمد القبلي في هذه النقطة بكثير من التدقيق، راجع هذا العمل للتفصيل،

Kably, *Société, pouvoir…*, *op. cit.*

406 «فكانوا لذلك أشد الناس توحشا وينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه،

والمفترس من الحيوان العجم، وهؤلاء هم العرب، وفي معناهم ظعون البربر وزناتة»، ابن خلدون، المقدمة، ص، 97.

407 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 77.

408 نفسه، ج. 6، ص، 43.

409 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 170–357.

410 المصدر نفسه، ج. 1، ص، 337.

411 المصدر نفسه، ج. 1، ص، 196.

412 المصدر نفسه، ج. 1، ص، 53.

413 المصدر نفسه، ج. 1، ص، 82.

414 انظر الجدول رقم 2.

415 انظر مثلا، ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص، 310، 403–404. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 77. ج. 6، ص، 37. مجهول، نبذة من تاريخ المغرب الأقصى، ص، 126. الونشريسي، المعيار، ج. 2، ص، 115.

416 محمد عابد الجابري، العصبية والدولة، ص، 27.

417 المقدمة، ص ص، 99–100.

418 ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص، 38.

419 نفسه، ص، 271.

420 نفسه، ص ص، 32–33.

421 نفسه، ص، 180.

422 انظر عن هذه القبائل في العصر الموالي، ثوريا برادة، الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1997م.

423 العبر، ج. 7، ص، 226.

424 مجهول، نبذة من تاريخ المغرب الأقصى، ص، 126. ابن الأحمر، روضة النسرين، ص، 23.

425 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 283. الذخيرة السنية، ص، 37.

426 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 289. الذخيرة السنية، ص، 37. القلقشندي، صبح الأعشى، ج. 5، ص، 190. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 10. القبلي، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال، الدار البيضاء، ط. 1، 1987م، ص، 110.

Kably, *Société, pouvoir…, op. cit.*, pp. 1-35.

427 ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص، 310.

428 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 225.

429 المصدر نفسه، ج. 6، ص، 91.

430 في مقصد البادسي، «كانت العرب قد تغلبت على بلاد غمارة سنة خمسة وثلاثين وستمائة فخفنا منهم، فارتحل جميع أهل بادس بأموالهم وأمتعتهم إلى الجزيرة التي في مرسى بادس فإذا جاء العرب عدوة إنبسطوا في الوادي وانقطع الناس في العدوتين، عدوة الصف، وعدوة الركيبة، لا يقدر من يدخل الوادي من أجل العرب»، المقصد الشريف، ص، 75.

431 المصدر نفسه، ص، 60–61.

432 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 291. مجهول، الحلل الموشية، ص، 174. ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ق1، ص، 103. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 11.

Scanned by CamScanner

433 Kably, *Société, pouvoir…*, *op. cit.*, pp. 231-232.

434 *Ibid*, p. 232.

435 ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 273.

436 المصدر نفسه، ج. 6، ص، 92.

437 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

438 محمد القبلي، **الدولة والولاية**، ص، 51.

439 القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج. 5، ص، 203.

440 ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 350.

441 ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص، 129. ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص ص، 243–244. الناصري، **الاستقصا**، ج. 3، ص، 25–26.

442 ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 377.

443 المصدر نفسه، ص، 388.

444 انظر الفصل الثالث من هذا الباب.

445 Kably, *Société, pouvoir…*, *op. cit.*, pp. 138 et suivantes. Benchekroune (M), *Le milieu marocain*, *op. cit.*, pp. 138 -143.

عمر بن ميرة، **النوازل والمجتمع**، ق1، ص، 136. إبراهيم القادري بوتشيش، **لماذا غيبت الفئات الشعبية...**، ص، 313.

446 الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 355.

447 العبر، ج. 6، ص، 92.

448 الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 170.

449 المصدر نفسه، ج. 1، ص، 356.

450 المصدر نفسه، ج. 1، ص، 47.

451 نفسه، ص، 54.

452 نفسه، ص، 118.

453 نفسه، ص، 52.

454 نفسه، ص ص، 123–124.

455 نفسه، ص، 55.

456 نفسه، ص، 54.

457 نفسه، ص، 54.

458 نفسه، ج. 2، ص، 120.

459 «في القرن الثامن والتاسع الهجري أدخل فقهاء المغرب في فتواهم وأحكامهم –ولا سيما الذين تولوا منصب القضاء– الاختيارات والترجيحات لبعض الأقوال الضعيفة، استنادا للعرف والضرورة وغير ذلك من أصول نظرية العمل، قد تكون الأحداث ألجأت إلى تلك الأقوال ورجحتها، وبينت أن ما بني على الترجيح أو الاختيار القديم إنما كان مستندا إلى أمور أصبحت مرهقة بعد ذلك نظرا لتبدل الأحوال، ولاسيما في الانقلابات الاجتماعية الهائلة التي ظهرت في القرن الثامن والتاسع... فانقلبت الأوضاع واضطربت بحيث تبين أن كثيرا من الأمور التي لو درجنا فيها على ما كان الفقهاء المتقدمون يأخذون به من الترجيح لأصبحنا بذلك غير مستطيعين أن نحقق المصالح والمقاصد الشرعية»، انظر التفصيل، عبد السلام العسري، **نشأة نظرية الأخذ بما جرى به العمل عند فقهاء الأندلس والمغرب**، مجلة دار الحديث الحسنية، ع. 3، 1402–1982م، ص ص، 321–340.

Scanned by CamScanner

460 «المفهوم الخاص لنظرية عمل الأمصار والعمل الإقليمي هو أن يحكم أحد القضاة أو يفتي أحد المفتين ممن تثبت عدالته ونزاهته مع العلم والمعرفة، بقول من أقوال علماء المذهب، وإن كان ضعيفا أو مهجورا، لأن هذا المفتي أو ذاك القاضي ما اختار هذا القول إلا لاعتبار خاص؛ كاعتبار ظروف القضية وأحوال المداعين والمستفتين وما يرجع إلى عوائدهم وأعرافهم، فوجد أن ذلك القول أكثر انطباقا وأشد ملاءمة للمسألة مما عداه، وان كان غير قوي ولا مشهور»، المرجع السابق، ص، 322.

461 العياشي، النوازل، مخ.خ.ع، الرباط، رقم د1644، ميكروفيلم 2583، (ض.م)، ص، 181.

462 الونشريسي، المعيار، ج. 2، ص، 217.

463 اختصار نوازل البرزلي، ص، 395.

464 ابن مرزوق، الأجوبة، ص، 146. الونشريسي، المعيار، ج. 6، ص، 182. العلمي، النوازل، ج. 3، ص، 65.

465 ابن مرزوق، الأجوبة، ص، 171. و«سئل سيدي قاسم العقباني عن أهل قرية جاءها أعراب خيلا ورجالا بنجوعها، فقاتلهم من بقي بها يوما واحدا، وكان الجل من أهل القرية قد فر بنفسه وبماله وبما خف من متاعه، ومقاتلة هؤلاء العرب يزيد راجلهم على ألفي رجل، وفارسهم على خمسمائة فارس... وشاع الخبر عن العرب أنهم يعودون لقتالها منذ الغد بأضعاف ما جاؤوا به أمس، فاشتد الخوف... فقام هذا الكبير وصالح عن قريته لما خاف من فسادها كبيرا من كبراء أفراد العرب بمائة دينار ذهبا. فدفع الله عن القرية فسادهم»، الونشريسي، المعيار، ج. 2، ص، 115.

466 أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، ص، 345.

467 العلمي، النوازل، ج. 1، ص، 113.

468 الرحلة، ص، 8.

469 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص ص، 144-145.

Scanned by CamScanner

الفصل الثاني

الحرب والدولة

Scanned by CamScanner



Scanned by CamScanner

يخيل إلينا أن أي باحث متخصص في تاريخ المغرب الوسيط عموماً، والعصر المريني بوجه خاص، لا يمكنه أن يتجاهل الحضور المكثف لظاهرة الحرب في ثنايا المصادر المؤرخة لدول هذه الفترة. وإذا كان ذلك يبدو طبيعيا بالنسبة لكتب الحوليات التاريخية التي أخذ أصحابها على عاتقهم تتبع حروب السلطان وغزواته، وانتصاراته وانهزاماته، فإن حضورها وحضور آثارها في غيرها من المظان لا يمكن إلا أن يؤكد أن الحرب اكتست أهمية خاصة في تاريخ هذه الدول. وحتى لا ندعي لأنفسنا السبق في اكتشاف هذه الملاحظة، نؤكد ما أقرته مجموعة من الدراسات التاريخية الرصينة، التي اعتبرت الحرب في هذه المرحلة ظاهرة مستشرية ودائمة.

في خاتمة المبحث الثالث من الفصل السابق، اعترضنا سؤال مركزي نعتبره عمق الإشكالية التي نطرحها في هذا الفصل: هل تستمر الحرب حتى بعد أن تنتج ذلك «الكل الشامل» الذي يحوي مجمل القبائل أي «الدولة»؟ أليست الدولة بحكم أنها تنظيم سياسي يوحد الأجزاء المتصارعة دائما، نقيضا للحرب بما هي عنصر تجزيء وتقسيم؟ وحتى لا نرفع بالإشكالية إلى مستوى التجريد، هل تستمر القبيلة التي توصلت إلى أن تفرض نفسها كسلطة مركزية على غيرها من القبائل والحواضر في اعتماد الحرب وسيلة أساسية في أسلوب اشتغالها، حتى بعد أن تتجاوز الحالة التي وسمناها بـ«حروب العوز»؟ هل يمكننا أن نتحدث عن «حروب الترف» بالنسبة لمرحلة الدولة؟

وإذا كان لكل دولة مصدر للسلطة التي تمارسها، والذي حددته النظريات المهتمة بهذا المجال في «الحق الإلهي»، و«العقد الاجتماعي»، و«التنازع والغلبة» أو «الحرب»، فمن أين استمدت الدولة المرينية سلطتها؟ وبعبارة أكثر وضوحا، هل كانت الحرب رمزاً لوجود الدولة ونشأتها، كما قال ميكيافيلي في أوربا في الفترة نفسها، حين اعتبر أن فن الحرب هو الوظيفة المثلى لمن يريد أن يحكم. فأي وظيفة كانت للدولة المغربية خلال هذه الفترة؟ تلك مجموعة من الأسئلة نعتقد أن طرحها أصبح ضروريا لفهم أعمق للدولة وعلاقتها بالحرب. وقبل الدخول في ثنايا الموضوع نروم تقديم مجمل ما قيل في الظاهرة المدروسة من قبل بعض الدراسات التاريخية.

تمهيد: الحرب والدولة من منظور بعض الدراسات التاريخية المعاصرة

تكاد معظم الدراسات التاريخية الحديثة تجمع على أهمية الحرب في تاريخ الدولة

Scanned by CamScanner

المغربية خلال العصر الوسيط. وإذا كانت بعض الأبحاث[1] قد اكتفت بمجرد التنبيه إلى أهمية هذه الظاهرة وفعلها التاريخي في الدولة والمجتمع معاً، فإن دراسات أخرى[2]، وإن كانت قليلة، قد خصصت لها أعمالا أكاديمية بكاملها لتتبع دورها وفعلها، واستكناه أسبابها ونتائجها، وخلصت إلى استنتاجات رصينة تحتاج إلى وقفة لتبين بعض ملاحظاتها وخلاصاتها[3]. وهو ما من شأنه أن يساعدنا على فهم أدق للظاهرة خلال المرحلة المدروسة، ومقارنتها بالمراحل السابقة، إن لم يساعدنا على تشكيل أسئلتها، وفك بعض مستغلقاتها.

إن اهتمامنا بما قدمته هذه الدراسات من معلومات واستنتاجات يرجع لسبب رئيس وموضوعي، مفاده ما يبدو عليها من أصالة علمية، ورصانة في التحليل، بسبب اعتمادها على مقدمة ابن خلدون التي تمثل خير مرجعية لأي باحث في تاريخ الدولة خلال العصر الوسيط، واستنطاقها وفق رؤية ومنهج علمي معاصر، إذا ما قارناها ببعض الدراسات التي حاولت أن تدرس تاريخ المغرب الوسيط بمفاهيم وقوالب دخيلة.

وإذا كانت هذه الدراسات قد اهتمت بظاهرة الحرب وفعلها التاريخي، من خلال محاولتها تصنيف مجتمع المغرب الأقصى ضمن إحدى التشكيلات الاقتصادية والاجتماعية المعروفة، وقادتها اجتهاداتها إلى القول بنمط معين للإنتاج تقوم فيه الحرب بدور محوري، فإن ذلك لن يعني خروجنا عن الإطار المنهجي الذي حددناه في بداية هذا البحث، والذي أكدنا من خلاله أننا سنعمل على تشريح الحرب من حيث هي ظاهرة اجتماعية لفهم أسبابها وميكانيزماتها، وتبين فعلها في حياة وسلوك وعقلية الأفراد والمجتمع والدولة. ومن ثمة فإن مساءلتنا لخلاصات هذه الدراسات لن تكون إلا في إطار دعم هذا المنهج، وبالشكل الذي يغنيه.

لقد ذهب اجتهاد هؤلاء الباحثين إلى القول بسيادة نمط معين للإنتاج، خارج الأنماط الاقتصادية المعروفة،[4] تشكل فيه الحرب المحور الأساس. وسواء تعلق الأمر بـ «أسلوب يمكن وصفه بأنه أسلوب الإنتاج الخاص بالاقتصاد القائم على الغزو»[5]، أو بـ «اقتصاد المغازي»[6]، أو بـ «أسلوب الإنتاج الحربي»[7]، فإن أهم تعريفاته أن الغزو شكل محور اهتمام الدولة؛ فهو من جهة طريقها للوصول إلى السلطة والملك، لأنه «منصب شريف ملذوذ يشتمل على جميع الخيرات الدنيوية، والشهوات البدنية، والملاذ النفسانية فيقع التنافس غالبا، وقل أن يسلمه أحد لصاحبه إلا إذا أغلب عليه، فتقع المنازعة وتفضي إلى الحرب والقتال

Scanned by CamScanner

والمغالبة»8. وهو من جهة أخرى الضامن لبقائها واستمرارها9، ولكنه في الآن نفسه عامل سلبي يؤدي إلى انهيارها ونهايتها10.

إن أهم ما يميز هذا النمط، في نظر هؤلاء، يكمن في تكريس الدولة اهتمامها للتوسع والفتوح، وجنوحها نحو الحرب والجهاد،11 لما يضمنه من مداخيل هامة و«جاهزة» تتمثل في المغانم، سواء الطبيعية كالسهول الخصبة، والمراعي التي تنتزعها «بالقوة» ممن تعتبرهم في الغالب كفاراً، أو مادية صرفة، من أموال وماشية وأسلاب، فضلا عن الجزية والفيء والخراج والعشور وغيرها.12 إلى جانب المصادرات التي كان الأمير يلجأ إليها بالقوة، وتطول الأراضي والأموال على حد سواء.13

ولعل ما يوضح ذلك أيضا، أن هذا الاقتصاد القائم على الغزو هو أسلوب في الإنتاج خاص بالبدو الرحل،14 أو«الأمم الوحشية الساكنين بالقفر»،15 الذين جعلوا «أرزاقهم في رماحهم، ومعاشهم فيما بأيدي غيرهم»16؛ فهؤلاء البدو الذين اضطرتهم قحولة أراضيهم وجدبها إلى اعتبار الحرب وسيلة للكسب للحصول على ما يحفظون به بقاءهم،17 هم الذين أسسوا دول المرحلة الوسيطية،18 وهذا النوع من «الكسب» الذي تختص به مرحلة «خشونة البداوة» تبقى معالمه الأساسية قائمة حتى في فترة «رقة الحضارة» حين تتمكن إحدى هذه القبائل الغازية من إقامة الملك وتأسيس الدولة؛ حيث تظل الحرب جزءاً من كينونتها،19 ويصبح بقاؤها واستمرارها مرتبطا بهذه الظاهرة، وما تدره عليها من خيرات «جاهزة».20

على أن أهم ما يميز هذا التوجه للدولة –خاصة في «طور الازدهار»– هو أن الأموال المتحصلة بواسطة الحرب، يصرف قسط منها لتهيئ المعارك، وقسط آخر أثناءها.21 أما القسط الآخر الهام فهو الذي يذهب في تمويل عوائد الترف والبذخ التي تنمو مع الدولة واتجاهها نحو الهرم.22 وهو ما يعني أن الثروة المحصلة من الحروب والغزوات لم تكن توظف في مشاريع استثمارية، ولا ثروة قابلة للنمو لأنها لم تنتج عن صراع مع الطبيعة أو نتيجة استغلالها، بل هي ثروة ناتجة في الغالب عن الاستيلاء على الخيرات الجاهزة.23

يختصر أحد الباحثين24 موقع الجيش ضمن هذه السيرورة في اعتبار الجيش مصدر قوة الدولة عند بدايتها، لكنه سرعان ما يتحول إلى عالة عليها خلال فترة الاستقرار، وفي المراحل المتأخرة من حياتها. فإبان فترة الاستقرار يتحول الجيش إلى مستهلك، لأن مهامه

Scanned by CamScanner

الحربية تجعله يتعالى عن المنتجين المباشرين، أما خلال فترة الأزمة فإنه يتحول إلى عدوهم الأساس؛ ذلك أن وظيفة الجباية تتحول من أيدي الجباة المدنيين إلى أيدي القادة العسكريين، فيتضخم بذلك دورهم، وتتحول المؤسسة العسكرية إلى دولة داخل الدولة.[25]

يعزو هؤلاء الباحثون إذن الدور السلبي للحرب على الدولة واقتصادها، إلى عادات الملوك والسلاطين في تبديد الأموال في عوائد الترف،[26] وفي جزء آخر إلى ما يحتاجه الجيش من عطاء مقابل قيامه بأدواره،[27] وكلما تضخم الجيش تضخمت متطلباته، فتستنزف هذه «المرحلة الوسط» مداخيل الموارد الحربية وسرعان ما تنضب،[28] فتلجأ الدولة لتعويضها إلى وسيلة أخرى، هي ما عبر عنها إبراهيم القادري بوتشيش[29] بـ«ضرائب الحرب» التي تفرضها الدولة على الرعية، لإنفاقها في متطلبات البذخ والترف، وفي التزاماتها العسكرية لتحافظ على بقائها واستمرارها.[30] وهكذا فكلما تضخم الجيش وتضخمت متطلباته، وارتفعت معها وسائل تبذير الأموال في البذخ والكماليات، تزايدت معها بشكل مواز وتيرة الطلب على الحروب والجبايات.[31] ويصل الأمر إلى مداه في مرحلة الانهيار، حين تقل حروب الدولة التوسعية، وينحصر مداها في حروب دفاعية مكلفة تستنزف كل الثروات، وتعجل بالزيادة في الجباية مما يؤدي في النهاية إلى فناء الدولة ونهايتها.[32]

مجمل القول إن «دولة المغازي» التي أفرزها «اقتصاد المغازي»، هي دولة عسكرية تستمد وجودها من الحروب والمعارك لما تدره عليها من أموال وثروات.[33] لكن هذه الأخيرة هي في حقيقتها ثروات جاهزة غير طبيعية، لذا فإن تبذيرها في البذخ والترف، وفي المشاريع العسكرية، ومتطلبات الجيش، يعجل بنضوبها،[34] فتلجأ الدولة إلى «ضرائب الحرب» لتعويض تقلص مواردها، وتدبير الحروب التي تصبح مكلفة لها مستهلكة، فتنفق أموال الضرائب في البذخ والترف وفي متطلبات الجيش إلى أن يقل الدخل عن الخرج فتنتهي الدولة وتنهار. إنها دورة فارغة، وحلقة دائرية فارغة في تدبير مالية الدولة،[35] لأنها أموال «جاهزة» لم تنتج عن صراع مع الطبيعة، تجمع لتستهلك لا لتستثمر. لذا فهذا النمط من الاقتصاد هو اقتصاد «رخو» مرتبط بالدولة، وقوته أو ضعفه من قوة الدولة أو ضعفها.[36]

هذه إذن، أبرز الآراء التي دافع عنها هؤلاء الباحثون، وكلها تجمع على الدور الهام والأساس للحرب في بنية الدولة المغربية ومسارها خلال العصر الوسيط. ولعل أبرز ما يمكن

Scanned by CamScanner

ملاحظته حولها هو اعتمادها على ابن خلدون الذي عبر عن مختلف هذه الآراء بشكل متفرق في مقدمته. بقي بعد ذلك أن نسائل مادتنا عن هذا الدور بالنسبة للدولة المرينية.

المبحث الأول: الدولة المرينية والحرب: المقوم البشري (الجند)

نتفق مع بعض الباحثين[37] في أن الدولة تنشأ عندما تقوم جماعة من الأشخاص بتنظيم حمايتها الخاصة؛ ذلك أن تنظيم التجارة أو الإشراف على تصريف المياه، أو الشعور بالانتماء المشترك، لا يمكن أن يتم في غياب حماية للدولة. من أجل ذلك كانت الحرب دائما رمزا لوجودها، وكان الجيش هو الجهاز الأساس في نشأتها واستمرارها.[38] فالأدبيات الإسلامية في مجال السياسة، تجمع على القول إن الركنين الأساسيين والضروريين لبناء الدولة والحفاظ عليها هما: الجند والمال.[39] وعبارات «الملك بالجند والجند بالمال»،[40] أو «الملك بناء، والجند أساسه، فإذا قوي الأساس دام البناء»،[41] تتكرر في تلك الأدبيات لترسخ بديهية جوهرية في الفكر السياسي الإسلامي، مفادها أن أساس الدولة وبقاءها مرتبط أشد الارتباط بقوة الجيش. أما عبارات «العمارة» و«العدل» و«الإحسان»،[42] فما هي إلا أمور تتعلق بنوع الملك والدولة وليس بأساسه.[43]

ولدينا من القرائن ما يثبت أهمية الجيش في بناء أركان الدولة المرينية؛ ففي رسالة موجهة إلى الأمير المريني أبي فارس عبد العزيز نقرأ ما يلي: «ولما كان الأمر كذلك، وجب على (...) [السلطان] اتخاذ الأجناد والجيوش وترتيبهم في الديوان».[44]

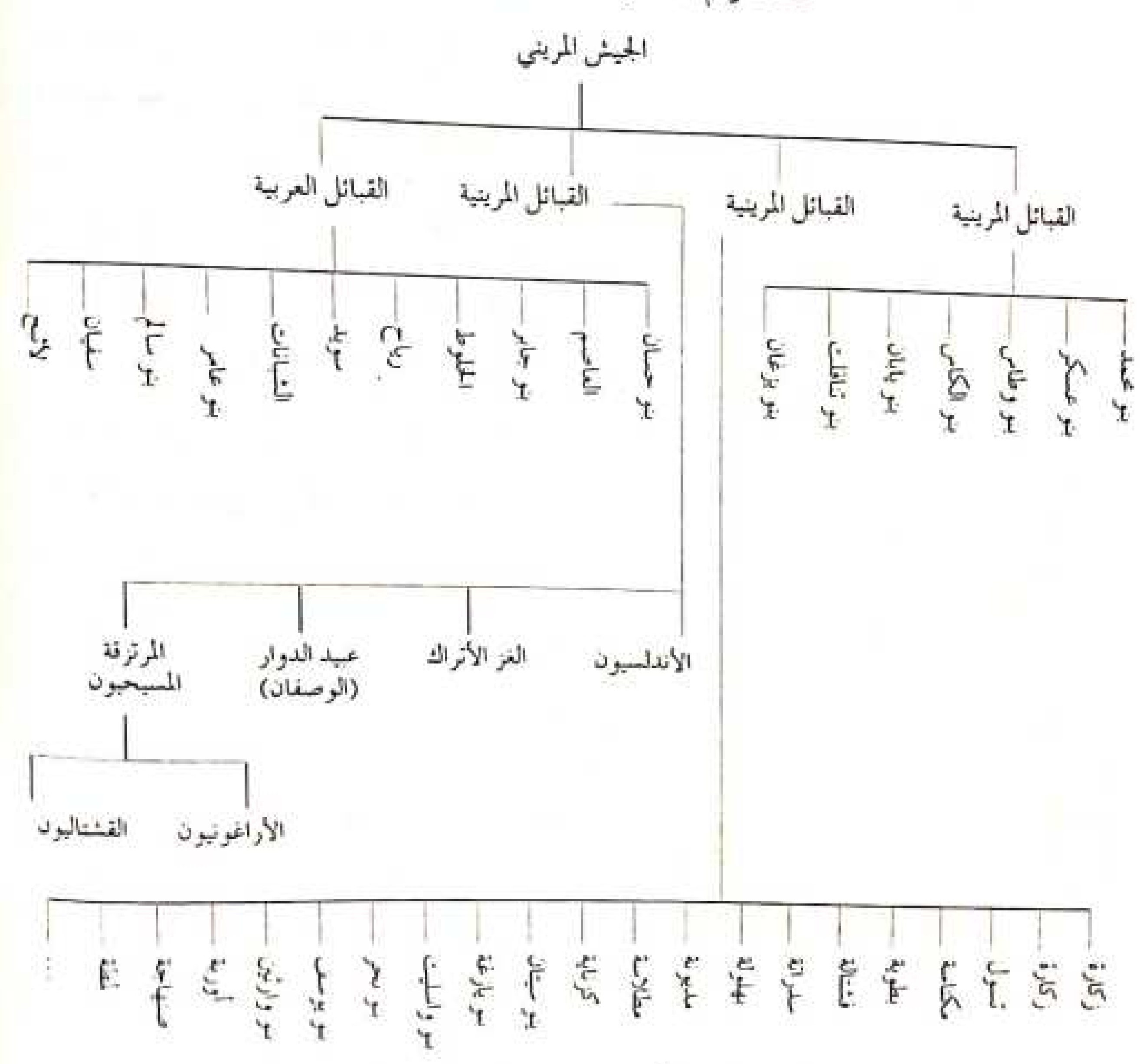
فالدولة المرينية التي استخلصت ملك المغرب بسيفها،[45] لم يتأت لها ذلك إلا بعد أن أمر أميرها «كل واحد من الأشياخ أن يركب الرجال، ويستكثر من الفرسان للقتال».[46] كما أنه لم «يتخذ الطبول والبنود»[47] إلا بعد «أن استكثر الأتباع والحشود».[48] وغير خفي، أن الإلمام بالدور الذي اضطلعت به الحرب بالنسبة للدولة المرينية، لن يتأتى إلا بمحاولة الإحاطة بشؤون التجييش والتجنيد والحشد والاستنفار، أي بطبيعة الجيش ومكوناته، وهو ما سنحاول الوقوف عنده وفقا لما تقدمه المادة المصدرية المتاحة من إمكانات بالرغم من قلتها.

إن أول ملاحظة ينبغي استحضارها بالنسبة للعناصر المكونة للجيش المريني هي ذلك الشكل الفسيفسائي الذي ميزه،[49] وهو ما فسره أحد الدارسين[50] بطبيعة النظام السياسي الذي أرساه المرينيون؛ فقد بدا واضحا أن هؤلاء أسسوا نظاماً في ممارسة الحكم يرتكز على تعدد المساهمين في الغلبة، وتعدد المستفيدين منه. وعلى الرغم من أهمية هذا التفسير، فإننا

Scanned by CamScanner

نعتقد أن المرينيين قد ورثوا هذه الفسيفساء من الدولة الموحدية المنقرضة.[51] كما لا يغيب عن الذهن أن هؤلاء كانوا يعكسون الرؤية الخلدونية القائلة بأن الأمم القادرة «على التغلب والاستبداد (...) واستعباد الطوائف، لقدرتهم على محاربة الأمم سواهم (...) فلهذا لا يقتصرون على ملكة قطرهم وما جاورهم من البلاد، ولا يقفون عند حدود أفقهم، بل يطفرون إلى الأقاليم البعيدة، ويتغلبون على الأمم النائية». لذلك كان التعدد الإثني وتنوعه أهم خاصية ميزتها. ويمكن القول إجمالا إن الجيش المريني تشكل أساساً من العنصر الداخلي، ثم المرتزقة الأجانب.

خطاطة رقم 3: المكونات الأساسية للجيش المريني



مصادر ومراجع الخطاطة: العمري: «مسالك الأبصار»، ص: 109، 110، 111. ابن خلدون: «العبر»، ج. 7، ص: 273. ابن أبي زرع: «الذخيرة السنية»، ص: 63. الناصري: «الاستقصا»، ج. 3، ص: 31–32. المنوني: «ورقات»، ص: 99–100–101.

Scanned by CamScanner

أولا: العنصر الداخلي

من الطبيعي أن تمثل القبيلة قاعدة الجيش، ومستودعاً للجنود والمحاربين؛ فمنها تتشكل النواة العسكرية الأولى التي تعتمد عليها القبيلة المتزعمة لتمهيد طريقها إلى الحكم،[53] ومنها يستمد الجيش النظامي جنوده إما ارتباطاً بالعصبية التي توطرها المصلحة المشتركة الرابطة بين القبائل والدولة، أو بالطاعة التي تقدمها القبيلة المغلوبة للغالبة، والتي تقتضي المساهمة بحصة من رجالها في حروب الدولة الجديدة، أو عن طريق الحلف والمصاهرة وغيرها، والتي تعني المساهمة في حروب الدولة شريطة أن يكون لها ضلع في غنائمها.[54]

1. القبائل المرينية والزناتية

شكلت الحشود المرينية الأولى التي تسربت إلى المغرب الأقصى بزعامة عبد الحق بن محيو، وغيرها من القبائل الزناتية الموطنة في صحراء المغرب الأقصى الشرقية،[55] والتي اندمجت تحت غلبة فرع بني حمامة من بني مرين قاعدة الجيش المريني ونواته العسكرية الأولى، التي حققت الغلبة المرينية على قبائل المغرب الأقصى، وعلى الحكم الموحدي المتآكل منذ هزيمة العقاب سنة 609هـ/1212م.

تذكر النصوص أنه بعد الهزيمة الأولى للجيش الموحدي أمام الحشود المرينية عام 613هـ/1216م، مضى «بهم أميرهم أبو سعيد عثمان بن عبد الحق في نواحي المغرب يتقرى مسالكه وشعوبه، ويضع المغارم على أهله حتى دخل أكثرهم في طاعته».[56] وأنه بعد سلسلة من الانتصارات التي حققتها هذه القبائل إلى حدود سنة 642هـ/1244م، بعد تولية أبي بكر بن عبد الحق الإمارة عليها «كان من أول ما ذهب إليه ورآه من النظر لقومه، أن قسم بلاد المغرب وقبائل جبايته بين عشائر بني مرين، وأنزل كلا منها في ناحية تسوغها سائر الأيام طعمة»،[57] في إطار قاعدة «المساهمة والمشاركة» في استفادة من تلك الانتصارات.

استمرت هذه القبائل تمثل دعامة الجيش المريني طيلة فترة التمهيد، أي إلى حدود سنة 668هـ/1269م وهي السنة التي غلب فيها «يعقوب بن عبد الحق الموحدين على دار خلافتهم، وأطاعته طنجة وعامة بلاد المغرب»،[58] وكذلك خلال مرحلة «القوة» و«الاستقرار» التي استمرت إلى حدود وفاة السلطان أبي عنان عام 759هـ/1357م،[59] سواء في حروب الدولة ضداً على القبائل المتمردة، أو في إطار صراعها المستميت ضداً على بني عبد الوادي، أو في غزواتها إلى الأندلس، أو إفريقية.[60] إلا أن ذلك لم يمنع من حدوث

Scanned by CamScanner

انسحابات وانشقاقات وتغريب، كلما حصل خلل في القاعدة التي أطرت الحضور المكثف لهذه القبائل، أي المساهمة مقابل المشاركة.

ومن الأمثلة على ذلك، أن بني عسكر خالفوا بني عصبيتهم منذ البدايات الأولى، بسبب استئثار بني حمامة بإتاوة مكناسة دونهم،[61] فضلا عما كان بينها من منافسة على الرياسة والإمارة، وهو ما يؤكده ابن خلدون[62] بقوله: «اختلفت بنو محمد ورؤسائهم، وانتبذ عنهم من عشائرهم بنو عسكر بن محمد لمنافسة وجدوها في أنفسهم من استقلال بني عمهم حمامة بالرياسة دونهم». وإذا كان بنو عسكر قد أذعنوا بعد ذلك لطاعة بني عمومتهم نتيجة هزيمة عرب الخلط الذين تحالفوا معهم،[63] فقد تجدد هذا النزاع مرة أخرى سنة 638هـ/1240م.[64] ولعل ذلك كان السبب الذي جعل أحد السلاطين المرينيين يعمدون إلى إبعادهم إلى هوامش مملكتهم؛ فعندما نزل يوسف بن يعقوب على وجدة سنة 696هـ/1296م «أمر ببنائها (...) ونقل إليها قبيل بني عسكر (...) ورجع إلى مدينة فاس».[65]

وفي الاتجاه ذاته، ونتيجة لمنافسة بعض بني عمومة يعقوب بن عبد الحق وتمردهم عليه، عمل على استبعادهم إلى الأندلس بدعوى الجهاد والمرابطة؛ فـ«استنزلهم واسترضاهم، وعقد لعامر بن إدريس سنة ستين [وستمائة /1261م] على عسكر من ثلاثة آلاف فارس، أو يزيدون (...) أغزاهم العدوة لجهاد العدو، وحملهم وفرض لهم».[66]

من جانب آخر، كانت الحملات المرينية في اتجاه المغرب الأوسط وإفريقية واستخدام الدولة للعناصر المرينية بقوة في هذه الحملات، مع تقليل في النفقات -كما سنبين- وراء تذمر شيوخ هذه القبائل،[67] بل كانت سببا في بعض الهزائم التي تعرض لها الجيش، كما هو الحال في حملة أبي الحسن المريني إلى إفريقية إذ انفضت عنه جنوده بما فيهم بنو مرين، والتحاقهم بأبي عنان ومبايعته ضداً على أبيه،[68] وكما هو الحال في بعض حملات هذا الأخير أيضا.[69]

2. القبائل العربية

ضم الجيش المريني إضافة إلى هذه القبائل المرينية مجموعة من القبائل العربية[70] التي أصبحت خلال هذه المرحلة عنصراً أساسيا في معادلة القوة والضعف بالنسبة للجيش السلطاني، أو في علاقة السلطة بالمجتمع؛ فقد اندمجت هذه القبائل في إطار التحالفات التي

Scanned by CamScanner

ميزت المرحلة بين القبائل والدولة، أو بينها وبين غيرها من القبائل أو بعض المتنزين، إلا أن حضورها في الجيش المريني يشكل إحدى أهم مميزات هذه المرحلة، فقد كونت هذه القبائل -إلى جانب القبائل المرينية- دعامة هذا الجيش،[71] كما كان اشتغالها مرتبطا بما تقدمه الدولة لها من امتيازات.[72]

لقد حق لأحد الباحثين[73] أن يعتبر أن الحكم المريني قام على أساس تعدد المشاركين في الغلبة العسكرية وتعدد المستفيدين منه؛ فالقبائل العربية لم تكن في هذه المرحلة سوى صنيعة الدولة وشريكتها في الغلبة العسكرية، وفي الاستفادة من غنائمها، فقد «انتظمتها الدولة في أوليائها تستظهر بها على ما يعن من مقاصدها».[74] وإذا كان هذا النص يعمم الحديث عن القبائل التي لم تتمكن من تحقيق الملك والدولة، فاكتفت بمظاهرة أصحابها، وشاركت «أهل النعيم والخصب في نعمتهم وخصبهم، وضربت معهم في ذلك بسهم وحصة بمقدار غلبها واستظهار الدولة بها»،[75] فإن القبائل العربية في هذه المرحلة لم تكن سوى نسخة مطابقة لمثل هذا النوع من القبائل.

ولا تعوزنا الدلائل التي تثبت هذا الاستنتاج؛ ففضلا عن النصوص التي تكشف عن ذلك الجمع شبه الدائم لـ«قبائل بني مرين والعرب» في مجمل تحركات الجيش المريني، وفي مختلف الخطابات الرسمية، والمراسلات السلطانية، بقصد تنفيذ أمر ما، خاصة في حالة الحشد والاستنفار،[76] تتحدث نصوص أخرى عن أهمية إعلان العرب- على غرار القبائل المرينية- بيعتهم لأي سلطان أثناء استلامه مقاليد الحكم، لدرجة يمكن القول فيها إن إقرار أمير ما في كرسي الإمارة واستمراره فيه، مرتبط ببيعة هذين الطرفين، أي بني مرين والعرب[77]؛ فبيعة يوسف بن يعقوب لم تتخذ طابع الإجماع إلا بعد أن «جاز إلى الجزيرة وبها جميع قبائل مرين وقبائل العرب فجددت له البيعة بها، واجتمع على بيعته كافة قبائل مرين وقبائل العرب».[78]

ومما يثبت ذلك أيضا، قصيدة نظمها أبو فارس عبد العزيز الملزوزي[79] (ت.697هـ/1297م)، وأنشدها بين يدي يعقوب بن عبد الحق امتدح فيها، بعد السلطان وقبائل بني مرين، قبائل العرب على اختلافها، مبرراً هذا الجمع بين بني مرين وهذه القبائل بوحدة النسب أولا،[80] ولدورهم الأساس في جيش السلطان وانتصاراته ثانيا.[81] وعموماً، فقد كانت القبائل العربية خلال هذه المرحلة شريكاً أساسيا للعصبية الحاكمة التي حاولت تأكيد ذلك بعقد مصاهرات بينها لتوثيق عرى هذه التحالفات.[82]

Scanned by CamScanner

ارتبط أول حضور للعرب في الجيش المريني بالحلف الذي بدأت تظهر ملامحه بين بني مرين وعرب رياح بعد هزيمة هذه الأخيرة أمام الحشود المرينية سنة 614هـ/1217م، فقد استكانوا بعد ذلك «لعز بني مرين وصولتهم، واعطوهم صفقة الطاعة وأصهر بنو مرين إلى الخلط في بنت مهلهل، فكان في جملة مرين، وكانت لهم الجولة للملك».[83] وابتداء من ولاية أبي معرف محمد بن عبد الحق (638–642هـ/1240–1244م) بدأت مجموعة من القبائل العربية تلتحق بالجيش المريني، الذي نجح في استمالة عرب سفيان سنة 638هـ/1240م برئاسة زعيمهم جرمون بن رياح،[84] كما التحق بنو جابر بجيش يعقوب بن عبد الحق سنة 660هـ/1261م، برئاسة عيسى بن علي شيخ عرب الخلط.[85]

وباقتحام المرينيين لمدينة مراكش، والقضاء على آخر الأمراء الموحدين، أضحت معظم القبائل العربية تقدم خدماتها العسكرية للدولة الجديدة، وأصبحت خزانها في تطعيم جيشها بالمحاربين[86]؛ ففي أول حملات يعقوب بن عبد الحق في اتجاه تلمسان (670هـ/1271م)، خرجت معه «أمداد العرب من قبائل جشم من أهل تامسنا الذين هم سفيان والخلط والعاصم وبنو جابر ومن معهم من الأثبج، وقبائل ذوي حسان والشبانات من معقل أهل السوس الأقصى، وقبائل رياح أهل أزغار وبلاد الهبط».[87] وفي حملته الأولى على الأندلس سنة 674هـ/1275م «كتب إلى أشياخ مرين (...) وجميع قبائل العرب يستنفرهم إلى الجهاد»،[88] وقد تكرر الأمر في غزواته الأربع إلى الأندلس، وفي فترة قصيرة من حكم ابنه يوسف،[89] كما قامت هذه القبائل بأدوار هامة في غزوات الدولة بالأندلس.[90] ويكشف الملزوري[91] عن أسماء القبائل العربية المشاركة ومساهمتها في الانتصارات التي حققتها الدولة، مما يعكس موقع هذه القبائل في الجيش المريني، ودورها في إغنائه ودعمه.

استمر تحرك الدولة بهذه القبائل في اتجاه تلمسان وتونس الحفصية،[92] بل نجحت في استمالة قبائل عربية أخرى واصطناعها، خاصة من المغرب الأوسط، حيث استقدم أبو سعيد قبائل سويد زعماء زغبة وأحلاف بني عبد الواد إلى خدمته.[93] كما استتبع أبو الحسن كثيراً من قبائل المغرب الأوسط العربية، بعد اقتحامه تلمسان وزوال حكم بني عبد الواد منها لمدة من الزمن،[94] واستلحقها بجيشه في اتجاه تونس،[95] والحال نفسه أيضا بالنسبة لفترة السلطان أبي عنان[96] (749–759هـ/1348–1357م).

Scanned by CamScanner

وإذا كانت معظم النصوص تكشف عن أهمية دور القبائل العربية في الجيش المريني بوصفها صنيعة للدولة وحليفة لها في حروبها، فإنه لا يجب أن يغرب عن بالنا ما عرف أيضا عن هذه المرحلة من كثرة تمردات هذه القبائل، وخروجها عن طاعة المرينيين،[97] فقد كان على معظم السلاطين أن يتحركوا في اتجاه مناطق هذه القبائل «لغزو العرب وكف عاديتهم، ومحو آثار الخوارج المنتزين على الدولة».[98] خاصة في الفترة التي أعقبت وفاة أبي عنان (ت. 759هـ/1357م).

لقد كان على الدولة أن تواجه محاولات هذه القبائل الرامية إلى الاستقلال بمناطقها، أو مساندة بعض المنتزين، أو مظاهرة أعدائها بني عبد الوادي. من أجل ذلك لم تكل الدولة عن مواجهتها، سواء تعلق الأمر برياح ببلاد الهبط في المنطقة الممتدة من قصور كتامة إلى ساحل المحيط، أو الأثبج وبطونها من جشم وسفيان والخلط وبني جابر والعاصم ببلاد تامسنا، أو عرب المعقل وبطونهم ذوي حسان وذوي منصور وذوي عبد الله في المنطقة الممتدة جنوبا إلى وادي السوس ودرعة وسجلماسة.[99]

3. القبائل الخاضعة لبني مرين

علاوة على القبائل المرينية والعربية ضم الجيش المريني مجموعة من القبائل التي أجبرتها الغلبة المرينية على الخضوع وأداء الإتاوة،[100] والتي تقتضي من بين ما تقتضيه الإسهام بحصة من رجالها في جيش الدولة.[101] والظاهر أن هذه القبائل شكلت عنصراً حاضراً في معظم معارك المرينيين، خاصة خلال فترة التمهيد والاستقرار، على أن النصوص التي تكشف عن هذا الحضور قليلة، وكثيراً ما ترد في عبارات مثل «الجموع» و«الحشود» و«القبائل»،[102] لكنها تؤكد استمرار حضور هذا العنصر باعتباره رافداً أساسيا من روافد الجيش المريني.

ومن النصوص التي تثبت هذا الحضور، ما يذكره ابن أبي زرع[103] عن يعقوب بن عبد الحق الذي عزم على الاتجاه نحو تلمسان، بعد فتح مراكش، فـ«بعث ولده الأمير عبد الواحد إلى مراكش يحشد من بها من قبائل العرب وبني مرين والمصامدة وبني ورى وغمارة وصنهاجة». أو عن حملته الأولى إلى الأندلس، والتي شاركت فيها «قبائل أهل المغرب من المصامدة وجزولة وصنهاجة وغمارة وجاناتة».[104] كما يكشف أحد المؤرخين[105] عن عدد أفراد تلك القبائل في الحملة الرابعة ليعقوب المريني سنة

Scanned by CamScanner

684هـ/1285م إذ «ميزت قبائل المتطوعة من المصامدة في ذلك اليوم في ثلاثة عشر ألف رجل، وميزت قبائل المغرب من أوربة وغمارة وصنهاجة ومكناسة وصدراتة ولمطة وبني وارثين وبني يازغة، وغيرهم في ثمانية آلاف رجل».

وفضلا عن استعمالها في الحملات الكبرى، جند أفراد هذه القبائل في شكل جيوش جهوية يستخدمها السلطان في مواجهة بعض المناطق القريبة منها؛ فعندما تمرد أشياخ مدينة فاس على أبي بكر بن عبد الحق سنة 648هـ/1250م، «جلب أهل مكناسة والقبائل إلى قتالها».[106] وإبان استيلاء أبي سعيد بن الأحمر على سبتة، «بعث [أبو يعقوب يوسف] ولده الأمير إبراهيم في جيش عظيم إلى حصارها، وحشد إليها جميع قبائل الريف وبلاد تازة».[107] كما أنه أثناء تمرد «الأمير عثمان بن يوسف الهسكوري بقلعة فندلاوة من جبال بني يازغة، أمر أمير المسلمين يوسف قبائل بني عسكر، ومن بتلك الجهات من قبائل البربر من سدراتة وبني وارثين وبني يازغين وبني سيتان، وغيرهم بحصاره وقتاله».[108]

عموماً، فإن هذه النصوص وإن كانت نادرة، تكشف عن أسماء كثير من القبائل المغلوبة على أمرها، والتي أصبحت نتيجة للغلبة المرينية تسهم بعدد من رجالها في حروبها. وإذا كنا قد اكتفينا ببعض النماذج، فإن عبارة العمري في مسالكه، في اعتقادنا، جامعة لمعظم هذه الأفكار، حين يقول إنه كان بإمكان أي سلطان مريني «إذا استجاش لحرب أن يخرج في جموع كثيرة جداً لا تنحصر بعدد».[109]

ثانيا: المرتزقة الأجانب

تشكل الجيش المريني، إضافة إلى العنصر القبلي الداخلي، من مجموعة هامة من المرتزقة الأجانب الذين أسهموا بدورهم في الغلبة العسكرية المرينية، وفي دعم الدولة واستمرارها. ولعله من نافلة القول أن الحضور المسيحي في الجيش المغربي ليس بدعة هذا العصر، بقدر ما هو استمرار لموروث تاريخي تعود أصوله إلى فترة حكم الأمير المرابطي علي بن يوسف الذي استعمل عدداً من جند الروم في حروبه، وفي جباية الضرائب.[110] كما استخدمتهم الدولة الموحدية للأغراض نفسها،[111] على الرغم مما أثاره ذلك من تصدع في مصداقية هذه الدولة التي أسست «خطابها السياسي» على الجهاد ومحاربة الكفار والبدع.[112]

لم يكن إذاً غريبا أن تحتضن الدولة المرينية، التي قامت على أنقاض الميراث التاريخي للدول التي سبقتها، هذه العناصر المرتزقة في جيشها منذ فترة مبكرة، خاصة أنها كانت

Scanned by CamScanner

حركة منفعية بالأساس،[113] اعتمدت الحرب لتحقيق أهدافها دون أن تتقمص أي مشروع إصلاحي قد يتعارض مع وجود مثل هذه الفرق في جيشها، فضلا عن أن الارتزاق خلال هذا العصر أصبح –على حد تعبير أحد الدارسين[114]– ظاهرة عادية كإحدى نتائج التوازن بين الدول الإسلامية والدول المسيحية غرب المتوسط، إذ المرتزق يتاجر بمهنة يتقن أسرارها، فيضعها رهن إشارة من يؤدي عنها الثمن المطلوب دون أن يلتفت إلى هويته الدينية.

ولعله من المفيد، الإشارة إلى أنه علاوة عن تلك الكتائب المسيحية التي فضلت الالتحاق بالمرينيين، نتيجة لتآكل الحكم الموحدي، وعجزه عن توفير رواتب قارة لهم،[115] فـ«صارت في جملة عساكرهم»،[116] ثمة حالات من المرتزقة النصارى الذين وصلوا إلى المغرب لخدمة سلطانه بسبب توتر بينهم وبين أولياء نعمتهم، كما هو حال ألفونسو ذي قزمان الذي ساءت علاقته مع ألفونسو العاشر ملك قشتالة، فسارع إلى عرض خدماته على السلطان يعقوب بن عبد الحق، والتحق بالجيش المريني صحبة خمسين من أصدقائه، وعشرة من خدمه.[117] كما شكلت المعاهدات[118] التي وقعها بعض السلاطين المرينيين مع الجانب المسيحي أهم قناة عبر من خلالها المرتزقة المسيحيون إلى الجيش المغربي، إذ نصت بعض بنودها على تبادل المرتزقة بين الطرفين.[119]

كان من الطبيعي أن يكون حضور المرتزق المسيحي، إلى جانب العنصر القبلي، في الجيش المريني مرتبطا بالبدايات الأولى لهذه الدولة، خاصة وأنها تمثل نموذجا واضحاً للدول العسكرية التي لم تجهد نفسها في تبرير حروبها بمشروع إصلاحي ديني؛ فالمصادر تذكر أن عثمان بن عبد الحق «اغتاله علج كان له رباه صغيراً».[120] لكن النصوص المتوفرة تجعل من اقتحام أبي بكر المريني لمدينة فاس سنة 646هـ/1248م أول ظهور للمرتزقة المسيحيين بالجيش المريني؛ فعندما استولى أبو بكر على المدينة وولى عليها السعود، «استبقى من كان فيها من عسكر الموحدين من غير عيصهم في السبيل التي كانوا عليها من الخدمة، وكان فيهم طائفة من الروم، استخدمهم إلى نظر قائدهم، وكانوا من حصة السعود هنالك»،[121] علما أن هؤلاء قد أسهموا في تمرد أشياخ المدينة على أبي بكر وقتل مولاه السعود،[122] وما أعقب الاقتحام المريني الثاني للمدينة من عقاب طال كل من ساند هذا التمرد.[123] أما الذي لا نعلمه فهو حظ هؤلاء الجند المسيحيين من هذا العقاب.

وفي كل الأحوال، ليس من المستبعد أن تلتحق معظم الفرق المسيحية التي كانت في خدمة الجيش الموحدي بالجيش المريني مع تلاحق هزائم الموحدين؛ فمباشرة بعد هزيمة

Scanned by CamScanner

السعيد الموحدي ومقتله بتلمسان، وتراجع جيشه مفلولا إلى المغرب، اغتنم أبو بكر المريني الفرصة فاعترض طريق هذه الفلول واستمال «إليه كتيبة من الفرنج والناشبة من الأغزاز».[124] كما يذكر ابن عذاري[125] أن الروم الذين كانوا ضمن جيش المرتضى عندما تحرك لحرب بني مرين سنة 649هـ/1251م، قد خذلوا صاحبهم وتخلوا عنه. وبالمثل تتحدث نصوص أخرى أنه بعد مبايعة أشياخ المرينيين ليعقوب بن عبد الحق خالف عليه ابن أخيه عمر، الذي خرج لقتاله «في جيش من الروم والحشم والأغزاز والعبيد والأجناد (...)»،[126] مما يعني انضمام هذه الفرق لجيش الدولة.

والظاهر أنه بعد اقتحام المرينيين لمدينة مراكش أضحى وجود المرتزقة المسيحيين في المغرب الأقصى مرتبطا بالخدمات التي يقدمونها للسلطان المريني، وإن كانت الخدمة العسكرية تعني في المقام الأول اقتضاء الجباية،[127] فالمرتزق القشتالي «بريز دي قزمان» كلف بجباية الضرائب، وكان يقتسم مداخليها مع أبي يوسف يعقوب مما ضاعف من نفوذه.[128]

وبالمثل كان حضور الكتائب المسيحية واضحاً في معظم الحملات التي نظمها السلاطين المرينيون؛ ففي حملة يعقوب بن عبد الحق على تلمسان سنة 670هـ/1271م، كان ممن استجاش به «حامية الأمصار من جند الروم وناشبة الغزو، فاستكثر أعدادهم واستوفى حشدهم».[129] وعندما استولى بنو الأحمر على مدينة سبتة، استعان أبو الربيع سليمان بالفيلق المسيحي–الذي التحق بخدمته طبقا للاتفاقية 709هـ/1309م التي وقعها مع خايمي الثاني ملك أراغون– لاسترجاع المدينة.[130] بل إن هذا الفيلق ظل يقدم خدماته لسلاطين بني مرين بعد ذلك، دليلنا في هذا رسالة أرسلها الملك الأراغوني لأبي سعيد عثمان يحتج فيها على عدم الالتزام بعودة الفيلق المسيحي إلى بلاده بعد استرجاع سبتة.[131]

ويبدو أن فترة حكم السلطانين أبي الحسن وأبي عنان قد مثلت ذروة المساهمة المسيحية في الجيش المريني[132]؛ فقد شكل الروم فرقة هامة ضمن الحشود التي تحرك بها أبو الحسن في اتجاه تلمسان، وساهمت بشكل كبير في تغطية انسحابه بعد الهزيمة أمام أعراب إفريقية، وهو ما يصفه الكفيف الزرهوني[133] بقوله:

هذا وكثير من بني مرين فقرا	فرس مهزوم، وصاحب جيعان
قل لي الصح من ينوح ومن يقرا	فوق ذا الميت، ومن يسوق الأكفان
حتى ما حماه سوى بنيه والرومي	عقد خلف بألف نصراني.

Scanned by CamScanner

ويبدو أن مساهمة الكتائب المسيحية في الجيش كانت أكثر قوة زمن أبي عنان؛ يذكر ابن الحاج النميري[134] في وصفه لحملة أبي عنان إلى إفريقية – رغم ما يبدو على هذا الوصف من مبالغة – أن فيالقهم كانت «تهد الأرض هداً وتسد الأفق إذا تنمرت خلقا وقداً (...)، زرق العيون (...)، امتطوا الخيول الموسومة أمثال الجبال»، مما يكشف عن موقعها في مجمل مكونات الجيش المريني.

غير أن حضور المرتزقة المسيحيين في الجيش لم يكن إيجابيا في كل الأحوال، بل كان سلبيا في بعضها،[135] وليس ذلك من الأمور المستغربة ما دام أن المرتزق هو في حقيقته محارب يتاجر بمهنته، ويعرضها على من يدفع مقابلا عنها، فإذا تعددت الأطراف الدافعة، لم يتردد في الميل إلى من يدفع أكثر. والحقيقة أن هذا الدور السلبي للفيالق المسيحية لم يبق حكرا على المرحلة التي أعقبت وفاة السلطان أبي عنان، بما ميزها من فوضى واضطراب، بل شمل أيضا فترة استقرار الدولة، إذ تكشف النصوص عن كثير من الحالات التي مالت فيها هذه الفيالق لطرف دون آخر، كلما حدث عارض من العوارض المرتبطة بتمرد، أو خارج عن الطاعة، أو صراع بين أميرين على كرسي الملك.[136]

فأثناء تمرد عثمان بن أبي العلاء على أبي ثابت عامر في حدود سنة 707هـ/1307م ولجوئه إلى جبال غمارة، استتبع فرقا من جند النصارى الذين ساندوه في هذا التمرد.[137] والحال أيضا بالنسبة لعهد أبي الربيع سليمان الذي ثار عليه وزيره رحو بن يعقوب الوطاسي، الذي نجح في استمالة قائد المرتزقة النصارى «كونزالو سانشيث»، وبايعا معاً عبد الحق بن عثمان ببلاد غمارة.[138] وأثناء انتزاء أبي علي عمر بسجلماسة على أبيه أبي سعيد عثمان استتبع أبو علي «طائفة من النصارى المستخدمين بدولتهم، كان قائدهم يمت إليه بخؤولة».[139]

وإذا كانت النصوص لا تسعفنا في تتبع دور هذه الكتائب وفهمها في مغرب ما بعد أبي عنان، فالواضح أن هذا الدور قد ازداد قوة وتأثيرا؛ فمباشرة بعد مقتل أبي عنان ومبايعة أبي سالم، اتفق الوزير عمر بن سعيد الفودودي مع قائد جند النصارى «غرسية بن أنطول» على خلع السلطان أبي سالم المبايع، وتعويضه بتاشفين الموسوس أحد أبناء أبي الحسن، وانتهى الأمر بذبح السلطان المخلوع.[140] وأثناء هذا الحادث «ماج أهل البلد الجديد من الجند بعضهم في بعض، واختطفوا ما وصلوا إليه من العطاء، وانتهبوا ما كان بالمخازن الخارجية من السلع والعدة، وأضرموا النار في بيوتها ستراً على ما ضاع منها».[141]

Scanned by CamScanner

ويبدو أن هذه الأدوار المركبة التي اضطلع بها الجند المسيحي في المغرب المريني، هو ما أدى إلى تذمر العامة أحيانا من هؤلاء المرتزقة، ومن ذلك ما أعقب أحداث خلع أبي سالم، وتولية تاشفين الموسوس من تنكيل بهؤلاء؛ إذ «قتل جند النصارى حيث وجدوا من سكك المدينة، وتزاحف (...) [العامة] إلى الملاح لاستلحام من به من الجند، وركب بني مرين لحماية جندهم من معرة الغوغاء، وانتهب يومئذ الكثير من أموالهم وآنيتهم وأمتعتهم».[142]

عموماً، إن حضور الكتائب المسيحية في الجيش المريني - بالرغم من الموقف الشرعي، الذي يحظر هذا الحضور ويحرمه- قد تميز بالكثافة على امتداد تاريخ الدولة المرينية، من حيث الأدوار العسكرية والسياسية التي اضطلع بتنفيذها، سواء لصالح الجيش أو ضداً عليه.

بقي أن نشير إلى أنه فضلا عن هذه العناصر التي ذكرناها، ضم الجيش المريني عناصر أخرى ارتبط حضورها بالطرق نفسها التي التحقت بها العناصر السابقة، ومنها فرقة الأغزاز الأتراك التي استخدمتها الدولة الموحدية في جيشها، وانتقلت بعد قيام الدولة المرينية إلى خدمتها،[143] وبلغ عددهم في عهد السلطان أبي الحسن حوالي ألف وخمسمائة فارس.[144] ثم فرقة الأندلسيين الذين بلغ تعدادها زمن أبي الحسن «ألفي فارس يرمون بقوس الرجل (...) وطائفة كبيرة يقال لهم الوصفان خاصون بالسلطان يسكنون ويتنزلون في السفر إلى جوانب محلته، دائرين في جملة نواحيه، يقال لهم أهل الدوار».[145]

خلاصة القول إن الطبيعة الحربية للدولة المرينية فرضت نوعا من التعدد والتنوع في مكونات الجيش،[146] وجعلت من العطاء وتوفير النفقات أو عدمها، مفتاحا هاما لإنجاح مشاريعها أو فشلها. كما امتاز حضور مجمل هذه العناصر ومساهمتها الحربية بتبدل الولاء، والتأرجح ما بين تقديم الخدمة العسكرية أو الامتناع عنها حسب قوة الدولة أو ضعفها.

المبحث الثاني: الدولة المرينية والحرب، المقوم المالي

يعتقد بعض الباحثين،[147] أن الوظيفة السياسية للدولة بمغرب «ما قبل الرأسمالية» تتمثل بالأساس في اقتطاع الضرائب واستخدام العنف، وأن هناك تلازما بين هاتين العمليتين، بحيث لا يمكن للدولة أن تتوفر على قوة عسكرية تحارب بها إلا بضمان مصادر تمويلها. وخلال العصر المريني كتب سلطان تلمسان أبو حمو موسى الزياني،[148] «أن المال قوة السلطان، وعمارة المملكة»، فهو «حرز الملك»، به «يستدني القاصي»، و«يخلق الرجال،

Scanned by CamScanner

ويأتي بهم». بل ويجمع بين أهمية الجند والمال بأسلوب جدلي؛ «لأن كل واحد منهما متوقف على صاحبه، مطلوب بمطالبه، فلا مال إلا بجيش، ولا جيش إلا بمال».[149] كما كتب ابن الخطيب في «مقامته في السياسة»،[150] أن السلطان إذا «قل ماله قصرت آماله». أما ابن خلدون[151] – الذي حلل أسلوب اشتغال هذا النوع من الدول– فيجمع هذا كله في قوله إن «مبنى الملك على أساسين لابد منهما، فالأول الشوكة والعصبية، وهو المعبر عنه بالجند، والثاني المال الذي هو قوام أولئك الجند، وإقامة ما يحتاج إليه الملك من الأحوال. والخلل إذا طرق الدولة طرقها في هذين الأساسين».

وإذا كانت كتب الفكر السياسي، التي أنجزت في القرن 8هـ/14م، تتفق على أهمية المال بالنسبة للدولة وبقائها،[152] فقلما نجد فيها من تصور آخر لمصدر هذا المال غير الرعية، ولوسيلة جمعه غير الجباية، إذ «لا مال إلا من جباية».[153] وعلى الرغم من أن هذه الأدبيات في تحديدها لموارد بيت مال الدولة السلطانية تعتبر الغنيمة، وما يتحصل من الحرب والغزو من الأموال، عنصراً أساسياً في هذه الموارد،[154] إلا أنها قليلا ما شكلت بالنسبة لها عنصراً هاماً في فهم «قواعد الملك وما يحتاج إليه الملك في قوام سلطانه».[155] وربما يكون اهتمامها بحال الدولة «بعد التمهيد واستقرار الملك في النصاب، واستحكام الصبغة لأهله»،[156] وقليلا ما تناولت «تأسيس الدول العامة في أولها»،[157] هو مرجع هذا القصور في إلمام مقومات الملك وضبطها.

إلا أن ابن خلدون الذي أخذ على عاتقه مهمة «افتقاد أحوال مبادئ الدول ومراتبها، مفتشا عن أسباب تزاحمها أو تعاقبها»،[158] كشف عن الدور الذي تقوم به الغنيمة، وما تحصل عليه القبيلة «الغازية» من مغلوبها عن طريق إشهار السلاح، أو التهديد به، في تأسيس الدولة واستمراريتها وهرمها أيضا.[159] وذلك في معرض حديثه عن تلك القبائل من «الأمم الوحشية الساكنين بالقفر»،[160] والتي تمثل الحرب مصدراً مهما لعيش أفرادها،[161] «لأنهم جعلوا أرزاقهم في ظلال رماحهم، ومعاشهم فيما بأيدي غيرهم»،[162] فتصبح الحرب نتيجة لذلك وسيلة أساسية لبلوغ الملك وخيراته.[163] وبذلك يكون ابن خلدون قد ربط بين الهدف الذي ينشأ في رحم القبيلة «الغازية» منذ التكوين، أي خلال الطور القبلي، والوسيلة التي توظفها، فخلص إلى مقولته في الربط بين العمل العسكري للقبيلة ووجودها المادي.[164]

Scanned by CamScanner

أولا: الحرب وتمويل ميزانية الدولة

مثلت الحرب وما تدره من أموال وغنائم مصدراً هاما من مصادر الثروة خلال الفترة مدار الدرس، ومورداً أساسيا من موارد بيت مال الدولة السلطانية.[165] والدولة المرينية التي لم تكن في أصلها سوى قبيلة من تلك «الأمم الوحشية الساكنين بالقفر» كما أثبتنا من قبل، والتي يقضي أفرادها «حياتهم كلها حتى الموت في الصيد، واختطاف جمال أعدائهم»،[166] و«لا يعرفون الحرث ولا التجارات، ولا يشتغلون بغير الصيد والغارات»،[167] لأن العادة «ابتغاؤهم الرزق من تحيف السابلة، وفي ظل الرماح المشرعة»،[168] لم يكن غريبا أن تكون الحرب ديدنها الأساس في جمع الأموال، سواء في طور التأسيس أو في مرحلة الاستقرار، وإن كان العمل الحربي في بعض مراحلها مستنزفا لأموالها وخيراتها، بل ومهلكا للدولة نفسها.

1. في مرحلة التأسيس

أثبتنا في الفصل السابق أن تحرك القبائل المرينية في اتجاه المغرب الخصيب، كان نتيجة حوافز اقتصادية محضة أطرت غزوات تلك القبائل التي كانت تعيش قبل ذلك في القفار، لكنها لم تتردد في اقتحام السهول الأطلسية والمناطق الشمالية بمجرد ما علمت بفراغ المغرب، وتآكل قواه، نتيجة هزيمة العقاب (609هـ/1212م). وبينا في حينه أن الغنيمة شكلت عنصرا أساسيا في انتقال هذه القبائل من قفارها إلى المجال الخصب من المغرب الأقصى.[169]

والظاهر أن القبائل المرينية أثناء دخولها هذه المجالات بدأت تكتشف اختلافا في طبيعة الغنائم التي تحصل عليها عن طريق الحرب، فالغنيمة هنا أصبحت تعني غلات وحقولا وبساتين وأموالاً عينية، فضلا عن الماشية، عكس ما كانت تمثله بالنسبة لها في القفار، أي إبل وماشية القبائل المجاورة. بل إنها في هذه المرحلة أضحت تعني أموال الدولة وعددها وخيلها وسلاحها؛ فبعد هزيمة الجيش الموحدي أمام الحشود المرينية عام 613هـ/1216م «احتوت مرين على جميع ما كان في محلتهم من الأثاث والمال والعدد والخيل والبغال، فقويت مرين بذلك قوة عظيمة».[170] وتصف الروايات التاريخية عمق النهب الذي أحدثوه في هذا الجيش إلى حد تجريد أفراده من لباسهم فاضطروا للرجوع «إلى تازة وفاس عراة يخصفون عليهم من ورق النبات المعروف عند أهل المغرب بالمشعلة».[171] وفي السنة نفسها

Scanned by CamScanner

غنم بنو مرين من جيش عامل الموحدين على تازا أموالاً مهمة، و«جمع الأمير عبد الحق الأسلاب والخيل والسلاح، وقسم ذلك كله في قبائل بني مرين».[172]

ويبدو أن الغنائم والأنفال قد بدأت تصل إلى هذه الحشود تباعاً بعد مغالبتها لكثير من قبائل المغرب الأقصى. ومن المفيد أن نشير قبل الاستطراد في هذه النقطة إلى ما أكدناه سابقا،[173] من أن القبيلة حاولت دائما أن تحافظ على استقلالها وتميزها، وطالما رفضت الخضوع لغيرها إلا إذا أرغمت عليه. وفي هذه الحالة تكون الإتاوة والمغرم الذي تؤديه للطرف الغالب والمنتصر التعبير الوحيد الذي يمكن التمييز من خلاله بين القبيلة المنتصرة السائدة، والقبيلة المنهزمة المسودة. فالإتاوة إذن هي ضريبة حرب تأخذها قصراً القبيلة المنتصرة من المنهزمة ما دام ميزان القوى يفرض عليها ذلك، وبمجرد ما يتغير بل بمجرد ما يبدو أنه من الممكن تغييره حتى تبادر القبيلة إلى الامتناع عن دفعها.[174]

وما دام أن القبائل المرينية لم تكن سوى نسخة من تلك القبائل التي شكلت الحرب جزءا من كينونتها، وأن دخولها للمغرب الأقصى لم يكن من أجل تحقيق مشروع ديني،[175] بل إنها لم تكن تعرف الشيء الكثير عن الإسلام بتعبير أحد الباحثين،[176] فقد كانت تلك التقاليد القبلية وأعرافها في مجال الحرب مع الآخر طاغية على أسلوب تعاملها مع المناطق التي اكتسحتها. وبعبارة أخرى فقد تأرجحت علاقتها مع قبائل وحواضر المغرب الأقصى بين الرضوخ مقابل دفع إتاوة سنوية معلومة سمتها المصادر خراجاً أو مغرماً، أو ضريبة معلومة،[177] أو الحرب وما يقتضيه ذلك من اكتساح للأرض والأموال، وانتزاعها قسرا من أهلها.[178]

وهكذا، فبقدر ما فضلت مجموعة من القبائل أداء الإتاوة الحربية لتلافي الإكتساح المريني وشراء سلمهم، -مثل «هوارة وزكارة، ثم تسول ومكناسة، ثم بطوية وفشتالة، ثم سدراتة وبهلولة، ومديونة»،[179] وغيرها مثل «مطلاسة وكزناية، وبنو سيتان، وبنو يازغة، وبنو واسليت، وبنو بحر، وبنو يوسف»، وكذا «أوربة وصنهاجة ولمطة وبني وارثين وكثير من بلاد غمارة»،[180]- فضل البعض الآخر أداء هذه الإتاوة مرغما بعد قتال «احتوت فيه مرين على جميع ما كان في محلتهم من الأموال والعدد والثياب، والخيل والإبل والدواب»،[181] كما هو حال عرب رياح الذين فُرض عليهم بعد ذلك تقديم «مال جليل يؤدونه (...) في كل سنة»[182] لأمير هذه القبائل، وأهل فازاز الذين «أثخن فيهم حتى أذعنوا له بالطاعة».[183] بل إنه صالح بعض المدن «على أموال معلومة يؤدونها إليه في كل سنة، على أن يؤمن بلادهم

Scanned by CamScanner

ويرفع عنهم الغارات»،[184] مثل فاس ومكناسة وتازا وقصر عبد الكريم.

لم تكن هذه الإتاوة مجرد ضريبة لسلطة في بداية تأسيسها، ولا إتاوة سنوية من القبائل الضعيفة لحمايتها[185] -وإن كانت تحمل هذا المعنى- إذ قبلتها مرغمة، لكنها في العمق ضريبة حرب تؤديها القبيلة المغلوبة للقبيلة المنتصرة أو الغالبة لتلافي غزوها، وتصبح بعد ذلك في طاعتها وتحت رحمتها وحمايتها من القبائل الأخرى التي تطلب الإتاوة نفسها.[186] على أن ما يهمنا هنا هو تلك الأموال التي أصبحت تتجمع لدى بني مرين من هذه الإتاوة.

ويجدر بنا أن نشير إلى أن القبائل المرينية في حروبها وتحركاتها نحو المغرب الخصيب، كانت تحمل معها نساءها وأطفالها وأموالها وأغراضها، مما يعني أن الغنيمة التي تستهدفها لم تقتصر فقط على الأموال والأنفال، بل كانت تهم أيضا الأرض والمرعى بمائها وكلئها؛ فعندما سيطرت هذه القبائل على كثير من مناطق المغرب الأقصى، قسم أميرها «عليهم بلاد المغرب، فأنزل كل قبيلة في ناحية منه، وجعل لها ما نزلت فيه من الأرض، وما غلبت عليه من البلاد، طعمة لا يشاركهم فيها غيرهم»،[187] مما يعني تحولا في مستوى عيش هذه القبائل من شظف العيش إلى خصوبته. وقد كان طبيعيا أن تكون الغنائم التي تحصلت عليها هذه القبائل سواء من القبائل المغلوبة، أو من الجيش الموحدي، والإتاوات التي فرضتها على القبائل والأمصار مهمة وذات قيمة أساسية، ما دام أن ما تطلبه هذه القبائل هو شرط بقائها، بل يبدو أنها تجاوزت حدود «المعاش» بكثير.

وإذا كان أبو معرف محمد بن عبد الحق (637-642هـ/1239-1244م)، الذي تولى زعامة هذه القبائل بعد أخيه أبي سعيد، قد اكتفى بـ«تقبل سنن أخيه في تدويخ بلاد المغرب، وأخذ الضريبة من أمصاره، وجباية المغارم والوظائف من ظواعنه وبدوه وسائر رعاياه»،[188] فإن تواتر الغنائم والأنفال على هذه الحشود بعد تولية أبي بكر بن عبد الحق، خاصة بعد الهزائم المتتالية للجيش الموحدي أمامها، والتي من السهل أن يبدو من خلالها الفائض الكثير، ما دام أن القبائل المرينية إلى حدود هذا التاريخ ظلت تحافظ على بداوتها. ومن ثمة فإن مجرد دخول المغرب الخصيب قد يعني تجاوزها لصفة العوز، وصراع البقاء. كل ذلك قد يكون دافعاً أساسيا لبني مرين إلى أن يـ«مدوا أعينهم إلى تملك الأمصار»،[189] ولأبي بكر إلى أن يحس «من نفسه الاستبداد، ومن قبيله الاستيلاء، فاتخذ الآلة»،[190] وأزمع على تقويض الحكم الموحدي، والاستيلاء عليه.

Scanned by CamScanner

وبما أن النصر يغري بطلب مزيد من الغنائم، فقد بدأت الحشود المرينية توجه حملاتها نحو المدن والأمصار، لما تضمه من أموال وذخائر ولاة الموحدين، فاستولت على فاس، ثم أخضعت مكناسة، فسلا، فرباط الفتح، وبذلك تملك «الأمير أبو يحيى هذه البلاد الأربعة أمهات أمصار المغرب، واستولى على نواحيها إلى وادي أم الربيع»،[191] مما يشي بنمو الأموال التي أصبحت تتجمع لدى هذه القبائل. ويبدو من خلال حادث تمرد شيوخ فاس على أبي بكر المريني واستنزالهم، واستعادته السيطرة على فاس، مدى حجم الأموال التي تجمعت لديه؛ فقد عاقب رؤوس الفتنة، و«نهبت ديارهم وأموالهم، وأخذت رباعهم (...) وأخذ سائر الأشياخ بغرم»[192] ما أخذ له من المال، وذلك مائة ألف على الكمال.[193]

وإذا كانت القبائل المرينية في المرحلة السابقة قد ركزت في الغنائم التي استهدفتها على ما يضمن عيشها ويدعمه، مع الاستكثار من السلاح والعدة كلما كان الطرف المغلوب جيش الدولة، فإن الفترة التي تلت تولية أبي بكر أبي يحيى المريني(642-656هـ/1244-1258م)، كانت لحظة انتقالية نحو التفكير في الملك الذي يقر ابن خلدون[194] بأنه «منصب شريف ملذوذ، يشتمل على جميع الخيرات الدنيوية، والشهوات البدنية، والملاذ النفسانية». من أجل ذلك آل أبو بكر على نفسه أن يضمن من خلال الحروب التي تخوضها قبائله كل ما قد يقوي طموحها، والحصول على الأموال والسلاح، خاصة وأن الطرف المقصود بغنمه منذ هذه اللحظة لن يكون إلا جيش مراكش أو تلمسان.

وهكذا، فعندما انهزم يغمراسن أمام بني مرين سنة 647هـ/1249م «امتلأت أيدي بني مرين بالسبي والغنيمة»،[195] وأثناء هزيمة جيش المرتضى أمامهم سنة 650هـ/1252م، ورجوعه إلى مراكش مفلولا، «استولى القوم على معسكره، واستباحوا سرادقه وفساطيطه، وانتهبوا جميع ما وجدوا بها من المال والذخيرة، واستاقوا سائر الكراع[الخيل] والظهر [ما تحمله]، وامتلأت أيديهم من الغنائم، واعتز أمرهم، وانبسط سلطانهم».[196] وفي هزيمة أخرى للجيش الموحدي عام 653هـ/1255م احتوت مرين «على جميع ما كان في محلته من الأموال والعدد والأخبية والقباب والخيل والإبل والخول، وملك فيها بنو مرين أموالا جليلة».[197]

وفي وقعة أم الرجلين سنة 659هـ/1260م، انهزم جنود الموحدين «وتركوا أموالهم وأثقالهم وعددهم وسلاحهم، فاحتوى أمير المسلمين يعقوب على ذلك كله».[198] وفي اندحار آخر لجيش يغمراسن الزياني عام 666هـ/1267م «انتهبت مرين جميع محلته وأمواله،

Scanned by CamScanner

ومضاربه وعياله»،[199] كما أنه أثناء حصار يعقوب بن عبد الحق لمراكش، أكثر من الغارة على نواحيها، حتى إن أشياخ الموحدين تذمروا من سكون أبي دبوس أمام نهب يعقوب لأموالهم وحريمهم.[200]

ما نريد أن نبرزه هنا من خلال هذه النصوص، ومهما راعينا فيها من أشكال المبالغة، أن الغنائم والأنفال ساعدت بشكل جلي في تغذية تحرك القبائل المرينية، والدفع بها نحو التفكير في مغالبة الموحدين على حكمهم، مثلما شكلت المورد الأساس في تحقيق هذا المشروع.

لقد كانت هذه الغنائم ضخمة بالقياس إلى وضعية المرينيين في هذه المرحلة؛ فالدولة لم تتأسس بعد، بما يعنيه ذلك من وجود رؤساء خطط وموظفين وقضاة وفقهاء، ومصطنعين لها تغذقهم بالمال. أما الجيش فقد كانت أهم فرقه -كما بينا سابقا- أفراد القبائل، والقبيلة هنا هي في الغالب من تتولى الإنفاق والتجهيز لأفرادها، ومقابلها في ذلك ما كان يقسم في نهاية كل معركة،[201] والمقابل هنا لا بد أن يكون أضعافا مضاعفة لما عسى أن تكون قد أنفقته؛ فالنصوص تذكر أنه في نهاية كل معركة غالبا ما كان يأمر أمير هذه القبائل بجمع السلب والأموال فتجمع بين يديه، ويقسمها في قبائل بني مرين بالسوية والاعتدال، ويعطي كل شيخ من أشياخ مرين على قدر منزلته وقومه وما يستحق حتى يرضى الجميع،[202] ومن ثمة كانت القبائل تطلب مزيداً من الحرب، وكانت الغنائم بذلك تغري بمزيد من الطلب عليها.[203]

2. في مرحلة الاستقرار

يبدو أنه بعد اقتحام المرينيين لمراكش أصبح للغنائم شأن عظيم، وحجم أكبر؛ أولا لأن المجندين في هذه المرحلة كانت أعدادهم تتزايد باستمرار، ومن ضمنهم حشود القبائل العربية والعناصر المرتزقة، والتي كان العطاء والغنيمة دافعاً هاماً في اشتغالها. وثانيا لأن غنائم الحرب ابتداء من دخول مراكش ستختلف تماماً عن سابقاتها؛ لأنها تتعلق بأموال الأندلس، وخيرات المغرب الأوسط.

في معرض حديث ابن رضوان[204] عن أهمية الجند بالنسبة للدولة السلطانية، ذكر بكلمة لطالما شكلت عنصر إغراء للدولتين المرابطية والموحدية في علاقتهما بمجال الأندلس، حين قال إن للمسلمين فيها «بيوت أموال»، وكأنه يريد أن يستنفر ملوك بني مرين لـ«الجهاد»،

Scanned by CamScanner

في وقت بدأت فيه بوادر سقوط الأندلس تتضح مع مرور الأيام.[205] وإذا كان لابد من اعتبار ظروف الدولة المرينية التي قامت إلى حدود هذه الفترة دون أي تغطية دينية تبرر انتزاعها للملك بالسيف، والبحث عن شرعية وجودها- مما جعل من الجهاد في الأندلس عنصرا هاما لتحقيق ذلك، بوصفه الشرط الموضوعي الذي دفع بالمرينيين إلى توجيه حملاتهم في اتجاه الأندلس- فإنه لابد من اعتبار خاص يوليه الباحث لما كان يشكل الشرط الذاتي، وهو الظفر بالغنائم والأموال.

والحق أن الحملات التي شنها السلاطين المرينيون الأوائل، خاصة يعقوب وابنه يوسف، قد غذت الخزينة المرينية بأموال هامة، وإن كان من الصعب مقارنتها مع ما كانت تدره بالنسبة للدولتين السابقتين. لكنها تبدو ضخمة بالقياس إلى وضع الدولة المرينية والتغيرات الأساسية التي حدثت في هذه المرحلة.[206]

ولعل أهم ملاحظة يمكن إبداؤها عن هذه الحملات أنها كانت تعتمد، في الغالب، أسلوب الغارة على ضواحي المدن الأندلسية،[207] دون التمكن من اقتحام معظمها، والاكتفاء بما يجمع ويتحصل من أسلاب ومغانم هذه الأحواز، لذلك شكل «البقر والغنم والخيل والدواب والعلوج والروميات والذراري والثياب والعدد»[208] و«البغال والحمير والزيت والعسل والقمح والشعير»،[209] أهم ما طبع هذه الغنائم. لكن قيمتها، وفي كل الأحوال، تظل مهمة ما دام أن بيعها يوفر عائدات مالية هامة بالنسبة للخزينة.

وكيفما كان الحال، فقد كانت حملات يعقوب وابنه يوسف في الأندلس غالبا ما تذيلها المصادر[210] بذكر حجم المغانم، منها على سبيل المثال «وارتحل أمير المسلمين، والغنائم تساق أمامه، وتقاد الروم بين يديه في الأصفاد»،[211] أو «وقفل منها إلى الجزيرة، وقد امتلأت أيديهم من الأموال، وحقائبهم من السبي، وركائبهم من الكراع والسلاح»،[212] أو و«أمر بالغنائم فقدمت بين يديه، وبعث معها ألف فارس من أنجاد بني مرين»،[213] أو «وامتلأت أيدي المسلمين وضاق معسكرهم بالغنائم التي استاقوها»،[214] إلى غير ذلك من العبارات. وتكفي العودة إلى الرسالة التي بعث بها أبو حاتم العزفي إلى يعقوب بن عبد الحق سنة 682هـ/1283م، واصفا ما تحصلت عليه الجيوش المرينية من المغانم للوقوف على حجمها، ومدى كثرتها.[215]

ويقدم ابن أبي زرع[216] وصفا للغنائم التي تجمعت من حملة 674هـ/1275م بعد هزيمة الجيش القشتالي، مع مراعاة ما قد يبدو من مبالغة في هذا الوصف، إذ يقول: «وكان عدد

Scanned by CamScanner

البقر في هذه الغنيمة مائة ألف رأس وأربعة وعشرين ألف رأس (124000). وأما الغنم فعجز عنها الحصر لكثرتها، بيعت الشاة منها في الجزيرة الخضراء بدرهم، وكان عدد الأسارى من الرجال والنساء والذرية سبعة آلاف وثمانمئة وثلاثين نفسا (7830)، وعدد الخيل والبغال والحمير أربعة عشر ألف رأس وستمائة ألف رأس (614000). وأما الدروع والعدد فمالها عدد من كثرتها، فامتلأت أيدي المسلمين وصلحت أحوالهم».

ولعل في كثرة هذه المغانم وضخامتها، ما حدا بالسلطان يعقوب بن عبد الحق إلى مصانعة ابن الأحمر، فتنازل له عن غنيمة إحدى الحملات، على حد قول أحد المؤرخين،[217] و«أعطى المغانم كلها لابن الأحمر إحسانا إليه، وفضلا منه، وإيثارا له، وقال يكون حظ بني مرين من هذه الغزوة الأجر والثواب».

وعلى غرار ما كانت تدره غزوات المرينيين في اتجاه الشمال من أموال، قامت حملاتهم في اتجاه الشرق بدور هام في تغذية خزينة الدولة؛ فقد كانت أحواز تلمسان والمغرب الأوسط عموماً،[218] عرضة لسلب بني مرين ومغنمهم، كما كانت جيوش بني عبد الوادي عرضة لفيئهم وغنيمتهم. فمنذ الحملات المرينية الأولى على تلمسان وضواحيها، ونتيجة لهزيمة يغمراسن أمامها سنة 670هـ/1270م «انتهب الناس محلته، وأمواله، وأثقاله، وعياله».[219] ويبدو من خلال الأموال الجليلة التي أغدق بها يعقوب بن عبد الحق من غنيمة بني عبد الوادي على شيخ بني توجين، بازيان محمد بن عبد القوي، جزاء لمساهمتهم الفعالة في هذه الحملة، مدى كثرة هذه الغنائم؛ فقد «ملأ حقائبهم، وجنب لهم من المائة من المقربات بمراكبها، وأراح عليهم ألف ناقة حلوب [«من مال بني عبد الوادي»][220]، وعمهم بالخلع مع الصلات والخلع الفاخرة، واستكثر لهم من السلاح والفازات والفساطيط».[221]

وفي حملة أخرى سنة 679هـ/1280م انهزم يغمراسن «وخلف القباب والأموال، والمضارب والعيال... وانتهبت الناس جميع محلته...وأخذت أموال العرب بأسرها، وامتلأت أيدي مرين من شاتها وبعيرها»،[222] مثلما أنه في حملة أخرى اكتسح بنو مرين نواحي تلمسان، واصطلموا نعمها عام 714 هـ/1314م.[223]

نسوق هذه النصوص هنا للمثال فقط، تجنبا لأي سرد ممل للحملات المرينية وما تحصل عليه الدولة من الأموال من خلالها. وأهميتها ليست فيما تحدده من الأرقام وحجم الغنائم ونوعيتها، إذ يجوز أن تكون الأرقام غير دقيقة، والانطباعات مبالغ فيها، ولكن قيمتها

Scanned by CamScanner

تكمن في إثبات أن الحرب في الأندلس، أو في اتجاه تلمسان، وما حصلته من الأموال قد ساهمت، في كل الأحوال، في توازنات بيت مال الدولة. بل قد لا نبالغ إن قلنا إنها شكلت المورد الأساس في مرحلة القبيلة، وفي تأسيس الدولة واستقرارها. وإن كانت حملات الدولة في الأندلس أو المغرب الأوسط قد تقلصت إلى حد بعيد في فترة حكم السلاطين أبي ثابت عامر، وأبي الربيع سليمان، وأبي سعيد عثمان (708-731هـ/1308-1330م).[224]

وإذا كانت فترة حكم السلطانين أبي الحسن وأبي عنان [731-759هـ/1330-1357م] قد عرفت توسعاً لحدود الدولة لتشمل في بعض السنوات القليلة بعض أجزاء الأندلس وإفريقية،[225] مما يعني نمواً في الأموال التي يمكن أن تجتمع في خزينة الدولة من حروبها في هذه المناطق، فإن كثيرا من الشواهد –والتي سنعرضها في حينها– تثبت أن حروب الدولة في هذه المرحلة كانت مكلفة، مهلكة لمال الدولة أكثر مما كانت جماعة له. فقد شكلت هذه المرحلة بداية لانقطاع موارد الحرب، بسبب الهزائم المتتالية التي مني بها الجيش المريني في الأندلس وإفريقية، وبفعل انشغال السلاطين الذين تولوا حكم المغرب بعد أبي عنان بالصراعات الداخلية حول كرسي الملك، فضلا عن تمردات القبائل، وانتزاء بعض الأمراء بمناطق نفوذهم، مما حول حروب الدولة إلى عنصر مهلك للمال، ومستنزف له، أكثر مما كان جماعاً له.[226]

ثانيا: الحرب واستنزاف مالية الدولة

إن الحديث عن الأموال التي يمكن للحرب أن توفرها للدولة، والقول بأن الغزو يجمع المال ويمد بيت مالها بمورد هام ووازن، يقتضي الحديث أيضا عن النفقات والأموال التي تتطلبها مستلزمات الإعداد لهذه الحروب ومباشرتها، من عطاء للأجناد، وتوفير للسلاح والمؤونة، فضلا عن النفقات التي تتطلبها حاجة الدولة لإثبات مشروعية وجودها،[227] وما تستلزمه مرحلة «تحصيل ثمرات الملك» بتعبير ابن خلدون،[228] من أموال طائلة لاستيعاب ميل أهل الدولة إلى مظاهر الترف والبذخ في حياتهم الخاصة.[229] لذلك نعتقد أن فهم الدور الذي اضطلعت به الحرب في مسار الدولة المرينية، سيتضح أكثر إذا وجهنا اهتمامنا لضبط أوجه صرف أموال الفتح وغنائمه، وسبل إنفاقها، وما تتطلبه الحرب من نفقات قبل أن تصبح مورداً للأموال.

Scanned by CamScanner

1. مرحلة الترف وتبذير غنائم الحرب

ما من شك، في أن المتتبع لنفقات الدولة، وأوجه صرفها للأموال لا يمكن إلا أن يلحظ طابعها البذخي والمكلف في الآن نفسه.[230] والظاهر أن للغنائم التي تحصلت لدى الدولة المرينية في مرحلتها الأولى دوراً أساساً في بروز مظاهر الترف في أهل الدولة، خاصة في الفترة التي تلت حكم أبي يعقوب يوسف (685-705هـ/1286-1306م)، إذ يمكن اعتبار هذه الفترة بداية واضحة لفترة «جني ثمرات الملك» التي تناسب حسب ابن خلدون،[231] المرحلة التي تميل فيها الدولة إلى إبراز مظاهر البذخ في أهلها «فتكثر عوائدهم، ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته، إلى نوافله ورقة زينته».

ومن الشواهد الدالة على ذلك، أن أيام أبي الربيع سليمان كانت «خير أيام هدنة وسكون وترف لأهل الدولة. وفي أيامه تغالى الناس في أثمان العقار، فبلغت قيمتها فوق المعتاد، حتى لقد بيع كثير من الدور بفاس بألف دينار من الذهب العين. وتنافس الناس في البناء فعالوا الصروح، واتخذوا القصور المشيدة بالصخر والرخام، وزخرفوها بالزليج والنقوش، وتناغوا في لبس الحرير، وركوب الفاره، وأكل الطيب، واقتناء الحلي من الذهب والفضة، واستبحر العمران، وظهرت الزينة والترف».[232]

وبالرغم من أن حروب الدولة في هذه المرحلة قد تقلصت، واقتصرت على المجابهات الداخلية، خاصة في عهد أبي سعيد عثمان (710-731هـ/1310-1330م)،[233] فإن الأمراء في هذه الفترة صاروا يميلون نحو حياة الترف، يبسطون أيديهم في البذل والعطاء، ويتناغون في إبراز مظاهر البذخ والأبهة،[234] لدرجة أن بعض الفقهاء قد تذمروا من ذلك، واعتبروا السلاطين والأمراء من مستغرقي الذمة؛ لأنهم يتصرفون «في أموال بيت المال بالهوى في أبنية الدور الغالية المزخرفة، والمراكب النفيسة، والأطعمة الطبيعية اللذيذة، وإعطاء الأصدقاء والمزاح بالباطل من الأموال، إلى غير ذلك من التصرفات المنهي عنها».[235] ولا شك أن بحث السلطة الدائم عن مشروعيتها قد استهلك كثيراً من أموالها، وهنا يمكن استحضار الأعطيات التي كانت تجود بها على الشرفاء،[236] والفقهاء،[237] والصلحاء المقربين منها،[238] في إطار أسلوب «الاشتراك المنفعي».[239]

ولا تعوزنا الدلائل التي تثبت أن الأموال التي استهلكتها الدولة في الميدان العمراني، كانت تكلف بيت المال الشيء الكثير، بل إن النصوص المتوفرة تثبت أن بعض المشاريع العمرانية قد أنجزت بمجرد العودة بغنائم الأندلس، فأثناء عودة يعقوب بن عبد الحق منها في

Scanned by CamScanner

حملته سنة 674هـ/1275م، أمر «ببناء البلد الجديد، فأسس على وادي فاس».[240] وإذا صدقنا رواية ابن أبي زرع،[241] فإنه لم يشتغل في بناء جامع هذه المدينة «إلا أسرى الروم الذين قدم بهم من الأندلس». وفي السنة نفسها «أمر ببناء قصبة مكناس وجامعها».[242] وبالمثل فقد كلف بناء جامع تازة بيت مال الدولة حوالي ثمانية آلاف دينار ذهبية.[243] كما أن المدارس التي أسسها الأمراء المرينيون تطلبت أموالا هامة،[244] لدرجة أن أبا الحسن اندهش من كثرة الأموال التي أنفقت في مدرسة مكناس فقال:

لا بأس بالغالي إذا قيل حسن ليس لما قرت به العين ثمن.[245]

مجمل القول إن الغنائم والأموال التي تحصلت لدى الدولة المرينية في حروبها خلال فترات التأسيس والتمهيد والاستقرار بدد الكثير منها في عوائد الترف والبذخ التي ترسخت في مرحلة «جني ثمرات الملك»، وفي المشاريع العمرانية التي تخدم مشروعية الدولة، والأعطيات التي منحتها لمصطنعيها في إطار أسلوب «الاشتراك المنفعي».

2. تضخم الإنفاق العسكري

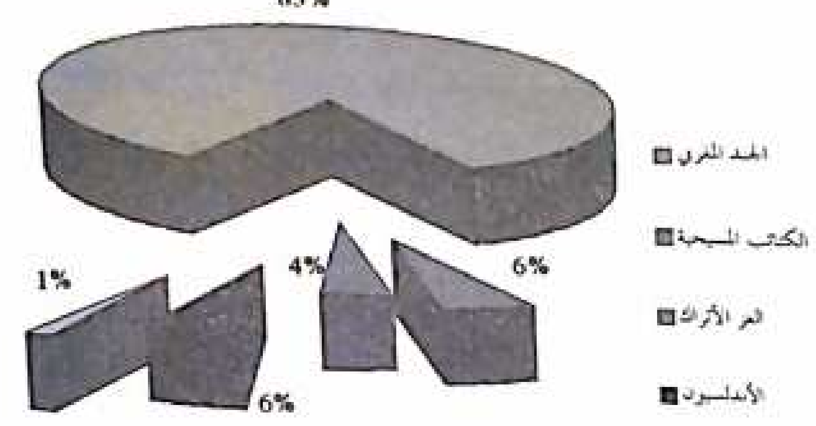
من الطبيعي أن تكون الأموال التي أنفقتها الدولة في الجيش ضخمة وذات قيمة كبرى، بل قد لا نبالغ إذا قلنا إنها شكلت أهم أوجه صرف ميزانية الدولة، خاصة في هذه المرحلة التي أصبحت فيها الحاجة إلى المجندين ضرورة ملحة وحيوية لكل سلطان لتدبير حروبه. ولعله من المفيد الإشارة إلى أن أعداد الجيش قد عرفت نمواً واضحاً حتى آخر فترة حكم السلطان أبي عنان. والحقيقة أننا لا نملك أرقاماً لتقويم عدد أفراد الجيش، إلا رواية هامة للعمري،[246] يذكر فيها أنه إلى حدود السنة التي اقتحم فيها أبو الحسن مدينة تلمسان سنة 737هـ/1336م، «ما كانت تزيد جريدة جيشه المثبتين في الديوان على أربعين ألف فارس (40.000) لا غير، غير حفظة المدن والسواحل، وكان يمكنه إذا استجاش لحرب أن يخرج في جموع كثيرة لا تنحصر بعدد». ومن الطبيعي أن تتضاعف أعداده بعد «استجداد تلمسان له... ولطاعة أمم من أهل الجبال والأطراف»،[247] لذلك يقدر هذا العدد في حوالي مائة ألف وأربعين ألف فارس (140000).

Scanned by CamScanner

الجدول رقم 4: أصناف الجند المريني في عهد أبي الحسن وعددهم قبل سنة 737هـ

أصناف الجند	عددهم
الجند المغربي	30000
المرتزقة المسيحيون	2000
الغز الأتراك	1500
الأندلسيون	2000
العلوج المسلمون	500

رسم بياني لأصناف الجند المريني في عهد أبي الحسن المريني، وعددهم قبل سنة 737هـ

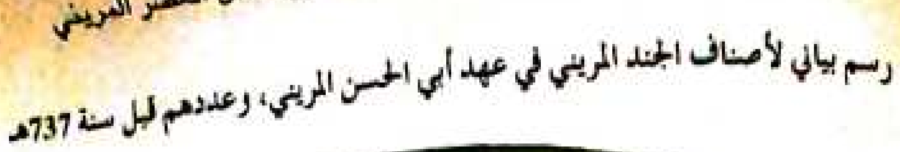


المصدر: العمري: «مسالك الأبصار»، ص: 110-111-143. ابن مرزوق: «المسند الصحيح»، ص: 282.

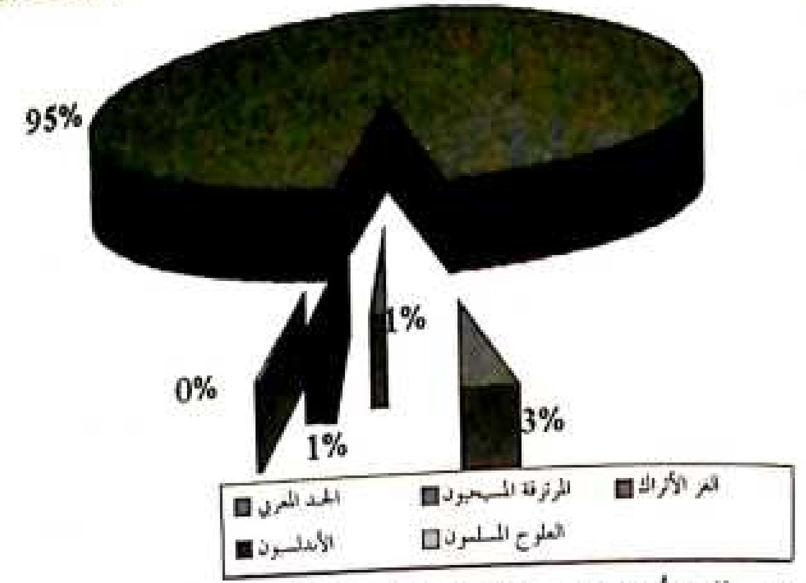
الجدول رقم 5: أصناف الجند المريني في عهد أبي الحسن وعددهم بعد سنة 737هـ

أصناف الجند	عددهم
الجند المغربي	130000
المرتزقة المسيحيون	4000
الغز الأتراك	1500
الأندلسيون	2000
العلوج المسلمون	500

Scanned by CamScanner



رسم بياني لأصناف الجند المريني في عهد أبي الحسن المريني، وعددهم قبل سنة 737هـ



المصدر: العمري: «مسالك الأبصار»، ص: 110-111-143. ابن مرزوق: «المسند الصحيح»، ص: 282.

والحقيقة، أن ما توفره المصادر من أرقام حول حجم ما تنفقه الدولة في جيشها، وكيفما كان مستوى دقتها، تكشف عن الأهمية الحيوية التي كانت لمؤسسة الجيش في هذه المرحلة، والثقل المادي الذي ترزح تحت وطأته خزينة الدولة في تمويله. ويكفي لتبين هذا الثقل أن نعتمد الرقم الذي أمدنا به العمري حول العدد الإجمالي للجيش المريني، ونقاربه من خلال ما كان يقدم لكل فئة من فئات الجيش، على الرغم مما تطرحه مثل هذه المحاولات الإحصائية من قضايا لا تخلو من مغامرة، تجد مكانها في صعوبة اعتماد أي رقم مهما كان دقيقا في دراسة رواتب جيش أهم ما يميزه هو التبدل المستمر في مكوناته وأعداده، وفي زمن دفع العطاء وانتظامه.

الجدول رقم 6: رواتب الجيش المريني قبل سنة 737هـ/1336م

مكونات الجيش	العدد المحتمل لكل مكون	الراتب السنوي	مجموع الرواتب بالمثقال وما يعادله بالدينار الذهبي
الأشياخ	40 شيخا كبيرا	20000م/س	800000م/س = 13333د/س
	400 شيخ صغير	10000م/س	4000000م/س = 66666د/س
الجند	30000	18م/ش (216م/س)	540000م/ش (6480000م/س) = 108000د/س
المرتزقة الروم	2000	27د/ش (324د/س)	54000د/ش (648000د/س) = (38880000م/س)

الجدول رقم 7: رواتب الجيش المريني بعد سنة 737هـ/1336م

مكونات الجيش	العدد المحتمل لكل مكون	الراتب السنوي	مجموع الرواتب بالمثقال وما يعادله بالدينار الذهبي
الأشياخ	140 شيخا كبيرا	20000م/س	2800000م/س = 46666د/س
	1400 شيخ صغير	10000م/س	14000000م/س = 233333د/س
الجند	130000	18م/ش (216م/س)	2340000م/ش (28080000م/س) = 468000د/س
المرتزقة الروم	4000	27د/ش (324د/س)	108000د/ش (1296000د/س) = (77760000م/س)

المفتاح:

- م: مثقال ذهبي.
- د: دينار ذهبي.
- س: في السنة.
- ش: في الشهر.
- 1 دينار ذهبي = 60 مثقال ذهبي.

المصدر: - «مسالك الأبصار»، ص: 110-111-143.

- ابن مرزوق: «المسند الصحيح الحسن»، ص: 282.

* ملاحظات على الجدولين 6 و 7:

أ- اعتمدنا في تحديد عدد الأشياخ على بعض المعطيات المتوفرة حول تنظيم الجيش المريني، فقد جرت العادة أن يكون على رأس كل ألف جندي شيخ كبير، وعلى رأس كل مائة جندي شيخ صغير.[248] وفي ضوء ذلك فإن عدد أشياخ الجند، عندما كان العدد الإجمالي للجيش المريني لا يتجاوز الأربعين ألفا، هو أربعون شيخا كبيرا، وأربعمائة شيخ صغير (الجدول. 6). أما عندما وصل العدد الإجمالي لهذا الجيش ما يقارب مائة وأربعين ألفا، فقد وصل عدد الأشياخ إلى حوالي مائة وأربعين شيخا كبيرا، وألف وأربعمائة شيخ صغير (الجدول. 7).

يجدر بنا أن نشير إلى أن مرتبات الأشياخ كانت تؤخذ «من قبائل وقرى وضياع وقلاع»،[249] ويقتصر ما تدفعه الدولة من ماليتها على «حصان بسرجه ولجامه وسيف محليان وسبنية»[250] لكل شيخ على رأس كل سنة. إلا أنه في فترة أبي الحسن المريني، سحب هذا الأخير تلك الامتيازات من الأشياخ، وتحملت خزينة الدولة مسؤولية دفع رواتبهم.[251]

Scanned by CamScanner

اعتمدنا في تحديد رواتب الجند على ملاحظات العمري[252] الذي اعتبر أن المقربين من عناصر الجيش «يكون للرجل منهم ستون مثقال من الذهب في كل شهر»، لكن هؤلاء «قليل ما هم»، أما المعظم منهم، وهو الذي اعتمدناه في هذا الجدول، «فأعلى طبقاتهم من يكون له في الشهر ثلاثون مثقالا، ثم ما دونها إلى أن يتناهى على أقل الطبقات، وهي ستة مثاقيل، هذا المستقر لهم (...) وجميع أرزاقهم ميسرة عليهم» من بيت مال الدولة. لذلك اعتبرنا أن متوسط ما كان يدفع للمعظم من الجند هو ثمانية عشر مثقال في الشهر.

توصلنا إلى الرقم الخاص بالمرتزقة من خلال ما يذكره ابن مرزوق[253] في أن مرتبات الروم المرتزقة خلال عهد أبي سعيد عثمان وأبي الحسن تراوحت بين خمسين دينارا ذهبية وخمسة دنانير في كل شهر، ومن ثمة فإن متوسط ما كان يدفع للجند المرتزقة المسيحيين في الشهر هو سبعة وعشرون ديناراً في الشهر. ومن المفيد أن نذكر بان رواتب معظم المرتزقة الروم كانت تدفع من مكوس بعض المدن، ولم تتكفل الدولة بدفعها إلا بعد إصلاح أبي الحسن الذي «عوض لهم مرتباتهم من بيت ماله (...)».[254] وتجدر الإشارة إلى أن أعداد المرتزقة قد عرفت نمواً أكبر في عهد السلطان أبي الحسن، إذ بلغ «مقدار أربعة آلاف أو أزيد».[255] وبلغ هذا النمو ذروته في عهد أبي عنان،[256] مما يعني ارتفاعاً في النفقات المقدمة لهم من قبل الدولة. وظلت هذه المرتبات على ما هي عليه إلى أن أمست السلطة عاجزة عن دفعها.[257]

لم تكن الأجور والمرتبات وحدها سببا في إنهاك خزينة الدولة، بل كان استجلاب عناصر المرتزقة يكلف الدولة كثيرا[258]؛ ففي سنة 674هـ/1275م أدت الدولة المرينية مبلغاً ماليا قدره أربعون ألف دينار ذهبية للحصول على مرتزقة من مملكة أراغون،[259] كما أدت حوالي عشرين ألف دينار ذهبية للحصول على مجموعة أخرى من المملكة نفسها بين سنتي 703هـ/1303م[260] و704هـ/1304م.[261]

ولما كانت الدولة المرينية مرغمة، طبقا لبعض المعاهدات التي وقعتها مع بعض الأطراف الخارجية، على تقديم بعض المساعدات المادية لصالح تلك الأطراف لمساعدتها على ضبط وضعها الداخلي،[262] فقد تكلفت خزينة المرينيين بدفع أموال هامة في هذا الاتجاه؛ من ذلك دفعها لحوالي خمسين ألف دينار ذهبية لملك أراغون مقابل مساعدتها على حصار سبتة بعد أن استولى عليها بنو الأحمر.[263] وتقديمها مساعدة مالية لملك قشتالة قدرها مائة ألف دينار ذهبية لمجابهة ثورة ابنه.[264] وفي الداخل صانعت الدولة بعض القبائل بالأموال مقابل مراقبة

Scanned by CamScanner

بعض المناطق، كما هو الحال عندما أعطى أبو الحسن بعض قبائل العرب حوالي «ثلاثة آلاف دينار من الذهب، ومن الكسي مائتين».[265]

وفضلا عن كل ذلك، كانت الحروب التي تنظمها الدولة تستهلك في تجهيزها وتنظيمها أموالاً طائلة، وليس أدل على صحة ما نذهب إليه من أنه خلال حملة أبي الحسن إلى الأندلس، «كان الخارج منه بطول حولين كاملين لأهل المرتب خاصة من جيش الأندلس وجيش إمامنا المؤيد بجبل الفتح، وداخل الجزيرة، خمسين ألف دينار من الذهب في كل شهر، لا يفتر عن ذلك عدا ما يمد به من داخل الجزيرة، وما يرزق به من معه في سبتة»،[266] مما يعني أنه أنفق على الجيش وحده حوالي مليون ومائتي ألف دينار ذهبية في السنتين المذكورتين. ولعل في كثرة هذه النفقات وضخامتها ما حدا بأحد الباحثين،[267] إلى أن يقارن بكثير من المبالغة، بين ما أنفقه المرينيون في حصار تلمسان الذي دام حوالي تسع سنوات، والإنفاق الذي تطلبه إقامة سور الصين العظيم، أو الليمس الروماني.[268]

عموماً، فإن ما يمكن الاحتفاظ به من مجموع هذه المادة المصدرية أن ميول الدولة الحربية وحاجتها الملحة والحيوية لخدمات الجيش، والنفقات الضخمة التي كلفها تمويله، وما استهلكته الدولة في ترفها، وفي بحثها المستمر عن شرعيتها، واستهلاك فترة «جني ثمرات الملك» لمعظم غنائم الفتح، قد ساهمت بشكل خطير في إفقار خزينة الدولة وإفلاسها في أحيان كثيرة، كما سيبدو من خلال فترة حكم أبي الحسن وأبي عنان.

3. السياسة العسكرية التوسعية بين الطموح السلطاني وعجز الميزانية

إذا كانت الدولة المرينية المتحللة من هاجس المشروعية في كثير من سياساتها،[269] قد حاولت من خلال فرضها لجملة متنوعة من المغارم والرسوم[270] بل وإفراد بعضها لتغطية بعض الرواتب والنفقات،[271] تحقيق نوع من التوازن بين ميولها العسكرية وبين حاجتها إلى الموارد لتمويلها، فإن الإصلاحات التي أحدثها أبو الحسن في هذا المجال قد كشفت عن خلل واضح في معادلة الموارد والنفقات، عندما ألغى معظم المغارم والمجابي غير الشرعية،[272] وحول كثيراً من إنفاقات الدولة إلى بيت المال مما أنهكها في النهاية.

الملاحظ أن أبا الحسن قد حاول أن يرسم لنفسه في مخيلة رعيته صورة أمير المؤمنين العادل،[273] فألغى ما كان يثقل كاهلها من المغارم، وقلص من امتيازات الشيوخ وقادة الجيش وعناصره، وتكفل بيت ماله بتغطية هذه السياسة، فنجح مؤقتا في ذلك لكنه فشل

Scanned by CamScanner

في النهاية كما سنرى. لقد كان أبو الحسن رمزا لمن كانوا ينتظرون منه «العدل»، وإعادة السياسة المرينية إلى نصابها، لكن البعض الآخر، وخاصة أرباب السيوف، كانوا يفهمون من العدل أموراً أخرى تتلخص في «الزيادة في العطاء» أو الحفاظ على امتيازاته على الأقل، لذلك كانت الحرب أول المشاكل التي فرضت نفسها على سياسته.

ففي الوقت الذي فرض فيه نوعاً من المراقبة على الفاعلين في الجيش خاصة الشيوخ والمرتزقة الأجانب، بتحويل الشيوخ إلى مجرد خدام مأجورين بعد أن كانوا يستفيدون من مساهمتهم في الإشراف على جباية المغارم،[274] وإقصاء المرتزقة من الحصول على مرتباتهم من مكوس بعض المدن وما يحققه ذلك لهم من أرباح،[275] وأصبح بيت المال مصدر أداء رواتب هؤلاء، كان يعد العدة للسير بهم وبمن تحت إمرتهم من الجنود إلى الأندلس ثم إفريقية،[276] فكانت النتيجة ما تذكره المصادر عن فشل هذه الحملات نتيجة مشكل الإنفاق، وعجز بيت مال الدولة عن تمويل الحملات أولا، وتحامل الجند على أميرهم بسبب شؤون العطاء والراتب ثانيا.

ومن المؤشرات الدالة على صحة هذا التفسير، ما كشفت عنه حملات أبي الحسن في اتجاه الأندلس وإفريقية من نقص واضح في الإنفاق، بل إن بعض النصوص تعتبر ذلك النقص سببا في فشل هذه الحملات، كما هو حال حملة بني مرين على الأندلس سنة 741هـ/1340م التي انتهت بالهزيمة، واحتواء النصارى «على المعسكر بما فيه من أموال المسلمين»،[277] بعد أن «فنيت أزودتهم، وافتقدوا العلوفات، فوهن الظهر، واختلت أحوال المعسكر».[278]

ومما يثبت ذلك أيضا، إقدام أبي الحسن على فرض ضريبة «المعونة» لتغطية عجز بيت ماله عن تمويل حملاته، حين «ندب الناس إلى الإعانة بأموالهم على الجهاد»،[279] مما أثار معارضة بعض الفقهاء مثل أبي زيد عبد الرحمن بن الإمام (ت. 743هـ/1342م)، الذي علق على موقف أبي الحسن بقوله: «لا يصح لك هذا حتى تكنس بيت المال، وتصلي فيه ركعتين، كما فعل الإمام علي بن أبي طالب»،[280] وعبد العزيز ابن محمد القوري (ت. 750هـ/1349م)، الذي تذمر من طلب أبي الحسن خروجه مع عامل «الزكاة»، فرد عليه قائلا: «أما تستحيي من الله تعالى؟ تأخذ لقباً من ألقاب الشريعة وتضعه على مغرم من المغارم».[281] بل إن نصوصاً أخرى تثبت أن أبا الحسن قد اضطر أثناء تنقله في المغرب الأوسط، إلى أن يفرض على كل مدينة وظيفة المعونة، وإمداد الجيش بالمال والسلاح.[282]

Scanned by CamScanner

ويقدم الكفيف الزرهوني[283] في زجله معلومات دقيقة عن أزمة الإنفاق، وارتباط ما تعرض له جيش أبي الحسن من هزيمة بتذمر الجنود من ضعف الإنفاق وضآلة المرتبات، فيقول:

هتكنا قالوا بكثرة الرحلات	لبلاد الحر والغلا والجوع
ورواتبنا على سبو أو ردات	كرواتبنا بقابس المقطوع[284]

بل ويكشف عن إحباط العناصر الأساسية بالجيش، خاصة القبائل المرينية والعربية، موضحاً بصورة دقيقة ارتباط هذا الإحباط بقلة العطاء، وضعفه، حين قال:

وفي كل شهر من العرب يكسي	سبعين ويجد من الذهب بحمل
والعربي كالندى على الغرس	يوما تقطع عنو العطا يخذل[285]

وقال أيضا:

والعلة الثانية دشم ومرين	وعظم الدولا القديمة البانية
قالوا ما خصنا سوى أرض الصين	لو قال قوموا لها لقلنا أيا.[286]

ويختصر ابن خلدون[287] هذا كله بقوله، إنه «كان لبني مرين نفرة عن السلطان، وحذر من غائلته، لجنايتهم بالتخاذل في المواقف والفرار عنه في الشدائد، ولما كان يبعد بهم في الأسفار، ويتجشم بهم المهالك، فكانوا بذلك مجتمعين على منابذته، ومخلصين في مناصحة ابنه».

ولم تكن حروب أبي عنان من حيث مشكل الإنفاق أحسن حالا من أبيه، ويكفي أن نورد هنا نصا كاشفا عن هذه الحقيقة، يثبت العلاقة بين فشل حملة أبي عنان إلى إفريقية وضعف الإنفاق وتذمر الجيوش؛ إذ يذكر أحد المؤرخين[288] أن أبا عنان وهو في إفريقية، ضاق ذرع عساكره «بشأن النفقات والإبعاد في المذاهب... فتمشت رجالاتهم في الانفضاض عن السلطان... وأذن المشيخة والنقباء لمن تحت أيديهم من القبائل في اللحاق بالمغرب حتى تفردوا، ونمي الخبر إلى السلطان أنهم تآمروا على قتله، فرأى قلة العساكر، وعلم بانفضاضهم، فكر راجعاً إلى المغرب».

4. تضخم نفقات الحرب وانهيار الدولة

لم تكن هذه الهزائم سوى بداية لفترة طويلة من الانهيار، أصبحت فيها الحرب، التي

Scanned by CamScanner

ذرت بقرنها في مختلف سنوات هذه الفترة،[289] عنصراً مستنزفاً للمال ومهلكا له. وإذا كنا نفتقر إلى النصوص التي تسعفنا في تتبع دور الحرب في هذا الاستنزاف، بل في إهلاك الدولة واضمحلالها، فإن ما نتوفر عليه من قرائن تكشف عن هذا الدور، ويثبت أن الدولة المرينية في آخر أمرها قد وجهت جملة نفقاتها للحرب ولعطاء الأجناد،[290] وبالغت في أساليب حصولها على الأموال.[291]

فأمام ضعف ميزانية الدولة وفقرها، وكثرة حروبها في هذه المرحلة، لم يتوان الأمراء المرينيون عن الإجحاف في فرض المغارم، وإحداث ضرائب جديدة لتغطية حملاتهم العسكرية. ومن الشواهد الدالة على هذا الوضع، رسالة بعث بها ابن عباد[292] إلى السلطان أبي فارس عبد العزيز المريني يطالبه فيها بضرورة التدخل لمنع تعسف الجباة، ومراجعة ما استنزفوه من الرعية من الأموال، والتي قد تغني الدولة عن هذا الشطط الضريبي، وفي ذلك يقول: «ولا شك أنكم تملأون بذلك بيوت الأموال، وتستغنون بذلك الاستغناء التام عما أحدث من المظالم والمراسم والمغارم الضارة برعيتكم، والعائد ضررها عليكم في الدنيا والآخرة».

ومما يثبت ذلك أيضا، إجحاف الدولة في فرض ضريبة المعونة[293] وتسديد رواتب الجيش ونفقات حروبها من خلال بعض الرتب،[294] وفرض ضرائب تحصل من خلالها على ما يلزمها من المال والسلاح، ومن ذلك حديث ابن الخطيب[295] عن مدينة تازا التي ضبطها أحد الولاة المرينيين (763هـ/1361م)، «وذاع خبر سوء الملكة في أهلها من الطلب بالمعونة، واقتراض عدد من السلاح، واستعجال بوجيبة مغرم الجزاء... إلى غير ذلك من طلب المترفين، وأهل السعة بفرش ووطاء لاستمتاع أولي الأمر، وإنزال حامية الدولة ببيوت أهلها مجبورين على إطعامهم من أعالي ما يطعمونه أهليهم، إلى غير ذلك مما تنبسط له أذيال الدول غير المهذبة بالحكمة».

ويفسر ابن خلدون[296] هذه الوضعية بقوله، إنه في آخر الدولة تكثر عوائد أهلها في الترف «وتزيد نفقاتهم على أعطياتهم، ولا يفي دخلهم بخرجهم، فالفقير منهم يهلك والمترف يستغرق عطاءه ترفه، ثم يزداد ذلك في أجيالهم المتأخرة إلى أن يقصر العطاء كله عن الترف وعوائده، وتمسهم الحاجة، وتطالبهم ملوكهم بحصر نفقاتهم في الغزو والحروب، فلا يجدون وليجة عنها، فيوقعون بهم العقوبات، وينتزعون ما في أيدي الكثير منهم يستأثرون به عليهم».

Scanned by CamScanner

والحقيقة أن حروب أبي سعيد عثمان الثالث (801-823هـ/1398-1420م)، التي خربت كثيراً من معالم المغرب الأقصى، وسببت في كثير من المصائب[297] تمثل خير نموذج لفهم هذه الوضعية، وضبط العلاقة بين كثرة الحروب، وحاجة الدولة إلى تمويلها، مما يضطرها إلى الاقتصاد في النفقات، وتخصيص معظمها للحرب.[298] ويكفي أن نشير هنا للمثال فقط إلى مصادرة أبي سعيد لأموال كثير من المؤسسات لتمويل جيشه،[299] ومنها أموال البيمارستانات التي كانت ضخمة إلى حدود هذه الفترة، «إلا أنه في أيام حرب سعيد، عندما كان السلطان في أشد الحاجة إلى المال، أشاروا عليه ببيع إيراداتها وأملاكها، ولما رفض السكان بيعها تقدم أحد وكلاء الملاك، وأفتاه بأن هذه البيمارستانات إنما أسست بفضل الصدقات التي قدمها أسلاف الملك الحالي الذي يوشك أن يفقد مملكته، فيستحسن، والحالة هذه، بيع تلك الأملاك لصد العدو المشترك، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها سهل شراؤها من جديد. وهكذا بيعت الأملاك، وتوفي الملك قبل أن يحصل شراء أي عقار جديد، وبقيت البيمارستانات فقيرة محرومة تقريبا من وسائل العمل».[300]

عموماً، فقد ساهمت الحرب بشكل كبير في استنزاف أموال الدولة التي حاولت تحقيق توازناتها المالية من خلال الشطط في أخذ الجبايات،[301] والتراجع عن بعض الامتيازات التي اعتادت تقديمها لمصطنعيها،[302] مما عجل بسقوطها. وهو ما يقره ابن خلدون[303] بقوله إنه في آخر الدولة «يكثر خراج السلطان، خصوصاً كثرة بالغة بنفقته في خاصته، وكثرة عطائه، ولا تفي بذلك الجباية، فتحتاج الدولة إلى الزيادة في الجباية لما تحتاج إليه الحامية من العطاء، والسلطان من النفقة، فيزيد في مقدار الوظائف والوزائع... ثم يزيد الخراج والحاجات، والتدريج في عوائد الترف وفي العطاء للحامية، ويدرك الدولة الهرم، وتضعف عصابتها عن جباية الأموال من الأعمال والقاصية، فتقل الجباية وتكثر العوائد، ويكثر بكثرتها أرزاق الجند وعطاؤهم، فيستحدث صاحب الدولة أنواعاً من الجباية يضربها على المبيعات، ويفرض لها قدراً معلوماً على الأثمان في الأسواق، وعلى أعيان السلع في أموال المدينة، وهو مع هذا مضطر لذلك بما دعاه إليه ترف الناس من كثرة العطاء، مع زيادة الجيوش والحامية، وربما يزيد ذلك في أواخر الدولة زيادة بالغة، فتكسد الأسواق لفساد الآمال، ويؤذن ذلك باختلال العمران، ويعود على الدولة، ولا يزال ذلك يتزايد إلى أن تضمحل».

Scanned by CamScanner

خلاصة القول إن الحرب، بمكاسبها المادية التي شجعت قبائل بني مرين على اقتحام المغرب الأقصى، ودفعت بها نحو التفكير في الاستيلاء على الملك وخيراته، ومكنتها مواردها من تحقيق هذا المشروع، وقادتها نحو خيرات وأموال الأندلس تحت شعار «الجهاد»، ونحو الواجهة المغاربية لاستعادة التجربة الموحدية، هي نفسها الحرب التي تطلبت من هذه الدولة تكاليف ضخمة لتجهيز الجيش بالعتاد والأسلحة وصرف الرواتب للجند، بالإضافة إلى مصاريف المؤونة والتنقل وبناء التحصينات، وغيرها من التكاليف التي كان حجمها وثقلها لا يتناسب والحجم الحقيقي الذي أصبح للمغرب خلال هذه المرحلة. فكانت النتيجة آثاراً سلبية خطيرة سواء على خزينة الدولة وقوتها العسكرية، بل على مصير الدولة نفسها. إذ ما من شك أن الهزائم العسكرية التي مني بها الجيش المريني، سواء في إفريقية أو في الأندلس، قد شكلت نقطة بداية انهيار الدولة وإفلاسها واضمحلالها. وفي كل الأحوال فالحرب تحضر باستمرار في مسار الدولة من بدايتها إلى انهيارها، وكيفما كان دورها، فقد خلف حضورها المكثف جملة من التمظهرات تكشف عن الطابع الحربي للدولة، وعن أدوار أخرى للحرب، إلى جانب الأدوار التي فصلنا فيها.

المبحث الثالث: الحرب والدولة: التجليات العسكرية وأبعادها الرمزية

لا شك في أن الحضور المكثف للحرب في بنية الدولة المرينية، والدور الحيوي الذي اضطلعت به في قيامها واستمرارها، قد طبع هذه الدولة بالطابع الحربي والعسكري، وخلف مجموعة من التمظهرات العسكرية التي تبدت معالمها في أسلوب تنقل جيشها، والمدد التي يقضيها خارج عاصمتها، وفي يومية السلطان، وطريقة اشتغاله، وعلاقته بمحيطه السياسي والاجتماعي، وفي طبيعة شركائه في الحكم وتدبيره. وإذا كان من الطبيعي أن تبرز هذه المعالم الحربية في دولة ظل حكامها يمتشقون أسلحتهم في معظم سنوات دولتها في الحكم، فإن هذه التجليات كان لها حضور في تنفيذ أدوار رمزية لا تقل أهمية عن الدور المباشر للجيش وسلاحه.

أولا: نظام المحلة العسكرية أو «المخزن» المتنقل

لعل من أبرز المظاهر الأساسية التي تثبت الطابع الحربي للدولة المرينية، والقيمة الكبيرة التي اكتستها الحرب في منظومتها، ذلك التنقل الدائم للسلطان المريني خارج عاصمته،

Scanned by CamScanner

سواء في اتجاه مناطق داخل المغرب الأقصى، أو في اتجاه تلمسان وتونس، أو نحو الأندلس.[304] وقد سبق أن أثبتنا في المباحث السابقة أن في الدوافع المادية، وحاجة الدولة إلى المال والحفاظ عليه، ما يفسر كثيراً من حيثيات هذا التنقل،[305] وهو ما فرض على المرينيين امتشاق أسلحتهم دائما، وتوجيهها صوب ثورات القبائل، والمنتزين، وضداً على الدول التي نافستها في السيطرة على المجال والساكنة.[306]

ومما يعضد رأينا هذا، ويكشف عن هذا التنقل العسكري المستمر للجهاز السياسي المريني، وكثافته في هذه المرحلة، ما يذكره ابن مرزوق[307] عن أبي الحسن المريني الذي علق عن رفض أحد الأشياخ من خلف الموحدين الانضمام لمجلسه وملازمته فقال: «هذا الشيخ توهم أن تقريبنا له، وأمرنا له بتعاهدنا كل وقت، يوجب ان نحمل عليه السفر معنا، فإنه سمع أن أهل الحضرة لا يفارقوننا سفراً ولا حضراً، فقدم هذه المعذرة قبل أن نعرض عليه هذا». وفي تعقيب ابن القاضي المكناسي،[308] عن حياة إبراهيم التسولي التازي الفاسي (ت. 747هـ/1346م) الذي لزم مجالسة أبي الحسن، «وامتحن بصحبة السلطان، فصار يستعمله في أسفاره، فمر في ذلك حظ كبير من عمره ضائعاً لا في راحة دنيا، ولا في نصيب آخرة، ثم قال : هذه سنة الله في من خدم الملوك».

وقد عبر المغيلي[309] عن أهمية هذا التنقل العسكري بين المناطق، ودور الطابع الحربي للدولة في استمرار الحكم ودوامه، حين اعتبر أن »مقام السلطان في الحضر رأس كل بلية«. لذلك ينصح السلطان قائلا: «فاركب جياد العزم (...) وأحي البلاد من قحط الفساد، فريح مضمر، وسحاب الغبار، ورعد الصهيل، وبرق الصقيل، وصواعق السيوف، وأمطار الصفوف. فالملك بالسيف لا بالتسويف، وهل يندفع الخوف إلا بالتخويف (...) ولا تفارق الدرع والسلاح، ولا يقربك إلا أهل الأمانة والصلاح»،[310] مما يكشف عن جانب هام من المضامين التي اضطلعت الحرب بتحقيقها في هذه المرحلة. إذ ما من شك أن لهذا الطابع الحربي، والتنقل العسكري للدولة، مضامين أخرى لا ينبغي إغفالها، ليس اقلها شأنا البعد الرمزي[311] لهذا السلوك الحربي المنتظم، الذي يفصح عن جانب من جوانب علاقة السلطة المركزية بمجالها السياسي، وفي تدبير سلطتها عليه.

ولا تعوزنا الدلائل الكاشفة عما نذهب إليه؛ إذ يبدو أن التحرك العسكري المستمر الذي جعل من الدولة المغربية خلال هذه المرحلة جهازاً عسكريا متحركاً على الدوام،[312] كان يهدف – علاوة على كونه أداة لإخضاع القبائل والمنتزين وإرغامهم على أداء ما

Scanned by CamScanner

تكلف به، وعنصراً أساسيا لمغالبة الدول المجاورة على المجال والساكنة- إلى إظهار السلطة في المكان بواسطة الجيش، وإبراز عظمة السلطان في مجال يتميز بالمقاومة المستمرة للدولة.[313] لذا لن نستغرب إن صادفنا حملات قادها السلطان بنفسه، وبمعية معظم جيشه، دون أن يحدث أي قتال،[314] أو حرص الدولة الشديد على إبراز مظاهر الأبهة والعظمة في جيشها لفرض نوع من الضغط الرمزي على القبائل والدول المجاورة.

ومن بين المظاهر المفصحة عن الطابع الحربي للدولة المرينية، نظام «المحلة» الذي عرف خلال هذه المرحلة تطوراً هاماً؛ فالتنقل المستمر لجيوش السلطان، والمدد الطويلة التي كان يتطلبها، أدى إلى الاهتمام بالمحلة وتطويرها. ومما يؤكد ذلك ما نسجته مصادر المرحلة من أوصاف حول محلة السلطان المريني وطريقة تنقلها، وحجم جيوشها، وطبيعة المرافقين لها، إلى درجة تبدو من خلالها وكأنها مدينة أو مجتمع متنقل بإدارته وجنده وأسواقه. ومن ذلك ما يرويه ابن أبي زرع[315] عن المحلة المرينية في الأندلس سنة 684هـ/1285م التي «صارت بمنزلة قواعد المدن، اجتمع فيها أصناف الصنائع والتجارة... إذ أخذ سوق المحلة السهل والوعر، إذا غاب عنك رفيقك أو من تعرفه لا تكاد تلقاه إلا بعد اليومين والثلاثة لكثرة الخلق...».

ومن الأمثلة على ذلك أيضا، ما قدمه ابن الحاج النميري[316] من أوصاف عن المحلة المرينية في اتجاه قسنطينة والزاب أيام أبي عنان، واصفا بإسهاب «أفراك»[317] السلطان وضخامته، بحيث صار «كالبلد الواسع الأقطار، القائم الأسوار، البديع الإختطاط».[318] ويثبت أحد المؤرخين المتأخرين[319] القيمة الرمزية لهذه المدينة المتنقلة، في كونها تهدف إلى إبراز هيبة الدولة وقوتها الحربية بقوله إن «الأفراغ عبارة عن فسطاط متسع الدائرة اتخذه الملوك والسلاطين بالمغرب الأقصى ليمثلوا به ضخامة الملك وأبهة السلطان في الأسفار».

وقد لا نبالغ إذا قلنا إن الطابع الحربي للدولة وتنقلها العسكري المستمر، لم يؤثر في اهتمام المرينيين بنظام المحلة فحسب، بل كان له دور واضح في تحول محلات سلطانية إلى مدن قائمة بذاتها، كما هو حال المنصورة التي أحدثها المرينيون لحصار تلمسان، إذ تحول أفراك السلطان إلى قصر «بناه في موضع نزوله حيث ضرب قبابه، ثم بنى جامعاً كبيراً، وأقام فيه الخطبة بإزاء قصره»،[320] وتحولت جوانب «الأفراك» في المحلة إلى بيوت حين «أمر الناس بالبناء، فانتشر الناس في البنيان بالمحلة يمينا وشمالا، فأدار السور على قصره وعلى الجامع الذي بإزائه»،[321] ثم ختمه «ببناء السور الأعظم على تلمسان الجديدة».[322] وفي

Scanned by CamScanner

هذا ما يؤكد الطابع الحربي للدولة في مجال المعمار، ويبرز أن المدن[323] التي اختطها المرينيون لم تكن أحيانا سوى إفراز لطابعهم الحربي، وتطوراً في نظام المحلة.

ومن بين المظاهر الأخرى التي تفصح عما حظي به الجانب الحربي من اهتمام لدى الدولة المرينية، حرصها على المحافظة على بعض تقاليد البداوة في هذا المجال؛ من ذلك إضفاء طابع لا يخلو من احتفالية على معظم حملاتهم. وأهم ملامح هذا الطابع حضور النساء «في الهوادج والمراكب والقباب المزينات باديات الوجوه عليهن الحلل وثياب الوشي»،[324] إذ جرت العادة أن يأمر السلطان في كل حركة «جميع قبائل بني مرين أن يخرجوا بجميع عيالاتهم ونجبائهم في زيهم، وأن يظهروا قوتهم ليغيظوا بذلك أعداءهم»،[325] مما يكشف عن عادة متأصلة في قبائل شكلت الحرب طابعاً يميزها، وفي استمرار مثل هذه المظاهر في مرحلة الدولة ما يثبت ذلك.

ثانيا: سوسيولوجية الوظيفة العسكرية

الظاهر أن الأساس العسكري، والميزة الحربية للدولة المرينية حقيقة لا يرقى إليها جدال، دليلنا على ذلك المكانة المتميزة التي حظيت بها عناصر الجيش بالنسبة لدولة قام فيها بالدور الحاسم في بنائها وتكونها، وفي الحفاظ على استمراريتها.[326] لذلك كان طبيعيا أن تتغلغل هذه المؤسسة في مختلف دواليب الدولة لتسيطر على أهم خططها، لدرجة أن خمسة عشر خطة من أصل الخطط الإدارية المرينية، التي بلغ عددها –حسب لائحة وضعها أحد الباحثين[327]– ثمانية عشر، كانت في مجملها خططا عسكرية.

وبالمثل، فإن الدور الذي اضطلع به أشياخ القبائل وقواد الجيش في مجمل قرارات السلطان، بل في إقرار السلطان على كرسي ملكه، أو إبعاده، أو خلعه،[328] والرواتب الضخمة والمثيرة التي خصت بها الدولة عناصر الجيش،[329] إذا ما قارناها برواتب أصحاب الخطط المدنية ومنهم على سبيل المثال قاضي القضاة،[330] أو كاتب السر السلطاني،[331] لا يمكن إلا أن يؤكد الطابع العسكري لهذه الدولة، والأهمية الحيوية التي احتلها الجيش ضمن مجمل أولويات السلطة المركزية.

وقد سبق لابن خلدون[332] –الذي عاش تجربة هذه الدولة– أن أكد هذا الطابع، مبرزا أهمية الجند في مسار الدولة باعتباره مقوماً أساسيا في تكوينها واستمرارها، وأثبت المكانة الحيوية لأرباب السيف في مقارنة مع أرباب القلم بقوله: «إن السيف والقلم كلاهما آلة

Scanned by CamScanner

لصاحب الدولة يستعين بهما على أمره، إلا أن الحاجة في أول الدولة إلى السيف، ما دام أهلها في تمهيد أمرهم أشد من الحاجة إلى القلم؛ لأن القلم في تلك الحال خادم فقط، منفذ للحكم السلطاني، والسيف شريك في المعونة، وكذلك في آخر الدولة».333

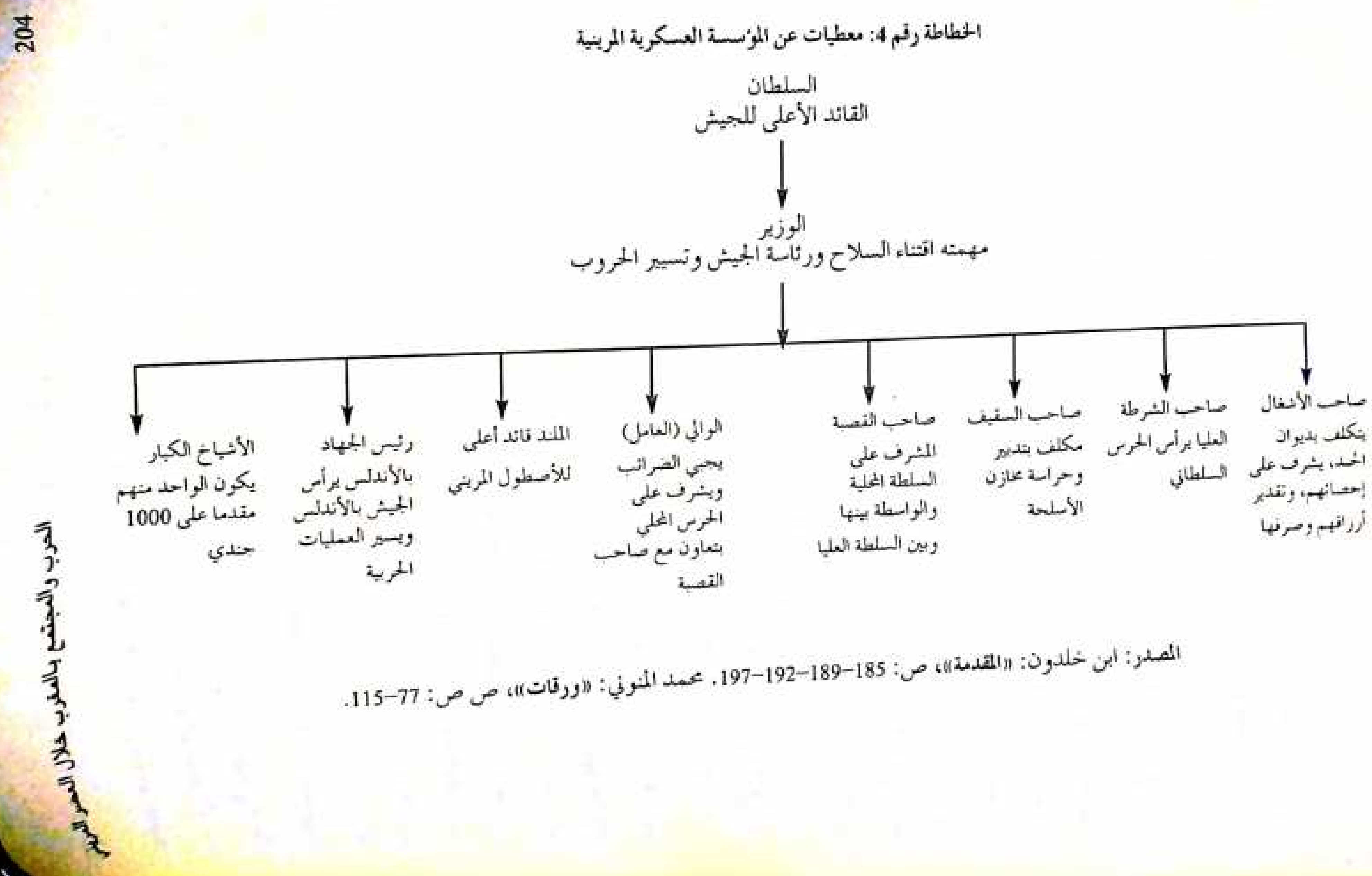
وإذا سلمنا بهذه الملاحظة الدقيقة، فإن الكلمة في كل الأحوال كانت لأهل السيف حتى في المرحلة التي يعتبرها ابن خلدون مرحلة أهل القلم وسلطته، ولعله مدرك لذلك تمام الإدراك، خاصة بالنسبة للتجربة المرينية التي تخللت في معظم فترات مسارها السياسي من هاجس المشروعية.334 لذلك يجعل ابن خلدون335 أهل السيف في الغالب «أوسع جاهاً، وأكثر نعمة، وأسنى إقطاعاً»، عكس أهل القلم القائمين «بأمور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والإمامة والخطابة والأذان ونحو ذلك، [والذين] لا تعظم ثروتهم في الغالب».336 ويكفي أن نذكر لتأكيد هذا القول بقضية المرتبات والامتيازات الضخمة التي حظي بها أرباب السيوف بالمقارنة مع أرباب القلم.337

من جانب آخر، نعتقد أن السلطان –المالك للقرار– هو من أهل السيف والحرب لا من أهل القلم والكتابة. وهي حقيقة، على كل حال، ينبغي اعتبارها بالنسبة للتجربة المرينية التي تكرس بها الطابع الزمني للسلطة،338 ولم يعد فيها السلطان المريني مصدراً للسلطات الدينية. عكس ما كان عليه الحال في التجارب السابقة،339 والتي ظل فيها السلطان تابعاً لمؤسسة الفقهاء.340 وقد حسم أبو الحسن المريني هذا الوضع بقوله: «أوصى جدنا عبد الحق رضي الله عنه بوصية التزمناها، وهي أن ثلاثة من الولاة لا مدخل للرعية فيه من السلطنة، وهم صاحب القصبة، وصاحب الشرطة، والوالي، وثلاثة المرجع فيها للرعية، وهم صاحب الصلاة والخطبة، والقاضي، والمحتسب».341 ولا شك أن في قوله هذا ما يفصح عن الأساس العسكري للدولة المغربية الذي تكرس في هذه المرحلة بشكل كبير.

وفي كل الأحوال، فإن الدعاية التي يقوم بها الفقيه وأرباب القلم عامة في مجتمع تطغى عليه الأمية، بتعبير أحد الباحثين،342 لا ترقى إلى مستوى منافسة الفعل الفوري والحاسم لأرباب السيوف؛ ذلك أنه إذا كان القلم يحمل الوعد، فإن السيف يحمل الوعيد، ولا غرابة إن ارتقى أربابه إلى مستوى شركاء السلاطين.343

Scanned by CamScanner

الخطاطة رقم 4: معطيات عن المؤسسة العسكرية المرينية



المصدر: ابن خلدون: «المقدمة»، ص: 185-189-192-197. محمد المنوني: «ورقات»، ص ص: 77-115.

ثالثا: الحرب ومؤسسة السلطان

الراجح، أن حضور الحرب والهاجس العسكري في بنية الدولة المرينية وأسلوب اشتغالها يعتبر أمراً واقعيا وحقيقيا، تكشف عنه نصوص أخرى من خلال وصفها لسلوكات السلطان، وحياته اليومية، وحرصه البليغ على إبراز مظاهر الفروسية والشجاعة، وفي اهتمامه الشديد بشؤون الحرب والاستعراضات العسكرية التي تضفي على نظامه مزيداً من الهالة والتعظيم. والحقيقة أن مؤسسة السلطان تمثل خير نموذج لتبين الطابع الحربي للدولة المرينية ومعانيه الرمزية.

ومما يعضد هذا القول، حديث العمري[344] عن يومية السلطان المريني التي كانت تحكمها هواجس الحرب وتحضر في جزء هام منها، إذ حتى في حضور السلطان بحاضرته لا تختفي الحرب بل تظهر بأساليب أخرى، ومنها ما جرت به عادة السلطان في «أخريات كل نهار، فقل أن لا يركب إلى نهر بعد العصر، ويخرج إلى مكان فسيح من الصحراء، فيقف على نشز، ويركب العساكر حوله، ويتطارد قدامه الخيل، فتتطاعن الفرسان، وتتداعى الأقران، وتمثل الحرب لديه وتقام صفوفها المرصوصة بين يديه، كأنه حقيقة يوم الحرب». وكذلك اعتياده، في رأس كل ثلاثة أشهر، على استعراض الجيش «ليعرف منهم الحاضر والغائب والقادر والعاجز».[345]

يبرز الطابع الحربي أيضا في «شعار السلطان، [و] منها سيف ورمح ودرقة يحملن بين يديه في المواكب، يحملها ثلاثة من خاصته من وصفانه أو من أبناء خدم سلفه، ومنها رماح طوال وقصار يحملها خمسون رجلا مشاة بين يديه مشدودي الأوساط ... ومنها الطبول تدق خلفه، ومنها البوقان مع الطبل».[346] ويفسر ابن خلدون[347] حرص السلطان على الإكثار من هذه الشارات، إذ أن غايتها «إرهاب العدو في الحرب»، وإبراز قوة الدولة العسكرية. لذلك يكثر السلطان منها «حتى يظهر أثر ذلك عليهم [جنوده] في ملابسهم وشكتهم وشاراتهم يوم الزينة، فيباهي بهم الدول المسالمة، ويرهب الدول المحاربة».[348]

ومما يوضح صدق ما تذهب إليه، فتوى صدرت عن الشيخ الفقيه أبي موسى عمران المشدالي في حكم تزيين السلاح والركاب من خالص الذهب والفضة، سأل عنها السلطان أبو الحسن المريني، وأمر أن تستنسخ وتبعث إلى جميع الفقهاء بالمغرب الأوسط والأقصى.[349] وتبدو أهمية هذه الفتوى في كشفها عن سبب حرص السلطان على إبراز

Scanned by CamScanner

مظاهر العظمة والأبهة في سلاحه، وهو ما نستشفه من جواب الفقيه، في جواز «تحلية ما في تحليته إرهاب العدو من الآلات الحربية».[350] إذ ما من شك أن تعظيم سلاح السلطان وإفراده بمظاهر الزينة لا يمكن إلا أن يبعث في نفسية الآخر -بما فيه القبائل والدول المجاورة- إحساسا بالضعف والنقص أمام قوة السلطان وعظمته.

ويبدو أن المواكب والاستعراضات التي كان يظهر فيها السلطان أمام العامة، سواء في المناسبات الدينية، أو الاحتفالات الموسمية،[351] تكشف عن موقع الحرب في مجمل التأثيرات الجماعية التي يستغلها السلطان لتأكيد قوته وعظمته، إذ كان يحرص على جعلها تتدفق بشتى المظاهر الحربية، ومن ذلك ما جرت به العادة في ليلة العيدين، حيث «ينادي والي البلد في أهلها بالمسير، ويخرج أهل كل سوق إلى ناحيته، ومع كل واحد منهم قوس أو آلة سلاح، متجملين بأحسن الثياب.. فإذا ركب السلطان بكرة اصطفوا يمشون قدامه، ويركب السلطان، ويركب العسكر معه ميمنة وميسرة والعلوج خلفه ملتفون به، والأعلام منشورة وراءه والطبول تدق خلفها حتى يصلي ثم يعود»[352] كأنه يوم حرب، وفي هذا التشابه الشديد بين العيد والحرب ما يفصح عن موقع الحرب ضمن مجمل القيم الممجدة خلال هذه المرحلة.[353] ومن جانب آخر توضح المغزى من تأكيد السلطان على إضفاء صفة الحرب على مثل هذه المناسبات حسب ما يفهم من رواية النميري،[354] إذ في وصفه لها أكد أنها «تضفي على الموكب صبغة الحرب وتبعث في النفوس الهيبة والوقار».

وتثبت كثير من النصوص أن الشجاعة والفروسية والدراية بأمور الحرب كانت من القيم التي أصبح امتلاكها والتحلي بها أمراً ضرورياً لكل سلطان؛ فقد كتب صاحب «فضل الخلافة»[355] أن «الشجاعة لمن كانت له الدولة» شرط أساس لاستمرار حكمه ودوامه؛ لذلك لن نستغرب إن استحضرت المصادر أوصافاً في حق السلاطين المرينيين،[356] من مثيل ما قيل عن أبي بكر بن عبد الحق إنه كان «أيسر أعسر يقاتل بكلتا يديه، ويطعن بحربتين في حالة واحدة، فارس زناتة في وقته وزمانه... يقوم في الحرب مقام جنده، وكانت الأبطال تهاب مبارزته، والزعماء يخافون محاربته ومناجزته».[357] وما أثر عن يعقوب بن عبد الحق من كونه «فارساً شجاعاً بطلا مجربا حازماً عازماً... لم تهزم له قط راية، ولم يكسر له جيش، ولم يغز قط عدواً إلا قهره».[358] وما وصف به أبو سعيد عثمان الذي كان «فارس الحرب، وأسد الطعن»،[359] وغيرها من الشمائل التي تجمع على أن إتقان فن الحكم، واستمرار حكم سلطان ما، مرتبط بمدى إتقانه لأمور الحرب وقيمها.

Scanned by CamScanner

ولا نعدم من القرائن الدالة على هذا الاستنتاج؛ فابن الأحمر[360] في نص دال يكشف عن أهمية الفروسية في جملة القيم التي تكسب الأمير هيبته وعظمته، وصف فيه أبا حمو سلطان تلمسان بالجبن والضعف لعجزه عن إتقان فن الفروسية؛ إذ إنه «ما رئي يجري فرسه قط، فإن اعتذر عن ذلك من رزانته فليس الأمر كذلك، إذ من شأن الملوك الكبار الذين هم أكبر قدراً منه في الحسب وضخامة الملك أن يلعبوا مع خدامهم الموالي يجري الخيل بقصد الثقافة ومعرفة ركض الخيل. وهذه عادة مطردة لهم، ومن لا يفعل ذلك منهم فهو خواف على نفسه أن يقع من الفرس من جهله بالفروسية». وبالمثل فإن مجرد الفشل في إتقان فن من هذه الفنون الحربية يعد منقصة لصاحبها، ومن ذلك ما أثارته كبوة فرس السلطان موسى بن أبي عنان (786–788هـ/1384–1386م) في موكبه وسط مدينة فاس من تداعيات، عبر عنها الشعراء والكتاب الذين حاولوا أن يمسحوا عن السلطان بعضا مما لحق به من مذلة نتيجة هذه العثرة.[361]

وبالموازاة مع ذلك، حرص السلاطين المرينيون على استعادة بعض التقاليد البدوية المميزة للمحارب الشجاع، ومنها الصيد واقتناص الأسود، وتحويلها إلى احتفال ملكي تحضره العامة والخاصة.[362] فقد كان السلطان أبو عنان على سبيل المثال «مولعاً بقتل الأسود».[363] ويفصح الكفيف الزرهوني، عن القيمة الرمزية لهذا الفعل الاحتفالي وإظهار عظمة السلطان وقوته لذلك نجده يتشفى من هزيمة أبي الحسن وما ميزها من انكسار، مقارنا إياها بمشهد صيد الأسد.[364]

عموماً فإن الطابع الحربي والمظهر العسكري لدولة أصلها قبيلة من «الأمم الوحشية، الساكنين بالقفر»، عادتها الغزو وانتهاب ما بأيدي غيرها، ولم تتمكن طيلة حكمها من وضع السلاح جانبا، هو أمر طبيعي لا يحتاج إلى كثير من الحجج لإثباته، بل قد لا نغالي إذا قلنا إن التخلي عن سلوك الحرب، وميزات البداوة الموسومة بخلق الشجاعة والفروسية والحرابة، لن يؤدي إلا إلى هرم الدولة وانحلالها. وهو ما يقرره ابن خلدون[365] بقوله، إنه بعد أن تستحكم عوائد الترف في أهل الدولة «وينقلب خلق التوحش، وينسون عوائد البداوة التي كان بها الملك من شدة البأس وتعود الافتراس، وركوب البيداء، وهداية القفر، فلا يفرق بينهم وبين السوقة من الحضر إلا في الثقافة والشارة، فتضعف حمايتهم، ويذهب بأسهم، وتنخضد شوكتهم، ويعود وبال ذلك على الدولة بما تلبس به من ثياب الهرم، ثم لا يزالون يتلونون بعوائد الترف والحضارة والسكون والدعة... وينسون خلق البسالة التي

Scanned by CamScanner

كانت بها الحماية والمدافعة حتى يعودوا عيالا على حامية أخرى إن كانت لهم».

وفي نص آخر دقيق، يثبت ابن خلدون[366] الدور الذي تضطلع به المظاهر الحربية، والأوصاف العسكرية، والشارات السلطانية المشبعة بتلك المظاهر، في تأخير انهيار الدولة وفنائها، إذ عادة ما يلجأ السلاطين إلى إخفاء معالم ضعفهم بالإكثار من مظاهر الزينة الحربية «ويلبسون على الناس في الشارة والزي وركوب الخيل وحسن الثقافة يموهون بها، وهم في الأكثر أجبن من النسوان على ظهورها، فإذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا مدافعته».

ولعله من المفيد أن نشير إلى ما كان يردده ميكيافلي في أوربا المرحلة نفسها، في أن صناعة الحرب هي مهمة الأمير الأولى، يشيد بها مجده، ويحافظ بها على مملكته، وإذا ما أعرض عنها يلقي بنفسه ومملكته إلى المخاطر.[367] ويقول في هذا الصدد: «حينما يتعاطى الأمراء إلى الملذات أكثر مما يتدربون على السلاح، فإنهم لا محالة يضيعون ممالكهم، إن الإعراض عن فنون الحرب هو السبب الأول في ضياع الملك، كما أن سبب توسيع الممالك هو ميل الأمير إلى الصناعة الحربية».[368]

ولا يفوتنا في الأخير، أن نشير إلى أن الأساس العسكري للدولة قد أثر تأثيرا واضحاً في المصاهرات التي عقدها السلاطين المرينيون.[369] هذه المصاهرات التي لا تخفى، في الوقت ذاته، دوافعها الحربية، وحاجة السلاطين إلى كسب ود طرف لتوجيه الحرب ضداً على آخر؛ ومن ذلك مصاهرة أبي الربيع سليمان(708-710هـ/1308-1310م) لبني نصر الأندلسيين؛ فقد أوفد ابن الأحمر أبو الجيوش نصر بن محمد رسله إلى السلطان المريني أبي الربيع لعقد السلم على أن يتنازل له عن الجزيرة الخضراء ورندة وأحوازها، وخطب منه أخته التي أنكحه إياها ابن الأحمر، ومقابل ذلك بعث السلطان المريني بالمدد للجهاد أموالا وخيولا.[370]

ومن ذلك أيضا مصاهرة أبي الحسن المريني لبني حفص بتونس والتي حصل من خلالها على «مفاتيح بجاية... فأما السبب الباعث لصاحب إفريقية على إرسال بنته إلى السلطان أبي الحسن المريني، فهو أن سلطان بني عبد الواد صاحب تلمسان كان قد حاصر بجاية، ونزل عليها ونازلها وضايقها، ولم يطق صاحب إفريقية دفعه، فأراد تأكيد معاضدة المريني له، فزوجه ابنته في أيام أبيه أبي سعيد عثمان».[371] وهو ما يؤكد أن للدوافع الحربية دوراً واضحاً في هذه المصاهرات، عكس ما ذهب إليه جورج مارسي[372] الذي عزا ذلك إلى ما

Scanned by CamScanner

تمثله الدولة الحفصية من أرستقراطية راقية سواء من خلال أصولها، أو من خلال طريقة عيشها.

خلاصة القول إن الحرب ظلت على امتداد العصر المريني تشكل ظاهرة دائمة وبنيوية، دعم استمرارها طبيعة الدولة التي انبثقت أصلا من بنية قبلية تعتمد الحرب أسلوبا للعيش والبقاء، وطريقة للحفاظ على الذات واستقلالها. وحدد بنيوتها حاجة الدولة الحيوية لخدمات الجيش أسلوبا للوصول إلى الملك وخيراته، وأداة للحفاظ عليه واستمراره. مما كرس حضورها، وضخم مؤسساتها.

وقد تبين أن الطبيعة الحربية للدولة المرينية فرضت نوعا من التعدد والتنوع في مكونات الجيش، وجعلت من العطاء وتوفير النفقات أو عدمها مفتاحا لإنجاح مشاريعها أو فشلها. واتضح أن حضور الحرب في بنية الدولة أثر بشكل مباشر في بلورة مسارها السياسي؛ فبقدر ما أسهم في بنائها والحفاظ عليها، كان سببا في هلاكها وانهيارها. وتجلى لنا أيضا أن الحضور المكثف للظاهرة الحربية قد طبع الدولة بالطابع العسكري، وجعل من قيم الحرب نموذجا للقواعد الحياتية، والقيم المرعية التقدير.

غير أن اعتبار الحرب ظاهرة تحضر باستمرار، يقتضي الكشف عن الأثر الذي يمكن أن تخلفه على مستوى القطاعات غير الحربية. فهل أثرت الحرب في البنى الاقتصادية لمغرب العصر المريني؟ وهل كان لحضورها المكثف دور في توجيه الأنشطة غير الحربية لخدمة الأغراض الحربية؟

---

[1] من هذه الأبحاث، إيف لاكوست، **العلامة ابن خلدون**، ص، 43–90–107. عبد القادر جغلول، **مقدمات في تاريخ المغرب العربي القديم الوسيط**، ص، 64–65، 77.

ومن بين هؤلاء الباحثين الذين استوقفتهم الأهمية التي اكتستها الحرب في بنية الدولة المغربية ومسارها خلال العصر الوسيط، عبد الله العروي الذي أولى أهمية خاصة للجيش ولدوره في استمرار الدولة أو انهيارها، باعتبار أنه يمثل حاميا للدولة، وجابيا لأموالها أيضا. فيخلص في إطار حديثه عن الدولة الموحدية إلى «أن الحرب في الأطراف والأندلس وإفريقيا، كانت من منظور الدولة ضرورة ملحة لا يمكن الإعراض عنها، أو التهاون في شأنها، إذ من دون ما يصاحبها من مغانم وفيء يستحيل تمويل الخزينة، وبالتالي تجهيز الجيوش والبحرية، وإسكات الأشياخ الموحدين، واصطناع الحاشية»، **مجمل تاريخ المغرب**، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1984، ص، 187.

[2] انظر، محمد عابد الجابري، **العصبية والدولة**. إبراهيم القادري بوتشيش، **الحياة الاجتماعية**. الحسين بولقطيب، **الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى**، فضلا عن جملة من الدراسات الجادة التي قدمها هؤلاء

الباحثون في هذا المجال. انظر الهوامش اللاحقة.

3 سبق أن قدم بعض الباحثين ملخصات لمجمل آراء هذه الدراسات انظر، الحسين بولقطيب، الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى، ق1، ص ص، 130–134. محمد ياسر الهلالي، مجتمع المغرب الأقصى، ص ص، 324–328.

4 الحسين بولقطيب، الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى، ق 1، ص، 131–132.

5 محمد عابد الجابري، العصبية والدولة، ص ص، 405–421.

6 إبراهيم القادري بوتشيش، الحياة الاجتماعية، ج. 1، ص ص، 191–194.

7 الحسين بولقطيب، الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى، وانظر تفصيله في مقاله أسلوب الإنتاج الحربي والتحول المعاق، ص ص، 73–91.

8 ابن خلدون، المقدمة، ص، 122.

9 إبراهيم القادري بوتشيش، الحياة الاجتماعية، ج. 1، ص، 192. الحسين بولقطيب، أسلوب الإنتاج الحربي، ص، 76. محمد عابد الجابري، العصبية والدولة، ص، 409.

10 الحسن بولقطيب، أسلوب الإنتاج الحربي، ص، 80.

11 إبراهيم القادري بوتشيش، الحياة الاجتماعية، ج. 1، ص، 191.

12 محمد عابد الجابري، العصبية والدولة، ص، 409. إبراهيم القادري بوتشيش، الحياة الاجتماعية، ج. 1، ص، 191.

13 إبراهيم القادري بوتشيش، الحياة الاجتماعية، ج. 1، ص، 191.

14 إبراهيم القادري بوتشيش، أثر الحروب في المجال الضريبي، ص، 79. حلقات مفقودة، ص ص، 12–13.

15 ابن خلدون، المقدمة، ص، 211.

16 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

17 انظر للتفصيل المبحث الثاني من الفصل الأول.

18 محمد عابد الجابري، العصبية والدولة، ص، 407–409. إبراهيم القادري بوتشيش، حلقات مفقودة، ص، 13.

19 إبراهيم القادري بوتشيش، اثر الحروب في المجال الضريبي، ص، 80.

20 محمد عابد الجابري، العصبية والدولة ، ص ص، 406–407. إبراهيم القادري بوتشيش، الحياة الاجتماعية، ج. 1، ص، 192. الحسين بولقطيب، أسلوب الإنتاج الحربي، ص، 81.

21 الحسين بولقطيب، أسلوب الإنتاج الحربي، ص، 82.

22 إبراهيم القادري بوتشيش، الحياة الاجتماعية، ج. 1، ص ص، 191–192.

23 المرجع نفسه، ص، 192. حلقات مفقودة، ص ص، 21–22.

24 الحسين بولقطيب، أسلوب الإنتاج الحربي، ص، 80.

25 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

26 إبراهيم القادري بوتشيش، الحياة الاجتماعية، ج. 1، ص ص، 191–192.

27 الحسين بولقطيب، أسلوب الإنتاج الحربي، ص، 80.

28 إبراهيم القادري بوتشيش، الحياة الاجتماعية، ج. 1، ص، 192. محمد عابد الجابري، العصبية والدولة، ص، 407–421.

29 انظر للتفصيل، أثر الحروب في المجال الضريبي، ص ص، 79–92. حلقات مفقودة، ص ص، 22–25.

30 إبراهيم القادري بوتشيش، الحياة الاجتماعية، ج. 1، ص، 192.

31 الحسين بولقطيب، أسلوب الإنتاج الحربي، ص، 80.

Scanned by CamScanner

32 محمد عابد الجابري، **العصبية والدولة** ، ص ص، 410–411. إبراهيم القادري بوتشيش، **الحياة الاجتماعية**، ج. 1، ص، 191.

33 إبراهيم القادري بوتشيش، **أثر الحروب في المجال الضريبي**، ص، 81.

34 المرجع نفسه، ص ص، 82–84. محمد عابد الجابري، **العصبية والدولة**، ص ص، 404–405. الحسين بولقطيب، **أسلوب الإنتاج الحربي**، ص، 80.

35 انظر، ابراهيم القادري بوتشيش، **حلقات مفقودة**، ص ص، 29–30.

36 انظر، دراسات هؤلاء الباحثين التي أحلنا إليها في الهوامش السابقة لمزيد من التفصيل.

37 Lispon Lesli, *Les grands thèmes de la pensée politique*, Traduit par Anne Emmanuelle Claude Saigues, Presse de Fondation nationale des sciences politiques, 1977, pp. 70-80.

38 محمد شقير، **تطور الدولة في المغرب**، ص، 93.

39 محمد عابد الجابري، **العقل السياسي العربي – محدداته وتجلياته**، المركز الثقافي العربي، طبعة دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1990، ص، 125.

40 انظر للتفصيل في هذه المقولة، عز الدين العلام، **السلطة والسياسة في الأدب السلطاني**، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1991، ص ص، 27–160.

41 ابن رضوان، **الشهب اللامعة**، ص، 87.

42 عز الدين العلام، **السلطة السياسية في الأدب السلطاني**، ص ص، 161–187.

43 محمد عابد الجابري، **العقل السياسي العربي**، ص، 125.

44 مجهول، **الرسالة الوجيزة إلى الحضرة العزيزية في علوم الخلافة**، (وجهها صاحبها إلى السلطان أبي فارس عبد العزيز بن أبي الحسن المريني 767–774هـ/1365–1372م. والتخريج هنا لمحقق هذه الرسالة)، إعداد وتقديم أحمد الدغيرني، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط. 1، 1987، ص، 58.

45 ابن الخطيب، **شرح رقم الحلل**، ص، 266.

46 ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 291. مجهول. **الحلل الموشية**، ص، 174. ابن القاضي، **جذوة الاقتباس**، ق1، ص، 103. الناصري، **الاستقصا**، ج. 3، ص، 11.

47 ابن الخطيب، **شرح رقم الحلل**، ص، 239.

48 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

49 العمري، **مسالك الأبصار**، ص ص، 109–111. ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص، 129. ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 223.

50 انظر للتفصيل في هذا الرأي، أطروحة القبلي ...*Société, pouvoir*، ص ص، 171–218.

51 عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، ج. 2، ص ص، 195–206.

52 ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 114.

53 شكلت قبائل صنهاجة الملثمين النواة العسكرية الأولى للجيش المرابطي، وكذلك كانت قبائل مصمودة درن بالنسبة للجيش الموحدي. كما كانت زناتة وقبائل بني مرين نواة للجيش المريني كما سنلاحظ.

54 وقد أثبتنا في الفصل السابق –أثناء حديثنا عن القبائل المغربية خلال العصر المريني– أن بعضا منها قد أصبح يتخصص، في توفير الرجال والفرسان، وأضحت مهامها أكثر تخصصا في الحرب والقتال، وتوزعت هذه المهام بحسب وضع الدولة من حيث القوة أو الضعف، وأن هذه القبائل قد بدأت تقدم خدماتها العسكرية لمن يدفع مقابلا عنها. وميزنا هذه القبائل من غيرها المغلوبة والتي استمرت في التعامل

Scanned by CamScanner

مع الأرض أو القطيع مع الالتزام بدفع الضرائب، والخفوف إلى العسكرة مع السلطان متى دعوا إليها. وإذا كنا -طبقا للضرورة المنهجية- قد ركزنا في الفصل السابق على حالة ضعف الدولة أو غيابها، فإن اهتمامنا في هذا العنصر سيركز على حالة قوتها وحضورها.

55 العمري، مسالك الأبصار، ص، 109.

56 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 226.

57 المصدر نفسه، ص، 227. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 11.

58 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 114.

59 محمد المنوني، ورقات، ص، 99.

60 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 77—122. الأنيس المطرب، ص ص، 307—330—377—378—391. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 114—216—249—272. الكفيف الزرهوني [زجال مغربي عاش في القرن 8 هـ/14م]، ملعبة، ص ص، 70—72. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 31—32، 67.

61 ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص، 345.

62 المصدر نفسه، ج. 7، ص، 225.

63 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 33—34—35. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 225.

64 ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص، 357.

65 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 385.

66 ابن خلدون، العبر، ج، 7 ص، 236. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 303، الذخيرة السنية، ص، 98. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 23،

67 الكفيف الزرهوني، ملعبة، ص، 72، 83—84. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 378.

68 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 378.

69 المصدر نفسه، ص، 394.

70 العمري، مسالك الأبصار، ص، 110.

71 محمد المنوني، ورقات، ص، 99.

72 انظر المبحث الثاني والرابع من الفصل الأول.

73 محمد القبلي، انظر الفصل الرابع من أطروحته،

Société, pouvoir..., op. cit., pp. 171-218.

74 ابن خلدون، المقدمة، ص ص، 110—111.

75 المصدر نفسه، ص، 111.

76 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 314—222—380. الذخيرة السنية، ص، 129—145. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 249. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص ص، 31—32.

77 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 322—335.

78 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 374.

79 صاحب أرجوزة نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك.

80 وفي ذلك يقول،

وأذكر خدمة العرب التي قد ... أعزتهم لدى المولى جنابا
فحازوا عنده أعلى مكان ... مكين لن يرام ولن يصابا
فأنتم أيها العرب انتصرتم ... لعزكم فألزمكم منابا
أليس لجشْمٍ لكم انتساب ... كذلك مرين إن رفعوا انتسابا
وأنتم إخوة نسبا وصهرا ... كما حدتم عن الفخر اجتنابا

Scanned by CamScanner

انظر النص عند، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ص، 370–371.

81 ويذكر الملزوزي أسماء القبائل العربية التي جازت مع السلطان وكان لها دور أساس في انتصاره. المصدر نفسه، ص، 371.

82 فقد صاهر بنو مرين عرب الخلط حين اتخذ يعقوب بن عبد الحق من عائشة بنت أبي عطية مهلهل الخلطي زوجة له. (ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 395. الأنصاري، الاستقصا، ج. 3، ص، 103). مثلما تزوج يعقوب من أرملة أمير عرب سفيان من جشم، بعدما قضى على تمرده ببلاد نفيس (ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 337)، كما اتخذ أبو سعيد عثمان إحدى زوجاته من بني حميد عرب عامر بن زغبة (ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص، 69)، ويذكر الحسن الوزان أن ملوك فاس اعتادوا أن يتخذوا زوجاتهم من بنات عرب المنبات وأن يربطوا معهم وشائج القرابة لكونهم تبلاء، وفي غاية الشجاعة (وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 55). وانظر أيضا، مصطفى أبو ضيف، أثر القبائل العربية، ص ص، 162–163.

Herman L. Beck, *L'image d'Idris II : ses descendants de Fas et la politique sharifienne des sultans marinides (656-869/1258-1465)*, E.J.Brill, Leiden, 1989, p. 99.

83 ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص، 37.

84 وقد قام هذا القبيل بدور أساس في هزيمة جيش المرتضى أمام الجيش المريني (649هـ/1251م) حيث اتفقوا مع أبي بكر المريني على خلخلة صفوفه، فانتهت الوقعة دون حدوث أي قتال، مصطفى أبو ضيف أحمد، أثر القبائل العربية، ص، 165–166.

85 المرجع نفسه، ص، 166.

86 المرجع نفسه، ص ص، 167–184.

87 الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص ص، 31–32.

88 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 314.

89 المصدر نفسه، ص، 380. الذخيرة السنية، ص، 145.

90 مصطفى أبو ضيف أحمد، أثر القبائل العربية، ص ص، 167–178.

91 انظر نص القصيدة، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ص، 364–372.

92 الكفيف الزرهوني، ملعبة، ص، 71.

93 محمد القبلي، الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط، ص، 51.

94 انظر للتفصيل، مصطفى أبو ضيف، أثر القبائل العربية، ص، 180.

95 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

96 المرجع نفسه، ص، 184.

97 انظر، ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 189–267–272–273–280–422... ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 307–330–377–378–391. الناصري، الإستقصا، ج. 4، ص، 32–38.

98 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 273.

99 انظر للتفصيل، أبو ضيف أحمد، أثر القبائل العربية، ص ص، 184–193.

100 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 226. ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 36.

101 انظر المبحث الثالث من الفصل السابق.

102 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 322–380–388.

103 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 129. الأنيس المطرب، ص، 307. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص ص، 31–32.

Scanned by CamScanner

104 الذخيرة السنية، ص، 145. الأنيس المطرب، ص، 314.

105 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 350.

106 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 77.

107 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 388.

108 المصدر نفسه، ص، 377.

109 العمري، مسالك الأبصار، ص، 125.

110 مجهول، الحلل الموشية، ص ص، 84–85. وانظر للتفصيل في هذه النقطة، إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي...، ص ص، 67-92.

111 انظر للتفصيل، الحسين بولقطيب، الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى، ق 1، ص ص، 29–30.

112 إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص ص، 76–77. الحسين بولقطيب، الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى، ق 1، ص ص، 30–31. مصطفى نشاط، الارتزاق المسيحي بالدولة المرينية، ضمن ندوة، الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ط. 1، 1995، ص ص، 118–119.

113 Kably, *Société, pouvoir…* , *op. cit.*, pp. 1-48.

114 عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ج. 2، ص، 193.

115 الحسين بولقطيب، الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى، ق 1، ص ص، 30–31.

116 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 282.

117 أليماني خوسي، الكتائب المسيحية في خدمة الملوك المغاربة، ترجمة أحمد مدينة، مجلة دعوة الحق، ع. 5، السنة 19، ماي 1978، ص، 40.

118 تظل المعلومات الخاصة بهذه المعاهدات نادرة في مصادر المرحلة، ويضم كتاب شارل إمانويل دوفورك معلومات هامة عنها، انظر،

Dufourcq. Charles-Emmanuel, *l'Espagne catalane et le Maghreb aux XIIIe et XIVe siècles*, Presses Universitaires de France, Paris, 1966.

119 انظر عنها، مصطفى نشاط، الارتزاق المسيحي بالدولة المرينية، ص ص، 117–135. عبد العزيز غوردو، الارتزاق بالدولة المركزية المغربية الوسيطة خ من منتصف القرن الخامس هـ إلى منتصف القرن 9 هـ، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة، 2001–2002، ص، 135–184.

120 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 289، الذخيرة السنية، ص، 37.

121 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 231. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ص، 294–295.

122 انظر، ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 231.

123 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ص، 295–296.

124 الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 13.

125 البيان المغرب – قسم الموحدين، ص، 402.

126 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص ص، 88–89.

127 عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ج. 2، ص، 211.

128 مصطفى نشاط، الارتزاق المسيحي بالدولة المرينية، ص ص، 130–131.

129 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 244.

130 عبد العزيز غوردو، الارتزاق بالدولة المركزية المغربية الوسيطة، ص ص، 154–155.

131 Dufourcq, *L'Espagne catalane …*, *op. cit.*, p. 388.

Scanned by CamScanner

132 فقد بلغ عددهم، حسب رواية العمري، في زمن أبي الحسن «مقدار أربعة آلاف أو يزيد»، **مسالك الأبصار**، ص، 111، بينما حصره ابن مرزوق، في ما بين ألفين وثلاثة آلاف جندي (**المسند الصحيح الحسن**، ص، 282). ويبدو أن هذا العدد قد ارتفع في عهد أبي عنان بحكم الانفتاح الملحوظ الذي عرفه المغرب آنذاك، والذي تعكسه كثرة المعاهدات التي وقعها هذا السلطان مع الدول الأوربية (مصطفى نشاط، **الارتزاق المسيحي بالدولة المرينية**، ص، 126). وسنعود إلى مسألة العدد فيما سيأتي.

133 **ملعبة**، ص، 99–101.

134 **فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسطنطينة والزاب**، دراسة وإعداد، محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. 1، 1990. ص، 63.

135 انظر للتفصيل، مصطفى نشاط، **الارتزاق المسيحي بالدولة المرينية**، ص، 124–126، 133–135. عبد العزيز غوردو، **الارتزاق بالدولة المركزية المغربية الوسيطية**، ص ص، 165–169.

136 وقد استنتج أحد الباحثين بعد استعراضه لمحطات مساهمة المرتزقة بالجيش المريني أن المرتزقة القشتاليين كانوا في الغالب وراء الاضطرابات التي عرفها المغرب المريني، مفسراً ذلك بالعداء المتمكن بين قشتالة والمغرب، خاصة على حدود التماس بالأندلس... انظر، مصطفى نشاط، **الارتزاق المسيحي بالدولة المرينية**، ص ص، 134–135.

137 الناصري، **الاستقصا**، ج. 3، ص، 102.

138 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص ص، 318–319.

139 المصدر نفسه، ص، 323.

140 المصدر نفسه، ص ص، 415–416.

141 المصدر نفسه، الصفحة نفسها، الناصري، **الاستقصا**، ج. 4، ص، 38.

142 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 417.

143 المنوني، **ورقات عن حضارة المرينيين**، ص، 99.

144 العمري، **مسالك الأبصار**، ص، 111.

145 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

146 لقد آثرنا للضرورة المنهجية أن نؤجل الحديث عن أعداد هذا الجيش، وأعطيات أفراده إلى المبحث الثاني حتى يتسنى لنا مقاربتها ضمن النفقات العامة للدولة، ذلك أن عدد الجند مرتبط، في اعتقادنا، أيما ارتباط بوضع الدولة ومسارها من التأسيس إلى الاستقرار إلى الاضطراب والانهيار.

147 Driss, Ben Ali, *Le Maroc pré-capitaliste : formation économique et sociale*, Société Marocaine des éditeurs réunis, Rabat, 1983, pp. 157-165.

148 **واسطة السلوك في سياسة الملوك**، ص ص، 112–14.

149 المصدر نفسه، ص، 13.

150 **الإشارة إلى أدب الوزارة – مقامة السياسة**، تحقيق ودراسة، محمد كمال شبانة، مطبعة الساحل، الرباط، ص، 134.

151 **المقدمة**، ص، 230.

152 راجع للتفصيل في هذه النقطة، عز الدين العلام، السلطة والسياسة، ص ص، 145–151.

153 المرجع نفسه، ص ص، 147–148.

154 عز الدين العلام، السلطة والسياسة، ص، 147.

155 المرجع نفسه، ص، .

156 ابن خلدون، المقدمة، ص، 123.

Scanned by CamScanner

157 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
158 المصدر نفسه، ص، 4.
159 المصدر نفسه، ص ص، 110–111.
160 المصدر نفسه، ص، 111.
161 انظر للتفصيل، المبحث الثاني من الفصل الأول.
162 ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 114–211.
163 المصدر نفسه، ص، 122.
164 إبراهيم القادري بوتشيش، **حلقات مفقودة**، ص، 12.
165 يبدو أن أهمية الغنيمة بالنسبة للدول خلال العصر الوسيط عموماً هو ما حدا بأحد الباحثين إلى اعتبارها من المفاتيح الأساسية التي ينبغي اعتمادها لقراءة التاريخ الإسلامي. انظر، محمد عابد الجابري، **العقل السياسي العربي**، ص ص، 13–14.
166 الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص ص، 58–59.
167 ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص، 25. **الأنيس المطرب**، ص، 282. مجهول، **نبذة من تاريخ المغرب الأقصى**، ص، 125–126. الناصري، **الاستقصا**، ج. 3، ص، 5.
168 ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 71.
169 انظر المبحث الثاني من الفصل الأول.
170 ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 284. **الذخيرة السنية**، ص، 28. مجهول، **نبذة من تاريخ المغرب الأقصى**، ص، 187. ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 225.
171 **العبر**، ج. 7، ص، 225.
172 ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 286. **الذخيرة السنية**، ص ص، 32–33. مجهول، **نبذة من تاريخ المغرب الأقصى**، ص، 128.
173 انظر، المبحث الثالث من الفصل السابق.
174 محمد عابد الجابري، **العقل السياسي العربي**، ص ص، 125–126.
175 Kably, *Société, pouvoir*, *op. cit.*, pp. 1-15.
176 Bel Alfred, *Les premiers émirs*, *op. cit.*, pp. 34-35.
177 محمد ياسر الهلالي، **مجتمع المغرب الأقصى**، ص، 357.
178 ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 288.
179 ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 226.
180 ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص، 36.
181 ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 287. **الذخيرة السنية**، ص، 34.
182 ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 288. **الذخيرة السنية**، ص، 35. مجهول، **نبذة من تاريخ المغرب الأقصى**، ص، 129.
183 الناصري، **الاستقصا**، ج. 3، ص، 10.
184 ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 289.
185 Kably, *Société, pouvoir...*, *op. cit.*, pp. 33-37.
186 يمكن الوقوف على تفاصيل هذه النقطة في المبحث الرابع من الفصل السابق.
187 ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 291– **الذخيرة السنية**، ص، 65. الناصري، **الاستقصا**، ج. 3، ص، 11.

Scanned by CamScanner

188 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 226. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 10.

189 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 228.

190 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

191 المصدر نفسه، ص، 230.

192 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ص، 295-296. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص ص، 230-231.

193 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 295.

194 المقدمة، ص، 122.

195 ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، ص، 113.

196 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 233.

197 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 296. مجهول، نبذة من تاريخ المغرب الأقصى، ص، 134.

198 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 303.

199 المصدر نفسه، ص، 305. الذخيرة السنية، ص، 116. ابن الأحمر، روضة النسرين، ص، 59.

200 المصدر نفسه، ص، 306. الذخيرة السنية، ص، 117.

201 مجهول، نبذة من تاريخ المغرب الأقصى، ص ص، 127-129. ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 28-32-33-35. الأنيس المطرب، 284-286-288.

202 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 34. الأنيس المطرب، ص، 286.

203 ولعل من المفيد، أن نشير إلى أنه فضلا عن هذه الأموال المتحصلة من الحرب أو التهديد بها، فقد كان الحفصيون في تونس يمدون بني مرين بالمال والسلاح لتوجيه حملاتهم ضد الموحدين، فعندما ولي المستنصر ابن أبي زكرياء الحفصي بعد أبيه سنة 647 هـ/1249م، يذكر ابن خلدون أنه «تقبل مذاهب أبيه وأوفى عليه بالإيعاز إليهم بمنازلة مراكش، وضمان الإنفاق عليهم فيها فكان يبعث لذلك أحمالا من المال والسلاح وأعدادا وافرة من الخيل بمراكبها للحملان، ولم يزل ذلك دأبهم معهم»، حتى اسقطوا خلافة الموحدين وتولوا ملك المغرب. العبر، ج. 7، ص ص، 239-240.

204 ابن رضوان، الشهب اللامعة، ص، 84.

205 عز الدين العلام، السلطة والسياسة في الأدب السلطاني، ص، 139.

206 انظر محمد عابد الجابري، العصبية والدولة، ص ص، 19-26. الحسين بولقطيب، نمط الإنتاج الحربي، ص ص، 74-75.

207 يمكن تبين ذلك فقط بإلقاء نظرة على أهم تحركات الجيش المريني في الأندلس، انظر، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ص، 313-374. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 254-255-256-259-260-261-262-271-272-274-275-276.

208 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 315.

209 المصدر نفسه، ص، 327.

210 انظر مثلا ما خصه ابن أبي زرع من وصف دقيق لما تحصل عليه المرينيون من هذه الحملات رغم ما يبدو على هذا الوصف من مبالغة، الأنيس المطرب، ص ص، 314-315-316-317-318-319-321-325-326-327-329-338-335-336-341-374. انظر أيضا ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 256-266-270-271. المزوزي، نظم السلوك، ص، 100-101-125-142.

211 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 316.

212 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 254.

213 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 317.

Scanned by CamScanner

214 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 271.

215 القبتوري،خلف الغافقي، رسائل ديوانية من سبتة في العهد العزفي، تقديم وتحقيق، محمد الحبيب الهيلة، المطبعة الملكية، الرباط، 1979م، ص ص، 66-74.

216 الأنيس المطرب، ص، 319. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 256.

217 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 328.

218 المصدر نفسه، ص، 379. ابن الأحمر، روضة النسرين، ص، 55.

219 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 310. ابن الأحمر، روضة النسرين، ص، 60. الذخيرة السنية، ص، 13. ابن خلدون، العبر، ص، 244.

220 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 311.

221 ابن خلدون، العبر، ج. 7. ص، 245.

222 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 337. ابن خلدون، العبر، ج. 7. ص، 270.

223 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 321.

224 انظر الملحق رقم 2.

225 انظر الملحق نفسه.

226 Kably, *Variations islamistes et identité du Maroc médiéval*, Islam d'hier et d'aujourd'hui, Maisonneuve et Larose, Paris, Edition Okad, Rabat, 1989, p. 61.

227 مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى...، ص، 353.

228 المقدمة، ص، 132.

229 المصدر نفسه، الصفحة نفسها

230 محمد ياسر الهلالي، مجتمع المغرب الأقصى، س2، ص، 461.

231 المقدمة، ص، 132.

232 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص ص، 314-315.

233 انظر الملحق رقم 2.

234 ومن ذلك اتخاذ السلاطين المرينيين ركابهم من خالص الذهب والفضة. بل إن زي السلطان والأشياخ والجنود يشد بمضمات من الذهب والفضة، «منها ما يبلغ ألفا مثقال» (العمري، مسالك الأبصار، ص، 141). وكان لبعض السلاطين جمال على ظهر كل واحد منها هودج محلى بخلاخل من ذهب وفضة ولحف منسوجة بالذهب والحرير (علي حامد الماحي، المغرب في عصر أبي عنان، ص، 160). انظر للتفصيل، الونشريسي، المعيار، ج. 6، ص، 329 [نازلة سئل عنها عمر بن موسى بن يوسف المشدالي بتاريخ 740هـ عن حكم الشرع في اتخاذ الركاب وتحلية السيوف بالذهب]. القلقشندي، صبح الأعشى، ج. 5، ص، 203. ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج. 2، ص، 273.

235 القول هنا للفقيه عبد الله العبدوسي (ق 8هـ/14م)، الونشريسي، المعيار، ج. 7، ص، 308.

236 ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، ص، 119-149-150-151-152. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 399. الجزنائي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق، عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1967، ص، 29. المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض، ضبط وتحقيق وتعليق، مصطفى القسا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة فضالة، صندوق إحياء التراث الإسلامي، الرباط، 1978، ص، 39. الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص ص، 260-261. مجهول، مجموع مؤلف من ظهائر شريفة وعقود وأنكحة متعلقة بالشرفاء السجلماسيين، مخ. خ.ع، الرباط، رقم د723، ص، 116. وانظر للتفصيل في هذه النقطة، محمد القبلي، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، ص، 90-99، 102.

Scanned by CamScanner

مصطفى نشاط، **التجارة بالمغرب الأقصى**، ص ص، 354–356. محمد المنوني، **وثائق ونصوص عن أبي الحسن علي بن منون وذريته**، المطبعة الملكية، الرباط، 1976، ص ص، 65–66. محمد ياسر الهلالي، **مجتمع المغرب الأقصى**، س1، ص ص، 180–181.

- Beck, H.L., *L'image d'Idriss II...*, *op. cit.*, pp. 103-104-105-113-116, et pp. 154-157.
- Sebti. A, "Au Maroc, sharifisme citadin, charisme et historiographie", *Annales* E.S.C, 41e Année, n° 2, mars-avril, 1986, p. 437.

237 ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 278، 398–399. ابن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن**، ص، 119–137–138–154–260. النميري، **فيض العباب**، ص، 217–269. الجزنائي، **جنى زهرة الآس**، ص، 80–81–62. العمري، **مسالك الابصار**، ص ص، 148–149. وانظر للتفصيل،

Kably, *Société, pouvoir…*, *op. cit.*, p. 265.

السعيد لمليح، **المدارس المرينية ودورها الفكري في المغرب، نموذج مدارس مدينة فاس**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، السنة الجامعية، 1988–1989، ص، 45. محمد ياسر الهلالي، **مجتمع المغرب الأقصى**، س1، ص، 212–221.

238 ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 374–397–399. ابن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن**، ص، 254–117. ابن غازي، **الروض الهتون**، ص، 37. النميري، **فيض العباب**، ص، 206–209 – 213–215. الأزموري، **بهجة الناظرين وأنس الحاضرين**، تحقيق، علي الجاوي، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1985–1986، ص، 53–54.

239 ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 135–148.

240 ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 322.

241 ابن ابي زرع، **الذخيرة السنية**، ص، 162.

242 ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 322.

243 المصدر نفسه، ص، 409.

244 مصطفى نشاط، **التجارة بالمغرب الأقصى**، ص ص، 357–358.

245 ابن غازي، **الروض الهتون**، ص، 37. محمد المنوني، **ورقات**، ص ص، 99–100.

246 العمري، **مسالك الأبصار**، ص، 143. محمد المنوني، **ورقات**، ص ص، 99–100.

247 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

248 محمد المنوني، **ورقات**، ص، 101. الماحي علي حامد، **المغرب في عصر السلطان أبي عنان المريني**، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1986، ص، 156.

249 العمري، **مسالك الأبصار**، ص، 143.

250 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

251 Kably, *Société, pouvoir…*, *op. cit.*, p. 198.

252 العمري، **مسالك الأبصار**، ص، 143.

253 ابن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن**، ص، 282.

254 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

255 العمري، **مسالك الأبصار**، ص، 110.

256 مصطفى نشاط، **الارتزاق المسيحي بالدولة المرينية**، ص، 126.

257 محمد ياسر الهلالي، **مجتمع المغرب الأقصى**، س2، ص ص، 464–465.

258 المرجع نفسه، ص، 361.

259 مصطفى نشاط، **التجارة بالمغرب الأقصى**، ص، 361.

Scanned by CamScanner

260 مصطفى نشاط، **الارتزاق المسيحي بالدولة المرينية**، ص، 120.

261 Dufourcq, CH-E., *L'Espagne catalane*, *op. cit.*, pp. 374-375.

262 مصطفى نشاط، **التجارة بالمغرب الأقصى**، ص، 363. محمد ياسر الهلالي، **مجتمع المغرب الأقصى**، ص، 466.

263 المرجع نفسه، ص، 363.

264 الناصري، **الاستقصا**، ج. 3، ص، 55.

265 ابن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن**، ص، 454.

266 المصدر نفسه، ص، 394.

267 Khaneboubi (A), *Les premiers sultans mérinides, 1269-1331 : histoire politique et sociale*, L'Harmattan, Paris, 1987, p. 161.

268 مصطفى نشاط، **التجارة بالمغرب الأقصى**، ص، 361.

269 محمد القبلي، **حول تاريخ المجتمع المغربي**، مقدمات أولية وقضايا، نشر الفنك، الدار البيضاء، 1998، ص، 38.

270 يبدو أن الدولة المرينية تشكل نوعاً من الاستثناء –إلى حد ما– في مقولة ابن خلدون، التي تعتبر الإجحاف في الضرائب وابتكار أخرى مرتبط بالفترة الأخيرة من مسار الدولة، حيث تنضب موارد الغزو وترتفع تكاليف حروبها وميولاتها نحو البذخ والكماليات. فمعلوم أن هذه الدولة قد فرضت منذ بدايتها الأولى أنواعاً متعددة من الضرائب غير الشرعية. انظر عن هذه الضرائب، ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 375–397. ابن خلدون، **العبر**، ج 7، ص، 320. العمري، **مسالك الأبصار**، ص، 123. وانظر عن هذا الموضوع، محمد القبلي، **حول تاريخ المجتمع المغربي**، ص، 38– مصطفى نشاط، **التجارة بالمغرب الأقصى**، ص، 108–119.

Kably, *Société, pouvoir…*, *op. cit.*, pp. 224-225.

271 ومن ذلك ما يذكره ابن مرزوق في حديثه عن الإصلاحات التي أحدثها أبو الحسن، أن «مما رفعه بمدينة فاس المحروسة فأولها ما كان يرفع من فوائد المروس، كان يؤخذ عن ذلك مال جسيم يصرف مرتبات النصارى الملازمين للخدمة، وهو مال طائل ب فعوض لهم مرتباتهم من بيت ماله»، **المسند الصحيح الحسن**، ص، 282. انظر أيضا، العمري **مسالك الأبصار**، ص، 143. القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج. 5، ص، 198–199.

272 مصطفى نشاط، **التجارة بالمغرب الأقصى**، ص، 114–115. محمد ياسر الهلالي، **مجتمع المغرب الأقصى**، س2، ص ص، 361–362.

Kably, *Société, pouvoir…*, *op. cit.*, p. 19.

273 مما يثبت ذلك رسالة لابن عباد أرسلها للسلطان عبد العزيز أبي فارس، ومما جاء فيها، «وقد كنت طلبت منكم في آخر كتاب كتبته لكم في أن تزيلوا مظالم الرتب التي أحدثت بطرق المسافرين... وما كنت ذكرته في ذلك الكتاب من أن السلطان أبا الحسن والدكم –رحمه الله– كان قد قطعها فهو شيء سمعته من بعض الناس ... لما اشتهر في زمانه من العدل والقيام بالحق وإزالة السنن القبيحة، وأردنا منكم الاقتداء به في ذلك»، أحمد بن عاشر الحافي، **تحفة الزائر بمناقب الحاج أحمد بن عاشر**، تحقيق وتقديم مصطفى بوشعراء، منشورات الخزانة العلمية الصبيحية، سلا، مطابع سلا، 1988، ص، 17. مصطفى نشاط، **التجارة بالمغرب الأقصى**، ص، 119.

274 Kably, *Société, pouvoir…*, *op. cit.*, p. 198.

275 ابن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن**، ص، 282.

276 لا نستبعد أن يكون الخصاص الذي مس خزينة الدولة المرينية، نتيجة ما أنفقه السلاطين المرينيون في

Scanned by CamScanner

ترفهم، وفي عطاءات جيوشهم، وما أحدثه أبو الحسن من إصلاحات في مصادر العطاء، حين حول كثيراً منها إلى بيت المال، وما نتج عن ذلك من إنهاك لمالية الدولة، وراء تفكير أبي الحسن في غزو الأندلس وإفريقية لتعويض هذه الموارد.

277 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 345.

278 المصدر نفسه، ص، 346.

279 ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص، 124. أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، ص، 246.

280 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

281 ابن القاضي، درة الحجال، ج. 3، ص، 124.

282 يورد ابن مرزوق نصاً كاشفا عن هذه الحقيقة، نورده هنا على طوله «ومن عجيب ما يذكر وينشر قضيته مع شيخنا الفقيه أبي زيد بن الإمام على الجزائر، و لم أحضرها يومئذ، أنهم اشتدوا في عمارة الأسطول المبارك الذي كان فيه الفتح العظيم واقعة الملند المعروفة المشهورة، وكان بظاهر الجزائر، فأخبروه أن أهل الجزائر تثاقلوا في بعض ما وظف عليهم من الرماة، فاشتد عليهم، وقيل بين يديه إنهم كانوا بالأمس يرمون في وجه مولانا، وهل هم إلا أعداء، فقال، يؤخذون جبراً، وأغلظ في القول. فدخل الفقيه ابن الإمام في أثناء ذلك، فالتفت إليه، وقال، كيف ترى هؤلاء يطلبون الرماة للجهاد ويتوقفون، أما يستحقون العقوبة شرعاً؟ فقال له الفقيه لا يجب عليهم ما طلب منهم ولا عقوبة في توقفهم ـ. وهل هذه بيوت الأموال التي تجمعونها، والجبايات التي تجبونها إلا مرصدة لما يحتاج إليه المسلمون، حتى إذا فنيت بيوت الأموال، وفعلت ما فعل من أنت تقتدي به حين كنس بيت المال وصلى فيه، ثم يكون لهم نظر غير هذا، وحينئذ يوظف عليهم بحسب القدرة وما تدعوا إليه الضرورة». المسند الصحيح الحسن، ص ص، 161–162.

283 تضم ملعبة الكفيف الزرهوني مادة دسمة لفهم تأثير الحرب في مسار الدولة المرينية، وفي الحياة الاجتماعية للجنود، وقد أفردناها بدراسة خاصة ستنشر في القريب.

284 الكفيف الزرهوني، ملعبة، ص، 83.

285 المصدر نفسه، ص، 77.

286 المصدر نفسه، ص، 82.

287 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 378.

288 المصدر نفسه، ص، 394.

289 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 421–422، 426–472. الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 210–211، 213–217–292، 301–302.

290 ابن خلدون، المقدمة، ص، 132.

291 المصدر نفسه، ص، 219.

292 ابن عباد، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم النفزي الرندي، كتب موجهة إلى الخليفة أبي فارس عبد العزيز، مخ.خ.ح، الرباط، رقم 255 (ض.م)، ص ص، 58–59.

293 ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج. 2، ص، 324.

274 Kably, *Société, pouvoir…*, *op. cit.*, p. 198.

295 نفاضة الجراب، ج. 2، ص، 324.

296 ابن خلدون، المقدمة، ص، 131.

297 وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 211–213–217–210–292–301–302.

Scanned by CamScanner

298 إبراهيم القادري بوتشيش، اثر الحروب في المجال الضريبي، ص، 81. الحسين بولقطيب، أسلوب الإنتاج الحربي والتحول المعاق، ص، 80.

299 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 227.

300 المصدر نفسه، ص، 228.

301 ابن الخطيب، ريحانة الكتاب، ج. 1، ص، 306. معيار الاختيار، ص، 175. نفاضة الجراب، ج. 2، ص، 270.

Kably, *Société, pouvoir…*, *op. cit.* p. 226.

302 يبدو أن الدولة المرينية خلال المرحلة الأخيرة من عمرها، قد تراجعت عن معظم الامتيازات المادية التي خصت بها بعض الفئات مثل الفقهاء، والشرفاء فقد ورد في إحدى النوازل التي سئل عنها محمد بن مرزوق «أن الخلفاء قصروا في هذا الزمان في حقوق [الشرفاء] ونظام بيت المال وصرف مال مستحقه فسد» (الونشريسي، المعيار ، ج. 1 ، ص، 395). بل كتب الأزموري، نتيجة سحب الدولة لهذه الامتيازات، أنه «إذا لم يأخذ [السلطان] بتجديد تلك الظهائر والعمل بها والزيادة على مقتضياتها، فضلا عن تقديرما وجد فيها، فذلك أسرع لهدم مملكته وتمزقه»، بهجة الناظرين، ص، 94–95. وانظر عن هذا الموضوع، محمد فتحة، الأحكام والنوازل، ص، 400.

Beck, H. L., *L'image d'Idriss II…*, *op. cit.*, p. 216.

303 ابن خلدون، المقدمة، ص، 219.

304 انظر، ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، الأنيس المطرب. ابن خلدون، العبر، ج. 6–7. ابن الأحمر، روضة النسرين. مجهول، نبذة من تاريخ المغرب الأقصى. الملزوزي، نظم السلوك. الناصري، الاستقصا، ج. 3–4.

305 انظر المبحث الثاني من هذا الفصل

306 Cour. Auguste, *La dynastie marocaine des Beni Wattás*, (1420-1554), Constantine, 1920, p. 22.

307 المسند الصحيح الحسن، ص، 340.

308 جذوة الاقتباس، ق1، ص، 86. وتثبت نصوص أخرى أن هذا التنقل كان من بين ما يشغل العامة ويؤرقها، فقد انشد المتصوف أحمد بن زاغو المغراوي (ت. 782هـ/1380م) لغيره وكان يستحسنه،

أنست لوحدتي ولزمت بيتي   فدام الأنس لي ونما السرور

ولست بسائل ما دمت حيا   أسار الجند أم ركب الأمير

وفي مصدر آخر أن من انشد هذا البيت هو المتصوف محمد بن النجار (ت. 845هـ/1441م)، القلصادي، الرحلة، دراسة وتحقيق، محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978، ص ص، 104–105.

309 محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني (ت. 910هـ/1504م)، رسالة فيما يجب على الملوك من الاستقامة والعدل والنظر في المصالح، مخ.خ.ع، الرباط، رقم 364 د، ض. م، ص، 236.

310 المصدر نفسه، ص، 236.

311 انظر عن البعد الرمزي لاالحلة والحركة السلطانية، رحمة بورقية، الدولة والسلطة والمجتمع، ص ص، 51–53.

312 محمد القبلي، الدولة والولاية والمجال، ص ص، 78–79.

313 محمد عابد الجابري، العصبية والدولة، ص ص، 29–30.

314 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 322–337.

315 المصدر نفسه، ص، 352.

Scanned by CamScanner

316 **فيض العباب**، ص ص، 66–67.

317 يذكر ابن خلدون أن بني مرين، ومن قبلهم أيضا «كان سفرهم أول أمرهم في بيوت سكناهم قبل الملك من الخيام والقياطن، حتى إذا أخذت الدول في مذاهب الترف وسكنى القصور عادوا إلى سكنى الأخبية والفساطيط وبلغوا من ذلك فوق ما أرادوه، وهو من الترف بمكان». ويعرف «الأفراك» بقوله، «يدير الأمير القائد للعساكر على فساطيطه وفازاته من بينهم سياجاً من الكتان يسمى في المغرب بلسان البربر الذي هو لسان أهله أفراك بالكاف التي بين الكاف والقاف، ويختص به السلطان بذلك القطر لا يكون لغيره»، **المقدمة**، ص، 209. انظر أيضا، صالح محمد أبو دياك، **المواكب والرسوم السلطانية للدولة المرينية في المغرب الإسلامي**، مجلة المنهل، ع. 494، مج. 53، فبراير، 1992، ص، 25.

318 النميري، **فيض العباب**، ص، 66.

319 ابن زيدان، **العز والصولة في معالم نظم الدولة**، المطبعة الملكية، الرباط، 1962، ج. 1، ص، 242.

320 ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 387.

321 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

322 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

323 ومن ذلك أيضا ما يذكره ابن خلدون عن المدينة التي اختطها أبو عنان في السوس لحصار أحد المتمردين، حيث «اختط مدينة لمعسكره وتجهيز كتائبه بسفح الجبل، سماها القاهرة، واستبد الحصار على السكسيوي». **العبر**، ج. 7، ص، 389.

Ferhat Halima, *Sabta des origines au XIV^e siècle*, AL Manahil, Ministère des Affaires culturelles, 1993, p. 254.

324 ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص، 115.

325 المصدر نفسه، ص، 129. **الأنيس المطرب**، ص، 305. الناصري، **الاستقصا**، ج. 3، ص، 26.

326 انظر المبحثين الأول والثاني من هذا الفصل.

327 Ben Chekroune (M), *Le Milieu marocain*, *op. cit.*, p. 94.

328 انظر المبحث الأول من هذا الفصل.

329 انظر العنصر الثاني من المبحث الثاني من هذا الفصل.

330 كان قاضي القضاة يتقاضى ثلاثين ديناراً ذهبيا في الشهر. العمري، **مسالك الأبصار**، ص، 148.

331 قاربت مرتبات بعض فرق الجيش مثل المرتزقة، مرتب كاتب السر الذي كان يتقاضى ستين دينار في الشهر، العمري، **مسالك الأبصار**، ص، 148.

332 **المقدمة**، ص، 230.

333 المصدر نفسه، ص، 200–201. ابن الأزرق، **بدائع السلك**، ص، 256.

334 الحسين بولقطيب، **أسلوب الإنتاج الحربي**، ص ص، 77–79.

335 **المقدمة**، ص، 201.

336 المصدر نفسه، ص ص، 309–310.

337 لا شك أن الدراسة المقارنة لمسألة الموارد والنفقات بالنسبة للدولة المرينية، ومقارنة الرواتب المخصصة للجيش مع باقي الرواتب الأخرى كفيلة بالإجابة على كثير من الأسئلة حول الأساس العسكري للدولة المرينية وطابعها الحربي. ولأهمية هذين المحورين، فقد خصصنا لهما دراسة خاصة، نرجو أن نتمكن من وضعها في متناول القارئ في المستقبل القريب.

338 انظر للتفصيل، محمد ضريف، **مؤسسة السلطان الشريف**، منشورات المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، ط. 1، 1992، ص، 60.

Scanned by CamScanner

339 انظر في هذا الصدد، إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص ص، 143-150. الحسين بولقطيب، أسلوب الإنتاج الحربي، ص، 78-79. محمد شقير، تطور الدولة في المغرب، ص ص، 233- 234.

340 محمد ضريف، مؤسسة السلطان الشريف، ص، 60.

341 نقلا عن محمد شقير، تطور الدولة في المغرب، ص، 234.

342 الحسين بولقطيب، أسلوب الإنتاج الحربي، ص ص، 77-78.

343 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

344 مسالك الأبصار، ص، 144. القلقشندي، صبح الأعشى، ج. 5، ص، 200.

345 العمري، مسالك الأبصار، ص، .142.

346 القلقشندي، صبح الأعشى، ج. 5، ص، 201.

347 المقدمة، ص، 201.

348 المصدر نفسه، ص، 139.

349 الونشريسي، المعيار، ج. 6، ص ص، 329-331.

350 المصدر نفسه، الصفحات نفسها.

351 انظر للتفصيل، صالح محمد فياض أبو دياك، المواكب والرسوم السلطانية، ص ص، 22-29. محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، ص ص، 104-106.

352 القلقشندي، صبح الأعشى، ج. 5، ص، 201.

353 سنفصل في هذه النقطة في الفصل المتعلق بالذهنيات من هذا البحث.

354 فيض العباب، ص، 66-67.

355 التدمري، وليد بن محمد الكاتب (ق9هـ)، فضل الخلافة، مخ.خ.ع، الرباط، رقم 77ق، رقم الميكروفيلم، 1033، ص، 32.

356 انظر، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب ، ص ص، 289-291 . الذخيرة السنية ، ص، 10-59-64. المزوزي، نظم السلوك، ص ص، 72-73. ابن الخطيب، شرح رقم الحلل، ص، 237. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأمصار، تعليق طلال حرب، دار الكتب العلمية، د.ت، ص، 665. ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ق،1 ص، 103. ق2، ص، 508.

357 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 64.

358 ابن الأحمر، روضة النسرين، ص، 29.

359 المصدر نفسه، ص، 16.

360 المصدر نفسه، ص 69.

361 ومن جملة ما قيل في هذا الصدد، قول الشاعر علي بن مسعود الخزاعي التلمساني،

مولاي لا ذنب للشقراء إن عثرت — ومن يلمها لعمري فهو ظالمها
وهالها ما اعتراها من مهابتكم — من أجل ذلك لم تثبت قوائمها
و لم تزل عادة الفرسان مذ ركبوا — تكبو الجياد ولا تنبو غرائبها

ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج. 2، ص، 490.

362 محمد المنوني، ورقات، ص ص، 59-61.

363 ابن الأحمر، أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن، وهو كتاب، نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان، تحقيق، محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. 2، 1987، ص، 343.

364 فقال في هذا الصدد

Scanned by CamScanner

ولو راك خدت الأسد من الشعرا	ويراه في قبضتك عيان وبيان
ما عظم رجلتك ولا شكرها	ويراها من سقارة الصبيان

ملعبة، ص، 83.

365 المقدمة، ص، 134.

366 المصدر نفسه، ص، 135.

367 عبد الله العروي، ابن خلدون وماكيافيلي، ضمن أعمال ندوة ابن خلدون، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1979، ص، 186.

368 نقلا عن عبد الله العروي، المرجع السابق، ص ص، 186–187.

369 انظر عن هذه المصاهرات، ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 333–334–353–354. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 117–146.

370 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 394 – ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 280. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 101.

371 العمري، مسالك الأبصار، ص، 122.

372 Marçais (G), *La Berbérie musulmane*, *op. cit.*, p. 300.

Scanned by CamScanner

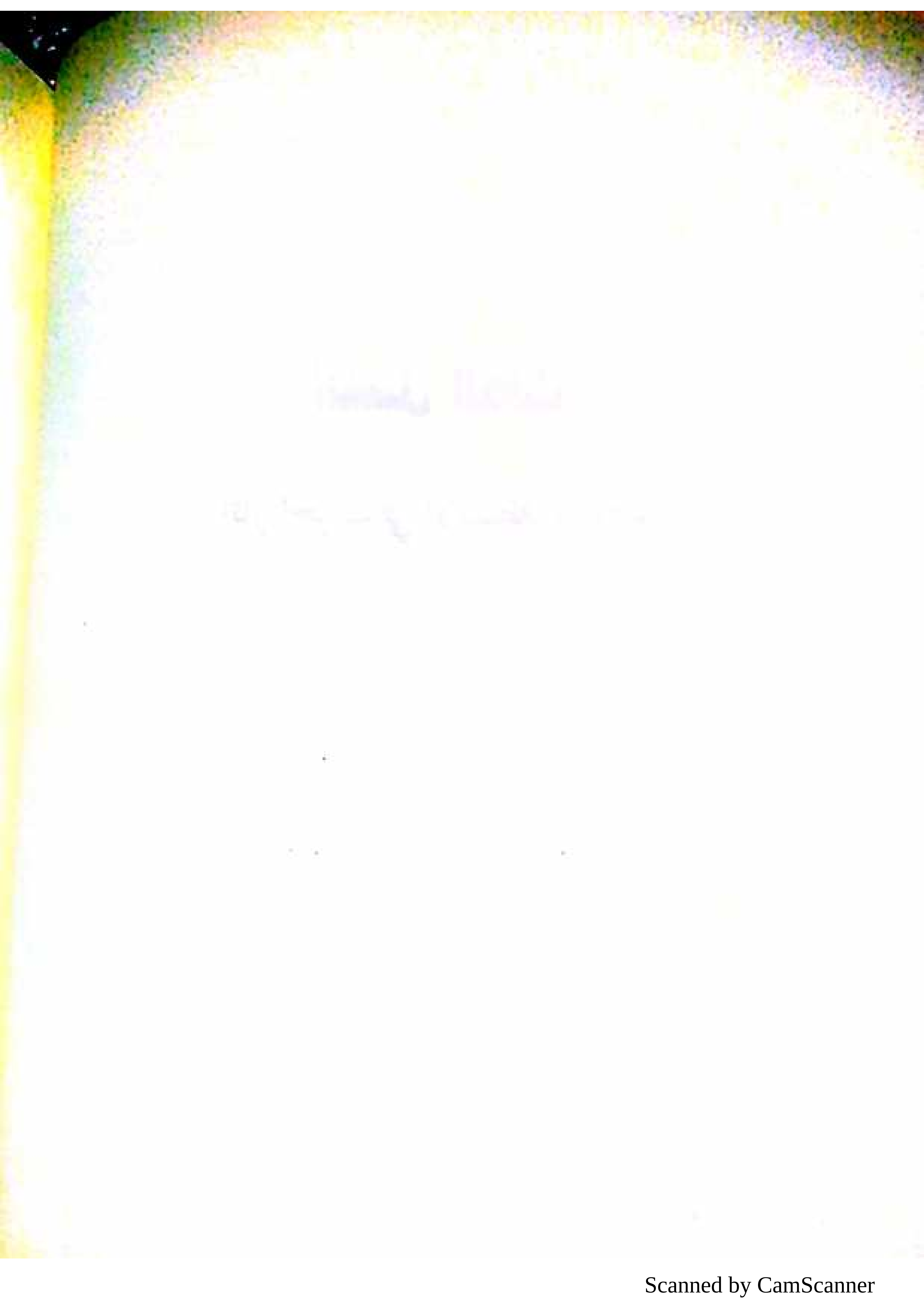


Scanned by CamScanner

الفصل الثالث

آثار الحرب في الأنشطة الإنتاجية

Scanned by CamScanner



Scanned by CamScanner

انتهينا في الفصلين السابقين إلى خلاصة أساسية مفادها أن الحرب شكلت على امتداد الفترة مدار البحث ظاهرة بنيوية، أطر استمرارها طبيعة الدولة التي انبثقت أصلا من بنية قبلية تعتمد الحرب أسلوبا للعيش والبقاء، ووسيلة للحفاظ على الذات واستقلالها. وحدد بنيويتها حاجة الدولة إليها للوصول إلى الملك وخيراته، وأداة للحفاظ عليه واستمراره، مما كرس حضورها، ورسخ مؤسساتها.

ومع أن صيغة هذه الخلاصة تجعل من الحرب خلال هذه المرحلة ظاهرة أساسية وطبيعية، فإنها تظل –وحسب تصور ابن خلدون– مذهبا في المعاش غير طبيعي، يمكن من الحصول على ثروة جاهزة تنتزع قهرا من ممتهني الوجوه الطبيعية للمعاش، أي من الفلاحين والحرفيين والتجار، وهذا ما يدفعنا إلى ضرورة الاستفسار عن وضعية هؤلاء في ظل هذا الحضور المكثف للحرب وفعلها.

وإذا كنا قد كشفنا عن بعض هذا الوضع في معرض حديثنا عن أهمية الحرب في اقتصاد القبيلة، باعتبارها موردا هاما في تدبير عيشها، وفي مالية الدولة، لكونها تمثل رافدا لا يمكن الإعراض عنه، فإننا سنركز في هذا الفصل على مجمل الآثار التي يمكن أن تخلفها الحرب في الأنشطة الإنتاجية، والانعكاسات التي يمكن أن تلحقها بالمنتجين ومنتوجاتهم.

المبحث الأول: انعكاسات الحرب على النشاط الفلاحي

شكلت الفلاحة المورد الاقتصادي الأساس للغالبية العظمى من ساكنة المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط عموما، والعصر المريني بوجه خاص،[1] فهي المصدر الضروري «للقوت المكمل لحياة الإنسان غالبا، [ولا] يمكن وجوده من دون[ـه]».[2] لذلك عدت أساس «العمران ومنها العيش كله، والصلاح جله (...) بها تملك المدائن والرجال، وببطالتها تفسد الأحوال وينحل كل نظام».[3] كما اعتبرت «قوام النفوس والأديان، [لولاها] لاختل [أمر الناس] ومعائشهم، وانعدمت أسباب الصنائع، وهلك الجميع».[4] فلا حاجة إذن إلى كبير عناء لإثبات أهمية رصد العلاقة بين الفلاحة وتأثيرات الحرب ما دامت الحرب تحيل، في أكثر دلالاتها الاجتماعية على الخراب، واختلال أمر الناس ومعاشهم، وفساد أحوالهم.[5]

Scanned by CamScanner

أولا: المظاهر العامة لآثار الحرب في النشاط الفلاحي

لما كانت ممارسة الفلاحة تتم خارج أسوار المدن وفي البادية لكونها متسعة «لما لا تتسع له الحواضر من المزارع والفدن والمسارح للحيوان»،[6] فقد كانت الحروب والغارات أهم مشكل عانى منه النشاط الفلاحي خلال هذه المرحلة، خاصة وأن بعض من كتبوا في «تدبير الحروب ومكائدها»،[7] أكدوا أن الأمير، «إذا أراد أخذ بلد معين، فينبغي أن يبدأ بما حولها من القرى والبلاد (...) والضياع».[8] لذلك فقد كانت سياسة النسف والرعي والعيث وإفساد الزروع وحرق المحاصيل،[9] ومطاردة الفلاحين وتهجيرهم من مواطنهم،[10] وإلزام غيرهم بأداء الإتاوات والخفوف إلى العسكرة متى دعوا إليها هي السائدة في هذه الفترة، على الرغم من حرص كتب الأحكام على نصح الأمير أن «لا يحرق المساكن، ولا يقطع الشجر؛ لأنها دار الإسلام»، وأن يكون «مقوما [جنده] (...) على صالح الأدب، مانعا لهم من العداء على الرعية».[11]

1. تخريب المحاصيل، ونهب المواشي، وإنهاك المشهد الفلاحي

تجمع كثير من المصادر على أن الفترة التي أعقبت هزيمة الموحدين في معركة العقاب بالأندلس (609هـ/1212م)، وإلى حدود اقتحام المرينيين للعاصمة مراكش، واستيلائهم على ملك المغرب، اتسمت بكثرة الحروب والفتن مع ما رافقها من ضروب الاستيلاء والغصب والتعدي، كان بنو مرين وبقايا الموحدين، فضلا عن القبائل ذات النجعة والحرب، أهم أطرافها، كما كان الفلاحون أول وأكبر المتضررين منها؛ إذ «كثرت الفتن بين قبائل المغرب، واشتد الخوف في الطرقات، ونبذ أكثر القبائل الطاعة، وفارقوا الجماعة، وقالوا لا سمع ولا طاعة، فأكل القوي الضعيف، واستوى الدنيء والشريف. فكان كل من قدر على شيء فعله، ومن أراد منكراً أظهره وابتدعه، إذ ليس لهم مليك يحوطهم، ولا أمير يكفهم ويصدهم (...) فانقطع الحرث، واشتد الغلاء في البلاد بسبب ذلك الإهمال والفساد».[12]

ويخيل إلينا أن اقتحام قبائل بني مرين للمغرب الخصيب خلال هذه المرحلة قد أحدث صدمة عنيفة بالنسبة للنشاط الزراعي والرعوي، وأسهم بشكل كبير في ارتباكه وتراجعه؛ إذ لما كان مغرب ما بعد العقاب «قد باد أهله ورجاله، وفنى خيله وحماته وأبطاله، ومات الكل بغزوة العقاب، واستولى عليه الخراب، وعمرته السباع والذئاب»،[13] فقد وجد

Scanned by CamScanner

المرينيون، المجبولون على النجعة والحرب،[14] الفرصة مناسبة لاقتحامه، فـ«تخطوا إليه القفر، ودخلوا ثناياه، وتفرقوا في جهاته، وأرجفوا بخيلهم وركابهم على ساكنه، واكتسحوا بالغارة والنهب عامة بسائطهم، ولجأت الرعايا إلى معتصماتهم ومعاقلهم»،[15] مما يثبت عمق الأثر الذي خلفه هذا الاقتحام في المشهد الفلاحي عامة خلال هذه الفترة، خاصة وأن بني مرين لم يكونوا يعرفون الحرث والفلاحة، بل كانوا يحتقرونها.[16]

الظاهر أن مصادر الفترة مدار الدرس قد أبدت انفعالات مختلفة حول الكيفية التي تأثر بها المجتمع الفلاحي بذلك الوصول العنيف والمخرب للمرينيين، إذ تنطوي مجموعة من النصوص[17] على شعور جماعي بفظاعة سلوك القادمين الجدد نحو سهول المغرب الخصيب[18]؛ فأثناء هذا الاكتساح «انتشرت فرقهم في جباله وبطحائه، وشنوا الغارات على قراه ومدنه، وضيقوا على قبائله (...) وخلت المحاشر، وقلت العمارات، ووقع الخوف في الطرقات، وغلت الأسعار في جميع الأقطار».[19]

ومما يثبت أن الفلاحة كانت المتضرر الأول من غزو هذه القبائل، أن الهدف الذي أطر تحركها تمثل في محاولتها اكتساب مراعي جديدة لقطعانها، ومجالات أخرى لانتجاعها،[20] بعد ما علمت «بحال البلاد وخصبها»،[21] مما جعل من البادية دون المدينة– في المرحلة الأولى على الأقل– عنصرا مستقطبا لهذه القبائل، فكانت النتيجة، أن «تقلص ظل حكام [الموحدين] عن البدو جملة، وفسدت السابلة، واختلط المرعى بالهمل»،[22] لأن أمير بني مرين «أهلك جميع بوادي المغرب، وضيق الواسع على ملوك الموحدين».[23] ينضاف إلى ذلك تقسيم الأراضي الخصبة على هذه القبائل «طعمة لا يشاركهم فيها غيرهم»،[24] مما يعني تحولا عميقا في الوضع الفلاحي بالمغرب خلال هذه المرحلة. وحتى لا نندرج في سرد ممل لحملات بني مرين نكتفي بإيراد بعض الشهادات التي تثبت عمق الأثر الذي خلفته الحرب في الإنتاج الفلاحي لمغرب القرن 7هـ/13م.

تتعلق إحدى هذه الشهادات بحديث ابن غازي المكناسي[25] عن إنتاج بعض المناطق من الزيتون، ومدى تراجعه بسبب تخريب بني مرين لأصوله؛ فقد «كان حب زيتون بحيرة مكناسة، يباع عام الحمل بخمسة وثلاثين ألف دينار ونحوها، وحب زيتون بحيرة تازة بخمسة وعشرين ألف دينار ونحوها»، وكل «ذلك قبل أن يستولي على المغرب تخريب بني مرين عند اختلال أمر الموحدين».[26]

Scanned by CamScanner

أما الشهادات الأخرى، فهي التي توردها بعض المصادر في سياق حديثها عن حملات المرينيين على بعض المناطق، وما ميزها من ترديد الغارات، ومعاودة الحرب عليها،[27] «برسم رعي [نسف] زروعها»،[28] كما هو حال مناطق مراكش وأحوازها التي أفناها يعقوب بن عبد الحق بالغارات، ونهب زروعها ومواشيها، وقطع أشجارها، إذ لم يتردد في كل مرة يحمل عليها في بث السرايا، وتسريح الغارات وإطلاق الأيدي والأعنة لنهب المحاصيل والماشية، وتحطيم الزروع، وانتساف الآثار، وتقري النواحي،[29] وكذلك فعل بتادلة ودرعة.[30]

وعلاوة على ذلك، سمح غياب السلطة لبعض القبائل لتعود إلى عادتها في الإغارة على المناطق الفلاحية،[31] فأصبحت «قبائل فازاز من جاناتة، وقبائل غمارة، وأوربة، وصنهاجة، والعرب، يقطعون الطرقات، ويغيرون على القرى والمجاشر مع الأحيان والساعات، فانقطع الحرث»[32] نتيجة لذلك، وتوقف ما تبقى من الدورة الزراعية. وقد عبر الملزوزي[33] عن هذا الوضع، في نظم يبرز فيه الدخول المريني للمغرب لاستتباب الأمن، ووضع حد لتحرش القبائل وغاراتها.

على أنه ينبغي الاعتراف بأن القبائل العربية كان لها نصيب كبير من مسؤولية الخراب الذي مس الفلاحة خلال هذه المرحلة.[34] وحسبنا ما يذكره ابن عذاري[35] عن وضع ضواحي مكناسة جراء غارات قبائل رياح ونهبها، إذ كانوا «أشد ضرراً في تلك الجهات على الناس (...) بالاختلاس والافتراس». وبالمثل كان المحاربون من قبائل «سفيان يطلبون ضواحي بلاد حاحا من المصامدة (...) وطال عيثهم بضواحي مراكش وإفسادهم».[36] وتقدم كتب المناقب والتصوف[37] مادة هامة حول الدور التخريبي لهؤلاء الأعراب خلال هذه الفترة، إذ يكفي التأمل فيما تورده من شهادات للكشف عما آل إليه الوضع بالمغرب، حيث انحسرت المجالات الزراعية، وفر الفلاحون بفعل الانفلات الأمني وشبه الفراغ السياسي، قبل دخول بني مرين لمراكش وتوحيد ملك المغرب.[38]

وتكفي الإشارة إلى التخريب الذي ألحقه عرب الخلط بمدينة مراكش ومنطقة الحوز عامة سنة 632هـ/1234م، للوقوف على الأثر الذي مس الفلاحة؛ فقد «شرعوا في تدمير البحائر، وقطع مياهها، وشجراتها (...) وعظم انتقامهم وعيثهم في الحوز فضاقت الأرض بما رحبت على الناس (...) وقل كل مرفق، فأعوز وجدان ما ينتفع به الناس من الحطب والتبن والفواكه وما يجلب من البوادي، واقشعرت الجلود من هول المكابدة في طلب شيء من

Scanned by CamScanner

أنواع الحنطة، وبلغت مبلغاً لا عهد بمثله حتى انتهى الربع الواحد من الدقيق الفاسد إلى ثلاثة دنانير، والناس في ازدحام على من يشعرون عنده زنة الخردلة منه أو من سواه، وما أهمهم إلا إقامة الأود بما ينطلق عليه اسم الحنطة».[39]

من جانب آخر، كانت للحروب التي بدأت بوادرها الأولى تنشب بين بني عبد الواد بتلمسان وبني مرين منذ العقد الثالث من القرن 7هـ/13م، دور واضح في تخريب كثير من المجالات الزراعية والرعوية، خاصة في خطوط التماس بين الجانبين بالمغرب الشرقي، مما أثر كثيراً على الوضع الفلاحي في هذه المناطق. إذ لم يتردد يغمراسن الزياني في شن الغارات على ثغور المغرب، وإضرامها ناراً[40] كلما سنحت له الفرصة لذلك، فيحرق وينسف ويستبيح كل ما مرت به جيوشه.[41] ومن جهته، لم يتوان أمير بني مرين عن شن الغارات على البسائط واكتساحها ونسفها،[42] «بتخريب الرباع، وانتساف الجنات، وقطع الثمار، وإفساد الزرع، وتحريق القرى والضياع، لما كان يغمراسن يعاملهم في بلادهم بمثل ذلك وأكثر».[43]

وإذا كان من الطبيعي أن تتقلص حروب الدولة المرينية خلال المرحلة التي تحققت فيها الغلبة للمرينيين بعد اقتحامهم لمراكش، وتوطد أركان دولتهم، وبالرغم من أن هذه الأخيرة دامت زهاء نصف قرن تقريبا، فالظاهر أن الفتن والقلاقل لم تتوقف نهائيا، بل استمرت من خلال مجموعة من الاضطرابات تمثلت بالأساس في التمردات المتواصلة للقبائل، وما ميز الرد المريني عليها من عنف وتخريب كان يأخذ شكل تأديب وانتقام في الآن نفسه.[44] ويبدو أن المشهد الفلاحي لم يسلم من آثار هذا الوضع، فعلى الرغم من صعوبة تقدير حجم هذه الآثار، يمكن القول إن معظم هذه القلاقل كانت تستهدف مناطق كانت أصلا تعاني من متاعب طبيعية واجتماعية.[45]

وابتداء من السنة التي أعقبت وفاة أبي عنان (759هـ/1357م)، وإلى حدود نهاية الدولة المرينية (868هـ/1464م)، تعاقبت على المغرب الأقصى فترات طويلة من الحروب، لا تنتهي واحدة إلا لتبدأ أخرى، وفي مختلف المناطق، سواء بين الأمراء المرينين حول السلطة ومكاسبها،[46] أو بين الدولة وبعض المتنزين الذين استغلوا تقلص ظلها على مناطقهم فأعلنوا تمردهم،[47] فضلا عن تمردات وتحرشات القبائل ذات النجعة والحرب على المناطق الفلاحية،[48] وما رافق ذلك كله من ضروب الغصب والتعدي وافقت في أغلب مظاهرها ما يميز الفترة الأخيرة من عمر الدولة، عادة، «من العدوان في الأموال (...) أو الفتن الواقعة

Scanned by CamScanner

في انتقاض الرعايا وكثرة الخوارج لهرم الدولة»،[49] والتي كانت أبرز نتائجها «قبض الناس أيديهم عن الفلح في الأكثر».[50]

الراجح أن الحروب التي شهدها المغرب الأقصى خلال هذه المرحلة قد أضرت كثيراً بالإنتاج الفلاحي، بفعل نهب المحاربين وإحراقهم للقرى وتخريبهم للمحاصيل.[51] ومن الأمثلة على ذلك، ما حل بالمناطق الوسطى من المغرب جراء الصراع حول السلطة بعد وفاة أبي عنان، حين أجلب بعض الأمراء «بالغارة على النواحي، وكثر العيث»[52] بها بسبب ذلك. وما يذكره أحد المؤرخين[53] عن أمير أولاد حسين الذي استغل ذلك الصراع، فـ«نزل ما بين فاس ومكناسة، وشن الغارات على البسائط واكتسحها». ناهيك عما تعرضت له سجلماسة وضواحيها أثناء مطاردة الجيش المريني لهذا الأمير، حيث «هزموه وخربوا بيوته وبساتينه بسجلماسة».[54]

ومن الأمثلة الأخرى التي تثبت عمق الأثر الذي خلفته هذه المرحلة الحرجة في بعض المناطق الفلاحية، ما تعرض له سهل تامسنا من تخريب وعيث من قبل بعض القبائل العربية، «وهو الوطن الخصب، الكثير السقي، الغزير الربيع، الجم الفاكهة، الملتف الشجر، المستبحر الغلل، فانتسفوه، وأتوا على راعيته، واحترشوا الأرض من خزينه، واجتثوا قائم شجره، وارتعدوا مدرك زرعه، ولم يتركوا به نافخ ضرمة».[55]

ولم يسلم المشهد الفلاحي خلال هذه الفترة أيضا من تبعات الصراع المريني – العبد الوادي، حيث حرص كل طرف على إلحاق أكبر الضرر بالآخر؛ من ذلك ما يورده ابن خلدون[56] عن إحدى حملات أبي حمو الزياني (766هـ/1364م) حين «انتهب الزروع، وشمل بالتخريب والعيث سائر النواحي (...) وانكفأ راجعاً إلى حضرته، وقد عظمت بني مرين وثغورهم نكايته، وثقلت عليهم وطأته».

على أن أبرز نموذج لحروب هذه المرحلة، وما خلفته من نتائج كارثية على الفلاح ومنتوجه، تتمثل في حروب أبي سعيد عثمان الثالث (800-823هـ/1397-1420م) التي توقفت بسببها الدورة الزراعية في كثير من المناطق، وأفضت إلى إفراغ مناطق وتخريب أخرى. ومن الأمثلة على ذلك مكناسة التي «كانت المحاشر محدقة بها من كل جهة، كل محشر بمزارعه وغراساته ومراعيه، إلى أن ظهر فساد السعيد بن عبد العزيز في أرض المغرب (...) فخلت المحاشر، وانجلى عنها أهلها».[57] ونتيجة للصراع بين السلطة المرينية واللحياني

الورتاجني على هذه المدينة في أواخر الدولة المرينية، التي «كان زيتونها الذي تنسب إليه متصلا بها وبحاراتها من كل جهة، وكانت له غلة عظيمة لا يأتي عليها الحصر، فلما ثار بها الشيخ اللحياني الورتاجني وسام أهلها العذاب، وضبطها للحصار (...) وملكها نحو عشرين سنة، وذلك في العشر الثالثة والعشرة الرابعة من القرن التاسع، فتوالت عليها الفتن بسبب ذلك، وانقعر زيتونها قطعاً وإغذاقا وإحراقا، واتسع الخرق على الراقع».[58]

ومما يثبت ذلك أيضا، ما ورد عند الحسن الوزان[59] عن بعض نواحي فاس، مثل بني بازيل التي كانت لها «بادية شاسعة تجري فيها جداول كثيرة وينابيع غزيرة (...) وكان بضواحي[ها] حدائق كثيرة حسب ما يظهر من آثارها الباقية، لكن المدينة خربت كغيرها من المدن في حروب سعيد، وظلت مهجورة مدة تناهز مائة وعشرة أعوام». الأمر نفسه بخميس مطغرة بالقرب من فاس، التي كانت «تربتها خصبة جداً، وتقوم حولها على مسافة نحو ميلين أغراس جميلة من الكروم والتين (...) لكنها أعيدت كلها لحالتها الطبيعية، لأن هذه المدينة خربت أثناء حرب سعيد، وأصبحت مهجورة».[60] والمقرمدة التي لا تبعد عن فاس إلا بحوالي عشرين ميلا، والتي «تكثر [بها] البساتين والكروم على طول النهر، لكنها خربت في حروب الأمير سعيد، ولا يظهر منها اليوم غير الجدران».[61]

عموما، فقد أضرت حروب العصر المريني وقلاقله بالإنتاج الفلاحي، وقلصت من مردوديته بفعل نهب المحاربين للمحاصيل والماشية، وإحراقهم للمزارع، وتخريبهم للحقول. ولا شك أن دورية هذه الأوضاع، واستمرارها أفضت إلى تقلص المساحات المزروعة، وساعدت على الاهتمام أكثر بالماشية والرأسمال المتنقل لسهولة الهروب به أمام النهب والغارات كما سنبين فيما بعد.

2. النزوح القسري للفلاحين نحو الجبال والمرتفعات

يمثل نزوح الفلاحين من أراضيهم، واللجوء إلى المناطق الآمنة، مظهرا آخر لآثار الحرب في النشاط الفلاحي لمغرب هذه المرحلة، إذ عادة ما شكلت الجبال والمرتفعات المجال الأكثر استقطابا لهؤلاء، طالما أن البسائط، متى اقتدر عليها المحاربون «بفقدان الحامية وضعف الدولة، فهي نهب لهم وطعمة لآكلهم، يرددون عليها الغارة والنهب والزحف لسهولتها عليهم، إلى أن يصبح أهلها مغلبين لهم، ثم يتعاورونهم باختلاف الأيدي، وانحراف السياسة، إلى أن ينقرض عمرانهم»،[62] وفي ذلك ما يفسر تزاحم الناس في سكنى الجبال، والتخلي عن تعمير المنبسطات والسهول.

Scanned by CamScanner

ولا تعوزنا القرائن التي تفصح عن هذا الواقع، فمن خلال استقراء مضامين عدد من المصنفات التاريخية والجغرافية والنوازلية وغيرها، يتضح مدى اتساع ظاهرة النزوح الجماعي للفلاحين نحو المرتفعات خلال فترات عدة من زمن هذا البحث،[63] إذ يبدو أن توالي الحروب والقلاقل، وعدم الاستقرار السياسي، وغارات القبائل المحاربة، فضلا عن المكانة الهامة التي اكتسبتها الأرض بخصوبتها في مجمل الأهداف الأساسية للأطراف المتحاربة،[64] كل ذلك أدى إلى عزوف الفلاحين عن سكنى المنبسطات وتركها فراغا، والامتناع بأوعار «الجبال لتكون لهم حصنا ومآلا»،[65] وترك أراضيهم في أيدي المتحاربين «لا يشاركهم فيها غيرهم».[66]

وليس أدل على رسوخ مثل هذا الوضع، مما تذكره النصوص عن هجرة قسرية للفلاحين تجاه المعتصمات الجبلية فرارا من الغزو المريني الكاسح للمغرب الخصيب، حين «دخلوا ثناياه، وتفرقوا في جهاته، وأرجفوا بخيلهم وركابهم على ساكنه، واكتسحوا بالغارة والنهب عامة بسائطهم، ولجأت الرعايا إلى معتصماتهم ومعاقلهم، وكثر شاكيهم، وأظلم الجو بينهم».[67] وبالمثل تحدثت بعض المصادر عن فرار الفلاحين من مزارعهم أمام غارات العرب في أحواز مراكش، إذ بعدما «شرعوا في تدمير البحائر، وقطع مياهها وشجراتها (...) خلت أمامهم المحاشر والقرى، إلا ما كان عليهم سلطان من الرعية».[68]

وتثبت بعض النصوص المؤرخة للمرحلة الوسطى من عمر الدولة المرينية، التي عرفت بعض الاستقرار، مدى كثرة أعداد الفلاحين الذين تركوا أراضيهم، وفروا إلى الجبال خلال الفترة السابقة، وأثر ذلك في تقلص المساحة المزروعة. وحسبنا في هذا الصدد أن أولي الأمر من بني مرين لم يترددوا في توجيه الدعوات لـ«القبائل بسكنى الأوطية، وعمارة القرى والمحاشر الخالية، والاستكثار من الحرث».[69] مما يقيم الدليل على تقلص واضح في المساحات المزروعة بسبب فرار الفلاحين من أراضيهم، وتحولها إلى ملكية بني مرين وحلفائهم من القبائل ذات النجعة والحرب.

ومن غير المستبعد أن يكون تحقق الغلبة للمرينيين بعد اقتحامهم لمراكش، وتوطد أركان دولتهم، قد أفضى إلى نوع من الاستقرار، مما أتاح الفرصة لبعض الفلاحين للعودة إلى أراضيهم، وأسهم في انتعاش النشاط الفلاحي مقارنة مع المرحلة السابقة، وهو ما تثبته كتب الجغرافيا والرحلات التي أكدت التحول الإيجابي للفلاحة في هذه الفترة،[70] وإن لم يخل وصفها من نظرة تجزيئية تعميمية للوضع العام، إذ لم يسجل في مغرب هذه المرحلة أي

Scanned by CamScanner

توسع زراعي، بل يمكن الحديث عن تراجعه تراجعاً ملحوظاً له،[71] لا نستبعد أن يكون للطبيعة الحربية للدولة ولشركائها دور هام في إذكائه وترسيخه.

وإذا استثنينا المبادرة التي أقدم عليها أبو الحسن المريني حين وزع على الأيتام في سائر القبائل قطعاً أرضية مقدار حرث زوجين لكل فرد، مع إسقاط اللوازم المخزنية عن الأرض الممنوحة،[72] وما أقدم عليه أبو عنان عندما وزع أزواج الحرث على الزمنى والضعفاء ليقوموا بها أودهم،[73] فضلا عن بعض الإجراءات القليلة في مجال السقي،[74] والمبادرات المحدودة في التخفيف من ضغط الضرائب،[75] لا نكاد نعثر في مصادر الفترة على ما يؤكد اهتمام السلطة المرينية بتطوير الزراعة في هذه المرحلة، أو بإعادة توطين الفلاحين النازحين عن أراضيهم.

وبالمقابل، تؤكد نصوص أخرى أن الطابع العسكري للقبائل والدولة المرينية[76] ألقى بظلاله على هذا المجال. ومما يثبت صدق هذا الاستنتاج اهتمامهم البالغ بالرعي وتربية المواشي في الأراضي التي استولوا عليها،[77] مع ما يحيل إليه ذلك من علاقة منفعية بالأرض واستمرار الاعتقاد بكون الغزو مصدر الثروة الأفضل،[78] خاصة بعد تحقق الغلبة لهذه القبائل، التي استمرت في امتشاق السلاح للحفاظ على مكتسباتها المادية.[79] وحسبنا أن استقرار القبائل المرينية في المناطق الوسطى والشمالية قد أفضى إلى زعزعة التوازنات الاقتصادية والاجتماعية فيها.[80]

والواضح أن نهج الدولة المرينية لسياسة إقطاع الأراضي لقبائلها منذ بداياتها الأولى لاكتساح المجال الخصيب من المغرب،[81] واستمرارها فيها لضمان رعاية قطعانهم،[82] واستمالة صنيعاتها من القبائل لاستخدامها في حروبها بالداخل والخارج، كما فعل أبو سعيد مع قبائل سويد العربية المستقدمة من المغرب الأوسط،[83] وما فعله أبو الحسن مع قبائل المعقل في السوس،[84] وأبو عنان مع قبيلة أولاد حسين في درعة،[85] كل ذلك أسهم في تغيير المعالم الفلاحية في بلاد المغرب، بامتلاك قبائل محاربة لا علاقة لها بالفلاحة لأراض شاسعة في السهول الخصبة، مما أثر سلبا على نوعية الإنتاج الفلاحي وكميته.[86]

على أن نزوح الفلاحين عن أراضيهم، وفرارهم منها وتركها بوارا، سيعرف اتساعا كبيرا خلال الفترة التي أعقبت وفاة السلطان أبي عنان بسبب الحروب المستشرية بين الأمراء المرينيين، أو بين الدولة وبعض المنتزين، فضلا عن تمردات القبائل المحاربة وتحرشاتها على

Scanned by CamScanner

المناطق الفلاحية، وما رافق ذلك كله من أشكال الاستغلال والغصب والتعدي أفضت، على ما يبدو، إلى «قبض الناس أيديهم عن الفلح في الأكثر»،[87] مما وجه ضربات موجعة للنشاط الفلاحي ومردوديته.

ونتيجة لهذه الأوضاع المتأزمة، اضطر الكثير من الفلاحين إلى هجر أراضيهم، وأصبح الحديث متواترا عن بوادٍ أضحت «مهجورة»،[88] وقصور تكاد تكون «غير مسكونة»،[89] ومجاشر «خلت (...) وانجلى عنها أهلها»،[90] وقرى «خربت وخلت من العمارة»،[91] وأخرى «خلت من أهلها».[92] كما تداولت نصوص المرحلة معلومات كثيرة عن رعايا «أجفلوا إلى الحصون»،[93] وعن قرى فر ساكنها «بعاله، وبما خف من متاعه»،[94] وعن سهل أضحى «غير مسكون»،[95] ومنبسط «سكن ربوعه الآهلة البوم»،[96] وغير ذلك من القرائن التي توحي بنزوح جماعي هائل للفلاحين اتجاه المرتفعات، فرارا من النهب والتعدي والغارات التي غدا بفعلها «معظم البادية (...) غير مأهول».[97]

وتجدر الإشارة إلى ظاهرة رافقت هذه الأوضاع مجتمعة وأسهمت بدورها في تأزم الوضع الفلاحي، ويتعلق الأمر بالمجاعات التي عرفها المغرب الأقصى خلال فترات طويلة من زمن هذا البحث،[98] والتي ترجع أسبابها بالدرجة الأولى إلى هذه الظروف المتأزمة، فضلا عن ضغط الطبيعة، خاصة وأن استشراء المجاعات يقترن عادة بالمرحلة الأخيرة من عمر الدولة نتيجة علة أساسية هي «قبض الناس أيديهم عن الفلح في الأكثر، بسبب ما يقع في آخر الدولة من العدوان في الأموال والجبايات، أو الفتن الواقعة في انتقاض الرعايا، وكثرة الخوارج، لهرم الدولة».[99]

وفي كل الأحوال، فعلاوة عن ضغط المحاربين، ومطاردتهم للفلاحين، خلفت المجاعات بدورها نتائج كارثية على الإنسان والحيوان. إذ لما كان الإنسان يمثل آنذاك القوة الاقتصادية الأساسية، وقوى الإنتاج مرتبطة أشد الارتباط بالمخزون السكاني،[100] فقد كانت لعوامل الحرب والفتنة وما رافقها، وما نتج عنها من مجاعات، أدوار خطيرة في تآكل قوى الإنتاج وتضعضعها.[101]

وإجمالا، فقد اضطر الكثير من الفلاحين أمام ضغط الحروب، وغياب الأمن، وكثرة القلاقل، إلى سكنى الجبال، فأصبحت أراضيهم في ملك بني مرين والقبائل العربية ذات النجعة والحرب، مما أدى إلى تراجع المساحات المزروعة، وتدمير حياة الاستقرار.

Scanned by CamScanner

3. الإتاوات الحربية، والإجحاف الضريبي

إذا كان معظم الفلاحين قد فضلوا التخلي عن أراضيهم فرارا من الغزو والغارة، وإذا كان غيرهم قد انتزعت منهم أراضيهم قسرا بعد قتال، فإن من «أسلم عليها» وبقي فيها، ومن عاد إليها في لحظات سكون الفتن والقلاقل، ومن استقر قراره بالجبل والمرتفعات كانوا جميعا ملزمين بأداء الإتاوات وتمويل الجيوش بالأموال والضيافات،[102] مما أضر بشكل كبير بالإنتاج الفلاحي، وقلل من إمكانية الحصول على فائض إنتاج من شأنه أن يسمح بتطور هذا النشاط.

والواضح أن اليد الطولى في فرض الإتاوات على الفلاح لم تقتصر على بني مرين كما سنرى، بل كان للأمراء الموحدين الأواخر باع طويل في هذا الميدان أيضاً، حيث استندوا إلى جموع الفلاحين في تمويلهم بالأموال لدفع رواتب جنودهم، وتغطية نفقات حروبهم. ومن ذلك ما تذكره النصوص عن وضع أهل أزمور الذين أخذهم السعيد الموحدي (640-646هـ/1242-1248م) «بالمغارم الثقيلة حتى لم يبق لهم شيئا».[103] وما تعرضت له مكناسة نتيجة الصراع الموحدي-المريني عليها، حيث نزل بها عامل الرشيد الموحدي، «فألزم أهلها وظائف وتكاليف، وابتلاهم بأنواع المغارم والملازم (...) ليوفي العسكريين مالهم».[104] وما فرضه الرشيد على بعض أحواز مراكش وأغمات عندما «انطمس رسم الخراج بالكلية (...) وتعينت رجال لشدة الحاجة وتبيين الأجناد، وافتقارهم إلى إقامة الأود الذي عليه الاعتماد (...) فاقتضى نظر الرشيد أن يقدم عمالا على صنهاجة تاسغرت ودكالة ورجراجة (...) وطالبها بالواجبات»،[105] وكذلك فعل بالقبائل الغمارية والفازازية التي جبيت منها «جباية عظيمة حصل الأجناد منها على مال عظيم».[106]

ويبدو أن ضغط المرينيين على الفلاحين كان شديدا وكارثيا، حين أرغموهم على دفع الإتاوة الحربية اتقاء الغزو والنهب.[107] ومن الأمثلة على ذلك حال فلاحي مكناسة الذين أجبروا على أداء الإتاوة لبني حمامة من بني مرين،[108] وظلوا يؤدونها إلى أن داهمهم هجوم آخر من قبل بني عسكر الذين حاصروهم حتى ضاقوا ذرعا، فلما تيقنوا من هلاك أموالهم وزروعهم، بعثوا إلى المغيرين علماءهم وصلحاءهم راغبين في كف عاديتهم،[109] «فما قبلوا لهم رغبة، ولا استشعروا من الله سبحانه فيهم مخافة ولا رهبة، بل ألزموهم أربعة آلاف دينار خفارة».[110]

Scanned by CamScanner

وفي غير مكناسة تأرجحت علاقة بني مرين مع الفلاحين بين الرضوخ مقابل دفع إتاوة معلومة سنويا، سمتها المصادر خراجا أو مغرما أو ضريبة معلومة،[111] أو الحرب وما يقتضيه ذلك من اكتساح للأرض والأموال، وانتزاعها قسرا من أهلها.[112] وفي كل الأحوال كان الفلاح يعيش «ذليلا بئيسا، بما تتناوله أيدي القهر والاستطالة»،[113] وأضحى نشاطه خاصا بـ«المستضعفين، وأهل العافية من البدو».[114]

يبدو ذلك واضحا أكثر في المراحل الأخيرة من عمر هذه الدولة، حين اضطرت إلى فرض مغارم، وابتكار أسماء لأخرى جديدة تفرضها على الفلاحين لتدبير توازناتها بين موارد الحرب ونفقاتها، ومتطلبات ميول أهل الدولة للترف والكماليات، ولتدبير نفقات حروبها الخارجية سواء في الأندلس أو المغرب الأوسط أو إفريقيا.[115]

والحقيقة أن الدولة المرينية في مختلف مراحل دولتها في الحكم تشكل الاستثناء –إلى حد ما– في مقولات ابن خلدون التي تعتبر الإجحاف في الضرائب وابتكار أخرى، مرتبط بالفترة الأخيرة من مسار الدولة، حين تنضب موارد الغزو، وترتفع تكاليف حروبها وميولها نحو البذخ والكماليات.[116] فمعلوم أن هذه الدولة فرضت أنواعا متعددة من الضرائب غير الشرعية منذ بداياتها الأولى[117]؛ إذ تذكر النصوص أنه بعد تولي يوسف بن يعقوب الإمارة «أزال المكوس ورفع الإنزال (...) وصرف اعتناءه إلى إصلاح السابلة، فأزال أكثر الرتب والقبالات»،[118] مما يثبت أن معظم هذه المغارم كانت سائدة في عهد أبيه يعقوب، بل إن تلك الإصلاحات التي أقدم عليها السلطان أبو يعقوب يوسف لم تكن سوى إجراءٍ ظرفي لتثبيت سلطته، إذ ما لبثت أن فرضت من جديد، بدليل أن أبا سعيد عثمان عند توليه الحكم «رفع عن مدينة فاس ما كان يلزم رباعهم من الوظائف المخزنية في كل سنة»،[119] شأنها في ذلك شأن «سائر أهل المغرب».[120]

القاعدة نفسها تبدو واضحة في حياة هذا السلطان، حيث عادت الدولة لتفرض على الفلاحين والمنتجين عامة جملة من المغارم والإتاوات، بدليل الإصلاحات التي أقدم عليها أبو الحسن المريني بعد توليه الحكم،[121] حيث أدخل تغييرات عميقة على نوعية الضرائب المفروضة، وتبنى استراتيجية لتصحيح مسار الحركة المرينية في هذا المجال،[122] تمثل بعضها في «وفود العمال عليه في آخر كل سنة لإيراد جباياتهم والمحاسبة على أعمالهم».[123] وكل ذلك يثبت أنه إذا استثنينا فترة حكم السلطان أبي الحسن وجزء من ولاية ابنه أبي عنان،[124]

Scanned by CamScanner

فإن ما يمكن الاحتفاظ به هو الطابع التكراري لعودة المغارم وتنوعها بصفة قارة هيكلية، مما أضر في النهاية بالمنتجين والفلاحين خاصة.

وفي كل الأحوال، فإننا لا نستبعد أن يكون الخصاص الذي مس خزينة الدولة المرينية، نتيجة ما أنفقه السلاطين المرينيون في ترفهم، وفي عطاءات جيوشهم، وما أحدثه بعضهم، مثل السلطان أبي الحسن، من إصلاحات في مصادر العطاء حين حول كثيراً منها إلى بيت المال،[125] وما نتج عن ذلك من إنهاك لمالية الدولة، وراء إصرار السلطة المرينية على التماهي في فرض المغارم واستحداث أخرى.[126]

ومن أبرز الضرائب التي فرضها المرينيون على جموع الفلاحين خلال هذه المرحلة، ضريبة المعونة التي تقتضي المساهمة في تمويل الجيوش، وتوفير الضيافات لها. وحسبنا مثالا على ذلك إقدام أبي الحسن على إلزام الفلاحين وغيرهم بدفع هذا المغرم لتغطية عجز بيت مال الدولة عن تمويل حملاته العسكرية، فـ«ندب الناس إلى الإعانة بأموالهم على الجهاد».[127] وإذا كانت عبارة هذا النص تفيد الندب لا الإكراه في تقديم هذه المعونة، فإن نصوصا أخرى تبرز عكس ذلك، إذ أثارت هذه الضريبة ردود فعل مستنكرة لها، رافضة لإكراه الناس على أدائها،[128] خاصة من قبل بعض الفقهاء والمتصوفة الذين تعاطفوا مع الفلاحين المتضررين منها.[129]

ولا سبيل إلى الشك، في أن مرور الجيش، على ضخامة أعداده، وطبيعة تنقله[130] بمناطق فلاحية، لا يمكن إلا أن يحدث خسائر بالفلاح ومنتوجه، سيما وأن الجيوش كانت تختار في تنقلها الأماكن الطيبة، وتنتقي في استراحتها أفضل «الأرض نزلا، وأكثرها مرعى وماء ومنافع»،[131] مما يحدث ضرراً لأصحاب هذه الأرض، نجد صداه فيما طرح على فقهاء المرحلة من نوازل تتعلق بموقع أضرار الجيش ضمن مجمل الاعتبارات التي تؤخذ لتصنيف الضرر اللاحق بالفلاح نتيجة بعض الجوائح.[132]

ويخيل إلينا أن الهزائم التي بدأت تعصف بالجيوش المرينية منذ هزيمة طريف سنة 741هـ/1340م، ووقعة أبي الحسن في إفريقية سنة 749هـ/1348م كانت بداية لمرحلة جديدة من الإجحاف الضريبي على الفلاحين والمنتجين عامة، وخاصة في المرحلة التي أعقبت وفاة السلطان أبي عنان؛ فأمام الضعف الذي مس ميزانية الدولة، وكثرة حروبها في هذه الفترة، وحاجتها لأعداد جديدة من الجنود لتدبير غزواتها ضداً على المنتزين والقبائل

Scanned by CamScanner

المتمردة،[133] فضلا عن تقلص ظل الدولة عن بعض الجهات، مما أفقدها موردا هاما من الجبايات،[134] كل ذلك عجل بالرفع من المغارم والإجحاف في جمعها، وهو ما كان له بالغ الأثر في وضعية الفلاحين ونشاطهم.

ومن الشواهد الدالة على هذا الوضع، رسالة بعث بها ابن عباد الرندي النفزي إلى السلطان أبي فارس عبد العزيز المريني يطالبه فيها بضرورة التدخل لمنع تعسف الجباة، ومراجعة ما استنزفوه من أموال قد تغني الدولة عن هذا الشطط الضريبي.[135] ولم يتوان هذا الفقيه، من باب تعاطفه مع الفلاحين وغيرهم من المنتجين، عن المطالبة عبر رسالة أخرى بضرورة إزالة ما سماه بـ«رسوم الجور».[136] كما لم يتردد غيره في نعت أموال الحكام وأرباب السلط والوظائف والخطط بالخبيثة أو المشبوهة،[137] فدعوا إلى رفض هباتهم وأعطياتهم،[138] والامتناع عن طعامهم وموائدهم[139]؛ لأن الأصل في أموالهم وثرواتهم احتجان أموال الناس، والشطط في «غرم الديار والرباع».[140]

وفي كل الأحوال، فقد نجم عن حاجة الدولة للأموال توفيراً لـ«ما تحتاج إليه الحامية من العطاء، والسلطان من النفقة»،[141] خاصة مع تزايد النفقات «والحاجات، والتدرج في عوائد الترف، وفي العطاء للحامية»،[142] إطلاق الأعنة للجباة ليصبحوا بمثابة سوط عذاب سلط على ظهر الرعية وخاصة المزارعين منهم،[143] إذ أصبح الجابي يخرص الزرع قبل حصاده، وأحيانا قبل تبين ثمراته.[144] وكل من رفض أو ماطل في دفع الضرائب يعرض نفسه للسجن أو المصادرة.[145] وبالجملة، فإن «الرعايا استولت عليها المغارم ونزفها الحلب حتى عجزت عن الفلح وضعفت عن الإثارة والبذر»،[146] كما أنه نتيجة لتضخم حجم الضرائب المفروضة، لم يعد يوجد «سوى القليل من الفلاحين الذين يستطيعون توفير ما يلزمهم ضرورة من لباس وطعام».[147]

وجدير بالإشارة أن إلزام الفلاحين بالمغارم والإتاوات، وإرغامهم على دفعها بقوة السلاح خلال هذه الفترة، لم يقتصر على الدولة وجباتها من الأفراد والقبائل، بل شمل مجموعة من القبائل المحاربة التي استقلت بمجالاتها، وفرضت على الفلاحين أداء الإتاوات لتجنب غزواتها وغارات غيرها.[148] وهكذا وجدت هذه القبائل في تراجع سلطة الدولة، وتقلص ظلها، فرصة لتجديد تحركاتها، فوجد الفلاح نفسه مضطرا للهروب أمام زحفها، أو الرضوخ لأداء الإتاوات لها على ما يستغله من الأرض.[149]

Scanned by CamScanner

ومن الأمثلة التي تعكس التردي في الوضع الفلاحي، حالة بلاد السوس الذي عاد «ضاح عن ضل الدولة، و[أصبح] العرب يقتسمون جبايته، ورعاياه من قبائل المصامدة وصنهاجة للجباية».[150] وكذلك كان حال أهل درعة وسجلماسة وتدغة وتبلبالت الذين أجبروا على أداء الإتاوة لقبائل بني معقل.[151] مثلهم في ذلك مثل أهل تارودانت الذين يدفعون «لهؤلاء الأعراب خراجا كثيرا عن الأراضي الزراعية حسب العادة».[152] وقبائل حاحا التي تتقاضى قبائل الحارث منها خراجا كثيرا.[153] أما أهل تينزا، في مجالات كدميوة، فإن «السكان لا يستطيعون حرثها بسبب إزعاج الأعراب، وإنما يزرعون منحدر الجبل الواقع بين النهر والمدينة، وحتى عن هذا الجزء يؤدون ثلث المحصول كإتاوة للأعراب».[154]

وإجمالا فإن الارتباط بين الحرب والمال سواء بالنسبة للقبائل الغازية أو الدولة المركزية، والانسجام الواضح بين حالة الجيش من حيث القوة والضعف، وحالة الخزينة والجبايات، قد جعل من الفلاح عنصرا أساسيا في موازنة هذه المعادلة. إلا أن التعسف في تحقيق ذلك، والإجحاف الضريبي الذي تعرضت له جموع الفلاحين عجل بانهيار النشاط الفلاحي وإفلاس الكثير من ممتهنيه.

4. التجنيد العسكري للفلاحين

يمثل تجنيد الفلاحين، وإلزامهم بالمساهمة في غزوات القبائل المتغلبة، أو في حروب السلطة المركزية، مظهرا آخر لآثار الحرب على النشاط الفلاحي خلال العصر المريني؛ فقد كان منطق الغلبة يلزم القبائل المغلوبة على أمرها، التي يسميها ابن خلدون بالقبائل الحاشدة الغارمة،[155] بـ«الخفوف إلى العسكرة مع السلطان متى دعوا إليها»،[156] إذ كانت للدولة على جميع هذه القبائل «حقوق عند الحشد والعسكرة»،[157] مما أثر ولا شك في سير العملية الإنتاجية، وفي أعداد المشتغلين في هذا القطاع.[158]

لقد كان طبيعيا أن يتأثر الإنتاج الفلاحي بإجبارية المشاركة في حروب السلطة التي اقتضتها الغلبة المرينية على مجموع القبائل المغربية المغلوبة،[159] إذ أفضت إلى تقليص نسبة السكان الممارسين للنشاط الفلاحي. ولعل فيما تكشفه كتب العقود عن اضطرار بعض الفلاحين إلى تأجير من ينوب عنهم في الغزو،[160] أو في تأكيد بعض مصنفي المرحلة في مجال الأحكام على الأمير أن لا يخرج للغزو رجلا زرع زرعا و لم يحصده،[161] دليل واضح عن تأثير تلك السياسة في سير العملية الإنتاجية.

Scanned by CamScanner

خلاصة القول إن نهب المحاصيل وتخريبها ومطاردة الفلاحين وتهجيرهم من أراضيهم، فضلا عن إلزامهم بدفع الإتاوات، والإجحاف الضريبي الذي مورس عليهم، وإجبارهم على تقديم الخدمة العسكرية أفضى كل ذلك إلى اندحار النشاط الفلاحي، وتراجع نسبة ممتهنيه.

ثانيا: النتائج الهيكلية للحرب في القطاع الفلاحي

إن النصوص التي أوردناها سلفا، والشواهد التي اعتمدناها لتأكيد عمق الأثر الذي مس النشاط الفلاحي جراء الحروب التي عرفها المغرب الأقصى طيلة فترات مهمة من المرحلة مدار الدرس، نسوقها للمثال فقط، لكننا لا نخفي بعضا من التردد في تأكيد هذه النتائج؛ أولا لأن معظمها نصوص أزمة لا تبتعد كثيراً عن عنصر المبالغة والتهويل، إذا استثنينا بعض المتون المصدرية ككتب النوازل. وثانيا لأن النصوص التي تكشف عن هذا الأثر تظل ضئيلة بالمقارنة مع تلك التي تثبت حضور الحرب واستفحالها. وثالثا لصعوبة الاستئناس بمختلف الروايات، والتتبع الدقيق لآثار كل حرب أو حملة أو غارة. ومع ذلك، فثمة نصوص أخرى ودلائل كثيرة تجعلنا نميل إلى تأكيد هذه الخلاصات ودعمها، لأنها تكشف عن مجمل التحولات الهيكلية التي أصابت هذا النشاط ليس فقط بسبب الحروب التي أعقبت انحسار ظل الدولة المرينية بعد أبي عنان، بل تعود أسبابها إلى البدايات الأولى للحضور المريني في المغرب الخصيب.

1. تقلص المشهد الزراعي لصالح الرعي والانتجاع

الظاهر أن أهم تحول شهدته الفلاحة خلال المرحلة المدروسة، نتيجة هذه الحروب، تمثل بالأساس في لجوء معظم الفلاحين إلى الجبال، في الوقت الذي أصبحت فيه أملاكهم وأراضيهم في ملك بني مرين والقبائل العربية ذات النجعة والحرب مما ساهم في زعزعة النشاط الفلاحي وانهياره. ونجد صدى واضحاً لهذا التحول في وصف ابن خلدون[162] لجغرافية المغرب البشرية، حين يقول: «ومعاش المستضعفين منهم بالفلح ودواجن السائمة، ومعاش المعتزين أهل الانتجاع والإظعان في نتاج الابل وظلال الرماح، وقطع السابلة. فكانت جبال المغرب لذلك أكثر ساكنها من المصامدة، وهي الأغلب وقبل من صنهاجة. وبقيت البسائط من المغرب مثل أزغار و تامسنا وتادلا، ودكالة، واعتمرها الظواعن من البربر الطارئين عليه من جشم ورياح».

Scanned by CamScanner

وقد عبر أحد الجغرافيين عن هذا التحول أثناء حديثه عن سهول المغرب الأقصى بُعيد هذه المرحلة، فأكد أن معظمها أصبح فارغا نتيجة الحروب التي عرفتها، ومن ذلك أزغار الذي يصفه بأنه «عبارة عن سهل أرضه جيدة، ولذلك سكنته أقوام كثيرة، وقامت فيه مدن وقصور، إلا أن هذه الأمكنة قد خربت بسبب حرب نشبت في الزمن القديم».[163] والهبط التي كانت أرضه «عجيبة حقا بسبب خصوبتها ووفرة إنتاجها، معظمها سهل تخترقه مجاري مياه عديدة، وكانت في قديم الزمان أكثر نبلا وشهرة من أيامنا هذه».[164] وإقليم فاس الذي «تقوم فوق جميع رباه قرى كثيرة وكبيرة جداً، لأن السهول قليلة السكان بسبب الحروب الماضية، غير أن بعض الأعراب الفقراء يعيشون بها في مداشر».[165]

وما من شك في أن تحول اسم سهول تامسنا إلى «الشاوية»،[166] يكشف عن هذا التغيير الهيكلي الذي شهدته هذه المنطقة في اتجاه سيادة نمط الرعي والانتجاع، وهو ما يؤكده ابن الخطيب[167] في وصفه الدقيق لهذا المجال بقوله: «واقتحمنا الرمل الذي أخرج الله مرعاه، وحشر البهم فحضرت مدعاه، ما بين خيام، ورعاة غير لئام، وبيوت شعر، ومعاطن وبر، وغنم قملت بها الأرض، وبقر ضاق بها الطول والعرض (...) بين خيام قد استدارت كالودائل، واشتملت على الولائد والعقائل، ودشر ركبت الهضاب بأخصاصها، وملأت الوهات ببهمها وقلاصها (...) مدائن دورها شعر، ووقودها بعر، وسورها سدر».

ويكشف ابن الخطيب[168] في نص آخر عن وضع حوز مراكش في وصفه للطريق بين أغمات ومراكش، مؤكداً الخراب الذي حل بهذه المجالات جراء حروب هذا العصر؛ فأصبحت «أدواح الزيتون والأشجار تساوقها جريات الأنهار، تتخللها أطلال الحلل والديار نيف على سطر البريد لا تنال صفح ثراه الشمس ولا ترتاده الحرباء، وقد اقتطعت ذلك الجذب الخصيب أيدي الوحشة، وأخيفت من حلل غابه السابلة، وسكن ربوعه الآهلة البوم»، بعد أن «عافته الأيدي، وغلت أيدي فلاحه الفتنة».[169]

هكذا إذن يبدو أن الحرب قد وجهت ضربات موجعة للنشاط الفلاحي حين أرغمت كثيراً من القبائل التي تشكلت لديها تقاليد هامة في تدبير الأرض وفلحها، على هجر أراضيها ومغادرتها، لصالح قبائل لا علاقة لها بالأرض والفلاحة،[170] إلا من جانب منفعتها؛ أي أنها تستغلها بشكل جماعي في الغالب؛ لأن الملكية الجماعية في حالة هذه القبائل ذات النجعة والحرب تبدو أكثر انسجاماً مع توجهها الحربي،[171] تستفيد منها مؤقتا لحظة استقرارها المؤقت قبل أن تغادرها للانتجاع أو لحرب أصحاب أرض أخرى أكثر

Scanned by CamScanner

خصبا، مما أسهم في تقوقع النشاط الزراعي في الجبال وداخل أسوار المدن، كأسلوب لتأطير الخراب في غالب الأحيان.

يتلاءم الرعي هنا مع التوغل في الجبال والتخلي عن السهول؛ لأن الاقتصاد الرعوي يصبح أكثر ضمانا لأمن القبائل من الاقتصاد الزراعي، فلا مناص من التأكيد على أن كثرة المشاكل التي اعترضت الفلاح في مغرب هذه المرحلة وبالخصوص ما يتعلق بالحرب والقلاقل كما أكدنا سلفا، جعلته يجد اطمئنانا أكثر في حياة الرعي والترحال.[172] وهكذا يمكن القول إنه بقدر ما أدى نزوح الفلاح عن السهول، وتخليه عن أرضه لصالح القبائل ذات التقليد الرعوي والحربي، أفضت كثرة المشاكل التي عانى منها في هذا السياق إلى الاهتمام أكثر بالرعي بدلا من الزراعة في المناطق الجديدة التي استوطنها.

ولا تعوزنا الدلائل الكاشفة عن هذا التحول[173]؛ فمدينة تينزا القريبة من مراكش «توجد تحتـ[ها] (...) سهول واسعة صالحة كلها لزراعة الحبوب، غير أن السكان لا يستطيعون حرثها بسبب إزعاج الأعراب، وإنما يزرعون منحدر الجبل الواقع بين النهر والمدينة، وحتى عن هذا الجزء يؤدون ثلث المحصول كإتاوة للأعراب».[174] كما أن «البادية المحيطة بـ [تومكلاست في الحوز] جميلة وصالحة جداً للحبوب، غير أنه لا يمكن زرعها بسبب تعسف الأعراب، وتكاد تكون هذه القصور غير مسكونة».[175] وفي القسم المجاور للأطلس بإقليم تارودانت توجد «كثير من القرى والمداشر بينما يحتل العرب السهول الجنوبية ويرعون فيها ماشيتهم».[176] وفي منطقة أخرى بالسوس تكثر «القرى والمداشر، لكن القسم الغربي منها غير مسكون؛ لأنه عبارة عن سهل بيد الأعراب».[177] أما في جبل بني مسكلدة بالريف فـ«تمتد سهول كبيرة عند سفح الجبل هي في أيدي بعض الأعراب الذين هم في حرب مع سكان الجبل في أغلب الأحيا».[178]

وإذا كانت هذه النصوص تكشف عن بروز فلاحة مقوقعة في قمم الجبال بعيداً عن تحرشات القبائل المحاربة، فإن نصوصاً أخرى تثبت أيضا ظهور ظاهرة البستنة داخل الأسوار، وحسبنا أن مراكش التي خرب ثلثاها وغدا غير مسكون نتيجة هذه الحروب، قد غرست الأراضي الفارغة فيها «بالنخيل والكروم والأشجار المثمرة؛ لأن السكان لا يستطيعون أن يملكوا ولو شبراً واحداً من الأرض الصالحة للفلاحة خارج الأسوار لكثرة تعسف الأعراب».[179] وقريبا منها مدينة تاشرافت التي أصبح معظم سكانها بسبب تعسف هؤلاء «بستانيون، ويفيض النهر فيتلف جميع البساتين ثم يأتي الأعراب في الصيف

Scanned by CamScanner

فيأكلون كل ما يجدونه من الطيبات»[180] بالرغم من ذلك. كما أن أغمات التي عانت كثيرا من هذه الحروب لم يعد فيها سوى بعض من البساتين والجنات داخل أسوارها،[181] لذلك وصف ابن الخطيب[182] أهلها «بنوك (جنون) وذهول، بين شباب وكهول، وعدوها تضيق لكثرته السهول، وأموالها -لعدم المنعة- في غير ضمان، ونفوسها لا تعرف طعم أمان».

إجمالا فقد أفضت الحرب إلى إحداث تغيرات جذرية في المشهد الفلاحي بالمغرب الأقصى خلال عصر الدراسة، أسهمت بدور أساسي في تغيير ملامحه حين حولت كثيرا من السهول الصالحة للزراعة إلى مجالات للرعي والانتجاع، وحصرت الرقعة المزروعة في قمم الجبال والمرتفعات، وداخل أسوار المدن والقرى المسورة.

2. الفلاح والمتغيرات الجديدة

وإذ كان الوضع على هذا الحال، فقد كان على الفلاح المغلوب على أمره، فضلا عما فقده من الأرض الصالحة للزراعة، أن يقدم لهؤلاء البدويين المحاربين الذين استولوا على السهول، إتاوات[183] مجحفة أسهمت بدورها في تأزيم ما تبقى من فلاحتهم. وقد عبر أحد الجغرافيين[184] عن هذه الحالة بوصف دقيق، في حديثه عن بعض مناطق الحوز التي لا يستطيع سكانها استغلال «سهول واسعة صالحة كلها لزراعة الحبوب (...) بسبب إزعاج الأعراب، وإنما يزرعون منحدر الجبل الواقع بين النهر والمدينة، وحتى عن هذا الجزء يؤدون ثلث المحصول كإتاوة للأعراب». مثلهم في ذلك مثل فلاحي تارودانت التي احتل الأعراب معظم منبسطاتها، واقتصروا على بعض المداشر والقرى في قمم الجبال، وبالرغم من ذلك يؤدون «لهؤلاء الأعراب كثيرا عن الأراضي الزراعية حسب العادة».[185]

لقد ساهمت هذه الأوضاع في تراجع النشاط الفلاحي، وسحبت منه كل ميكنزمات تطوره، ففقد الفلاح كل ما يحفزه إلى العمل والفلح وأفلس غيره، بينما اضطر البعض الآخر إلى بيع الأرض بالثنيا أو الرهن للتخلص منها،[186] في حين فضل آخرون التخلي عنها وهجرها،[187] مما أعاق تطور هذا النشاط وتوسعه. وإذا كان هذا الوضع قد أسهم بشكل كبير في انتشار المجاعة في صفوف الفلاحين،[188] فقد قام بدور هام في ترسيخ ثقافة الادخار، وتحصيل الغلات القليلة في المطامير تحسبا لأي عدوان، أو ادخارا للأيام التي قد تتوقف فيها الدورة الزراعية.[189]

Scanned by CamScanner

وإذا كان العديد من الفلاحين قد هجروا أراضيهم وآووا إلى الجبال، أو إلى المدن لتعاطي مهن أخرى،[190] وأحيانا إلى مناطق أخرى لاحتراف الرعي بعد أن انعدمت لديهم حوافز العمل والإنتاج،[191] فقد انتظم كثير ممن فضلوا البقاء في مواطنهم في إطار عقود شركة مع أصحاب الأرض الجدد،[192] أهم ما ميزها عدم تكافئها في غالب الأحيان، وضيق الحال حتى إن المزارع لا يشترط فيها سوى بعض قوته اليومي، وملبسه السنوي، كما يبدو واضحا من خلال عقود شركة الخماسة.[193] ومن الأدلة الكاشفة عن تدهور الوضع الزراعي في هذه المرحلة، فقد معظم الفلاحين لأراضيهم، واندماج بعضهم في إطار عقود الشركة مع من ضموا أملاكهم، ومما يؤكد ذلك انتشار عقود شركة المزارعة وكثرتها بالمقارنة مع شركة المغارسة،[194] وهو ما يمكن تلمسه بجلاء من خلال نوازل الفترة.[195]

عموما فقد أسهمت الحرب بدور فعال، في تقلص المساحات المزروعة وتراجع الإنتاج الزراعي، وقد تفطن ابن خلدون[196] -الذي لم يتردد في اعتبار هذا النشاط «معاش المستضعفين»، «مما تتناوله أيدي القهر والاستطالة»[197]- لهذا الدور، فأقر «أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها، لما يرونه من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم. وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في الاكتساب (...) فإذا قعد الناس عن المعاش، وانقبضت أيديهم عن المكاسب، كسدت أسواق العمران، وانقبضت الأحوال وابذعر الناس في الآفاق من غير تلك الإيالة في طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها، فخف ساكن القطر، وخلت دياره، وخربت أمصاره».[198]

خلاصة القول إن الحرب التي أصبحت خلال العصر المريني ظاهرة بنيوية، أسهمت بشكل كبير في تدهور الإنتاج الزراعي، مثلما سمحت ببروز تطورات أخرى على مستوى الاستغلال والإنتاج، فاضطر الكثير من الفلاحين الذين اكتسبوا خبرة هامة في تعاملهم مع المجال وخصوصيته إلى سكنى الجبال، بينما أصبحت السهول الخصبة مجالا للرعي والانتجاع، فضلا عن سيادة البستنة داخل الأسوار، وكلها مظاهر لتراجع المجال الفلاحي وتقلصه.

المبحث الثاني: آثار الحرب في النشاط الحرفي

عادة ما تعني الصناعة في تاريخ المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط عموما تصنيع الإنتاج الفلاحي وما يتصل به، واستنباط المعادن وتصنيعها، والاستفادة من ذلك كله في

Scanned by CamScanner

متطلبات الإنسان الضرورية والكمالية.[199] وغني عن البيان ما كان يمثله هذا القطاع بالنسبة لشريحة هامة من ساكنة المدن خلال هذه المرحلة.[200] ومن نافلة القول إن ما توفره مصادر الفترة من معلومات حول تأثر الحرف والصناعات بالحرب لا يتجاوز بعض الشذرات والإشارات المتفرقة في أمهات المصادر التاريخية الصرفة، وغيرها من كتب الجغرافيا والرحلات وكتب النوازل الفقهية (...) نحاول في ضوء ما تقدمه من نصوص إعطاء بعض عناصر الإجابة عن علاقة الحرف بالحرب خلال العصر المريني.

أولا: أثر الحرب في تراجع النشاط الحرفي

لا مراء في أن تطور الصناعة والحرف رهين بتوفر عنصر الأمن والاستقرار، وهو ما يوفر الظروف الملائمة لقيام أي نشاط صناعي.[201] وإذا كان هذا الشرط قد توفر في بعض سنوات المرحلة المدروسة، مما سمح بقيام بعض الأنشطة الحرفية وانتعاشها، فإن ما ميز فترات هامة من هذا العصر من حروب وفتن قد أضر بشكل أو بآخر بهذا النشاط.

ومن الطبيعي أن تتأثر الحرف والصناعات –على غرار الفلاحة– بالحروب والقلاقل التي استشرت في معظم سنوات الفترة مدار الدرس. ولا شك أن الضرر الذي لحق بالزراعة من جراء هذه الأوضاع المضطربة[202] ترك بصماته السلبية في النشاط الحرفي لأن الثاني يستمد غالبا مادته الأولية من الأول.[203] وقد سبقت الإشارة إلى التخريب الذي طال المحاصيل الزراعية، وما تعرض له الفلاحون من عدوان أفضى إلى قبض أيديهم عن الفلح، وأدى في النهاية إلى توقف العملية الزراعية وتدهور تام لهذا النشاط. وإذا علمنا أن الصناعة قد وجهت خلال هذه المرحلة لتغطية المطالب المعاشية،[204] أمكن فهم سهولة تعرض هذا النشاط للانتكاسة كلما أصيبت الفلاحة بالتدهور والانهيار.

وبالمثل فإن ما لحق بقطاع التجارة من ضرر جراء هذه الحروب، التي جعلت مرافقه تتوقف، وطرقه تتعطل،[205] كان له بالغ الأثر في وضعية الحرف والحرفيين، باعتبار أن التجارة كانت تمثل الرئة التي تتنفس منها المنتجات الحرفية.

1. تخريب الورشات الحرفية، وتشريد الحرفيين

على غرار ما أثبتناه في المبحث السابق عن الانعكاسات التي خلفتها حروب المرحلة الأولى من زمن هذا البحث في القطاع الفلاحي، يبدو أن الحرف قد تأثرت من الغارات

Scanned by CamScanner

التي شنتها القبائل المرينية على مختلف المدن إلى حدود اقتحامها للعاصمة الموحدية مراكش، فضلا عن الصراع الذي حل بين الأمراء الموحدين الأواخر حول السلطة، ودخول القبائل العربية أطرافا في هذا الصراع،206 مما خلف نتائج وخيمة على الإنتاج الحرفي ومنتجيه.

لقد أفضت حروب هذه المرحلة إلى تخريب العديد من الورشات الحرفية في سياق التخريب العام الذي طال الكثير من المدن، مما أثر سلبا على الوضعية الاقتصادية والاجتماعية لأصحابها، كما هو حال حرفيي مكناسة الذين تضرروا من التخريب الذي مس معظم حوائر مدينتهم «و لم يبق منها إلا الصوامع والجدارات العتيقة».207 على أن أبرز مثال في هذا الصدد يتعلق بصناع وحرفيي مدينة فاس الذين عانوا بشكل كبير من الفتن والاقتتال الداخلي خلال هذه الفترة؛ فبعد أن كانت أسواق هذه المدينة تعج بمختلف أصناف الحرف والصنائع، وكان بخارجها «دار الصباغين وحوانيتهم، ودار الدباغ، ودار الصبانين، وحوانيت الخياطين والقصابين والسفاجين والكوش، والأفران المعدة لطبخ الغزل وغيرهم مما يحتاج إلى الماء»،208 تعرض ذلك كله للعيث والتخريب «في أيام الفتنة التي كانت بين العادل وأخيه المأمون، وكانت مدة توالي الخراب عليها عشرين سنة».209

ولا شك أن الحصارات التي ضربت على بعض المدن من قبل بني مرين، انعكست بدورها سلبا على هذا القطاع، وأفضت إلى تقوقع بعض القبائل والبوادي على نفسها، حين قطعت علاقتها بالمدينة، ومنعت من تزويد حرفييها بالمواد الأولية سواء كانت فلاحية أو معدنية.210 وهو ما يفهم من حال مكناسة التي حاصرها أبو بكر المريني، «وضيق عليها بقطع المرافق، وترديد الغارات، ومعاودة الحرب، إلى أن أذعن [أهلها] لطاعته»،211 وتازا التي نازلها أربعة أشهر حتى أنزل أهلها «على حكمه فقتلهم، ورهن على آخرين منهم»،212 وكذلك مراكش التي تذمر شيوخها من إذعان أبي دبوس الموحدي لحصار يعقوب المريني حتى خرب ديارهم، ونهب أموالهم،213 وكل ذلك يثبت عمق الضرر الذي لحق بالحرفيين جراء هذه الحصارات.

وثمة عنصر آخر أسهم بدور لا يستهان به في ما ألم بالحرفيين والصناع من تخريب خلال هذه المرحلة، ويتمثل في بعض القبائل التي اعتادت الإغارة على المدن،214 ويكفي أن نشير إلى العيث الذي ألحقته عرب الخلط بحرفيي مراكش، والضرر الذي أحدثوه في ورشاتهم سنة 632 هـ/1234م.215 وما ألحقته جموع هسكورة التي اقتحمت مراكش مع أبي دبوس الموحدي، عام 664هـ/1265م من ضرر وتخريب، حيث «دخلوا القيسارية

ونهبوها أي انتهاب، واستولوا على جميع ما كان فيها من الأمتعة والأسباب، وأشعلوا النار فيها وحرقوها، وسلبوا الحوائج من الديار واستاقوها».[216]

ويفسر ابن خلدون الدور السلبي لهذه القبائل اتجاه الحرف والصنائع بالطابع البدوي الذي جبلوا عليه،[217] فجعلهم يحتقرون كل ما لا يرتبط بالعز والغزو، لذلك فإنهم «يتلفون على أهل الأعمال من الصنائع والحرف أعمالهم، لا يرون لها قيمة ولا قسطا من الأجر والثمن، والأعمال (...) هي أصل المكاسب وحقيقتها، وإذا فسدت الأعمال وصارت مجانا، ضعفت الآمال في المكاسب، وانقبضت الأيدي عن العمل، وابذعر الساكن، وفسد العمران».[218]

وقد أسهمت هذه الحروب كذلك في تعطيل عدد من المناجم؛ فإذا ما ذهبنا مع رأي أحد الباحثين،[219] في أن امتلاك المناطق المعدنية شكل هاجس حكم حروب هذه المرحلة، وقبلها أيضا، أمكن القول إنه إلى حدود تمكن المرينيين من بسط سلطتهم على مواقع هذه المناجم والقضاء على المنافس،[220] تعطلت هذه الأخيرة، وتوقفت عملية استخراج معادنها، مما اضطر معه الحرفيون إلى استخدام المعادن البوالي،[221] وحسبنا أن «مدينة» معدن عوام، على أهميتها المنجمية في هذه المرحلة،[222] تعرضت للتخريب من قبل يعقوب بن عبد الحق سنة 660هـ/1261م وقتل سكانها، ولم تعمر بعد ذلك إلى حدود عصر الحسن الوزان على الأقل.[223]

أما المناجم التي بقيت نشيطة، فيبدو أن أساليب الاستخراج، ووسائل التصفية والسبك، قد تدنت بها، فأصبح المعدن «يخرج أحرش غير طيب».[224] ومن جانب آخر أمسى غصب المعدن من أصحابه بعد استخراجه ظاهرة حاضرة في مثل هذه المراحل الحرجة، بسبب ما يلحق بجلابه من «ضرر في الطريق»،[225] فلم يعد بمقدور الصناع الاشتغال إذا كان «المعدن غائبا عن البلد».[226] كل ذلك أضر في النهاية بالحرف والصناعات التي تعتمد المعدن في إنتاجها.

ومن نافلة القول إنه خلال هذه المرحلة، تواترت على المغرب -بسبب هذه الحروب- مجموعة من المجاعات والأوبئة،[227] كانت سببا في تناقص عدد سكانه،[228] ومن بينهم الكثير من الحرفيين. وواكب هذه المجاعات غلاء في الأسعار،[229] ونقصان للقدرة الشرائية لدى السكان، مما كان وراء كساد الكثير من الحرف.

Scanned by CamScanner

وإذا كان من الطبيعي أن تتراجع نسبة الحروب والقلاقل ابتداء من السنة التي أعقبت اقتحام المرينيين لمراكش، وقضائهم على ما تبقى من الحكم الموحدي، وأصبح ممكنا بالنسبة للحرفيين في هذه المرحلة، وإلى حدود وفاة السلطان أبي عنان، أن يقوموا بأعمالهم في جو ملائم،[230] فالواضح أن استمرار بعض الحروب في الداخل، ودوام حروب الدولة المرينية في الخارج، خلف بعض نتائجه السلبية في هذا القطاع، ولم يسمح بنمو نشاط صناعي متطور وهام.

وتثبت كثير من النصوص أن الوضع الأمني في المغرب الأقصى لم يعرف استقرارا كاملا على امتداد فترة قوة الدولة المرينية، مما يعني أن النشاط الحرفي لم يسلم من تبعات الحرب حتى في هذه المرحلة، فقد تعرضت الكثير من المدن خلالها لحالات من العبث والتخريب والاستئصال في بعض الأحيان؛ مثل سجلماسة[231] وسبتة[232] ووجدة[233] وتاوريرت[234] وتارودانت،[235] مما أضر بكثير من الحرفيين الذين فقدوا أموالهم وورشات عملهم وعقود معاملاتهم في خضم هذه الأحداث.[236]

من جانب آخر، أعلن بعض المتمردين ثورتهم على السلطة الجديدة مما خلف جوا من اللاأمن وغياب الطمأنينة لدى الحرفيين على حرفهم نتيجة ما تعرضت له من تخريب من قبل هؤلاء، فقد ظهر في غمارة في أواخر القرن 7هـ/13م متمرد يعرف بالعباسي ادعى أنه الفاطمي، واستطاع أتباعه الدخول إلى مدينة فاس عنوة، حيث قاموا بإحراق أسواقها، وتخريب ورشاتها.[237]

وتفصح بعض النصوص عن أوضاع الصناع والحرفيين خلال هذه الاقتحامات المتكررة للمدن؛ فقد سئل أبو عبد الله السطي سنة 737هـ/1336م عن المال الذي أتلف أو غصب من صاحبه «عند دخلة السلطان أبي الحسن تلمسان»،[238] كما سئل بعض الشيوخ عن الصائغ الذي أخذ ذهبا عينا برسم أن يصنع قرطا، وكان ذلك قبل الحصار واقتحام المدينة، ثم ماطل صاحب القرط في صنعه مدعيا أن المال «ضاع يوم الكائنة».[239] وفضلا عن ذلك، ترددت في نوازل المرحلة ظاهرة ضياع الوثائق والعقود المثبتة للملكية ولقضايا الشركة ومختلف الالتزامات خلال الاقتحامات التي تعرضت لها المدن، وما كان يصاحبها من ضروب الغصب والتعدي.[240]

وإذا كانت هذه المرحلة الوسطى من عمر الدولة المرينية قد عرفت تقلصا في الحروب والصراعات الداخلية، مما أنعش -ولو إلى أجل- بعض الحرف والصنائع كما سنبين فيما

Scanned by CamScanner

بعد، فإن الفترة التي أعقبت وفاة السلطان أبي عنان عصفت بهذا الانتعاش وأعادت النشاط الحرفي، على غرار ما حدث للفلاحة، إلى حالة التدهور والانهيار نتيجة الصراعات السياسية حول السلطة، وتمردات القبائل ذات النجعة والحرب، أفرزت سلسلة من الحروب التي درت بقرنها بطول البلاد وعرضها، مما انعكس سلبا على الحرفيين وإنتاجهم.

وحسبنا دليلا عن تأثر النشاط الحرفي بهذه الحروب أن كثيرا من المدن آل وضعها إلى الخراب، وهجرت من سكانها، من مثيل مراكش ومكناسة وتاوريرت،[241] فضلا عن «مدينة» فنزارة[242] والمعمورة[243] وتيفلفلت[244] وخميس مطغرة[245] وجامع الحمام[246] وبني بازيل.[247] ومن الأمثلة التي تفصح عن تراجع كثافة النشاط الحرفي، وتقلص أعداد ورشاته ونسبة ممتهنيه بهذه المدن حال حرف مراكش التي تقلصت أعدادها من مثيل سيماط الكتبيين الذي بلغ عدد حرفييه فيما مضى نحو المائة، إلا أنه تحول في أواخر العصر المريني إلى مكان مقفر، وضاع أثره بجوار جامع الكتبيين،[248] بعد أن استولى الخراب على أجزاء هامة من هذه المدينة.[249]

ويكشف ابن الخطيب[250] عن الأوضاع المتردية التي يعيشها حرفيو المدن بسبب الاجتياحات المتكررة، والغارات المستمرة عليها، موضحا في تعبير بليغ السبب الثاوي وراء تأثرهم الشديد بحالة الحرب، أثناء حديثه عن هجوم أحد الأمراء المرينيين على سلا، وما أحدثه من تخريب تبادر فيه الناس، ومعظمهم «حلجة قطن، ومواشط كتان، وأبطال مقاعد حياكة»، إلى الفرار بأهليهم وما تبقى من أموالهم «تقية من معرة الحرب وصونا لهم تحت الإغلاق لعدم مرانهم على المدافعة، وإغراقهم في الحضارة، وفقدانهم السلاح، إنما هم على الأيام (...) ماعز مغرم سواسية كأسنان المشط، لا يوجبون مزية، ولا يشعرون برجحان كفة».

وإجمالا فقد ساهمت الحروب في إفلاس الكثير من الحرفيين، وخراب العديد من الورشات الحرفية في سياق التخريب العام الذي تعرضت له بعض المدن المغربية.

2. تمويل الجيوش، وضرائب الحرب

فضلا عن الأضرار الجمة التي خلفتها الحروب الداخلية في الحرف والحرفيين، يبدو أن المرور المستمر للجيوش في اتجاه الأندلس أو إفريقية، الذي طبع مسار الدولة المرينية، أرهق سكان المدن، ومن ضمنهم الحرفيين. ومن الممكن أن نتصور وضعية مدينة سبتة –مثلا–

Scanned by CamScanner

عندما يحل بها جيش من مثيل الجيش الذي حشده يعقوب بن عبد الحق للجواز إلى الأندلس،[251] ومهما بلغ عدد هذا الجيش، فإنه يوضح الضغط الذي تعاني منه المدن من جراء استقرار عناصره بها ولو لمدة قصيرة، فكيف إن كانت هذه المدن ممرات رئيسية لمرور الجيوش على امتداد تاريخ الدولة المرينية، من مثيل سلا ورباط الفتح ومراكش في اتجاه الجنوب المغربي،[252] أو سبتة في اتجاه الشمال،[253] أو تازة ووجدة وتاوريرت في اتجاه الشرق.[254]

إن مثل هذا الأثر الذي يمكن أن يخلفه الجيش على المدن خلال تنقلاته هو ما حدا بالسلطان المريني يعقوب بن عبد الحق إلى أن يحاول تلافيه في حاضرته فاس، عندما «أخرج أجناد الروم الذين كانوا يسكنون مدينة فاس عنها، وبنى لهم حظيرة بخارج المدينة وأسكنهم فيها، ورفع أذاهم عن الناس».[255] ويكفي أن نذكر بالأحداث التي أعقبت وفاة السلطان أبي عنان في فاس لتبين هذا الأمر حيث «ماج أهل البلد الجديد من الجند بعضهم في بعض، واختطفوا ما وصلوا إليه من العطاء، وانتهبوا ما كان بالمخازن الخارجية من السلع والعدة، وأضرموا النار في بيوتها سترا على ما ضاع منها»،[256] ولا شك أن نصيب الحرفيين من هذا النهب كان كبيرا.

ونجد صدى لهذه المضايقة في نوازل المرحلة؛ فقد سئل بعض الفقهاء عن «الدار إذا عرفت بنزول الأجناد فباعها البائع و لم يبين، فهل يكون للمشتري الرد بذلك أم لا»، خاصة أن نزول الأجناد إنما يكون «على وجه التعدي من غير أن يختار ذلك أهل» المدن. ومن دون شك فبقدر ما كانت الجيوش أثناء العودة –في حالة الانتصار– تنعش اقتصاد المدينة، فتروج منتجات الحرفيين، ينتشر النهب ويستعمل الجنود القوة للحصول على ما يحتاجونه بالمدينة أثناء الحشد والاستنفار، أو أثناء الفلول والهزيمة.

وبموازاة ذلك، ساهم الحرفيون كغيرهم من منتجي المغرب الأقصى خلال هذه المرحلة، في تجهيز الجيوش، وتوفير كل متطلباتها،[257] أو في تمويل الدولة بالأموال عن طريق الجباية التي اقتضتها حاجة الدولة لتغطية نفقات حملاتها العسكرية وتوجهها الحربي والعسكري.[258] ينضاف إلى ذلك مساهمتهم في الأعمال المرتبطة بتسوير مدنهم وتجهيزها لدفع الأخطار، خاصة في المراحل الأخيرة من هذه الدولة.[259] ويبدو أن هذه الأعمال والضرائب التي كان الحرفيون مرغمين على أدائها، من شأنها أن تحرمهم من فائض الإنتاج، إن وجد، مما لم يسمح بتطور هذا النشاط ونموه.[260]

Scanned by CamScanner

ولاشك أن حروب الدولة في المرحلة المتأخرة قامت بدور هام في استنزاف ما تبقى من الحرف والصنائع، بسبب ما كان الحرفيون ملزمين بدفعه للدولة من مغارم لتمويل تلك الحروب،[261] وكلما تزايدت حدة هذه الأخيرة إلا وتسارعت وثيرة سن الضرائب، والإجحاف في المطالبة بها،[262] حتى إن «الرعايا استولت عليها المغارم، ونزفها الحلب».[263] و لم يكن ذلك من الدولة وحدها، بل كان على الحرفيين أداء تلك الإتاوات للقبائل الحامية من غارات القبائل الأخرى والمحاربين، وحسبنا أن صاغة توات «ضعفوا في هذا الزمان، وأضر بهم العدم»،[264] مثلهم في ذلك مثل صناع آسفي الذين تناقصت أعدادهم بسبب ما تعرضوا له من المحن.[265]

ويظل أبرز مثال عن الإجحاف الضريبي الذي تعرض له الحرفيون خلال هذا المرحلة، ما ألزم به أهل تازا من مغارم وضرائب بقصد معونة الجيش، وتوفير مستلزمات إقامته بينهم خلال دخول أحد الأمراء المرينيين لهذه المدينة سنة 763هـ/1361م، فقد «ذاع خبر سوء الملكة في أهلها من الطلب بالمعونة، وافتراض عدد من السلاح، واستعجال بوجيبة مغرم الجزاء... إلى غير ذلك من طلب المترفين، وأهل السعة بفرش ووطاء لاستمتاع أولي الأمر، وإنزال حامية الدولة ببيوت أهلها مجبورين على إطعامهم من أعالي ما يطعمونه أهليهم، إلى غير ذلك مما تنبسط له أذيال الدول غير المهذبة بالحكمة».[266]

عموما، فإن الحروب التي عرفها المغرب المريني ساهمت وبدرجات متفاوتة في تضعضع النشاط الحرفي وتراجعه، خاصة في المرحلتين الأولى والأخيرة من عمر هذه الدولة، ولهذا لم يكن ابن خلدون[267] مخطئا حين أقر بأن «الأمصار إذا قاربت الخراب انتقصت منها الصنائع؛ وذلك (...) لأن الصنائع إنما تستجاد إذا احتيج إليها وكثر طالبها. فإذا ضعفت أحوال المصر، وأخذ في الهرم بانتقاض عمرانه، وقلة ساكنه، تناقص فيه الترف، ورجعوا إلى الاقتصار على الضروري من أحوالهم، فتقل الصنائع التي كانت من توابع الحرف، لأن صاحبها حينئذ لا يصح له بها معاشه، فيفر إلى غيرها، أو يموت، ولا يكون خلف منه، فيذهب رسم تلك الصنائع جملة (...) ولا تزال الصناعات في التناقص، ما زال المصر في التناقص إلى أن تضمحل».

ولا تعوزنا الأدلة الكاشفة عن هذا التوجه؛ فنتيجة لتواتر سنوات الحروب، توقفت العديد من الوحدات الإنتاجية،[268] و لم يعد العثور على سلعة جيدة في الأسواق[269] والحوانيت[270] سهلا، بينما عجز الكثير من الحرفيين عن كراء حوانيت لهم، فاضطروا إلى

Scanned by CamScanner

مزاولة مهنهم داخل بيوتهم،[271] ولجأ آخرون إلى عقد شركات في كراء حانوت واحد،[272] كما شاعت ظاهرة الصناع المتجولين كالخرازين والنجارين وغيرهم. وهو ما يقيم الدليل على تراجع الوحدات الإنتاجية.[273]

في مثل هذه الأوضاع، كثيرا ما تعرض الحرفيون لمشاكل مع زبنائهم، نتيجة نهب واستئصال أموالهم، كمن «دفع لصانع ذهبا عينا برسم أن يصنع له فرنا وكان ذلك قبل الحصار (...) فما طلبه به، إلى أن حصرت البلد ثم طلبه، فقال له: ضاع يوم الكائنة».[274] وقد اختلف الفقهاء في مسألة تضمين الحرفيين للأموال المنهوبة؛ فقد قضى البعض «بتكليف الصناع والمرتهنين البينة أن ما عندهم من متاع الناس» قد نهب،[275] بينما أفتى البعض الآخر، وهم قلة، «بتصديقهم» دون بينة أو حجة.[276] ويبدو أن الفقيه أبا عبد الله السطي الذي لازم تحركات السلطان أبي الحسن المريني، وعاين عمق الأثر الذي يخلفه اجتياح الجيش للمدن عنوة، قد استوعب مستجدات المرحلة، فأفتى بـ «أن لاضمان فيما ادعي أنه تلف في إحدى الدخلات السلطانية للمدن، إلا أن يثبت عليه تفريط أو تضييع».[277]

ويخيل إلينا أن الطابع الحربي الذي لزم الدولة المرينية منذ بدايتها حتى السنوات الأخيرة من دولتها،[278] قد أثر بشكلي جلي في سياستها نحو الحرف والحرفيين، ولعل ذلك ما يفسر الموقف الذي عبر عنه ابن خلدون،[279] وإن لم يخل من مبالغة[280] حول ضعف الصنائع وقلتها في مغرب هذه المرحلة، «يشهد لك بذلك قلة الأمصار بقطرهم (...) فالصنائع بالمغرب قليلة وغير مستحكمة الأماكن، إلا ما كان من صناعة الصوف من نسجه، والجلد في خرزه ودبغه (...) وكون هذين أغلب السلع في قطرهم، لما هم عليه من حال البداوة)»،[281] والحرب والغارة.[282]

وصفوة القول، إن النشاط الحرفي تأثر بدوره بالآثار السلبية التي نجمت عن استشراء ظاهرة الحرب خلال هذا العصر، والتي وقفت عائقا سميكا أمام تطوره، فأفضت إلى تخريب بعض ورشاته، وإقفال غيرها، وتشريد بعض منتجيه، واستنزاف فائضه إن وجد في تمويل توجه الدولة العسكري.

ثانيا: أثر الحرب في انتعاش بعض الحرف والصنائع

إذا كانت الحرب خلال العصر المريني أفضت إلى تخريب العديد من الورشات الحرفية،

Scanned by CamScanner

وإفلاس الكثير من الحرفيين، فإننا لا نعدم من القرائن ما يثبت انتعاش حرف وصنائع أخرى كانت الأطراف المتحاربة -بما فيها الدولة المرينية- في حاجة ماسة إلى موادها ومصنوعاتها، أو إلى سواعد ممتهنيها لتنفيذ توجهاتها الحربية، فانتعشت بذلك جل الحرف والصنائع ذات الارتباط بالميدان العسكري والحربي، وتكاثرت أعداد الحرفيين الذين فضلوا اختيار هذا النوع من الحرف،[283] عكس بعض الحرف الأخرى التي قد تجلب إليها الكساد، مادام أن معظم سنوات هذه المرحلة لم تخل من حروب.

1. تطور الحرف ذات الارتباط بصناعة الأسلحة

ما كان لتوجه الدولة المرينية العسكري وارتباطها الوثيق بالحرب والقتال، إلا أن يشجع الصناعات العسكرية، وينمي الورشات الحرفية ذات الارتباط بهذا الميدان، وفي مقدمتها صناعة الأسلحة والمعدات الحربية.[284] وعلى هذا الأساس، أصبحت المدن المغربية تضم مجموعة كبيرة من صناع السلاح الذين يعدون حاجات الجيش السلطاني،[285] إلا أنهم كانوا أيضا يعدون حاجات القبائل المستقرة حول هذه المدن. ولعل عملهم الأخير هذا كان يستهلك الجزء الرئيس من جهدهم[286]؛ فقد سبقت الإشارة إلى أن هذه القبائل كانت ملزمة بتقديم الخدمة العسكرية للسلطان،[287] وكانت في خروجها للحرب تأخذ معها دوابها وتحمل عدتها من السيوف والرماح وفؤوس القتال والأقواس والتروس والدروع،[288] مما يعني أن الطلب على هذه الأسلحة قد يفوق، في بعض الأحيان، العرض الذي يضعه الحرفي رهن إشارة البائع والمشتري.

ويتجلى من خلال استقراء مضامين عدد من المصنفات الجغرافية وكتب الرحلات مدى اتساع قاعدة المشتغلين بصناعة الأسلحة و«آلات الحرب من التروس والرماح (...) والسيوف»[289]؛ فقد كانت مدينة فاس على سبيل المثال، تضم أعدادا هامة من صناع السلاح وصقاليه،[290] وكان أكثرهم من الأندلسيين خاصة.[291] كما كانت مدينة سبتة مشهورة بعمل القسي المعدة للحرب، وكان معظمها يعمل في الممر الأعظم لهذه المدينة، بينما كانت المناجر الأخرى المتخصصة في صنع القسي وغيرها من السلاح توجد في منازل الصناع وبيوتهم.[292] ومن القرائن الدالة على أهمية هذه الصناعة تخصص بعض الأسر السبتية العريقة فيها كبني القنطري وبني عاقل وبني أبي غالب وغيرهم،[293] خاصة وأن ممتهنيها كانوا يحظون باحترام المجتمع، دليلنا في ذلك امتهان بعض الشرفاء والمتصوفة وبعض علية القوم لها.[294]

Scanned by CamScanner

ولا تعوزنا البينة التي تثبت انتعاش مختلف أنواع الحرف المرتبطة بصناعة الأسلحة، وتجهيز المحارب، من مثيل «غمادي السيوف»،[295] والصناع «الذين يثبتون أقواس الفولاذ على قاذفات السهام»،[296] ومعدي «المشدات (...) وأغطية صدور الخيل»،[297] وصانعي «قرابيس سروج الخيول»،[298] و«البياطرة الذين يصفحون بالحديد سنابك الخيل وغيرها من الدواب»،[299] والصناع «الذين لا يصنعون سوى الركابات والشكائم والقطع المزخرفة لطقوم الخيل»،[300] ثم صانعي «جلود السروج»،[301] فضلا عن الحرفيين «الذين يزخرفون الركابات والمهاميز واللجم».[302] وكل ذلك يفصح عن نوعية الصناعات النشيطة في مغرب هذه المرحلة، وعن هوية المقبلين على سلعها ومنتوجاتها.

تحملنا هذه القرائن على صدق الاعتقاد بأن الحرب بقدر ما أضرت ببعض الورشات الحرفية وإفلاس كثير من الحرفيين، وجهت غيرهم لخدمة الأغراض الحربية، ودفعت بجل الصناعات نحو التخصص اكثر فأكثر في المنتوج ذي الصلة بالميدان العسكري والحربي؛ فأضحى صناع النسيج يشتغلون في صنع البنود والأعلام والخلع والكسوات العسكرية،[303] وتحولت الصناعات الجلدية إلى الاهتمام بصناعة السروج والدرق والدروع، كما أصبح الحدادون يعرفون بأنواع الأسلحة التي يصنعونها أو يعملون في صقلها بدلا من الأدوات الفلاحية والمنزلية. ومما يعزز هذا الاستخراج تلك المساحات الهامة التي شغلتها هذه الحرف في المدن المغربية من مثيل فاس التي كانت تضم أزيد من أربعين دكانا لصناع الركابات والمهاميز وغيرها مما يخص تجهيز الخيول وغيرها من الدواب،[304] كما ضمت أزيد من مائة ورشة للحرفيين المتخصصين في تجهيزات المحارب وحاجياته.[305]

وتجدر الإشارة إلى الانتعاش الذي كان يمس هذا النوع من الحرف في لحظات الحشد والاستنفار، إذ غالبا ما تستنفر الدولة لهذا الغرض أعدادا هامة من الصناع والحرفيين، وتقدم المصادر أمثلة في هذا الصدد، من ذلك ما حدث أثناء حصار أبي الحسن المريني لمدينة سجلماسة سنة 733هـ/1333م، إذ «أخذ بمخنقها، وحشد الفعلة والصناع لعمل الآلات لحصارها».[306]

عموما فقد أفضت حاجة الدولة والقبائل للسلاح، ومستلزمات المحارب، إلى بروز اهتمام خاص بالحرف والصنائع مما أنعشها، وقلل من الآثار السلبية للحرب على حرفييها.

Scanned by CamScanner

2. الحرف المرتبطة بصناعة السفن

إلى جانب صناعة الأسلحة والحرف التابعة لها، ازدهرت صناعة النجارة في مغرب هذه المرحلة ارتباطا بالحاجة الملحة التي أضحت للسفن والمراكب البحرية لنقل الجنود إلى العدوة الأندلسية في إطار الصراع الدائم مع «دار الحرب»، أو لتنفيذ المخططات العسكرية لبعض السلاطين المرينيين في بلاد الغرب الإسلامي، أو حماية المياه المغربية من غارات السفن الأجنبية والمسيحية. وأفضى ذلك كله إلى اهتمام السلطة المركزية بصناعة السفن، وإنشاء الأجفان والأساطيل، وإفرادها برعاية خاصة.[307]

ومن البراهين الدالة على الانتعاش الذي مس هذا النوع من الحرف والصنائع، إقدام الأمراء المرينيين على تجديد الأسطول البحري ومراكز إنشائه في سبتة وطنجة وفاس،[308] واستحداث دور أخرى؛ حيث أمر يعقوب بن عبد الحق بإنشاء دار الصناعة في سلا لصنع «الأساطيل والمراكب الجهادية»،[309] وأضحت هذه الأخيرة من أهم المراكز المختصة في هذا المجال.[310] إلا أن مدينة سبتة التي اكتسب أهلها تجربة كبيرة في شؤون البحر، وخبروا الوسائل الضرورية للإنشاء والملاحة البحرية منذ قرون قضت،[311] احتفظت بمكانتها في إمداد الأسطول المغربي بأهم قطعه، بل وفاقت دار صناعتها مثيلتها في سلا في عدد القطع التي تصنعها وحجمها.[312]

ويبدو أن الأهمية الاستراتيجية لهذا النشاط الحرفي أفضت هي الأخرى إلى انتعاشه على امتداد حكم المرينيين، فالمصادر تذكرنا بأوامر مستمرة للسلاطين بضرورة إنشاء أعداد هامة من الأجفان، والإسراع في إعدادها. ومن الأمثلة على ذلك أمر مؤرخ بتاريخ 711هـ/1311م من قبل السلطان أبي سعيد عثمان يستعجل فيه إنشاء الأجفان «بدار صناعة مدينة سلا برسم غزو الروم».[313] ومثل ذلك نجده في حشد السلطان أبي الحسن للفعلة والصناع لإنشاء مزيد من المراكب والسفن استعدادا للخروج إلى الأندلس.[314] بل إن أبا عنان بعد أن فقد المغرب جل قطعه البحرية في نكبة أبيه بإفريقية،[315] كان يشرف بنفسه على قطع الخشب من جبل جاناته بالقرب من أزمور، ويكثر التردد على دور الصناعة لتنشيط حركة العمال في هذا المجال.[316]

عموما فقد جلبت هذه الصناعة ومعها حرفة النجارة أعدادا هامة من الحرفيين والصناع، وأنقذتهم من الإفلاس الذي مس غيرهم من الحرفيين. وحسبنا أن مدينة سبتة

وحدها كانت تضم حوالي أربعين منجرا لإعداد الخشب الضروري لبناء السفن،[317] مما يشي بكثرة أعداد المشتغلين في هذا القطاع.

3. الصنائع ذات الصلة بحرفة البناء

على الرغم من أن عمليات التشييد والبناء ما كانت لتتحرك وتنمو أمام كثرة الحروب التي عرفتها هذه المرحلة،[318] والأموال الضخمة التي أنفقت في تمويلها وتغطية حاجاتها،[319] فإننا نميل إلى الاعتقاد أن حاجة الدولة المرينية إلى مدن محصنة تقي أهلها من كل «ما يتوقع على الملك من أمر المتنازعين والمشاغبين»،[320] والتحصينات التي كانت تتطلبها حماية المدن من غارات الثوار والمنتزين والأعداء،[321] أسهمت بشكل كبير في انتعاش حركة البناء، وازدهار الحرف المرتبطة بها، وأفضت إلى مزيد من الطلب على البنائين والنقاشين والجباصين والكلاسين والنجارين والحدادين لتدبير حاجيات الدولة في هذا الميدان.[322]

ولعل فيما أثبتناه في الفصل المتعلق بانعكاسات الحرب على العمران في مغرب العصر المريني، عن انتعاش حركة البناء المطبوع بالطابع الحربي والهاجس الأمني والعسكري ما يوفر لنا عناء الاستطراد والاستدلال؛ فقد ثبت أن المرينيين استحدثوا مدنا جديدة مثل فاس الجديد[323] ومدينة المنصورة،[324] كما أسسوا جملة من القلاع والقصبات في مكناسة،[325] وسبتة،[326] وسوس،[327] والجزيرة الخضراء بالأندلس.[328] إلى جانب ما سوروه من المدن، وحصنوه من القلاع والحصون سواء في فاس[329] أو مكناسة[330] أو سلا[331] وغيرها، فضلا عما شيدوه من المساجد والمدارس والقصور.[332] وكل ذلك أسهم في ارتفاع أعداد المشتغلين في البناء والحرف المرتبطة به.

وبالرغم ذلك، فإننا لا نستبعد إمكانية اتسام هذا الحشد للصناع واستعمالهم في مثل هذه المواقف بطابع السخرة والكلف الملزمة،[333] سندنا في ذلك نص بليغ لابن الخطيب[334] يتعلق بما أقدم عليه الوزير عمر الياباني، حينما فكر في تحصين فاس الجديد استعدادا لحملة الأمير عبد الحليم بن عمر، إذ عهد إلى جلب «الفعلة والصناع من البنائين والنجارين ومن ينتسب إلى مهنة الحديد، وفتل الجلد، وإصلاح السلاح، ومهرة المهندسين، وقاذفي شغل الأنفاط، ونافضي ذوائب المجانيق، ونقر عن القسي بالبلد فانتزعها من حيث كانت، وأتى ضروب السلاح من دكاكينه المتعارفة (...) ولم يدع معروفا بصناعة (...) ولا صاحب مهنة (...) إلا حصله خلف سوره إجحافا».

Scanned by CamScanner

ويجدر بنا أن نشير إلى أن حالة الحرب، كثيرا ما شكلت أيضا فرصة لبعض الحرفيين لإنعاش حرفهم، ورواج منتجاتهم؛ إذ اعتاد الكثير من هؤلاء مرافقة الجيش في تنقله.[335] كما أن بعض الحصارات الطويلة التي ميزت هذه المرحلة، ومن ذلك حصار تلمسان، وبناء مدينة المنصورة، وجلب الدولة للصناع والحرفيين إليها، قد استفاد منها الحرفيون بحيث شكلت سوقا نافقة لحرفهم ومنتوجاتها.[336]

خلاصة القول، إن الحرف والصنائع بالرغم من تأثرها السلبي بالطابع الحربي للدولة المرينية، فإنها في الآن نفسه استفادت من هذا الوضع؛ حيث اكتسبت الصناعات ذات التوجه الحربي، والتي تخدم الأغراض العسكرية، أهمية قصوى في هذه المرحلة، من مثيل صناعة السلاح والسفن وحرف النجارة والبناء وغيرها.

المبحث الثالث: انعكاسات الحرب على النشاط التجاري

من البديهي أن تتعرض التجارة أيضا للكساد لاعتمادها على الزراعة والصناعة أصلا، فقد وجهت الحرب ضربات موجعة لهذا النشاط أفضت في النهاية إلى كساده. ونحن إذ نشير إلى تراجع النشاط التجاري، فإننا مع ذلك لا نقر بأن حركته توقفت كلية، إلا أن ما يعنينا هنا هو رصد العثرات والمعاطب التي وفرت التربة الملائمة لزرع بذور التراجع والانهيار في اقتصاد المغرب الأقصى خلال هذه المرحلة. ومن دون شك، فقد كانت الحروب عاملا أساسيا ضمن هذه المعاطب والمثبطات، خاصة وأن قطاعا مثل قطاع التجارة لا يمكن أن ينتعش إلا في ظروف الأمن والاستقرار،[337] وكلما انتفى هذا الشرط، قلت أو انعدمت معه رغبة التجار في ولوج الأسواق البعيدة، وانحصر النشاط التجاري داخل أسوار المدن،[338] أو توقف نهائيا أثناء الحصارات والاجتياحات الكبرى.[339]

أولا: انعكاسات الحرب على التجارة الداخلية

إذا كانت التجارة خلال فترة هامة من حكم الموحدين قد عرفت نوعا من الازدهار نتيجة تراجع ملحوظ للقلاقل والحروب،[340] فإن الفترة التي أعقبت هزيمة هؤلاء في العقاب (609هـ/1212م)، وبروز الحركة المرينية على ساحة الأحداث في المغرب الأقصى، عجلت بتراجع هذا الازدهار، إذ سرعان ما عادت الفتن لتعصف بمقومات هذا النشاط في فترة طويلة من القرن 7هـ/13م؛ فقد أوجدت الحرب الداخلية للبيت الموحدي،[341] والاجتياح

Scanned by CamScanner

المريني لمناطق واسعة من المغرب الأقصى جوا متوترا أسفر عن غياب الأمن،[342] وتسبب في كثير من الفتن،[343] استشرت معها الحرابة،[344] وقطع الطريق في المسالك التجارية،[345] مما أضر كثيرا بهذا النشاط.[346]

والظاهر أن الحروب والصراعات التي نشبت بين الأمراء الموحدين قد أضرت بالأنشطة الإنتاجية، بما في ذلك التجارة لارتباطها -كما أشرنا- بشروط الأمن والسلم الاجتماعي، وهو ما يؤكده ابن عذاري،[347] في وصفه الدقيق لهذه المرحلة، بقوله إنه «كانت أكثر بلاد المغرب غالية الأسعار بسبب كثرة الفتن (...) وبسبب عدم الحماة لتلك الجهات والأمصار، وما كان بين أمراء الموحدين من الحروب والوقائع والفتن، فكثر الغلاء والجلاء في البلاد الغربية (...) حتى انقطع السبيل». ونتيجة لذلك «ضاعت المصالح وتطاولت أيدي المعتدين، وعاث أهل البغي في الأرض، وكثر في أقطار المغرب ونواحي مراكش قطع السبل والمحاربون الساعون في الأرض فسادا».[348] وهو ما أفضى، على ما يبدو، إلى تراجع النشاط التجاري وتضعضعه.

ومما زاد الطين بلة، الاقتحام المريني لهذا المجال وما ميزه من عنف،[349] مما تسبب في تضرر خطوط التجارة الداخلية؛ فمنذ البدايات الأولى لهذه الحركة، بدأ هؤلاء في توجيه حملاتهم نحو المسالك والمحطات التجارية، كما هو حال فاس،[350] وتازة،[351] وسجلماسة،[352] وغيرها من المدن الهامة،[353] مما أثر سلبا على حركية التجارة داخل هذه المدن وفيما بينها، فكانت النتيجة ما ردّدته مصادر المرحلة عن سيادة «الخوف في البلاد والطرق»،[354] وغلاء «الأسعار في جميع الأقطار».[355]

وبقدر ما كانت الحركة المرينية عنصرا مساهما، بغزواتها وغاراتها في تدهور الأمن وتقلص ظله عن التجار وبضائعهم، كانت عنصرا يوفره لمن يدفع مقابلا عنه[356]؛ فقد رأت العناصر المتاجرة في هذه الحركة الخلاص من غارات القبائل وهجماتها هي نفسها، فبادرت إلى تقديم الإتاوات لها.[357] وتؤكد المصادر أن المناطق التي سارعت إلى تقديم الجبايات للمرينيين كانت مناطق لها أهميتها في خطوط التجارة مثل فاس ومكناس وتازة وقصر كتامة؛ فقد صالح أهل هذه المدن المرينيين «على أموال معلومة يؤدونها في كل سنة خفارة على بلادهم، على أن [تـ]ـؤمن لهم الطرقات».[358] وتذهب بعض المصادر إلى القول بأن الأمن الذي ساد المغرب الأقصى بعد دخول أبي بكر المريني لأغلب هذه المدن كان محصلة لهذه الإجراءات، مما سمح بسيولة الحركة التجارية، حيث «تهدنت البلاد،

Scanned by CamScanner

وصلحت الأحوال، وسكنت الفتون، وتأمنت الطرقات، وكثرت الخيرات، وتحرك التجار، وانطلقت الأسفار».[359]

ومما أثر في سيولة الحركة التجارية، الصراعات التي نشبت باستمرار بين المرينيين وبني عبد الواد. ولا شك أن للسيطرة على محاور الطرق التجارية، والقيام بدور الوساطة فيها، قد شكل أحد أهم دوافع هذا الصراع المحتدم.[360] ويبدو أن هذه الحرب المستمرة أعاقت بعض المدن التجارية، مثل سجلماسة التي حال الصراع عليها بين الطرفين دون قيامها بأدوارها التجارية الطبيعية.[361]

على أن أهم عنصر قام بدور خطير خلال هذه المرحلة في إعاقة المسار الطبيعي للنشاط التجاري، يتمثل في القبائل العربية التي ما إن أحست بتقلص ظل الحكام والدولة عن المجال والساكنة، حتى بدأت في شن الغارات،[362] والاعتداء على التجار في محاولة لبسط سيطرتها على شرايين التجارة الداخلية بأحواز مراكش،[363] وفاس، ومكناسة، ودكالة،[364] والريف،[365] وسجلماسة.[366] ومن الأمثلة على ذلك أن عرب سفيان تمكنوا إبان الصراع المريني – الموحدي على بلاد تامسنا من السيطرة على مدينة أزمور، فاستطالت أيديهم على أهلها، وأذاقوهم شتى أنواع الذل والمهانة، وألزموهم ضرائب مجحفة أتت على معظم أموالهم.[367] ونظرا لأهمية سجلماسة التجارية، ومرور القوافل عبرها، فقد عانت بدورها من غارات عرب المنبات الذين أطنبوا في اعتراض سبيل التجار، وفرض إتاوات باهضة عليهم.[368] كما أن بادس، التي كانت حلقة وصل بين فاس ومدينة سبتة،[369] عانت من غارات القبائل العربية وهجماتهم، حتى اضطر أهلها إلى الخروج «بأموالهم وأمتعتهم إلى الجزيرة التي بمرسى بادس».[370]

ولم يقتصر الأمر على القبائل العربية، فقد كانت «قبائل فازاز من جاناتة وقبائل غمارة وأوربة وصنهاجة (...) يقطعون الطرقات».[371] وعموما فقد عمت الفوضى بلاد المغرب الأقصى خلال هذه المرحلة، وألغت الحروب والغارات كل الظروف الملائمة للتبادل والتجارة.[372]

ونتيجة لهذه الأوضاع مجتمعة تعرضت الأسواق للكساد، والتجار للإفلاس، ولم يعد بأسواق المدن «ما ينطلق عليه اسم شيء بوجه من الوجوه، والحوانيت مغلقة، وما بقي بها من يلبس ثوبا يساوي عشرة دراهم إلا الأطمار المتغيرة الخلقة، وإذا ظهر في السوق بعد أيام

Scanned by CamScanner

شيء من خبز الشعير يحشر الناس عليه».[373] كما قلت المواد الاستهلاكية الأساسية مثل «الحطب والتبن والفواكه والخضر، وما يجلب من البوادي»،[374] وأثت ظروف الكساد، التي عمت لقلة الطلب على المعروض من السلع[375] بداية، ثم غياب هذه السلع فيما بعد،[376] ببعض التجار إلى إغلاق حوانيتهم،[377] وعانى الكثير منهم من نقص شديد في رؤوس الأموال، وهو ما يفسره ذيوع بعض المعاملات التجارية،[378] من مثيل البيع بالأجل.[379] وبالمقابل سمحت ظروف الكساد بظهور بعض الظواهر الشاذة في الأسواق من مثيل بيع المغصوب،[380] فضلا عن الاحتكارات،[381] وأساليب الغش والتدليس.[382]

ومن نافلة القول، أن تمكن الدولة المرينية من تمهيد بلاد المغرب بعد اقتحامها لمراكش، أفرز نوعا من الاستقرار السياسي انعكس، دون شك، بشكل إيجابي على النشاط التجاري،[383] إلا أنه يجب التأكيد أن ما عرفته البلاد من ثورات، فضلا عن الحروب المستمرة التي خاضتها الدولة المرينية سواء على الجبهة الداخلية أو الخارجية،[384] لا يمكن إلا أن يؤثر ولو نسبيا في سيولة حركة التجارة، خاصة إذا راعينا أن خطوط التجارة وأموالها كانت من أهم دوافع هذه الحروب وأعمق أسبابها.[385]

فبمجرد دخول المرينيين لمراكش تعرضت سجلماسة لهجوم مريني، أفضى إلى حصارها من قبل أبي يعقوب يوسف سنة 673هـ/1374م، الذي «بالغ في حربها ونصب عليها المجانيق والرعادات»،[386] وكان هذا الحصار أول مناسبة تم فيها استعمال البارود في العصر المريني.[387] كما تأثرت المدينة بالصراع الذي نشب بين أبي سعيد عثمان وابنه أبي علي عمر، عندما انتزى هذا الأخير ونزل «بسجلماسة، فأقام بها ملكا، ودون الدواوين، واستلحق واستركب، وفرض العطاء».[388]

ويبدو أن النشاط التجاري في المناطق الشمالية قد تأثر بالاقتحام النصري لمنطقة الريف وحصارهم لسبتة، وصلت فيه حملات بني الأحمر إلى أصيلا والعرائش والقصر ونواحي تازا، مما أضر بخطوط التجارة الداخلية، وبنشاط التجار في هذه المناطق.[389]

وتجدر الإشارة إلى أن مرور الجيوش من بعض المدن الهامة اقتصاديا[390] وعبرها، في اتجاه بعض المناطق الداخلية، أو صوب الشرق أو الأندلس، كان يؤثر بدوره على حركة التجارة، ومن غير المستبعد أن يمثل استقرار الجيش في مدينة ما عاملا يساعد على بروز المضاربات، والرفع من الأسعار، وهو ما من شأنه أن يؤثر على التجار الصغار أو الفلاحين الذين يبيعون منتجاتهم بأنفسهم في الأسواق.

Scanned by CamScanner

والظاهر أن تنقل الجيش كان يتم عبر الطرق التجارية،[391] مما يعني توقف العملية التجارية إلى حين مرور الجيش، والذي يستغرق مددا طويلة، وهو ما من شأنه أن يعرقل السير العادي لعمليات التبادل. إلا أننا مع ذلك لا نتفق مع ما ذهب إليه أحد الباحثين،[392] في أن «أغلب المسالك التجارية خلال العصر الوسيط كانت الحروب والتحركات العسكرية من وراء خلقها، ورسم ملامحها، بينما لم يزد التجار عن استغلالها أثناء فترات الهدوء والسلم، وبهذا وحده نستطيع أن نفهم لماذا تتوقف الحركة التجارية البعيدة المدى خلال فترة الحروب والتمردات». فالواضح أن أغلب الطرق التجارية التي استخدمت خلال هذه الفترة لم تتغير منذ القرون الأولى الهجرية،[393] وكل ما يمكن أن يقال هو أن الدول التي عاصرت هذه الفترة قد استخدمت طرق التجار لأغراض عسكرية مما أعاق عمليات التبادل التجارية.

على أنه يجب ألا يغرب عن بالنا أن الحروب بقدر ما كانت عنصرا معيقا للسير العادي للمبادلات التجارية، وعاملا مضرا بالتجار وأموالهم، فإنها كانت فرصة للاغتناء، وسوقا نافقة لبعض التجار الذين كانوا يترصدونها لعرض سلعهم والحصول على أرباح مهمة، إلى درجة يمكن الحديث من خلالها عن الأسواق العسكرية التي ترافق تنقلات الجيش،[394] وتفتح الباب على مصراعيه لصالح التجار للاستزادة من الأرباح،[395] خاصة وأن الحرب – كما رأينا في الفصل السابق–كانت حاضرة باستمرار في مسار الدولة المرينية. وقد مثلت الحصارات التي ضربتها الدولة على بعض المدن،[396] فرصة سانحة لبعض التجار لتهريب السلع وإدخالها للمحاصرين، وبيعها بأغلى الأثمان، والحصول على أرباح طائلة.[397]

ومن جانب آخر مارس بعض التجار أسلوب الاحتكار في سنوات الحرب والفتن، مما وفر لهم أرباحا هامة، وهو ما عبر عنه أحد التجار في هذه المرحلة بقوله: «كان عندي زرع كثير معولا على ادخاره إلى سنة يرتفع فيها السعر فيوفي ثمنه بالمال وزيادة».[398] ومما يكشف عن تفشي هذه الظاهرة، ما توره بعض المصادر عن حرص السلطة على الحد منها، خاصة أثناء الحملات العسكرية، كما فعل أبو الحسن المريني في الجزيرة الخضراء، حينما أمر بأن يباع لأهل الجزيرة الزرع الذي اختزنه فيها بطول مدة الحصار بسعره قبل أن تحاصر حتى لا يكابدوا عناء غلاءه.[399] وعلى هذا الأساس فالحرب كانت عاملا هاما لتنمية أموال التجار في بعض الأحيان سواء بالنسبة لهؤلاء الذين يرافقون الحملات العسكرية في

Scanned by CamScanner

تنقلاتها، أو بالنسبة للمهربين والمحتكرين من التجار الذين يترصدون مثل هذه الحروب لتنمية أموالهم.

وإذا كانت هذه المرحلة من عمر الدولة المرينية قد عرفت بعضا من الاستقرار، فإنه بمجرد وفاة السلطان أبي عنان عادت الحروب الداخلية والقلاقل والفتن،[400] لتعصف بحركية النشاط التجاري؛ فقد عرفت هذه المرحلة –كما بينا في المبحثين السابقين– مجموعة من الحروب بين الأمراء المرينيين حول السلطة، أسهمت بدورها في تقلص ظل الدولة عن الكثير من القبائل، مما منحها الفرصة للعودة إلى أسلوب الغزو والغارة على المدن وعلى القوافل التجارية، وفرض الإتاوات المجحفة عليها.[401] كما تميزت المرحلة باستمرار الحروب المرينية –العبدوادية،[402] وكل ذلك أعاق استمرار عملية التبادل التجاري، وضيق الخناق على التجار وأموالهم.

ونتيجة لهذه الحروب تقلص عمران العديد من المدن التي كان لها من قبل شأن وأهمية من الناحية التجارية مثل أغمات،[403] ومراكش،[404] ومكناس،[405] وسجلماسة،[406] بل إن مدنا خربت نهائيا وأفرغت من سكانها،[407] وهو ما توقف عنده الحسن الوزان بتفصيل موضحا خسائر هذه الحروب ومخلفاتها،[408] وكل ذلك انعكس سلبا على النشاط التجاري، وقلص من أسواقه ومجالات مبادلاته.

وبينما كانت القبائل ذات النجعة والحرب ترغم التجار على أداء الإتاوة مقابل المرور بأراضيها، كانت الدولة نتيجة كثرة النفقات عليها بسبب هذه الحروب تثقل كاهل التجار بالضرائب والمغارم،[409] وهو ما تكشفه رسالة لابن عباد إلى السلطان عبد العزيز المريني (سنة 774هـ/1372م) يستنكر فيها هذا الوضع، ومما قاله في هذا الصدد: «قد كنت طلبت منكم –في آخر كتاب كتبته لكم– أن تزيلوا مظالم الرتب التي أحدثت بطرق المسافرين (...) فإن أهل الفساد والشر انتشروا في بسيط الأرض وطرقاتها على المساكين والمستضعفين، وحازوا منهم الأموال الحرام بالنهب والغصب».[410]

عموماً، فقد أتت الحرب والفتن وما رافقها من ضروب الغصب والتعدي على أموال التجار، وضعفت آمالهم في السعي في الأرض والمتاجرة.[411] ولعل أسطع مثال على حقيقة هذا الوضع، ما آلت إليه شركة المقري، التي تعتبر ظاهرة فريدة في هذا العصر، من تراجع في رؤوس أموالها وفي نشاطها التجاري، فقد صادف أعضاؤها «توالي الفتن (...) فلم

Scanned by CamScanner

يزل حالهم في نقصان إلى هذا الزمن، فها أنا [أي المقري الحفيد] لم أدرك [من تجارتهم وأموالهم]، إلا أثر نعمة اتخذنا فضوله عيشا». 412

إن غياب الأمن الذي فرضته الحروب والفتن خلال هذه الفترة، أثر في تطور التجارة وسيرها العادي، وهو ما تكشفه المادة النوازلية من خلال مجموعة من القضايا مثل غياب الأمن، وكثرة الحروب والقلاقل أهم عناصرها،413 فقد سئل عبد الله العبدوسي «عمن يجوز الناس من المواضع المخوفة، ويأخذ منهم على ذلك دراهم (...) وهذا ما يقع به الحكم (...) وهو الزطاطة، ومعناه ما يعطي لمن يحضي الناس في المواضع المخوفة». 414 كما استفتي ابن مرزوق في «مسألة اللصوص و[القفير]، أعطى مالا على أموال التجار وأهل القافلة». 415

ونتيجة لهذا الوضع أصبح تأمين السبل من أهم الهواجس التي أرقت التجار والمجتمع عموماً، وهو ما اضطلع بتحقيقه في بعض الأحيان بعض المتصوفة؛ فقد «سئل سيدي قاسم العقباني عن إقامة المرابط في المواضع المخوفة، فاعتبر أن إقامتها بهذا الموضع الذي كان قبل سكنى الذين به مأوى للمحاربين، ومهلكة للمسافرين من باب إعانة اللهفان، ودفع الفساد عن أهل الزمان، وما أعظم المثوبة في ذلك». 416

في مثل هذه الظروف لا يمكن للتاجر أن يغامر بأمواله إلا إذا توفر عنصر الأمن؛ وعلى هذا الأساس، فإن آكد النتائج أنه كلما طالت فترة الحروب والفتن تقلص النشاط التجاري وتراجع. وقد تفطن ابن خلدون417 إلى هذه الثنائية التي تربط بين غياب الأمن وانتقاص التجارة ومن ثمة العمران كله، فهو إذ يقرر أن «العمران ووفوره ونفاق أسواقه إنما هو بالأعمال، وسعي الناس في المصالح والمكاسب ذاهبين جائين»، فإنه يدرك أن «العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها، لما يرون حينئذ أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك، فإذا قعد الناس عن المعاش، وانقبضت أيديهم عن المكاسب، كسدت أسواق العمران، وانقبضت الأحوال وابذعر الناس في الآفاق من غير تلك الإيالة في طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها، فخف ساكن القطر، وخلت دياره، وخربت أمصاره، واختل باختلاله حال الدولة والسلطان، لما أنها صورة للعمران تفسد بفساد مادتها ضرورة». 418

Scanned by CamScanner

خلاصة القول إن التاجر، على غرار الفلاح والحرفي خلال المرحلة مدار الدرس، تأثر بشكل كبير من جراء ما جابهه من حروب، ألجمت تطور نشاطه، وأفقدته حوافز الإنتاج، وأضعفت مردوديته.

ثانيا: انعكاسات الحرب على التجارة الخارجية

يبدو، من خلال ما توصلت إليه بعض الدراسات المتخصصة، أن الموقع الجغرافي لبلاد المغرب الأقصى جعل منه ممرا حيويا لا مفر منه بالنسبة للمبادلات التجارية في العالم القديم طيلة العصور الوسطى،[419] وأهله إلى أن يقوم بدور الوساطة التجارية بين عوالم مختلفة من حيث الإنتاج والحاجيات،[420] مما أسهم في أن تصبح التجارة الخارجية موردا هاما بالنسبة لخزينة الدول التي تعاقبت على حكم هذا المجال طيلة العصر الوسيط.[421] على أن استفحال ظاهرة الحروب والنزاعات بين الكيانات التي حكمت بلاد المغرب بعد انهيار الإمبراطورية الموحدية، والانفلات الأمني الذي ساد في أكثر من فترة طيلة عصر هذه الدراسة، فضلا عن استمرار الصراع بين الضفتين الجنوبية والشمالية للبحر المتوسط في إطار الصراع التاريخي بين «دار الإسلام» و«دار المسيحية»،[422] كل ذلك أعاق تطور هياكل هذا النشاط، ووقف حاجزا سميكا أمام سيولة انتقال التجار والبضائع بين هذه الأقطار.

1. آثار الحرب في التجارة مع بلاد السودان وبلدان المغرب والمشرق الإسلاميين

أ. التجارة مع بلاد السودان

كانت المبادلات التجارية مع بلاد السودان تمثل ضرورة حيوية بالنسبة للمغرب، لما يوفره له التعامل مع هذا المجال من إمكانات مادية هامة أسهمت بشكل أساس في تحقيق توازناته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية،[423] خاصة وأن بلاد السودان كانت خزانا أساسيا للذهب الذي رسم كثيرا من معالم التطور التاريخي والحضاري لبلاد الغرب الإسلامي.[424] إلا أن المستجدات التي ألقت بظلالها على هذه المنطقة بعد انهيار الدولة الموحدية، ودخول الكيانات السياسية التي ورثت حكمها في حروب مستمرة لفرض سلطتها على المناطق الجنوبية للمغرب الأقصى، ودخول القبائل العربية وغيرها أطرافا في هذه الصراعات، وجه ضربات موجعة لنشاط المبادلات مع بلاد السودان، وأفضى إلى تحول الطرق التجارية نحو الشرق.[425]

Scanned by CamScanner

ولا شك أن الصراع المريني-العبدوادي على المناطق الجنوبية للمغرب الاقصى أسهم بشكل كبير في تضعضع النشاط التجاري مع بلاد السودان، ويعتقد بعض الباحثين[426] أن بني مرين وبني عبد الوادي اشتبكوا في حروب لم يعد الدافع فيها مبررا بأسباب دينية أو عصبية، بل أصبح الطابع الاقتصادي واضحا عليها؛ فقد كانت الرغبة في التوسع والاستيلاء على طرق التجارة الصحراوية، على أهميتها كمصدر قوة للسلطتين معا، السبب الأقوى الذي وقف وراء استمرار هذه الصراعات وارتفاع حدتها في كثير من الأحيان،[427] مما أثر في سيولة حركة التجار والبضائع بين المغرب الأقصى والغرب الإفريقي.

ولما كانت سجلماسة تمثل أهم محطة تجارية استراتيجية على الطريق المؤدي إلى بلاد السودان،[428] وتمكن المسيطر عليها من اكتساب الزعامة كوسيط تجاري بين هذا الأخير وجنوب غرب أوربا،[429] فقد كانت هذه المدينة ومحيطها مجالا للحروب والنزاعات، حيث شهدت حملات متواصلة للسيطرة عليها سواء من قبل بني مرين أو من قبل الزيانيين؛ فقبل أن يتمكن يعقوب بن عبد الحق من اقتحامها سنة 673هـ/1274،[430] تعرضت هذه المدينة لغارات مستمرة، واقتحامات موسعة، كان فيها بنو عبد الوادي مهاجمين تارة، ومدافعين عنها تارة أخرى.[431] وكان لعرب المنبات دور هام في هذه الأحداث،[432] مما أثر في الدور الإستراتيجي لهذه المدينة على مستوى الربط التجاري بين المغرب الأقصى وبلاد السودان.

لم يستقر وضع سجلماسة وكذا مراكش وسوس ودرعة بعد تمهيد المرينيين لبلاد المغرب؛ فالقبائل العربية التي كانت تشغب في هذه المجالات، أصبحت تعترض سبل التجار، وتشن الغارات على القوافل التجارية لنهبها، أو فرض إتاوات مرتفعة عليها، مما عرقل نشاط هذه المناطق، وخاصة سجلماسة، وفوت عليها القيام بدورها التجاري الطبيعي،[433] وقد وجه السلاطين المرينيون حملات كثيرة لصد عدوان هذه القبائل، ووضع حد لضررها وإفسادها لسبل التجار.[434]

والواقع أن المضاعفات السلبية التي نجمت عن غارات هذه القبائل وهجماتها على القوافل والتجار كانت جسيمة،[435] وحسبنا دليلا على هذا أن أبا يعقوب يوسف في إحدى حملاته التأديبية ضداً على هذه القبائل، فرض عليها غرامة على ما أخذته وغصبته قدرها 18.000 جملا دون أن يؤثر ذلك في قوتها المادية،[436] مما يشي بضخامة حجم الخسائر التي تكبدها التجار بسبب غارات هذه القبائل.

Scanned by CamScanner

وعلى الرغم من أن «إقطاع الحرب والجباية»، الذي مارسه بعض السلاطين المرينيين مع هذه القبائل، حولها إلى عنصر إيجابي أسهم في الحفاظ على أمن التجار وحمايتهم،[437] إلا أن إصرار بني عبد الواد على فرض سلطتهم على هذه المناطق، دفع بهم إلى الاستمرار في دعم النزعة الانفصالية لهذه القبائل،[438] التي ساندت بإيعاز من الزيانيين، حركة أبي علي أخي السلطان أبي الحسن المريني، الذي انتزى بسجلماسة ابتداء من سنة 714هـ/1314م،[439] مما أدخل هذه المنطقة في دوامة جديدة من الصراعات والاقتتال الداخلي.[440]

ويميل أحد الدارسين[441] إلى القول، إن حركة أبي علي ساهمت في الرخاء الذي عرفه عصر أبيه (710-731هـ/1310-1330م)، إذ بسيطرته على سجلماسة تمكن من تحويل جزء هام من موارد التجارة القوافلية نحو المغرب، فتدعمت بذلك خزينته الإقليمية، كما تدعمت خزينة السلطة المرينية.[442] لكن هذا الرأي على رجاحته لا يخفي ما يمكن أن يحدثه الصراع على منطقة تجارية من ضرر على مستوى السير العادي للتجارة والتجار.[443]

والظاهر أنه بمجرد وفاة السلطان أبي عنان، عادت القلاقل لتعصف بما تبقى من أهمية هذه المجالات على مستوى الربط التجاري بين بلاد السودان وبلاد المغرب الأقصى، فقد عادت القبائل المعقلية لتفرض سلطتها الكاملة على هذه المناطق، واستعادت أسلوبها في شن الغارات على القوافل التجارية، أو فرض الإتاوات المجحفة على التجار.[444] ولم يقتصر الأمر على هذه القبائل، بل استمرت الصراعات والمناوشات المرينية-العبدوادية على هذه المجالات،[445] مما أفقدها الدور التجاري الذي انتعشت به، وأنعشت غيرها من مدن المغرب الشمالي.

ولا شك أن استفحال الحروب وغارات القبائل في المناطق الجنوبية، خاصة سجلماسة، كانت سببا رئيسيا -إلى جانب عوامل أخرى فصل فيها غيرنا[446]- وراء تحول الطرق القوافلية عن سجلماسة في اتجاه الشرق.[447] فقد فقد طريق سجلماسة-تغازة-ولاتة ثم تنبكتو وغاو أهميته التجارية،[448] كما فقد طريق سجلماسة -نول لمطة- أودغشت، والذي كان من أهم الطرق التجارية الصحراوية منذ ق 3هـ/9م إلى بداية القرن 8هـ/14م أهميته الاستراتيجية وتحول إلى طريق ثانوية،[449] في الوقت الذي أصبحت فيه القوافل تسلك طرقا جديدة في اتجاه تلمسان وهنين، وتتجه أكثر فأكثر نحو تونس ومصر المملوكية. فماذا عن آثار الحرب في الخطوط التجارية الشمالية التي ربطت بين المغرب الأقصى وبلدان المغرب والمشرق الإسلامي؟

Scanned by CamScanner

ب. التجارة مع بلدان المغرب الأوسط وإفريقية والشرق الإسلامي

على الرغم من أن الود الذي طبع علاقات المغرب الأقصى بغيره من بلدان المغرب والمشرق الإسلاميين في أغلب الأحيان، إذا استثنينا مملكة تلمسان، من شأنه أن يشجع المبادلات التجارية مع هذه الأقطار،[450] فإن اشتعال الجبهة الشرقية من المغرب الأقصى في أكثر سنوات هذا العصر بسبب الحروب المستمرة بين بني عبد الواد وبني مرين، والانفلات الأمني الذي رافق تلك الحروب، فضلا عن الحملات العسكرية الكبرى التي نظمها أبو الحسن وأبو عنان في اتجاه إفريقية، أفضى إلى خلخلة الوضع التجاري في هذا المحور، وقلص من إمكانية انطلاق التجار المغاربة نحو أسواق المغرب والمشرق الإسلامي.

ويخيل إلينا أن تركز المرينيين بالشرق والشمال الشرقي للمغرب الأقصى–مع ما ميز هذه القبائل من طابع بدوي حربي– كان من نتائجه قطع المواصلات البرية بينه وبين المغرب الأوسط وإفريقية، وبلاد الشرق الإسلامي.[451] وحسبنا دليلا على ذلك أن الهدية التي بعث بها أبو دبوس الموحدي ليغمراسن الزياني اتخذت طريق البحر، إذ انطلق المركب الحامل لها «من أسفي وخرج في هنين».[452] وبالمثل، فإن بعض الدلائل تشير إلى تحول طريق القوافل إلى الجنوب الشرقي، حيث أصبحت تنطلق من سجلماسة متبعة الطريق الصحراوي لتصعد بعد ذلك في اتجاه تلمسان دون أن تتخذ الطريق الداخلي الرابط بين تلمسان وتازة وفاس لتحكم المرنيين في شرايينه.[453]

ولما كانت مدينة تلمسان تمثل موقعا تجاريا هاما، سواء على مستوى الخط التجاري الصحراوي السابق ذكره،[454] أو على الخط الرابط بين بجاية وسبتة، وبصفة عامة خط الريف الشرق الأوسط[455] عبر تونس، فقد وجهت حملات المرينيين العسكرية ضداً عليها ضربات موجعة لتجارة المغرب الأقصى اتجاه بلدان المغرب والمشرق الإسلاميين؛ فعلى امتداد حكم معظم السلاطين المرينيين حمل هؤلاء بجيوشهم على هذه المدينة، ودخلوا في مناوشات وصراعات عنيفة ضداً على بني عبد الواد،[456] شملت المجال المحيط بتلمسان، وامتدت لتشمل مدن شرشال ومليانة ومستغانم ووانشريس،[457] مما ألحق أضرارا جمة في قطاع التجارة الخارجية للمغرب مع دول الشرق وممالكه خلال هذه الفترة.

ويظل الحصار الطويل الذي ضربه السلطان يوسف بن يعقوب على تلمسان[458] أهم مؤثر في مسار الحركة التجارية للمغرب في هذا المحور، حيث أفضى إلى خلخلة الوضع

Scanned by CamScanner

التجاري بالمنطقة، وقطع أوصال الطريق الرابطة بين الريف المشرق الإسلامي عبر تونس. وبالرغم من أن مدينة المنصورة، التي أنشئت خلال هذه الفترة بالقرب من تلمسان، عوضت دور هذه الأخيرة كحلقة وصل في هذا المحور التجاري،[459] إلا أن استمرار الاقتتال بين المرينيين وبني عبد الواد، وخرابها فيما بعد،[460] أعاد الوضع إلى ما كان عليه، بل إلى أسوأ منه خاصة بعد انتهاء الحملات التي أقدم عليها كل من أبي الحسن وابنه أبي عنان اتجاه إفريقية.[461] مما عصف بالحركة التجارية مع بلدان المغرب والمشرق الإسلاميين.[462]

ومما زاد الوضع حدة، الوضع الأمني المضطرب الذي كان يهدد التجار في معظم سنوات هذه المرحلة[463]؛ فقد كانت الخطوط التجارية التي تربط بين المدن المغربية ومثيلاتها في المغرب الأوسط وإفريقية والمشرق الإسلامي أكثر عرضة لغارات القبائل المحاربة وقطاع الطرق. ولا يستبعد أحد الباحثين[464] أن يكون ثمة تحالف بين سلاطين تلمسان وبعض القبائل العربية للإغارة على القوافل التجارية التي تمر عبر مناطق نفوذ بني عبد الواد. وفي كل الأحوال فقد كان التاجر والمسافر عبر هذه الطرق يتخبط «في خوض ظلماء وخبط عشواء، لا يأمن على ماله ولا على نفسه ولا يومن راحة في غده إن لم يرها في يومه وأمسه... يظلم ويجفى ويهتضم، تتعاطاه الأيدي الغاشمة، وتتهاداه الأكف الظالمة، لا منجد له ولا معين».[465]

وكيفما كان الحال، فإن الوضع المتدهور في شرق المغرب الأقصى بسبب الحروب وغياب الأمن أفضى إلى خراب الطريق البري الرابط بين الريف المغربي وبجاية وتونس والمشرق الإسلامي.[466] وانتقل النقل التجاري إلى الطريق البحري، إلا أن المغرب لم يستفد كثيرا من هذه الطريق نظرا للأهمية الكبرى التي أصبحت لميناء هنين، القريب من مملكة تلمسان، على حساب موانئ المغرب الأقصى مثل سبتة وباديس وسلا وغيرها.[467]

وإجمالا فقد أعاقت الحروب المرينية –العبدوادية انتقال التجار والبضائع بين المغرب الأقصى وبلدان المغرب والمشرق الإسلامي، و لم تنتعش المبادلات بينهما. على ما يبدو إلا في لحظات السلم المؤقت بين الطرفين، أو خلال السنوات التي أخضع فيها بنو مرين تلمسان وتونس لسلطتهم،[468] أما في غير ذلك فيمكن الجزم بأن العلاقات التجارية الوحيدة التي عرفت استمرارا بين الطرفين تمثلت في تجارة ركب الحجيج[469] لما حظي به من اهتمام واحترام لدى دول هذه المرحلة.

Scanned by CamScanner

ج. التجارة مع بلاد الأندلس

يبدو أن التجارة المغربية مع بلاد الأندلس الإسلامية لم تكن في المستوى المتوقع لها، ارتباطا بالقرب الجغرافي بينهما والإرث التاريخي الذي جمعهما، مقارنة مع المبادلات المكثفة التي ميزت العلاقة بين هاتين العدوتين زمن المرابطين والموحدين وقبلهما أيضا.[470] ومن نافلة القول إن الكيانات السياسية التي تقاسمت حكم الأندلس والمغرب بعد انهيار الدولة الموحدية قد تبادلت العداء فيما بينها باستمرار، ودخلت في حروب ومناوشات أثرت في حركة المبادلات بينهما، وقلصت من إمكانية انتقال التجار والبضائع بينها.[471]

ومن غير المستبعد أن يكون التصادم الذي حصل بين طموحات المرينيين في الأندلس، والنزعة الاستقلالية لبني نصر، قد عمق الهوة بين العدوتين، وأحكم العداء بين حكامها، مما أثر في مسار الحركة التجارية بينهما.[472] ومن الأمثلة الدالة على هذا الوضع، اقتحام بني الأحمر لمدينة سبتة سنة 703هـ/1303م، وتخريبهم لكثير من معالمها، و لم يكتفوا بذلك بل أجلوا أغنياءها، لا شك أن منهم كثيراً من التجار، إلى غرناطة.[473] وما حدث سنة 705هـ/1305م حيث دعم النصريون الحركة التمردية لعثمان بن أبي العلاء، فتحكم في بلاد الريف ووصل إلى العرائش وأصيلا والقصر الكبير ونواحي تازا، في الوقت الذي كانت فيه السفن الحربية الغرناطية تحاصر ميناء هنين الذي كان آنذاك تحت قبضة بني مرين.[474]

ويخيل إلينا أن تحكم بعض القبائل ذات النزعة الحربية من مثيل بني مرين والمعقل في بعض مناطق غمارة[475] أثر بدوره في سيولة انتقال التجار والبضائع من داخل المغرب الأقصى نحو موانئ سبتة وباديس ومنها إلى بلاد الأندلس؛ فقد تحدثت بعض المصادر عن القبائل المعقلية التي «تغلبت على الريف (...) فارتحل جميع أهل باديس بأموالهم وأمتعتهم إلى الجزيرة (...) فإذا جاءت العرب (...) انبسطوا في الوادي وانقطع الناس في العدوتين، عدوة الصف، وعدوة الركيبة، لا يقدر من يدخل الوادي من أجل العرب»،[476] الذين كانوا «يجبرون الناس على مغرم يأخذونه».[477] كما ذكرت النصوص أن بعض بني مرين استولوا على طنجة وأصيلا في عهد يعقوب بن عبد الحق، «وأفسدوا سابلتها، وضيقوا على ساكنها، واكتسحوا ما حولها»،[478] إلى غير ذلك من الأمثلة التي تثبت أن غياب الأمن وعدم تركز السلطة كان يعيق حركة التجار، ويعرقل نشاط الموانئ المغربية.

ولا شك أن القرصنة التي كانت تضرب موانئ المغرب الشمالي خلال هذه المرحلة، أثرت بدورها في نشاط التجارة المغربية النصرية، وتكفي العودة إلى متون المرحلة مدار

Scanned by CamScanner

الدرس للوقوف على تعاظم هذه الظاهرة وكثافتها.[479]

وصفوة القول إن الحروب التي عرفتها الجهات الجنوبية والشرقية والشمالية للمغرب الأقصى خلال العصر المريني، والانفلات الأمني الذي رافقها، أثرا بشكل كبير في شبكة المبادلات التجارية للمغرب الأقصى مع بلاد السودان وبلدان المغرب والمشرق الإسلاميين، إلا أننا نميل إلى الاعتقاد أن الرغبة في جمع الثروة، وإحساس التجار بأنهم في أرض الإسلام، شجعهم على العمل والتجارة، بالرغم من تلك الظروف مجتمعة.

1. أثر الحرب في التجارة مع دول أوربا المسيحية

من المتعارف عليه بين المهتمين بتاريخ المغرب المريني، أن ثمة مستويين حكما العلاقات التجارية مع دول غرب أوربا المسيحية؛ مستوى ما ينبغي أن يكون وترجمته مواقف الفعاليات الدينية التي أقرت مبدأ التصادم والصراع المستحكم بين «دار الإسلام» و«دار المسيحية»، ودعت إلى حظر أنواع من البيوعات بين الدارين.[480] ومستوى براغماتي واقعي بلورته مصالح الدول والتسامح الذي طبع عقلية المشتغلين بالنشاط التجاري، مما سهل ظروف انتقال التجار والبضائع بين الموانئ المغربية ومثيلاتها الأوربية.[481] على أننا نعتقد أن هذا النوع من المبادلات قد تأثر، في كل الأحوال، بآراء الفقهاء المسلمين ورجال الدين المسيحيين، وبالعداء المستحكم والحروب التي طبعت علاقة المغرب بجيرانه الأوربيين في أكثر من سنة، وبالقرصنة التي ساهمت بثقلها في هشاشة الأمن بحوض البحر المتوسط، وعرقلت العلاقات التجارية بين ضفتيه.[482]

أ. التجارة مع «دار الحرب» بين النظر الشرعي والواقع التاريخي

أقر الفقهاء المعاملات التجارية مع العدو، وأجازوا استمرارها وإن نشبت الحرب؛[483] إلا أنهم حددوا أصنافا من المعاملات التي نهى عنها الشرع، ومنها على وجه الخصوص «آلة الحرب، وعدة الفرس، وما يستعان به على حرب المسلمين».[484] ويستخلص من الجملة الأخيرة لهذا النص أن المبدأ في هذا التحريم هو منع استعانة النصارى بهذه البضائع على حرب المسلمين. وإلى جانب ذلك دعت الفعاليات الدينية التجار إلى عدم السفر إلى بلاد النصارى، وكرهوا المقام فيها، لأن في ذلك إعلاء لكلمتهم.[485]

ومن نافلة القول التأكيد أن الاعتبارات التي دفعت بالفقهاء المسلمين إلى إقرار تلك الموانع والتحريمات، هي الدوافع نفسها التي جعلت الكنيسة تحظر بيع السلاح والسفن

Scanned by CamScanner

وغيرها من المواد التي من شأنها أن تقوي المسلمين على حرب النصرانية.[486] فهل روعيت هذه الموانع في شتى المعاملات التجارية بين الطرفين؟

يبدو من خلال ما توصل إليه ثلة من الدارسين المتخصصين، أنه بالرغم من الموانع الدينية والعداء التاريخي، فإن العلاقات التجارية بين المغرب المريني وبلدان الغرب الأوروبي اتسمت بدينامية خاصة، إذ لم يمتنع الطرفان عن الاتفاق لفترات محددة على شروط السلم والتجارة،[487] ولم يتردد التجار في تجاوز الإقرارات الدينية أمام إغراء المال والثروة،[488] خاصة وأن بعض فقهاء العصر المريني من مثيل أبي عبد الله الحفار وابن مرزوق والقباب كانوا يميلون إلى نوع من الإباحة والتسامح في مسائل المعاملات،[489] سببها ولا شك عامل الضرورة الذي اقتضته ظروف العصر ومستجداته، وبروز مناخ من الانفتاح على الآخر، لا سيما في مجال المعاملات التجارية[490] التي فرضها تغير موازين القوى في الضفة الغربية للبحر المتوسط لصالح الطرف الأوروبي.[491]

ولا شك أن الرغبة في الاستفادة من خدمات الميليشيات المسيحية في الجيش المريني،[492] وحاجيات الدولة إلى الأموال التي تجنى من الضرائب المفروضة على هذا القطاع، فضلا عن تقوي المعسكر الآخر، لاسيما من الناحية العسكرية،[493] كل ذلك عجل بتجاوز تلك الموانع الدينية،[494] فوقع سلاطين بني مرين اتفاقيات السلم والتجارة مع نظرائهم الأوروبيين.[495] وقد غلب الطرفان في هذه المعاهدات المصالح التجارية على العلاقات السياسية والعسكرية المتوترة،[496] مما سمح بقيام نشاط تجاري هام انتقلت فيه البضائع بين الموانئ المغربية والأوروبية،[497] وأقام فيها التجار بديار الطرفين لمدد طويلة، وعقدوا صفقات لم تتقيد بالموانع الدينية، سواء من قبل الدولة أو التجار.[498]

ولعله من المفيد الإشارة إلى أن بعض السلاطين المرينيين حاولوا مسايرة الطرح الفقهي فيما يخص المواد الممنوع بيعها للنصارى؛ ففي الاتفاقية التي وقعها أبو الحسن المريني مع ميورقة سنة 739هـ/1338م، سمح هذا السلطان للرعايا الميورقيين بالتجارة مع المغرب، لكنه منع عليهم أن يصدروا القمح والسلاح والخيل والجلود المملحة المدبوغة.[499] وفي الجانب الآخر نصادف حالات من هذا القبيل؛ فقد أعطى جاك II ملك أراغون أوامره بمنع بيع الأسلحة والمواد الغذائية وباقي المواد الممنوعة للمسلمين.[500]

Scanned by CamScanner

ب. دور الحرب وغياب الأمن في عرقلة التجارة المغربية مع أوربا الغربية

وإذا كنا نقر بأن المعاهدات التي وقعتها السلطة المرينية مع نظيراتها الأوربية سمحت بنشاط المبادلات بين الطرفين، فإننا نعتقد –مع أحد المتخصصين في هذا الموضوع– أن تلك الاتفاقيات لم تفلح في جوهرها في نزع فتيل التوتر بين الطرفين، إذ لم تعد أن تكون مجرد اتفاقيات تروم الهدنة، ولا تروم السلم.[501] ولم تكن لتضع حدا نهائيا لتصادمهما في أية لحظة، ما يعني أنه بمجرد انتهاء مدة الصلح، كان الطرفان يدخلان في حالة العداء بالرغم من أنهما لا يعلنان الحرب، فضلا عن أن صلاحية الهدنة كانت مرتبطة بالحاكمين اللذين وقعا المعاهدة، وبمجرد انتهاء حكم أحدهما، فإن الهدنة تصبح لاغية.[502]

وفي كل الأحوال فإن التجارة مع الغرب الأوروبي كانت محكومة بالموقف العدائي الذي حكم الطرفان، مما قلل من استمراريتها، ودوام الأرباح المتحصلة منها.[503]

ونرجح أن جوازات المرينيين إلى الأندلس أثرت بشكل كبير في تدهور العلاقات التجارية مع هذه العوالم،[504] خاصة مع مملكة قشتالة التي مثلت أهم الأطراف التي دخل المرينيون في مواجهات مباشرة معها،[505] وقد أفضت هذه الحملات إلى تباين المواقف الأوروبية من التعامل مع المغرب، إذ لم يخف القشتاليون تبرمهم من استمرار العلاقات التجارية بين أراغون والمغرب المريني.[506] ولا نشك في أن الخلافات التي نشبت بين هاتين المملكتين المسيحيتين في سنوات 711–715–728هـ/1311–1315–1327م كان أغلبها بسبب رفض القشتاليين لأي تعامل مع المرينيين.[507]

ومن الضروري أن نشير إلى أن مملكة قشتالة كانت سباقة إلى إعلان العداء لبني مرين؛ إذ أخذ ألفونسو الرابع «من في بلاده من المسلمين وثقفهم في الحديد، وأمر ببيعهم في دواخل الروم».[508] كما طردت قشتالة التجار المغاربة من أراضيها، وفرضت عليهم إتاوات مجحفة، دليلنا في ذلك أن معاهدة الصلح التي فرضها يعقوب بن عبد الحق في جوازه الرابع إلى الأندلس على سانشو القشتالي عقب هزيمة هذا الأخير أمامه سنة 684هـ/1285م، نصت على مسالمة المسلمين بالأراضي القشتالية، ورفع الضريبة عنهم.[509]

ولتأكيد مدى الضرر الذي كان يلحق بالتجار والبضائع في ظل حالة العداء، والحرب وعدم الاستقرار السياسي والأمني بين المرينيين والممالك المسيحية، يكفي أن نذكر ببعض المقاطع والبنود من اتفاقيات الهدنة التي وقعها الطرفان، إذ تكشف هذه المقاطع عن المشكل

Scanned by CamScanner

الذي شكل هاجس العلاقات التجارية للمغرب مع دول الغرب الأوروبي، والقيمة الأساسية التي كان يحصل عليها التجار في حالة وجود اتفاقية صلح وهدنة، وهي الأمن والأمان في تنقل السلع والأشخاص والأموال. ومن هذه المقاطع:

* ما ورد في عقد الهدنة الذي فرضه يعقوب بن عبد الحق على ملك قشتالة سنة 684هـ/1285م، حيث ألزم النصارى بعدم التعرض لأي جفن من أجفان المسلمين، وعدم إلحاق أي ضرر بالتجار المسلمين في البر والبحر، و«يكون المسلمون يسيرون في بلادك لتجارتهم وطلب معائشهم بالليل والنهار لا يتعرض لهم بشر، ولا يلزمهم درهم ولا دينار».510

* من بين ما اشترطه أبو الحسن المريني على ميورقة في اتفاقية 739هـ/1338م «أن يتردد المسافرون من كل واحدة من الجهتين إلى الأخرى محمولين على الأمان في نفوسهم وأموالهم وأجفانهم وجميع أحوالهم برا وبحرا في المراسي وغيرها، فلا يعرض أحد من كلتا الجهتين لأهل الأخرى بضرر، ولا يؤذيهم».511

* جاء في الاتفاقية التي وقعها بنو مرين مع أراغون برعاية من بني نصر سنة 768هـ/1366م أنه في ظل هذه الهدنة «يكون سكان البلاد والرياسات والأرض من أي دين كانوا، مسرحين يعيشون ويجيئون ويقيمون ويبيعون ويشترون بتجارتهم بطول الأمد المذكور تحت الأمان الشامل العام، من غير تعرض»512

وتشكل القرصنة أبرز مظهر هدد النشاط التجاري للمغرب الأقصى مع جيرانه الشماليين، وأسهمت عملياتها في مزيد من الانفلات الأمني في حوض البحر المتوسط،513 حتى غدا بحرا للمغامرين بتعبير أحد المتخصصين.514 ولا غرو، فقد كانت هذه الظاهرة تمثل امتدادا لحالة الحرب التي ميزت العلاقات العامة بين ضفتي المتوسط.515 خاصة وأن دول المرحلة كانت تتبناها كما لو كانت أسلوباً مشروعاً ضمن الحرب الشاملة بين الدارين.516

ويرى ماس لاتري517 أن ازدهار التجارة البحرية، بفعل غياب الأمن في الطرق البرية خلال عصر هذه الدراسة كان أبرز سبب وراء حدة نشاط القراصنة في البحر المتوسط. ويضيف مصطفى نشاط518 أن القراصنة الأوروبيين كانوا أكثر تفوقا وتنظيما من نظرائهم المغاربة لافتقار الجانب المغربي إلى أسطول تجاري قوي، ولأن الأسطول العسكري فقد

Scanned by CamScanner

هيبته بعد هزيمة أبي الحسن المريني في واقعة طريف بالأندلس (741هـ/1340م)، وكذا بعد نكبته في القيروان.

وفي كل الأحوال، غدت القرصنة في البحر المتوسط ظاهرة المرحلة، وشكل التجار، باعتبارهم أكثر من يجوب ببضائعهم هذه المجالات، لقمة سائغة في أيدي القراصنة المغاربة والأراغونيين والقشتاليين والبيتزيين والجنويين وغيرهم.[519] وتمركزت نشاطاتهم في نقط معينة كانت تشهد أكثر من غيرها رواجا تجاريا كثيفا،[520] ومنها سبتة لكونها كانت تمثل أهم ميناء تجاري رابط بين المغرب وأوروبا،[521] وباديس الذي كان يشكل ثاني أنشط الموانئ المغربية المتوسطية.[522]

ويبدو أن القرصنة المغربية قد عرفت نوعا من التنظيم منذ منتصف القرن 8هـ/منتصف القرن 14م،[523] ولا سيما في موانئ سبتة وباديس،[524] إلا أن المصادر لا تطالعنا بمادة ضافية في هذا الشأن. ومن الأمثلة التي نملكها ما كشفت عنه بعض المراسلات التي جمعت بين السلاطين المرينيين ونظرائهم الأوربيين بشأن قضايا القرصنة؛ ففي سنة 746هـ/1345م، رد السلطان أبو الحسن على رسالة لبيدرو الرابع ملك أراغون اشتكى فيها من قرصنة مغربية طالت بعض تجاره.[525] كما برر أبو عنان تعرض أحد مراكب تجار ميورقة للقرصنة المغربية بكونها كانت رد فعل على قرصنة الميورقيين لسفينة مغربية.[526]

ويظل أبرز مثال في هذا الصدد، ما تذكره بعض المصادر الجنوية عن قراصنة مغاربة طاردو الجنوي بوس (DONODEOBOS) إلى حدود سردينيا.[527]

وكيفما كان الحال، فإن المعاهدات التي وقعها الطرفان المغربي والأوربي خلال هذا العصر كان من أبرز أهدافها الحد من نشاط القراصنة من كلا الجانبين،[528] الذين أفسدوا المراسي وروعوا التجار وألحقوا أضرارا جمة في تجارة كلا الطرفين.[529]

والحقيقة أننا نميل إلى تأكيد ما أقر به أحد الدارسين المتخصصين،[530] بخصوص تفوق القرصنة الأوروبية على نظيرتها المغربية في هذه المرحلة، وكون التجار المغاربة مثلوا أكثر المتضررين من هذه الظاهرة، فقد شكلت بالنسبة إليهم هاجسا قلل من حماسهم في الاتجار مع الدول الأوربية.

وتطالعنا المصادر بمعلومات هامة عن الدور الخطير الذي لعبته القرصنة في مغرب هذه المرحلة.[531] ومن الأدلة الكاشفة على هذه الحقيقة، ما حدث في سنة 672هـ/1273م حيث

Scanned by CamScanner

حطم قراصنة جنويون سفينة كان على متنها تاجر مغربي يرجح أن يكون من فاس.[532] كما استعان ابن الأحمر وسانشو القشتالي بخدمات القرصان بينيديتو زكرياء أثناء هجومهم البحري على الجيش المريني سنة 690هـ/1291م.[533] وفي سنة 751هـ/1350م بعث أبو عنان برسالة إلى الملك الأراغوني يشتكي فيها من قراصنة كاطالانيين هاجموا سفنا مغربية وأخذوا ما فيها من بضائع،[534] كما استنكر أبو سالم المريني في رسالته إلى العاهل الأراغوني، عمليات القرصنة التي ضربت سواحل المغرب وطالت بعض رجالاته.[535] ولا شك أن الخسائر التي تكبدتها التجارة المغربية من نشاطات القراصنة كانت فادحة، وحسبنا أنه في إحدى العمليات التي تعرض لها التجار المغاربة، أسر أكثر من خمسة وثمانين ومائة تاجر، وغصبت أربع سفن وبضائع كثيرة.[536]

عموما، نظرا لتراكم عمليات القرصنة، وتضخم الانفلات الأمني في حوض البحر المتوسط، فإن أية رحلة بهذا البحر كانت بالنسبة للتاجر رحلة عسكرية، وكانت السفينة التي لا تحمل سلاحا لقمة سائغة للأعداء، وللقراصنة.[537] وقد أضحى لزاما على السفينة والتجار أن يحملوا السلاح قبل البضاعة ليدافعوا عن أنفسهم.[538] ومن الأمثلة في هذا الصدد، ما ورد في رسالة من أبي عنان إلى الملك الأراغوني في قضية قرصنة، حيث قال: «واعلم أن ابن الخطيب ما تعرض للشيطي المذكور إلا بعد ان أشهر التجار الذين كانوا فيه السلاح، وأظهروا للقتال».[539] ويكفي لتأكيد ذلك أن مملكة أراغون منعت تجارها من الإبحار دون سلاح.[540]

بقي أن نضيف عاملا آخر أسهم بدوره في إعاقة تطور التجارة المغربية الخارجية، ويتعلق بالطابع الحربي للدولة المرينية الذي تكرس في عدم اهتمامها بالأسطول التجاري، مقارنة مع أسطولها العسكري.[541] ففي الوقت الذي كانت فيه البحرية العسكرية المغربية «مثل عدة النصارى وعديدهم»،[542] لا نكاد نعثر على ما يثبت امتلاكها لأي قطعة تجارية.[543] وإذا كنا نتحفظ في التمييز بين القطع العسكرية والتجارية، إذ لم تكن ثمة فوارق قاطعة بين النوعين،[544] فإن ما يهمنا في هذه النقطة هو أن معظم قطع الأسطول كانت تستخدم في نقل الجنود والقتال فقط. ولا شك أن هذه الوضعية كرست التفوق الأوربي، وأوجدت جوا من اللاتكافؤ بين الطرفين، أحجم فيه بعض التجار المغاربة عن التجارة في هذا المحور، وألزم غيرهم بنقل بضائعهم عبر السفن الأوروبية.[545] وكل ذلك أسهم في تقلص إمكانية تطور هذا القطاع، بل أسهم في إرباكه وتراجعه.

Scanned by CamScanner

خلاصة القول إن الحروب التي استشرت في مغرب العصر المريني أضرت بشكل كبير بالأنشطة الإنتاجية، وقللت من إمكانية حصول طفرة نوعية في تطورها. وتنبغي الإشارة إلى أن تأثر كل نشاط من هذه الأنشطة بهذه الحروب لا يعني تأثره بمفرده، وإنما كان يقتضي تأثر النشاطين الآخرين وتضررهما من تضرر الأول، لأننا في دورة اقتصادية مترابطة متداخلة. كما لا يعني كساد هذه الأنشطة بشكل كلي وتام. لكن الحروب أسهمت، في كل الأحوال، في زرع بذور التراجع والانحطاط والتبدل الذي أصاب المغرب الأقصى، وكذا معظم البلاد الإسلامية في منتصف المائة الثامنة.[546]

---

[1] عن أهمية المغرب الفلاحية انظر، الإدريسي، **نزهة المشتاق**، مج. 1، ص، 236. ج. 2، ص ص، 530-531. مجهول، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985، ص، 177-206-212. محمود مقديش، **نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار**، تحقيق علي الزواري، محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. 1، 1988، مج. 1، ص، 63، 65-67، 69. الزهري، **كتاب الجغرافية**، تحقيق محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، الظاهر [بورسعيد]، د.ت، ص، 140. محمد الطويل، الفلاحة المغربية في العصر الوسيط. أحمد عز الدين موسى، **النشاط الاقتصادي في الغرب الإسلامي**، ص، 129. إبراهيم القادري بوتشيش، **الحياة الاجتماعية في المغرب والأندلس**، ج. 1، ص، 148-149. **إسهامات في التاريخ الاقتصادي-الاجتماعي لمدينة مكناس خلال العصر الوسيط**، منشورات عمادة جامعة المولى إسماعيل، مكناس، مطبعة فضالة، المحمدية، 1997، ص ص، 33-35. عبد القادر جغلول، **الإشكاليات التاريخية**، ص ص، 112-113. سفيتلانا باتسيفا، **العمران البشري**، ص ص، 218-220. علي الماحي، **المغرب في عهد أبي عنان**، ص، 175.

[2] ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 320.

[3] ابن عبدون، **رسالة في القضاء والحسبة**، نشر ليفي بروفنسال، ضمن ثلاث رسائل أندلسية في أدب الحسبة والمحتسب، مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1955، ص، 5.

[4] ابن تجلات، **إثمد العينين**، ج. 1، ص ص، 162-163. واعتبرها ابن الحاج «قوام الحياة وقوت النفوس (...) [و] أعظم الأسباب وأكثرها أجراً، إذ أن خيرها متعد للزراع ولإخوانه المسلمين، وغيرهم من الطير والبهائم والحشرات، كل ذلك ينتفع بزراعته»، **المدخل لتنمية الأعمال**، ج. 3، ص، 37.

[5] وتكشف الذهنية الجماعية لهذه المرحلة عن هذا المعطى، فيما أورده صاحب **شرح أرجوزة في الأحكام النجومية**، الذي جعل سعد طالع الفلاح معاكسا للحروب والفتن، وجعل وقت اقتراب كوكب معين لآخر بداية للحرب وما يتبعها من خراب للفلاحة. انظر، علي ابن أبي الرجال، **شرح أرجوزة في الأحكام النجومية** [ألفها ابن قنفذ القسنطيني]، مخ.خ.ع، الرباط، رقم 101د، رقم الميكروفيلم 34-46-17، ص، 142. ابن هيدور التادلي الفاسي، **الاعتبارات النظرية في الأحكام النجومية**، مخ.خ.ع، الرباط، رقم 291 د (ض.م)، ص، 230.

[6] ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 96.

[7] انظر مثلا، ابن رضوان، **الشهب اللامعة**، ص، 399.

[8] مجهول، [كتاب سماه أحد الباحثين كتاب الحرب]، مخ.خ.ع، الرباط رقم د1584، [ض.م]، ص، 16.

[9] انظر، ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**، س8، ق2، ص، 176. ابن عذاري، **البيان المغرب**، قسم الموحدين،

Scanned by CamScanner

ص، 297. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 288، 304-306. الذخيرة السنية، ص، 27-36-37-111-115. مجهول، نبذة من تاريخ المغرب الأقصى، ص، 126-149-152-168. ابن غازي، الروض الهتون، ص، 12، 40-41. الناصري، الإستقصا، ج. 3، ص، 5-10-20-26. ج. 4، ص، 33. وانظر غيرها في متن وهوامش هذا المبحث.

[10] ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 283. الذخيرة السنية، ص، 27. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 224. الناصري، الإستقصا، ج. 3، ص، 5.

[11] ابن رضوان، الشهب اللامعة، ص، 382.

[12] ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 36. الأنيس المطرب، ص، 288. مجهول، نبذة من تاريخ المغرب الأقصى، ص، 126. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 226. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص ص، 4-9. المنوني، ورقات، ص، 11-13.

[13] مجهول، نبذة من تاريخ المغرب الأقصى، ص، 125. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 282. ابن الآبار، الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، الشركة العربية للنشر، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1963. مقدمة المحقق، ج. 1، ص، 22.

[14] انظر المبحث الثاني من الفصل الأول من هذا الباب.

[15] ابن خلدون العبر، ج. 7، ص، 224. الناصري الاستقصا، ج. 3، ص، 5.

[16] مجهول، نبذة من تاريخ المغرب الأقصى، ص، 126. ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 25. مجهول، ورقات من التاريخ، ص، 106. الأنيس المطرب، ص، 282. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 5.

[17] من هذه النصوص على سبيل المثال، قول ابن خلدون عن هذه القبائل «ثم استشرى من بعد ذلك داء بني مرين وأعضل خطبهم، وكثر الثوار في المغرب (...)»، العبر، ج. 7، ص، 226. وما يذكره ابن غازي في حديثه عن فلاحة أرض مكناسة ووضعها «قبل أن يستولي على المغرب تخريب بني مرين عند اختلال أمر الموحدين»، الروض الهتون، ص، 12. وما يورده الناصري نقلا عن مؤرخي المرحلة قائلا، «لما دخل بنو مرين المغرب، فكثر عيثهم وضررهم بالمغرب، وأعضل داؤهم وتضاعف على الرعية بلاؤهم، فرفعت الشكاية بهم إلى الخليفة بمراكش»، الاستقصا، ج. 3، ص، 5. وغيرها من النصوص التي سنصادف بعضها في متن هذا المبحث وهوامشه.

[18] عمر بن ميرة، النوازل والمجتمع، ص، 123.

[19] ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 27. الأنيس المطرب، ص، 283.

[20] انظر للتفصيل المبحث الأول من الفصل الأول من هذا الباب.

[21] ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 282. الذخيرة السنية، ص ص، 25-26.

[22] الناصري، الإستقصا، ج. 3، ص، 3.

[23] ابن الأحمر، روضة النسرين، ص، 23.

[24] مجهول، الحلل الموشية، ص، 174. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 291. الذخيرة السنية، ص، 65.

[25] الروض الهتون، ص، 18.

[26] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[27] ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 228. إبراهيم حركات، السياسة والمجتمع في العصر السعدي، نشر وتوزيع دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1987، ص، 245.

[28] ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 304.

[29] المصدر نفسه، ص ص، 304-306. الذخيرة السنية، ص، 111، 115-117. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 241. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 26. المزوزي، نظم السلوك، ص، 83.

Scanned by CamScanner

30 مجهول، **نبذة من تاريخ المغرب الأقصى**، ص، 137. ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 304-306. **الذخيرة السنية**، ص، 111، 116-117.

31 انظر للتفصيل المبحث الأول من الفصل الأول من هذا الباب.

32 ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص، 36. الناصري، **الإستقصا**، ج. 3، ص ص، 10-18. وانظر أيضا رسالة لابن عبدون عن غارات القبائل وتخريبها للمحاصيل، ابن عذاري، **البيان المغرب، قسم الموحدين**، ص، 297.

33 انظر، **نظم السلوك**، ص ص، 68-69.

34 انظر للتفصيل، الحسين بولقطيب، **الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى**، ق1، ص، 36. شارل اندري جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية**، ج. 1، ص، 166.

Kably, *Société, pouvoir, op. cit.*, p. 24-33. Terrasse, *Histoire du Maroc, op. cit.*, p. 334.

35 **البيان المغرب، قسم الموحدين**، ص، 351.

36 ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، ص، 39.

37 نعني هنا بالأساس، كتاب **التشوف إلى رجال التصوف**، لأبي يعقوب يوسف المعروف بابن الزيات التادلي، ثم كتاب **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف**، لعبد الحق بن إسماعيل البادسي، تحقيق سعيد أعراب، المطبعة الملكية، الرباط، 1982. وكتاب **انس الفقير وعز الحقير**، لابن قنفد القسنطيني، أبو العباس احمد بن الخطيب، اعتنى بنشره وتصحيحه محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، مطبعة أكدال، الرباط، 1965.

38 ورد في إحدى تراجم **التشوف**، «حدثني عيسى بن يعقوب، قال، قال لي أبو محمد عبد الحق بن عبد الله الميموني، أتيت مرة من الفحص إلى أهلي فلقيت العرب في طريقي وهم يعيثون في الناس يمينا وشمالا»، التشوف إلى رجال التصوف، ص، 383. ويورد البادسي قولاً لأحد المتصوفة، قال، «كانت العرب قد تغلبت على الريف عام خمسة وثلاثين وستمائة فخفنا منهم، وارتحل جميع أهل بادس بأموالهم وأمتعتهم إلى الجزيرة التي في مرسى بادس، وكنا نحترس الديار رجالا بالأسلحة لا غير، فإذا جاءت العرب غدوة انبسطوا في الوادي وانقطع الناس في العدوتين (...) لا يقدر من يدخل الوادي من أجل العرب»، **المقصد الشريف**، ص، 75. انظر أيضا، ص ص، 60-61. وانظر، محمد القبلي، **حول التحركات البشرية...**، ص ص، 59-62.

39 ابن عذاري، **البيان المغرب، قسم الموحدين**، ص، 319. ويجدر بنا أن نشير أيضا في هذا الصدد إلى التخريب الذي أحدثته حروب الأمراء الموحدين الأواخر في المشهد الفلاحي لمغرب هذه المرحلة، ومن ذلك ما عبر عنه ابن عذاري بقوله، «وكان أكثر بلاد المغرب غالية الأسعار بسبب كثرة الفتن وقلة الأمطار في تلك الأقطار وبسبب عدم الحماة والأنصار لتلك الجهات والأمصار، فقد كان أهل تلك البلاد اشتعلت بالفتن نارهم وقلت حماتهم وأنصارهم حتى اشتدت أوجالهم بسبب ما كان بين أمراء الموحدين من الحروب والوقائع والفتن والزعازع»، **البيان المغرب قسم الموحدين**، ص، 351. ابن الأبار، **الحلة السيراء**، مقدمة المحقق، ج. 1، ص، 23.

40 ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 115-235-238-244-245. الناصري، **الاستقصا**، ج. 3، ص، 20.

41 ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 235-238.

42 ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 311.

43 الناصري، **الاستقصا**، ج. 3، ص، 33. الحسن الوزان، **وصف افريقيا**، ج. 1، ص، 349-350.

44 ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 307-330-377-378-381-382-391-399-397.

45 المصدر نفسه، ص، 330، 378-379، 391-392. ابن تجلات، **إثمد العينين**، ج. 1، مقدمة المحقق، ص،

Scanned by CamScanner

101. مجهول، نبذة من تاريخ المغرب الأقصى، ص، 138–140. عمر بن ميرة، النوازل والمجتمع، ص ص، 25–
124. شارل اندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ج. 1، ص ص، 223–224.
Kably, *Société, pouvoir…*, *op. cit.*, p. 117-118.

46 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 377، 415–416، 421–224. الناصري، الاستقصا، ج. 4، ص، 3–4، 7–32–68.

47 ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص، 92. ج. 7، ص ص، 188–189.

48 انظر المبحث الثالث من الفصل الأول من هذا الباب، وكذا المتن والهوامش الملحقة في هذا المبحث.

49 ابن خلدون، المقدمة، ص، 237.

50 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

51 محمد ياسر الهلالي، مجتمع المغرب الأقصى، ص، 403.

52 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 421.

53 المصدر نفسه، ص، 472.

54 المصدر نفسه، ص، 188.

55 ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج. 3، ص، 109.

56 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 171–188–190–191–413.

57 ابن غازي، الروض الهتون، ص، 40.

58 المصدر نفسه، ص ص، 40–41.

59 وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 217.

60 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

61 المصدر نفسه، ص، 292.

62 ابن خلدون، المقدمة، ص، 117.

63 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 27. الأنيس المطرب، ص، 294. مجهول، نبذة من تاريخ المغرب الأقصى، ص، 132. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 224. الونشريسي، المعيار، ج. 7، ص، 62. الكتاني، الجواهر المختارة، ص، 60. الدرعي، الأجوبة، ص، 153.

64 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 291. الذخيرة السنية، ص، 65. الناصري، الاستقصا، ج. 3. ص، 11. وانظر للتفصيل العنصر الثاني ضمن المبحث الثاني من الفصل الأول من هذا الباب.

65 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 27. الأنيس المطرب، ص، 283.

66 مجهول، الحلل الموشية، ص، 174. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 290. الذخيرة السنية، ص، 65.

67 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 224. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 5.

68 ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص، 319.

69 مجهول، نبذة من تاريخ المغرب الأقصى، ص، 132. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 294. الذخيرة السنية، ص ص، 72–73.

70 العمري، مسالك الأبصار، ص، 26، 127–128، 139. ابن بطوطة، الرحلة، ص ص، 667–668. ابن الخطيب، معيار الاختيار، ص، 165. إبراهيم القادري بوتشيش، إسهامات في التاريخ الاقتصادي الاجتماعي، ص ص، 44–46. عمر بن ميرة، النوازل والمجتمع، ق1، ص، 125. مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص، 36. علي الماحي، المغرب في عهد أبي عنان، ص، 175.

Brignon et autres, *Histoire du Maroc*, Librairie Nationale, Casablanca, 1967, p. 154.

72 ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، ص، 420.

73 ابن بطوطة، الرحلة، ص، 671.

Scanned by CamScanner

74 والتي اقتصرت على المقترسات المرينية في فاس، ومكناس. انظر للتفصيل عمر بن ميرة، **النوازل والمجتمع**، ص ص، 382–386.

75 ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 375–397. ابن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن**، ص، 117–119، 282–283، 285. مصطفى نشاط، **التجارة بالمغرب الأقصى**، ص ص، 115–117. عمر بن ميرة، **النوازل والمجتمع**، ص ص، 111–122.

76 انظر للتفصيل الفصل الأول والثاني من هذا الباب.

77 ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 288–304. ابن الخطيب، **نفاضة الجراب**، ج. 2، ص، 308. الناصري، **الاستقصا**، ج. 4، ص، 66.

78 انظر الفصل الأول من هذا الباب.

79 انظر الفصل الثاني من هذا الباب.

80 يكفي أن نحيل هنا إلى النزاع بين أهل ازكان ومزدغة المعروف، لتبين الأثر الذي سببه امتلاك القبائل المرينية لأملاك في هذه المجالات. انظر تفاصيل هذا النزاع عند عمر بن ميرة، **الثقافة والفقه والمجتمع، نماذج من الغرب الإسلامي، دراسة تاريخية**، جذور للنشر، الرباط، ط. 1، 2006، ص ص، 91–103.

81 ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 291.

82 ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 304.

83 محمد القبلي، **الدولة والولاية والمجال**، ص، 51.

84 ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، ص، 92.

85 محمد ياسر الهلالي، **مجتمع المغرب الأقصى**، س2، ص، 333.

86 المرجع نفسه، ص، 334.

87 ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 237.

88 الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 217.

89 المصدر نفسه، ج. 1، ص، 125.

90 ابن غازي، **الروض الهتون**، ص، 40.

91 الدرعي، **الأجوبة**، ص، 153. السكتاني، **الجواهر المختارة**، ص، 60.

92 انظر نازلة سئل عنها أبو العباس القباب، الونشريسي، **المعيار**، ج. 7، ص، 62.

93 ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 472.

94 انظر نازلة سئل عنها سيدي قاسم العقباني، الونشريسي، **المعيار**، ج. 2، ص، 116.

95 الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 116.

96 ابن الخطيب، **نفاضة الجراب**، ج. 2، ص، 58.

97 الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 125.

98 انظر المبحث الأول من الفصل الأول من هذا الباب.

99 ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 237. وإن كان أحد الباحثين قد اعتبرها نوعاً من التزامن بين هذه الحروب والفتن من جهة، ووضعية مناخية تميزت بالجفاف وشحة الأمطار من جهة ثانية، رغم تأكيده في النهاية على النتائج الكارثية لهذه الحروب التي فاقت في كثير من الأحيان أضرار السماء بكثير. الحسين بولقطيب، **الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى**، ق1، ص، 301.

100 محمد الأمين البزاز، **حول المجاعات والأوبئة**، ص، 112.

101 وهو ما يعبر عنه ابن خلدون بتأكيده أن «المكتسبات كلها أو أكثرها إنما هي قيم الأعمال الإنسانية (...) فإذا فقدت الأعمال أو قلت بانتقاص العمران، تأذن الله برفع الكسب»، **المقدمة**، ص، 301.

Scanned by CamScanner

[102] ومن المفيد أن نشير قبل الاستطراد في هذه النقطة، إلى ما أكدناه سابقا (انظر للتفصيل المبحث الثالث من الفصل الأول)، من أن القبيلة حاولت دائما أن تحافظ على استقلالها وتمايزها، وطالما رفضت الخضوع لغيرها إلا إذا أرغمت عليه. وفي هذه الحالة تكون الإتاوة والمغرم الذي تؤديه للطرف الغالب التعبير الوحيد الذي يمكن التمييز من خلاله بين القبيلة المنتصرة السائدة، والقبيلة المنهزمة المسودة. فالإتاوة إذن هي ضريبة حرب تأخذها قصراً القبيلة المنتصرة من المنهزمة ما دام ميزان القوى يفرض عليها ذلك، وبمجرد ما يتغير، بل بمجرد ما يبدو أنه من الممكن تغييره، حتى تبادر القبيلة إلى الامتناع عن دفعها. محمد عابد الجابري، **العقل السياسي العربي**، ص ص، 125–126.

[103] ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص، 66.

[104] ويذكر ابن عذاري أنه بعد ذلك، رحل إلى فاس فأغرم فيها بالتعيين «جملة من الناس، ثم عاد إلى جهة مكناسة الزيتون، فنزل بمقربة من زرهون، ففر أهل تلك الجهات أمامه، وتركوا مواضعهم وربوعهم، وأسلموا للنهب مواشيهم وزروعهم»، **البيان المغرب، قسم الموحدين**، ص، 354.

[105] ابن عذاري، **البيان المغرب، قسم الموحدين**، ص، 333.

[106] المصدر نفسه، ص، 336. انظر أيضا عن وضع أغمات وضواحيها، أزريكم عبد الرزاق، **أغمات وما إليها بالعصر الوسيط، دراسة اجتماعية اقتصادية**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1993، ص، 131.

[107] انظر المبحث الثالث من الفصل الأول.

[108] ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، ص، 345.

[109] إبراهيم القادري بوتشيش، **إسهامات**، ص، 42.

[110] ابن عذاري، **البيان المغرب قسم الموحدين**، ص، 357.

[111] محمد ياسر الهلالي، **مجتمع المغرب الأقصى**، ص، 357.

[112] ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 288.

[113] ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 310.

[114] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[115] راجع لمزيد من التفصيل المبحث الثاني من الفصل السابق.

[116] انظر للتفصيل في هذه القاعدة، إبراهيم القادري بوتشيش، **أثر الحروب في المجال الضريبي**، ص ص، 79–92.

[117] انظر عن هذه الضرائب، ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 375–397. ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 320. ابن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن**، ص، 119–223. 117–285. العمري، **مسالك الأبصار**، ص، 123. وانظر عن هذا الموضوع، محمد القبلي، **حول تاريخ المجتمع المغربي**، ص، 38. مصطفى نشاط، **التجارة بالمغرب الأقصى**، ص ص، 108–119. محمد ياسر الهلالي، **مجتمع المغرب الأقصى**، ص ص، 356–380.

[118] Kably, *Société, pouvoir*, *op. cit.*, pp. 224-225.

[119] ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 375. الناصري، **الاستقصا**، ج. 3، ص، 66.
ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 397. ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 320. محمد المنوني، **ورقات عن حضارة بني مرين**، ص، 90.

[120] ابن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن**، ص، 117–119. ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 320.

[121] انظر لمزيد من التفصيل، محمد ياسر الهلالي، **مجتمع المغرب الأقصى**، ص ص، 361–363.

[122] Kably, *Société, pouvoir*, *op. cit.*, p. 196.

Scanned by CamScanner

123 ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص، 526.

124 ابن بطوطة، تحفة النظار، ص، 671.

Kably, *Société, pouvoir*, *op. cit.*, p. 226.

125 ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، ص، 282.

Kably, *Société, pouvoir*, *op. cit.*, p. 198.

126 سالم حميش، الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ، ص، 119.

Laroui, *Histoire du Maghreb*, *op. cit.*, p. 195.

انظر للتفصيل المبحث الثاني من الفصل السابق.

127 ابن مريم، البستان، ص، 124. أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، ص، 246.

128 ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، ص ص، 161–162.

129 ابن مريم، البستان، ص، 124. ابن القاضي، ذيل وفيات الأعيان، ج. 3، ص، 124.

130 انظر المبحث الثالث من الفصل الثاني من هذا الباب.

131 ابن هذيل، أبي الحسن علي بن عبد الرحمن القازازي (كان حيا في 723هـ)، عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة، مخ.خ.ع، الرباط، رقم 581 د، ص، 21.

132 الونشريسي، المعيار، ج. 6، ص، 141، ج. 8، ص، 232. ج. 5، ص، 258.

133 راجع العنصر الثاني ضمن المبحث الثاني ضمن الفصل السابق.

134 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 332، 334–335–336، 344. محمد ياسر الهلالي، مجتمع المغرب الأقصى، ص ص، 367–368.

135 احمد بن عاشر الحافي، تحفة الزائر، ص، 17. مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص، 119.

136 ابن عباد، كتب موجهة، ص، 60.

Kably, *Société, pouvoir*, *op. cit.*, p. 226.

137 ابن القاضي، جلوة الاقتباس، ج. 2، ص، 451. المقري، أزهار الرياض، ج. 5، ص ص، 24–25. ابن عباد، الرسائل الكبرى، ص، 254.

138 عبد الوهاب الدبيش، فاس المرينية بين سنتي 674–759هـ/1276–1358م، وعلاقتها بالدولة، رسالة لنيل د.د.ع في التاريخ، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، السنة الجامعية، 1988–1989م، ص، 180.

139 ابن عباد، الرسائل الكبرى، ص، 254. محمد فتحة، الأحكام والنوازل، ص، 147.

140 ابن مريم، البستان، ص، 299. الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 288.

141 ابن خلدون، المقدمة، ص، 219.

142 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

143 ابن الخطيب، معيار الاختيار، ص ص، 182–183. ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، ص، 283.

144 محمد ياسر الهلالي، مجتمع المغرب الأقصى، ص، 368–369.

145 الونشريسي، المعيار، ج. 5، ص، 306.

Kably, *Société, pouvoir*, *op. cit.*, p. 224-226.

146 ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج. 2، ص، 270.

147 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 289.

148 البادسي، المقصد الشريف، ص، 61. ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص ص، 91–92.

149 عمر بن ميرة، النوازل والمجتمع، ص ص، 126–127.

Scanned by CamScanner

[150] ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص، 92.

[151] الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 54.

[152] نفسه، ص، 118.

[153] نفسه، ص، 52.

[154] نفسه، ص، 123–124.

[155] ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص، 32.

[156] نفسه، ص، 271.

[157] نفسه، ص، 180.

[158] حتى لا نطيل الحديث في هذه النقطة، يكفي أن نحيل إلى ما أوردناه في المبحث الأول من الفصل السابق عن المشاركة المكثفة لهذه القبائل في جيش المرينيين لتبين مدى ارتفاع أعداد من اضطروا إلى التخلي عن أراضيهم وتركها بوارا في هذه المرحلة.

[159] انظر المبحث الثالث من الفصل الأول، والمبحث الأول من الفصل الثاني.

[160] الجزيري، كتاب العقود، نقلا عن إبراهيم القادري بوتشيش، تاريخ الغرب الإسلامي، ص، 25.

[161] ابن هذيل، عين الأدب والسياسة، ص، 21.

[162] العبر، ج. 6، ص، 116.

[163] الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 301.

[164] المصدر نفسه، ج. 1، ص، 306.

[165] المصدر نفسه، ج. 1، ص، 207.

[166] انظر الدلالة الطوبونومية لتامسنا وآراء الباحثين حول هذه الدلالة وكلها تصب في اعتماد المنطقة على النشاط الزراعي، مولود عشاق، حركة المتنبئين بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط، الأحمدية للنشر، الدار البيضاء، 1999، ص، 13. ويحيل الجذر الاشتقاقي لـ الشاوية على الشاه مما له علاقة بالمجال الرعوي، انظر عند الباحث نفسه، ص، 14.

[167] نفاضة الجراب، ج. 3، ص ص، 89–90.

[168] المصدر نفسه، ج. 2، ص، 58.

[169] المصدر نفسه، ص، 56.

[170] Kably, *Société, pouvoir*, *op. cit.*, p. 249.

[171] الحسين بولقطيب، الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى، ق1، ص، 120.

[172] محمد الطويل، الفلاحة المغربية، ص، 100.

[173] انظر عمر بن ميرة، النوازل والمجتمع، ص، 136. لحسن حافظي علوي، سجلماسة وإقليمها، ص، 264. احمد البوزيدي، التاريخ الاجتماعي لدرعة، ص، 114–124–126–130–133–134–135.

Kably, *Société, pouvoir...*, *op. cit.*, p. 249.

[174] الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 123–124.

[175] المصدر نفسه، ج. 1، ص، 125.

[176] المصدر نفسه، ج. 1، ص، 118.

[177] المصدر نفسه، ج. 1، ص، 116.

[178] المصدر نفسه، ج. 1، ص، 339. انظر أيضا ص، 123–125، 128–129، 175.

[179] المصدر نفسه، ج. 1، ص، 128–129.

[180] المصدر نفسه، ج. 1، ص، 126.

Scanned by CamScanner

181 ابن الخطيب، **نفاضة الجراب**، ج. 2، ص، 56.
182 ابن الخطيب، **معيار الاختيار**، ص، 164.
183 انظر المبحث الثالث من الفصل الأول.
184 الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص ص، 123–124.
185 المصدر نفسه، ص، 118.
186 عمر بن ميرة، **النوازل والمجتمع**، ص، 117–120. محمد الطويل، **الفلاحة المغربية**، ص، 72–214.
187 محمد الطويل، **الفلاحة المغربية**، ص، 72–214. مصطفى نشاط، **التجارة بالمغرب الأقصى**، ص ص، 110–111.
Khaneboubi, *Les premiers sultans…*, *op. cit.*, p. 182.
188 ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 273.
189 تثبت كثير من نوازل المرحلة هذا الاتجاه، فقد سئل عبد الله العبدوسي عن «دار محبسة على مسجد وهي خربة، وأراد رجل أن يحدث فيها مطمورتين للزرع، ويعطي من عنده إجارة حفرهما ويكريهما»، (الونشريسي، **المعيار**، ج. 7، ص، 78). وسئل آخر «عن الرجل يأتي إلى الرجل ويطلب إليه أن يعطيه في داره موضعا يحفر فيه مطمورة فأطلقه على حفرها (...)» (الونشريسي، **المعيار**، ج. 9، ص، 108. ج. 8، ص، 268–282–285)
190 محمد ياسر الهلالي، **مجتمع المغرب الأقصى**، ص، 334.
191 محمد الطويل، **الفلاحة المغربية**، ص، 214.
192 محمد فتحة، **الأحكام والنوازل**، ص، 585–608–653–680–683.
193 انظر نازلة سئل عنها موسى العبدوسي وعيسى بن علال، الونشريسي، **المعيار**، ج. 8، ص، 151.
194 محمد فتحة، **الأحكام والنوازل**، ص، 316. محمد ياسر الهلالي، **مجتمع المغرب الأقصى**، ق2، ص، 383–384، 389.
195 محمد بن حسن، **القبائل والأرياف**، ص، 52. محمد فتحة، **الأحكام والنوازل**، ص، 693. محمد ياسر الهلالي، **مجتمع المغرب الأقصى**، ص، 384.
196 ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، ص، 116.
197 ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 310.
198 المصدر نفسه، ص ص، 223–224.
199 نعتمد في هذا الاطار التقسيم الذي أورده ابن خلدون في مقدمته، وفي ذلك يقول، «وتنقسم الصنائع أيضا، إلى، ما يختص بأمر المعاش، ضروريا كان أو غير ضروري، وإلى ما يختص الأفكار التي هي خاصية الإنسان، من العلوم والصنائع والسياسة. ومن الأول الحياكة والجزارة والنجارة والحدادة وأمثالها، ومن الثاني الوراقة، وهي معاناة الكتب بالانتساخ والتجليد والغناء والشعر وتعليم العلم وأمثال ذلك، ومن الثالث الجندية». وبذلك يكون ما نقصده هنا هو القسم الأول أي ما يتعلق بشؤون المعاش ضروريا كان أم كماليا. ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 315. أحمد عز الدين موسى، **النشاط الاقتصادي**، ص، 207.
200 ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 302. محمد عابد الجابري، **العصبية والدولة**، ص، 231. عبد القادر جغلول، **الإشكاليات التاريخية**، ص، 115. محمد فتحة، **جوانب من الحياة الاقتصادية**، ص ص، 144–145.
201 ابن خلدون، **المقدمة**، ص ص، 223–224.
202 راجع المبحث السابق.
203 محمود إسماعيل، **سوسيولوجيا الفكر الإسلامي**، ج. 3، ص، 72. روجيه لو تورنو، **فاس في عصر بني**

Scanned by CamScanner

مرين، ترجمة نقولا زياده، مكتبة لبنان، بيروت، 1967، ص ص، 148–149. محمد فتحة، جوانب من الحياة الاقتصادية، ص، 144.

204 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

205 وهو ما سنعرض له لاحقا في المبحث المرسوم ب آثار الحرب في النشاط التجاري.

206 يختصر ابن أبي زرع هذه المرحلة الحرجة بقوله إن «البلاد [كانت] تضطرم نارا قد توالى عليها الخراب والفتن والقحط والغلاء الشديد والخوف بالطرقات»، الأنيس المطرب، ص، 250.

207 ابن غازي، الروض الهتون، ص، 32.

208 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 49. علي الجزنائي، جنى زهرة الآس، ص، 45. مجهول، نبذة من تاريخ المغرب الأقصى، ص، 65.

209 المصادر نفسها، الصفحات نفسها. وانظر أيضا عن حالة بعض المدن الأخرى، ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص، 419. مجهول، الحلل الموشية، ص، 170. ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، س 8، ق1، ص، 64. محمد المنوني، ورقات، ص ص، 12–13.

210 محمد ياسر الهلالي، مجتمع المغرب الأقصى، س 2، ص، 412.

211 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 228. ومما يثبت عمق هذا الأثر حرص أهل مكناسة على مقابلة السعيد الموحدي، بعد ذلك بقليل، بكثير من الاستعطاف والترغيب خوفا من تكرار ما تعرضوا له من قبل بني مرين أولا، وخوفا من انتقامه ثانيا بعد قبولهم للمرينيين صلحا، لذلك «لاذ أهلها بالطاعة، وسألوا العفو عن الجريرة، واستشفعوا بالمصاحف، برز فيها الأولاد على رؤوسهم، وانتظموا مع النساء في صعيد حاسرات منكسرات الطرف من الخشوع ووجوم الذنب والتوسل»، ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 228–229. ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص، 377. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 292. الذخيرة السنية، ص، 71. ابن غازي، الروض الهتون، ص، 35.

212 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 230.

213 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 306.

214 انظر ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص، 328–333–357، ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 36. الناصري، الإستقصا، ج. 3، ص، 9–10. الأنيس المطرب، ص، 289.

215 ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص، 328.

216 المصدر نفسه، ص، 439.

217 المقدمة، ص، 118.

218 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

219 الحسين بولقطيب، الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى، ج. 2، ص ص، 339–359، ويعرض فيها لتجارب الدول التي تعاقبت على تاريخ المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط، ودور الرغبة في السيطرة على المناجم في احتدام الصراع بينها، وفي قيامها وتحكمها على المجال. وإن كان قد ركز على التجربة الموحدية.

220 المرجع نفسه، ص، 347.

221 السقطي، رسالة في أدب الحسبة، نشر ليفي بروفنصال، باريس، 1931، ص، 64.

222 الحسين بولقطيب، الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى، ق 2، ص ص، 351–352.

223 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 204.

224 في الحقيقة لا نملك ما يؤكد هذه الخلاصة إلا نازلة سئل عنها ابن رشد بهذه الصيغة. إلا أننا نعتقد أن الظروف والحيثيات التي حكمت بروز مثل هذه المشاكل في القرن 5 و6هـ/11 و12م لا تختلف عن

Scanned by CamScanner

ظروف المرحلة المدروسة، ولا يستبعد أن تستمر مثل هذه المشاكل، وإن لم تفصح عنها مصادر المرحلة. ابن رشد، **الفتاوى**، س 1، ص، 330. الونشريسي، **المعيار المعرب**، ج. 5، ص، 260–347–348.

225 ابن رشد، **الفتاوى**، س 1، ص، 330. الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 121.

226 ابن رشد، المصدر نفسه، س 2، ص، 1260.

227 انظر المبحث الأول من الفصل الأول من هذا الباب.

228 انظر ابن عذاري، **البيان المغرب، قسم الموحدين**، ص، 325–326. الناصري، **الاستقصا**، ج. 2، ص، 61، ج. 3، ص، 14. محمد الأمين البزاز، **حول المجاعات والأوبئة**، ص، 100.

229 ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**، س 8، ق 1، ص، 175. ابن القاضي، **جذوة الاقتباس**، ق1، ص، 34. ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص، 36. **الأنيس المطرب**، ص، 288.

230 انظر للتفصيل، محمد فتحة، **جوانب من الحياة الاقتصادية**، ص ص، 144–162. روجيه لو تورنو، **فاس في عصر بني مرين**، ص ص، 125–164.

231 ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 114.

232 الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 317. ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 388.

233 المزوزي، **نظم السلوك**، ص، 90. ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 310. **الذخيرة السنية**، ص، 132. ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 244. وقد تعرضت وجدة للتخريب من جديد في عهد السلطان أبي الحسن المريني (735هـ/1334م). انظر ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 339.

234 عن حالة هذه المدينة ووضعية أهلها، ومنهم الحرفيون طبعا، بسبب هذه الحروب يقول الحسن الوزان، «توريرت مدينة متحضرة آهلة بالسكان، تحتوي على نحو ثلاثة آلاف كانون، وعلى قصور جميلة ومساجد مبنية بالحجر الكلسي، غير أنه لما استولى بنو مرين على مملكة الغرب أصبحت هذه المدينة موضع نزاع وميدان حروب عديدة؛ فقد رغب المرينيون في أن تتبع توريرت مملكة فاس، بينما أراد بنو زيان ملوك تلمسان أن يضموها إلى مملكتهم، فأدى ذلك إلى أن احتلها بنو مرين، ودمروا قسما كبيرا منها كان يسكنه أعدائهم (...) [ثم بعد ذلك] وثب عليها ملك تلمسان فاستردها وخربها ونهب الجانب الذي يسكنه أعداؤه منها، وما كاد يعقوب المريني يستولي على مراكش حتى أسرع إلى توريرت واستردها. وهكذا استبدلت توريرت رؤساءها عشر مرات في ظرف خمسين سنة تارة تخضع لملك فاس، وتارة لملك تلمسان إلى أن دمرت أخيرا». **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 349.

235 ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 305.

236 الونشريسي، **المعيار**، ج. 9، ص، 372.

237 ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 258.

238 الونشريسي، **المعيار**، ج. 9، ص ص، 371–372.

239 المصدر نفسه، ج. 8، ص، 324.

240 المصدر نفسه، ج. 3، ص، 118.

241 وكان ذلك في حدود عام 780هـ/1378م. الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص ص، 349–350.

242 المصدر نفسه، ص، 210–219.

243 المصدر نفسه، ص، 211.

244 المصدر نفسه، ص، 213.

245 المصدر نفسه، ص، 217.

246 المصدر نفسه، ص، 216.

247 المصدر نفسه، ص، 217. انظر أيضا إبراهيم حركات، **السياسة والمجتمع**، ص، 245.

Scanned by CamScanner

248 إبراهيم حركات، **المجتمع والسياسة**، ص، 35.

249 **تحفة النظار**، ص، 683. وقد علق مجهول، **ذكر تاريخ مراكش** –على قوله هذا بقوله، «قول ابن بطوطة وقد استولى عليها الخراب، فإنه دخل مراكش بعد خرابها بكثرة الفتن والحروب، وانتقال كرسي الملك منها لفاس في الدولة المرينية ويرحم الله لسان الدين ابن الخطيب حين وقف على مصانع مراكش وقصورها وقصبتها، واعتبر بما صار إليه أمرها بعد الموحدين قال،

بلد قد غزاه صرف الليالي وأباح المضون منه هبيج

فالذي خر من بناه قليل والذي خر منه بعض جريح»

مجهول، **ذكر تاريخ مراكش**، ص، 308.

أما مكناس التي عرفت بمجوعة من الحرف التي تستمد مادتها الأولية من الفلاحة (انظر، إبراهيم القادري بوتشيش، **إسهامات**، ص، 56–66.)، فقد توالت «عليها الفتن وانقعر زيتونها قطعا وإغداقا وإحراقا، واتسع الخرق على الواقع» (ابن غازي، **الروض الهتون**، ص، 40–41). وقد علق الحسن الوزان في فترة متأخرة عن تضرر مكناسة من هذه الحروب بقوله، «ولكن مكناس تضررت كثيرا في الماضي من الحروب التي نشبت بين أمراء هذه النواحي، وقد كلفتها كل حرب خسارة تتراوح ما بين ثلاثين وأربعين ألف مثقال، وحوصرت المدينة مرارا عديدة، ودام الحصار في كل مرة ست أو سبع سنوات» (**وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 215).

250 **نفاضة الجراب**، ج. 2، ص ص، 326–327.

251 ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 313. القبتوري، **رسائل ديوانية**، مقدمة المحقق، ص، 12.

252 المصدر نفسه، ص، 322–337.

253 المصدر نفسه، ص، 338. ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 348–253.

254 ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 336. ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 244–339.

255 ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص، 91. والحقيقة أن مشكل الجيش ونزوله بالمدن قد طرح قبل الدولة المرينية، فالحسن الوزان يفسر بناء المنصور الموحدي لمدينة الرباط بحرص هذا الأخير على عدم إزعاج أهل سبتة، وفي ذلك يقول، «لقد كان المنصور آنذاك يحكم كل إقليم غرناطة وقسما من إسبانيا، ونظرا لبعد هذه البلاد عن مراكش، خطر ببال الملك أنه لن يتمكن من نجدتها بسهولة إذا هاجمها النصارى، لذلك رأى أن يبني مدينة على شاطئ البحر بالذات حيث يمكنه المقام مع جنوده طوال الصيف. وأشار عليه البعض بالإقامة في سبتة (...) لكن الملك لاحظ أنها ليست بالمدينة التي تستطيع أن تكفي لتخييم جيش مدة ثلاث شهور أو أربعة (...) كما فكر في أن سكان سبتة، قد يتزعجون كثيرا من إقامة الجنود ورجال الحاشية بين أظهرهم، فبنى مدينة الرباط في بضعة أشهر». الحسن الوازن، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 201.

256 ابن خلدون، **العبر**، ص، 415–416. الناصري، **الإستقصا**، ج. 4، ص، 38.

257 ابن مريم، **البستان**، ص، 124. ابن القاضي، **ذيل وفيات الأعيان**، ج. 3، ص، 124. ابن الخطيب، **نفاضة الجراب**، ج. 2، ص، 324. الحسين بولقطيب، **أسلوب الإنتاج الحربي**، ص ص، 82–83.

258 انظر المبحث الثاني من الفصل الثاني من هذا الباب.

259 انظر على سبيل المثال، عن أسوار مدينة فاس وما طرح ترميمها من مشاكل حول إمكانية إلزام أهلها على تمويل ترميمها. الونشريسي، **المعيار**، ج. 7، ص، 303. وعن مكناسة، انظر المصدر نفسه، ج. 5، ص ص، 347–348.

260 محمد زنيبر، **الصناعة في نسق بن خلدون الاجتماعي**، ص، 286.

261 محمد عابد الجابري، **العصبية والدولة**، ص، 419.

262 راجع المبحث الثاني من الفصل الثاني من هذا الباب.

Scanned by CamScanner

262 محمد المنوني، ورقات، ص، 92. وانظر على سبيل المثال، ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج. 2، ص، 324.

263 ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج. 2، ص، 313.

264 انظر نص النازلة التي أرسلها الفقيه أبو محمد عبد الله بن أبي بكر العنصوصي إلى فقهاء تلمسان وفاس بشأن أوضاع الحرفيين في هذه المنطقة، الونشريسي، المعيار، ج. 2، ص، 217.

265 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 147.

266 ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج. 2، ص، 324.

267 المقدمة، ص، 318.

268 علي الجزنائي، جنى زهرة الآس، ص، 45.

269 لذلك قالت العامة في أمثالها، «ليس بذا السوق ما تسوق»، الزجالي، أمثال العوام، مثل رقم، 1196.

270 قالوا، لا سلع في الحوانيت. ولا قطاع في تابوت، المصدر نفسه، المثل رقم، 1189.

271 ابن هلال، الدر النثير، ص، 501.

272 الونشريسي، المعيار، ج. 8، ص، 92.

273 محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، ج. 3، ص، 73.

274 الونشريسي، المعيار، ج. 8، ص، 324.

275 ابن البركات الغماري الفاسي، كتاب بشائر الفتوحات والسعود في أحكام التعزيرات والحدود، مخ.خ.ح، الرباط، رقم، 103، ص ص، 104–107.

276 المصدر نفسه، الصفحات نفسها.

277 الونشريسي، المعيار، ج. 9، ص، 372.

278 راجع الفصل الثاني من هذا الباب.

279 المقدمة، ص، 318.

280 انظر مناقشة هذا الرأي عند، محمد زنيبر، الصناعة في نسق ابن خلدون الاجتماعي، ص ص، 277–324. إبراهيم القادري بوتشيش، إسهامات، ص ص، 61–64.

281 ابن خلدون، المقدمة، ص، 318.

282 المصدر نفسه، ص، 211.

283 الونشريسي، المعيار، ج. 6، ص، 190.

284 ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج. 2، ص، 273، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 398. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 22.

285 مجهول، ذكر قضية المهاجرين المسمون اليوم بالبلديين، مخ.خ.ع، الرباط، رقم 1155 د، ص، 2. علي الجزنائي، جنى زهرة الآس، ص، 44. الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 238–240–244.

286 روجيه لو تورنو، فاس في عصر بني مرين، ص ص، 137.

287 انظر للتفصيل، المبحث الأول من الفصل الثاني.

288 روجيه لو تورنو، فاس في عصر بني مرين، ص ص، 137.

289 المقري، نفح الطيب، ج. 1، ص، 202.

290 مجهول، ذكر قضية المهاجرين، ص، 2. علي الجزنائي، جنى زهرة الآس، ص، 44. الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 238–239–240–244.

291 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 244.

292 محمد الشريف، الغرب الإسلامي، نصوص دفينة ودراسات، ص، 154.

Scanned by CamScanner

293 المرجع نفسه، ص، 155.
294 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
295 مجهول، **ذكر قضية المهاجرين**، ص، 2.
296 الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 245.
297 المصدر نفسه، ص، 234.
298 المصدر نفسه، ص، 239.
299 المصدر نفسه، ص، 245.
300 المصدر نفسه، ص ص، 239–240.
301 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
302 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
303 العمري، **مسالك الأبصار**، ص، 143. ابن الحاج النميري، **فيض العباب**، ص ص، 66–67. القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج. 5، ص ص، 200–201.
304 الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 239.
305 المصدر نفسه، ص، 240.
306 ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 336.
307 محمد المنوني، **ورقات**، ص ص، 107–108. علي الماحي، **المغرب في عصر السلطان أبي عنان**، ص ص، 162–163. عز الدين عمر أحمد موسى، **دراسات في تاريخ المغرب الاسلامي**، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط1، 1403هـ/1983م، ص، 51.
308 إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، ج. 2، ص، 117. عز الدين موسى، **دراسات**، ص، 53.
309 الناصري، **الاستقصا**، ج. 3، ص، 22.
310 ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 398. الناصري، **الاستقصا**، ج. 3، ص، 22.
311 محمد الشريف، **الغرب الإسلامي**، ص ص، 147–148.
312 ابن الخطيب، **معيار الاختيار**، ص، 146. محمد الشريف، **الغرب الإسلامي**، ص ص، 147–148. عز الدين احمد موسى، **دراسات**، ص، 54.
313 ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 398.
314 ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص ص، 347–348.
315 الناصري، **الاستقصا**، ج. 3، ص، 171. محمد المنوني، **ورقات**، ص، 108. علي حامد الماحي، **المغرب في عصر السلطان أبي عنان**، ص ص، 182–183. عز الدين موسى، **دراسات**، ص، 56.
316 محمد المنوني، **ورقات**، ص، 108. علي حامد الماحي، **المغرب في عصر السلطان أبي عنان**، ص ص، 182–183.
317 محمد الشريف، **الغرب الإسلامي**، ص، 154.
318 راجع للتفصيل المبحث الثاني والثالث من الفصل الثاني.
319 راجع المبحث الثاني من الفصل السابق ذكره.
320 ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 271.
321 مجهول، **ورقات في التاريخ**، ص، 57. ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 271–273. مجهول، **الرسالة الوجيزة**، ص، 50. ابن القاضي، **جذوة الاقتباس**، ق1، ص، 42.
322 ابن الخطيب، **نفاضة الجراب**، ج. 2، ص ص، 305–306، ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 258–292–293.

Scanned by CamScanner

323 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص ص، 258–259. محمد المنوني، ورقات، ص، 24. روجي لو تورنو، فاس في عصر بني مرين، ص، 26.

324 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 127–293. مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص، 228.

325 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 89.

326 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 327. محمد المنوني، ورقات، ص، 18.

327 المصدر نفسه، ص، 389.

328 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 90. وقد جدد أبو الحسن في بداية جوازه إلى الأندلس هذه القصبة و«وجه أحمال الذهب وأهل النجدة من الخدام لذلك، فابتدؤوا ببناء الحصن، فأحكموا سوره ودوره ومواجله وآثاره، وتحصين المواضيع التي يحذر منها عليه»، ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، ص، 391.

329 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 322. الذخيرة السنية، ص، 90. ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج. 2، ص ص، 305–306. محمد المنوني، ورقات، ص، 45.

330 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 89.

331 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 94. الأنيس المطرب، ص، 301. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 22.

332 ابن غازي، الروض الهتون، ص، 37. محمد المنوني، ورقات، ص ص، 99–100. مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص ص، 357–358.

333 محمد ياسر الهلالي، مجتمع المغرب الأقصى، ج. 2، ص ص، 337–338.

334 نفاضة الجراب، ج. 2، ص ص، 305–306.

335 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 352.

336 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 293.

337 محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، ج. 3، ص، 74. إبراهيم القادري بوتشيش، الحياة الاجتماعية، ج. 1، ص، 170. أحمد عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي، ص، 263. مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص، 102. محمد فتحة، جوانب من الحياة الاقتصادية المغربية، ص، 163. محمد ياسر الهلالي، مجتمع المغرب الأقصى، س2، ص، 340. وانظر المقالات التي ضمتها ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب، منشورات جامعة الحسن الثاني، عين الشق كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، مطبعة فضالة، المحمدية، 1992م.

338 الحسين بولقطيب، الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى، ج. 2، ص، 294.

339 انظر على سبيل المثال ما سببه الاجتياح المريني للمغرب الأقصى ابتداء من أواخر العقد الأول من القرن 7هـ/13م في هذا المجال، ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 27–36. الأنيس المطرب، ص، 283–288. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 224–226. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 5–9.

340 انظر للتفصيل، الحسين بولقطيب، الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى، ق1، ص، 297. محمد ناصح، مكانة التجار بين الفئات الاجتماعية المكونة للمجتمع المغربي خلال القرن السادس الهجري، ضمن ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب، ج. 2، ص ص، 76–79.

341 ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص، 351.

342 مجهول، نبذة من تاريخ المغرب الأقصى، ص، 126. ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 36–67. الأنيس المطرب، ص، 283–288. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 224–226. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 5–9.

Scanned by CamScanner

343 انظر وصف ابن أبي زرع لهذه المرحلة، الأنيس المطرب، ص، 288. الذخيرة السنية، ص، 36.

344 الحرابة هي «كل فعل يقصد به أخذ المال على وجه يتعذر معه الاستغاثة عادة كإشهار السلاح والخنق وسقي السكران لأخذ المال، (...) والمحارب هو القاطع للطريق، المخيف للسبيل، الشاهر للسلاح لطلب، فإن أعطي وإلا قاتل عليه، كان في الحضر وخارج المصر (...) [وقال أيضا] قاطع الطريق أحق بالقتال من الروم»، ابن فرحون، تبصرة الحكام، ص، 267.

345 ابن تجلات، إلمد العينين، ج. 1، ص، 213.

346 مصطفى نشاط، نصوص مترجمة ودراسات عن العلاقات الإيطالية المغربية في العصر الوسيط، مكتبة الطالب، وجدة، 1426هـ/2005م، ط. 1، ص ص، 80–81.

347 البيان المغرب، قسم الموحدين، ص، 351.

348 ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، س8، ق1، ص، 176.

349 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 224–226.

350 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 284.

351 لا يخفى على أي باحث أهمية ممر تازة في التجارة الداخلية والخارجية، باعتبارها شريانا أساسيا من شرايين التجارة بين البلاد المغربية والشرق الإسلامي. انظر الحسين بولقطيب، الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى، ق2، ص، 301.

352 مجهول، نبذة من تاريخ المغرب الأقصى، ص، 134.

353 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص ص، 36–37. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص ص، 228–231.

354 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 27. الأنيس المطرب، ص، 283.

355 المصدران نفسهما، الصفحات نفسها.

356 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 289. الذخيرة السنية، ص، 37. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 226. القلقشندي، صبح الأعشى، ج. 5، ص، 190. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 10. محمد القبلي، مراجعات حول المجتمع والثقافة، ص، 110.

357 انظر مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص، 103.

358 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 37. الملزوزي، نظم السلوك، ص، 70.

359 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص ص، 72–73. الأنيس المطرب، ص، 294.

360 Kably, *Société, pouvoir…*, *op. cit.*, p. 98.
مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص ص، 217–218.

361 انظر حسن حافظي علوي، سجلماسة وإقليمها، ص، 225.

362 راجع المبحث الثاني من الفصل الأول، وكذا مصطفى أبو ضيف أحمد، أثر القبائل العربية، ص ص، 113-196. الحسين بولقطيب، الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى، ق1، ص ص، 33–40.

363 ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص، 333.

364 المصدر نفسه، ص، 172.

365 البادسي، المقصد الشريف، ص، 75.

366 القلقشندي، صبح الأعشى، ج. 6، ص، 164.

367 ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص، 372.

368 مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص، 215.

369 الحسين بولقطيب، الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى، ق2، ص، 303.

370 البادسي، المقصد الشريف، ص، 75.

Scanned by CamScanner

371 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 36. الأنيس المطرب، ص، 288.
372 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
373 ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص، 325.
374 المصدر نفسه، ص، 319.
375 الونشريسي، المعيار، ج. 8، ص، 73.
376 ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص، 319.
377 محمد فتحة، الأحكام والنوازل، ص، 564.
378 محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، ج. 3، ص، 75.
379 الونشريسي، المعيار، ج. 8، ص، 168. ابن هلال، الدر النثير، ص، 310.
380 انظر النازلة التي سئل عنها أبو محمد بن غالب السبتي، الونشريسي، المعيار، ج. 6، ص، 172.
381 مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص ص، 121–123.
382 الونشريسي، المعيار، ج. 6، ص، 403. محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، ج. 3، ص، 75.
383 انظر للتفصيل، مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص ص، 102–108. محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي، ص، 292. وانظر عن بعض الإجراءات التي اتخذتها السلطة لتشجيع هذا القطاع، ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص، 352. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 413–384. ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، ص ص، 429–418.
384 انظر للتفصيل الفصلين السابقين.
385 Braudel, Fernand, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philipe II*, Paris, 1966, p. 258.
Kably, *Société, pouvoir..., op. cit.*, p. 96.
إيف لاكوست، العلامة ابن خلدون، ص، 24. مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص ص، 204–221. محمد القبلي، مراجعات...، ص، 59.
386 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 249.
387 انظر الناصري، الإستقصا، ج. 3، ص، 36.
388 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 323.
389 مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص، 252.
390 مثل مراكش وسلا وتازا وسبتة، انظر الملحق رقم 2. ويمكن من خلال إحالاته تتبع تحركات الجيش المريني والمدن التي يمر عليها.
391 انظر الملحق نفسه.
392 الحسين بولقطيب، الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى، ق2، ص، 309.
393 انظر ما يذكره الباحث نفسه عن هذه الطرق طيلة فترات مهمة من العصر الوسيط. المرجع نفسه، ص، 303.
394 انظر على سبيل المثال ما يذكره ابن أبي زرع عن محلة يعقوب بن عبد الحق في الأندلس (سنة 684هـ/1285م) «التي صارت بمنزلة قواعد المدن، اجتمع فيها أصناف الصنائع والتجارة (...) إذ أخذ سوق المحلة السهل والوعر، إذا غاب عنك رفيقك أو من تعرفه لا تكاد تلقاه إلا بعد اليومين والثلاثة لكثرة الخلق»، الأنيس المطرب، ص، 352.
395 مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص، 144.
396 ومن الأمثلة على ذلك مدينة المنصورة التي أحدثها المرينيون أثناء حصار تلمسان، فكانت بسبب ظروف الحصار «من أعظم الأمصار والمدن، وأحفلها اتساع خطة (...) استبحرت عمارتها، وهالت

Scanned by CamScanner

أسوانها، ورحل إليها التجار بالبضائع من الآفاق، فكانت إحدى مدائن المغرب»، ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 293.

Dufourcq, *L'Espagne catalane...*, *op. cit.*, p. 371.

[398] Kably, *Société, pouvoir...*, *op. cit.*, p. 115.

[398] ابن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن**، ص، 232. مصطفى نشاط، **التجارة بالمغرب الأقصى**، ص، 121-123.

[399] المصدر نفسه، ص، 395.

[400] انظر ما أثبتناه في المبحث الأول والثاني من هذا الفصل، وكذا في المبحث الثاني من الفصل الثاني.

[401] ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، ص، 92. وانظر النازلة التي سئل عنها سيدي قاسم العقباني، الونشريسي، **المعيار**، ج. 2، ص ص، 403-404. ابن مرزوق، **الأجوبة**، ص، 171. عبد الرحمان الفاسي، **شرح العمل الفاسي**، ص، 78.

[402] الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص ص، 349-350.

[403] ابن الخطيب، **نفاضة الجراب**، ج. 2، ص ص، 56-58.

[404] ابن بطوطة، **تحفة النظار**، ص، 683. مجهول، **ذكر تاريخ مراكش**، ص، 308. الناصري، **الاستقصا**، ج. 4، ص، 16.

[405] ابن غازي، **الروض الهتون**، ص، 10-12، 40-41.

[406] حسن حافظي علوي، **سجلماسة وإقليمها**، ص، 233.

[407] الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 210-211-213-217-292-301-302-349-350.

[408] انظر ما يقوله عن مكناس مثلا، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 215.

[409] ابن الخطيب، **نفاضة الجراب**، ج. 2، ص، 324. محمد المنوني، **ورقات**، ص، 92. إبراهيم حركات، **مدخل إلى تاريخ المغرب الاجتماعي**، ص، 214.

[410] ابن عاشر، أحمد الحافي، **تحفة الزائر**، ص، 17.

[411] انظر عن دور الحروب والفتن والتقلبات السياسية في الحد من نمو التجارة المغربية خلال العصر الوسيط، وأثر ذلك في وضعية التجار وعلاقتهم بالسلطة،

Kably, *Société, pouvoir*, *op. cit.*, p. 266.

خالد المنوبي، **محاولة تشخيص التشكيلة الاجتماعية المغاربية قبل الاستعمار**، تعريب، محمد الأمين البزاز، عبد العزيز التمسماني خلوق، مجلة دار النيابة، السنة 4، العدد 13، شتاء 1987، ص، 15. عبد العزيز العلوي، **البعد الاجتماعي للتجارة الصحراوية في العصر الوسيط**، التجار المغاربة نموذجا، المصباحية، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس، فاس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، سلسلة العلوم الإنسانية، العدد 1، ص، 56.

[412] المقري، **نفح الطيب**، ج. 5 ص، 206.

[413] من ذلك ما سئل عنه مفتي تونس أبو القاسم الرصاع «عن رجل أعطى بضاعة أمانة متجر بها في بلاد المغرب والمواضع المأذون فيها عادة، فذهب المبعوث معه بالمال إلى المغرب، ثم قدم وادعى أنه أودعه ببلاد المغرب، وأن العدو أخذ تلك البلدة لأنه مسافر بالمتاع من بلد فاس إليها، وطريقها مخوف، وتعلق الضمان بذمته، فلا يسقط الضمان عنه بدخول المتاع إلى البلدة المأمونة وأثبت أن الطريق مخوف». ابن مرزوق، **الأجوبة**، ص ص، 305-306.

[414] مجهول، **شرح العمل الفاسي**، ص، 78.

[415] ابن مرزوق، **الأجوبة**، ص، 171. الناصري، **الاستقصا**، ج. 4، ص، 83.

Scanned by CamScanner

416 الونشريسي، المعيار، ج. 2، ص ص، 403–404.
417 المقدمة، ص، 223.
418 المصدر نفسه، ص ص، 223–224.
419 مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص، 161. محمد ياسر الهلالي، مجتمع المغرب الأقصى، س2، ص، 439.

FATHA (M), *Contribution à l'histoire de la ville Marocaine des Mérinides aux Watassides XIV^e-XV^e s.*, (Etude Socio-Urbaine), Thèse en vue du Doctorat de 3^e cycle, Université de Bordeaux III, Bordeaux, 1982, p. 207.

420 مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص، 338.
421 محمد القبلي، مراجعات حول المجتمع والثقافة، ص، 59–60. عبد القادر جغلول، الإشكاليات التاريخية، ص، 105. مصطفى ناعمي، أهمية التجارة بالنسبة للبنية الاقتصادية والاجتماعية لغرب الصحراء بلاد تكنة، مجلة البحث العلمي، ج. 1، ع. 35، 1985، ص، 196. محمد فتحة، مصطفى نشاط، المجتمع والسلطة والدين في نهاية العصر الوسيط، ضمن دراسات في تاريخ المغرب، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية 1، عين الشق، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، ع. 7، عدد خاص، 1990، ص، 176–177.

Braudel, *La Méditerranée*, *op. cit.*, p. 426. Kably, *Société, pouvoir*, *op. cit.*, p. 96-98.

422 محمد فتحة، الأحكام والنوازل، ص، 508–532.
423 ابن خلدون، المقدمة، ص، 312. مصطفى ناعمي، أهمية التجارة...، ص، 196، هـ 24.

Kably, *Société, pouvoir*, *op. cit.*, p. 96. Driss, Ben Ali, *Le Maroc pré-capitaliste*, *op. cit.*, p. 89.

424 المقري، نفح الطيب، ج. 5، ص، 206. مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص ص، 184–185.

Dhina, *Les Etats de L'Occident musulman aux 13, 14 et 15^e siècles*, Alger, 1984, p. 365. EL Alaoui (A), *Le Maghrib et le commerce transsaharien (milieu du XI^e- milieu du XIV^e siècle), contribution à L'histoire économique, sociale et politique du Maroc médiéval*, Thèse du doctorat de 3^e cycle, Université de Bordeaux III, Institut d'Etude Arabes et Islamique, Bordeaux, 1983, p. 129-147.

425 مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص، 206.

Kably, *Société, pouvoir*, *op. cit.*, p. 96-98.

426 إيف لاكوست، العلامة ابن خلدون، ص، 24. محمد القبلي، مراجعات حول المجتمع والثقافة، ص، 59. مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص، 224.
427 مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص، 204، 224–225.

Kably, *Société, pouvoir…*, *op. cit.*, p. 96. *Variations Islamistes*, *op. cit.*, p. 73.

428 ابن الخطيب، معيار الاختيار، ص، 181.
429 محمد ياسر الهلالي، مجتمع المغرب الأقصى، س2، ص، 473.
430 الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 36.
431 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 234.
432 المصدر نفسه، ص، 114، 249–250.
433 ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ص، 403–404. ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص، 92. ج. 7، ص ص، 248–249. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 307–330–378–391–392. الذخيرة السنية، ص، 122. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 67.
434 المصادر نفسها، الصفحات نفسها.
435 مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص، 216.

Scanned by CamScanner

436 Khenboubi A., *Les premiers sultans mérinides*, *op. cit.*, p. 75.

437 انظر عن هذه الإقطاعات، ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص، 92. محمد القبلي، الدولة والولاية والمجال، ص، 51. مراجعات، ص، 93.

Kably, *Société, pouvoir…*, *op. cit.*, pp. 231-232.

438 ماجدة كريمي، العلاقات التجارية بين المغرب والسودان في العصر المريني (668–759هـ/1263–1358م)، رسالة لنيل د.د.ع في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1987–1988، ص، 359–363.

439 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 323.

Kably, *Société, pouvoir…*, *op. cit.*, pp. 124-125.

440 ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص، 92. ج. 7، ص ص، 146–147. القبلي، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، ص، 93. مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص ص، 215–216.

441 Kably, *Société, pouvoir…*, *op. cit.*, p. 126.

442 مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص، 219.

443 ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج. 3، ص، 175.

444 ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص، 92. ج. 7، ص، 168. الناصري، الاستقصا، ج. 4، ص، 32. الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 355.

445 ماجدة كريمي، العلاقات التجارية بين المغرب والسودان، ص، 151.

446 راجع للتفصيل، مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص ص، 330–414. محمد ياسر الهلالي، مجتمع المغرب الأقصى، س2، ص، 437–512.

447 مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص، 206.

448 محمد ياسر الهلالي، مجتمع المغرب الأقصى، س2، ص، 474. ماجدة كريمي، العلاقات التجارية بين المغرب والسودان، ص، 151.

449 مصطفى ناعمي، أهمية التجارة ...، ص، 171.

450 القبلي، مراجعات حول المجتمع والثقافة، ص، 20–81. مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص، 233.

451 انظر الحسين بولقطيب، الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى، س2، ص، 304.

452 ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص، 465.

453 المصدر نفسه، ص ص، 465–466.

454 مصطفى نشاط، جنوة وبلاد المغرب من سنة 609هـ إلى 759هـ/1212–1358م، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة، 1996–1997، ص، 150–151.

Dufourcq, *L'Espagne catalane …*, *op. cit.*, p. 136.

455 مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص، 225.

456 انظر عن معظم الحروب والمناوشات التي جمعت بين المرينيين وبني عبد الواد، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 310–311، 379. الذخيرة السنية، ص، 132. الملزوزي، نظم السلوك، ص، 125. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 111–112–115–126–128–147–148–162. ابن الأحمر، روضة النسرين، ص، 63. الناصري، الإستقصا، ج. 3، ص، 33. محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي، ص، 218–219. ماجدة كريمي، العلاقات التجارية بين المغرب والسودان، ص ص، 349–355.

Scanned by CamScanner

457 الناصري، **الإستقصا**، ج. 3، ص، 80.

458 ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 136–128. ابن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة**، ج. 4، ص، 481. أحمد بابا التنبكتي، **نيل الابتهاج**، ص، 242. الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 2، ص، 18.

459 انظر، مصطفى نشاط، **التجارة بالمغرب الأقصى**، ص، 229. مصطفى نشاط، **جنوة وبلاد المغرب**، ص، 85. محمد ياسر الهلالي، **مجتمع المغرب الأقصى**، س2، ص ص، 486–487.

460 ويقول ابن خلدون في هذا الصدد، أن مدينة المنصورة، «كانت أحد مدائن المغرب»، ولكن «خربها آل يغمراسن عند مهلكه [السلطان أبي يعقوب يوسف] وارتحال كتائبه عنها وطمسوا معالمها طمسا ونسفوها نسفا»، **العبر**، ج. 7، ص، 293. ثم إن أبا الحسن جدد بنائها، لكنها ما لبثت أن خربت من جديد. محمد المنوني، **ورقات عن حضارة المرينيين**، ص، 18.

461 انظر التفاصيل عند الكفيف الزرهوني، ملعبة. ابن الحاج النميري، **فيض العباب**. محمد عيسى الحريري، **تاريخ المغرب الإسلامي**، ص ص، 110–113، 125–127.

462 مصطفى نشاط، **التجارة بالمغرب الأقصى**، ص، 235.

463 ابن هلال، **الدر النثير**، ص، 310–376–377. ابن عباد النفزي الرندي، **الرسائل الصغرى**، تحقيق ونشر، بولس ربا اليسوعي، دار المشرق، بيروت، ذ.ت، ص ص، 66–68. الونشريسي، **المعيار**، ج. 4، ص، 54–110. ج. 7، ص، 43. ج. 10، ص، 125. القبلي، **مراجعات حول المجتمع والثقافة**، ص، 15–16. المليح السعيد، **التواصل الفكري والروحي بين المغرب الأقصى والمشرق الإسلاميين (مصر والحجاز)، أسسه ومظاهره، من بداية القرن السابع إلى أواخر القرن الثامن الهجريين**، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2005، ص، 170.

464 CANARD (Or), *Les relations entre les Mérinides et les Mamelouks*, A.I.E.O, 1939, p. 46.
نقلا عن مصطفى نشاط، **التجارة بالمغرب الأقصى**، ص، 240–241.

465 العبدري، **الرحلة**، ص، 4.

466 Kably, *Société, pouvoir…*, *op. cit.*, p. 164.

467 مصطفى نشاط، **التجارة بالمغرب الأقصى**، ص، 227.

468 محمد ياسر الهلالي، **مجتمع المغرب الأقصى**، س2، ص، 488.

469 مصطفى نشاط، **التجارة بالمغرب الأقصى**، ص، 230–236–237–238–239.

470 المرجع نفسه، ص، 247.

471 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

472 المرجع نفسه، ص، 252.

473 الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 317. ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 388.

474 Kably, *Société, pouvoir…*, *op. cit.*, p. 114.

475 البادسي، **المقصد الشريف**، ص، 62–75.

476 المصدر نفسه، ص، 75.

477 المصدر نفسه، ص، 61.

478 ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 247.

479 البادسي، **المقصد الشريف**، ص، 74–95–111–112–134. ابن خلدون، **التعريف بابن خلدون**، ص، 84. ابن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن**، ص ص، 149–150. ابن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة**، ج. 3، ص، 373. أحمد بابا التنبكتي، **نيل الابتهاج**، ص، 196.

480 الونشريسي، **المعيار**، ج. 5، ص، 103–213. وهبة الزحيلي، **آثار الحرب في الفقه الإسلامي**، ص ص،

Scanned by CamScanner

512-514.

[481] محمد فتحة، الأحكام والنوازل، ص، 509.

[482] Dufourcq, *L'Espagne catalane ..., op. cit.*, p. 574.

مصطفى نشاط، جنوة وبلاد المغرب، ص، 246-252. محمد ياسر الهلالي، مجتمع المغرب الأقصى، س2، ص ص، 499-500.

[483] وهبة الزحيلي، آثار الحرب في الفقه الإسلامي، ص، 512-514. مصطفى نشاط، نصوص مترجمة، ص، 143.

[484] الونشريسي، المعيار، ج. 6، ص، 67. ج. 5، ص، 103-213.

[485] ابن الحاج، المدخل، ج. 4، ص، 58. الونشريسي، المعيار، ج. 2، ص، 489. ج. 6، ص، 318.

[486] محمد فتحة، الأحكام والنوازل، ص، 512. مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص، 263-264، 302.

[487] مصطفى نشاط، نصوص مترجمة، ص ص، 142-143.

[488] مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص، 287.

[489] انظر، الونشريسي، المعيار، ج. 1، ص، 85. -436.

[490] محمد فتحة، الأحكام والنوازل، ص، 500.

[491] Kably, *Société, pouvoir..., op. cit.*, p. 96.

[492] مصطفى نشاط، الارتزاق المسيحي، ص ص، 117-135.

[493] محمد فتحة، الأحكام والنوازل، ص، 491.

[494] مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص، 302.

[495] انظر للتفصيل أحمد عزاوي، الغرب الإسلامي من خلال رسائله، ص ص، 203-272-684-699-700-712-713-714-718-720-756-757-783-784-817-437-1040 ... مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص ص، 292-301. جنوة وبلاد المغرب، ص، 85-92-96-97. محمد ياسر الهلالي، مجتمع المغرب الأقصى، س2، ص ص، 505-506.

[496] Dufourcq, *L'Espagne catalane ..., op. cit.*, p. 526.

[497] انظر عن ذلك بتفصيل، مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص ص، 254-314.

[498] انظر المرجع نفسه، ص، 287-290-291-302-303. محمد فتحة، الأحكام والنوازل، ص، 512-611.

Dufourcq, *L'Espagne catalane ..., op. cit.*, p. 465.
Khaneboubi, A., *Les premiers sultans mérinides, op. cit.*, p. 63.

[499] أحمد عزاوي، الغرب الإسلامي من خلال رسائله، ص، 684. محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، ص، 143.

[500] Dufourcq, *L'Espagne catalane ..., op. cit.*, p. 228.

[501] مصطفى نشاط، جنوة وبلاد المغرب، ص، 195.

[502] المرجع نفسه، ص ص، 195-196.

[503] مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص ص، 336-337.

[504] انظر، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ص، 313-374. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 254-255-256-259-260-261-262-271-272-274-275-276. محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي، ص، 238.

Scanned by CamScanner

505 مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص، 312.

506 المرجع نفسه، ص ص، 312–313.

507 Dufourcq, *L'Espagne catalane …, op. cit.*, p. 467.

508 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 125.

509 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 359.

510 المصدر نفسه، ص، 359.

511 أحمد عزاوي، الغرب الإسلامي من خلال رسائله، ص، 684.

512 المرجع نفسه، ص ص، 1271–1272. محمد ياسر الهلالي، مجتمع المغرب الأقصى، س2، ص، 441.

513 مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص ص، 407–414. جنوة وبلاد المغرب، ص ص، 252–267. نصوص مترجمة، ص ص، 164–168. محمد ياسر الهلالي، مجتمع المغرب الأقصى، س2، ص، 498–501.
AZNAR Vallejo Eduardo, *Course et piraterie dans les relations entre la Castille et le Maroc au Moyen Âge*, in colloque L'Occident Musulman et L'Occident Chrétien au Moyen Âge, Publications de la Faculté des lettres, Rabat, 1995, pp. 64-65.

514 Dufourcq, *L'Espagne catalane …, op. cit.*, p. 574.

515 مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص، 407. ويضيف في هذا الصدد أن «مما ساهم في نشاط القرصنة مع نهاية العصر الوسيط أن أصداء الحروب الصليبية لا زالت تدوي بالمنطقة. الشيء الذي جعل العلاقات بين الأوربيين والمغاربة تظل باستمرار ملونة بذلك العداء الذي كان يطبع العلاقات بين الدارين الإسلامية والمسيحية»، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

516 مصطفى نشاط، جنوة وبلاد المغرب، ص، 252–264.
AZNAR Vallejo Eduardo, *Course et piraterie…, op. cit.*, pp. 68-69.

517 ويضيف عوامل أخرى منها أن القانون الدولي اعتبر القرصنة أسلوبا مشروعا أثناء الحروب الصليبية، وافتقار الدول الأوروبية لأسطول حربي يدافع عن الأسطول التجاري. مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص، 408.

518 مصطفى نشاط، جنوة وبلاد المغرب، ص، 253.

519 انظر للتفصيل، المرجع نفسه، ص ص، 252–267.

520 مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص، 409.

521 Dufourcq, *L'Espagne catalane …, op. cit.*, p. 466.

522 مصطفى نشاط، التجارة بالمغرب الأقصى، ص، 409.

523 محمد ياسر الهلالي، مجتمع المغرب الأقصى، س2، ص، 498.

524 محمد الشريف، دور الأسطول السبتي في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط (القرن 12م–14م)، ضمن نصوص جديدة ودراسات في تاريخ الغرب الإسلامي، منشورات مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي، جامعة عبد الملك السعدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مطبعة الحداد يوسف إخوان، تطوان، ط. 1، 1996، ص، 114.

525 أحمد عزاوي، الغرب الإسلامي من خلال رسائله، ص، 718–720.

526 المرجع نفسه، ص، 887. رشيد السلامي، وثائق مرينية، مراسلات، معاهدات، ظهائر. دراسة وتحقيق، بحث لنيل د.د.ع، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1990، ج. 2، ص ص، 208–214. محمد ياسر الهلالي، مجتمع المغرب الأقصى، س2، ص، 500.

527 مصطفى نشاط، جنوة وبلاد المغرب، ص، 254.

528 Dufourcq, *L'Espagne catalane …, op. cit.*, p. 455.

Scanned by CamScanner

529 محمد ياسر الهلالي، **مجتمع المغرب الأقصى**، س2، ص، 499.

530 مصطفى نشاط، **التجارة بالمغرب الأقصى**، ص ص، 413-414.

531 البادسي، **المقصد الشريف**، ص، 74-95-111-112-134. ابن خلدون، **التعريف بابن خلدون**، ص، 84. ابن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن**، ص ص، 149-150. ابن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة**، ج. 3، ص، 373. أحمد بابا التنبكتي، **نيل الابتهاج**، ص، 196.

532 Dufourcq, *L'Espagne catalane…*, *op. cit.*, p. 164.

533 مصطفى نشاط، **جنوة وبلاد المغرب**، ص، 255.

534 أحمد عزاوي، **الغرب الإسلامي من خلال رسائله**، ص، 832-835.

535 المرجع نفسه، ص ص، 1106-1107.

536 AZNAR Vallejo Eduardo, *Course et piraterie…*, *op. cit.*, p. 67.

537 مصطفى نشاط، **جنوة وبلاد المغرب**، ص ص، 195-196.

538 المرجع نفسه، الصفحة نفسها. مصطفى نشاط، **نصوص مترجمة**، ص ص، 143-144.

539 أحمد عزاوي، **الغرب الإسلامي من خلال رسائله**، ص، 888. محمد ياسر الهلالي، **مجتمع المغرب الأقصى**، س2، ص، 439، هـ، 12.

540 مصطفى نشاط، **جنوة وبلاد المغرب**، ص، 196.

541 محمد القبلي، **مراجعات حول المجتمع والثقافة**، ص، 60. عبد القادر جغلول، **الإشكاليات التاريخية**، ص، 115.

542 ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 200.

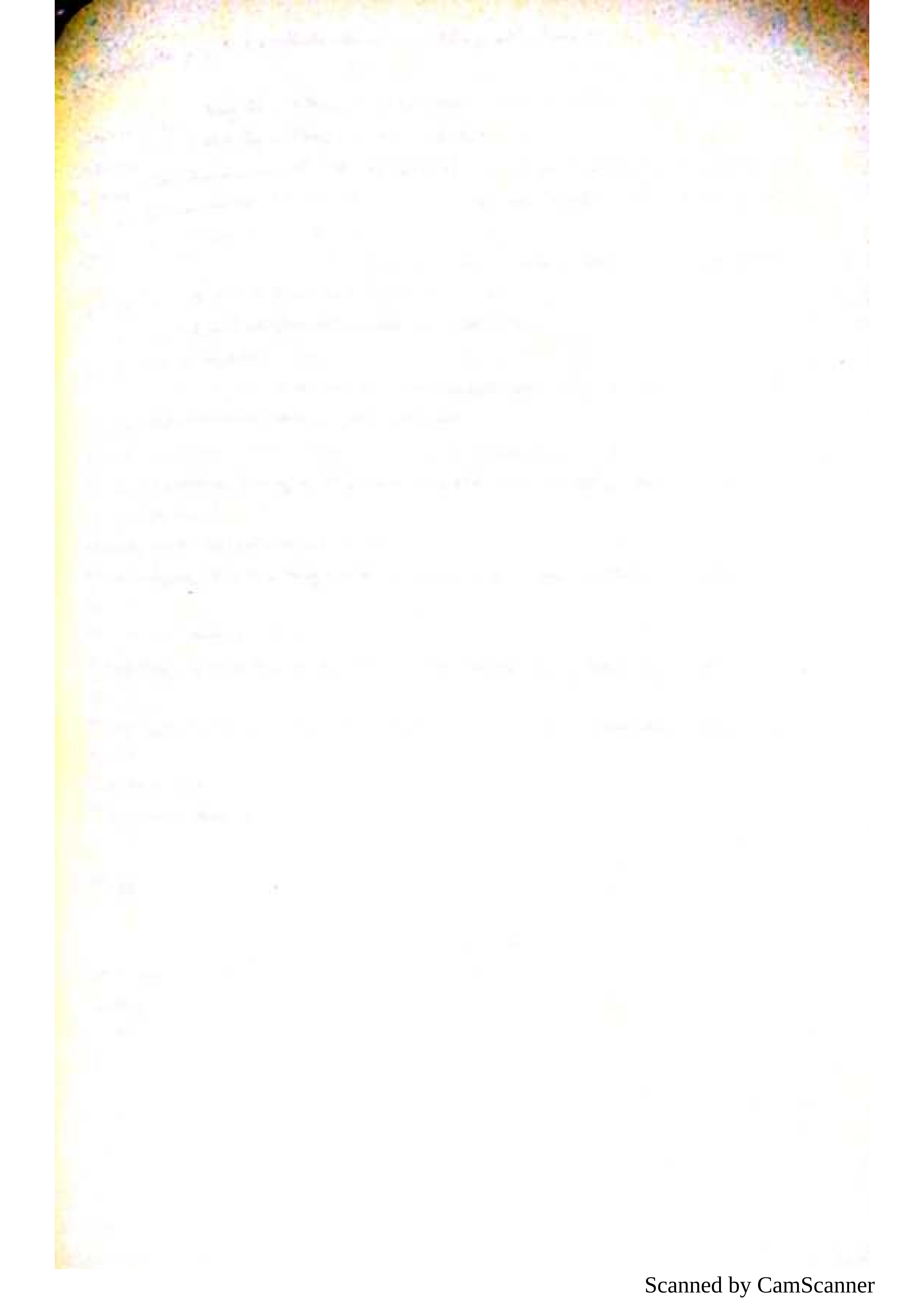
543 محمد القبلي، **مراجعات حول المجتمع والثقافة**، ص، 60. مصطفى نشاط، **التجارة بالمغرب الأقصى**، ص، 334.

544 مصطفى نشاط، **جنوة وبلاد المغرب**، ص، 195-196. محمد ياسر الهلالي، **مجتمع المغرب الأقصى**، س2، ص، 439.

545 المرجع نفسه، ص، 240.

546 ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 25.

Scanned by CamScanner



Scanned by CamScanner

الباب الثاني

آثار الحرب في المجتمع والذهنيات بالمغرب الأقصى خلال العصر المريني

Scanned by CamScanner

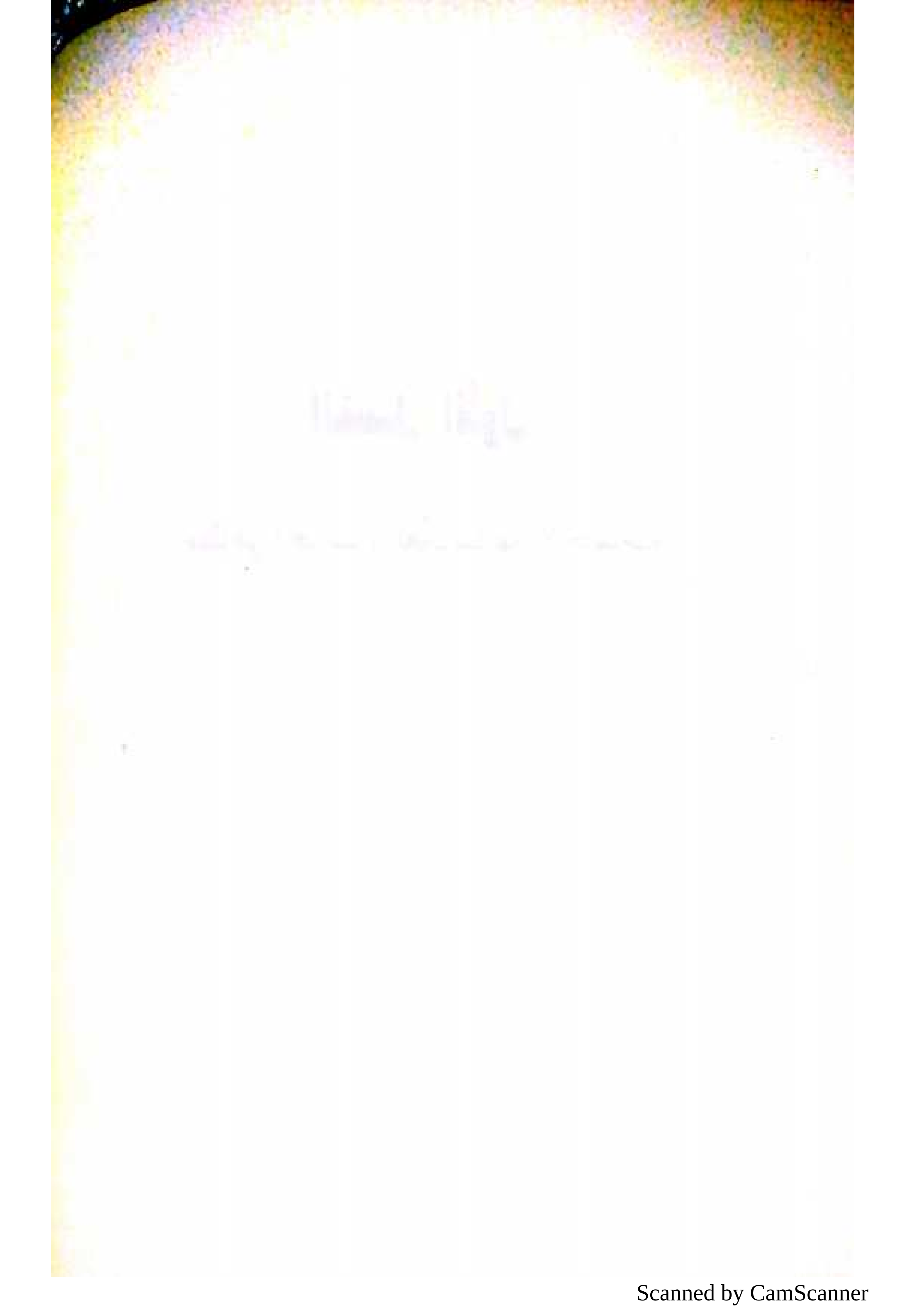


Scanned by CamScanner

الفصل الأول

مظاهر الحرب وانعكاساتها الاجتماعية

Scanned by CamScanner



Scanned by CamScanner

المبحث الأول: مظهر القتل الجماعي وانعكاساته الديموغرافية

ملاحظات أولية

قد يكون من الأجدر أن نشير منذ البداية إلى إشكال معرفي يعترض سبيل كل من يروم الخوض في موضوع الديموغرافية وتفرعاته خلال الفترة الوسيطية عموماً، وفي العصر المريني على وجه الخصوص. ويتعلق الأمر بـ «أزمة الرقم»[1] التي تتخبط فيها مصادر الفترة المدروسة؛ فالأرشيف المغربي يبدو فقيرا، ويكاد يخلو من أي مستند إحصائي يرتكز عليه الباحث، وهو أمر يرد إلى عدم توفر تقنيات إحصائية في الحقبة الوسيطية لرصد منحنيات الوضع الديموغرافي، وإلى عدم تطور الإدارة المغربية وعجزها عن تقديم إحصائيات ولو تقريبية.[2]

واعتباراً لأهمية الدراسات الديموغرافية في فهم آليات التطور الاقتصادي والاجتماعي للمجتمع مدار الدرس، فلا محيد من الاهتمام بهذا المجال، ولو في إحدى جزئياته، ويتعلق الأمر بالعوامل المؤثرة في الوضعية الديموغرافية. ولا شك أن المتأمل في نصوص الفترة يستشف، ودون عناء، أن الحروب كانت من أهم هذه العوامل، بل قد لا نبالغ إن قلنا إن الحرب والجوائح الطبيعية تبادلت الأدوار خلال هذه المرحلة لتعصف في النهاية بالوضعية الديموغرافية.[3]

ويبدو أن تتبع هذه الآثار وتبينها في العصر المريني يطرح أكثر من مشكل؛ فندرة النصوص، والطابع التعميمي والانطباعي الذي يلف المتوفر منها، وغياب التقدير الرقمي في كثير من الأحيان.[4] كلها مشاكل تجعلنا نتحفظ أكثر في اتخاذ هذه الخطوة، لكنها لا تثبط عزيمتنا في استغلال المتوفر من النصوص، لإبداء بعض الملاحظات حول الانعكاسات الديمغرافية لظاهرة الحرب التي استفحلت في هذه المرحلة.

إن أول ملاحظة في الموضوع، تتعلق بالمصادر التي استقينا منها مادتنا، وتتمحور أساسا في افتقارها للنصوص التي تكشف عما تخلفه كل حرب أو غارة من قتلى وضحايا. فالمتوفر منها يبدو مقتضبا وضئيلا؛ ذلك أن مؤرخي المرحلة المدروسة كثيراً ما يمرون عليه سريعا ويقتضبونه اقتضابا كما لو أن لا فائدة من الإطالة فيه، لأن الأهم هو تحديد الطرف الغالب، وكثيراً ما يأخذ الإسهاب إذا وقع صيغا أدبية لسرد فعل الغزوة وأثرها في المغلوب، لذلك نجد صمتا يكاد يكون مطبقا عن عدد الضحايا. وعموماً، فالنصوص المتوفرة في

Scanned by CamScanner

معظمها انطباعية خالية من الأرقام،[5] بل تبدو انطباعاتها مجرد لازمة ترددها في كل حالة حرب أو غارة وإن تغيرت المفردات والتعابير، كما سنلاحظ في هذه النماذج:

جدول رقم 8: عينة لبعض النصوص عن دور الحرب في التراجع الديموغرافي

النص	الحدث والسنة	المصدر والصفحة
فهزموا جيوش الموحدين (...) فقتلوهم قتلا ذريعاً	هزيمة المشعلة سنة 613هـ/1214م	«الذخيرة السنية»، 28
وكثر القتلى في الفريقين والجراح، وقتلت مرين منهم خلقاً عديداً	بين بني مرين ورياح سنة 614هـ/1217م	«الذخيرة السنية»، 34. «الأنيس المطرب»، 288
ومن حاد عن طاعته ونابذه أباده نهبا وقتلا وغادره صريعاً.	حملات عثمان بن عبد الحق في المغرب ما بين 616 و 638هـ/1219-1240م	«الذخيرة السنية»، 36.
غزا من بفحص ازغار من قبائل العرب والبربر، فأبادهم وخلت البلاد منهم	حملة عثمان بن عبد الحق سنة 620هـ/1223م.	«نبذة من تاريخ المغرب الأقصى»، 129.
قتل الأمير أبو بكر بن عبد الحق كثيراً من عرب رياح	سنة 643هـ/1245م	«الذخيرة»، 67.
إن النصارى دمرهم الله تعالى دخلوا مدينة سلا غدراً، فقتلوا رجالها	سنة 658هـ/1259م	«الذخيرة»، 93 «الأنيس»، 300.
فقتل منهم خلقا كثيراً (...) وأمر بقطع رؤوسهم.	غزوة يوسف بن يعقوب ضد عرب درعة سنة 686هـ/1287م.	«الذخيرة»، 378 «العبر»، ج. 7، 251.
فاستلحم منهم أمما بمراكش وأغمات.	رد فعل أبي ثابت عامر بعد إخماده تمرد يوسف بن أبي عياد بمراكش سنة 707هـ/1307م	«العبر»، ج. 7، 279.
فكانت الهزيمة التي سحق الله بها المسلمين وأهلكت نفوسهم.	هزيمة طريف 741هـ/1340م.	«شرح رقم الحلل»، 276.

وعبر هذه المقتطفات التي أوردناها في الجدول، نحس بعملية تضخيم الخسائر من خلال تمجيد القوة الغازية؛ لأنها تمثل في غالب الأحيان في بني مرين، خاصة وأن معظم المصادر التي وفرت هذه النصوص كانت تعبر عن خطابها الرسمي.[6] وإذا كانت ميزة التضخيم والمبالغة في الخسائر تبدو ضئيلة في الحالات التي أوردناها، فإن الأمر يبدو أكثر تعقيداً في تحديد الخسائر البشرية التي تكبدها الجيش المريني في معاركه الخارجية، خاصة في الواجهة الأندلسية.

Scanned by CamScanner

ومما يعضد هذه الملاحظة بعض النصوص التي تنبعث منها رائحة المبالغة والتهويل في تحديد خسائر الطرف المسيحي، في مقابل التهوين من خسائر المرينيين. ولنا فيما أورده ابن أبي زرع عن حملة يعقوب بن عبد الحق في الأندلس سنة 674هـ/1275م، وهزيمة القشتاليين أمامه بالقرب من إستيجة مثال ساطع في هذا الصدد؛ إذ يذكر أن قتلى الروم في هذه المعركة بلغ عددهم «ثمانية عشر ألف رأس ونيف».[7] أما من قتل من جيش بني مرين، فبعد إحصائهم «وجد تسعة من نفر بني مرين، وخمسة عشر من العرب والأندلس، وثمانية من المتطوعين».[8] وذلك على ما يبدو، تنقيص واضح في الخسائر من قبل صاحب هذا النص.

ولم يكن المنحى الوصفي–الانطباعي للمصادر الوسيطية وحده العائق في تتبع منحنيات الموضوع، بل إن الباحث يتمنى لو جادت هذه المتون حتى بانطباعات ونتف شاردة بالنسبة لبعض المراحل التاريخية من عمر الدولة المرينية، وبخاصة المرحلة الأخيرة منها، إذ بقدر ما يصادف نصوصاً تحيل إلى الخراب والانهيار الديموغرافي الذي ميز هذه المرحلة، فإنه يعجز عن تحديد موقع الحرب ضمن عناصر ذلك الوضع وأسبابه.

وكيفما كان الحال، فإن هذه الملاحظات تجعلنا لا نجد حرجا في القول إن دراسة أثر الحروب في الوضعية الديموغرافية لن تخرج عن موقع الوصف والانطباع والتعميم، لكن النتيجة المؤكدة، في نظرنا، أن الحرب بحضورها المتفاحش في هذه المرحلة كانت لها آثار ديموغرافية،[9] لعل أقلها تزايد معدل الوفيات بصورة غير طبيعية.

أولا: الحروب وحالة «الاسترخاء الديموغرافي»

لا مراء في أن الحرب تعرض في كل مرة مظاهر عدة، إلا أن القتل الجماعي للناس، والنزف المزدوج للرجال والثروات، يظل أبرز مظهر لها لدرجة يمكن اعتباره جوهر الظاهرة نفسها، ما دام أن المظاهر التدميرية الأخرى في الاقتصاد والمجال والبيئة يمكن أن تختفي.[10] وإذا كانت الوظيفة الدائمة للحرب هي «الدمار»،[11] فإن النتيجة المباشرة لها كانت تحدث في التركيب الديموغرافي؛ لأنها تسبب في جميع الأحوال توقفا في النمو السكاني لفترة طويلة أو قصيرة، فينحرف المنحنى المتصاعد أو ينقطع، لذا اقترحنا أن نطلق على هذه الوضعية –التي تتلو بالضرورة كل حرب– حالة «الاسترخاء الديموغرافي»،[12] وتتلخص في ارتفاع غير طبيعي في الوفيات، وفي الغالب انخفاض موقت على الأقل في المواليد.

Scanned by CamScanner

1. الحرب والزيادة غير الطبيعية في الوفيات

إن الزيادة في الوفيات خاصية ديموغرافية ثابتة وعامة للحروب، إلا أن هذه الزيادة تتغير تبعا للأحوال، ولأوجه الصراع ذاته، وكذا بحسب نتيجته، وتظل هذه الزيادة أيضا مرتبطة ومتناسبة مع التراكيب الاجتماعية، ومع العقليات، والسلوك الذي يمليها.[13] وفي كل الأحوال، فإن الحروب التي شهدها المغرب المريني أفضت إلى زيادة غير طبيعية في أعداد الوفيات، وتبادلت الأدوار مع العلل غير الواعية وغير الإرادية للوفيات (المجاعات والأوبئة) لتعصف في النهاية بالمنحنى الديموغرافي. ويمكن أن نتبين هذه الحقيقة في مرحلة التمهيد وبناء الدولة المرينية، ومرحلة الانهيار التي ابتدأت بوفاة السلطان أبي عنان سنة 759هـ/1358م.

أ. في مرحلة التمهيد والبناء (610-668هـ/1213-1269م)

لا مراء في أن اقتحام المرينيين لبلاد المغرب الأقصى في أواخر العقد الأول من ق7هـ/13م، قد اقترن بتعرض البلاد لأزمة ديموغرافية عنيفة أفرغته من ساكنته، وفسحت المجال لبني مرين لتعمير هذا الفراغ، ويتعلق الأمر بهزيمة العقاب سنة 609هـ/1212م.[14] وأبرز دليل على قسوة نتائجها على الجانب المغربي أن المصادر الوسيطية أبدت انفعالا واضحاً اتجاهها دون استثناء[15]؛ يذكر ابن أبي زرع[16] أن بني مرين «وجدوا المغرب خاليا قد باد أهله ورجاله، وفني خيله وحماته وأبطاله، وقتلت قبائله وأقياله، قد استشهد الجميع في غزوة العقاب، فأقفرت البلاد، فعمرها البوم والسباع والذئاب».

وحسب رواية المؤرخ نفسه،[17] فقد قتل من المسلمين خلال هذه الهزيمة حوالي مائة وستين ألف (160000) من المتطوعة، وعشرة آلاف (10000) من العبيد، وهو رقم على ما يبدو يقارب الأوصاف والانطباعات التي قدمتها المصادر عن فراغ المغرب جراء هذه الهزيمة، مما يجعله أقرب إلى الصحة. وقد اعتبر أحد الباحثين[18] هذه الهزيمة، وما تلاها، بداية للتدهور والانهيار الديموغرافي، وكذا الاقتصادي والاجتماعي الذي شهده المغرب خلال القرنين 7 و8هـ/13 و14م.

لم تكن هذه الهزيمة وحدها سببا في هذا الانهيار الديموغرافي؛ بل مثلت بداية لسلسلة طويلة من الحروب والفتن كانت نتائجها على المستوى الديموغرافي واضحة؛ فنتيجة فراغ المغرب عقب هذه الهزيمة دخلت قبائل بني مرين إليه، «فكثر عيثهم وضررهم بالمغرب،

Scanned by CamScanner

وأعظل داؤهم، وتضاعف على الرعية بلاؤهم».[19] وقد أبدت مصادر المرحلة ردود فعل واضحة عما ميز اجتياح هذه القبائل من عنف وتقتيل[20]؛ إذ تذكر بعض النصوص أن كل «من نابذهم قاتلوه وقصموه»،[21] وأن جيوشهم خلال فترة مهمة من ق 7هـ/13م كانت «رائحة غادية، تستأصل ما ألفته بسيوفها».[22]

والظاهر أن الحروب التي نشبت بين بني مرين والموحدين أفضت إلى سقوط كثير من القتلى، وكانت أول هزيمة لهؤلاء أمام الحشود المرينية سنة 613هـ/1216م حين «قتلوهم قتلا ذريعا، وفر من أفلت منهم تحت ظلام الليل خائفا جزوعاً»،[23] وبسبب هذه الهزيمة «فني أشرافهم وقتل حماتهم وأنصارهم».[24] ويبدو من خلال استعراض لائحة القبائل التي شاركت في هذه المعركة مدى جسامة الخسائر البشرية التي مست مختلف هذه القبائل؛ فقد شاركت فيها «مكناسة وتسول والبرانس، وسدراتة وهوارة وصنهاجة وفشتالة ولمطة وغيرهم من قبائل فاس وقبائل الرباط».[25] ولا يستبعد أن تكون هذه الخسائر وراء خضوع هذه القبائل المبكر لسلطة بني مرين، إذ لم تلبث أن أعلنت طاعتها مقابل دفع الإتاوة.[26]

ومباشرة بعد هذه الوقعة قاد المرينيون حملة ضداً على أعراب رياح سنة 614هـ/1214م، «فاشتدت الحرب بينهم وكثر القتل في الفريقين والجراح، وقتلت مرين خلقا عديداً منهم»،[27] ولا شك أن الفريقين معاً قد فقدا أعداداً هامة من أفرادهما، اعتبارا لما أبدته مصادر المرحلة من انطباعات عن عنف هذا الصراع وقوته.[28]

وبالمثل، تعرضت مجموعة من القبائل لغزو بني مرين وغاراتهم، مما أسفر عن عدد كبير من القتلى في صفوفها؛ تذكر المصادر أن عثمان بن عبد الحق ابتداء من سنة 616هـ/1219م انطلق «يشق بلاد المغرب بجيوش مرين الوافرة (...)، فمن سارع إلى بيعته أمنه (...)، ومن حاد عن طاعته ونابذه أباده نهبا وقتلا، وغادره صريعاً».[29] وخلال هذه الأحداث، تعرضت بلاد فازاز ومن بها من القبائل لإثخان بني مرين حتى أذعنت لطاعتهم،[30] كما غزا عثمان بن عبد الحق «من بفحص أزغار من قبائل العرب والبربر (...)، فأبادهم وخلت البلاد منهم»،[31] ولم يزل ذلك دأبه مع غيرها من القبائل «حتى هلك باغتيال عجله سنة 637هـ/1239م».[32]

وفي حملة أخرى لبني مرين على قبائل رياح قتل خلق كثير منهم،[33] كما تعرضت بلاد تادلة لغزوهم؛ فحمل عليها أبو بكر بن عبد الحق، و«استباح حاميتها من بني جابر من

Scanned by CamScanner

عرب جشم، واستلحم أبطالهم».[34] ويستشف من بعض هذه النصوص أن القبائل كانت تسارع للإذعان لطاعة بني مرين تفاديا لوقوع مزيد من القتلى في أفرادها، وحسبنا أن رضوخ رياح وإذعانهم لطاعة بني مرين لم يتم إلا بعد أن «رأت ما نالها من القتل والسبي والغارات».[35]

علاوة على ذلك، استمرت حروب المرينيين على بقايا الموحدين، وفي معظم الحالات تتحدث المصادر عن سقوط العديد من القتلى خاصة في صفوف الموحدين.[36] كما أن المعارك التي خاضها بنو مرين ضداً على بني عبد الواد قد أفضت بدورها إلى وقوع بعض القتلى، وإن كانت النصوص المتوفرة لا تلمح إلا إلى قتلى بني عبد الوادي،[37] إلا أننا لا نستبعد أن يفقد الجيش المريني أيضاً في حملاته التمهيدية هذه جملة من أفراده.

على أن الأمر لم يقتصر على حملات بني مرين وحدهم، بل كانت للحروب التي اندلعت بين الأمراء الموحدين المتأخرين آثار بالغة على عدد السكان، ومن ذلك ما حدث أثناء الصراع بين المأمون ويحيى بن الناصر سنة 626هـ/1228م، حيث «قتل فيهم من الموحدين وأتباعهم من العرب وأشياعهم أمم لا تحصى ولا تكاثر بالحصى».[38] وأثناء دخول المأمون لمراكش جمع «جميع أشياخ الموحدين وأشرافهم، فقتلوا عن آخرهم و لم يبق منهم على أحد، و لم يراع والداً ولا ولداً (...) ثم أمر بتعليق الرؤوس على أسوار المدينة، فعلقت بدائرتها. وكانت جملتها أربعة آلاف وستمائة رأس».[39] وفي رواية أخرى، فإنه قتل من «رجال أولئك القبائل آلاف لا تحصى».[40]

وكان لاقتحام المسيحيين لبعض المدن المغربية خلال هذه المرحلة أثر واضح في تناقص عدد سكانها. ومما يزكي هذا الطرح ما تؤكده رواية لابن عذاري،[41] عن الإقتحام القشتالي لسلا (658هـ/1259م) حيث «استولوا بالغدر عليها وقتلوا من وجدوا من الرجال، وأسروا النساء والأطفال، وحصروهم في الجامع الكبير مأسورين، وفي نفوسهم مقهورين، فكانوا يعيثون في النساء والأبكار، ويقتلون الشيوخ والعجائز الكبار، فسفكوا الدماء وهتكوا الأستار»، كما اقتحم النصارى في حدود سنة 668هـ/1269م «حصن العرائش وحصن تشمس بالسيف، فقتلوا الرجال وسبوا النساء والأموال وأحرقوها».[42]

والظاهر أن المجاعات التي عصفت بالمغرب الأقصى خلال هذه الفترة –والتي شكل بعضها أصداء أو توابع وانعكاسات لهذه الحروب[43]– أسهمت هي الأخرى في تدهور

Scanned by CamScanner

المنحى الديموغرافي وتراجعه.[44] ولا تعوزنا القرائن الدالة على صدق هذا القول؛ ففي أيام عثمان بن عبد الحق «كانت المجاعة والوباء الشديد والخوف والفتن، فخلى أكثر بلاد المغرب»،[45] كما تحدثت نصوص الفترة عن «المجاعة التي خلا منها المغرب»، وأخرى «خلت الأمصار من أهلها»[46] نتيجة ثقلها، وعن مجاعة «أهلكت أمما لا تحصى»،[47] وأخرى «قتل عدد كثير»[48] من الناس فيها. وفي أقصى الحالات، مجاعة سنة 635هـ/1237م التي «أكل الناس [فيها] بعضهم بعضا، وكان يدفن في الحفير الواحد المائة من الناس».[49]

إن هذه النصوص على ضآلتها وما ميزها من انطباعية، تحمل الكثير من الدلالات حول الانتكاسة الديموغرافية التي عرفها المغرب الأقصى خلال هذه المرحلة، وتتفق مع ما تفطن إليه ابن خلدون[50] في تفسيره لظاهرة كثرة الموتان في المراحل الانتقالية بين الدول؛ حين أثبت أن مرد ذلك إلى ما يقع في مثل هذه المرحلة من العدوان في الأموال والجبايات وكثرة الفتن والحروب والاضطرابات. وإذا كانت الأرقام والنصوص المتوفرة الموضحة لهذه الرؤيا نادرة، فإن ما يمكن تأكيده هو أن تفشي الظاهرة الحربية، كما تبين في الفصول السابقة من هذا البحث، لا يمكن إلا أن تكون لها انعكاسات ديموغرافية، على الأقل؛ لأنها تسببت في تزايد عدد الوفيات بشكل غير طبيعي.

ب. في مرحلة التراجع والانهيار (759-869هـ/1357-1465م)

إذا كانت المرحلة التي تلت اقتحام المرينيين للعاصمة الموحدية مراكش إلى حدود وفاة السلطان أبي عنان تميزت بنوع من النمو الديموغرافي، كما سنبين فيما بعد، فإن فترة التراجع والانهيار التي أعقبت وفاة هذا السلطان، وإلى حدود نهاية هذه الدولة دخلت فيها البلاد مرحلة من الضعف الشامل، فاستعرت فيها الحروب والاقتتال الداخلي بطول البلاد وعرضها، وانقطع معها حبل الأمن وكثرت غارات القبائل، مما خلف تناقصا ملحوظا في منحنى الوضع الديموغرافي.

عندما نتفحص واقع المغرب في هذه الفترة، نجد أنها كانت واحدة من الفترات الحرجة في هذا العصر، فقد امتدت على مساحة زمنية ليست بالقصيرة، شهدت البلاد خلالها مختلف الظواهر التي أشرنا إليها سلفا؛ فقد أضحت السلطة المرينية ضعيفة، وسادت النزعات الانتزائية بقوة،[51] واضطربت الفلاحة بل توقفت في أماكن عدة،[52] كما اندرست السبل وأصبح الانفلات الأمني سيد الفترة،[53] مما أفضى إلى «كثرة الموتان والمجاعات».[54]

Scanned by CamScanner

وعلى الرغم من أن المادة المصدرية لا تجود بقليل ولا كثير حول أثر الحرب في الوضع الديموغرافي المنهار خلال هذه المرحلة، ولا تكشف عن عدد القتلى في معاركها، فإننا نستطيع القول إنها شكلت عنصراً أساساً ضمن مجمل العناصر التي عصفت بهذا الوضع. ونستطيع من خلال نموذج الفترة الممتدة من 800 إلى 823هـ/1397–1420م وما بعدها، التي تميزت بحروب أبي سعيد الثالث،[55] أن نتبين بعضا من هذه الخلاصة.

فقد أفضت الحروب التي خاضها هذا السلطان إلى تحول المناطق البدوية إلى مسرح للعمليات العسكرية،[56] وغارات القبائل،[57] وأضحت شبه خالية من سكانها؛ فبعضهم قتل، والبعض الآخر شرد ولاذ بالمرتفعات،[58] كما أصبحت المدن مجالا لتحصن ذوي النزعات الاستقلالية والإنتزائية،[59] ومن ثمة مسرحاً للحصارات والغارات المستمرة عليها[60] إلى أن خرب قسم كبير منها،[61] وحسبنا أن ما دمر تماماً بحوز فاس، على سبيل المثال، حسب أحد الباحثين[62] بلغ حوالي عشر مدن وأزيد من ألف ومائتي قرية أصبح معظمها خاليا ومندرساً، مما يشي بتناقص ملحوظ في أعداد السكان.

ونتيجة لهذه الأوضاع التي تبادلت فيها الحروب السلطانية وغارات القبائل المحاربة، فضلا عن الأوبئة والمجاعات، الأدوار في رسم صورتها القاتمة، «انقلبت أحوال المغرب (...)، وتبدلت بالجملة (...)، وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أحوالها، وانتقض عمران الأرض بانتقاض البشر، فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم، وخلت الديار والمنازل، وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن».[63] وفي هذه العبارات التي وصف بها ابن خلدون الفترة مدار الدرس ما يفصح عن انهيار عمراني وديموغرافي، وعن مشهد متفكك ومتصدع، لا نشك في أن مؤرخنا كان يدرك تماما أن الحروب أسهمت بقسط وافر في إنتاجه، فهو يؤكد في موضع آخر من مقدمته أن «كثرة الموتان (...) لها أسباب، من كثرة المجاعات (...) أو كثرة الفتن لاختلال الدولة، فيكثر الهرج والقتل، أو وقوع الوباء».[64]

حصيلة القول، إن النصوص المعتمدة بالرغم من أهميتها في إضاءة الجوانب المعتمة من التاريخ الديموغرافي، فإنها تبقى تقريبية فحسب، ولا ترقى إلى مستوى النصوص الإحصائية المدققة التي يفتقر إليها الأرشيف المغربي لهذه المرحلة. ومع ذلك فهي تحمل الكثير من الدلالات حول الانتكاسة الديموغرافية التي عرفها المغرب منذ بداية ق7هـ/13م.

Scanned by CamScanner

2. الحرب والانخفاض غير الطبيعي في المواليد

كثيرة هي القرائن التي تؤكد أن الحروب التي استفحلت في مغرب هذه المرحلة، وعلى غرار دورها في الرفع من أعداد الوفيات، خفضت أيضا من أعداد المواليد ونسبة الإنجاب، وعطلت السير العادي للنمو الديموغرافي، وأخلت بتوازنه لفترات طويلة من العصر، وعمقت مما وسمناه بحالة «الاسترخاء الديموغرافي»، ولذلك أسباب عدة نجملها فيما يلي:

أ. الحرب والموت، وانتقاء الرجال دون النساء

عادة ما تقوم الحرب في وظيفتها التدميرية للأنفس خاصة، بانتخاب أقوى الرجال وأنضرهم شبابا، وتفضي إلى هلاكهم دون الفئات العمرية الأخرى، وبصفة أكثر حدة دون النساء.[65] فالحرب تعمل بأسلوب انتقائي للفئات النشيطة، فتختار في الغالب الرجال صغار السن والقادرين على العمل والزواج والإنجاب ليكونوا أبرز قتلاها، مما يؤثر لا محالة في البنى السكانية والاقتصادية والاجتماعية.

ولا غرو، فالمتصفح للنصوص المتوفرة حول الانعكاسات الديموغرافية للحرب بمغرب العصر المريني يكشف دون عناء عن ثنائية رددتها المصادر في عرضها لنتائج كل معركة أو حملة أو غارة، وهي قتل الرجال، وسبي النساء أو إطلاق سراحهن، مما يعني أن الفئة الأكثر عرضة للموت هي فئة الرجال. وإليك هذه العينة من النصوص لإثبات ذلك.

جدول رقم 9: التفاوت الجنسي أمام الموت في حروب العصر المريني

النص	إطاره التاريخي	المصدر والصفحة
أذعنت رياح لطاعة بني مرين بعد ما «رأت ما نالها من القتل والسبي والغارات»	هزيمة رياح أمام بني مرين سنة 614هـ/1217م	«الذخيرة السنية»، ص: 35.
«استباح حاميتها من بني جابر (...) واستلحم أبطالها»	أبو بكر المريني أثناء تمهيد بلاد تادلة	«الإستقصا»، ج. 3، ص: 18
«قتلوا ما وجدوا من الرجال، وأسروا النساء والأطفال»	حملة القشتاليين على سلا سنة 658هـ/1259م	«البيان المغرب، قسم الموحدين»، ص: 419
«فغزا بها عرب الخلط، فأكلهم، وسبى حريمهم»	حملة يعقوب ابن عبد الحق على عرب الخلط سنة 667هـ/1268م	«نبذة من تاريخ المغرب الأقصى»، ص: 137.
«فقتل من العرب خلقا كثيرا، وسبى نساءهم وأموالهم»	حملة يعقوب بن عبد الحق على عرب درعة سنة 669هـ/1270م	«الذخيرة السنية»، ص: 307

Scanned by CamScanner

«فقتلوا المقاتلة، وسبوا الرعية»	حملة يعقوب بن عبد الحق على عرب المنبات	«العبر»، ج. 7، ص: 101
«واستلحم بها (...) قتلا وسبيا لتمسكها بطاعة ابن أبي العلاء»	حملة أبو ثابت عامر على غمارة لتمرد ابن أبي العلاء بها	نفسه، ص: 279
«وأثار فيهم بالإحن القديمة، فأثخن فيهم بالقتل والسبي»	حملة أبي ثابت عامر على عرب أزغار سنة 707هـ/1307م	«الذخيرة السنية»، ص: 35

ومما أسهم في تكريس هذا الوضع، الأعداد الهائلة من الجنود الذين كانت الدولة تحملهم إلى الأندلس أو إفريقية أو المغرب الأوسط،[66] وتميزت معظمها بغياب العنصر النسوي إلا ما تعلق بالسلطان والحاشية،[67] وهو ما يعني أن الهزائم التي تعرض لها الجيش المريني، وأعداد القتلى الذين فقدهم فيها كانوا من الرجال فقط. وحتى إذا ما سلمنا بحضور نسبي للنساء في جيوش المرينيين، فإن الثنائية التي رددتها المصادر حول قتل الرجال وسبي النساء نجدها حاضرة أيضا في كل هزيمة على حدة.

عموما، فلما كان التقتيل يطال – في الغالب – الرجال دون النساء، فإن من شأن ذلك أن يسهم في خلخلة التوازن الديموغرافي، وتمييع الحياة الاجتماعية باتساع قاعدة النساء،[68] وانتشار ظاهرة العنوسة،[69] وتراجع نسبة الزواج والولادات، وتلك مواضيع أخرى لبحوث نرجو أن تتجه أقلام الباحثين للإجابة عن بعض إشكالياتها.

ب. تراجع نسبة الزواج والإنجاب

ومما يعزز هذا التخريج ويقربه إلى مستوى الحقيقة، ما ميز فترات الحروب– وما صاحبها من غياب للأمن وكثرة للقلاقل، فضلا عن الغياب المستمر للأزواج بقصد الغزو[70]– من توقف في عملية التزايد والتناسل. وهو ما تفطن إليه ابن خلدون[71] عندما أكد ما يتبع حالة الاستقرار، بعد الحرب عادة، من نمو ديموغرافي بسبب انبساط الأحوال، واطمئنان الرعية، وإقبالها على الزواج والتوالد؛ وفي ذلك يقول إنه إذا «انبسطت آمال الرعايا، وانتشطوا للعمران وأسبابه، يكثر التناسل» حينئذ. كما أن فترات الحروب عادة ما تخلف انعكاسات نفسية وذهنية توحي بفساد الزمان، وهو ما نجد صداه فيما عرف عن الفقيه عبد الله موسى العبدوسي (ت. 849هـ/1445م) الذي «كان يشترط العزل في النكاح، فراراً من الولد لفساد الزمان».[72]

Scanned by CamScanner

على أن أبرز ما يثبت أن فترات الحروب كانت تسبب في انخفاض عدد المواليد وتوقف النمو الديموغرافي، ما ميز المرحلة الثانية من عمر الدولة المرينية، والتي تميزت بنوع من الاستقرار أفضى إلى عودة التوازن للمنحى الديموغرافي، إن لم نقل اتخاذه منحى تصاعديا نتيجة ميل الناس للزواج والتناسل بعد ما استتب من استقرار وترف؛ فهذا ابن الدراج[73] يعبر بوضوح عن هذه الحالة بقوله: «الحمد لله على ما نلناه من الخير الذي لديه [قصد هنا السلطان أبا يعقوب يوسف]، وحزنا أطر السرور أطراداً، وعاضى الدهر مواسم أعياداً، وامتدت آماد الآمال، وامتلأت الأيدي بالمال، ونشط الناس لاتخاذ الأهل، وكسب الولد، وقالوا هذا وقت الغنيمة، للنعم العميمة، في صقع وبلد، فكثرت بذلك الولائم والأعراس». وهذا ابن خلدون[74] يثبت أنه في عهد أبي ثابت عامر «تنافس الناس في البناء فعالوا الصروح، واتخذوا القصور المشيدة بالصخر والرخام، وزخرفوها بالزليج والنقوش، وتناغوا في لبس الحرير، وركوب الفاره، وأكل الطيب، واقتناء الحلي من الذهب والفضة، واستبحر العمران وظهرت الزينة والترف»، وتلك إشارات واضحة إلى كثرة الزواج والتناسل.

ولا شك أن ما ميز هذه المرحلة من تدفق الغنائم، وتوافد الأسرى والسبايا نتيجة حروب الدولة في الأندلس،[75] أسهم في تكثير الجواري، واتساع التسري، واتخاذ المحظيات، مما كثر من المواليد.[76] وهي ظاهرة عادة ما تميز أواسط الدول حين يصل القبيل إلى مرحلة جني ثمرات الملك،[77] و«السبب في ذلك، أن القبيل إذا حصل لهم الملك والترف، كثر التناسل والولد والعمومية، فكثرت العصابة، واستكثروا أيضا من الموالي والصنائع (...) فازدادوا بهم عدداً إلى عددهم، وقوة إلى قوتهم، بسبب كثرة العصائب حينئذ بكثرة العدد».[78]

ولا أدل على صدق هذا القول من أن الجيل الأول من الأمراء المرينيين كانوا أقل ولداً من الجيل الثاني والثالث بسبب انشغالهم في تمهيد الدولة وحروبها، وحسبنا أن عبد الحق بن محيو كان «قليل الولد، فريداً في العدد»،[79] وجملة ما ولد من زيجاته ثمانية أولاد.[80] في حين بلغ عدد جميع ما أنجب أبو عنان حسب رواية لابن الأحمر، وإن لم تخل من مبالغة شديدة، «ثلاثمائة ونحو خمسة وعشرين ما بين سقط وغيره».[81] وفي هذه المقارنة (أنظر الجدول أسفله) ما يثبت أن الاستقرار الذي ميز المرحلة الوسطى قد سمح للنمو الديمغرافي ليستعيد توازنه، فالملاحظات التي أبديناها عن الأسر السلطانية يمكن تعميمها على الفئات الموسرة من الحاشية ورؤساء الجند وشيوخ القبائل والتجار وغيرهم. وهو ما يقيم الدليل

Scanned by CamScanner

أيضا على دور الحرب وغياب الاستقرار في تراجع نسبة الزواج والإنجاب.

جدول رقم 10: عينة لأعداد أبناء بعض السلاطين المرينيين: مقارنة بين الجيل الأول والثاني

اسم الأمير أو السلطان	عدد أبنائه	المصدر
عبد الحق بن محيو (592-614هـ/1195-1217م)	8	«روضة النسرين»، ص: 25.
يعقوب بن عبد الحق (656-685هـ/1258-1286م)	11	المصدر نفسه، ص: 27.
يوسف بن يعقوب (685-706هـ/1286-1306م)	6	المصدر نفسه، ص: 31.
أبو الحسن (731-751هـ/1330-1350م)	24	المصدر نفسه، ص: 35-36.
أبو عنان (751-759هـ/1350-1357م)	15	المصدر نفسه، ص: 38-39.

صفوة القول إن الحروب التي شهدها المغرب الأقصى، وخاصة في مرحلتي تمهيد الدولة المرينية، وفي مرحلة تراجعها وانهيارها، أفضت إلى نتيجة أساسية تمثلت في ارتفاع غير طبيعي في أعداد الوفيات، وتقلص مؤقت لكنه مؤثر في أعداد المواليد، مما أدى إلى اضطراب المنحنى الديموغرافي وتراجعه في أغلب سنوات هذا العصر، خاصة إذا اعتبرنا طول مدتي البناء والانهيار.

ثانيا: الحرب والنمو السكاني بين التجميع، والإفناء المفاجئ

يعتقد أحد الباحثين أن الحرب تؤدي في المجتمع وظيفة اجتماعية معادة مكرورة تتسم بتجميع رأس مال بشري، ثم تقذف بجزء منه في لحظات معينة قذفا تتجلى فيه الفظاظة والتوحش.[82] وعلى الرغم من أن هذه الخلاصة قد قادت الباحث إلى الحديث عما سماه بـ«البنية المتفجرة» (Structure explosive) التي تنطلق من قاعدة مفادها أن الزيادة الفاحشة في النمو السكاني تقود إلى بروز نزعة حربية في المجتمع، وتفضي بدورها إلى إنتاج الحرب لتفريغ ذلك الفائض،[83] فإن ما يهمنا من ذلك أن النمو الديموغرافي الذي يتلو عادة فترة من الاستقرار، ما لا يلبث أن يعود إلى التراجع بواسطة الحرب، أما بالنسبة لعصر هذه الدراسة فالحرب لم تكتف بالإفناء المتعجل لما تجمع من رأس مال بشري خلال فترات الاستقرار، بل يعود لها الدور الهام في الإسهام في تجميعه أيضا.

Scanned by CamScanner

1. دور الحرب في النمو السكاني

غني عن البيان أن الدولة المرينية التي قامت بحد السيف، وظلت تمتشق السلاح على امتداد دولتها في ملك المغرب، قد أسست نظاماً في ممارسة الحكم يرتكز على تعدد المساهمين في الغلبة وتعدد المستفيدين منها،[84] كما أن اعتمادها على الحرب في تدبير توازناتها،[85] جعل منها دولة ضمت واستقطبت خليطا من الأجناس من أندلسيين وعرب وروم وسودان وأتراك.[86] ويبدو أن فاس قد استقطبت العديد من هذه العناصر، حتى بلغ عدد سكانها، حسب رقم افتراضي قدمه كيلار،[87] حوالي 125 ألف نسمة. ودون الخوض في مدى مصداقية هذا الرقم، فالمؤكد أنه بعد أن ترسخت جذور الدولة وساد الأمن، تزايد عدد السكان بهذه المدينة وغيرها.

ويخيل إلينا أن المناطق الشمالية، عرفت نمواً ديموغرافيا بسبب التدفق الجماعي للعناصر الأندلسية بعد تفاقم عمليات الاسترداد المسيحي، واستمرار سقوط الثغور الأندلسية.[88] بل إن مدنا استقطبت نازحي مناطق أندلسية بكاملها؛ فقد نزح على سبيل المثال «أهل مالقة إلى بادس (...)، وخرج أهل الجزيرة الخضراء إلى طنجة».[89] وفي كل الأحوال، فقد بدأ المغرب الأقصى في استقطاب جاليات أندلسية منذ معركة العقاب،[90] لا تسعفنا المصادر في إعطاء أرقام وإحصائيات عنها.[91] وإن كانت بعض المعطيات تشير إلى حضور «ألفي فارس» ضمن الجيش المريني في عهد أبي الحسن.[92] ولا شك أن هذه الفرقة قد تزايدت أعدادها جراء أحداث الأندلس التي ألجأتنا إليها.[93]

والظاهر أن أعداد النصارى تزايدت بالمغرب المريني أكثر من أي وقت مضى لجملة اعتبارات فصلنا فيها سابقا[94]؛ فقد توافدت على المغرب عناصر مسيحية من الدول الأوربية المجاورة، وقدر عددهم حسب الإحصائيات الرسمية بأربعة آلاف جندي في زمن أبي الحسن،[95] فضلا عمن مارس منهم التجارة، واستقر بالمرافئ المغربية.[96] ولا نستبعد أن ترتفع أعدادهم في عهد أبي عنان[97] الذي شهد انفتاحا ملحوظاً على الدول الأوربية، والذي عززته كثرة المعاهدات التي وقعها هذا السلطان مع مدن ودول غرب أوربا المتوسطية.[98]

علاوة على ذلك، فإن الانتصارات التي حققها المرينيون بالأندلس في واسطة دولتهم، والنتائج الهامة التي أنجزتها البحرية المغربية إلى حدود عهد أبي الحسن، أفضت إلى توافد

Scanned by CamScanner

أعداد هامة من الأسرى المسترقين،[99] وحسبنا أن مجموع ما تم أسره في إحدى حملات يعقوب بن عبد الحق في الأندلس سنة 674هـ/1275م بلغ حوالي «سبعة آلاف وثمانمائة وثلاثين نفسا».[100] وتفيد رسالة بعث بها السلطان العبدوادي عبد الرحمن بن موسى بن عثمان إلى جاك الثاني ملك أراغون مدى تضخم هذه الشريحة في هذه المرحلة، حين قال: «أما تسريح جميع ما عندنا من الأسارى، فذلك مالا يمكن أن يكون (...)؛ لأنكم تعلمون أن ما عمر بلادنا إلا الأسارى».[101]

وبالرغم من الحضور اليهودي الدائم بالمغرب، فإن المحتمل أن جو التسامح والتقارب بين السلطة المرينية واليهود،[102] سمح بتوافد عناصر جديدة للاستقرار بالمغرب، موازاة مع حروب الاسترداد المسيحي في الأندلس،[103] حيث شكل المغرب القبلة المفضلة لهؤلاء بعد صدور مراسيم طردهم من اسبانيا سنة 794هـ/1391م،[104] بل إن أحد الباحثين[105] أشار إلى أن لجوء اليهود إلى المغرب كان مهما حتى قبل صدور تلك المراسيم. وقد اجتهد البعض بتقديم أرقام مفترضة لأعدادهم بالمغرب المريني، فتحدث عن وجود عشرات الآلاف من اليهود،[106] وإن لم يستند تقديره إلى أساس وثائقي.

عموما، فإن تقلص الحروب الداخلية في المرحلة الوسطى من عمر الدولة المرينية أدى إلى انخفاض نسبة الوفيات والزيادة في عدد المواليد، مما خلق نوعًا من التوازن الديموغرافي، فضلا عما عرف عن الحكم المريني الذي أرسى دعائمه على مبدأ تعدد المساهمين في الغلبة، وتعدد المستفيدين منها، مما سمح بنمو واضح في أعداد المصطنعين والموالي. وهو ما تفطن إليه ابن خلدون[107] بحسه الاجتماعي الدقيق حين وسم الفترة الوسطى من عمر الدولة بسمة التكاثر في «التناسل والولد والعمومية»،[108] وبالاستكثار «من الموالي والصنائع»،[109] فيزداد أهل الدولة بهاتين الخاصيتين «عدداً إلى عددهم، وقوة إلى قوتهم، بسبب كثرة العصائب حينئذ بكثرة العدد».[110] وهو ما لاحظه بالنسبة لبني مرين الذين لم يتجاوز عددهم لأول ملكهم، على حد قوله، «ثلاثة آلاف (...) إلا أن الدولة بالرفه وكثرة التابع كثرت من أعدادهم».[111]

وإجمالا، يمكن الإقرار أن الحروب أسهمت في النمو الديموغرافي الذي ميز المرحلة الوسطى من عمر الدولة المرينية، نظرا لطبيعتها الحربية، حيث حولتها إلى مجال مستقطب لمزيج من الأجناس من مرتزقة ومصطنعين وأسرى وسبايا، فضلا عن ازدياد أعداد النازحين من الأندلس جراء حروب الاسترداد. إلا أن هذا النمو المضطرب ما لبث أن تراجع نتيجة

Scanned by CamScanner

الهزائم التي مني بها الجيش المريني في أواخر هذه المرحلة، فضلا عن القلاقل الداخلية التي ميزت هذه الفترة.

2. الحرب والإفناء المفاجئ

إذا كانت الحرب الخارجية قد أسهمت في النمو الديمغرافي الذي شهدته مرحلة الازدهار، وسمح غيابها النسبي بعودة التوازن للمنحنى السكاني، فإن ذلك لا يمكن أن يخفي عنا ما كان لتمردات بعض القبائل وبعض المنتزين، وما ميز تدخل الدولة ضداً عليها من عنف، من ضرر على المخزون السكاني؛ فمباشرة بعد دخول مراكش قاد يعقوب بن عبد الحق حملة سنة 669هـ/1270م ضداً على العرب الذين «ثاروا ببلاد درعة وأبادوا رجالها بالقتل (...) فقتل من العرب خلقا كثيراً، وسبى نساءهم وأموالهم».[112] وبعدها قاد بنو مرين حملة أخرى سنة 673هـ /1274م ضداً على عرب المنبات بسجلماسة «فدخلوها عنوة، فقتلوا المقاتلة والحامية وسبوا الرعية».[113] وبسبب تمرد مسعود بن كانون وجه يعقوب بن عبد الحق حملة ضداً عليه، وخلالها «استباح عرب الحارث بن سفيان».[114]

ونتيجة لعيث عرب المعقل في منطقة سوس سنة 683هـ/1284م، سرح السلطان المريني حملة «لغزو العرب وكف عاديتهم (...)، فأجفلوا أمامه واتبع آثارهم إلى الساقية الحمراء (...)، فهلك أكثر العرب في تلك القفار مسغبة وعطشا».[115] كما أنه خلال تمرد الحاج طلحة بن علي البطوني بالسوس عام 685هـ/1286م، بعث يوسف بن يعقوب ابن أخيه الأمير عبد الواحد «وأمره بقتال طلحة بن علي الخارج بها ومن وافقه ببلاد السوس، فغزا عرب بني حسين، فقتل بها خلقا كثيراً».[116]

وتجدر الإشارة إلى ما تعرض له يهود فاس من تقتيل واستئصال من قبل العامة التي استنكرت عليهم جملة أفعال؛ وحسب رواية ابن أبي زرع،[117] بالرغم مما تثيره من تساؤلات، وما تحمله من مبالغة، أنه في شوال من سنة 674هـ/1275م «قتل اليهود بفاس، قامت عليهم العامة، فقتل منهم أربعة عشر ألف يهودي»، وفي مكان آخر يحدد عدد من قتل منهم في اثني عشر ألف.[118]

وفي زمن أبي ثابت عامر، وأثناء تمرد يوسف بن محمد بن أبي عياد في مراكش عام 707هـ/1307م، تقبض على هذا الأخير «وأثخن فيمن سواه ممن داخله في الانتزاء، فاستلحم منهم أمما بمراكش وأغمات».[119] وفي السنة نفسها، وجه أبو ثابت حملة ضداً على عثمان

Scanned by CamScanner

بن أبي العلاء الذي انتزى بجبال غمارة، ونازل حصونه «فاقتحمها عنوة واستلحم بها (...) قتلا وسبيا لتمسكها بطاعة ابن أبي العلاء».[120] كما قاد حملة أخرى ضداً على قبائل رياح بأزغار والهبط، «وأثار منهم بالإحن القديمة، فأثخن فيهم بالقتل والسبي».[121]

وإذا كانت النصوص المتوفرة لا تسعفنا في تبين ما يمكن أن تخلفه حروب المرينيين في المغرب الأوسط والأندلس من قتلى في صفوف الحشد المريني، فالأكيد أنه ابتداء من سنة 741هـ/1340م، بدأ هذا الأخير في تكبد الهزائم أمام الحشود المسيحية في الشمال، وأمام القبائل الهلالية في إفريقية، مما خلف خسائر بشرية شكلت بداية للتدهور الديموغرافي الذي ميز المرحلة الاخيرة من عمر الدولة المرينية.

كانت أولى هذه الهزائم، هزيمة طريف في الأندلس (741هـ/1340م) «التي محق الله بها المسلمين حسبما هو مشهور، وأهلكت نفوسهم».[122] وعلى الرغم من أن هذه الهزيمة قد ذكرت بخسائرها البشرية بنكبة العقاب (609هـ/1212م)، واعتبرت عند البعض بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير،[123] فإن المصادر لم تجد علينا بأي رقم عن عدد من قتل بها من المغاربة، لكن الواضح أن عدداً هاماً ممن حشدهم أبو الحسن قد لقوا مصرعهم،[124] مما يوحي بتمكن المسيحيين من الجيش المريني. وتفيد بعض الإشارات أن عدد من حشدوا لهذه الغزوة بلغ «نحو ستين ألفا»، عدا جيش الأندلس بمن فيه من غزاة بني مرين المستقرين بالأندلس.[125] مما يؤكد أن الهزيمة كانت ذات خسائر ديموغرافية خطيرة.

وتقدم بعض النصوص المنبثة في كتب التراجم والطبقات إيحاءات تفصح عن ضخامة عدد من قتلوا في هذه الوقعة، من خلال تراجمها لعلماء هلكوا فيها، منهم محمد بن احمد بن جزي،[126] ومحمد بن سعيد الأشعري،[127] ومحمد بن أحمد الغساني،[128] وعبد الله العزيز بن سلمون،[129] وغيرهم.

وبعد هذه الهزيمة بسنوات تعرض جيش أبي الحسن لهزيمة أخرى في إفريقية أمام القبائل الهلالية، ويبدو من خلال بعض النصوص أن الحشود التي حمل بها أبو الحسن على إفريقية لم يعد منها إلى المغرب إلا فلول بعد الهزيمة،[130] مما يعني أن أعداداً هامة منهم قد لاقوا مصرعهم في هذه الغزوة. كما أفضى غرق أسطول أبي الحسن في سواحل الجزائر، والمكون من حوالي ستمائة قطعة،[131] إلى هلاك معظم قواده وكبار رجال دولته ونخبة من الطبقة السياسية وخيرة علماء البلاد، وقدر عدد من هلك في هذا الحادث من الفقهاء بحوالي أربعمائة فقيه.[132]

Scanned by CamScanner

وافق هذه الأحداث ظهور الطاعون الأسود الجارف، «الذي تحيف الأمم، وذهب بأهل الجيل»،[133] بالمغرب سنة 749هـ/1348م واستمر لبضع سنوات،[134] و«كان وباء عظيماً لم يعهد مثله قد عمر أقطار الأرض، وتحيف العمران حتى كاد أن يأتي على الخلق أجمع».[135] ومرة أخرى نصطدم، كغيرنا من الباحثين، بصمت مطبق من قبل مصادر المرحلة عن ذكر خسائره البشرية.[136] لكن المؤكد أنه أثر تأثيرا عظيما في ديموغرافية البلاد، وأفضى إلى نقص كبير في عدد سكانها،[137] وأحدث خلخلة عنيفة في البنية الاجتماعية.[138] وقد دفعت الانطباعات التي قدمتها المصادر عن هذا الوباء ببعض الباحثين[139] إلى القول إنه حصد نصف الساكنة تقريبا.

هكذا يتضح أن فترة الازدهار سمحت بعودة التوازن إلى المنحنى الديموغرافي، إلا أن قصرها وما شابها من اضطرابات، والهزائم التي مني بها الجيش المريني في أواخر هذه المرحلة، وموافقتها للطاعون الجارف الذي طوى البساط بما فيه، كل ذلك أفضى إلى انهيار مستجد للوضع السكاني.

ولا شك أن وظيفة التدمير التي تقوم بها الحرب في المجال الديموغرافي تبدو أكثر ثباتا وتأثيرا على المدى البعيد، لأن تكاليف الحرب يمكن استعادتها سريعا عن طريق الغنائم المتحصل عليها في حالات الانتصار، ولكن التوقف في المنحنى الديموغرافي، وحصد الرجال القادرين على العمل والإنتاج وإفنائهم، سوف يستلزم فترة جيل على الأقل لتعويضهم،[140] إلا أن دوام الحروب في مغرب هذا العصر قد يعيق ذلك أيضا. إنها بالفعل حالة طويلة من الاسترخاء الديموغرافي.

المبحث الثاني: مظهر الأسر وانعكاساته الاجتماعية

أثبتنا في الفصول السابقة أن الحرب مثلت في هذه المرحلة ظاهرة تكاد تكون دائمة، وكشفنا عن بعض آثارها في بنيات المغرب المريني وتنظيماته، وفي إنتاجه الاقتصادي. إلا أننا نعتقد أن مصير الإنسان من جرائها يبدو أكثر مأساوية. ففضلا عن القتل الذي اعتبرناه مرادفا طبيعيا لأية حرب، كانت كل حملة عسكرية أو غارة تذيل في نصوص الفترة المدروسة بالإشارة إلى مقدار ما غنمه المنتصر،[141] مما غرم من المنهزم من أسرى وسبايا،[142] إما في عبارات انطباعية مجردة، أو على شكل أرقام وأعداد. وإن كانت هذه الحالة الأخيرة -على غرار ما أكدناه في المبحث السابق- تبدو نادرة وقليلة كما لو أن «مشكلة الرقم» قد

Scanned by CamScanner

استفحلت في متون مغرب العصر المريني أكثر من سابقيه.

وتفاديا لأي عمل سردي يعتمد على استعراض الأحداث بشكل ممل، سنعمد إلى دراسة هذا المبحث من خلال عنوانين رئيسين؛ يهدف الأول إلى جرد عينات لوقائع حربية، سواء داخل بلاد المغرب الأقصى أو في الواجهة الشرقية ضداً على بني عبد الوادي وإفريقية، أو في الواجهة الشمالية مع نصارى إسبانيا، ومن شأن هذه العينات أن تثبت حجم الأسرى والسبايا قلة او كثرة خلال هذه المرحلة. في حين نتساءل في العنوان الثاني عن مصير هؤلاء الأسرى، ووضعيتهم، وسبل افتكاكهم.

أولا: أسرى حروب العصر المريني (رؤية تكميمية)

تكشف محاولة تتبع الحروب والفتن التي عرفها مغرب العصر المريني عن سقوط عدد هام من السكان المحليين في الأسر سواء داخل المغرب، أو في الجبهات الخارجية بالأندلس والمغرب الأوسط وإفريقية.

1. أسرى الجبهة الداخلية

قادت القبائل العربية مباشرة بعد وقعة العقاب (609هـ/1212م) الكثير من الغارات على مدن المغرب الأقصى وقبائله، خاصة منها مراكش التي لم تتردد فيها هذه القبائل على «الفتك بالأحرار واسترقاق العبيد الأحرار».[143] وبلغت كثافة هذه الأعمال أن أصبحت بتعبير ابن عذاري، «أمر شائع، وحكم واقع، ما له من دافع، عنهم ولا وازع».[144]

وبالمثل لم تتردد السلطة الموحدية في الرد على هذه الغارات بالمعاملة نفسها؛ ومن ذلك اقتحامها لديار الخلط حيث «امتلأت أيدي الأجناد والناس من أموالهم، وسيق الناس والذرية إلى حضرة مراكش، فامتلأت منهم الأسواق والسكك من كل عذراء ما تجاوزت قد خدرها (...) وتساوت الحرة العربية والصريحة في العبودية (...) وحشر الناس والذرية بدار الأشراف فضاقت عليهم، وامتلأت رحاب الجامع (...)، وهذه أكبر النكايات وأعظم المصيبات».[145]

وتثبت نصوص أخرى أن الكثير من السكان وقعوا في أسر بني مرين خلال حملاتهم التمهيدية لبلاد المغرب؛ فبعد هزيمة الموحدين أمامهم سنة 613هـ/1216م، غنم بنو مرين عددا هاما من «الأثاث والسلاح والأموال والخيل والعبيد».[146] ومباشرة بعد هذه المعركة،

Scanned by CamScanner

سير بنو مرين حملة عنيفة ضداً على قبائل رياح حيث اشتدوا «في آثارهم، فقتلوا وسبوا وأسروا وللإثخان في الأغلب آثروا»،[147] وما كان من رياح إلا أن أذعنت لهم بالطاعة، بعدما رأت «ما نالها من القتل والسبي».[148]

ويبدو أن الأسر والسبي قد استمرا بشكل مكثف خلال مجمل الحملات التي نظمها بنو مرين نحو مختلف مناطق المغرب الأقصى. ومن الأمثلة على ذلك ما حدث أثناء غزوات يعقوب بن عبد الحق على مراكش وأحوازها؛ إذ مال «إلى ناحية تادلة فغزا بها عرب الخلط فأكلهم، وسبى حريمهم وأموالهم».[149] وفي السنة ذاتها (667هـ/1268م) «غزا بلاد صنهاجة وسباها، وأقبل يدور في أحواز مراكش»،[150] يقتل ويأسر ويسبي إلى درجة أن شيوخ الموحدين تدمروا من هذا الوضع، وألزموا أبا دبوس بالخروج لقتال بني مرين، ووقف حملاتهم التي أفضت إلى تخريب أحواز مراكش وأسر سكانها.[151]

والمرجح أن عمليات السبي والأسر لم تتوقف في بلاد المغرب الأقصى حتى بعد اقتحام بني مرين للعاصمة مراكش؛ إذ مباشرة بعد ذلك بسنة (669هـ/1270م) قاد يعقوب بن عبد الحق حملة ضداً على ذوي حسان وذوي منصور ببلاد درعة، «فقتل من العرب خلقاً كثيراً، وسبى نساءهم وأموالهم».[152] وفي حملتهم على عرب المنبات بسجلماسة سنة 673هـ/1274م، «دخلوها عنوة، فقتلوا المقاتلة والحامية، وسبوا الرعية».[153] كما أنه بسبب عيث عرب المعقل في صحراء درعة، وجه أبو يعقوب يوسف حملة ضداً عليهم (686هـ/1287م)، «فقتل منهم خلقا كثيراً، وسبى أموالهم ونساءهم».[154]

وتسجل نصوص أخرى وقوع حالات من السبي والأسر في مرحلة استقرار الدولة وقوتها، سواء ضداً على القبائل أو ضداً على بعض المنتزين؛ فقد وجه أبو ثابت عامر حملة ضداً على عرب رياح بفحص أزغار (707هـ/1307م)، «فغزاهم، وقتل منهم خلقا وسبى ذراريهم وأموالهم».[155] كما دخل مراكش بعد أن انتزى بها محمد بن أبي عياد في السنة نفسها، «فقتل جماعة من جند الفرنج الذين بها، وسبى ذراريهم».[156] وفي العام ذاته انتزى ابن أبي العلاء عثمان بجبال غمارة، فحمل عليه أبو ثابت عامر، وخلالها «نازل بلاد الدمنة فاقتحمها، وأثخن فيها قتلا وسبيا لتمسكها بطاعة ابن أبي العلاء».[157]

ودون مضاعفة الأمثلة، نعتقد أن في هذه الشهادات ما يغنينا عن تتبع حالات أخرى من المعارك أو الغارات أسفرت عن وقوع أسرى محليين في يد بني مرين، كما أن هذه

Scanned by CamScanner

الشهادات تعبر عن السياسة التي سلكها بنو مرين في مختلف حروبهم سواء في مرحلة تمهيد البلاد، أو في فترة استقرار الدولة وقوتها. إلا أن الأكيد أن أعداد هؤلاء الأسرى تظل قليلة بالمقارنة مع أسرى الحروب التي خاضها بنو مرين سواء ضداً على بني عبد الواد أو في بلاد الأندلس ضداً على مسيحي إسبانيا.

2. أسرى الجبهة الشرقية

من الطبيعي أن تسفر المواجهات التي استمرت بين بني مرين وبني عبد الوادي، طيلة فترات هامة من ق7 و8هـ/13 و14م عن عدد كبير من الأسرى، وهو ما يبدو جليا من خلال جملة من النصوص التي كشفت عن كثافة عمليات الأسر والسبي خلال هذه المواجهات.

ففي خضم محاولات يعقوب بن عبد الحق اقتحام مراكش، توجه لملاقاة جيش يغمراسن بن زيان، فانتهت الوقعة (666هـ/1267م) بانهزام بني عبد الواد «وخلفوا النواهد والأبكار»،[158] فانتهبت بنو مرين جميع محلتهم و«أموالهم ومضاربهم وعيالهم».[159] ومباشرة بعد دخول يعقوب بن عبد الحق مراكش توجه نحو تلمسان، واصطدم بجيشها سنة 670هـ/1271م، فـ «انتهبت مرين محلة بني عبد الواد، وسبوا حريمهم وعيالهم».[160] وخلال هذه الحملة «تحدث الناس في جميع الأقطار بكثرة القتلى في هذه الهزيمة و[امتلاء] أيدي بني مرين بالسبي والغنيمة»،[161] وكان قائد الفرقة المسيحية «برنيس» في جيش يغمراسن ضمن من أسروا في هذه الوقعة.[162]

ويبدو أنه مع استمرار الحروب بين المرينيين والعبدواديين استمر تدفق الأسرى والسبايا إلى بلاد المغرب الأقصى؛ ففي حملة أخرى على تلمسان سنة 679هـ/1280م انهزم جيش يغمراسن، وولى هذا الأخير «هاربا مهزوماً، وخلف القباب والأموال والعيال، فانتهبت الناس جميع محلته».[163] وطوال الغزوات التي قادها يوسف بن يعقوب إلى تلمسان، قبل حصاره الكبير لها، كان «يرتحل في أحوازها، ويأكل زروعها، ويسبي ويغنم»،[164] مما عجل بسقوط أعداد هامة من الأسرى في أيدي بني مرين.

ويخيل إلينا أن أعداد الأسرى والسبايا قد تضاعف خلال الغزوات التي قادها كل من أبي الحسن وابنه أبي عنان، والتي أفضت إلى اقتحام تلمسان. ويقدم اقتحام هذا الأخير للعاصمة العبدوادية سنة 753هـ/1352م مثالا واضحاً في هذا الصدد؛ إذ «اتبع بنو مرين آثارهم، فاستولوا على معسكرهم واستباحوهم، واستلحموهم قتلا وسبيا، وصفدوهم

Scanned by CamScanner

أسارى»،[165] كما «استاقوا أموالهم ودوابهم ونساءهم».[166] وبعث بهم السلطان أبو عنان «في السلاسل كالأسرى، فأدخلوا فاس على تلك الحالة، وسجنوا ثم أطلقوا بعد ذلك وصاروا ينقلون الرمل على الحمير يتاعونه ويتعيشون به، وأكثر نسائهم يتعيشن بغسل الثياب في دور الحضر بفاس».[167]

وفي المقابل تمكنت القبائل العربية بإفريقية من نهب معسكر السلطان أبي الحسن المريني وسبي حريمه.[168] وبالقرب من الجزائر، استبيح معسكره من جديد أمام أبي ثابت العبدوادي ومدد ابنه أبي عنان، وسبي حريمه وبناته، وبعث بهن أبو ثابت إلى السلطان أبي عنان.[169]

عموما، فنتيجة للحروب التي عرفتها الجبهة الشرقية من المغرب الأقصى، سواء ضداً على بني عبد الواد، أو بني حفص والقبائل العربية، سقطت أعداد هامة من الأسرى في أيدي الأطراف المتحاربة، مما أسهم في اتساع قاعدة هذه الشريحة من ضحايا الحرب والمتضررين منها.

3. أسرى الجبهة الشمالية

إذا كانت النصوص التي أوردناها سلفا تثبت وقوع كثير من ساكنة المغربين الأقصى والأوسط في ربق الأسر والسبي، فإن الجبهة الخارجية والصراع المريني المسيحي كان، ولا شك، المصدر الحقيقي للأسرى خلال هذه المرحلة. والظاهر أن اختلال التوازن في هذه الجبهة منذ هزيمة العقاب سنة 609هـ/1212م،[170] أدى إلى فترة خمول على مستوى النشاط «الجهادي» لدول المغرب الإسلامي على تخوم الجبهة الشمالية المسيحية،[171] وذلك بعد مرحلة النشاط الكثيف والدؤوب في عصر المرابطين والموحدين.[172] إلا أنه يمكن استثناء بعض السنوات من حكم المرينيين التي توجت ببعض الانتصارات، والتي أوقعت أعدادا هامة من الأسرى المسيحيين في قبضة بني مرين. وإن كنا لا نستطيع أن نحجب ما ميز النصوص المتوفرة من مبالغة شديدة،[173] تعود في بعض أسبابها إلى رغبة أصحابها في إبراز مدى تمكن المرينيين من معسكر المسيحيين، وإشاعة ذلك في المغرب لإكساب ولاة نعمتهم بعضا من المشروعية التي افتقدوها في بداية دولتهم.

وكيفما كان الحال، فقد تحصل المرينيون على أعداد معتبرة من الأسرى النصارى خلال مواجهاتهم ضداً على المعسكر المسيحي بالأندلس؛ ففي حملة على مدينتي طريف وشريش

Scanned by CamScanner

سنة 673هـ/1274م قفل الأمير أبو زيان بن يعقوب «بالغنائم والسبي إلى الجزيرة [الخضراء]، فدخلها والروم بين يديه في القطائن والأغلال والنساء والذرية يقادون في الحبال».[174] وفي إحدى حملات يعقوب ابن عبد الحق على أحواز قرطبة وأبذة وبياسة سنة 674هـ/1275م، أمر «بالغنائم فجمعت فاجتمع من الخيل والبغال والحمير والبقر والغنم والنساء والذرية (...) ما ملأ السهل والوعر، ولا يحويه عد ولا حصر».[175]

وقد بلغ عدد ما تجمع من الأسرى المسيحيين بعد هزيمة الجيش القشتالي أمام الجيش المريني عام 674هـ/1275م، حسب رواية بعض المؤرخين،[176] حوالي ثلاثين وثمانمائة وسبعة آلاف نفس. وفي حملة أخرى على أحواز إشبيلية وشريش، تضخمت أعداد الأسرى والسبايا لدرجة أن «بيعت الرومية في هذه الغزوة بمثقال ونصف لكثرتهن».[177]

وفي جواز الأمير أبي يعقوب يوسف المريني إلى الأندلس سنة 682هـ/1283م تكشف رسالة بعث بها أبو حاتم العزفي إلى السلطان المريني[178] عن أعداد هائلة من الأسرى، خاصة النساء والأطفال، الذين تجمعوا في مغنم بني مرين، «حتى كان الفارس يسوق خمساً وستاً وعشراً بأولادهم ويقدم».[179] والانطباع نفسه نجده لدى الملزوزي[180] في وصفه لغنائم غزوة 684هـ/1285م.

وفيما يلي جدول[181] لأهم ما حصل عليه المرينيون من الأسرى المسيحيين خلال غزواتهم بالأندلس:

جدول رقم 11: أسرى حروب المرينيين في الأندلس من خلال «الأنيس المطرب» لابن أبي زرع

النص	المدينة أو المكان	السنة	الصفحة
«ووالى السير في بلاد العدو يقتل ويسبي ويخرب القرى (...) ثم قفل إلى الجزيرة بالمغانم والسبي والعلوج في القطائن».	بين طريف وشريش	673هـ	314
«وقتلوا من وجدوه بها من الرجال، وسبوا الذرية والعيال».	الوادي الكبير من أحواز قرطبة	674هـ	315
«وسار حتى بلغ حصن المدور من أحواز قرطبة يقتل ويسبي (...) وقتل فيها من الروم ألوفا لا تحصى وسبا نساءهم وذراريهم (...) فأمر أمير المسلمين بجمع المغنم، فجمع البقر والغنم والخيل والدواب والعلوج والروميات والذراري والثياب والعدد، فتألف منها ما ملأ السهل والوعر، ولا يحويه عد ولا حصر».	أحواز قرطبة وأبذة وبياسة ونواحيها	674هـ	315
«ثم ارتحل أمير المسلمين والغنائم تساق أمامه، وتقاد الروم بين يديه في الأصفاد مقرنين».	أسرى أحواز المدن السابق ذكرها	674	316

Scanned by CamScanner

«ووصل أمير المسلمين إلى الجزيرة الخضراء بالغنائم والأسرى فدخلها (...) وأبطال الروم وزعماؤهم يقادون بين يديه في القطائن والحبال، مصفدين في السلاسل والأغلال (...) وكان عدد الأسارى من الرجال والنساء والذرية سبعة آلاف وثمانمائة وثلاثين نفسا».	هزيمة جيش دون نونيو دي لارا قائد ألفونس القشتالي بالقرب من مدينة قشتالة	674	318-319
«وارتحل إلى الجزيرة الخضراء فدخلها في اليوم السابع والعشرين لجمادى الأولى المذكور، فقسم ما جاء به من الغنائم والسبي، بيعت الرومية في هذه الغزوة بمثقال ونصف لكثرتهن».	ظاهر إشبيلية وشريش	674	321
«وجالت جيوش المسلمين في تلك النواحي تقتل فريقا وتأسر فريقا (...)»	أحواز إشبيلية	676	324
«ودخل أمير المسلمين حصن قطيانة وحصن جليانة وحصن القليعة بالسيف وقتل جميع رجاله، وأسر كافة نسائهم وأولادهم، وغنمت أموالهم(...) ورجع أمير المسلمين بالغنائم والسبي إلى الجزيرة الخضراء».	حصن قطيانة وجليانة والقليعة بالقرب من جبل الشرف	676	325
«ورجع بالغنائم والسبي (...) فقسم المغانم على بني مرين وقبائل المجاهدين».	حصون الوادي الكبير	676	326
«وقتل جميع رجاله، وسبيت نساؤهم وأولادهم».	حصن بني بشير	676	327
«فتفرقت قبائل بني مرين والعرب في أحواز قرطبة وحصونها وقراها ومدنها يقتلون ويأسرون (...) فلما رأى الفونسو ما نال بلاده من الفساد والدمار، وما حل برعيته من القتل والأسر والتبار جنح إلى الصلح».	أحواز قرطبة وحصونها وقراها	676	327
«وأسر قائدهم الملند وجماعة من قواد الروم منهم ولد أخت ألفونسو وكبير بيونة».	الجزيرة الخضراء	678	333
«ارتحل أمير المسلمين إلى أحواز طليطلة يقتل ويسبي ويرب (...) حتى وصل إلى مجريط من أحواز طليطلة، وقد امتلأت أيدي المسلمين بالسبي والغنائم فرجع لأجل ذلك إلى الجزيرة الخضراء».	أحواز طليطلة	681	338
«فجد أمير المسلمين السير إلى ألبرت (...) فأغارت الخيل حتى وصلوا إلى أحواز طليطلة، و لم يبق بين أمير المسلمين وبينها غير مرحلة واحدة، وما صده عن غزوه إلا كثرة ما بأيدي المسلمين من الأموال والسبي (...) ورجع أمير المسلمين على طريق آخر يحرق ويخرب ويسبي ويقتل حتى وصل إلى مدينة أبذة، فقاتلها (...) فسار إلى الجزيرة الخضراء وقدم بين يديه من السبي والأموال والكراع ما يعجز عنه الوصف».	بين بياسة وأحواز طليطلة	682	339
«فتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ويسبون ويخربون حتى أدخلوهم المدينة، وقد قتلوا منهم نحو الألف وأسروا جماعة وافرة».	ظاهر إشبيلية	684	343
«فأغاروا عليه فألفوا أهله مطمئنين وقد خرجوا بجميع أموالهم من البقر والغنم والبغال، فغنموها وأسروا منهم أربعة عشر رجلا»	حصن شلوقة	684	345

Scanned by CamScanner

«فجدت الفرقة المغيرة على مرشانة حتى وقفوا على بابها، ثم انتشروا في نواحيها، فقتلوا خلقا كثيرا من النصارى وسبوا نساءهم وأولادهم ممن وجدوه في الطرقات وفي الارحية والجنات وفي أندر الزرع»	مرشانة	684	345-346
«واحتوى المسلمون على جميع ما فيه من الأسلحة والأمتعة والأموال والروميات»	برج بجهة قرمونة	684	346
«أغارت رماة ستة على حصن من حصون الروم فسبوا منه ثمانين نفسا بين رجال ونساء وأولاد»	حصن من حصون	684	346
«فأغاروا على أركش فغنموها، وسبوا منها ثمانين امرأة من الروميات»	أركش	684	347
«فغنموا منه ثمانية علوج»	برج من احواز شريش	684	347
«فقتلوا خلقا كثيرا، وسبوا منه ثلاثة عشر علجا ورومية واحدة وقسيسهم»	حصن من حصون الروم	684	347
«وقتلوا من به، وسبوا به ستة أعلاج وأربع روميات»	برج من بروج الروم	684	347
«وكان جملة ما غنموا فيها من الروميات والأولاد ثلاثمائة وثمانين نفسا ولم ياسر فيها رجلا إلا القتل»	إشبيلية	684	348
«فقتلوا فيه ثمانين علجا، وأسروا من بقي من الرجال والنساء المسبلات»	برج بالقرب من شريش	684	349
«فلما رأى النصارى ما لا طاقة لهم به من النار والسهام، استسلموا وألقوا بأيديهم إلى الأسر، فأسر منهم مائة وتسعون علجا، وتسعون امرأة»	برج بالقرب من شريش	684	349
«وقتلوا الرجال، وسبوا النساء والذرية، وغنموا جميع ما وجدوه فيه»	حصن القناطر	684	351

وفضلا عن مواجهات الأندلس، مثلت القرصنة المغربية خلال هذه المرحلة مصدراً هاماً للأسر.[182] وفي هذا الصدد، يميل أحد الباحثين[183] إلى التأكيد أن البحرية المغربية ظلت قادرة على منافسة البحرية المسيحية في مياه المتوسط، وتمكنت من جلب عدد هام من الأسرى، إلى حدود عهد السلطان أبي الحسن المريني على الأقل.

ويخيل إلينا أن الأسر والسبي أصبح متبادلا بشكل كبير بين الطرفين المغربي والمسيحي خلال هذه المرحلة، فإذا كانت النصوص التي أوردناها سابقا تثبت تضخم أعداد الأسرى النصارى في بلاد المغرب، فثمة نصوص أخرى تثبت وقوع عدد هام من المغاربة في الأسر لدى المسيحيين،[184] خاصة وأن البحرية المسيحية بدأت تصل حملاتها إلى الشواطئ المغربية خلال هذه الفترة؛ ففي منتصف القرن السابع الهجري، هاجم القشتاليون مدينة سلا (658هـ/1259م) «واستولوا بالغدر عليها، وقتلوا من وجدوا من الرجال، وأسروا النساء والأطفال، وحصروهم في الجامع الكبير مأسورين».[185] وحسب رواية لابن

عذاري،[186] فقد «قيل أن جملة ما اجتمع بإشبيلية من أسرى أهل سلا نحو ثلاثة آلاف نفس بين ذكر وأنثى صغير وكبير وأكثرهم أطفالاً صغاراً وعجائز وشيوخا كباراً». وفي سنة 668هـ/1269م «دخل النصارى حصن العرائش، وحصن تشمس بالسيف، فقتلوا الرجال وسبوا النساء والأموال وأحرقوها».[187]

وفي الوقت الذي كان يعقوب بن عبد الحق يواجه تمرد مسعود بن كانون، تواترت عليه الأخبار بما أصبح عليه من تركهم في «الجزيرة الخضراء من شدة الحصار، وتوالي القتال والأسر بالليل والنهار».[188] كما أن هزيمة أبي الحسن المريني بطريف، أوقعت العديد من جنده في أسر المسيحيين، ومن بينهم تاشفين أبو عمر الموسوس ابن السلطان نفسه.[189]

وتقدم كتب التراجم، والمناقب مادة هامة للوقوف على مدى كثرة أعداد من سقطوا في الأسر نتيجة العمليات التي كانت تنفذها البحرية المسيحية في الشواطئ المغربية. ومن الأمثلة على ذلك، ما حدث خلال تغريب يحيى العزفي للشريف أبي العباس أحمد بن الشريف الحسني وأهله، فقد «اعترضتهم مراكب النصارى في الزقاق فأسروهم».[190] وما طرأ على المدعو أبي إسماعيل بن أحمد من معاصري البادسي، حين «أراد التوجه إلى تيجساس [شرق تطوان] من بلاد غمارة بعياله، فتقدم ووجه إلى عياله زورق صيد، فخرج عليه عدو البحر بمرسى ياليش، فأسرت زوجة إسماعيل وبنت لها صغيرة».[191] ومن ذلك أيضا ما وقع للمتصوف إبراهيم بن عيسى بن داوود عندما كلفه عرب المعقل، بعد تغلبهم على الريف، بالوساطة بينهم وبين قبيلة بني ورترد، وحين عودته «كر راجعاً على الساحل، فوقع في رضك النصارى، فأخذوه أسيراً»،[192] وغير هذه الأمثلة كثير.[193]

وتجدر الإشارة إلى ظاهرة ارتبطت بفترات الجوع والضنك، فيضطر الإنسان نتيجة ضغط الحاجة والمجاعة إلى بيع نفسه وأهله للعدو أسيراً لعله يجد عنده ما يسد به رمقه، ومن الأمثلة في هذا الصدد ما أورده البادسي[194] عن مجاعة شديدة في بلاد غمارة، وخلالها «كان البعض يسلمون أنفسهم للنصارى ليشبعوا عندهم الطعام». وتثبت نصوص أخرى أن هذه الظاهرة قد تفشت في مراحل تاريخية أخرى، خاصة خلال ق9 و10هـ/15 و16م، وبلغت أعداد من سلموا أنفسهم للنصارى الآلاف.[195]

إجمالاً، بالرغم من افتقارنا لمعطيات رقمية محددة تظهر حجم الأسرى الذين أسرتهم حروب هذه المرحلة ونوعهم، فالواضح أن استمرار الحرب وحضورها المكثف، كما بينا سلفا، أفضت إلى تضخم هذه الشريحة من ضحايا الحروب، وإن كانت الجبهة الخارجية

Scanned by CamScanner

خاصة الشمالية منها قد حظيت بحصة الأسد في هذا الجانب. فكيف كان يتم التعامل مع هؤلاء الأسرى؟

ثانيا: أوضاع الأسير وسبل افتكاكه

يحدد الفقه الإسلامي الخيارات التي يطرحها وقوع السبي من «دار الحرب» بيد الإمام في أربع خيارات: القتل أو الاسترقاق أو الفداء أو العتق.[196] وقد أطنب الفقهاء، بمن فيهم من عاصروا فترة الدراسة في ذكر أحكام الأسرى، وفي مناقشة تلك الخيارات،[197] غير أن الأحكام الفقهية ظلت، في الغالب الأعم، بعيدة عن الواقع العياني.[198] فلا مندوحة عن معاينة وضع الأسرى ومصيرهم انطلاقا من الأرضية التاريخية التي رسمت معالمه الأساسية.

1. الأسير وخيار القتل

يبدو أن القتل، بالرغم من كونه الخيار الأفضل للتخلص من الأسرى، لم يمارس إلا في حالات نادرة تخرج عن الإطار الزمني لهذا البحث،[199] إذ لم نقف بالنسبة لبني مرين على نص يفيد قتلهم للأسرى، وكذلك بالنسبة للنصارى بالرغم من ورود بعض الإشارات التي تفيد قتلهم لأسرى بعض المعارك[200]؛ كما هو حال أسرى العقاب (609هـ/1212م)، حيث نادى ألفونسو الثامن «أن لا أسر إلا القتل، ومن أتى بأسير قتل هو وأسيره، فلم يأسر العدو في هذه الوقعة أحداً من المسلمين»،[201] وهو ما لا تؤكده نصوص أخرى تحدثت عن سبي المسلمين من العقاب الذين «ملؤوا به بلاد الروم قاطبة».[202] ونرجح أن قتل الأسرى في هذه المرحلة لم يحدث إلا في إطار التعامل بالمثل، وفي إطار ردود الفعل بين الجانبين.

والحال إذن، أن الأسرى بالنسبة لدول المرحلة، بما فيها المسيحية، قد شكلوا «رأسمالا» هاما بتعبير دالش (Gautier-Dalché)،[203] ومصدراً أساسا للحصول على الأموال،[204] خاصة وأن الرغبة في الحصول على الغنائم والأسرى شكلت أهم الدوافع التي وقفت وراء استشراء الحروب بين الدول الإسلامية ومسيحيي إسبانيا.[205] ولما كانت «تجارة الرقيق» تمثل نشاطا اقتصاديا رائجا خلال هذه المرحلة، فقد كان الحصول على الأسرى واسترقاقهم قصد البيع، من الأمور التي دفعت بالكثير إلى احتراف الغزو وامتهانه.[206]

وقد سبق لأحد الفقهاء،[207] في فترة سابقة عن هذه المرحلة، أن استبعد خيار القتل في التعامل مع الأسرى، حتى بالنسبة للجانب المسيحي، معللا قوله بكون المسيحيين على علم بـ «كثرة ما يبذله المسلمون في أنفسهم من المال»،[208] وباعتبار أن «أكثر المقاتلين من

Scanned by CamScanner

المسلمين لو (...) لم يعطوا عمن سرح لهم من الأسارى عوضا من المال، لم يأسروا بعد ذلك أحداً من الروم، ولا جدوا في قتالهم».[209]

ومن ثم فقد استبعد خيار القتل في التعامل مع الأسرى في مغرب هذه المرحلة لأهميتهم الاقتصادية بالنسبة للأطراف المتحاربة، مما فسح المجال لاسترقاقهم، أو مفاداتهم بأسرى آخرين، أو بالمال.

2. الأسير ومعاناة الاسترقاق

من المعلوم أن مصير معظم أسرى الحروب كان يؤول إلى الاسترقاق،[210] وهو خيار تم اعتماده على نطاق واسع منذ القديم وفي سائر بقاع الأرض،[211] كما تم اعتماده في بلاد المغرب خلال العصر الوسيط عموماً[212]؛ لذلك حق لأحد الباحثين المتخصصين[213] أن يتحدث عن علاقة حميمة بين الحرب والاسترقاق، كما لم يحد غيره[214] عن جادة الصواب، عندما اعتبر الحرب من بين العناصر الأساسية لبروز الرق والعبودية.

أ. الأسر مرادف الاسترقاق

يبدو أن أسرى الحروب الداخلية، بما فيها تلك التي خاضها بنو مرين في المغرب الأوسط وإفريقية، قد تعرضوا للاسترقاق، فالمنظومة الفقهية لدول المرحلة كانت تسمح بذلك،[215] وإن كان مخالفا للنص الشرعي، باعتبار أن الفقهاء نظروا إلى الأسير المسلم نظرة الحرية، فعدوه حرا أسيرا، ولا سبيل إلى استرقاقه.[216]

وفي الحقيقة، فإننا لا نجد بخصوص أسرى الحروب الداخلية مادة يمكن الاطمئنان إليها، ومع ذلك فلا نعدم بعض الإشارات التي تفيد استرقاقهم. وحسبنا أن القصور السلطانية كانت تضم نساء عربيات (أمهات الولد) لا نستبعد أن يكَن من سبي القبائل العربية؛ فقد كانت للأمير عبد الله بن يوسف المريني أم ولد اسمها زيانة هي والدة أبي الربيع سليمان (708-710هـ/1308-1310م)،[217] كما كان لأبي عنان أم ولد اسمها غزالة هي أم ولده محمد الذي تولى الملك من بعده (759-760هـ/1357-1358م).[218]

وبالمقابل نصادف نصوصاً أخرى تحيل إلى تحرير الأسرى وإطلاق سراحهم دون استرقاقهم، على الأقل كما يفهم من مضمون هذه النصوص. ومن ذلك إطلاق سراح أسرى بني عبد الواد (753هـ/1352م)؛ إذ بعد سوقهم «كالأسرى، فأدخلوا إلى فاس على

Scanned by CamScanner

تلك الحالة (...) سجنوا، ثم أطلقوا بعد ذلك».[219] ومن ذلك أيضا بنات السلطان أبي الحسن، اللواتي أسرن بعد نكبته بالقرب من الجزائر أمام أبي ثابت العبدوادي ومدد أبي عنان «فخلص بناته إلى وانشريس، وبعث بهن أبو ثابت إلى السلطان أبي عنان بعد استيلائه على الجبل».[220] ولعل هذه النصوص تمثل استثناء لمكانة هؤلاء الأسرى وطبيعتهم.

وإذا كان استرقاق أسرى «دار الحرب» وسباياها أمر لا يرقى إليه شك، إن على المستوى النظري الفقهي،[221] أو على المستوى الواقعي العياني بالنسبة للمرحلة المعنية بالدراسة،[222] فإن النصوص التي تتحدث عن مصير الأسرى المغاربة في «دار الحرب» تظل قليلة. غير أن ثمة إشارات تفيد استرقاقهم[223]؛ إذ كان من عادة التجار أن يلتحقوا بالجيش المسيحي «لشراء أسرى المسلمين وأسلابهم».[224] كما يفهم من حديث ابن جبير[225] أن الأسيرات المسلمات في دار الحرب، كانت توضع لهن «في أسواقهم خلاخيل الحديد فتنفطر لهن الأفئدة»، وهي عبارة تفيد عرضهن للبيع في الأسواق.

ب. مظاهر استغلال الأسير المسترق

* أوضاع الأسير بالمغرب الأقصى

جرت العادة بعد كل معركة أن يتم تجميع الأسرى وعدهم لأخذ خمس الدولة،[226] وتحديد مرتبة كل أسير ومستواه الاجتماعي والسياسي في بلده ليحتفظ بالأسرى المهمين منهم،[227] ثم يوزع غيرهم على الجنود، لتبدأ فيهم عملية البيع والشراء.[228] ويبدو أنه كانت توضع لذلك قائمة بالأثمان تخص بيع الأسرى، تختلف بحسب سن الأسير وجنسه ووضعيته الاجتماعية،[229] وبحسب كثرة الأسرى وقلتهم من حملة لأخرى.[230]

ويخيل إلينا أن الأسرى الذين كانت تحتفظ بهم السلطة لنفسها كانت تحجزهم في سجونها[231]؛ ولا شك أن أوضاعهم في هذه السجون كانت مؤسفة، فاشتكوا من القيود التي كبلتهم،[232] ومن الجوع وقلة الطعام.[233] بل إن مارمول في حديثه عن وضع هؤلاء الأسرى، وإن في مرحلة متأخرة عن زمن هذا البحث، يكشف عن وضع هؤلاء في مطامير مكدسة، وبأيديهم الحديد.[234] والثابت في هذا الصدد أن الأسرى استغلوا في أعمال السخرة، وكلفوا بشتى الأشغال؛ ولعل أبرز نموذج لتأكيد ذلك ما ورد في حديث ابن أبي زرع[235] عن بناء الجامع الأعظم بفاس الجديد سنة 677هـ/1278م إذ « لم يخدم في بناء هذا

Scanned by CamScanner

الجامع الكبير من المعلمين إلا أسرى الروم الذين قدم بهم من الأندلس»، كما استعملوا في بناء الأسوار وغيرها من الأشغال.[236]

وعلى الرغم من أهمية هذه القرائن، فإننا لا نستبعد أن يحظى بعض الأسرى بوضع أقل صعوبة من هؤلاء، خاصة من أدمج منهم في الجيش المريني،[237] أو من حظي بمكان في بلاط السلاطين المرينيين.[238] وحسبنا أن التحول الذي اعترى هذه المكانة في بعض سنوات السلطان يوسف بن يعقوب قد أفضت إلى تذمر هؤلاء، وأدت إلى اغتيال هذا السلطان من قبل بعض مماليكه.[239]

أما بالنسبة للأسرى والسبايا الذين وقع فيهم البيع والشراء، فعادة ما يلتحقون ببيوت من اشتروهم، ويرتبطون بهم برابطة السيادة والتملك،[240] ويحمل الواحد منهم اسم سيده المضاف إلى الاسم الجديد الذي ينتقى له.[241] في انتظار إمكانية فكه من الأسر، أو تحريره من ربقة الاسترقاق، وغني عن القول أنهم استغلوا استغلالا فظيعا، وسخروا في العمل داخل المنازل وخارجها، إذ لا يكادون ينتهون من عمل حتى يشرعوا في آخر كان ينتظرهم[242]؛ فاستعملوا «في خدمة البيت من العجين والطبخ والخبز والكنس، وعمل السرير، واستقاء الماء، وغسل الثياب والغزل والنسج وغير ذلك من الأمور، والتصرف داخله وخارجه».[243]

وهكذا استخدم الأسرى المسترقون على غرار العبيد الأرقاء في تدبير شؤون البيت،[244] وشؤون الطبخ والعجن وسقاية الماء،[245] وتنظيف الثياب[246] ولم الحطب للتدفئة،[247] فضلا عن إرضاع الأطفال وتربيتهم،[248] وغير ذلك من الأعمال التي ألزم العبيد والإماء بإنجازها،[249] والتي تمثل في الحقيقة موضوعاً آخر للبحث في هذه الحقبة من تاريخ المغرب.

وجدير بالإشارة إلى أنه بقدر ما استخدم الذكور منهم في مختلف الأعمال الشاقة، اتخذت السبايا منهم للتسري،[250] والمتعة الجنسية،[251] فيما عرف بجواري اللذة.[252] وعلى الرغم من أن عدد سبايا الحروب في العصر المريني لم يرق إلى مستوى العدد الذي أفرزته حروب المرابطين أو الموحدين،[253] فإننا لا نعدم من الدلائل ما يوضح أن اتخاذ الجواري لم يقتصر على السلاطين والوجهاء والمتنفذين فحسب،[254] بل كان الفقراء والمستضعفون يستكثرون من الإماء، ويقبلون على اختيار السراري والمحظيات واقتنائهن[255] لرشف المزيد من اللذة الجنسية.[256] إلا أن هذا الوضع غالبا ما نتجت عنه مشاكل اجتماعية، لا سيما في

Scanned by CamScanner

ما يتعلق بوضع الأمة السبية بعد وطئها وإيلادها، وما يتعلق بالنسب والإرث والعتق وغيرها.[257]

وإلى جانب اتخاذهن للتسري والمتعة الجنسية، وظفت السبيات أيضا في بعض الأعمال التي أثرت على مسار حياتهن وسلوكهن، مثل البغاء الذي فرض عليهن ممارسته تحت إكراه السيد سعيا وراء المال،[258] دون أي اعتبار لإنسانيتهن.

وفضلا عن ذلك، أفضى الوضع الجديد لهؤلاء الأسرى والسبايا إلى لجم حريتهم، وحرية التصرف في شؤونهم الخاصة، فأصبحت سلطة السيد على عبده تكاد تكون مطلقة،[259] لا يتصرف في ماله، ولا يحق له عبداً كان أو آمة الزواج إلا برضا سيده وموافقته،[260] كما لم تخف بعض النصوص ضروب المهانة والتحقير التي ميزت التعامل معهم.[261]

* أوضاع الأسير المغربي بـ«دار الحرب»

لا يخامرنا شك في أن وضعية الأسرى المغاربة بـ «دار الحرب»، لم تكن أقل مأساوية.[262] فقد تحدثت بعض النصوص عن وضعهم المزري، وما كانوا عليه «من الجوع والعري والحاجة»،[263] وكشف بعضها عما تعرضوا له من أشكال «الذل والقسر... باكين من معاناتها مشتكين»[264] من سوء الحال ومشقة الأسر.[265] مما يثبت أن صورة الأسير في دار الحرب، والتي كانت متداولة في أوساط المسلمين الأندلسيين والمغاربة[266] لم تخل من واقعية.

ولا غرو، فقد حرم هؤلاء الأسرى والسبايا من أسمائهم بمجرد استرقاقهم، وخيروا بين اعتناق المسيحية أو العبودية،[267] كما صرفوا «في الخدمة الشاقة تصريف العبيد»،[268] وألزموا الخدمة وأعمال السخرة في المزارع، وفي الخدمة المنزلية على شكل خصيان أو سراري أو عاهرات.[269] ناهيك عن المعاملة القاسية،[270] وأساليب التعذيب والتمثيل التي تعرضوا لها،[271] وهو ما عبر عنه بعض فقهاء المرحلة حين عارضوا استرقاق الأسرى المسيحيين، ودافعوا عن خيار المفاداة بالأسرى أو بالمال تفاديا لما يتعرض له الأسرى المسلمون عند المسيحيين من تعذيب، «ومن أدل الأشياء على ذلك وأعظمها برهانا ما اشتهر عندهم من فعلهم بدليل من المسلمين، أو ذي نكاية منهم إذا حصل أسيراً في أيديهم، فإنهم يسلخون وجهه ويمثلون به أقبح التمثيل وأشنعه».[272]

Scanned by CamScanner

ومن حسن حظنا، أن كتب التراجم قد احتفظت بأسماء بعض الأسرى الذين قدر لهم العودة إلى بلادهم، إلا أنهم لم يسلموا من تبعات التعذيب والإذلال الذي تعرضوا له في محنتهم، والتي رافقتهم إلى مواطنهم، وأضحوا يعيشون آثارها؛ ومن هؤلاء الفقيه علي بن عبد الله الأنصاري (كان حيا سنة 609هـ/1212م) الذي «كان محدث رواية علالا في ما يأثره، ثقة فيما يحدث به صحيح السماع، غير أن أصول سماعه كانت قد ذهبت حين امتحن بالأسر».[273] ويظل أفضل مثال في هذا الاتجاه، وضع الأمير تاشفين بن علي أبي الحسن المريني الذي أصيب بمرض نفسي نتيجة أسره في وقعة طريف (741هـ/1340م)، حيث «كان نقص عقل تاشفين من أجل الأسر الذي أصابه بوقعة طريف أيام والده السلطان أبي الحسن، إلى أن افتدي، وبقي ناقص العقل، مختل المزاج».[274]

في كل الأحوال، وبالرغم من الظروف القاسية التي عانى منها الأسير في هذه الحقبة التاريخية، فإننا نعتقد أن حالة الاسترقاق[275] التي كانت تلحق به بمجرد وقوعه في الأسر تظل حالة عرضية، باعتبارها حالة تلحق بالإنسان من خلال مشاركته في حرب، أو تعرض بلاده للغزو، وفي ضوء هذا فهي حالة ظرفية يمكن إلغاؤها كلما تم فداء هذا الأسير، أو مبادلته بأسرى آخرين.[276] ومن ثم فقد كان الفداء والفدية يمثل الوجه المضيء في وضع هذه الشريحة من ضحايا الحروب، والخيار الأساس الذي اعتمد بشكل كبير في قضية الأسرى بمغرب العصر الوسيط عموما.

3. الأسير وسبل الافتكاك

أ. دور الدولة في معالجة قضية الأسرى

من الثابت، أن دول غرب البحر المتوسط كانت على وعي بقضية الأسرى وما تطرحه من تعقيدات، لذلك خصتها ببعض الاهتمام، فكانت موضوع مراسلات رسمية بين السلاطين المرينيين والملوك المسيحيين.[277] والوثائق التي جمعها ماس لاتري (Mas latrie) تحمل إشارات إلى أن الأسرى حازوا بعض البنود من الاتفاقيات التي وقعتها الدول المسيحية والمغربية، من مثيل أنه بمجرد تحديد جنسية الأسير، ينبغي السعي إلى تحريره، أو مفاداته،[278] وإن كان هذا الباحث قد أقر أن مثل هذه الاتفاقيات قد صادفت صعوبات كثيرة في تطبيقها.[279]

Scanned by CamScanner

ونميل إلى تأكيد هذا الرأي، ففي الوثائق التي جمعها كل من سارتون (Sarton Alarcon) وليناريس (Garcia de linares) من الأرشيف الأراغوني، تثبت رسالة بعث بها السلطان العبدوادي عبد الرحمن بن موسى بن عثمان إلى جاك الثاني ملك أراغون صعوبة تبادل، أو تسريح الأسرى المسيحيين بطلب من هذا الأخير، معللا ذلك بقوله: «وأما تسريح جميع ما عندنا من الأسرى فذلك ما لا يمكن أن يكون (...) لأنكم تعلمون أن ما ملأ بلادنا إلا الأسرى».[280] كما أن جاك الثاني أرسل رسالة إلى يعقوب بن عبد الحق من خلال السفارة التي بعث بها إلى المغرب في مارس 1294م/ 694هـ بقيادة القائد «توريلا»، يطلب فيها الملك الأراغوني إطلاق سراح بعض الأسرى المسيحيين لديه، غير أن ذلك لم يتم، و لم تخرج هذه السفارة بأي اتفاق.[281]

وبعيداً عن هذا الاتجاه، عمل بعض السلاطين المرينيين على افتكاك الأسرى المغاربة من «دار الحرب»، وخصصوا لذلك أموالا؛ فقد ذكر ابن مرزوق[282] من سيرة أبي سعيد عثمان أنه «أخرج الأموال الطائلة لفك الأسرى في سائر بلاد النصارى، وبذل الأموال في الإحسان والصدقات حتى فاض المال بفاس». كما حبس السلطان أبو عنان أموالا كثيرة انتشرت على طول الساحل بغرض افتداء أسرى المسلمين الذين وقعوا في الأسر.[283]

ولا نعدم بعض الإشارات التي تثبت افتكاك الدولة لبعض الأسرى؛ من مثيل ما ورد في الرسالة التي بعث بها أبو حاتم العزفي إلى أبي يوسف يعقوب (682هـ/1283م) عن عدد ما أسر من النصارى، حيث أضاف أن «مما زاد هذه النعم كمالا، وصنع الله فيها جمالا، سراح من كان من أسارى المسلمين من ربق الأسر».[284] وفي رسالة بعث بها السلطان أبو عنان إلى ملك أراغون بيدرو الرابع في 28 رجب 752هـ/1351م أوضح أنه «كثرت الشكايات (...) من الأولاد والأيتام والنساء بقضية تاسهم الذين ببلادك أسرى».[285] وهو ما أشار إليه النميري[286] في اهتمام أبي عنان بقضية هؤلاء الأسرى، وعمله على افتدائهم.

أما الإشارات الأخرى التي نملكها فهي تلك التي تهم افتداء الدولة لأسر بعض الشخصيات المتنفذة؛ كما هو حال الشريف أبي العباس أحمد بن الشريف الحسني الذي أسره النصارى في بحر الزقاق مع أبيه، فتجرد السلطان أبو سعيد عثمان لتخليصهم من الأسر، و«فادى هذا الرجل وأباه على ثلاثة آلاف دينار، ورجعا إلى سبتة»،[287] وكذا حال تاشفين بن أبي الحسن المريني الذي أسر في معركة طريف (741هـ/1340م)، وكان افتكاكه ضمن دوافع السفارة التي بعث بها أبوه برئاسة الفقيه ابن مرزوق «إلى قشتالة في الصلح،

Scanned by CamScanner

وفك ولده المأسور».[288] كما تفيد بعض النصوص أن السلطان يعقوب بن عبد الحق كان يفد عليه أهالي الأسرى فيكرمهم بمال الفدية وزيادة.[289]

وفي كل الأحوال، يبدو أن ثمة نكوصا من جانب الدولة في الانكباب على تقديم الحلول اللازمة لحسم قضية الأسرى خلال هذه المرحلة. وقد تفطنت كتب الفقه[290] والسياسة إلى هذا الوضع، فدعت إلى ضرورة تدخل الدولة في هذا المجال، واعتبروا ذلك من الأعمال المستحسنة في أمور الملك والسياسة، مستشهدة بنماذج من الموروث الإسلامي، وكأنها تلمح إلى تقصير السلاطين المرينيين، أو تشجيعهم على مزيد من الاهتمام بالأسرى، فهذا ابن رضوان[291] يقول عن «الملك المعظم أبي سعيد صاحب إربل (...) كان يسير في كل سنة دفعتين مع جماعة من أمنائه إلى بلاد الساحل، ومعهم جملة مستكثرة من المال، يفك بها أسرى المسلمين من أيدي الكفار، فإذا وصلوا إليه أعطى كل واحد شيئا، وإن لم يصلوا فالأمناء يعطونهم بوصية منه في ذلك».

عموماً، فالدولة لم تتكلف في جميع الحالات بمسؤولية فك، أو افتداء الأسرى، وقد قدم الفقيه أبو عبد الله بن الحاج،[292] بخصوص المرابطين، تبريراً يمكن تعميمه على من جاء بعدهم، إذ يقول إن تبادل الأسرى «إنما يتأتى ويمكن فيما بين أهل بلدين أو قريتين، وأما مع تفرق الأسارى في البلاد النازح بعضها عن بعض، والخارج بعضها في الطاعة (...) فذلك من المتعذر الذي لا يتأتى ولا يمكن معه مفاداة أسارى النصارى بأسارى المسلمين، فتعينت المصلحة في إباحة فدائهم بالمال حسبما اختاره ملوكنا»، ونرجح أن تكون الأعمال الفردية التي تبناها بعض السلاطين المرينيين في هذا الخصوص، مجرد إجراءات ظرفية من قبيل الإصلاحات التي يقدم عليها كل سلطان في بداية عهده بغرض تثبيت سلطته وتلميعها، وما تلبث أن تختفي في وسط عهده وآخره أو مع مجيء سلطان جديد، بدليل أننا لا نملك ما يثبت اهتماماً راسخاً وقاراً بهذه القضية.

مما سبق يتضح أن قضية الأسرى في مغرب هذه الحقبة التاريخية كانت تتطلب جهودا أكبر، واهتماما أوسع من قبل الدولة، وهي التي ورطت الكثير من هؤلاء في حروبها، وعرضتهم لمحنة الأسر، ومذلة الاسترقاق.

ب. دور الحرب في تعزيز روح التضامن الاجتماعي لافتكاك الأسرى

أمام محدودية دور الدولة في استنقاذ الأسرى المغاربة، لا تعوزنا النصوص عن تحمل

Scanned by CamScanner

الناس لمسؤولية افتكاك أنفسهم أو أهلهم من الأسر، كمن «أسر بدار الحرب فجعل ولده رهنا في فدائه (...) ثم أقبل إلى دار الإسلام ليبيع ماله، ويصالح في فداء ولده ممن رهنه فيها»،[293] ومن «تخلص من أسره بمقاطعة بمال وفى به».[294] والمرأة التي تنازلت عن مهرها لزوجها مقابل افتكاكها،[295] والزوج الذي فدا زوجته «بعبد [كانت] قيمته خمسين دينار».[296] فضلا عن الأسرى الذين عرضت أنصباؤهم من التركة «للبيع بالصياح والمزايدة نظراً لهم وعلاجاً في فكهم»،[297] والأسير الذي تخرج فديته من تركة أبيه.[298] وغير هذه الأمثلة كثير.

ويستشف من متون المرحلة أن الحرب، نظرا لتعاظمها في هذه المرحلة، أفرزت أشكالا من التضامن والتكافل الاجتماعي، اضطلعت فيها فئات المجتمع المغربي والأندلسي[299] بأدوار مختلفة. وأبرزها المساهمة في توفير الأموال لافتداء الأسرى المسلمين من «دار الحرب»؛ فقد كان أهل بادس والمشرفين على افتداء الأسرى يطلبون مساهمة النواحي المجاورة في أموال الفدية، وكثيرا ما توجهوا إلى سكان سبتة لاستخلاص ما يمكن أن تجود به أريحيتهم.[300] كما تحدث ابن عبد الملك[301] عن الفقيه محمد بن أحمد ابن محمد اللخمي (ت 614هـ/1217م) الذي «ندب الناس إلى افتكاك أسارى، فتسارع الناس إلى بذل ما حضرهم، وخلع كثير منهم بعض ما كان عليه من الثياب، فـ(...) تراكمت أمام منبره حتى كادت تحجبه عن الأبصار سوى ما وعد به، فتجمل من أثمان تلك الثياب مال جسيم».

وفي مدينة مالقة صادف ابن بطوطة[302] القاضي أبا عبد الله بن أبي جعفر الطنجالي «قاعداً بالجامع الأعظم، ومعه الفقهاء ووجوه الناس يجمعون مالا برسم فداء الأسارى». ناهيك عما عرف في مختلف المدن المغربية والأندلسية أنه كلما وقع أسير في دار الحرب، قام المؤذنون في المساجد يشهرون بأمره، ويجمعون له ما تيسر من المال، وما فضل منه بعد استيفاء فدية الأسير يصرف في افتداء غيره.[303] بل جرى العرف عند أهل بعض الحصون أن مال فدية أسراهم تقسم عن جميع أهل الحصن.[304]

والظاهر أن مؤسسة الأحباس التي تعاظمت خدماتها خلال هذه المرحلة[305] قد وجهت بعض أموالها لتغطية فديات أسرى الحروب، فقد سئل الفقيه محمد بن قاسم القوري (872هـ/1467م) عن الرباعات المحبسة على ضريح ملوك شالة وأوجه صرف الأموال المتحصلة منها، فأوصى بتحويل بعضها لفك أسرى المسلمين.[306] وفي نازلة أخرى سئل

Scanned by CamScanner

بعض الشيوخ عمن افتكه المسلمون من الأسرى، هل يستحق الأخذ من أحباسهم،307 مما يفيد تخصيص الأسرى بأوقاف خاصة خلال هذه المرحلة.

ومما يدل على صحة هذا التخريج، ما تثبته نصوص كثيرة عن ميل الناس إلى تحبيس الأموال نقداً أو عينا في سبيل فداء الأسرى، من ذلك السيدة التي «عهدت بمقياس ذهب يكون ثمنه وقفا مؤبداً مع الذهب العين للسلف لفداء الأسارى لا يزال كذلك».308 وأخرى «عهدت بأسباب معينة من متروكها للأسير، ولمسجد قريتها».309 ومن عهد بمال محبس على «فداء الأسارى، جملته ستمائة دينار من الذهب العين»،310 والورثة الذين عينوا من تركة فقيدهم ما وصى به «للأسارى ولغيرهم (...) داراً وموضعاً».311 كما سبق أن أشرنا إلى ما حبسه السلطان أبي عنان من الأموال بغرض افتداء أسرى المسلمين.312

ومن مظاهر التكافل الاجتماعي في افتداء الأسرى أيضا، ميل الناس إلى تخصيص وصية الثلث من تركاتهم لهذا الغرض؛ فقد سئل بعض الفقهاء «عمن قدمه القاضي على ثلث الأسارى أو الفقراء»،313 كما أوصى بعض من توفوا في وباء «بوصايا، منها واحدة للأسارى».314 فضلا عن «الموصي بثلثه في الفداء»،315 والأسير الذي جمعت له فديته من وصية وسلف.316

ومن نافلة القول، أن التصوف الذي شكل إحدى أهم الظواهر البارزة التي طبعت الحياة الاجتماعية في هذه المرحلة،317 أسهم أعلامه في تقديم الحلول لأزمة الأسير تارة بالدعاء والتبرك، وتارة أخرى بالمساهمة الفعلية في توفير مال الفدية،318 وتعكس نصوص الحقبة المرينية «حسن مشاركتهم»319 في افتداء الأسرى. وفي هذا السياق، ورد في مناقب أبي محمد صالح أن رجلا قصده بغرض النظر في فداء زوجته وأولاده المأسورين بدار الحرب فأعطاه مائتي دينار هي ما قاطع عليهم عند من أسرهم.320 كما التجأ أبو العباس الزقاق إلى الشيخ أبي زيد الهزميري، بعد أن أسرت والدته وأخته، «عسى أن يدعو لهما بالسراح».321 وأورد ابن قنفذ322 في ترجمة الولي الشيخ ابن عاشر أن أسيرا قصده يوما «فنظر إليه وأخرج له سكين البقل»، باعها الأسير «بالمزايدة في السوق بسبعة دينار ذهبية».

ومن الطريف في هذا الصدد، وما قضى به عجب من شاهده، أن أحد المتصوفة، وهو أبو العباس الناهض، كان يشترط في الدعاء للأسير وافتكاكه تقديم بعض المال له، وحدث أن طالبه أحدهم بتخفيف القدر المطلوب من المال فرد عليه قائلا «سر، لا يخرج بأقل من

Scanned by CamScanner

أربعمائة دينار، فقضيت العجب مما شاهدته منه». 323 كما تجدر الإشارة إلى أن من أهالي الأسرى من كان يقصد بعض المنجمين لتبين مصير أسراهم، وإمكانية تخلصهم من الأسر أو عدمها. 324

عموما فقد كان طبيعيا في مجتمع يدين بالإسلام ومتشبع بقيم التضامن ونصرة المستضعفين، أن تسوده أشكال من التآزر والتكافل للحد من معاناة الأسير وافتدائه من قبضة العدو، خاصة وأن الأمر يتعلق بفكرة «الجهاد» وإعلاء كلمة الله. وقد تلمسنا بعض هذه الأشكال سواء من خلال تكاثف جهود مختلف فئات المجتمع المغربي، لتوفير الأموال لفدية الأسرى، أو من خلال أعمال الوقف والوصية والصدقات التي تولى القيام بها فقهاء وتجار ومتصوفة وغيرهم فضلا عن المؤسسات العامة.

وبالمثل، يخيل إلينا أن الوضع لم يختلف في المعسكر الآخر، حيث إن عمليات افتداء الأسرى المسيحيين لأنفسهم بأنفسهم من بلاد المغرب كانت نشيطة بدورها، فلا تعوزنا النصوص عن النصارى الذين حاولوا افتكاك أنفسهم من الأسر، من مثيل من وقع في سهم أحد المسلمين فسأله الفداء ففداه بمائة دينار. 325 والنصراني الذي ارتهن ابنته البكر إلى أن يأتي بالمال «فوقع عليها المرتهن فأحبلها، ثم قدم العلج بالفداء». 326

وعلى غرار ما لا حظناه في بلاد المغرب، اضطلع التجار ورجال الدين بأدوار هامة في افتداء الأسرى المسيحيين، بل قد لا نبالغ إن قلنا إن هذه العملية كانت أكثر تنظيما في أوربا المسيحية، حيث برزت في هذا الصدد فرق دينية كانت عمليات افتداء الأسرى أهم أعمالها، من مثيل فرقة «عذراء الرحمة»، و«سان جاك»، و«الثالوث المقدس»، فقد حاولت كل فرقة أن تنافس مثيلاتها في أعمال الفدية. 327

علاوة على ذلك، تحدثت بعض العقود الجنوية عن أدوار هامة للتجار المسيحيين ببلاد المغرب في افتداء الأسرى، فقد افتك بعض تجار جنوة أسيرا إسبانيا مسيحيا بمراكش سنة 686هـ/1287م. 328 كما تمكن غيرهم من افتكاك حوالي 236 أسير مسيحي بمراكش سنة 713هـ/1313م، 329 بل إن بعض القادة المسيحيين في الجيش المريني حاولوا تحرير بعض الأسرى من سجون بني مرين، كما حدث خلال تمرد الوزير رحو بن يعقوب الوطاسي بدعم من قائد المرتزقة النصارى «كونثالو سانتشيس» على أبي الربيع سليمان سنة 710هـ/1310م، فنزلوا تازة وتمكنوا من تحرير بعض الأسرى المسيحيين. 330

Scanned by CamScanner

ج. مؤسسة الفكاك، ومقدار الفدية

الحقيقة أن المادة التي تمكنا من الإطلاع عليها، لا تسمح لنا بتوضيح عمليات الفداء، إلا أن المؤكد أنه خلال هذه المرحلة، انتظمتها سواء في بلاد المغرب، أو في «دار الحرب» مؤسسة تعرف بالفكاك ALFAQUEQUE؛[331] تكونت في «دار الحرب» من رجال الكنيسة والتجار، وفي بلاد المغرب من الفقهاء والرجال المعروفين بأمانتهم في الغالب. كما أن عمليات الافتداء كانت تتم بصكوك وعقود تثبت حرية الأسير،[332] ومن ذلك العقد الذي يثبت حرية الشريف الحسني أبي العباس، ورسمه «مؤرخ بالموفي عشرين لمحرم عام عشرين وسبعمائة»/1320م.[333]

أما بالنسبة لمقدار الفدية، فلا نملك عنه غير بعض الأرقام التي تثبت أن قيمته كانت تختلف من أسير لآخر، بحسب «ما يساوي على ما يعرف من حاله في بلده، ويرجى أن يفتك به أهله، وما يعرف من الرغبة في فدائه»،[334] وهو ما نبرزه في هذا النموذج:

جدول رقم 12: عينة لمقدار فدية الأسير حسب قيمته ووضعيته الاجتماعية

الأسير	الفدية	ممول الفدية	المصدر
أبو العباس احمد بن الشريف الحسني وأبيه	3000 دينار ذهبية	أبو سعيد عثمان السلطان (710-731هـ/1310-1330م)	التعريف بابن خلدون، ص. 149.
أبو العباس احمد بن الشريف الحسني وأبيه	7500 دينار ذهبية	نفسه	المسند الصحيح، ص. 149.
زوجة وأولاد	200 دينار	أحد مريدي أبو محمد صالح	المنهاج الواضح، ص: 324-325.
أم وابنتان	230 دينار ذهبية	يعقوب بن عبد الحق	المقصد، ص. 111-112.
زوجة وأولاد	500 دينار ذهبية	جمعها الولي أبو العباس السبتي	مناقب أبي العباس السبتي، 102.
أسير رجل	100 دينار	والد الأسير	المعيار، ج. 2، 117.
أولاد رهائن	200 دينار	أهلهم	نفسه، ج. 2، ص. 117.
زوجة	مهر قدره 50 دينار	زوجها	نفسه، ج. 1، ص. 103.
علج نصراني	100 دينار	الأسير نفسه	نفسه، ص. 428.
أسير	ثمن عبد	واهب	نفسه، ص. 213.

وإذا كان هؤلاء الأسرى قد حالفهم الحظ، فافتدوا أنفسهم، أو فاداهم إخوانهم وأهلوهم، أو غيرهم من المسلمين، فإننا لا نعدم من القرائن ما يثبت أن بعض الأسرى لم

Scanned by CamScanner

يجدوا سبيلا إلى افتكاكهم، كمن «أبى صاحبه بيعه إلا بأضعاف ثمنه»،[335] ومن بعث إلى إخوانه يستعطفهم لعلهم يفكون أسره، فكتب أرجوزة سماها «ذكرى المتفجعين وبشرى المسترجعين».[336] ومن كتب من موضع أسره إلى صاحبه قائلا:

لو كنت حيث تجيبني   لأذاب قلبك ما أقول[337]

فضلا عمن اضطر إلى البقاء، «في الأسر خمسة وعشرين عاماً»،[338] ودونه من أقام أسيرا «ببلاد النصارى دون الثلاث سنين».[339]

وبالمقابل، لا تخلو النصوص من بعض الحالات التي فضل فيها أصحابها البقاء في دار الحرب عن طوع وإرادة، أو البقاء في بلاد الإسلام بالنسبة للأسير المسيحي، كمن تنصر،[340] أو أسلم[341] منهم. ومن استهوته حياته الجديدة في بلد أسره ففضل البقاء؛ ومن هؤلاء رجل يعرف بالهيدورة «برع في التخنيث والكيد حتى صار يضرب به المثل، وهو الذي لما حصل في الأسر كتب له إخوانه يتفجعون من شأنه، فجاوبهم: يا سخفاء العقول، ولأي شيء تتفجعون من شأني وهناك (...) وهنا (...) [بياض في النص] وزيادة ختانة لم تقطع، خير كثير».[342]

حصيلة القول إن الحرب في المغرب الأقصى خلال العصر المريني أفضت إلى سقوط عدد هام من السكان الأحرار في ربق الأسر. وإذا كان الكثير من هؤلاء الأسرى قد قدر لهم أن يعيشوا أوضاعا مؤسفة في الأمكنة التي نقلوا إليها بعيدا عن مواطنهم، فقد مثل الإفتكاك والفدية الوجه المضيء، والمنقذ لهذه الشريحة من ضحايا الحرب، خاصة بعد أن ساهمت فيه مختلف فئات المجتمع في إطار التكافل والتضامن الاجتماعيين. مما يسمح لنا بالقول، وإن بتحفظ، إن مآسي الحرب يمكن أن تنفع أحيانا لأنها بقدر ما كانت تمزق وتفرق، كانت تجمع، وتحيي مشاعر التضامن والتآزر بين الأفراد والجماعات.

---

[1] تمثل هذه المشكلة إحدى أبرز العراقيل الأساسية التي وقفت سداً منيعاً أمام بناء معرفة تاريخية حول الديموغرافيا بمغرب العصر الوسيط والعوامل المؤثرة فيها. ولعلها السبب الرئيسي وراء غياب أي دراسة تاريخية ديموغرافية متخصصة وموسعة عن المغرب الوسيط. ويجدر بنا أن ننوه ببعض المحاولات الجريئة التي حاولت ملامسة هذا الموضوع. منها على سبيل المثال، إبراهيم القادري بوتشيش، **مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس** (خصص أحد هذه المباحث لدراسة السكان والديموغرافيا)
Mohmed Talbi, "Effondrement démographique au Maghreb du XI[e] au XV[e] siècles", *Les Cahiers du Tunisie*, XXV, 1977.
فضلا عن الأبحاث التي بدأت تنشرها مجموعة الديموغرافية التاريخية بكلية الآداب بوجدة ضمن مجلة

كنانيش. ومنها، إبراهيم القادري بوتشيش، أثر قيام الدول وسقوطها في التطور الديموغرافي بالمغرب في العصر الوسيط (دراسة حالة)، مجلة كنانيش، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة، ع. 1، 1999، ص ص، 41—52. محمد حجاج الطويل، المسألة الديموغرافية، نحو منهجية ديموغرافية، محاولة إحصائية (العصر الوسيط نموذجا)، مجلة كنانيش، ع. 1، 1999، ص ص، 19—28. مصطفى نشاط، جوانب من الديموغرفيا التاريخية لليهود والنصارى بالمغرب في العصر المريني، مجلة كنانيش، ع. 1، 1999، ص ص، 65—80.

[2] إبراهيم القادري بوتشيش، أثر قيام الدول وسقوطها، ص، 41.

[3] وقد عبر ابن خلدون عن هذه الثنائية بين الحرب والجائحة الطبيعية وأدوارها في المرحلة الوسيطية، في حديثه عن المراحل المتأخرة من عمر الدولة التي يكثر فيها القتلى والموتان «من كثرة المجاعات (...) أو كثرة الفتن لاختلال الدولة، فيكثر المرج والقتل»، المقدمة، ص، 238. بل نجده يجمع بينهما في حديثه عن التبدل الذي مس المغرب الأقصى نتيجة طاعون سنة 749هـ/1348م، والحروب التي أعقبت تضعضع الحكم المريني بعد أبي عنان. انظر، المقدمة، ص، 25.

[4] قد لا نبالغ إن قلنا إن الباحث في آثار الحروب في الوضعية الديموغرافية خلال العصر المريني، يعتبر أقل حظا بسبب فقره الشديد للنصوص الرقمية، من غيره الذي انصب بحثه على مراحل سابقة من مثيل ما توفره الإسطوغرافيا من إمكانيات حول أثرها في الفترة الموحدية، انظر للمقارنة، حميد تيتاو، أثر الحروب في الحياة الاقتصادية والاجتماعية بالغرب الإسلامي، ص ص، 65—73.

[5] وفضلا عن هذه المعضلة، لا نكاد نعثر على إحصائيات ولو تقريبية لأعداد السكان في فترات الهدوء، والتي من الممكن مقارنتها بمثيلتها في حالة الاضطراب، عن هذه المشكلة، وعن بعض المحاولات في تقدير عدد سكان المغرب في العصر الوسيط. انظر،

Jean Bregnion et autres, *Histoire du Maroc*, Librairie Nationale, Casablanca, 1967, pp. 76-153.

وانظر أيضا، محمد الطويل، الفلاحة المغربية، ص، 61.

[6] Maya Shatzmiller, *L'Historiographie mérinide. Ibn Khaldûn et ses contemporains*, Leiden, E.J.brill, 1982, pp. 111-115-116.

[7] ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 318. الذخيرة السنية، ص، 150.

[8] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[9] Laroui (A), *Histoire du Maroc...*, *op. cit.*, p. 199.

[10] جاستون بوتول، الحرب والمجتمع، ص، 70.

[11] مجموعة من المؤلفين، الحروب والحضارات، إصدار المؤسسة الفرنسية لدراسات الدفاع الوطني، ترجمة أحمد عبد الكريم، دار طلاس، دمشق، 1984، ص ص، 43—44.

[12] تطلق هذه الصفة عندما يتوقف النمو الديموغرافي أو يتباطأ بشكل مفاجئ في النمو، وهي الحالة التي تلو بالضرورة كل حرب. انظر، جاستون بوتول، الحرب والمجتمع، ص، 67.

[13] يمكن أن نتبين هذه الحقيقة من مقارنة بسيطة بين نتائج الحروب التي شنها الموحدون في بداية ق6هـ/12م ضداً على المرابطين والموالين لهم، والتي تميزت بغطاء ديني يقوم على النفي المطلق لوجود الغير الذي ينظر إليه على أنه تجسيد للشر المطلق، فأنتج مجازر جماعية، وأعداداً هائلة من القتلى، وحروب المرينيين التمهيدية، كما سنرى، والتي افتقدت لأي غطاء ديني مما أوجد حلولا من التفاهم أو الحل الوسط بين الأطراف المتحاربة، وقلل من نسبة الوفيات. انظر ما توصل إليه أحد الدارسين عن هذه المقارنة، سالم حميش، الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ، ص ص، 73—74.

[14] التادلي ابن الزيات، التشوف، مقدمة المحقق. العزفي، دعامة اليقين، مقدمة المحقق، ص، هـ —و. ابن الأبار، الحلة السيراء، ج. 1، مقدمة المحقق، ص، 22. وراجع، محمد زنيبر، أزمة الحكم الموحدي في النصف

Scanned by CamScanner

الأول من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، ضمن كتاب **الاسطوغرافية والأزمة، دراسات في الكتابة التاريخية والثقافة**، إنجاز الجمعية المغربية للبحث التاريخي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1994، ص ص، 9–23. إبراهيم القادري بوتشيش، **واقع الأزمة والخطاب الإصلاحي في كتب المناقب والكرامات (أواخر ق6 وبداية ق7 هـ/ 12-13م)**، ضمن كتاب الإسطوغرافية والأزمة، ص ص، 25–50.

Kably, *Société, pouvoir…, op. cit.*, pp. 2-3.

[15] يقول الناصري إنه في هذه المعركة هلك الجمهور من حامية المغرب ورعاياه حتى خلت البلاد من أهلها، ثم حدث عقب ذلك الوباء العظيم الذي تحيف الناس إلا قليلا، الاستقصا، ج. 3، ص، 4. وانظر عن هذه الانفعالات، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 282. الذخيرة السنية، ص، 26. مجهول، الحلل الموشية، ص، 161. مجهول، نبذة من تاريخ المغرب الأقصى، ص، 26. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 224. ابن الأحمر، بيوتات فاس الكبرى، ص، 53.

[16] الذخيرة السنية، ص، 26. الأنيس المطرب، ص، 282. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 5.

[17] ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ص، 239–240. وإذا أخذنا بعين الاعتبار الرقم الذي قدمه هذا المؤرخ لجيوش الناصر أمكن تصديق هذه الرواية أو ما يقاربها، فقد «عد في عسكره مائة وستين ألفا من فارس وراجل، ومن الرجال المحشودين ثلاثة مائة ألف رجل، ومن العبيد الذين يمشون بين يديه بالحرب ويدورون عليه ثلاثون ألف عبد، ومن الرماة الأغزاز عشرة آلاف دون المرتزقة من الموحدين وزناتة والعرب وغيرهم»، الأنيس المطرب، ص، 240. وقد حدد مجموع من جاز إلى الأندلس في حوالي 600 ألف، الذخيرة السنية، ص، 46. وهو ما يعني أن الرقم الذي قدمه من القتلى أقل مما صورته المصادر عن فراغ المغرب نتيجة هذه الهزيمة.

[18] Laroui (A), *L'histoire du Maghreb, op. cit.*, p. 199.

[19] الناصري، **الاستقصا**، ج. 3، ص، 5. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص ص، 225–226.

[20] ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص، 27. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 224. ابن غازي، **الروض الهتون**، ص، 12.

[21] مجهول، **نبذة من تاريخ المغرب الأقصى**، ص، 126. ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 283. **الذخيرة السنية**، ص، 27.

[22] ابن عذاري، **البيان المغرب، قسم الموحدين**، ص، 351.

[23] ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 284.

[24] ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص، 29.

[25] المصدر نفسه، ص، 28.

[26] المصدر نفسه، ص، 36. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 226.

[27] المصدر نفسه، ص، 34–50. **الأنيس المطرب**، ص، 287.

[28] ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص، 37.

[29] ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص، 36.

[30] المصدر نفسه، ص، 37. **الأنيس المطرب**، ص، 289. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 226.

[31] مجهول، **نبذة عن تاريخ المغرب الأقصى**، ص، 129.

[32] ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 226.

[33] ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص، 67.

[34] الناصري، **الاستقصا**، ج. 3، ص، 18. مصطفى أبو ضيف، **أثر القبائل العربية**، ص، 166.

Scanned by CamScanner

35 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 35. الأنيس المطرب، ص، 288.

36 مجهول، نبذة من تاريخ المغرب الأقصى، ص، 134. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 233.

37 ابن الأحمر، روضة النسرين، ص، 60. ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، ص، 113.

38 ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ص، 284–285.

39 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 252.

40 ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، س8، ق1، ص، 194.

41 البيان المغرب، قسم الموحدين، ص، 419.

42 Kably, *Société, pouvoir ...*, *op. cit.*, pp. 11-12-13.

43 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 37.

44 سالم حميش، الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ، ص، 59.

45 مجاعة استمرت ما بين 617هـ إلى 637هـ، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 41. ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج. 1، ص، 34.

46 مجاعة سنة 630هـ/1232م، الناصري، الاستقصا، ج. 2، ص، 256.

47 مجاعة ضربت مراكش زمن الرشيد الموحدي (630–640هـ/1232–1242م)، ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ص، 325–326.

48 مجاعة سنة 634هـ/1236م، المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

49 مجاعة سنة 635هـ/1237م، الناصري، الاستقصا، ج. 2، ص، 255.

50 المقدمة، ص، 238.

51 ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص، 92. ج. 7، ص، 168.

52 ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج. 3، ص، 109. ابن غازي، الروض الهتون، ص ص، 40–41. عمر بن ميرة، النوازل والمجتمع، ص ص، 126–127.

53 ابن الخطيب، معيار الاختيار، ص، 164. الونشريسي، المعيار، ج. 6، ص، 116. ج. 7، ص، 43.

54 ابن خلدون، المقدمة، ص ص، 237–238.

55 انظر، الناصري، الاستقصا، ج. 4، ص، 38–94.

Brignon et autres, *Histoire du Maroc*, *op. cit.*, p. 168.

56 Cour (A), *La dynastie marocaine*, *op. cit.*, p. 39.

57 ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج. 3، ص ص، 108–109. معيار الاختيار، ص، 182. ابن هلال، الدر النثير، ص، 147.

58 ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج. 2، ص، 56–58. ج. 3، ص ص، 89–90. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 472. الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 207–210–299–306–338–339.

59 ابن غازي، الروض الهتون، ص ص، 40–41. الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 210.

60 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 215.

61 ابن بطوطة، الرحلة، ص، 683. مجهول، ذكر تاريخ مراكش، ص، 308.

62 Cour (A), *La dynastie marocaine*, *op. cit.*, p. 39.

63 ابن خلدون، المقدمة، ص، 25.

64 المصدر نفسه، ص، 237.

65 جاستون بوتول، الحرب والمجتمع، ص، 70.

66 راجع المبحث الأول من الفصل الأول من هذا البحث، وكذا المبحث الأول من الفصل الخامس.

Scanned by CamScanner

67 على الرغم من إقرارنا بالحضور النسوي المتميز في حروب المرينيين، والذي تثبته العديد من النصوص (انظر ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص، 129. **الأنيس المطرب**، ج. 7، ص، 305. ابن الحاج النميري، **فيض العباب**، ص ص، 93-94). إلا أننا نعتقد أن هذا الحضور تقلص مع خروجهم إلى الجبهات الخارجية سواء إلى الأندلس أو إفريقية أو المغرب الأوسط، واقتصر على حريم السلطان والحاشية (انظر ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 389. الونشريسي، **المعيار**، ج. 2، ص، 114).

68 راجع العنصر المتعلق بأرامل الحرب، ضمن الفصل الخامس من هذا البحث.

69 الحسين بولقطيب، **الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى**، ق1، ص، 192.

70 كثيرا ما نصادف في متون المرحلة نصوصاً عن تذمر الجنود من غيابهم الطويل عن زوجاتهم. راجع لمزيد من التفصيل، المبحث الأول من الفصل الخامس.

71 **المقدمة**، ص، 237.

72 أحمد بابا التنبكتي، **نيل الابتهاج**، ص، 232.

73 **كتاب الإمتاع والانتفاع بمسألة سماع السماع، أو اتجاهات أدبية وحضارية في عصر بني مرين**، دراسة وإعداد محمد بن شقرون، مطبعة الأندلس، القنيطرة، د.ت، ص، 17.

74 العبر، ج. 7، ص ص، 314-315. الأنيس المطرب، ص، 395.

75 انظر ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 315-316-318-321...356. **الذخيرة السنية**، ص، 144-145-146-147-150-152-159-162. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص ص، 252-278، 284-285. المزوزي، **نظم السلوك**، ص ص، 100-102.

76 انظر ابن الخطيب، **اللمحة البدرية**، ص، 63.

77 ابن خلدون، المقدمة، ص، 132-135. ويقول في بعض هذا أن «الحضارة إنما هي تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية، وسائر عوائد المنزل وأحواله»، ص، 136.

78 المصدر نفسه، ص، 138.

79 ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 285.

80 ابن الأحمر، روضة النسرين، ص، 25.

81 المصدر نفسه، ص، 39.

82 جاستون بوتول، **الحرب والمجتمع**، ص، 70.

83 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

84 Kably, *Société, pouvoir…, op. cit.*, pp. 171-218.

85 انظر للتفصيل العنصر الأول من المبحث الثاني من الفصل الثاني ضمن الباب الأول من هذا البحث.

86 العمري، **مسالك الأبصار**، ص ص، 110-111. محمد المنوني، **ورقات عن حضارة بني مرين**، ص، 99-100-101.

87 Gaillard (H), *Fès, une ville d'Islam*, Paris, 1905, p. 61.

88 ابن خلدون، المقدمة، ص، 345. مجهول، **البيوتات النازحة من الأندلس بعد نكبة بني الأحمر، وما قيل من القصائد في فقد الأندلس**، مخ.خ.ع، الرباط، رقم 28 د، (ض.م)، ص، 36. مجهول، **نكبة بني الأحمر**، ورقة، 25. وانظر للتفصيل، رزوق محمد، **الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 و17م**، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1989.

89 مجهول، **نكبة بني الأحمر**، ورقة، 25.

90 محمد رزوق، **الأندلسيون وهجراتهم**، ص، 130.

Scanned by CamScanner

[91] المرجع نفسه، ص، 131.

[92] العمري، مسالك الأبصار، ص، 111. المنوني، ورقات، ص ص، 99–100.

[93] انظر، ابن خلدون، التعريف بابن خلدون، ص ص، 33–34. أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، ص، 146. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج. 3، ص، 288. ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ق 1، ص، 288.

[94] انظر المبحث الأول من الفصل الثاني ضمن الباب الأول من هذا البحث.

[95] العمري، مسالك الأبصار، ص، 111. ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، ص، 282.

[96] مصطفى نشاط، جوانب من الديموغرافية التاريخية، ص، 72.

[97] ابن الحاج العبدري، فيض العباب، ص، 63.

[98] مصطفى نشاط، الارتزاق المسيحي، ص، 126.

[99] ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ص، 315–356. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص ص، 252–278، 284–285، 337–338–345–346.

[100] ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 152. الأنيس المطرب، ص، 319. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 229.

[101] Alarcon Sarton et Garcia de Linares, *Los documentos arabes diplomaticos del archivo de la Corona de Aragon*, Madrid-Granada, 1940, p. 184.

[102] برانشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ج. 1، ص، 433.

[103] مصطفى نشاط، جوانب من الديموغرافية التاريخية، ص، 67.

[104] حاييم الزعفراني، ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب، تاريخ، ثقافة، دين، ترجمة أحمد شحلان، عبد الغني أبو العزم، الدار البيضاء، 1987، ص، 10.

[105] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[106] Khanboubi (A), *Les premiers sultans mérinides*, *op. cit.*, p. 175.

[107] لقد كان ابن خلدون بنباهته وحسه الاجتماعي، على يقين بما يميز الانتقال من طور البداوة إلى طور الحضارة، أو من الجيل الأول إلى الجيل الثاني والثالث في عمر الدولة من التزايد الديموغرافي. لكنه للأسف لم يقدم مثالا عن إحدى دول المغرب، لافتقاره على ما يبدو إلى الإحصائيات، إلا أنه أثبت ذلك من خلال مثال دولة الإسلام في المشرق فقال، «واعتبر هذا بما وقع في الدولة العربية في الإسلام، كان عدد العرب كما قلناه لعهد النبوة والخلافة مائة وخمسين ألف أو ما يقاربها من مضر وقحطان. ولما بلغ الترف مبالغه في الدولة وتوفر نموهم بتوفر النعمة، واستكثر الخلق من الموالي والصنائع بلغ ذلك العدد إلى أضعافه. يقال، إن المعتصم نازل عمورية لما افتتحها في تسعمائة ألف (...) وقال المسعودي، أحصي بنو العباس بن عبد المطلب خاصة أيام المأمون للإنفاق عليهم، فكانوا ثلاثين ألفا بين ذكر وإناث، فانظر مبالغ هذا العدد لأقل من مائتي سنة، وأعلم أن سببه الرفه والنعيم الذي حصل للدولة وربي فيه أجيالهم؛ وإلا فعدد العرب لأول الفتح لم يبلغ هذا ولا قريبا منه»، المقدمة، ص، 138.

[108] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[109] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[110] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[111] المصدر نفسه، ص، 129.

[112] ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 122. الأنيس المطرب، ص، 307. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 27.

Scanned by CamScanner

113 ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص ص، 249–250.
114 المصدر نفسه، ج. 7، ص، 267.
115 المصدر نفسه، ج. 7، ص، 273.
116 ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص ص، 377–378.
117 **الأنيس المطرب**، ص، 322.
118 المصدر نفسه، ص، 404.
119 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 311. ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 391.
120 المصدر نفسه، ج. 7، ص، 313.
121 المصدر نفسه، ص، 312.
122 ابن الخطيب، **شرح رقم الحلل**، ص، 276.
123 إبراهيم حركات، **السياسة والمجتمع في العصر السعدي**، ص، 25.
124 احمد مختار العبادي، **دراسات في تاريخ المغرب والأندلس**، الإسكندرية، 1968، ص ص، 418–419.
مصطفى أبو ضيف أحمد، **أثر القبائل العربية**، ص، 177.
125 الناصري، **الاستقصا**، ج. 2، ص، 22.
126 ابن الأحمر، **نثير الجمان**، ص، 283. ابن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة**، ج. 3، ص، 356.
127 أحمد بابا التنبكتي، **نيل الابتهاج**، ص، 398.
128 ابن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة**، ج. 3، ص، 358.
129 أحمد بابا التنبكتي، **نيل الابتهاج**، ص، 219.
130 ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 153.
131 الناصري، **الاستقصا**، ج. 3، ص، 171.
132 ابن قنفذ القسنطيني، **شرف الطالب**، ص، 19.
133 ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 25.
134 محمد استيتو، **الفقر والفقراء**، ص، 115.
135 الناصري، **الاستقصا**، ج. 3، ص، 181.
136 انظر عن هذه المعضلة، محمد الأمين البزاز، **الطاعون الأسود**، ص ص، 109–122. سالم حميش، **الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ**، ص ص، 62–70.
137 ابن خلدون، المقدمة، ص، 25. مصطفى ناعيمي، **أهمية التجارة بالنسبة للبنية الاقتصادية والاجتماعية**، ص، 237.

Birben, Jean-Noël, "La peste noire en terre d'Islam", *L'Histoire*, n° 11, 1979, pp. 22-36.
138 Shatzmiller, *L'Historiographe mérinide…*, *op. cit.*, p. 88.
139 Talbi (M), "Effondrement démographique…", *art. cit.*, p. 57.

وانظر عن مراجعة هذا الرقم

Birben, *Ibid.*

140 جاستون بوتول، **الحرب والمجتمع**، ص، 70.
141 تشتمل الغنيمة في الفقه والتراث الإسلامي «على أقسام، أسرى وسبي وأرضين وأموال، فأما الأسرى فهم الرجال المقاتلون من الكفار، إذا ظفر المسلمون بأسراهم أحياء، وأما السبي فهم النساء والأطفال، فلا يجوز أن يقتلوا (...) ويكونوا سبيا مسترقا ويقسمون مع الغنائم»، الماوردي، **الأحكام السلطانية**، ص، 131–134.

Scanned by CamScanner

[142] الماوردي، الأحكام السلطانية، ص، 131. وسنعود في هذا المبحث إلى هذه النقطة لوضعها في إطارها التاريخي العياني.

[143] ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص، 310.

[144] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[145] ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص، 346.

[146] ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 28. الأنيس المطرب، ص، 284. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 225.

[147] ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، ص، 111.

[148] ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 35.

[149] مجهول، نبذة من تاريخ المغرب الأقصى، ص، 137. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 306.

[150] ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 116. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 241. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 26.

[151] ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 306. الذخيرة السنية، ص، 117.

[152] ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 122. الأنيس المطرب، ص، 307. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 242. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 27.

[153] ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص ص، 249–250.

[154] ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 378. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 67.

[155] ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 392.

[156] عبد العزيز غوردو، الارتزاق بالدولة المغربية، ص، 166.

[157] ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 313.

[158] ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 116.

[159] المصدر نفسه، الصفحة نفسها. الأنيس المطرب، ص، 305. ابن الأحمر، روضة النسرين، ص، 60. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 244.

[160] ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 131. الأنيس المطرب، ص، 310.

[161] ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، ص، 113.

[162] عبد العزيز غوردو، الارتزاق بالدولة المغربية، ص، 166.

[163] ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 337. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 270.

[164] المصدر نفسه، ص، 379.

[165] ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 381.

[166] المصدر نفسه، ص، 382.

[167] ابن الأحمر، روضة النسرين، ص ص، 65–66. علي حامد الماحي، المغرب في عهد أبي عنان، ص، 86.

[168] ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 365.

[169] علي الماحي، المغرب في عهد أبي عنان، ص، 73.

[170] انظر محمد القبلي، الدولة والولاية والمجال، ص، 18.

[171] Kably, *Variations islamistes…*, *op. cit.*, p. 66.

[172] لعل هذه الملاحظة هي التي جعلت الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش يتحفظ في تعميم خصائص «اقتصاد الغزو» على الحقبة المرينية لتقلص نسبة غزوات الدولة المركزية إلى الأندلس، وضعف نتائجها. انظر، الحياة الاجتماعية، ج. 3، ص، 935.

Scanned by CamScanner

173 انظر للوقوف على هذه الملاحظة، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 314-315-316-318-321-325-327-333...356. الذخيرة السنية ، ص، 144-145-146-147-150-152-159-162. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص ص، 252-278. الملزوزي، نظم السلوك، ص، 100-101-142.

174 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 144. الأنيس المطرب، ص، 314. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 253-254.

175 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 147. الأنيس المطرب، ص، 315.

176 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ص، 318-319. الذخيرة السنية، ص، 152. الملزوزي، نظم السلوك، ص ص، 100-101. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 256.

177 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 321. الذخيرة السنية، ص، 159.

178 انظر نص الرسالة، القبتوري، رسائل ديوانية، ص ص، 60-74.

179 المصدر نفسه، ص، 72.

180 نظم السلوك، ص، 142.

181 اعتمدنا في هذا الجدول على الغزوات التي تم الحشد لها من بلاد المغرب وأغفلنا ما قد يحصل عليه الغزاة المرينيون في الجيش النصري بالأندلس، إذ لا نستبعد أن تكون بعض غنائمهم بما فيها الأسرى والسبايا تصل إلى المغرب. انظر، ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص، 63. مجهول، مجموع مؤلف من ظهائر شريفة وعقود وأنكحة...، ص، 116.

182 مصطفى نشاط، جوانب من الديموغرافيا التاريخية، ص، 73.

183 Heers (J), *Esclaves et domestiques au Moyen Âge dans le monde méditerranéen*, Librairie Arthème Fayard, Paris, 1981, p. 25.

184 انظر، ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، ص، 117-119-149. البادسي، المقصد الشريف، ص، 61-95-111-112. ابن خلدون، التعريف بابن خلدون، ص، 84.

185 ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص، 419. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 301. الذخيرة السنية، ص، 93.

186 البيان المغرب، قسم الموحدين، ص، 422.

187 مجهول، ورقات في التاريخ، و، 146. ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 121. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 31.

188 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 330.

189 الكفيف الزرهوني، ملعبة، ص، 85. أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، ص، 451.

190 ابن خلدون، التعريف بابن خلدون، ص، 84. ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، ص ص، 149-150. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج. 3، ص، 373.

191 البادسي، المقصد الشريف، ص ص، 111-112.

192 المصدر نفسه، ص، 61.

193 انظر مثلا، البادسي، المقصد الشريف، ص، 74-95-134. ابن تجلات، إثمد العينين، ص ص، 230-231. احمد بابا التمبكتي، نيل الابتهاج، ص، 196.

194 المقصد الشريف، ص، 61.

195 اليفراني محمد الصغير، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، مكتبة الطالب، الرباط، د.ت، ص، 214. وانظر للتفصيل،

Rosenberger et Triki, "Famines et épidémies au Maroc aux XVI[e] et XVII[e] siècles", 1[er] partie, *Hesperis Tamuda*, vol. XIV, Fasc-unique, 1973 (pp. 109-175) voir, pp. 125-134.

Scanned by CamScanner

196 الماوردي، **الأحكام السلطانية**، ص، 131. ابن الحاج، **المدخل إلى تنمية الأعمال**، ج. 2، ص، 180.

197 انظر في هذا الصدد نقاشا مستفيضا عن أحكام الأسرى بين فقهاء المغرب والأندلس في ق 8هـ/14م، الونشريسي، **المعيار**، ج. 2، ص ص، 158–206.

198 ويبدو أن فقهاء المرحلة المدروسة كانوا على دراية بصعوبة تطبيق الأحكام الفقهية في قضية الأسرى، دون إخضاعها لمستجدات المرحلة، ولخصوصية المنطقة التي فرضها الصراع الدائم مع مسيحيي إسبانيا، فميزوا بين الجانب النظري الفقهي للقضية وجانبها الواقعي التاريخي، انظر الونشريسي، **المعيار**، ج. 2، ص، 158.

199 انظر مثلا عن الموحدين، ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت، مج. 7، ص، 8. ابن عذاري، **البيان المغرب، قسم الموحدين**، ص، 101–102–147.

200 وإن كنا نرجح وقوعها ضمن التعامل بالمثل، وفي إطار ردود الفعل بين الجانبين، فقد كان من عادة الموحدين مثلا، أنهم لا يأسروا مشركا محاربا إن ظفروا به ولو كان ملكا عظيماً، بل تضرب رقابهم كثروا أو قلوا. ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، مج. 7، ص، 8.

201 ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص ص، 239–240. وهي رواية على ما يبدو لا تخلو من مبالغة.

202 عبد الواحد المراكشي، **المعجب**، ص، 458. وإن كانت هذه العبارة تفيد أن من سلموا من القتل هن النساء دون الرجال.

203 Gautier-Dalché, Jean, "Islam et chrétienté en Espagne au XII^{e} siècle : contribution à l'étude de la notion de frontière", *Hesperis*, Année 1959, 3^{e}-4^{e} Trimestre, Tom XLXII, p. 214.

204 راجع المبحث الثاني من الفصل الثاني من الباب الأول ضمن هذا البحث.

205 Heers, *Esclaves et domestiques*, *op. cit.*, p. 25.

206 إبراهيم القادري بوتشيش، **الإسلام السري في المغرب العربي**، سينا للنشر، القاهرة، 1995، ص ص، 235–236. **مباحث في التاريخ الاجتماعي**، ص ص، 228–229.

207 يتعلق الأمر بأبي عبد الله بن الحاج الذي عاصر الفترة المرابطية، ونعتمده هنا، باعتبار أن فقهاء المرحلة المدروسة قد اعتبروا أن قوله يعبر عما جرى به العمل في المغرب والأندلس حتى بعد المرحلة التي عاصرها. ويقول ابن الحاج بخصوص خيار القتل، «وأما القتل، فإنه لو سن للمسلمين أن يقتلوا كل أسير حصل بأيديهم من النصارى لكان في ذلك النكاية العظيمة للنصارى، والغيض الشنيع، والخروج عن عادة جرت عليها الأمم السالفة على اختلاف أديانها ومذاهبها، ولأداهم ذلك بالضرورة إلى قتل من بأيديهم من أسارى المسلمين، وفي ذلك الخسارة على المسلمين والتدمير لهم مالا يخفى على أحد أنه غير مصلحة ولا جائز، وذلك لكثرة من بأيديهم من المسلمين»، الونشريسي، **المعيار**، ج. 2، ص، 199.

208 المصدر نفسه، ج. 2، ص، 200.

209 المصدر نفسه، ج. 2، ص، 199.

210 عبد الإله بنمليح، **الرق في المغرب والأندلس خلال القرنين 5 و6هـ**، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، 1999–2000م، ص، 110.

211 علي عبد الواحد وافي، **قصة الملكية في العالم**، دار نهضة مصر، القاهرة، 1987، المعارف، مصر، 1969، ص، 36. وول ديورانت، **قصة الحضارة**، ترجمة محمد بدران، القاهرة، ط. 3، 1964، مج. 4، ج. 3، ص ص، 409–410.

212 عبد الإله بنمليح، **الرق في المغرب والأندلس**، ص، 111.

213 المرجع نفسه، ص، 110.

214 Wallon, *Histoire de l'esclavage dans l'Antiquité*, Robert La Font, Paris, 1988, p. 180.

215 عبد الإله بنمليح، **الرق في المغرب والأندلس**، ص، 111.

Scanned by CamScanner

216 عبد اللطيف عامر، **أحكام الأسرى والسبايا في الحروب الإسلامية**، دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط. 1، 1985، ص، 237. عبد الإله بنمليح، **الرق في المغرب والأندلس**، ص، 112.

217 ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 392.

218 ابن الأحمر، **روضة النسرين**، ص، 29.

219 المصدر نفسه، ص ص، 65–66.

220 ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 159.

221 انظر حول هذه القضية،

Morabia (A), *Le Gihad dans l'islam médiéval*, Albin Michel, Histoire, Paris, 1993, p. 233.

222 يكفي أن نشير هنا إلى بعض النصوص، من مثيل، «بيعت الرومية من هذا السبي بمثقال ونصف ذهبا لكثرتهن»، ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص، 159.

«بيعت الأعلاج والأسلاب والخيل والبغال والأسباب».

(الملزوزي، **نظم السلوك**، ص، 101)، وانظر عن هذه الأمثلة النصوص التي أوردناها في الصفحات القليلة السابقة.

223 يقول وول ديورانت في كتابه **قصة الحضارة**، أن الكنيسة في أوربا في العصور الوسطى ما فتئت تساند استرقاق الأسرى من غير المسيحيين على الرغم من أن البابا غريغوري الأول أعتق اثنين من عبيده، وعبر عن موقف يفيد ضرورة الحرية لجميع الناس، إلا أنه استمر في استخدام مئات العبيد في المزارع البابوية، ووافق على القوانين التي تمنع الأسير من الزواج بالحرائر المسيحيات، انظر، **قصة الحضارة**، مج. 4، ج. 3، ص، 409.

224 نقلا عن عبد الإله بنمليح، **الرق في المغرب والأندلس**، ص، 142.

225 **الرحلة**، قدم لها، محمد مصطفى زيادة، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، د.ت، ص، 214.

226 ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 319. ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 256.

227 ابن شاهين، **رحلة في الغرب الإسلامي**، ص، 43.

228 ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص، 159. **الأنيس المطرب**، ص، 321. الملزوزي، **نظم السلوك**، ص، 101. عبد الإله بنمليح، **الرق في المغرب والأندلس**، ص، 142. حسن الفكيكي، **مقاومة الوجود الإيبيري بالثغور الشمالية المحتلة. 1415–1575م**، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1990، ص، 591.

229 حسن الفيكيكي، **مقاومة الوجود الايبيري**، ص، 591.

230 وحسبنا أنه في إحدى الحملات (674هـ/1275م) «بيعت الرومية من هذا السبي بمثقال ونصف ذهبا لكثرتهن»، ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 321. **الذخيرة السنية**، ص، 159. انظر أيضا، الملزوزي، **نظم الجمان**، ص، 101.

231 ابن شاهين، **رحلة في الغرب الإسلامي**، ص، 43.

232 مارمول، **إفريقيا**، ج. 2، ص، 106.

233 تخص الحالة التي نملكها في هذا الصدد، إفريقية في العهد الحفصي، والتي تحدثت عن تعرض السجناء الأسرى للجوع وقلة الطعام، لكننا لا نستبعد وقوع مثل هذه الحالات في المغرب الأقصى، ابن شاهين، **رحلة في الغرب الإسلامي**، ص، 35.

234 مارمول، **إفريقيا**، ج. 2، ص، 106.

235 **الذخيرة السنية**، ص، 162.

Scanned by CamScanner

236 محمد رزوق، الأندلسيون وهجراتهم، ص، 161. علي حامد الماحي، المغرب في عهد أبي عنان، ص، 86.

237 محمد المنوني، ورقات عن حضارة بني مرين، ص، 100.

238 ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج. 4، ص، 357.

239 محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي، ص، 92.

240 إبراهيم القادري بوتشيش، الإسلام السري في المغرب العربي، ص، 238. عبد الاله بنمليح، ظاهرة الرق في الغرب الإسلامي، ص، 51.

Jack Heers, *Esclaves et domestiques*, *op. cit.*, p. 199.

241 القلقشندي، صبح الأعشى، ج. 5، ص، 401. وانظر للتفصيل، عبد الإله بنمليح، ظاهرة الرق في الغرب الإسلامي، ص ص، 72–83.

242 Jacques Heers, *Esclaves et domestiques*, *op. cit.*, p. 199.
Bruschvig, *La Berbérie*..., *op. cit.*, pp. 449-450.

243 عبد الواحد المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، تحقيق حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 1997، ص، 495.

244 أبو عبد الله محمد العقباني، كتاب تحفة الناظر وغنية الذاكر من حفظ الشعائر وتغيير المناكر، تحقيق علي الشنوفي، ضمن

Bulletin d'Etudes Orientales, Tom XIX, années 1965-1966, damas, 1967, p. 261.

245 التادلي ابن الزيات، التشوف، ص، 219.

246 المقري، نفح الطيب، ج. 2، ص، 372.

247 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

248 Jack Heers, *Esclaves et domestiques*, *op. cit.*, pp. 199-200.

249 راجع للتفصيل في هذا الموضوع، عبد الإله بلمليح، ظاهرة الرق في الغرب الإسلامي، ص ص، 25–40.

250 راجع عن الفرق بين الآمة والسبية، زكي حسام الدين، اللغة والثقافة، ص، 284، هامش 2. وتنبغي الإشارة إلى أن الفقهاء اشترطوا في صدق مصطلح التسري حصول الوطئ ولو مرة واحدة، وتسمى السرية بعد أن توطئ أم ولد. زينة احمد، المرأة في التراث العربي، دار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1993، ط. 1، ص، 194.

251 ابن تجلات، إلمد العينين، ص ص، 230–231. ابن الخطيب، كتاب عمل من طب لمن حب، طبع النص العربي مع بيان المصطلحات ومعجم الأسماء الطبية، ماريا كنشيون فاثكز بنيتو، الجامعة من سلمنقة 1972، ص، 274. ابن هلال، الأجوبة، ص، 61. الونشريسي، المعيار، ج. 1، ص، 69. ج. 4، ص ص، 275–276. ابن عيشون، الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس، ج. 2، تحقيق ودراسة، زهراء النظام، رسالة لنيل د.د.ع. في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1989، ص ص، 278–279. السوسي، نوازل أبي مهدي السكتاني، ص، 194–296–344.

252 من المتعارف عليه أن الإماء قسمن في الغالب إلى قسمين متفاوتين سواء من ناحية دورهما، أو من ناحية منزلتهما الاجتماعية، فالصنف الأول يتعلق بالإماء اللواتي استخدمن في البيوت لأداء الخدمات المنزلية، وما شابهها. أما الصنف الثاني من الإماء، فيشتمل اللواتي اتخذن للمتعة الجنسية والنسل، وعرفن في الأندلس بـ جواري اللذة، انظر، ابن حزم، الرسائل، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط. 1، 1980، ج. 1، (مقدمة المحقق)، ص، 69.

253 راجع في هذا الخصوص، إبراهيم القادري بوتشيش، الإسلام السري في المغرب العربي، ص ص، 235–237. عبد الإله بلمليح، الرق في المغرب والأندلس، ص ص، 131–146. أحمد المحمودي، عامة المغرب

Scanned by CamScanner

الأقصى في العصر الموحدي، منشورات جامعة المولى إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مطبعة عكاظ، 2001، ص ص، 53–55.

254 يكفي أن نشير إلى أن أمهات بعض السلاطين والأمراء المرينيين كن من هؤلاء السبيات، انظر ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 321. ابن الأحمر، روضة النسرين، ص، 37–47. ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج. 1، ص، 83–343. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 181. ج. 4، ص، 7–95–96. انظر أيضا عن توفر بعض الأسر الوجيهة على هذه الجواري. ابن الأحمر، نثير فرائد الجمان، ص، 339. ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، ص، 489. ابن الأحمر، أعلام المغرب والأندلس، ص، 70. ابن القاضي، المصدر نفسه، ج. 1، ص، 120. ج. 2، ص، 509.

255 ابن هلال، الأجوبة، ص، 70. ابن الخطيب، ريحانة الكتاب، ج. 2، ص، 226. الونشريسي، المعيار، ج. 5، ص، 100. ج. 9، ص، 235–236، 240–241. المقري، نفح الطيب، ج. 6، ص، 174. ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج. 1، ص، 324.

256 الحسين بولقطيب، الهلالي الجيلالي، حول مسألة الجنس بمغرب العصر الوسيط، مقدمات من أجل بحث، مجلة دراسات عربية، ع. 10–12، ص، 102.

257 وقد سجلت مصادر هذه المرحلة جملة من هذه المشاكل، انظر، ابن هلال، الدر النثير، ص ص، 415-416. ابن هلال، الأجوبة، ص، 61. الونشريسي، المعيار، ج. 10، ص، 361–363. ج. 5، ص، 100–101. السوسي، نوازل السكتاني، ص، 29–9–296.

258 الحميري، الروض المعطار، ص، 316. عبد الإله بنمليح، ظاهرة الرق في الغرب الإسلامي، ص ص، 91-94.

259 إبراهيم القادري بوتشيش، الإسلام السري، ص، 238.

260 أبو العباس احمد بن يحيى الونشريسي، إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك، دراسة وتحقيق احمد بوطاهر الخطابي، مطبعة فضالة، المحمدية، 1980، ص، 309–311–312.

261 عبد السلام الترمانيني، الرق، عالم المعرفة، ع. 23، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، نوفمبر 1979، ص، 97.

262 Guy Liauzu, "La condition des musulmans dans l'Aragon chrétien aux XIe et XIIe siècles", *Hesperis Tamuda*, vol. IX, Fasc. 2, 1968, pp. 185-200.

263 الونشريسي، المعيار، ج. 1، ص، 397.

264 القبتوري، رسائل ديوانية، ص، 74.

265 ابن الزبير، صلة الصلة، ق 3، تحقيق، عبد السلام الهراس، سعيد أعراب، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، مطبعة فضالة، المحمدية، 1993، ص، 144. ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، وضع حواشيه، خليل منصور، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997، ج. 2، ص، 121.

266 وهو ما عبرت عنه أمثال العامة، فقالوا، «غذوة مارس، وعشيت أبريل، تشيب الأسير»، الزجالي، أمثال العوام، مثل رقم 1733، ق 2، ص، 396. وقالوا أيضا، «أمر ما على الأسير، المتنصر»، مثل رقم 174، ق2، ص، 45. وأيضا، «أسير الصلح أش لو فدية»، ص، 213.

267 Guy Liauzu, *art. cit.*, pp. 185-200.

268 ابن جبير، الرحلة، ص، 214.

269 وول ديورانت، قصة الحضارة، ج. 3، مج. 4، ترجمة محمد بدران، ط. 3، 1964، ص ص، 409–410.

270 إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص ص، 86–87.

Scanned by CamScanner

271 ابن عبد الملك، التكملة لكتاب الصلة، ص، 161؛

272 الونشريسي، المعيار، ج. 2، ص، 198.

273 ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، س 8، ق 1، ص، 156.

274 الناصري، الاستقصا، ج. 4، ص، 41.

275 عبد الإله بنمليح، الرق في المغرب والأندلس، ص، 108.

276 لم يتردد الفقهاء في نقد خيار الاسترقاق ضمن الخيارات الأربعة التي ذكرناها، وألحقوها بما يمكن أن يجلبه خيار القتل من المفسدة فقالوا «أما الاسترقاق، ومنع الفداء جملة، ففي ذلك من المفسدة وعدم المصلحة أعظم من الأول، وذلك أن لو استرققنا كل أسير حصل بأيدينا من الروم على مر الزمان، و لم نفاد به أحداً منهم، لكانوا قد أربوا علينا في العدد أضعافاً كثيرة، ولخفنا منهم، وكنا نعجز عن مقاومة ما حصل ببلدنا منهم، وعن القيام بما يكفيهم من الطعام وغيره، ولكان ذلك سببا لهلاكنا واستئصالنا، مع ما يتبع ذلك من امتناعهم عن فداء المسلمين، وعملهم على استرقاقهم»، الونشريسي، المعيار، ج. 2، ص، 199.

277 رشيد السلامي، وثائق مرينية، ج. 1، ص، 61–63. ج. 2، ص، 210. مصطفى نشاط، نصوص مترجمة، ص، 141.

278 Louis Mas-Latrie, *Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale au Moyen Âge*, Paris, 1866-1875, p. 216

279 *Ibid*, p. 216.

280 *Los documentos arabes*, *op. cit.*, p. 184.

281 Dufourcq, *L'Espagne catalane*, *op. cit*, p. 345.

282 المسند الصحيح الحسن، ص، 117–119.

283 ابن الحاج، فيض العباب، ص، 169–170.

284 القبتوري، رسائل ديوانية، ص، 72.

285 رشيد السلامي، وثائق مرينية، ص، 210.

286 فيض العباب، ص ص، 191–193.

287 ابن خلدون، التعريف بابن خلدون، ص، 84. وفي رواية أخرى لابن مرزوق، فإن المسيحي الذي أسرهم شطط «في الطلب إلى أن وقفوا على سبعة آلاف دينار من الذهب فأخرجها [أبو سعيد عثمان] من ماله»، المسند الصحيح الحسن، ص، 149–150. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج. 3، ص، 373.

288 أحمد بابا التمبكتي، نيل الابتهاج، ص، 451. وفي ملعبة الكفيف الزرهوني زجل بهذا الشأن،

«كان مولاي بوعمر مأسور — عند الرومي وسرحوا أنعام
قال السلطان يقام لذا السنيور — بهدية من ذخاير الإسلام
تجمع فيها أمور نحتكرا — ما هداها قبلنا ولا شروان
ونجوزها قال لعدوة الكفرا — مع قياد الموحدين شيخان»،

ملعبة، ص، 85.

289 ذكر البادسي أن أحدهم أسرت زوجته وبنت له صغيرة، وتوجه لهذا الغرض بـ «طلب قد ينتهي للأمير يعقوب بن عبد الحق (...) وتوجهنا إلى السلطان، فقضى الله الحاجة، ودفع لنا ألف دينار»، المقصد الشريف، ص ص، 111–112.

290 في سؤال لسيدي عبد الرحمن الواغليسي (ت. 786هـ/1384م) عن سبل صرف مال الفيء، أجاب «إنه ينظر فيه بوجوه المصالح، ويصرف في الأهم فالأهم، ومن مصارفه بناء المساجد ونحوها، إلا أنه إن

Scanned by CamScanner

كان ما هو أهم صرف إليه كضرورة أهل الحاجة والإعانة لمن هم أهل له، وفك الأسارى»، العلمي، نوازل العلمي، ج. 2، ص، 290.

291 الشهب اللامعة، ص، 227.

292 نقلا عن الونشريسي، المعيار، ج. 2، ص، 200.

293 الونشريسي، المعيار، ج. 8، ص، 117.

294 ابن الزبير، صلة الصلة، تحقيق، عبد السلام الهراس، سعيد أعراب، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، مطبعة فضالة، المحمدية، 1994، ق4، ص، 187.

295 الونشريسي، المعيار، ج. 2، ص، 103.

296 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

297 المصدر نفسه، ج. 5، ص، 247.

298 المصدر نفسه، ج. 2، ص، 117.

299 نشير هنا إلى الأندلس باعتبار أن عمليات افتداء الأسرى، والأموال المحصلة من مساعدات المسلمين كانت تتجمع في الثغور القريبة من دار الحرب، كما أننا لم نصادف نصاً يميز بين الأسير الأندلسي والأسير المغربي، بل إن عمليات الافتداء، وما يجمع لها من المال كانت تخص الأسير المسلم كيفما كان موطنه سواء من المغرب أو من الأندلس، بل تميل إلى القول إن عمليات الافتكاك التي تكفل بها المسلمون كانت تراعي بعد الأسير عن بلده، وغياب من يتكفل من أهله بافتكاكه، مما يعني أن المغاربة قد حظوا بقسط هام من أموال أهل الأندلس المقدمة لافتكاك أسرى دار الحرب. ومما يعزز هذا التخريج ما عرف عن أهل المشرق الإسلامي، اعتماداً على قول ابن جبير أن «من جميل صنع الله تعالى لأسرى المغاربة، بهذه البلاد الشامية الإفرنجية، أن كل من يخرج من ماله وصية المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها إنما يعينها في افتكاك المغاربة خاصة لبعدهم عن بلادهم، وأنهم لا مخلص لهم سوى ذلك، من بعد الله عز وجل، فهم الغرباء المنقطعون عن بلادهم، فملوك أهل هذه الجهات من المسلمين والخواتين من النساء وأهل اليسار والثراء، إنما ينفقون أموالهم في هذا السبيل. وقد كان نور الدين رحمه الله نذر، في مرضة أصابته، تفريق إثني عشر ألف دينار في فداء أسرى من المغاربة (...) وقال، هؤلاء (يقصد أسرى الشام)، يفتكهم أهلوهم والمغاربة غرباء لا أهل لهم»، الرحلة، ص، 214.

300 حليمة فرحات، بادس، معلمة تاريخ المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، 1991، ج. 3، ص، 967.

301 الذيل والتكملة، س 8، ق1، ص، 268.

302 الرحلة، ص، 679. انظر أيضا أبو عبد الله الساحلي المالقي، بغية السالك في أشرف المسالك، تحقيق، عبد الرحيم العلمي، منشورات وزارة الأقاف والشؤون الاسلامية، المملكة المغربية، مطبعة إليت، 1424هـ، 2003م، ج. 2، ص ص، 483–484.

303 الونشريسي، المعيار، ج. 2، ص، 211.

304 المصدر نفسه، ج. 2، ص، 117.

305 محمد المنوني، دور الأوقاف في التكافل الاجتماعي عبر عصر بني مرين (657–869هـ)، مجلة دعوة الحق، ع. 230، يوليوز–غشت، 1983، ص ص، 27–33. عمر بن ميرة، النوازل والمجتمع، ص، 269.

306 الونشريسي، المعيار، ج. 7، ص ص، 18–20.

307 المصدر نفسه، ج. 7، ص، 333.

308 المصدر نفسه، ج. 9، ص، 253.

309 المصدر نفسه، ج. 10، ص، 294.

Scanned by CamScanner

310 المصدر نفسه، ج. 7، ص، 207.

311 المصدر نفسه، ج. 10، ص، 297.

312 ابن الحاج العبدري، فيض العباب، ص ص، 169–170.

313 الونشريسي، المعيار، ج. 6، ص، 77.

314 المصدر نفسه، ج. 10، ص، 296.

315 المصدر نفسه، ج. 9، ص، 256.

316 المصدر نفسه، ج. 10، ص، 157. بل إن التأثر بقضية الأسير والاهتمام بها بلغت ببعض الفقهاء إلى أن ينشد قائلا،

وصيت في الأسير بخير وصية   فدى كل عضو منك ناج من الأسر

يتعلق الأمر بعبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى بن محمد بن سعيد بن محمد اللخمي (ت 673هـ)، ابن الزبير، صلة الصلة، ص، 217.

317 راجع المبحث الثالث من الفصل الثالث ضمن هذا الباب.

318 أبو عبد الله الساحلي المالقي، بغية السالك، ج. 2، ص، 484.

319 البادسي، المقصد الشريف، ص، 112.

320 الماجري، أبو العباس أحمد بن إبراهيم، المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح، المطبعة المصرية، القاهرة، ط. 1، 1923، ص ص، 324–325.

321 ابن تجلات، إثمد العينين، ص ص، 230–231. وانظر عن حالات أخرى في هذا الاتجاه، ابن الزيات التادلي، التشوف، ص، 159–188. البادسي، المقصد الشريف، ص، 95–97–112. مجهول، مناقب الشيخ الولي الصالح الإمام الغوث سيدي أحمد بن جعفر السبتي، مخ. خ. ع، الرباط، رقم د 896، ص ص، 101–102. أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، ص، 451.

322 الحاقي، تحفة الزائر، ص، 50.

323 البادسي، المقصد الشريف، ص، 97.

324 علي ابن أبي الرجال، شرح أرجوزة في الأحكام النجومية، ص، 70.

325 الونشريسي، المعيار، ج. 2، ص، 428.

326 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

327 مصطفى نشاط، جوانب من الديموغرافية التاريخية، ص، 74.

328 Jehel (G), *Les Génois en Méditerranée occidentale*, Paris, 1993, p. 396.

329 Dufourcq, *L'Espagne Catalane*, *op. cit.*, p. 466.

330 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص ص، 318–319.

331 الونشريسي، المعيار، ج. 2، ص، 158. ج. 4، ص، 240. وانظر عن أصل هذه الكلمة وانتقالها إلى أوربا المسيحية حسين اليعقوبي، في الفكاكة والفكاكين، مجلة دراسات أندلسية، ع. 7، المطبعة المغاربية، تونس، 1992، ص، 59–62.

332 ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج. 3، ص، 373. الونشريسي، المعيار، ج. 2، ص، 179–211.

333 ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، ص ص، 149–150.

334 الونشريسي، المعيار، ج. 6، ص، 240.

335 الونشريسي، المعيار، ج. 6، ص، 240.

336 ابن الزبير، صلة الصلة، ق 3، ص، 144 [يتعلق الأمر بعبد الله بن برطلة، ت. 661هـ/1262م بتونس].

337 يتعلق الأمر بعبد الله بن عذرة، (كان حيا سنة 610هـ/1213م)، ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج. 2، ص، 121.

Scanned by CamScanner

338 الونشريسي، المعيار، ج. 3، ص، 168.

339 البادسي، المقصد الشريف، ص، 61. يتعلق الأمر بإبراهيم بن عيسى بن داود من أهل غمارة.

340 المصدر نفسه، ج. 3، ص، 250.

341 الونشريسي، المعيار، ج. 2، ص، 158.

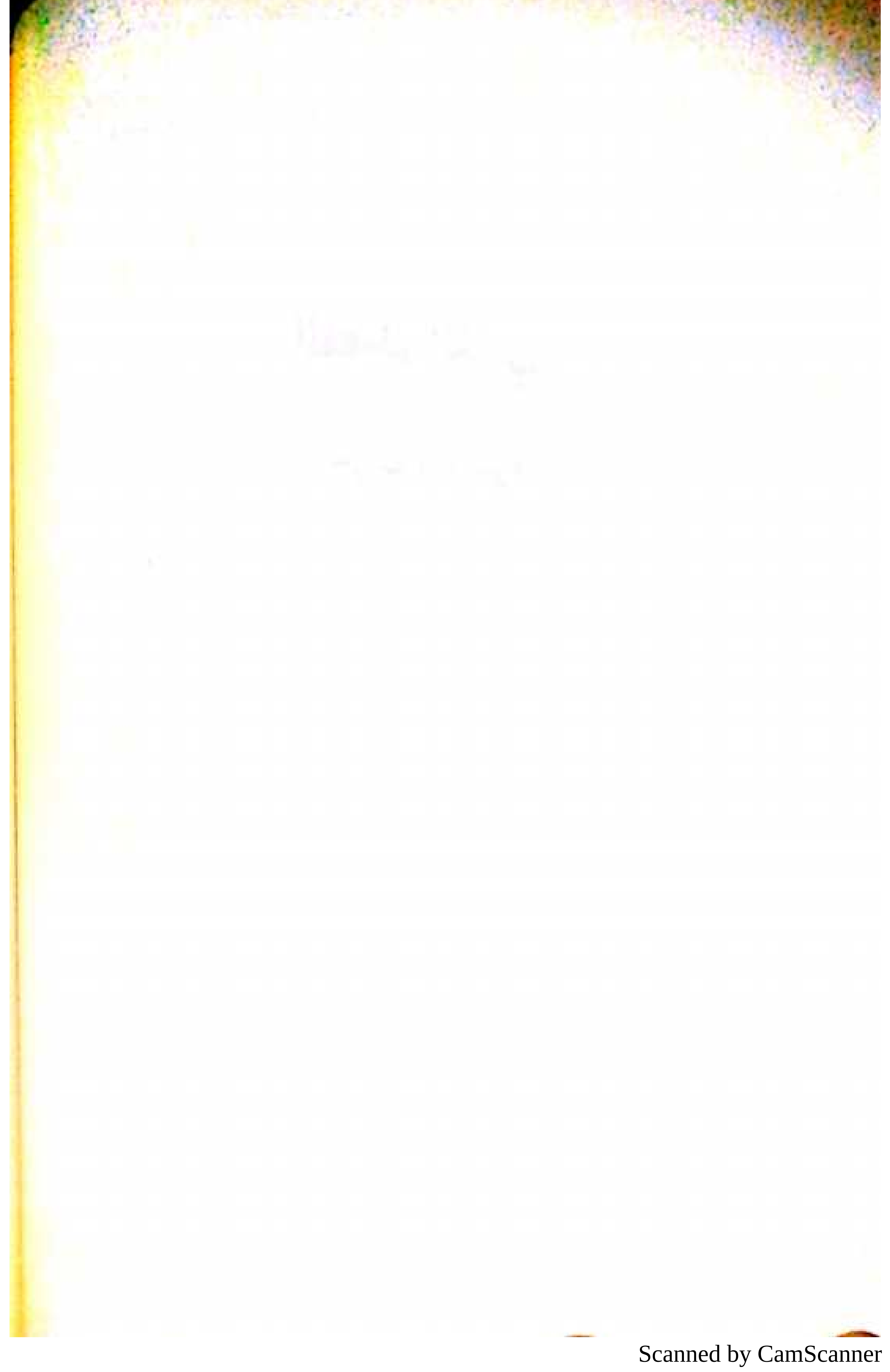
342 ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج. 1، ص ص، 117-118.

Scanned by CamScanner

الفصل الثاني

الحرب والأسرة

Scanned by CamScanner



Scanned by CamScanner

المبحث الأول: آثار الحرب في الحياة الاجتماعية للجند

عندما نقتفي آثار الحرب وانعكاساتها في مصادر ومتون العصر المريني، فإننا لا نجدها مقترنة فقط بقضايا القتل والأسر والجرح والاسترقاق، وإنما هي ملازمة أيضا لأحوال الجند وحياتهم الاجتماعية بصفة عامة. فلا مراء في أن كثرة الحروب واستمرارها، وطول المدد التي كان الجنود يقضونها بعيداً عن عائلاتهم، فضلا عن الظواهر الطارئة على حياتهم العسكرية الناتجة إما عن الأسر أو الفقدان، طبعت حياتهم الاجتماعية بكثير من الصعوبات، وأفضت أحيانا إلى ارتباك العلاقة بينهم وبين وسطهم العائلي والاجتماعي، إذ إن كل ما كان يلحق بالجندي من مخلفات حياته العسكرية كان من مثيل الأثافي، ويكفي أن يتضرر منها حتى يتداعى وضع أسرته بكاملها.

أولا: الحملات العسكرية وإرهاق الجند

1. الجندي زمن الحركات العسكرية طويلة الأمد

تعج مصادر المرحلة المدروسة بالإشارات المتنوعة إلى طول المدد الزمنية التي يقضيها الجند بعيداً عن ذويهم وعيالهم. وقد سبق أن استوقفتنا هذه الظاهرة في فصل سابق، وإن من جانب آخر،[1] فخلصنا إلى أن أهم ما ميز الطابع الحربي للدولة المرينية هو ذلك التنقل الدائم والمستمر للسلطان بمعية جيشه خارج عاصمته، سواء في اتجاه مناطق داخل المغرب الأقصى، أو نحو تلمسان وتونس، أو الأندلس.[2] ومن هنا تأتي مشروعية التساؤل عن الوضع الاجتماعي للجنود في ظل هذه التغيبات المستمرة والمتتالية عن مواطنهم، وعن إمكانية إفراز هذا التنقل الدائم لبعض التذمرات والتمردات في صفوفهم، كما في نفسيتهم.

فمن خلال تتبع إحصائي لمدد الحملات التي قادها السلاطين المرينيون في اتجاه بعض المناطق، تستوقفنا التغيبات الطويلة والمتتالية للجند،[3] وتثيرنا قصر مدد الاستراحة بين هذه الحملات. وفي هذا الصدد يمكن أن نستحضر عينة موضحة لتبين مدى تعاظم هذه الظاهرة في مغرب العصر المريني.[4]

Scanned by CamScanner

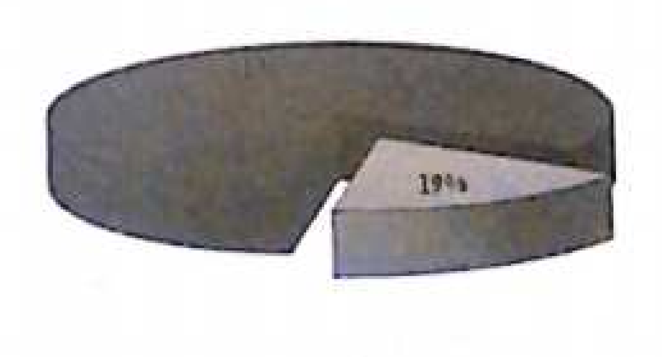
جدول رقم 13: عينة عن مدد حملات بعض السلاطين المرينيين، ومدد الاستراحة بينها

فترة حكم يعقوب بن عبد الحق، بين 670هـ و685هـ

وجهة الحملة	تاريخ انطلاق الحملة	تاريخ نهاية الحملة	مدة الحملة	مدة فترة الاستراحة
تلمسان	أول صفر، 670هـ	غرة محرم، 671هـ	سنة واحدة	
مراكش-طنجة	11 صفر، 671هـ	ما بعد ربيع I، 672هـ	3 أشهر	شهر واحد
سجلماسة	رجب 672هـ	ما بعد ربيع I، 673هـ	8 أشهر	ثلاثة أشهر
الأندلس	1 شوال 673هـ	منتصف شعبان 674هـ	10 أشهر	4 أشهر
مراكش-الأندلس	محرم 675هـ	العشر الأولى من محرم، 677هـ	سنتان (2)	4 أشهر
مراكش	صفر 677هـ	قبل رجب 678هـ بأيام	سنة و6 أشهر	شهر واحد
طنجة	رجب 678هـ	آخر شوال 678هـ	3 أشهر	شهر واحد
تلمسان	ذي الحجة 679هـ	رمضان 680هـ	9 أشهر	سنة واحدة
مراكش-الأندلس	أول ذي الحجة 680هـ	شعبان 682هـ	سنة و5 أشهر	ثلاثة أشهر
مراكش-الأندلس	شوال 682هـ	22 محرم 685هـ	سنتين و3 أشهر	شهر واحد
		المجموع بالسنوات	10 سنوات و11شهرا	سنتان وستة أشهر

رسم بياني: مقارنة بين مدة الحملات العسكرية الإجمالي ومدة الاستراحة بينها في عهد يعقوب بن عبد الحق

670هـ و685هـ





Scanned by CamScanner

وإذا كان الأمر يتعلق، في هذه العينة، بمرحلة ترسيخ أركان الدولة المرينية، فقد كان طبيعيا أن تتكثف حملات السلاطين لتمهيد البلاد، وتسييد سلطتهم، وإظهارها في المجال،[5] فإننا لا نعدم إشارات عن طول مدد تغيبات الجند خلال الفترات اللاحقة، بل بشكل أكبر، ومدد أطول، وفي مجالات أوسع.[6] ولعل أشهرها تلك التي ترتبت على الحصار الطويل لمدينة تلمسان العبدوادية، والذي امتد لمدة ثماني سنوات.[7] على أننا نرجح أن تكون مدة غياب الجند عن مواطنهم أطول من مدة الحصار؛ باعتبار أن أبا يعقوب يوسف في حملاته الأولى على هذه المدينة، وقبل ضرب الحصار، كان ترك بعضا من جنده للإغارة عليها،[8] ولعل هذا ما يفسر تميز ابن أبي زرع[9] بالرقم الذي حدده لغياب الجند بقصد هذا الحصار في أربع عشرة سنة.

على أن الفترة الممتدة بين سنة 707هـ/1307م إلى 731هـ/1330م والتي شملت حكم السلاطين أبي ثابت عامر، وأبي الربيع سليمان ثم أبي سعيد عثمان، لم تسجل فترات غياب طويلة للجنود عن مواطنهم وأسرهم.[10] ولعل هذا ما يفسر عدم تسجيل المصادر لأي تذمر من قبل الجند بهذا الخصوص كما سنرى.

والظاهر، أن اتساع آفاق السلطان أبي الحسن المريني، وميله لبسط سلطته على الأندلس وإفريقية، أفضى إلى طول حملات الجيش، ومدّد من طول غياب الجند؛ فقد بلغت مدة حملته على تلمسان من يوم خروجه من فاس إلى يوم اقتحامه لها حوالي سنتين،[11] مما يعني أن مدة الغياب كانت أطول باعتبار الفترة التي تلت عملية الاقتحام قبل العودة إلى فاس. في حين طالت مدة غياب من جاز بهم إلى الأندلس، وانهزموا في طريف سنة 741هـ/1340م، أكثر من سنتين قبل عودتهم إلى فاس سنة 743هـ/1342م.[12] وأما حملته الأخيرة على إفريقية، قبل نكبته، فقد استغرقت حوالي السنتين.[13] وعبر عن طولها الكفيف الزرهوني[14] بقوله:

لو قام في واد بجاية الغرا	من ثمة كان يزيد فملك شان
إلا طوى البيد، وطول السفرا	ورمى الناس في حلاقم الثعبان

ولم تختلف كثيراً فترة حكم أبي عنان عن سابقه، من حيث طول مدد الحملات، وغياب الجند عن ذويهم، وحسبنا أن الجيش المريني قضى معظم سنوات حكمه ما بين تلمسان وإفريقية.[15]

Scanned by CamScanner

2. الحملات العسكرية وإرهاق الجند: من التذمر إلى التمرد

الظاهر أن هذه الحملات التي كانت تستغرق الشهور والسنوات، مع تتابعها وتواليها، أفرزت ردوداً متنوعة وترسبات أبرزها التذمر الذي أصاب الجند في أكثر من حالة. ولا غرو، فقد أفضت ردود الفعل هذه إلى توقف الكثير من الحملات، وأدت في بعض الأحيان، لحدتها، إلى حبك المؤامرات والانقلابات واغتيال الحاكم في أقصى الحالات.[16] والتاريخ المريني مليء بحالات التذمر والتمرد في صفوف الجند، إن لم نقل إن أهم الحملات العسكرية في تاريخ هذه الدولة انتهت دون تحقيق نتيجتها؛ لأن الجند أرهقوا وغربوا عن نسائهم وذويهم ومواطنهم.

ترجع أول إشارة عن إرهاق الحرب المستمرة للجند، إلى مرحلة سابقة عن دخول المرينيين للعاصمة مراكش؛ إذ تكشف بعض النصوص أن يعقوب بن عبد الحق كان يحرص على توفير بعض فترات الاستراحة للجند قبل مواصلة حملاته، وهو ما يستفاد من قول أحد المؤرخين،[17] إنه أثناء حصار الحشود المرينية لمراكش سنة 665هـ/1266م، أغار يغمراسن الزياني على الأطراف الشرقية، فأقلع الأمير المريني يعقوب بن عبد الحق عن حصار العاصمة الموحدية، «وقصد تلمسان لحرب يغمراسن بن زيان ... فسار حتى وصل مدينة فاس، فأقام بها حتى استراح الناس، ثم خرج إلى تلمسان».[18]

وإذا كانت الحملات الداخلية، على ما يبدو، أقل إجهاداً للجند، لقصر مددها أحيانا، وغياب إحساسهم بالاغتراب أحيانا أخرى، فإن التذمر من الحملات العسكرية الطويلة ارتبط أساسا بالغزوات الخارجية؛ فمنذ الغزوة الأولى للجيش المريني إلى الأندلس، أبدى الجند تذمرهم ومللهم من مقامهم بها بعيداً عن أهاليهم، فرغبوا السلطان أن يجيزهم إلى العدوة، وفي هذا الصدد تذكر النصوص أنه خلال هذه الحملة «قنط بنو مرين من المقام بالأندلس، وتشوقوا إلى أولادهم وديارهم. فلما علم أمير المسلمين ذلك منهم، جاز إلى العدوة»،[19] على الرغم من أن مدة مغيبهم في الأندلس لم تتجاوز ستة أشهر.[20]

واللافت للانتباه، أنه بالرغم من أهمية الغنائم التي تحصل عليها الجيش المريني من هذه الغزوة، والتي من شأنها أن تغري بالعودة إلى الأندلس وإعادة الكرة، إلا أن الواضح أن الجنود المرينيين لم يألفوا بعد ذلك التغريب عن أوطانهم وذويهم، والحملات المستمرة التي تستنزف قواهم؛ فهذا يعقوب بن عبد الحق بعد ذلك بسنة (675هـ/1276م) يكتب «الكتب

منه إلى الأشياخ والقبائل من بني مرين، وسائر العرب، وسائر قبائل المغرب، يستنفرهم للجهاد، فتثاقلوا عليه، فلم يزل يحرضهم وهم يلوذون بالأعذار ويتثاقلون إلى أن دخلت سنة 676هـ[1277م]، فلما رأى تثاقل الناس عن الجهاد، وتثبطهم عن الجواز، جد بنفسه وخاصته»،[21] ثم تداركته القبائل فيما بعد والتحقت به في قصر المجاز.[22]

والظاهر أن تذمر الجند من كثرة الغياب وطول مدده لم يبلغ أشده إلا في خضم الحصار الطويل الذي ضربه السلطان يوسف بن يعقوب على العاصمة العبدوادية ما بين سنوات 698 و706هـ/1298–1306م؛ حيث أفضى طول الحصار، دون التمكن من اقتحام تلمسان، إلى تذمر الجيش، وهو ما يستشف من المشاورة التي أجراها السلطان أبو ثابت عامر مع أشياخ بني مرين والعرب ورؤساء الناس بشأنها، «هل يقيم على حصارها أم يرجع إلى المغرب؟ فكلهم أشار عليه بالرحيل والانصراف».[23] وإذا كانوا قد عللوا رأيهم بدواع أمنية؛ فأردفوا أن «سر إلى بلادك حتى تؤمنها وتسكن جأش أهلها، وبعد ذلك تنظر فيما تريده»،[24] فإن ذلك لم يمنعهم من الكشف عن الوازع الحقيقي، وهو «أن الناس قد قنطوا في هذه البلاد، ولهم بها عن أولادهم وعيالاتهم أربع عشرة سنة».[25] فلما «رأى إجماع الناس على الرحيل»، قرر فك الحصار، والعودة إلى فاس.[26]

إن التذمر الذي أصاب الجند من جراء هذا الحصار، وما أبدوه من إجماع على الرحيل من تلمسان، يدفعنا إلى عدم تبرئتهم من دم السلطان يوسف بن يعقوب الذي اغتيل قبل تلك المشورة بأيام على يد أحد عبيده الخصيان في خبائه بالمنصورة.[27] فعلى الرغم من أهمية التفسيرات التي قدمها بعض الباحثين لهذه الحادثة،[28] فإننا نعتقد أن لطول مدة الحصار دون التمكن من اقتحام المدينة، والتدابير العسكرية التي اتخذها السلطان المغتال لتشديد الحصار، والتي أفضت إلى معاقبة بعض من اشتغل بتهريب المواد الغذائية إلى المحاصرين، و«قتل على ذلك خلق من كبار بني مرين وغيرهم»،[29] توحي بمؤامرة حبكت لوقف الحصار، وكان اغتيال السلطان أهم نتائجها.

ويبدو أن فترة حكم السلطان أبي الحسن تمثل أبرز نموذج لرصد أثر الحرب المستمرة، والغياب المتفاحش للجند عن أسرهم ومواطنهم بفعل ما ميز هذه الفترة من محاولات لبسط سلطة بني مرين على المجال الموحدي القديم.[30] فقد عرف عن هذا السلطان كثرة خرجاته وغزواته،[31] لدرجة أن بعض الشيوخ فضل حياة الخمول عن الجاه والقرب من السلطان بسبب رئيس، نطق به أبو الحسن نفسه بقوله: «هذا الشيخ توهم أن تقربنا له، وأمرنا له

بتعاهدنا كل وقت يوجب عليه السفر معنا... فقدم هذه المعذرة قبل أن نعرض عليه»[32]، ولدرجة اعتبرت فيها صحبة هذا السلطان «امتحانا»[33] لمن ابتلي بها، فكيف بالجنود الذين يفرض عليهم أمر الخروج للغزو فرضا؟

يفسر ابن خلدون،[34] أسباب تبرم بني مرين عن السلطان أبي الحسن، وتخليهم عنه، والدفع به إلى الهزيمة في أكثر من موقف، بقوله: «كان لبني مرين نفرة من السلطان، وحذر من غائلته لجنايتهم بالتخاذل في المواقف، والفرار عنه في الشدائد، ولما كان يبعد بهم في الأسفار، ويتجشم بهم المهالك، فكانوا لذلك مجتمعين على منابذته، ومخلصين مناصحة ابنه» أبي عنان، لأنه مثل في هذه المرحلة المنقذ والمخلص لهم من حملات أبيه، التي أرهقتهم، وخلقت لكثير منهم مآزق اجتماعية مع عائلاتهم وذويهم. وهكذا سبب تذمر الجند من طول غيابهم في فشل مشروع أبي الحسن لإعادة التجربة الموحدية، وإحياء وحدة المغرب الإسلامي.

في هذه المرحلة نظم الكفيف الزرهوني «ملعبته»، فجاءت خير تعبير عن موقف الجنود، وأيضا الموقف الشعبي، مما سماه «بالطامة الكبرى»،[35] المتمثلة في حركة السلطان إلى إفريقية ونكبته، فنطق باسم الجنود بكلمات بليغة لا تبعد قيد أنملة عن دور الزجل الشعبي في التعبير عما خالج الناس من مشاعر وأحاسيس صادقة،[36] ولا نجد حرجا في إدراج بعض أبياته في المتن، على طولها، لأهميتها وتعبيرها الدقيق عن وضعية الأجناد جراء طول الغياب:

أحجاجا تخللوا السحرا	ودروا شرح البلاد مع السكان
عسكر فاس المدينة الغرا	اين صارت به عزايم السلطان
أحجج النبي الذي زرتم	وقطعتم له كلاكل البيدا
عن جيش الغرب جيت نسالكم	المتلوف في إفريقيا السودا[37]
ترجع الأخبار للطامة الكبرى	وقضية حربنا مع العربان[38]
والعلة الثانية دشم ومرين	وعظم الدولا القديمة البانيا
قالو ما خصنا سوى أرض الصين	لو قال قوموا لها لقلنا أيا
أولادنا تيتموا بنات وبنين	ونسانا ترملوا ونحن أحيا[39]
هتكنا قالوا بكثرة الرحلات	لبلاد الحر والغلا والجوع
ويريد عاد يفتح بن رمدات	عاد الأصغر وكنزها المحموع[40]
لو قام في واد بجاية الغرا	من ثم كان يزيد فملك شان

إلا طوى البيد، وطول السفرا ورمى الناس في حلاقم الثعبان.[41]

لقد حمل ملوك بني مرين جنودهم فوق طاقتهم، وأبلغوا جهدهم أقصاه،[42] وفرضوا عليهم حياة عسكرية أرهقتهم وخلقت لهم متاعب عدة مع عيالهم وزوجاتهم. فهذا أبو عنان الذي لم يستفد من تجربة أبيه مع جنده يفشل مرة أخرى في إفريقية، بعدما خلقه من معاناة لجنوده وأتباعه، إلى درجة إعلان السخط والتذمر والعصيان، ورفض مواصلة القتال[43]؛ لأنهم ألزموا على السفر بعيداً عن أولادهم وذويهم؛ وفي هذا يذكر ابن خلدون[44] أن السلطان أبا عنان، وهو في إفريقية، «أعزم على الرحلة إلى تونس، وضاق درع العساكر بشأن النفقات والإبعاد في المذاهب... فتمشت رجالاتهم في الانفضاض، وداخلوا الوزير ابن ميمون فوافقهم عليه، وأذن للمشيخة والنقباء لمن تحت أيديهم من القبائل في اللحاق بالمغرب، حتى تفردوا».

ولم يقف الأمر عند مجرد رفض الانصياع لأوامر السلطان في مواصلة الحركة، بل وصل إلى مستوى التدبير والمؤامرة لاغتياله؛ فقد بلغ الخبر إلى السلطان «أنهم تآمروا في قتله (...) ورأى قلة من معه من العساكر، وعلم بانفضاضهم، فكر راجعاً إلى المغرب... وتقبض يوم دخوله على وزيره فارس ابن ميمون، اتهمه في مداخلة بني مرين في شأنه، وقتله رابع أيام التشريق قصعاً بالرماح، وتقبض على مشيخة بني مرين فاستلحمهم، وأودع منهم بالسجن».[45]

والحقيقة أنه إذا تأملنا في مجموع المادة المصدرية التي أوردناها في العنصر السابق، فإننا نخلص إلى حقيقة أساسة؛ ففضلا عن تعبيرها الواضح عن تذمر الجند من غياباتهم الطويلة عن عائلاتهم ومواطنهم، فإنه قلما صادفنا إجماعاً من كل أطراف الجيش على رفض الانصياع لأوامر السلطان، وتوافقا واضحاً أكثر مما نراه هنا فيما يخص موضوع الغياب المطول عن عائلاتهم ومواطنهم. كما أن انتهاء هذا التذمر في أكثر من مرة إلى مستوى التدبير للاغتيال، كلها عناصر أساسة تكشف عن حدة مشكل الغياب بالنسبة للجند، مما يدفعنا إلى التنقيب عن دوافع هذه الحدة.

ثانيا: الآثار العامة لتغريب الجند

تحمل العبارات التي تشير إلى تذمر الجند من كثرة الغياب، وطول فتراته، في طياتها عناصر لابد من إدخالها في الاعتبار عند التعرض لتأثير الحرب في حياتهم الاجتماعية؛

Scanned by CamScanner

عناصر يرتبط بعضها بالوضعية الاقتصادية والاجتماعية للجند في مواطنهم، وأخرى يمكن استقاؤها بين ثنايا النصوص التي أوردناها، ومن غيرها من النصوص التي تثبت استياء الأهل والزوجة من مشكل الغياب.[46] وكلها توحي بأن هذا المشكل أثر بشكل كبير في المسار الاجتماعي للفرد المجند. وما نظن أن كتب السياسة والأحكام أوردت، عرضا، في نصائحها للسلطان بعض العبارات منها أن يجتهد «في صرفهم عن الافتتان بأهلهم وديارهم، ومنعهم من المستغلات والمتاجر»[47]؛ لأنها قد تعجل من سخطهم وتذمرهم من طول الغياب.

1. الآثار الاقتصادية والمعيشية

إذا أمكن أن نتحدث عن عامل اقتصادي يقف وراء ردود فعل الجند اتجاه كثرة الغياب، ودون الاستفاضة في هذا الجانب إذ تكفي تلك المعلومات التي قدمناها في الصفحات السابقة من هذا البحث عن مقوم الجند ومشكل الإنفاق وتمويل متطلبات الجند في مسار هذه الدولة.[48] يكفي أن نضيف أن معظم الجند هم أصلا، كما رأينا، ممارسون لأنشطة اقتصادية فلاحة أو رعيا أو تجارة أو حرفا[49] أو «فروسية» و«حربا» بالمعنى الذي حددناه في بعض فصول هذا البحث.[50] وهو ما يعني أن الغياب المطول للجندي عن الديار، خاصة إذا لم تعد المشاركة في الغزو تغري بالغنائم والأموال التي تجعل المشارك يفضله عن نشاطه الأول،[51] يصبح خطراً اقتصاديا محدقا به وبعائلته، وتبعاً لذلك يصبح التطلع للعودة إلى فلح الأرض، أو جني محصولها مثلا بالنسبة للجندي الفلاح أمراً ملحاً وضروريا. بل يمكن أن نضيف أن القبائل المحاربة قد تفضل – أمام هذا الغياب – الغارة على جيرانها عن المشاركة في حملات تطول دون أي إغراء مالي، وخاصة في الحملات الأخيرة التي بدأ فيها الجيش المريني يتكبد الهزائم.[52]

إلى جانب ذلك، فإن معظم من وصفهم النميري[53] بـ«أهل الغنى من طبقات القواد والرؤساء» من الجند، هم ممن أغدقت السلطة المرينية عليهم الإنعامات والعطاءات المتوالية،[54] والإقطاعات لاستمالتهم واصطناعهم،[55] فأصبحوا بذلك من كبار الملاكين، وكبار التجار والمضاربين.[56] وكان طبيعيا أن يكون هؤلاء أبرز المتذمرين من طول التغيبات التي كانت تؤثر، ولا شك، على عائداتهم وأموالهم، فلا غرابة إذن إن كانوا أول المطالبين بالعودة إلى أوطانهم، وقادوا حملات العصيان والتآمر ضداً على أوامر السلطان.[57]

Scanned by CamScanner

وفضلا عن ذلك، فقد سمحت تلك الامتيازات التي قدمت لهم، ولغيرهم أيضا ممن ينتمي إلى عصبية بني مرين ومصطنعيها، بتحول نمط عيشهم، خاصة في الطور الثاني من عمر هذه الدولة[58]؛ فأصبحوا يتنافسون في «تحصيل ثمرات الملك من المباني والمساكن والملابس، فيبنون القصور، ويجرون المياه، ويغرسون الرياض، ويستمتعون بأحوال الدنيا»،[59] وتكونت لديهم ثروات وأموال، و«وسع الله عليهم في دنياهم حتى لم يبق لهم أمنية إلا وهي حاصلة، فضلا عن الضرورات، ثم فضلت الأموال عندهم ليس لهم بها حاجة، يدبرون على بعضها بالدفن، وعلى بعضها في البنيان، وفي الإسراف».[60]

ولا شك أن هذا التحول في نمط العيش دفعهم إلى تفضيل حياة الدعة والسكون، وجعلهم «يؤثرون الراحة على المتاعب...فتكاسلوا عن الغزو...وقل أن يستأجر أحد نفسه على الموت».[61] فكيف يستطيبونه[62] بعد ذلك في حملات وغيابات مرهقة وطويلة، خاصة بعد أن تنسوا «عوائد البداوة التي كان بها الملك من شدة البأس، وتعود الافتراس، وركوب البيداء، وهداية القفر».[63]

2. الآثار النفسية–الاجتماعية

بعيدا عن العامل الاقتصادي، نميل إلى التأكيد على عامل نفسي–اجتماعي، إن صح التعبير عنه بالدافع الجنسي، كان له دور هام في إذكاء حدة التذمر لدى الجنود من تغيباتهم الطويلة، وهو ما يمكن أن نستشفه دون عناء من عبارات الإرهاق التي أوردناها سابقا.[64] وكذا في كتب الأحكام والسياسة التي لم تتجاهل هذا الدافع لدى الجنود، إذ أوصت الأمير أن يجتهد في «صرفهم عن الافتتان بأهليهم وديارهم».[65] مرددة الأثر المشهور: «لا يغزو معي رجل بنى بناء لم يكمله، ولا رجل تزوج امرأة لم يدخل بها».[66]

أ. لدى الجنود المغاربة المغتربين

إن هذا الشكل من التحليل لتذمر الجند من طول الغياب، يمكن قراءته بشكل أعم من خلال حضور النساء في الغزوات المرينية[67]؛ فقد كان أبرز ما ميزها هو حفاظها على التقليد البدوي الزناتي القاضي بمرافقة النساء إلى ساحة الحرب،[68] حيث جرت العادة أن يأمر الأمير المريني، «جميع قبائل بني مرين أن يخرجوا بجميع عيالاتهم ونجبائهم»،[69] فتخرج النساء «في الهوادج والمراكب والقباب المزينات، باديات الوجوه».[70] ويبدو أن هذا التقليد ظل سائداً حتى عهد أبي عنان على الأقل.[71]

Scanned by CamScanner

إلا أنه ينبغي أن نسجل ملاحظة أساسة، وهي أن حضور النساء في حملات بني مرين، على ما يبدو، تضاءل واقتصر فيما بعد على حريم السلطان والحاشية، إذ غدا من الصعب مع خروج بني مرين إلى الأندلس أو إفريقية، مرافقة كافة نساء الجنود إلى الحرب، مما عزز من النقص الجنسي لدى الجنود، وهو ما يفهم من النصوص التي أوردناها سابقا عن تشوق بني مرين لأهلهم وزوجاتهم.[72]

ولا تعوزنا الدلائل التي تثبت أهمية هذا العامل في تفسير معاناة الجند من التغيبات الطويلة على عيالاتهم؛ فهذا رجل اضطرته هذه الوضعية إلى أن يسأل الفقيه أبا العباس المريض، أنه يريد الخروج مع الجيش إلى الغزو، ويود «التوجه معهم بزوجته لاحتياجه إليها في ضرورياته».[73] وهذا آخر يغيب مع الجند في الأندلس، فيضطر إلى الزواج من رابعة على الثلاثة اللواتي خلفهن في العدوة.[74] وآخر «سألت منه زوجه الزهراء القاطنة بفاس أن يحرم لها زوجه عزة بتلمسان ويطلقها»،[75] إذ لا يستبعد أن يكون تزوجها بعد كثرة الحملات العسكرية على هذه المدينة واحتياجه إليها لطول غيابه عن الأولى.

على أن أبرز نموذج يعبر بوضوح عن العامل الجنسي في تفسير تذمر الجند من طول الغياب، نصادفه عند السلطان أبي الحسن المريني نفسه الذي اضطر بعد مقتل زوجته بطريف أن يقدم على الزواج بطريقة يفهم من النص أنها لا تختلف كثيراً عن زواج المتعة؛ ففي حديث ابن خلدون عن أحمد الرغيني من طبقة كتاب الأشغال بسبتة يذكر «أن السلطان أبا الحسن تزوج أمه [أم أحمد الرغيني] ليلة إجازته من واقعة طريف وافتقاد حظاياه حتى لحق به الحرم من فاس، فردها إلى أهلها».[76]

وإذا كان هؤلاء الجند، بمن فيهم السلطان، خففوا على أنفسهم ثقل هذا الدافع بلجوئهم إلى الزواج في ظل غيبتهم عن أهليهم، أو بتسريهم بالسبايا التي يحصلون عليها في غنائم الغزو،[77] فقد بات بديهيا، أمام طول الحملات العسكرية وبُعد الجندي عن زوجته، أن يلجأ إلى ممارسة الجنس خارج إطاره الشرعي. وقد سبق لأحد كتاب الأحكام[78] في هذه المرحلة أن نصح الأمراء أن «أنهوا جيوشكم عن الزنا، فما زنى جيش قط إلا سلط عليهم المؤتان».

غير أن مثل هذه الأحكام تعكس واقعاً حدث بالفعل، فقد ورد في إحدى النوازل، أنه «زنى رجل في جيش المسلمين، وهم في أرض العدو، وخيف إن أقيم عليه الحد (...) مفسدة لشجاعة الزاني ولغيره كذلك».[79] بل إن الفقهاء أفتوا أنه يؤخذ الزاني بالحد ولا ينفذ

Scanned by CamScanner

عليه، لأن في ذلك جر لتذمر الجند وإفساد لشجاعتهم في الغزو،[80] مما يثبت تفشي هذه الظاهرة في صفوف الجنود.

ولا نستبعد أن يكون الجند المغاربة في غياباتهم الطويلة عن أهليهم قصدوا دور الدعارة؛ فقد عبرت أمثال العامة بالأندلس عن هذه الظاهرة حين أكدت جاذبية الغازي المغربي دون غيره بالنسبة للعاهرات،[81] بل إن بعض النصوص الأندلسية أثبتت أن هؤلاء تحرشوا بنساء أهل الأندلس وزوجاتهم،[82] فعبر هؤلاء عن تذمرهم من الجند الغازي.[83] ويذكر ابن الخطيب[84] أن أهل رندة اتفقوا مع المرينيين أن ينزلوا لهم عن البلد، على شروط منها «ألا ينزل غاز من المغاربة بدار من دور المدينة»؛ لأنهم لا يستسيغون خشونتهم وسلوكهم. ومن ذلك ما وقع به أمر السلطان النصري أبي عبد الله محمد بن محمد بن يوسف بن نصر (633-701هـ/1235-1301م) لـ«لمشتكي من ضرر الجندي المنزل بداره، وقد قذفه بالتعرض لزوجته فقال:

يخرج هذا النازل النازل ولا يعوض بشيء من المنازل».[85]

إن هذا التفسير النفسي-الاجتماعي الذي وسمناه بالدافع الجنسي ينمو في الغالب حين تتوفر له العوامل، وقد أكدت بعض الدراسات المتخصصة أن التوهج الجنسي يحدث بشكل كبير أثناء الاحتفالات العامة، أو حين الحشد العسكري.[86] ففي تلك الحالات، وإذ لا يحصل الإشباع بالطرق الشرعية، فإن إواليات التكيف اللاواعية تأخذ الدور الأول.[87] فالفصل بين الجنسين[88] الذي تحتمه الحملات العسكرية لا يؤدي بالضرورة إلى مجتمع نقي وطاهر من جميع أنواع العلاقات الجنسية غير الشرعية، بما فيها الشذوذ والمثلية الجنسية.[89] إنها في الغالب ظواهر «تنشأ في الجماعات ذات الجنس الواحد، بين الجنود، بين الطلاب، في المجتمع الذي يباعد بقوة بين الجنسين».[90] وهو ما لاحظه أحد الباحثين في المجتمعات التي تنتشر فيها ظواهر مثل الحرب والتصوف.[91]

وتمثل النازلة التي سئل عنها الفقيه أبو عبد الله القوري عن رجل صوفي متمرد أباح لجنده كثيراً من المحظورات الجنسية، أبرز نموذج لهذا التفسير؛ حيث «استضاف إلى مذهبه فئة غاوية دعدع بشوكتها الجوانب والأرجاء، فاكتسح الأموال وقتل الرجال... محتالا بما نصبه من هذه الأشراك المورطة على اقتياد جيش، ونصب راية، والرعاع الأغفال يدخلون فيما شرع لهم من الظلال، ويستحلون ما أحل لهم من غير الحلال، من غير استثناء للأموال

Scanned by CamScanner

عن الفروج، ولا للفروج عن الأموال، جاعلين قص الشعر شعاراً يتميزون به... وقد أسقط عدة الوفاة عن أزواج من قتل بسيفه، وأباح لكل من كان منهن بعد سبعة أيام إلى أشياعه وصنفه، واصفا لهم بالمريدين».[92]

إجمالا، فإن الغياب المتواصل للجند بعيدا عن زوجاتهم أوجد لديهم شعورا بالاغتراب، وعزز من الحرمان الجنسي لديهم مما أفضى إلى بروز أواليات للتكيف معه تراوحت بين الزواج والتسري والعلاقات الجنسية غير المشروعة.

ب. لدى الجنود المسيحيين المغتربين ببلاد المغرب

مما يعضد أهمية الدافع الجنسي في تفسير ردود فعل الجند تجاه قضية الغياب، ما طرحه مسألة حضور المرتزقة المسيحيين في بلاد المغرب بعيداً عن أوطانهم وأهليهم. وسبق لبرانشفيك[93] أن عزا أسباب الضعف العددي لهؤلاء ببلاد المغرب إلى مسألة الجنس التي جسدها منع السلطات المغربية للمرتزقة باستقدام نسائهم، فضلا عن صعوبة زواجهم من نساء مغربيات. إلا أننا نعتقد أنه جانب الصواب في التفسير الأول؛ إذ ثمة إشارات لأسماء نساء بعض المرتزقة المسيحيين، ومنهن مارسيا سيكي زوجة برنارد سيكي المتوفاة في الحرب التي اندلعت بين أبي سعيد عثمان وابنه أبي علي.[94] ويضيف أحد الباحثين[95] أن قضية الزواج من المغربيات كان ممكنا، إلا أننا نميل، مع غياب إشارات واضحة لترجيح هذا الرأي،[96] إلى القول إن مسألة الجنس طرحت بشكل كبير بالنسبة للجند النصارى في المغرب الأقصى خلال هذه المرحلة.

ويبدو، أن هذه المشكلة وجدت بعضا من حلولها في الدعارة والبغاء الذي عرفت به بعض المدن المغربية،[97] إذ يذكر أحد الجغرافيين[98] أنه كان في فاس «دور عمومية تمارس فيها البغايا مهنتهن بثمن بخس، تحت حماية رئيس الشرطة، أو حاكم المدينة. كما يتعاطى بعض الرجال دون أن يثير غيض البلاط مهنة البغاء، فيتخذون في بيوتهم نساء عاهرات، وخموراً يبيعونها، بحيث يستطيع كل واحد أن يتناول من ذلك ما شاء بكل طمأنينة». ولا يستبعد أن يكون للمرتزقة النصارى بعض هذه البيوت، فقد كان رؤساء الشرطة، على سبيل المثال، «يستطيعون أن يتخذوا حانات، ويمارسوا مهنة البغاء والتديث».[99]

وإذا كان البعض[100] برر تغاضي السلطان عن أرباب الفنادق والمحترفين للدعارة عموما، بكونهم يؤدون مبالغ وإتاوات مالية كبيرة إلى عامل المدينة كل سنة، ولكونهم يستخدمون

Scanned by CamScanner

في الحملات العسكرية في «طبخ الطعام للجنود، لقلة المتخصصين في هذه الخدمة»،[101] فليس بعيداً أن يكون السبب الثاوي وراء ذلك التغاضي أن «الأمراء يستخدمونهم لحاجات الجيش»[102] لا للطبخ، بل لحاجاتهم الجنسية ولإرضاء الجند الذين يعرف عنهم كثرة ترددهم لهذه الأماكن لإتيان شهواتهم مع باغيات مرتزقات،[103] وبعضهم الآخر ليكون «ممنجاة من الحاشية، بسبب تصرفات غير شرعية ووضيعة».[104]

وتجدر الإشارة إلى أنه كان من الطبيعي أن تستفحل هذه الظواهر الاجتماعية في صفوف الجند، خاصة بعد الانتكاسات التي عرفها الجيش المريني، وخلال فترة التراجع والانهيار بعد مقتل أبي عنان،[105] حيث يصبح بديهيا مع ما ميز هذه المرحلة من تناقص في الإنفاق وتسريح للجنود أن يلتجأ هؤلاء إلى ممارسة اللصوصية،[106] ومعاقرة الخمر،[107] والممارسات الجنسية غير المشروعة.[108]

3. الآثار الاجتماعية والأسرية

إن التفسير المبني على الدافع الجنسي لتذمر الجند من طول الحملات العسكرية، وغيابهم عن أسرهم وأهليهم، على أهميته في فهم الوضعية النفسية والاجتماعية للجنود، لا يقف بمفرده ضمن العوامل المؤثرة في هذه الوضعية؛ فالمادة التي تمكنا من الإطلاع عليها تكشف عن جوانب اجتماعية أخرى تتعلق بعلاقة الجندي بزوجته وعائلته، وبوضعه العائلي باعتباره رب أسرة، وصاحب مسؤوليات عنها. وتفيض كتب النوازل بالعديد من الحالات التي كان فيها لغياب الزوج عن عائلته، بقصد الغزو أو الحرب، ضلع واسع في تضخم النزاع بين الجندي وزوجته، وفي تفكك أسر بكاملها،[109] وفي أحيان أخرى في صعوبة اندماج الغائب بعد عودته.

أ. الغياب وتوتر العلاقات الأسرية

الغالب على الظن، أن استفحال قضية الجنود الغائبين عن أسرهم وعائلاتهم أفضت إلى توتر العلاقة بينهم، فقد دفعت هذه الوضعية المرأة إلى أن تشترط في عقد نكاحها «ألا يغيب عنها غيبة قريبة ولا بعيدة، طائعاً أو مكرها، قبل البناء أو بعده، أزيد من ستة أشهر، فإن غاب عنها أزيد من ذلك، فقد جعل أمرها بيدها في طلقة واحدة مملكة وصرفها في دعوى المغيب، والمنقضي من الأجل تصريفا مطلقا دون بينة تلزمها في ذلك، ولا مشورة قاض ولا سواه».[110]

وإذا كانت بعض نساء الجنود استطعن حفظ ود أزواجهن، وحرصن على الحفاظ على بيوتهن، فتغاضين عن الأخذ بشرط المغيب،[111] وتجاوز بعضهن مشكل الإنفاق بفضل ثروتهن، واضطلعن بمهام الإنفاق على الأسرة في غياب الزوج،[112] أو آثرن البقاء والحفاظ على ود أزواجهن بقبول إنفاق أقارب الزوج عليهن،[113] أو من خلال المطالبة بالاستفادة من الزكاة.[114] فإن البعض الآخر أججن الخلاف مع أزواجهن الغائبين[115]؛ فاحتججن لدى القاضي بدعوى المغيب،[116] وانقضاء الأجل المشروط في عقد النكاح،[117] أو بدعوى النفقة والخوف من الفاقة والحاجة،[118] وغير ذلك مما سنعود إليه في مبحث لاحق.

ولا شك أن هاجس إعلان المرأة عن تضررها من مغيب الزوج،[119] أو أخذها بشرط المغيب،[120] أرق جندي هذه المرحلة، خاصة إذا كان لا يرجو فراقها أو فراق أولاده،[121] فضلا عن خوفه من تكاليف الطلاق الباهضة،[122] وحضانة وإرضاع الأولاد،[123] وما تتطلبه نفقة العدة،[124] وكذا مطالبة المرأة له بما لها عليه من ديون، أو كالئ صداق،[125] إلى جانب مصاريف الزواج من جديد إن طلقها،[126] كلها عناصر لابد أن الجندي كان يستحضرها كلما طالت غيبته عن زوجته وأهله، وتوجع من تذمره من طول الغياب.

على أنه يخيل إلينا أن غياب الجندي بحكم الغزو مع السلطان في عسكر مأمون يمكنه الرجوع منه،[127] أو يثبت موته أو أسره، مع علم أهله باتجاه الحملة العسكرية وموقعها ومكانها،[128] لم تطرح كثيراً من المشاكل، اللهم إلا إذا استثنينا من الزوجات من أخذن بدعوى المغيب المثبت لهن في شروط عقد نكاحهن، وإن كانت سبل الإنفاق من الزوج لهن ميسرة. في حين طرحت مسألة الحملات العسكرية التي انتهت بهزيمة،[129] أو رجوع الجيش مفلولا بعد قتال أو بغير قتال، كثيراً من المشاكل لما ترتب عنها من قضايا الجنود الغائبين الذين لم يعودوا إلى أوطانهم، بعد العلم بعودة الجيش أو فلوله، فاعتبروا بحكم الغائب الذي يجهل مماته من حياته، وأدرجوا في حكم المفقود أو الأسير.[130]

ب. احتجان حقوق الجندي أثناء غيبته الطويلة

اعتباراً لما تطرحه قضية الجنود الغائبين والمفقودين والأسرى من تعقيدات تهم وضعهم، ووضع عائلاتهم الاجتماعي، فقد اهتم الفقهاء بهذه القضايا، وحاولوا وضع بعض الضوابط التي تحكمها، مراعاة لمال الغائب وزوجه وولده إن قدر له الغياب الدائم، ومراعاة لأحواله الشخصية إن قدرت له العودة من جديد. فاعتبروا في الغائب خمس حالات[131]:

Scanned by CamScanner

1- غائب لم يترك نفقة، وليس عليه في عقد النكاح شرط المغيب. وحكمه أن لزوجته أن تقوم عليه بحكم الإعصار في النفقة، وتطلق عليه إن شاءت بعد تأجيل القاضي له شهراً أو شهرين.[132]

2- غائب ترك نفقة، ولزوجه عليه شرط في المغيب، والحال هنا أن لقرينته أن تطلق بعد انقضاء أجل العدة في عقد النكاح.[133]

3- غائب لم يترك نفقة، ولزوجته عليه شرط المغيب. ويحق لها في هذه الحالة، أن تقوم عليه بهما معاً فتطلق إن شاءت.[134]

4- غائب ترك نفقة، وليس عليه شرط المغيب، وحكمه أن يكتب إليه القاضي، إما أن يقدم أو يحملها إليه، وإلا طلقها عليه.[135]

1. مفقود انقطع خبره ممن يمكن الكشف عنه والتعرف على مصيره،[136] وقد حصره الفقهاء في أربعة أنواع[137]:

أ. مفقود في إطار الحروب مع العدو بدار الحرب، والمشهور أن يتم تعميره في الزوجة والمال لمدة سنة، ثم يأخذ بحكم الميت، فتعتد زوجته عدة الوفاة، وتقسم تركته.[138]

ب. مفقود في إطار الحرب مع العدو بدار الإسلام، ويختلف حكمه عن الأول في مدة التعمير فقط، وأجلها هنا أربع سنوات.[139]

ت. مفقود في فتن المسلمين بعضهم على بعض، ويحكم بموته من يوم التقاء الصفين فتعتد زوجته عدة الوفاة، وتقسم تركته.[140]

ث. مفقود في دار الحرب في غير قتال، وحكمه حكم الأسير.[141]

وأما الحكم في مال الأسير وزوجه، فقد اعتبر الفقهاء أنه إن كان لزوجته شرط مغيب فضربه، وإن لم يكن لها شرط، قامت عليه بعدم النفقة إن لم يترك لها شيئا. وإن ترك مالا أنفقت منه وهي في عصمته أبداً حتى يثبت موته، أو ينصر طائعاً، أو ينقضي تعميره،[142] أي القدر الذي يمكن أن يعيشه أي إنسان آخر.

وإذا كانت كتب الأحكام راعت مصلحة الجندي الغائب أملا في عودته، ومصلحة أهله وزوجته في حالة عدمها، إلا أننا لا نعدم من القرائن ما يؤكد أن من الزوجات من سارعت إلى إثبات موت الزوج[143] وإشاعته،[144] ومن عملت على إثبات عدم النفقة بالرغم من

Scanned by CamScanner

وجود ما تنفق منه،[145] ومن رفضت انتظار غائبها بالرغم من تطوع بعض أقاربه بالنفقة عليها،[146] ومن أرادت التعجيل في الطلاق لتتمكن من كالئ صداقها من أملاك الغائب،[147] فضلا عن أهل الغائب الذين أمعنوا في البحث عن «الوجه الذي يتوصل به... ورثته لقسمة ماله»،[148] ومن رفض طلب الزوجة في بيع أملاك الغائب لتنفق منها،[149] ومن رمى بنظره إلى «ربع تركه الغائب»،[150] أو مال «تركه بيد وكيل»،[151] والشريك الذي يستهلك مال شريكه الغائب،[152] إلى غير ذلك من الحالات التي تثبت أن من الأهل والزوجات من تطلعن إلى تأكيد موت الغائب للإجهاز على أمواله وتقسيمها.

ولا نستبعد أن مثل هذه المعرات التي كانت تلحق بالغائبين إن قدرت لهم العودة، هو ما دفع ببعضهم إلى كتابة وصية قبل سفره وخروجه، ويشهد عليها،[153] إمعانا في الحفاظ على ماله، ومال ورثته إن لم تكتب له العودة.

ج. ما بعد العودة وصعوبة الاندماج في الوسط العائلي والاجتماعي

إذا كانت عبارات «الغياب» و«الفقدان» و«الأسر» تحيل في معظم معانيها، في مصادر المرحلة، إلى اللاعودة، وتعبر عن مرادف آخر للموت، فإنها تفيد في الوقت ذاته احتمال العودة والرجوع. وإذا كانت أحكام الفقهاء في مدد التعمير راعت هذا المعنى، إلا أننا نصادف حالات كثيرة لغائبين ومفقودين في حكم الموت تمكنوا من العودة إلى أوطانهم بعد سنوات من انقطاع حكم التعمير. وهو ما لا تخفيه أحكام المرحلة؛ فقد كتب ابن غازي[154] في كلياته أن «كل من شهدت له بينة بموته، وعدت ورثته، وقسمت تركته، وتزوجت زوجته، ثم قدم حيا، فإن عزرت البينة بشبهة أخذ ما وجد من تركته، وما بيع كان أحق به بالثمن، وترد له زوجته». وهكذا، ففضلا عن مأساة الأسر أو الفقدان أو الغياب المكره تنضاف إلى وضع الجندي مأساة أخرى في المال والزوجة والولد، وصعوبة الاندماج بعد العودة.

ولا تنقصنا البينة، في من عاد بعد غيبته الطويلة فوجد أمواله قسمت واستهلكت أو أهلكت، من مثيل من اشترك مع آخر في «أربعمائة شاة، ففقد أحدهما، فأشرك الباقي غيره من الغنم، ثم جاء المفقود، ورجعت الغنم إلى مائتين، أو أهلكت كلها».[155] ومن عاد بعد غيبته الطويلة، وأضحى يطالب ببلد له، وجميع نصيبه من موروثه في والده من زوجته التي تزوجت من آخر.[156] وعلى الرغم من أن هذه النوازل لا تكشف عن أسباب الغياب،

Scanned by CamScanner

ومدى تعلقها بالجنود أو بغيرهم، فإننا نعتقد أن الحرب وما كان ينتج عنها من أسر أو فقدان، كانت من أهم الأسباب الرئيسة التي وقفت وراء غياب الكثير من الأزواج خلال هذه المرحلة، وهو ما سنعود إلى التفصيل فيه في عنصر لاحق من هذا الفصل، وسمناه بـ«نوازل العصر المريني وقضايا الغياب، أو موقع الحرب ضمن الأسباب العامة لغياب الأزواج»، والملاحظة نفسها تسري على النوازل الواردة أسفله.

ومن النصوص التي تثبت تضرر الغائب أو المفقود أو الأسير بعد عودته في أهله وزوجه، تلك النازلة التي سئل عنها طلبة أبي الحسن الصغير؛ «عن رجل تزوج امرأة فبقي معها مدة من خمس سنين، ثم قدم زوجها الأول فاستظهر ببينة أنها كانت زوجه، وأنها كانت في عصمته إلى قدومه من مغيبه، وكان غاب عنها مدة طويلة... وسئلت المرأة عن دعوى الزوج الأول فوافقته على دعواه من أنه زوج لها، وأنها تزوجت الثاني من غير أن يطلقها الأول، ولا تحققت من موته ولا سمعته من أحد، وادعت أنها تزوجته ظنا منها أن زوجها الأول مات».[157] ومنها الزوجة التي ادعت موت فقيدها بعد أن «انقطع خبره بنحو خمس سنين ويئست منه، وتزوجت آخر بالبادية فبقيت عنده ما شاء الله، ثم ادعت أن زوجها المفقود باق في قيد الحياة».[158] وتلك التي «قامت في مغيب زوجها بعدم النفقة، فأثبتت ما يجب إثباته، وضرب القاضي لها أجلا ثم حلفت وطلقت نفسها وأباح لها القاضي النكاح، فتزوجت ودخل بها زوجها، ثم قدم الزوج، وأثبت أن نفقته كانت عليها».[159]

ويجدر بنا ألا نغفل ما كان يلحق بالغائب العائد من مشاكل في الولد، كمن غاب عن زوجته فتزوجت من آخر، «ونفست بنتا فبقيت البنت بقيد الحياة عشرين يوماً وماتت، وزعمت أنها لم تكن حاملة حين تزوجت الزوج الثاني، وأن الحمل من الزوج الذي تزوجت، ووافقها الزوج على ذلك».[160] ومن غاب عن زوجته «مدة من ثلاثة أعوام فأخذت بشرط المغيب، وطلقت نفسها وتزوجت، ثم غاب الثاني فذهبت للموضع الذي فيه الأول، وأقامت معه وهو لا علم له، ولم تعلمه بما فعلت، ثم اطلع الزوج الأول على ذلك، فاعتزلها بعد أن ولدت منه أولادا، وهو لا يعلم هل يلحق به الأولاد أم لا».[161]

ومن ذلك أيضا من عاد بزوجته في الغياب بدار الحرب، ولها منه أولاد خمسة، «فماتوا، وبقي منهم بنت، فزوجها ونحلها نحلة، ثم مات قبل بناء الزوج بها...وقال بعض الفضوليين هذا النكاح لا يصح، وهذه النحلة لا تصح، فإن هذه البنت عملت بأرض الحرب، فهي بنت زنى، وأبوها لم يدع قط ذلك ولا فاه به».[162]

Scanned by CamScanner

صفوة القول إن انعكاسات الحرب على حياة الجند والمحاربين لم تقتصر على فعلها المباشر، والمتمثل في القتل والأسر وغيرها، بل إنها كانت ملازمة لأحوالهم الاجتماعية، حين سببت لكثير منهم متاعب اجتماعية فظة سواء في وضعهم الاقتصادي أو الاجتماعي أو النفسي، أو في علاقتهم بعائلاتهم حيث سببت، في بعض الأحيان، قطيعة بينهم وبين وسطهم العائلي، وجعلت أحوالهم الشخصية في مرمى حجر من عوامل التفكك الأسري، والانهيار النفسي والاجتماعي.

المبحث الثاني: الحرب والمرأة

إذا كانت الحرب تعني في أبرز وظائفها انتخابا لأقوى الرجال وأنظرهم شبابا ليكونوا معاولها ومنفذي خططها،[163] وإذا كانت في بعض خصائصها استئصالا لهم عن طريق الموت أو الإبعاد في المذاهب بعيداً عن أهليهم وذويهم، فإن سيلها امتد ليشمل المرأة أيضاً في مغرب هذه المرحلة؛ إذ أن تعرضها للقتل، أو السبي وما يلحق بها من جرائه، فضلا عن فقدان العائل أو غيابه أو أسره أو موته، كل ذلك أفرز قاعدة عريضة من الأرامل، ومن النساء المنتظرات لزوج غائب بقصد الحرب قد يأتي أو لا يأتي، ونساء أخريات تخلى عنهن أزواجهن بعد إفلاسهم، وعدم قدرتهم على تدبير شؤون بيت الزوجية.[164]

أولا: وضعية المرأة زمن الحرب

1. مساهمة المرأة في منع الحرب أو التخفيف من آثارها

على الرغم من أننا نميل، اعتباراً للمادة التاريخية التي وفرتها مظان المرحلة، خاصة النوازلية منها، إلى القول إن المرأة مثلت الحلقة الأضعف ضمن باقي الشرائح الاجتماعية التي تأثرت بالحرب وانعكاساتها، فإننا لا نعدم بعض النصوص التي تثبت أنها اضطلعت بأدوار هامة في إيقاف الحرب، أو فعل الفعل الطيب فيها لصالحها، ولصالح الطرف المغلوب فيها. وقد تحدثت نصوص المرحلة عن شفاعات خرجت فيها نساء البلد المغزو لاستقبال الطرف المهاجم، وتمكن من حقن دماء أهليهن[165]؛ ومن ذلك ما حدث أثناء نزول السعيد الموحدي على مدينة مكناسة لاسترجاعها من يد أبي بكر بن عبد الحق المريني، فـ «لاذ أهلها بالطاعة، وسألوا العفو عن الجريرة، واستشفعوا بالمصاحف، برز فيها الأولاد

على رؤوسهم، وانتظموا مع النساء في صعيد حاسرات منكسرات الطرف من الخشوع، ووجوم الذنب والتوسل».[166]

على أن النموذج الأمثل لمعاينة دور المرأة في التدخل لتخفيف آثار الحرب على الطرف المغزو، يتمثل في تدخل والدة أبي الحسن المريني لدى ابنها لوقف الحصار على أهل تلمسان لما لحقهم من جرائه من مآسٍ، وإن لم تتمكن من صده عن ذلك. وفي هذا الصدد يروي ابن مرزوق[167] على لسان السلطان أبي الحسن قائلا: «دخلت عليها يوماً فكلمتني في شأن أهل تلمسان وإعفائهم من الحصار... قال: فقلت إن الشرع أمرني بهذا، وبينت لها ذلك بطريق شرعي، فحينئذ أمسكت»، مما يثبت أن المرأة لم تقف بعيداً عن شؤون الحرب وأضرارها.

وتظل المصاهرات والزواج لأغراض سياسية وحربية، والذي عقد في هذه المرحلة بين مجموعة من الأطراف، أفضل مثال لتبيان الدور الطيب الذي كان للمرأة في منع نشوب الحرب، واستيعاب نتائجها؛ فقد ساهمت المرأة، في تحقيق السلم بين الأطراف المتنازعة من خلال قبولها الزواج، ولو مكرهة، من رأس الطرف الغازي أو المهدد بالغزو. وهكذا، فالتاريخ المريني يسجل حالات لزواجات سياسية بهدف لجم الصراع والتناحر؛ من ذلك المصاهرات التي عقدها بنو حمامة مع الوحدات القبلية الأخرى، وبرزت في هذا الصدد أسماء السيدات سوط النساء من بني علي الشرفاء الحسنيين،[168] والنوار بنت تصالت من بني بنجاسن،[169] وأم الفرج من بني عبد الواد،[170] وأم اليمن بنت محلي من قبيلة بطوية،[171] وتعزونت بنت أبي بكر من تنالفت،[172] اللواتي عقد عليهن عبد الحق بن محيو لغرض رأب الصدع بين بني حمامة وغيرها من القبائل،[173] وبهدف الضم والإلحاق، وتهدئة الخواطر، وتعزيز التحالف من خلال تصدير الحرب خارج هذه الوحدات.

وفي إطار الصراع المحتدم بين بني مرين والقبائل العربية، تواتر الزواج بين هذين الطرفين بنسب قليلة، خضعت في الأغلب لظروف المواجهات وأثرها،[174] وكان من بينها زواج يعقوب بن عبد الحق من السيدة عائشة بنت مهلهل الخلطي.[175] بل إن نساء العمارنة اللواتي اعتاد الأمراء المرينيون الزواج من بعضهن، كن أفضل وسيلة لاصطناع رجال تلك القبيلة، ومنع تمرداتهم وغاراتهم في المجالات التي اعتادوا التنقل فيها.[176]

من جانب آخر، كان لإصهار بني الأحمر من الأندلس السلطان يوسف بن يعقوب في كريمة موسى بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق «من غرناطة في وفد من وزراء ابن الأحمر

Scanned by CamScanner

وأهل دولته»،[177] دور هام في لم الشقاق بين الطرفين، حين «أعرس بها، وكان بعث إلى أبيها من قبل في الإصهار بها، ووافت معها رسل ابن الأحمر يسالونه التجافي عن وادي آش، فأسعفهم بها».[178]

وتبقى المصاهرة الثانية التي تمت بين السلطان أبي الحسن والسلطان الحفصي أبي يحي في ابنته الأميرة عزونة،[179] بعدما فقدت الأولى[180] «بطريف فيمن هلك من حظايا السلطان»،[181] أفضل نموذج لتبين دور المرأة في منع الحرب وتلافي مآسيها، يقول ابن خلدون[182] إن السلطان أبا الحسن كان «قد امتدت عينه إلى ملك إفريقية... وأقام يتعين لها الأوقات، ولما بعث إليه في الصهر، وأشيع بتلمسان أن الموحدين ردوا خطبته، نهض من المنصورة بتلمسان، وأغذ السير إلى فاس، ففتح ديوان العطاء، وأزاح علل العساكر...وارتحل إلى تلمسان مضمرا الحركة إلى إفريقية، حتى جاءه الخبر اليقين بالإسعاف والزفاف، سكن عزمه، وهدأ طائره».

ومما يؤكد أهمية حضور المرأة في هذا الجانب، ما ترتب عن رفض الأميرة الحفصية ابنة أبي بكر الحفصي الزواج من أبي عنان الذي أرسل الوفود لخطبتها، فاعترضت محتجة بقلق قيد يمنع من عشرته،[183] من هزات في العلاقة بين بني مرين والحفصيين أسفرت عن حملة أبي عنان على إفريقية.

حقيقة إن الحالات التي أوردناها عن دور المرأة في منع الحرب على أهلها، وإن مكرهة، قد تدخل ضمن ما يمكن أن نسميه بالحق السياسي الذي مارسه الرجال على النساء، والذي مورس بصورة تعسفية أحيانا، وقاد إلى حياة زوجية أقرب إلى المأساة، وتشي بأن المرأة هنا اعتمدت وسيلة لتحقيق غاية أهلها، مع عدم العودة إلى رغبتها الفعلية في تنفيذ ذلك أو رفضه.[184] إلا أننا لا نعدم من القرائن ما يثبت اضطلاع المرأة بأدوار هامة في حالة الحرب لصالح أهلها.

ومن الأمثلة على ذلك، أن النساء اعتدن الخروج مع الرجال للغزو في حملات طالت مددها ومسافاتها،[185] فبرزت في ساحات القتال «على سبيل التحريض، يحيين ويعدين ويرغبن»[186] رجالهن على الاستماتة وعدم الإدبار، وأنشدن الأشعار لتحميسهم،[187] وكان لهن دور فعال في ذلك،[188] حتى إن العرب كانوا «يصطحبون نساءهم في حروبهم، لتزداد شجاعتهم، ويقل خوفهم»،[189] كما تكلفن بالجرحى لتضميد جراحاتهم[190] وكذا

Scanned by CamScanner

بالأسرى في سجونهم، وبإيصالهم إلى ذويهم في حال إطلاق سراحهم،[191] وأيضا بفك أسرى أهلهن،[192] دون أن نغفل من ساهمت منهن بنفسها في الحرب، فحملت السيف، وقارعت الرجال في القتال.[193]

2. معاناة المرأة زمن الحرب

على أن هذه الصورة التي بدت عليها بعض نساء المغرب الأقصى خلال المرحلة مدار الدرس، لا يمكن أن تخفي ما نال المرأة من ضروب القتل والأسر والسبي. وإذا استثنينا ما حظيت به المرأة من اهتمام في أوقات الحرب في عرف بعض القبائل،[194] من مثيل حاحا زمن الوزان؛ حيث تظل محترمة وموقرة من قبل الفرقاء المتحاربين، وتتنقل بكل حرية وفي أمن بينها، وتشمل حرمتها كل من يتنقل معها من الرجال.[195] وإذا استثنينا بعض الأحكام الفقهية التي دعت إلى عدم تعريض المرأة للمخاطر زمن الحرب؛ من مثيل ما أفتى به الفقيه أبو العباس المريض بأن لا يخرج بالمرأة إلى الغزو في جيش قليل لا يؤمن معه العطب «خيفة أن تحصل بيد العدو، ولا خفاء بما ينشأ عن ذلك»،[196] تظل معظم المادة المتوفرة دليلا واضحا لكون المرأة مثلت الحلقة الأضعف، والضحية لما تعرضت له في أوقات الحرب من أضرار.[197]

ونرجح أن اصطحاب النساء إلى ساحات القتال، بقدر أهميته بالنسبة للمحاربين الذين يستأنسون بزوجاتهم خلال لحظات الغياب عن أوطانهم، والأدوار التي اضطلعن بها في حالة القتال، فإنه كان يعرضهن لحالات القتل أو السبي، وهو ما نستشفه من بعض الحالات النادرة التي روعيت فيها هذه النقطة، فأبعدت النساء عن ساحة القتال، كما كان عليه الحال أثناء تشاور رؤساء مرين في وضع عيالاتهم بسبب حملة الموحدين عليهم؛ «فاجتمعت كلمتهم، واتفق رأيهم وقولهم، أن يجعلوا بقلعة تازوطة حريمهم».[198] لكن مثل هذا الرأي قليلا ما اعتمد في حروب هذه المرحلة كلها، مصداق ذلك ما تعرضت له النساء من حالات القتل والسبي[199]؛ ومن ذلك حالة نساء ومحظيات السلطان أبي الحسن اللواتي لقين حتفهن في هزيمة طريف،[200] وما تعرضت له نساء بني عبد الواد من سبي في كثير من المعارك مع بني مرين.[201]

وحتى لا نستفيض في هذا الجانب، يكفي أن نحيل إلى ما فصلنا فيه الحديث في الفصل السابق، المتعلق بقضايا القتل والأسر والسبي، للوقوف على حظ المرأة المغربية منها،

Scanned by CamScanner

والوقوف على وضعها وموقعها في أوقات الازم والمحن، ونعتقد أن من أهم المشاكل التي عانت منها المرأة في مغرب هذه المرحلة نتيجة هذه الحروب، تتعلق بمسألة غياب العائل أو الزوج بقصد الحرب أو بسببها، وما ترتب عن ذلك من إمكانية أسره، أو فقده، وفي أسوإ الحالات موته.[202]

ثانيا: المرأة وغياب الزوج بقصد الحرب أو بسببها

تقدم مصادر الفترة المدروسة أرقاماً للجنود المرافقين للسلاطين المرينيين في حملاتهم العسكرية.[203] وحسبنا أن عددهم إلى حدود حكم السلطان أبي الحسن بلغ حوالي «أربعين ألف فارس... غير حفظة المدن والسواحل»،[204] كما كان بإمكان أي سلطان مريني «إذا استجاش لحرب أن يخرج في جموع كثيرة لا تنحصر بعدد»،[205] بل إن العدد الإجمالي لهؤلاء الجند بلغ في عهد السلطان أبي الحسن حوالي أربعين ومائة ألف فارس.[206] فإذا افترضنا أن الكثير من هؤلاء، إن لم نقل معظمهم، كانوا ممن يعيلون أسرهم وعائلاتهم، أمكن فهم ما يعنيه الغياب المطول لأي فرد منهم، مع إمكانية موته أو أسره أو فقدانه، بالنسبة لأوضاع أسرته المادية والمعنوية.

1. موقع الحرب ضمن الأسباب العامة لغياب الأزواج

فضلا عما أثبتناه في المبحث السابق عن المدد الطويلة التي كان يقضيها الجند بعيداً عن زوجاتهم، وعن تذمرهم المستمر من ذلك، فإن ما يعزز أهمية هذا الافتراض، أن كتب النوازل الفقهية احتفظت لنا بفيض من النوازل كان فيها لغياب الزوج عن زوجته، بقصد الحرب أو الغزو، ضلع واسع في تضخم النزاع بينهما، وما كان لأسره أو فقدانه أو موته من أثر في الوضعية الاقتصادية لزوجته وفي حياتها الاجتماعية.

وتجب الإشارة إلى أن المعلومات التي زودتنا بها كتب النوازل حول قضايا الغياب وما ترتب عنها من مشاكل اجتماعية، لم تفصح بما فيه الكفاية عن الدوافع الكامنة وراء غياب الأزواج عن زوجاتهم، وإن حددتها، في بعض نوازلها،[207] في السفر للتجارة،[208] أو الاتجاه إلى المشرق لأداء فريضة الحج،[209] أو الخروج للغزو والحرب.[210] إلا أننا نعتقد أن هذا الدافع الأخير مثل أبرز أسباب هذا الغياب،[211] اعتباراً لما توصلنا إليه في المبحث السابق عما أثاره طول مدد الحملات العسكرية من تذمر في صفوف الجند، وما أكدنا عليه في

Scanned by CamScanner

الفصول السابقة عن تفشي ظاهرة الحرب خلال هذه المرحلة، وكثرة ممتهني حرفتها، واعتبارا للمادة الطيبة التي توفرها مظان المرحلة في هذا الصدد، كما سنرى.

وفضلا عن ذلك، فإن ما كان يعقد من ظروف السفر لغير الحرب إما لحج أو تجارة «أو سفر من الأسفار»،[212] ويحوله إلى مشكل كان يؤرق زوجات العصر المريني، يتمثل بالأساس في ظروف الحرب المستمرة، وما أفرزته من انفلات أمني،[213] خاصة في بعض مراحل هذا العصر، التي أصبحت فيها ظروف التنقل غير ملائمة، سواء عن طريق البحر لكثرة عمليات القرصنة المسيحية فيه،[214] أو عن طريق البر لـ «كثرة غوائله، وشدة مضايقه».[215] فأضحى المسافر في ضوء هذه المحن «في خوض ظلماء، وخبط عشواء، لا يأمن على ماله، ولا على نفسه، ولا يؤمن راحة في غده إن لم يرها في يومه وأمسه... يظلم ويجفى ويهتضم، تتعاطاه الأيدي الغاشمة، وتتهاداه الأكف الظالمة، لا منجد له ولا معين».[216]

ومما يؤكد أهمية هذا الطرح، أن فقهاء المرحلة أفتوا بسقوط فريضة الحج عن المغاربة اعتباراً لتلك الظروف.[217] كما اعتبر الفقيه أبو الحسن الصغير تخلف الرجل عن الالتحاق بموعد ضربه بسبب أنه «أدركه خبر موت السلطان أبو ثابت وكان أهله بتامسنا، فخاف على أهله وولده وعلى نفسه، فأبطأ»[218] حتى استتب الأمن، فالتحق بموعده بعد أن انقضى أجله، «أنه قد تكون له أعذار توجب تخلفه عن الأجل، وأكبر الأعذار ما اعتذر به».[219] بل إننا لا نعدم بعض الإشارات إلى بروز تآليف ومصنفات كان لظروف الحرب والانفلات الأمني دور واضح في تأليفها، ومنها «زاد الراكب والراجل، وسلاح الخائف الواجل» الذي ألفه قاسم بن أحمد بن يامون[220] في فترة متأخرة قليلا عن زمن هذا البحث.

علاوة على ذلك، ساهمت ظروف الحرب المستشرية في تضخم نسبة المفلسين والمتضررين اقتصاديا واجتماعيا،[221] كما لاحظنا في الفصل الموسوم بـ «انعكاسات الحرب على الأنشطة الاقتصادية»، مما أفرز قضايا اجتماعية تتعلق برجال غائبين عن زوجاتهم فراراً من تكاليف بيت الزوجية،[222] أو بسبب قلة ذات اليد والعوز، لا سيما في صفوف العائلات الفقيرة.[223]

والظاهر أن هذه الظروف مجتمعة أذكت قلق الزوجات على مصير أزواجهن، على مصيرهن تبعاً لذلك، لصعوبة معرفة إن كان قتل،[224] أو لا يزال على قيد الحياة.[225]

Scanned by CamScanner

الحاصل إذن، أن ظروف الحرب المستمرة أسهمت في تنامي مسألة غياب الأزواج عن زوجاتهم، إما من أجل المشاركة في الحرب، أو بسبب ظروفها وما خلفته من انفلات أمني جعل المسافر بقصد التجارة أو الحج أو غيرهما من الأسباب معرضا للمخاطر والأهوال، فضلا عن نتائجها الاقتصادية والاجتماعية التي اضطرت الكثير من الأزواج إلى التخلي عن زوجاتهم، والفرار بعيداً عن مسؤولياتهم الأسرية، وكلها عوامل تجعلنا لا نجد حرجا في اعتماد كل النوازل التي تخص قضايا غياب الأزواج، وإن لم تحدد أسبابه.

2. أوضاع زوجات الغائبين والأسرى والمفقودين

لا شك أن حدة ظاهرة الحرب وتضخمها في هذه المرحلة هو ما أفضى إلى كثرة القضايا التي عرضت على فقهاء العصر المريني حول زوجات رجال غائبين أو أسرى أو مفقودين وما أثاره وضعهن من مشاكل اقتصادية واجتماعية، فقد سئل الفقيه أبو عبد الله العبدوسي عن «مسألة كثيرة النزول، وهي البكر ذات الأب أو غير ذات الأب تزوجتا وأرادتا القطع على أزواجهما بحكم المغيب».[226] كما استفتي غيره «عمن فقد في هزيمة المسلمين بأرض الغربية منذ عام كامل، وفقد فيها أناس كثيرون، ولم تتحقق حياتهم من وفاتهم، ونساؤهم يطلبن من القاضي رفع الأمر»،[227] مثلما أجاب ابن سراج عن نازلة في «جماعة من الفرسان فقدوا في معترك القتال بين المسلمين والنصارى منذ عامين ونصف...وأنه لم يثبت حياة واحد منهم، ولا سمع أنه حي بوجه طول المدة، فهل يجوز لنسائهم أن يتزوجن».[228]

أ. المقبلات على الزواج والخطيبات، والقلق على قرين المستقبل

قمين بالإشارة أن هذا الوضع لم يقتصر على النساء المتزوجات فقط، بل إن الضرر من غياب الزوج أو فقده أو أسره شمل المقبلات على الزواج والخطيبات أيضا، وهو ما نجد له صدى في نوازل المرحلة؛ ومن الأمثلة على ذلك ما سئل عنه أبو عبد الله بن مرزوق في «رجل غاب عن زوجته قبل الدخول، فأرادت القطع عليه»،[229] وما سئل عنه أبو العباس البقني في رجل خطب بنتا يتيمة وتراكن مع وليها على الزواج، لكن الخطيب خرج «مع الفرسان في حين السفر إلى الغربية في الأيام الماضية ومضى، كيف قضي عليه وقيل إنه أسر، وقام الآن ناس البنت يريدون تزويجها لغيره».[230] وبالمثل أورد إبراهيم بن عبد الرحمن الكلالي[231] نازلة، يرجح أنها تعود إلى العصر المريني،[232] وقعت أحداثها في واد المنصورة من بلد غريسة، وتتعلق بقتال حدث بين «أهل غريسة مع صنهاجة، وقتل منهم خلق كثير،

Scanned by CamScanner

فكان ممن قتل رجال كثيرون ممن خطب المرأة قبل البناء، ووقع التنازع بينهم في الإرث».[233]

ولا شك أن ما أثارته النزاعات المترتبة عن غياب الخطيب أو موته أو أسره أو فقدانه من قضايا تتعلق بحق المرأة في صداقها وكالئه وفي إرث «الزوج»،[234] هي ما دفع ببعض القبائل إلى الإقرار- بعد كثرة نزول مثل هذه القضايا- في عرفها أن «ما يقع بين الزوجين من المراوضة والانطباع وإرسال الهدايا لا يعتد به عندهم، وعوائدهم حتى يحضر الدخول والوليمة وتقع الشهادة، وحينئذ يعتقدون انبرام النكاح بينهما».[235] وقد سبق لبعض من كان على دراية بما يلحق بالزوجة من ضرر جراء غياب الزوج أو موته أو أسره قبل أن يدخل بها، أن رفضوا الإشهاد على الزواج قبل زوال العارض، سواء كان حربا، أو غارة، أو وباء ومجاعة.[236]

ب. زوجات الغائبين والأسرى والمفقودين، ومشكل الفقر والحاجة

على أن المشكل طرح بشكل كبير بالنسبة للنساء المتزوجات اللواتي غاب عنهن عائلهن وزوجهن أو فقد أو أسر، فأصبحن في وضع مادي حرج، وأضحين في عوز وعالة؛ فقد تحدث الوليدي[237] عن «مسألة نزلت مراراً، وهي المرأة الطارئة تذكر أن لها زوجاً غائباً منقطع الغيبة لا يعرف له مستقر، أو غيبة بعيدة جداً، أو أنه وقع في الأسر ولا مال له ولا عنده شيء، وتشكو الضيعة». كما سئل أبو عبد الله القوري في امرأة غاب عنها زوجها بقصد الغزو، ورفعت أمرها إلى القاضي تريد الطلاق بعدم النفقة، وأثبتت ما يجب في ذلك من الزوجية والغيبة.[238]

وإذا كان الأمر يتعلق هنا بحالات فردية ومتفرقة لنساء غاب عنهن أزواجهن، وأصبحن يطلبن البث في حالاتهن لما نالهن من العوز والفاقة، فإننا لا نعدم من القرائن ما يثبت أن هناك من المعارك من خلفت قطاعاً عريضاً من النساء والزوجات اللواتي طالبن بإلحاح بالنظر في قضيتهن والبث في مصير أزواجهن من جانب الموت أو الحياة، وبالتبعية في مصيرهن ووضعيتهن المزرية بعد فقدان العائل، فيما يبدو وكأنها تحولت في كل معركة أو هزيمة إلى قضية «رأي عام» أثارت جدالا واسعاً حول وضع تلك الزوجات ومصيرهن.

ومن نماذج ذلك، ما سئل عنه فقهاء المرحلة في قضية كثيرة الوقوع؛ وهي في من «فقد في هزيمة المسلمين، وفقد فيها أناس كثيرون... ونساؤهم يطلبن من القاضي رفع الأمر».[239]

Scanned by CamScanner

وما أثارته قضية نساء مفقودي معركة طريف من قضايا أجاب عنها كثير من فقهاء هذه المرحلة.240 ومن ذلك أيضا ما سئل عنه أبو العباس الزقاق في نازلة، متأخرة قليلا عن زمن هذا البحث، «عمت بها البلوى كثيراً، كثر وقوعها من وقعة طنجة أسر بها أناس وتركوا أزواجهم وبعض الأسباب للزوجات، وعليهم ديون من كالئ صداقهن منها ما كان حالا، ومنها ما حل بعد الأسر، فأردن أن يعدى لهن من أملاك أزواجهن لنفقتهن، ولما حل من كالئ صداقهن».241

وفي كل الأحوال، لا يساورنا شك في أن الأوضاع كانت حرجة جداً بالنسبة لهؤلاء النسوة اللواتي تركن لقدرهن بسبب غياب العائل، فأصبح مشكل الإنفاق، وضعف الحال، أبرز ما عانين منه، وقد رددت نوازل العصر المريني ذلك في عبارات كثيرة النزول،242 من مثل «في ضيق من الحال»، و«في ضيق من المال»، و«لا عندها ما تكتري به»، و«ليس في البلاد من يقوم بها»، و«خافت على نفسها وحالها الفقر»، و«هي محتاجة»، إلى غير ذلك من العبارات التي تثبت ما كان لغياب الزوج بقصد الحرب أو بسبب ظروفها من أثر في الوضعية المادية لزوجته.

ويبدو أن الوضع كان أكثر تعقيداً بالنسبة للزوجات ذوات الأولاد اللواتي تفاقم عليهن مشكل الإنفاق، وأضحين يشتكين الفقر والضنك؛ ومنهن «امرأة من أهل سبتة أسر زوجها ولها منه عدة أولاد، فضاق عليها الحال»،243 والتجأت إلى الولي ريحان الأسود فـ«شكت إليه أمر زوجها، وضعف حالها».244 كما سئل أبو عبد الله المازري، في فترة سابقة عن زمن البحث، فيمن «غاب بالأندلس وترك زوجة وطفلة منها وطفلا من غيرها مطلقة، فلما كان الآن أنفذ سبعة دنانير في المركب الأول، واثني عشر في المركب الثاني، ولم يترك لأولاده وزوجته نفقة، فقامت أم الطفل تريد مخاصمة الزوجة والابنة برزق ابنها».245

وإذا كان بعض الأزواج حاولوا التغلب عما كان يلحق بزوجاتهم من ضرر بسبب مغيبهم من خلال المطالبة بمرافقتهن،246 وإذا كانت بعض الزوجات استطعن، بفضل ثرواتهن، تحمل مصاريف بيت الزوجية، والاضطلاع بمهام الإنفاق على الأبناء،247 وإذا كان بعضهن آثرن التربص وانتظار أزواجهن في بيت الزوجية بقبول إنفاق بعض الأقارب الذين تطوعوا لإنقاذ العلاقة الزوجية من الضياع،248 أو بمطالبتهن بالاستفادة من الزكاة،249 فإن غيرهن لم يجدن بدأ من إعلان تضررهن، فطالبن بحسم أمرهن، وتمكينهن من التطليق.250

ج. تعقد إجراءات التطليق بحكم الإعسار في النفقة

من المفيد الإشارة إلى أن مطالبة زوجة الغائب أو الأسير أو المفقود بتطليق نفسها أثار قضايا فقهية شائكة من مثيل، هل تطلق بحكم الإعسار في النفقة؟ وهل لها الحق في الزواج؟ وماذا لو عاد الزوج الأول؟ إلى غير ذلك من الأسئلة،[251] والتي تفيد أن تطليق الزوجة لنفسها بحكم الغياب أو الأسر أو الفقدان، مع الشكوى بعسر الإنفاق، أو بحكم الضرر المعنوي، لم يكن بالأمر الهين.

لقد اعتبر الفقهاء أن دعوى الطلاق بعدم النفقة إنما تطبق «على الغائب البعيد الغيبة»[252] التي قدرها بعضهم في عشرة أيام أو نحوها.[253] وفي حالة الغائب القريب الغيبة مع انعدام الأمن في الطريق،[254] وذلك بعد التأجيل والتلوم شهرا أو شهرين.[255] إلا أنه كان على الزوجة إثبات مغيب الزوج بكتابة عقد يشهد بذلك،[256] وبعد ذلك تحلف «بمحضر عدلين قائمة مستقبلة القبلة»،[257] بعد أن تثبت أن الغائب لم يرجع «ولا ظهر له مال ولا وصل إلى زوجه منه شيء»،[258] وحينئذ يبيح لها «القاضي تطليق نفسها بطلقة واحدة يملك بها زوجها رجعتها».[259] وقد أفتى أبو محمد عبد الله العبدوسي بأن تقام هذه الإجراءات في الجامع الذي تقام فيه الجمعة.[260] وجدير بالإشارة أن دعوى التطليق بعدم النفقة بالنسبة لزوجة المفقود أو الأسير لم تختلف في إجراءاتها عن سابقتها.[261]

الظاهر إذن، أن إجراءات تطليق المرأة لنفسها بحكم الإعسار في النفقة، بالرغم من تضررها المادي، لم تكن سهلة، خاصة وأن بعض الفقهاء تصدوا لهذا النوع من الطلاق،[262] وتشدد آخرون في تطبيقه.[263] وحتى إن طبقت فإنها تظل إجراءات يطول تنفيذها لإثبات غيبة الزوج واتصالها واستمرارها، وإثبات حالة العوز، وانعدام سبل الإنفاق وغيرها من الإثباتات المعقدة التي تحتاج إلى مدة قد تطول أو تقصر، حسب اجتهاد القاضي، حتى يتيقن من مصير الزوج. وإذا كانت هذه الإجراءات عقدت على ما يبدو لدرء عواقب بعض الحالات التي ادعت فيها الزوجة الفاقة فثبت العكس،[264] أو التي ادعت فيها موت الزوج وعدمها، ثم قدم حياً، وأثبت أنه ترك لها ما تنفقه،[265] فإنها في مقابل ذلك عقدت من وضع المرأة المنتظرة، وزادت في عوزها وفقرها.

وإذا كانت بعض الزوجات قد حالفهن الحظ في تضمين شرط المغيب في عقود نكاحهن، وتمكن من استخدامه لحظة تضررهن،[266] وإذا كان بعضهن قد حصلن على

Scanned by CamScanner

التطليق بدعوى النفقة والمغيب،[267] فإن تعقد إجراءات التطليق دفع بأخريات إلى تجاوز القناة الشرعية للحصول على الطلاق، وتخلصن من عقدة أزواجهن الغائبين أو الأسرى أو المفقودين من خلال الزواج برجل آخر دون التطليق من الأول،[268] بينما التجأت بعض الزوجات إلى مناطق بعيدة، وادعين أنهن مطلقات،[269] إلى غير ذلك من الوسائل والتحايلات التي غالباً ما لم تمر دون حدوث مشاكل خاصة بعد عودة الزوج الغائب.[270]

د. الأضرار المعنوية

من الضروري أن نشير إلى أن إعلان تضرر المرأة من غياب الزوج أو فقدانه أو أسره لم يقترن في كل الحالات بمشكل العوز والنفقة، فقد ترددت في نوازل الحقبة المرينية قضايا تتعلق بنساء أصررن على مطلب الطلاق بالرغم من وجود ما ينفقن منه؛ من مثيل ما سئل عنه أبو سعيد بن لب في «امرأة الأسير أو المفقود، إن أنفقت على نفسها من مالها مدة، ثم ترفع أمرها إلى الحاكم تطلب ما أنفقت»،[271] وما استفتي فيه أبو عبد الله القوري في رجل غاب عن زوجته في زمن الحرب مدة خمسة أعوام وترك بعض أملاكه، ورفعت أمرها إلى قاضي الناحية، وطلبت منه أن يمكنها من كالئ صداقها من قبل الزوج المذكور من الأملاك، وما بقي يعدى لها فيه للنفقة، وأرادت بذلك تعجيل الطلاق.[272]

وفضلا عن ذلك، من الزوجات من عرض عليها أقارب الزوج إجراء النفقة عليها، فرفضت وقالت: «لا أرضى أن آكل تحت يد أحد غير زوجي»،[273] وقد سئل أبو بكر بن عبد الرحمن في من ادعت أن زوجها لم يترك لها شيئا تنفقه «ورفعت إلى السلطان، وأرادت الفراق إذ لم يترك لها نفقة، ثم إن رجلا من أقارب الزوج، أو من الأجانب قال لها أنا أؤدي عنه النفقة ولا سبيل لك إلى فراقه»[274] فرفضت. وكلها نوازل توحي بأن مطلب المرأة المتضررة من غياب الزوج أو أسره أو فقدانه كان شيئا آخر غير النفقة في بعض الحالات.

ويخيل إلينا أن تضرر المرأة من الناحية الجنسية، والخصاص الذي واجهته في غياب قرينها هو ما كان وراء إصرار تلك الزوجات على التطليق بالرغم من توفر سبل الإنفاق، ولا أدل على ذلك من أن المطالبة بالطلاق غالباً ما اقترن برغبتها في الزواج من آخر في معظم نوازل المرحلة؛ وقد رددت نصوص المرحلة هذا المطلب في عبارات توحي بخصاص جنسي لدى المرأة المتضررة، ومنها[275] «تخاف على نفسها الضياع»، و«لحق الزوجة من

Scanned by CamScanner

ذلك ضرر كثير»، و«شكت الضيعة»، و«يخاف ضياعها»، و«خيف عليها الفساد»، و«إن لم تتزوج ضاعت»، و«خاف أهلها أن تضيع»... إلى غير ذلك من العبارات التي تحمل معنى الضياع بشقيه المادي والمعنوي، ولا شك أن هذا الأخير يفيد خوفها من السقوط في الخيانة بفعل الخصاص الجنسي.276

وعلى الرغم من ندرة النصوص التي تكشف هذا الجانب وتنير بعضا من خباياه، فإن المتوفر منها يؤكد الخصاص الجنسي الذي عانت منه بعض الزوجات؛ فقد وردت في «معيار» الونشريسي نازلة عن زوج «غاظته زوجته، فحلف بطلاقها ليفشين سرها وليغيظنها، وهو يعلم أن السفر والغيبة مما يغيظها».277 مما يكشف عما كان يلحق الزوجة من ضرر معنوي نتيجة غياب زوجها، دليلنا في ذلك ما أورده النفزاوي في «روضه»278 عن المرأة التي سئلت من قبل رجل عن مقدار ما يمكن للمرأة أن تصبر على زوجها فقالت: «المرأة الحسيبة الخيرة تصبر على النكاح ستة أشهر، و المرأة التي ليس لها أصل ولا لها عرض، لو صابت ما قام لها الرجل عن صدرها».279

ومن القرائن التي تثبت الضرر الجنسي الذي كانت تعانيه زوجة الغائب أو المفقود أو الأسير، ما جاء في حديث ابن الحاج النميري280 عن تدخل السلطان أبي عنان لفك بعض الأسرى بطلب من نسائهم، فأصبحن بعد أن حقق السلطان رغبتهن في عداد النساء «الحافظات لفروجهن، والمطهرات لمضاجع جنوبهن، فالعرض مصون...والحبيب مسرور...والشمل مجموع»،281 وفي هذا النص ما يؤكد أن من النسوة من لم تستطع صبراً على غياب الزوج، فارتمت في أحضان الخيانة الزوجية.

وفي كل الأحوال، فإن الغياب المطول للزوج، مع ما يمكن أن يترتب عنه من أسر أو فقدان، وطول الإجراءات التي كان يتطلبها إثبات الضرر في النفقة، وإثبات الغيبة وطولها، وما كان يتطلبه انتظار الزوج المفقود مدة تعميره، أو الأسير أمد العمر، إن توفرت سبل الإنفاق لزوجته، كلها كانت عوامل عجلت بسقوط بعض الزوجات في براثن الخيانة الزوجية بحثا عن سد الرمق الجنسي، والمادي والعاطفي في آن، بالنسبة للزوجات اللواتي كان الفقر والعوز عاملا أساسا في تعقيد مدة طول الانتظار.

وتظل النازلة التي وقعت في فاس، وعرضت على قاضي الجماعة أبي عبد الله محمد بن محمد ابن أحمد المقري سنة 748هـ/1347م أبرز مثال لتأكيد ذلك؛ إذ تشير إلى أحد الفاسيين

Scanned by CamScanner

الذي فقد في وقعة طريف سنة 741هـ/1340م، ثم أتت زوجته بولد منه بعد مرور سبع سنوات على فقدانه وبالتحديد في رمضان سنة 748هـ، مدعية أنه من زوجها المفقود.[282]

ولا شك في أن هذه الأضرار التي كانت تلحق بالزوجات، هو ما دفع بالكثير من نساء هذه الفترة[283] إلى أن يشترطن في عقود نكاحهن ألا يغيب أزواجهن مدة معينة، فإن زاد على هذا الأجل أصبح بإمكانهن الحصول على الطلاق،[284] ومن هؤلاء النسوة أم العز بنت سعيد البجائي التي غاب عنها زوجها محمد بن علي الحسن «أزيد من ستة أشهر، فتقدمت صحبة شهيديه إلى الجامع الأعظم، فحلفت يمينا ... إلا غاب عنها زوجها المذكور أزيد من ستة أشهر المذكورة حلفا تاما»،[285] ثم خيرت «بين التربص، وانتظار زوجها أو طلاقها عليه، فاختارت الطلاق، فطلقت نفسها عليه طلقة واحدة مملكة كما شرط لها»[286] في عقد النكاح.

هـ. متضررات أخريات

بقي أن نشير في آخر هذا المبحث إلى حالات متفرقة لنساء لم يسلمن من واقع الحرب المستشرية، وما ميزها من انفلات أمني وتراجع ظل الأحكام وانحسارها عن بعض المناطق، مما سمح لبعض الأزواج باستغلال ذلك، وإلحاق الضرر بزوجاتهم الشيء الذي دفع بعضهن إلى الفرار؛ فقد تحدث ابن مرزوق في أجوبته عن المرأة «تفر من البادية لقاضي الحاضرة، تشتكي ضرر زوجها، وهو حيث لا تناله الأحكام، فيمتنع عن القدوم».[287] كما سمحت تلك الظروف لبعض المحاربين بفرض رغباتهم على بعض النساء، وإرغامهن على الزواج؛ ومن الأمثلة على ذلك ما سئل عنه أبو عبد الله العبدوسي في امرأة توفي زوجها وهي حامل، وتزوجت من آخر قبل أن تضع حملها «فقيل لها: ولما تزوجت وأنت حامل؟ فقالت خفت على نفسي من العربي الذي طلبني للزواج، وعلى مالي».[288]

وفضلا عن ذلك، فقد استغل بعض الأزواج ما كان ينتج عن بعض الحروب والغارات من نهب وسلب مس عقود الزواج وغيرها من الوثائق للتملص من بعض الحقوق، وهو ما عبرت عنه بوضوح نازلة سئل عنها المفتي أبو صالح ومضمونها، «عن امرأة نهب كتاب صداقها، وذلك كثير عندنا، لما نال الناس من الفتنة وذهاب الكتب من أيديهم، وطالبت زوجها بكالئها، فقال لها: مالك شيء، وهي امرأته».[289]

Scanned by CamScanner

عموماً، فقد اتسعت في مغرب هذه المرحلة قاعدة النساء المتضررات من ترسبات الحرب المستشرية، فشملت النساء المقبلات على الزواج والمتزوجات برجال غائبين بقصد الحرب أو بسببها، ونساء المفقودين والأسرى، فضلا عمن تضررن من واقع الحرب وانحسار الأحكام واليد القاهرة عن مناطقهن، دون أن نغفل النساء العانسات اللواتي اتسعت شريحتهن بالموازاة مع القتل الذي طال الكثير من الرجال دونهن.290 ويبدو أن أوضاع غالبيتهن كانت مزرية، وبخاصة الفقيرات والمعوزات منهن اللواتي كان عليهن مكابدة ظروف العيش، والبحث عن سبل لتجاوز واقعهن، اختلط فيها المباح والمحظور.

وإذا كنا لا نستبعد لجوء بعضهن إلى أهليهن وعائلاتهن في إطار التكافل العائلي، خاصة وأن الكثيرات منهن كن يحرصن على الحفاظ على علاقات طيبة بعائلاتهن من خلال التخلي لهن على نصيبهن وحقهن من الميراث تحسبا لصوارف الدهر وتقلباته،291 فإن غالبيتهن اضطررن إلى الخروج إلى الشغل والبحث عن لقمة عيشهن وعيش أولادهن.292

وإذا تعذرت سبل العيش الكريم، وتفاقمت حالة العوز والفقر، فإن بعضهن لم يترددن في بيع أعراضهن وأجسادهن، والارتماء في أحضان الدعارة والبغاء لتصريف أزمتهن.293 وليس بعيداً أن تكون تلك الأرباض التي وصفها أحد الجغرافيين في فاس وغيرها، وما انتشر فيها من ظواهر بما فيها البغاء، نشأت وتكونت بفعل الحروب التي اضطرت الكثير من النساء، بمن فيهن هؤلاء النسوة، إلى الجلاء نحو المدن، فأصبحن يعشن هناك حياة التهميش والمهانة.294

ثالثا: أرامل الحرب

إلى جانب شريحة نساء الغائبين بقصد الحرب أو بسببها، ونساء من فقدوا أو أسروا فيها، تضخمت في مغرب هذه المرحلة شريحة النساء الأرامل اللواتي فقدن أزواجهن في حروب وفتن هذه المرحلة.295 فما أثبتناه في المبحث الأول من الفصل السابق، وفي غيره من مباحث هذا البحث عن كثرة أعداد من هلكوا من أرباب الأسر، يفيد أن ظاهرة الترمل أضحت مشكلة حقيقية في مجتمع المغرب المريني. وعلى الرغم من أن المادة التاريخية التي تخص هذه الشريحة تظل ضئيلة ونادرة، فلا مجال للشك في أن قاعدتها كانت كبيرة، وأن ظروفها الاجتماعية كانت صعبة للغاية.

Scanned by CamScanner

وقد تفطنت كتب الأحكام[296] إلى أهمية هذا الصنف من نساء الجنود القتلى وكثرته، فدعت أولي الأمر إلى ضرورة الاهتمام به، وعدم التخلي عنه كلا وضياعاً،[297] فـ«إذا مات أحدهم [أي الجند] أو قتل، كان ما استحقه من مخدوم عطائه موروثا منه على فرائض الله تعالى، وهو دين لورثته في بيت المال. ومن مات منهم أو قتل وخلف في موضعه أحداً أجرى على مخلفيهم ما يسعهم، ولا يضيعون معه أصلاً».[298] كما لا نعدم بعض الإشارات إلى اهتمام فئات المجتمع بهذه الشريحة؛ فقد عرف عن والدة أبي الحسن المريني تعاطفها مع هذا القطاع المهمش من النساء، فبذلت لهن الصدقات، وزوجت منهن من ترملت في صغرها.[299] كما أن المتصوفة، الذين تراكمت أدوارهم في هذه المرحلة، أولوا عناية خاصة بالأرامل، وحسبنا أن أبا العباس السبتي كان «رحيما عطوفا محسنا إلى اليتامى والأرامل».[300]

ولا سبيل إلى الشك في أن أحوال الأرامل كانت أكثر بؤسا وعوزا وخصاصة، وبخاصة الفقيرات منهن اللواتي لم يخلف لهن أزواجهن ما يعلن به أنفسهن وأولادهن.[301] ويكفينا للتأكيد على ذلك ما نطقت به إحدى الأرامل التي اشتكت ضعف حالها للولي الشيخ أبي يعقوب بن الشفاف، خاصة بعد أسر ابن لها كان يعيلها، «فقالت له : يا سيدي، عندي ابن أكبر من هذا يخدم علينا، فأسره العدو وبقيت حائرة بهذا اليتيم، فادع الله أن يجبر علي ولدي».[302]

وإذا استثنينا بعض الأرامل اللواتي استفدن من نصيب هام من تركة أزواجهن؛ كمن «وضعت يدها على مال الميت من غير إيصاء ولا تقديم، واتسع عليها الزمان اتساعاً»،[303] ومن أسندت إليها وصية أبنائها من قبل فقيدها، و«التزمت أنها متى تزوجت قبل بلوغ الولد فجميع ما ترثه من أبيهم لهم صدقة»،[304] فإننا نميل إلى تأكيد الوضع المزري لكثير من أرامل هذه المرحلة،[305] لدرجة أن بعضهن اضطر إلى ادعاء الحمل بعيد وفاة أزواجهن، ليستفدن من مدة الحمل حتى يستأثرن بنصيب أوفر من التركة على حساب مستحقيها،[306] بل إن من لم ترزق منهن بحمل حاولت بكل الطرق سواء المشروعة أو غير المشروعة علاج عقمها حتى يتقوى بذلك مركزها في الأسرة، وحظوظها في تركة زواجها.[307]

وفضلا عن واقع الفقر الذي رزحت تحت وطأته الأرامل، يبدو أنهن لم يسلمن أيضا من نظرة الشك التي نظر بها المجتمع إلى كل بيت خال من الرجل،[308] خاصة صغيرات السن

منهن، واللواتي خضعن للقاعدة التي عبر عنها الفقيه أبو الحسن بن خلف بـ «عدم حرمة دار لا رجل فيها».309

خلاصة القول إن المرأة المغربية خلال العصر المريني تضررت من آثار الحرب المستشرية، والتي اختلفت بحسب الوضعية الاقتصادية والاجتماعية للنساء ومكانتهن، مما أفرز سلوكات وردود فعل اختلط فيها المباح به وغير المباح به بالنسبة لثقافة مجتمع هذه المرحلة وقيمه.

المبحث الثالث: الحرب والطفل

لا نستطيع، بعد ما قدمناه من مادة تحليلية متواضعة عما تعرضت له الأسرة المغربية خلال العصر المريني من إزم ومحن جراء ظاهرة الحرب المستشرية، وما أفرزه غياب المعيل أو موته أو أسره أو فقدانه من مشاكل اجتماعية، أن نلجم أنفسنا عن سؤال أرقنا كثيراً، بالرغم من قلة ما يدعم الإجابة عنه في مصادر المرحلة،310 ويتعلق الأمر بموقع الطفل311 ضمن هذه الظواهر الطارئة في مجتمع أصبحت فيه الحرب ظاهرة شبه يومية، واتسعت انعكاساتها الاجتماعية لتمس كافة الشرائح الاجتماعية والعمرية.

أولا: الآثار المباشرة للحرب على الطفل

إذا كان القتل والإفناء أبرز مرادفات الحرب وتعبيراتها، فإننا نميل إلى القول إن التقتيل الذي طال الكثير من الكبار لم يمتد ليشمل الأطفال على الأقل اعتباراً لغياب ما يثبت عكس هذا الرأي،312 وحسبنا أن الفقهاء وقفوا موقف الرافض الممتنع لقتل الأطفال في حالة الغزو والحرب.313 إلا أننا مع ذلك لا نعدم بعض الإشارات التي تلمح ولا تصرح إلى عدم استثنائهم منه في بعض الحالات؛ فقد أمر به المستنصر الموحدي قائده عبد الله بن واندين سنة 613هـ/1216م «باستئصال مرين وقطع شأفتهم وإفنائهم، وقال له اقتل الوالد والولد ولا تبق منهم على أحد».314 لكن هذه النصوص، على علتها وضعفها، لا تثبت أن التصفية الجسدية مورست ضداً على القاصرين في حالة الحرب بمغرب العصر المريني.

على أن الأطفال إن كانوا سلموا من سيوف الحرب، فإنهم لم ينجوا من فعل المجاعات والأوبئة التي ساهمت الحرب والفلتان الأمني في استفحالها في مراحل طويلة من زمن هذا البحث،315 خاصة وأن المجاعات كانت ذات وقع شديد على ضعاف الجسم كالأطفال

Scanned by CamScanner

والمسنين.[316] وهو ما يسمح لنا بالقول إنه بقدر ما نالت السيوف من رجال هذا العصر، فإن المجاعات استهدفت مختلف الأعمار ومنهم الأطفال.

وإذا كانت القاعدة أن يستثنى الصغار من القتل، فإنها لم تعفهم من الأسر والسبي؛ فقد عانى الأطفال من لعنة الأسر في كل حرب وغارة، على غرار نساء المرحلة. ومن الأمثلة على ذلك اقتحام القشتاليين لسلا سنة 658هـ/1259م حيث «استولوا بالغدر عليها، وقتلوا من وجدوا من الرجال، وأسروا النساء والأطفال»،[317] وبلغ سبي سلا هذا حين اجتمع بإشبيلية «نحو ثلاثة آلاف نفس بين ذكر وأنثى صغيرهم وكبيرهم [كان] أكثرهم أطفالا صغاراً، وعجائز وشيوخا كباراً».[318] ومن ذلك أيضا ما حدث حين «انتهبت مرين محلة بني عبد الوادي وأموالهم وسلاحهم، وسبوا حريمهم وعيالهم».[319] وأيضا خلال حملة أبي ثابت عامر على عرب رياح بأزغار، إذ «غزاهم وقتل منهم خلقا، وسبى ذراريهم وأموالهم».[320]

ومن الأمثلة الدالة كذلك على وقوع عدد هام من الأطفال، وصغار السن، في محنة الأسر والسبي ما ورد في كرامات الولي أبي محمد صالح في أن رجلا قصده وله «زوجة وأولاد مأسورون بأيدي الروم، وقد قاطع عليهم بمائتي دينار»،[321] وما ورد في «مقصد» البادسي عن إسماعيل بن أحمد من أهل بادس الذي «تقدم ووجه إلى عياله زورق صيد، فخرج عليه عدو البحر بمرسى يالش، فأسرت زوجة إسماعيل وبنت لها منه صغيرة».[322]

ومن المآسي التي عانى منها الأطفال خلال هذه المرحلة وضع بعضهم رهائن لتنفيذ اتفاق ما بين الأطراف المتحاربة؛ إذ تذكر بعض النصوص طلب بني عسكر مناصرة السعيد الموحدي لهم على بني عمومتهم بني حمامة لاستئثارهم بالرياسة دونهم، لذلك فـ «حين وصل السعيد إلى مدينة فاس، أتاه جملة من قبائل بني عسكر، فبايعوه، فأمنهم، وأعطوه أربعين شخصا من أبنائهم رهنا، فجعلهم بدار الحوزة من مدينة فاس».[323] ويبدو أن هؤلاء المرهونين لم يسلموا إلى أهليهم إلا بعد أخذ ورد وقتال، أفضى إلى ارتهان بني عسكر لرهائن موحدية ممن بعثهم السعيد لقتالهم.[324]

من جانب آخر استغل الأطفال من قبل آبائهم حين وضعوهم بدلا عنهم في الأسر إلى حين العودة بمال الفدية، مما عرضهم لمآسي الأسر والارتهان. ومن الأمثلة على ذلك ما استفتي فيه الفقيه أبو صالح عن «رجل من المسلمين أسر بدار الحرب، فجعل ولده رهنا في

Scanned by CamScanner

فدائه بمائة دينار، ثم أقبل إلى دار الإسلام ليبيع ما له، ويصالح في فداء ولده مما رهنه فيها، فبينما هو يعالج إذ مات».[325] وعمن «جعلوا أولادهم رهائن من أهل الحصن، أو طلب إليهم في ذلك وخافوا الغلبة على أهل الحصن، فجعلوهم رهائن بمائتي دينار».[326] ومن الأمثلة على ذلك أيضا ما حدث لمسيحي أسر ورهن ابنته عند المسلم الذي أسره «فوقع عليها المرتهن فأحبلها، ثم قدم العلج بالفداء فمنعها منه».[327]

ثانيا: أطفال الجنود والأسرى والمفقودين

لم يكن وضع الأطفال الذين فقد أو غاب أو أسر عائلهم أقل سوءاً، إذ لا شك أن هؤلاء عانوا من الفقر والخصاصة على غرار باقي مكونات الأسرة، وخاصة الأمهات اللواتي بينا في بعض أوضاعهن في المبحث السابق. وقد سبق أن ألمحنا هناك إلى وضع الزوجات ذوات الأولاد، وتضررهن من مشكل الإنفاق، وما أصبحن عليه من ضنك العيش في غياب أو فقدان أو أسر أزواجهن وآباء أولادهن.[328]

ومن القرائن التي تنهض دليلا على ما عاناه أطفال الغائبين والأسرى والمفقودين، وما لحق بهم من جراء ويلات الفقر والإعسار، وعدم القدرة على استيفاء أدنى لوازم المعيشة،[329] ما تبدى واضحاً في بعض نصوص هذه المرحلة ونوازلها؛ من ذلك ما عبر عنه الكفيف الزرهوني[330] بخصوص الجند الذين تذمروا من غيابهم عن أبنائهم، وخوفهم مما قد يلحقهم من فاقة جراء ذلك، فقال:

أولادنا تيتموا بنات وبنين ونسانا ترملوا، ونحن أحيا

ومن القرائن الأكثر دلالة ما ورد في ترجمة المتصوفة ريحان الأسود الذي قصدته «امرأة من أهل سبتة أسر زوجها، ولها منه عدة أولاد، فضاق عليها الحال... فشكت إليه أمر زوجها وضعف حالها».[331]

ويخيل إلينا، أن ما عاناه هؤلاء الأطفال من ضنك العيش، وعسر الحال، جراء غياب آبائهم أو أسرهم أو فقدانهم، قد اقترن أيضا بضروب التهميش والإقصاء لحالهم ولوضعهم من قبل أمهاتهم اللواتي أرفقن مطلب التطليق من آبائهم، بحكم الإعسار في النفقة وضرر المغيب، بمطلب السماح لهن بالزواج من رجل آخر دون الالتفات إلى مصير أبنائهن.[332] ومما ينهض قرينة على ذلك أن هناك حالات أخرى لزوجات صبرن على مغيب أزواجهن

Scanned by CamScanner

من أجل أولادهن، فتكفلن بالإنفاق عليهم إما من ثرواتهن، إن كن من أهل اليسار،[333] أو من عرق جبينهن إن كن من أهل الفقر والإعسار،[334] أو من خلال المطالبة باستفادة أبنائهن من بعض الأموال العامة كالزكاة.[335]

ومن المشاكل الاجتماعية التي عانى منها بعض أطفال الجنود، فضلا عن الفقر الذي حل بهم بعد فقدان أو أسر أو غياب الأب، ما لحق ببعضهم من احتقار من قبل المجتمع نتيجة عدم التأكد من نسبه وتشكيك الأب بعد عودته في بنوته؛ كمن اعتزل زوجته «بعد أن ولدت منه أولاداً، وهو لا يعلم هل يلحق به الأولاد أم لا ؟».[336] ينضاف إلى هؤلاء أطفال ولدوا في دار الحرب نتيجة زواج أسير من أسيرة أو غيرها هناك، وكان ذلك مدعاة لتشكيك البعض في شرعيتهم، واعتبارهم أولاد زنا، ومن الأمثلة على ذلك ما سئل عنه أبو عبد الله المواق «عن رجل أسره العدو وبقي في الأسر خمسة وعشرين عاماً، فتزوج بزعمه بأرض الحرب امرأة أسيرة... وأولدها نحو خمسة أولاد فماتوا، وبقي منهم بنت بعثها لأرض الإسلام بعد أن فداها... فخرج هو لأرض الإسلام، ويقول ابنتي...وقال بعض الفضوليين...هذه البنت عملت بأرض الحرب، فهي بنت زنا، وأبوها لم يدع قط ذلك، ولا فاه به».[337]

ويلحق بهذه الشريحة من الأطفال المتضررين، أولئك الذين ولدوا نتيجة علاقة جنسية بين جندي وسبية رهينة؛ كمن وقع على سبية «فأحبلها، ثم قدم العلج بالفداء فمنعه منها المرتهن وقال لا أعطيكها حتى تلد ما في بطنها لأنه ولدي»، وقد أفتى الفقهاء في مدى شرعية هذا الحمل وإلحاقه، بأنه ابن «زنى، وكيف كان ذلك منها، فإنها تمنع من الخروج إلى دار الحرب حتى تضع حملها، لأنه وإن كان زنى، فهو لاحق بالإسلام».[338]

ثالثا: أيتام الحرب

تظل شريحة الأطفال الذين هلك آباؤهم في حروب هذه المرحلة أبرز من تضرروا من الحرب وانعكاساتها، في ما يمكن أن نسميه بـ«أيتام الحرب». ولا شك أن هذه الفئة من الأطفال اتسعت قاعدتها نتيجة كثرة من قتل من الآباء، وتركوا أبناءهم كلاً وضياعاً دون معيل.[339] وبالرغم من ندرة المادة المصدرية، فإننا نعتقد أن وضع هؤلاء كان محرجاً إن على المستوى المادي أو الاجتماعي.[340]

Scanned by CamScanner

ومما يثبت تعاظم ظاهرة أيتام الحرب، وكثرة من التحق من الأطفال بصفوفها، ما أولته كتب الأحكام والسياسة المعاصرة لزمن هذا البحث من اهتمام بهذه الشريحة المتضررة، حين أكدت ضرورة الأخذ بأيدي أيتام الجنود، وانتشالهم من الفقر والعوز؛ فـ «إذا مات أحدهم، أو قتل، كان ما استحقه من مخدوم عطائه موروثا منه على فرائض الله تعالى، وهو دين لورثته في بيت المال».[341] وأن من مات من الجند «أو قتل وخلف في موضع أحداً أجري على مخلفيهم ما يسعهم، ولا يضيعون معه أصلا، لا سيما إن كان من أولاد الميت أو المقتول، فإن آباءهم ماتوا في خدمة المسلمين، وتركوهم كلا وضياعاً، فهم إلى الله تعالى وإلى رسوله (صلى الله عليه وسلم)، وقد كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول للمهاجرين والأنصار في غزواته كلها، من ترك منكم كلا وضياعاً فعلي وإلي».[342]

وفضلا عن ذلك فقد نُصّ على أهمية الإسهام في تنشئة هؤلاء الأيتام وتتبع حالهم إلى أن يستغنوا؛ فـ «من نشأ من أولاد [الجنود القتلى] المسلمين، وليس في مال أبيه فضل يتمون به، أجرى عليه الإمام ما يقوم به حتى يقوم بنفسه».[343]

ونرجح أن مثل هذه الأحكام تعكس تقصيرا في حق الأيتام على مستوى الواقع العياني، وتثبت أن هذه الشريحة المغبونة لم تنل من اهتمام الدولة ما يكفي، خاصة وأن قضية أيتام الحرب تحولت، في أكثر من حالة في تاريخ المغرب الوسيط، إلى مشكلة اجتماعية حقيقية،[344] فقد حدثتنا النصوص عن حالات، وإن ارتبطت بفترة سابقة عن زمن دراستنا، طالب فيها الجنود بضرورة تعهد الدولة بإعالة أبنائهم في حالة موتهم في حروبها،[345] وجعلوا ذلك شرطا أساسا مقابل تقديم خدماتهم العسكرية.[346] وفي زمن أبي الحسن المريني لم يتردد الجند في إبداء استيائهم من إطالة السلطان لمدة الحملة، وإبعادهم في الأسفار، وربطوا ذلك بوضع عيالهم الذين يتموا حتى قبل موت آبائهم.[347]

ولا نستبعد أن يكون لاتساع قاعدة أيتام الحرب دور في اهتمام بعض الأمراء والسلاطين بهذه الظاهرة؛ فقد كانت من صفات الأمير المريني الأول عبد الحق بن محيو أنه كان «يكفل الأيتام»،[348] ويهتم بوضعهم. كما يحسب للسلطان يعقوب بن عبد الحق أنه «أمر بتطهير الأيتام، وكسوتهم، والإحسان إليهم بالدراهم والطعام في كل عاشوراء»،[349] كما كان أبو الحسن «في كل عاشوراء من سائر البلاد، يجمع الأيتام الذين يفتقرون إلى الختان، فيختن كل واحد ويكسوه قميصاً وإحراماً، ويعطيه دراهم وما يكتفي به من اللحم،

فيجتمع في كل عاشوراء من سائر الأيتام ما لا يحصى، وهو عمل مستمر في البلاد، وسنة جارية قام بها الخلفاء من الأولاد».[350]

وإذا كانت هذه الإجراءات لا تعدو أن تكون مجرد أعمال إحسان وصدقات موسمية، ولا تشي باهتمام قار ودائم من قبل الدولة بشريحة أيتام الحرب، على خلاف ما شهدته بلاد المشرق الإسلامي التي خصتهم بأموال وأحباس ودور وملاجئ خاصة،[351] فإننا نعتقد أن أبرز نموذج لتدخل الدولة في هذا الصدد، ما أقدم عليه السلطان أبو الحسن المريني حين وفر «لسائر الأيتام من سائر القبائل ما يتمشى به أحوالهم، ويستغنون به عن التكفف والعالة، فسوغ لهم فيما علمت محرث زوجين ومجباها في كل وطن حسب خراجه وجبايته وفي كفايته، حتى إذا بلغ أحد الخدمة ألحق بمن عاداه، فلا يكاد يقع بصرك على يتيم في بلاد المغرب إلا وهو مكفول».[352]

وفي كل الأحوال، فإن هذا الاهتمام الخاص الذي خص به بعض السلاطين المرينيين الأيتام عموما، بما فيهم أيتام الحرب، لم يصل إلى مستوى وضع حد للأوضاع المزرية التي كانوا يرزحون تحت وطأتها، إن لم نقل إنه لم يتجاوز حدود الأمر دون التنفيذ. فلا تعوزنا النصوص الدالة على سوء أحوال هؤلاء الأيتام، خاصة منهم من يتم «وليس في مال أبيه فضل يتمون به»،[353] ولم يترك له مصدراً للرزق لمواجهة حياة ما بعد رحيله وهلاكه، فأصبح يعيش واقع الضنك والحاجة.[354]

ولعل أبرز نموذج لتبين هذا الواقع المزري الذي أضحت عليه هذه الشريحة المهمشة، يتمثل في يتيم فقد أباه، ثم فقد أخاه الذي يعيله بسبب أسره في دار الحرب، فأضحت أمه تشكو العوز والفقر، وقصدت الشيخ الولي أبا يعقوب ابن الشفاف، و«قد أمسكت ولدها الصغير اليتيم بيدها،...فقالت له: يا سيدي عندي ابن أكبر من هذا يخدم علينا، فأسره العدو وبقيت حائرة بهذا اليتيم، فادع الله تعالى أن يجبر علي ولدي، فمسح الشيخ على رأس اليتيم وقال له: يرجع أخوك إن شاء الله».[355] ولا نستبعد أن يكون حال معظم أيتام الحرب، خاصة الفقراء منهم، من حال أبي العباس السبتي الذي نشأ يتيما، واضطرته ظروف الفقر والعوز إلى تعلم صناعة يتعيش منها، ويعيل بها أمه التي لم تكن تملك سوى غزل الصوف الذي تبيعه.[356]

ويخيل إلينا، أن الوضع لم يختلف كثيراً بالنسبة للأيتام الذين حظوا بنصيب من تركة آباءهم، وذلك بسبب تعرض البعض منهم للإهمال من قبل أوصيائهم وأوليائهم نتيجة

Scanned by CamScanner

غيابهم أو وفاتهم،[357] أو لتطاول بعض الأوصياء وتصرفهم في ملك اليتيم المحجور تصرف الحائز أو المالك بالبيع أو الاستهلاك، وما إلى ذلك من أشكال التصرف التي أفضت إلى هلاك مال اليتيم واحتجانه.[358] ومن الأمثلة على ذلك ما أثبتته نوازل المرحلة، عن يتيم غصبت أملاكه من قبل الوصي أو أحد الورثة،[359] وآخر باع وصيه كل أملاكه، وتصرف فيها،[360] فضلا عن ثالث «أخذه السلطان واضطره إلى بيع رباعه»،[361] فاعتبره الفقهاء بيعاً نافذاً و«لازما لأنه أنقذه من العذاب»،[362] وتسلط السلطان.

ومن الأدلة الكاشفة لهذا الوضع النازلة التي سئل عنها أبو عبد الله السطي سنة 738هـ/1337م عن يتيم تصرفت أمه في ماله، ووضعت يدها عليه، فاحتجنت الكثير منه، وأضاعت غيره، «من غير إيصاء ولا تقديم، واتسع عليها الزمان اتساعاً يمكنها الرفع للحاكم ولم تفعل، وذلك من نحو خمسة عشر عاماً، وأشهدت أثناء المدة في الصحة بمال استسلفته من مال الولد، وأشهدت في مرض الموت بمال آخر له عليها من متروك الأب، وأن بعض المتروك تلف بالمدرسة عند دخلة السلطان أبي الحسن تلمسان».[363] وهو ما يثبت صعوبة الوضع الاجتماعي للأيتام، وما تعرضوا له من ألوان البؤس والخصاصة.

وإذا كانت مشاكل اليتيم الاقتصادية والاجتماعية تتناقص وتتقلص بمجرد قدرته على الخروج إلى العمل والتكسب لإعالة نفسه، وتحمل مسؤولياته، فإن الأمر لم يكن بهذه السهولة بالنسبة للبنت اليتيمة التي كانت معاناتها تزداد مع نموها لتصبح معرضة لشتى أنواع الاستغلال؛ من مثيل من ألزمت بالخدمة المنزلية،[364] أو من أجبرت على الزواج من غير رضاها،[365] إلى غير ذلك من ضروب القساوة التي عوملت بها اليتيمات المهملات. ولا نستبعد أن يصبحن بذلك لقمة سائغة أمام الانحراف والضياع خاصة مع ظروف غياب العائل، وافتقادهن للدفء العائلي.[366]

عموماً فإن انعكاسات الحرب في مجتمع مغرب العصر المريني امتدت لتشمل قطاعاً عريضا من الأطفال صغار السن؛ فأثرت في مسار حياتهم، وأوجدت لكثير منهم مآزق اجتماعية لا نستبعد أن تستمر تداعياتها على امتداد حياتهم، كما عقدت من اندماجهم في المجتمع والفعل فيه.

رابعا: الآثار النفسية للحرب على الأطفال

نعتقد أن آثار الحرب لم تتوقف عند الجوانب الأمنية المحيطة بحياة الطفل، بل امتدت

Scanned by CamScanner

لتطول الجوانب النفسية والحياتية ونمط الوجود الذي نشأ عن الحرب، والذي لا نستبعد أن يكون أكبر ضرر، وأعمق أثر، على التوازن النفسي، والتكيف الاجتماعي المستقبلي للأطفال. لذلك لا بد لنا من وقفة، وإن كانت قصيرة، باعتبار أن المادة المصدرية لا تجود علينا حول هذه النقطة بالكثير أو القليل، نسائل فيها بعض المشاهد، ونفترض آثارها على شكل أسئلة مفتوحة نرجو أن نتمكن يوماً من الإجابة عنها.

من الطبيعي أن نتساءل عن وضعية الأطفال دون غيرهم من جراء المشاهدات المستمرة لمشاهد الحرب من قتل وجرح وأسر وتخريب؛ فهذه المشاهد التي كان يحضرها الطفل في كل مرة كلما تعرضت بلاده للغزو والغارة،[367] وفي ساحات القتال بالنسبة للقبائل البدوية الرحل التي اعتادت التنقل بالنساء والأولاد حتى في حالة الحرب والقتال.[368] إلا أن أفظعها تمثل في استغلال هؤلاء الأطفال في مشاهد الاستعطاف والتوسل للطرف الغالب؛ إذ اعتاد أهل بعض المدن أن يلتمسوا برؤوس أولادهم المكشوفة، وألواحهم المرفوعة، عفو الأمير في حالة غزو المدينة أو اكتساحها.[369] وكلها مشاهد لا شك أنها كانت ذات تأثير بعيد الغور في رسم معالم شخصية الطفل وتحديد نموها المستقبلي.

ويصور الفقيه أبو محمد صالح بن شريف الرنكي أحد هذه المشاهد في صورة درامية قاتمة نعمد هنا إلى إدراجها لعمق تعبيرها، وإن تعلق الأمر بمجال غير مجال هذا البحث وهو الأندلس في أواخر القرن 7هـ/13م وبداية القرن 8هـ/14م، فيقول :

لو تراهم حيارا لا دليل لهم	عليهم من ثياب الذل ألوان
لو رأيت بكاهم عند بيعهم	لهالك الأمر، واستهوتك أحزان
كم من أسير بحبل الذل معتقل	كأنه ميت، والذل أكفان
يا رب أم وطفل حيل بينهما	كما تفرق أرواح وأبدان
وطفلة ما رأت الشمس قد برزت	كأنها هي ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة	والعين باكية والقلب حيران[370]

تحمل كل الظواهر التي أثبتنا بعضها في الفصول السابقة مجموعة متنوعة من هذه المشاهد؛ من مثيل أن يشهد الطفل مصرع أبيه بسلاح عدوه، أو إذلاله في حالة أسره بوضع القيود في عنقه وأطرافه،[371] أو سبي أمه وتفريقه عنها.[372] فضلا عن مشاهد القلق والخوف التي تبدى في ملامح الكبار كلما اقترب العدو غير المقدور عليه إلى موطنهم، ومشاهد

Scanned by CamScanner

التهجير والهروب إلى مناطق آمنة من سطوته،[373] فضلا عن مشاهد الغصب وانتزاع الممتلكات من أب لا يستطيع معها فعلا،[374] كلها مشاهد لا شك أنها رسمت في شخصية الطفل مشاعر الخوف والقلق الدائم، وجعلت صورة العالم الخارجي، بل صورة الحياة عنده، تتصف بالخطر، بدل اتصافها بالجاذبية، وتقديم فرص الانطلاق.

ولا شك أن هذه المشاهد جعلت الإنسان، وخاصة الطفل، في حالة من الاعتباط التام، افتقد فيها زمام الموقف والقدرة على التصرف، وحولته إلى وضعية الضحية التي لا حصانة لها ولا حماية، مما فجر لديه نزعات الخوف والاضطهاد، وهو ما يبرزه ابن خلدون[375] في تفسيره لتأثير أعمال العنف المفرط في شخصية الإنسان عامة، إذ تكسر من سورة البأس، وتذهب عنه المنعة «لما يكون من التكاسل في النفوس المضطهدة». بل إنه يمضي قدما فيجعل من ممارسة العنف على الطفل، دون أن يقدر على منعه ورده، سببا في زرع بذور الانكسار والاضطهاد والضعف والمذلة في شخصيته؛ إذ «الأحكام بالعقاب مذهبة للبأس بالكلية؛ لأن وقوع العقاب به ولم يدافع عن نفسه، يكسب المذلة التي تكسر من سورة بأسه بلا شك».[376]

ويكشف ابن الحاج[377] عن عظيم الأثر الذي تخلفه كل مظاهر العنف المفرط في نفسية الطفل، وفي تكوينه الاجتماعي، في حديثه عن العنف الذي تمارسه الدولة على الأشخاص من خلال شرطتها، بقوله: «ألا ترى إلى الكلاب وحالتها وإيذائها وتسليطها على رعب الناس مرة برؤيتها، ومرة بصوتها، ومرة بتقطيع الثياب وإيذائها في البدن... فانظر إلى هؤلاء الحرس المجترئة في إرعابهم المسلمين وتسليطهم عليهم بالأذية العظيمة في الدين والبدن والمال والروح، والرعب الحاصل عند رؤية الصبيان الصغار لهم والكبار الضعفاء المساكين، فأي فرق بينهم وبين الكلاب إلا في الصورة الظاهرة، والمعاني جامعة بينهم».

إن هذه التفسيرات التي قدمها كل من ابن خلدون وابن الحاج لتأثير مظاهر العنف المفرط في شخصية الإنسان، والطفل على وجه الخصوص، يمكن سحبها على كل مشاهد الحرب ومظاهرها المأساوية. ويظل أفضل نموذج نتوفر عليه في هذا الصدد، النص الذي تحدث عن اضطرابات نفسية لحقت بالأمير تاشفين بن أبي الحسن بسبب تعرضه لمأساة الأسر.[378] وهو ما ينهض قرينة على الآثار النفسية التي كانت تخلفها الحرب في شخصية الطفل وبنائها الاجتماعي.

Scanned by CamScanner

خلاصة القول إن الآثار الاجتماعية التي مست مختلف شرائح المجتمع المغرب المريني، أصبحت أكثر خطورة؛ لأنها أصابت أكثر هذه الشرائح غبنا وهم الأطفال، إذ تضافرت عليها مختلف أشكال الغبن الأساسي والأضرار المتنوعة التي حملتها الحرب المستشرية على كل الأصعدة، مما أدى، ولا شك، إلى تراكم هذه الآثار واستمرارها في مستقبل هذه الشريحة.[379]

---

1 راجع المبحث الثالث من الفصل الثاني ضمن الباب الأول.

2 ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**. **الذخيرة السنية**. مجهول، **نبذة من تاريخ المغرب الأقصى**. ابن خلدون، **العبر**، ج. 6-7. ابن الأحمر، **روضة النسرين**. الملزوزي، **نظم السلوك**. الناصري، **الاستقصا**، ج. 3-4.

3 قمنا بمحاولة جرد لحملات بعض السلاطين المرينيين خارج حضرتهم، وخلالها حددنا مدد بعضها. ويمكن للاستئناس الوقوف على الجدول الملحق رقم 2.

4 مأخوذة من الجدول السابق ذكره. وأضفنا خانة حددنا فيها مدد استراحة الجند قبل الخروج إلى حملة أخرى.

5 محمد القبلي، **الدولة والولاية والمجال**، ص ص، 78-79. محمد عابد الجابري، **العصبية والدولة**، ص ص، 29-30.

Cour Auguste, *La dynastie marocaine*, *op. cit.*, p. 22.

6 راجع الجدول رقم 2 ضمن ملاحق هذا العمل.

7 ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 128. ابن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة**، ج. 4، ص، 481. أحمد بابا التنبكتي، **نيل الابتهاج**، ص، 242. الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 2، ص، 18.

8 ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 385.

9 المصدر نفسه، ص ص، 389-390.

10 راجع الجدول رقم 2 ضمن ملاحق هذا العمل.

11 من أواسط سنة 735هـ/1334م إلى ما بعد رمضان 737هـ/1336م. ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص ص، 339-341.

12 المصدر نفسه، ج. 7، ص، 348.

13 فقد خرج إلى تلمسان في حدود رجب 747هـ/1346م، وانتهت الحملة بنكبته في جمادى 749هـ/1348م، وإذا اعتبرنا الأحداث والنكبات التي أعقبت هزيمته في تحديد مدة غياب الجند عن الحضرة، فستدوم إلى حدود 751هـ/1350م بعد انتهاء الحرب بينه وبين ابنه أبي عنان. ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص ص، 355-380.

14 ملعبة، ص، 84.

15 انظر عن مدد حملات أبي عنان للتعرف على مدد غياب الجند عن مواطنهم، ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص ص، 381-394. وكذا الجدول رقم 2 ضمن ملاحق الكتاب.

16 تجدر الإشارة إلى أن تذمر الجند من الغيابات الطويلة عن عيالهم ومواطنهم ليست وليدة المرحلة المرينية فقط، بل تعود جذورها إلى العصر المرابطي، وفي هذا السياق أورد ابن الأبار رواية عن تاشفين بن علي الذي «مكث في الحرب خمسة أعوام إلا أشهراً ثلاثة، ما أوى إلى بلد ولا عرج على أهل ولا ولد» (**الحلة السيراء**، ج. 2، ص، 196). وبالمثل أدى طول الإقامة بالجيوش الموحدية في إفريقية، والتغرب عن

أولادهم وأوطانهم، إلى محاولة اغتيال عبد المومن بن علي والفتك به في خيامه حسب رواية ابن أبي زرع. (الأنيس المطرب، ص، 199). وهو ما تجنبه المنصور عندما استجاب لرغبة مشايخ الموحدين بالتمهل في التوجه نحو إفريقية سنة 595هـ/1198م، بعدما غابوا بالأندلس مدة خمس سنوات، (الناصري، الاستقصا، ج. 2، ص، 203). وانظر عن حالات أخرى في هذا الصدد، ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص، 424. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الفكر، بيروت 1978، ج. 6، ص، 233. الحسين بولقطيب، الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى، ص ص، 74-78.

17 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 305.

18 وإذا علمنا أن الجند المريني كان غائبا عن دياره في إطار محاولات يعقوب بن عبد الحق القضاء على بقايا الموحدين مدة سنة تقريبا. كان طبيعيا أن يخصص لجنده هذه الفترة من الاستراحة قبل البدء في حملة جديدة. المصدر نفسه، ص ص، 304-305.

19 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 321.

20 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 256. الملزوزي، نظم السلوك، ص، 102.

21 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 322.

22 المصدر نفسه، ص، 323. لا شك في أن قصر مدة استراحة الجند بين الحملة الأولى والثانية، والتي لم تدم أكثر من ستة تخللتها حملتين داخليتين في اتجاه فازاز ثم مراكش، وراء تثاقل الناس عن الدخول في حملة جديدة. انظر، ابن أبي زرع، المصدر نفسه، ص ص، 321-322.

23 المصدر نفسه، ص، 389.

24 المصدر نفسه، ص، 390. وقالوا له أدرك بلاد المغرب وسكنه فإن عثمان بن علي بن أبي العلاء بستة، وقد سمع بموت جدك وخرج قاصداً إلى مدينة فاس، وقد دخل قصر كتامة ومدينة أصيلا، المصدر نفسه، ص، 389.

25 المصدر نفسه، ص ص، 389-390.

26 المصدر نفسه، ص، 390.

27 انظر عن هذا الحدث، ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، س8، ق1، ص، 69. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 388. التجاني، رحلة التجاني، ص، 197، 220. ابن الخطيب، الإحاطة، ج. 4، ص، 357. رقم الحلل، ص، 90. شرح رقم الحلل، ص ص، 270-271. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 129، 307-308. يحيى بن خلدون، بغية الرواد، ج. 1، ص ص، 123-124. التنسي، تاريخ بني زيان، ص، 133.

28 علاوة عمن اعتبرها «مجرد حادث عرضي» (بنسالم حميش، الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ، دار الطليعة، بيروت، ط. 1، 1988، ص، 117)، فقد فسرها محمد عيسى الحريري بانتقام الخصي «سعادة» لتردي مكانة العبيد الخصيان في البلاط المريني (تاريخ المغرب الاسلامي، ص، 92). في حين لم يتردد محمد فتحة في ردها إلى «قصة حريم غامضة» (الأحكام والنوازل، ص، 96). أما محمد ياسر الهلالي الذي خصص لهذه الحادثة دراسة مستقلة، فبعد تمحيصه لمختلف الروايات التي قدمتها المصادر والدراسات لهذا الحادث ونقدها، لم يتردد في الحديث عن دافع جنسي وقف وراء عملية الاغتيال، و لم يستبعد أن يكون لتبعات طول الحصار وعدم التمكن من اقتحام المدينة، وما أفضى إليه من تذمر، دور في حبك هذه المؤامرة لاغتيال السلطان يوسف بن يعقوب المريني، (قراءة في نصوص تاريخية ومناقبية لحادثة المنصور، ضمن كتاب، التاريخ والفقه، أعمال مهداة إلى المرحوم محمد المنوني، إنجاز الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، ص ص، 229-259.

29 ابن قنفذ، أنس الفقير، ص، 70.

30 Kably, *Société, pouvoir…*, *op. cit.*, pp. 128-157.

Scanned by CamScanner

31 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 338. ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، ص، 388.

32 ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، ص، 340.

33 ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ق 1، ص، 86. حسن علوي حافظي، سجلماسة وإقليمها، ص ص، 249-250.

34 العبر، ج. 7، ص، 378.

35 ملعبة، ص، 81.

36 عباس بن عبد الله الجراري، الزجل في المغرب القصيدة، الناشر مكتبة الطالب، مطبعة الأمنية، الرباط، د.ت، ص، 452.

37 الكفيف الزرهوني، ملعبة، ص ص، 58-59.

38 المصدر نفسه، ص، 81.

39 المصدر نفسه، ص، 82.

40 المصدر نفسه، ص، 83.

41 المصدر نفسه، ص، 84. وانظر للمزيد من التفصيل المبحث الثالث من الفصل السادس من هذا العمل.

42 تاريخ إفريقية الشمالية، ص، 234.

43 علي حامد الماحي، المغرب في عهد أبي عنان، ص، 110.

44 العبر، ج. 7، ص، 394.

45 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

46 سنعود لدراسة تذمر أهل الجند وزوجاتهم من طول غيابهم، والمشاكل الاجتماعية المترتبة على ذلك في الصفحات القادمة، وبالأخص في المبحث اللاحق.

47 ابن الخطيب، ريحانة الكتاب، ج. 2، ص، 321. في عرض السياسة، مخ.خ.ع، الرباط، رقم د 72 9 (ض.م)، و، 43. ابن الأزرق، بدائع السلك، ج. 1، ص، 201.

48 فقد خلصنا في الفصل الثاني من الباب الأول إلى أن الطبيعة الحربية للدولة المرينية فرضت نوعاً من التعدد والتنوع في مكونات الجيش، وجعلت من العطاء وتوفير النفقات مفتاحا لإنجاح مشاريعها.

49 انظر للتفصيل المبحث الثاني من الفصل الأول ضمن الباب الأول.

50 انظر للتفصيل المبحث الأخير من الفصل الأول ضمن الباب الأول.

51 راجع المبحث الأول من الفصل السابق ذكره.

52 يمكن الوقوف على هذه الظاهرة في المرحلة الأخيرة من عمر الدولة المرينية بعد مقتل أبي عنان. انظر، ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج. 3، ص ص، 108-109. معيار الاختيار، ص، 182. ابن هلال، الدر النثير، ص، 147. عمر ابن ميرة، النوازل والمجتمع، ص ص، 275-276.

53 فيض العباب، ص، 356.

54 Chadaddi (A), "Le système du pouvoir en Islam d'après Ibn Khaldûn", *Annales E.S.C*, 35e année, n° 3-4, mai-août, 1980, p. 543.

55 العمري، مسالك الأبصار، ص، 143. ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، ص، 282. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 227. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 11.

56 مما يدل على أهمية هذا التحول في الوضعية الاقتصادية لهؤلاء، أن مجرد محاولة أبي الحسن انتزاع هذه الامتيازات منهم قد أفضت إلى خلق هوة عميقة بين السلطان وهؤلاء المصطنعين والمتنفذين من قادة الجيش وشيوخه.

Kably, *Société pouvoir…*, *op. cit.*, p. 198.

57 وإذا كان بعضهم قد عوض غيابه عن ممتلكاته وأمواله بعمليات التهريب والمضاربات أثناء حصار

Scanned by CamScanner

تلمسان على سبيل المثال، والتي درت عليهم أرباحا مهمة، فإن اكتشاف السلطان لهذه العمليات، وتشديده لعمليات المراقبة، قد أفضت إلى تذمر هؤلاء والتدبير لاغتياله.

Dufourcq, *L'Espagne catalane et le Maghreb*, *op. cit.*, p. 384.

[58] الانصاري، **اختصار الأخبار**، ص، 33. ابن الحاج، **المدخل**، ج. 3، ص، 86.

Ali Omlil, "Ibn Khaldûn et la société urbaine" in *La ville arabe dans l'islam : histoire et mutations*, Acte du 2e colloque de L'ATP, Espaces socio-culturels et croissance urbaine dans le monde arabe, Carthage-Amilcar, 12-18 mars, 1979, Imprimerie Al Asria, Tunis, 1982, p. 43.

[59] ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 132.

[60] ابن الحاج، **المدخل**، ج. 1، ص، 41.

[61] ابن خلدون، **المقدمة**، ص ص، 132–133.

[62] المصدر نفسه، ص، 133.

[63] المصدر نفسه، ص، 134.

[64] ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 321–389.

[65] ابن الخطيب، **ريحانة الكتاب**، ج. 2، ص، 321. **في عرض السياسة**، و43. ابن الأزرق، **بدائع السلك**، ج. 1، ص، 201.

[66] ابن رضوان، **الشهب اللامعة**، ص ص، 405–406. ابن هذيل، **عين الأدب والسياسة**، ص، 21. مجهول، **مخطوط الحرب**، و 44 ظ.

[67] محمد المنوني، **ورقات عن حضارة المرينيين**، ص، 103. علي حامد الماحي، **المغرب في عهد أبي عنان**، ص، 158. إبراهيم حركات، **معالم من التاريخ الاجتماعي للمغرب على عهد بني مرين**، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، ع. 2، 1977، ص، 27.

[68] نجد هذا التقليد أيضا عند القبائل العربية. إبراهيم حركات، **معالم من التاريخ الاجتماعي**، ص، 27. مصطفى أبو ضيف أحمد، **أثر القبائل العربية**، ص، 232.

[69] ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص، 129.

[70] المصدر نفسه، ص، 115. **الأنيس المطرب**، ص، 305.

[71] ابن الحاج النميري، **فيض العباب**، ص ص، 93–94.

[72] ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 389.

[73] الونشريسي، **المعيار**، ج. 2، ص، 114.

[74] المصدر نفسه، ج. 4، ص، 483.

[75] المصدر نفسه، ج. 4، ص، 102. وانظر أيضا، ج. 3، ص، 148.

[76] ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص ص، 449–450.

[77] ابن تجلات، **إلمد العينين**، ص ص، 230–231. ابن هلال، **الأجوبة**، ص، 61. الونشريسي، **المعيار**، ج. 1، ص، 69. ج. 4، ص ص، 275–276. ج. 9، ص ص، 235–240.

[78] ابن هذيل، **عين الأدب والسياسة**، ص، 20.

[79] العلمي، **نوازل العلمي**، ج. 1، ص، 115.

[80] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[81] قالوا، «فقوس البربر، خشن حلو»، الزجالي، **أمثال العوام**، ج. 2، مثل رقم 1764، ص، 404.

[82] يذكر أحد الباحثين أن الأندلسيين أرسلوا كثيرا من الشكاوي إلى السلاطين المغاربة، عبروا فيها عن ضيقهم عن أولئك الذين يفدون عليهم برسم الغزو، والجهاد أو في سلك الجند، انظر الزجالي، **أمثال العوام**، مقدمة المحقق، ق1، ص، 207.

Scanned by CamScanner

83 قالوا، «كل ما يجي من الغرب مليح، إلا بنادم والريح»، الزجالي، أمثال العوام، مثل رقم 1082، ق 2، ص، 253. وقالوا أيضا، «عطي للبربري شبر، طلب ذراع، عطيه ذراع، ابطلب مرى فاش المتع»، الزجالي، مصدر سابق، ق1، ص، 207. وأيضا، «الغازي والفار، لاتعلمهم باب الدار، إيديه في القصعة، أو عينيه فمولاة الدار»، المصدر نفسه، ق 2، مثل رقم 175، ص، 45.

84 ابن الأحمر، نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، دراسة وتحقيق محمد رضوان الداية، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1967، مقدمة المحقق، ص، 42.

85 ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص، 51.

86 علي زيعور، في العقلية الصوفية ونفسانية التصوف، نحو الاتزانية إزاء الباطنية والأوليائية في الذات العربية، دار الطليعة والنشر، بيروت، ط. 1، 1979، ص، 133.

87 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

88 راجع، عبد الصمد الديالمي، المعرفة والجنس، من الحداثة إلى التراث، منشورات عيون المقالات، مطبعة دار قرطبة للطباعة والنشر، الدار البيضاء، 1987، ص ص، 100–101.

89 لا نستبعد انتشار مثل هذه الظواهر الشاذة في جيش يقضي غالب أوقاته في محلات عسكرية متنقلة مع طابعها الذكوري المسيطر، وغياب جنس النساء، فضلا عن وجود المماليك الروم، الذين كانوا مجالا للتقول في الشعر ومغازلتهم، فقد قال شيخ الغزاة المرينيين في الأندلس أبو الحسن علي بن بدر الدين في «مملوك له وسيم من أبناء الروم يسمى فارحاً،

اسم فلان هين — يصبي النهى تقريبه
حروفها ثلاثة — ثلها مقلوبة»

ابن الأحمر، نثير الجمان، ص، 74.

90 علي زيعور، في العقلية الصوفية، ص، 133.

91 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

92 الونشريسي، المعيار، ج. 2، ص، 396. ويتعلق الأمر بفتنة عمرو بن سليمان المغيطي التي استمرت زهاء عشرين سنة. راجع لمزيد من التفصيل محمد فتحة، البدعة بين سلطتي الفقهاء والمتصوفة، أمثلة من الغرب الإسلامي أواخر العصر الوسيط، دفاتر البحث، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق، الدار البيضاء، مج. 1، العدد 1، دجنبر، 2001، ص، 47.

93 تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ص، 455.

94 Dufourcq, *L'Espagne catalane...*, *op. cit.*, p. 465.

95 مصطفى نشاط، جوانب من الديموغرافية التاريخية، ص، 71.

96 فالإشارة الوحيدة التي نملكها، واستشهد بها أيضا مصطفى نشاط هي تلك التي تتعلق بطلب أحد الفرسان الأراغونيين يد إحدى الأميرات المرينيات إلا أنه لم يتمكن من الزواج منها،

Dufourcq, *L'Espagne catalane...*, *op. cit.*, p. 466.

97 الزجالي، أمثال العوام، ج. 2، مثل رقم 1707، ص، 389. التفاشي، نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب، تحقيق، جمال جمعة، رياض الريس للكتب والنشر، لندن وقبرص، 1992، ط 1، ص، 115. ابن عرضون، مقنع المحتاج في آداب الأزواج، مخ.خ.ع، الرباط، رقم ك 1026، ص، 275. الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 250–277–278–247. مارمول، إفريقيا، ج. 2، ص، 147–148–160. لوطورنو، فاس قبل الحماية، ج. 1، ص، 320. ج. 2، ص ص، 798–799.

98 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 247.

99 المصدر نفسه، ص، 250.

Scanned by CamScanner

مارمول، إفريقيا، ج. 2، ص، 148.
[100] مارمول، إفريقيا، ج. 1، ص، 232.
[101] الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 232.
[102] المصدر نفسه، ص، 233.
[103] لوطورنو، فاس قبل الحماية، ج. 2، ص، 798.
[104] الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 232.
[105] يعتبر أحد الباحثين أن هذه الظواهر عادة ما تستفحل في فترات الأزمات. إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس... ص، 100.
[106] ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص ص، 415-416. الناصري، الاستقصا، ج. 4، ص، 38.
[107] الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 329-331-338. إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج. 2، ص، 124.
[108] الهبطي، كتاب الألفية السنية في تنبيه العامة والخاصة على ما أوقعوا من التغيير في الملة الإسلامية، مخ.خ.ح، الرباط، رقم 2808، ص، 21-31-33.
[109] سنعمد، للضرورة المنهجية فقط، إلى تأجيل القضايا التي تأثرت فيها الأسرة من غياب الزوج إلى المبحث اللاحق، ونقتصر هنا على كل ما يمكن أن تخلفه ردود فعل الزوجة والأسرة من عنصر الغياب على الحياة الاجتماعية للجنود.
[110] الفشتالي، وثائق الفشتالي، مخ.خ.ع، الرباط، رقم د 1086، ص، 5. الونشريسي، المعيار، ج. 3، ص، 109-311. أبو عبد الله محمد بن هارون الكناني، اختصار النهاية والتمام في معرفة الوثائق والأحكام، مخ.خ.ع، الرباط، رقم 728 د. رقم الميكرو فيلم 3172، ص، 2. [وهو اختصار لكتاب أبي الحسن علي بن عبد الله بن إبراهيم بن محمد اللخمي المتيطي، النهاية والتمام في معرفة الوثائق والأحكام].
[111] الونشريسي، المعيار، ج. 3، ص، 321.
[112] المصدر نفسه، ج. 5، ص، 175.
[113] المصدر نفسه، ج. 4، ص، 97.
[114] المصدر نفسه، ج. 1، ص، 392.
[115] العلمي، نوازل العلمي، ج. 1، ص، 317.
[116] إبراهيم الكلالي، المسألة الشهية الاملسية على عوائد البلاد الغربسية، مخ.خ.ع، الرباط، رقم د2577، ص ص، 134-135. مجهول، أجوبة نفيسة لفقهاء غرناطة، مخ.خ.ع، الرباط، رقم د1447 (ض.م) ص، 211. الونشريسي، المعيار، ج. 3، ص، 230-318.
[117] أبو عبد الله بن هارون الكناني، اختصار النهاية والتمام، ص، 17. ابن مرزوق، أجوبة، ص، 13.
[118] ابن غازي، الكليات في المسائل الجارية عليها الأحكام، مخ.خ.ع، الرباط، رقم د1729 (ض.م)، ص، 109. ابن هارون الكناني، اختصار النهاية والتمام، ص، 17. الونشريسي، المعيار، ج. 3، ص، 318. ج. 4، ص، 19. العلمي، نوازل العلمي، ج. 1، ص، 317.
[119] راجع المبحث اللاحق من هذا الفصل.
[120] ابن هارون الكناني، اختصار النهاية والتمام، ص، 17. الونشريسي، المعيار، ج. 4، ص، 114-483. ابن مرزوق، أجوبة، ص، 13.
[121] الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 153. الونشريسي، المعيار، ج. 4، ص ص، 418-419.
[122] ابن الحاج، نوازل ابن الحاج، مخ.خ.ع، الرباط، رقم ج 55، ص، 90. إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس، ص، 42.
[123] الونشريسي، المعيار، ج. 4، ص، 24 وما بعدها.

Scanned by CamScanner

124 المصدر نفسه، ج. 4، ص، 344.

125 العلمي، نوازل العلمي، ج. 1، ص، 317–319–320. الونشريسي، المعيار، ج. 4، ص، 7–14.

126 يظهر ذلك من خلال بعض أمثال العامة؛ قالوا، «زوجوه حوجوه»، الزجالي، أمثال العوام، مثل رقم 1035، ص، 235. انظر أيضا مثل رقم 1472. الزياتي، الجواهر المختارة، ص، 118. الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 334.

127 ابن هارون الكناني، اختصار النهاية والتمام، ص، 17. ويمكن أن ندرج هنا معظم الحملات العسكرية المرينية التي انتهت بانتصار الجيش، وعودته سالما إلا من بعض القتلى والأسرى وعدد نادر من الغائبين والمفقودين.

128 إذ من الصعب توقع تذمر زوجات جنود هذه الحملات بمجرد أن أزواجهن خرجوا للغزو مع السلطان ويأخذن عليهم بمسألة الغياب مع علمهن بكثرة من خرج مع السلطان وكثرة من غاب من الجنود في هذا الخروج. والزوج هنا «معذور في ذلك بخلاف لو غزا مع سرية فأسر أو فقد ... فينبغي ألا يعذر في ذلك»، ابن هارون الكناني، مصدر سابق، ص، 17.

129 من مثيل ما ترتب عن هزيمة طريف، انظر ما طرحته من قضايا اجتماعية تتعلق بالغائبين والمفقودين، الونشريسي، المعيار، ج. 4، ص، 491–492. العلمي، نوازل العلمي، ج. 1، ص، 319.

130 انظر مثلا، الونشريسي، المعيار، ج. 4، ص، 483.

131 راجع، محمد بن معجوز، أحكام الأسرة في الشريعة وفقه مدونة الأحوال الشخصية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. 2، 1994، ج. 1، ص، 228–231.

132 ابن هارون الكناني، اختصار النهاية والتمام، ص، 55. مجهول، أجوبة نفيسة لفقهاء غرناطة، ص، 211. ابن غازي، الكليات، ص، 109. الونشريسي، المعيار، ج. 3، ص، 318–230. ج. 4، ص، 19. ج. 10، ص، 193. العلمي، نوازل العلمي، ج. 1، ص، 319–276–320.

133 ابن هارون الكناني، اختصار النهاية والتمام، ص، 55. ابن مرزوق، أجوبة، ص، 13. الونشريسي، المعيار، ج. 4، ص، 483.

134 ابن هارون الكناني، اختصار النهاية والتمام، ص، 55. العلمي، نوازل العلمي، ج. 1، ص، 317–319–276–320.

135 ابن هارون الكناني، اختصار النهاية والتمام، ص ص، 55–56.

136 ابن معجوز، أحكام الأسرة، ج. 1، ص، 228.

137 ابن هارون الكناني، اختصار النهاية والتمام، ص ص، 56–57. ابن عاصم، تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام، مخ. خ. ع، تطوان، رقم 542 (ض.م)، ص ص، 276–277.

138 ابن هارون الكناني، اختصار النهاية والتمام، ص ص، 56–57. ابن عاصم، تحفة الحكام، ص، 277.

139 المصدرين نفسهما، الصفحات نفسها.

140 المصدرين نفسهما، الصفحات نفسها.

141 المصدرين نفسهما، الصفحات نفسها. ابن معجوز، أحكام الأسرة، ج. 1، ص، 228.

142 ابن هارون الكناني، اختصار النهاية والتمام، ص، 57.

143 الونشريسي، المعيار، ج. 4، ص، 239.

144 المصدر نفسه، ج. 3، ص، 289.

145 المصدر نفسه، ج. 4، ص ص، 254–255.

146 عبد الرحمان الفاسي، شرح العمل الفاسي، ص، 20. الونشريسي، المعيار، ج. 4، ص، 17. العلمي، نوازل العلمي، ج. 1، ص، 317.

Scanned by CamScanner

147 العلمي، نوازل العلمي، ج. 1، ص ص، 317–320.

148 الونشريسي، المعيار، ج. 4، ص، 490.

149 العلمي، نوازل العلمي، ج. 1، ص ص، 319–320.

150 الونشريسي، المعيار، ج. 3، ص، 318.

151 المصدر نفسه، ج. 4، ص، 490.

152 المصدر نفسه، ج. 8، ص، 179.

153 الونشريسي، المعيار، ج. 6، ص، 12.

154 ابن غازي، الكليات، ص، 129.

155 الونشريسي، المعيار، ج. 8، ص، 179.

156 العلمي، نوازل العلمي، ج. 1، ص، 322.

157 ابن مرزوق، أجوبة، ص، 7–8. الونشريسي، المعيار، ج. 2، ص، 430.

158 السوسي، نوازل السكتاني، ص، 77.

159 الونشريسي، المعيار، ج. 4، ص، 19.

160 مجهول، أجوبة نفيسة لفقهاء غرناطة، ص، 219.

161 الونشريسي، المعيار، ج. 3، ص، 168.

162 المصدر نفسه، ج. 3، ص ص، 168–169.

163 راجع عن هذا المفهوم، جاستون بوتول، الحرب والمجتمع، ص ص، 70–71.

164 نحيل هنا إلى عمل جاد أعده محماد لطيف في موضوع، الحياة العائلية في المغرب الأقصى خلال العصر المريني تحت إشراف الأستاذ أحمد المحمودي. إذ من شأن هذا العمل أن يميط اللثام عن كثير من القضايا والظواهر الاجتماعية من مثيل تنظيم الأسرة وتكوينها والعوامل المؤثرة في بنيتها وحجمها، ووضعية العناصر المكونة لها في ظل التحولات العامة التي شهدها هذا العصر.

165 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 71. الأنيس المطرب، ص، 292.

166 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص ص، 228–229.

167 ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، ص، 123.

168 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 225. ابن الأحمر، روضة النسرين، ص، 25.
Beck Herman, *L'image d'Idris II*, *op. cit.*, p. 99.

169 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 23. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 225. ابن الأحمر، روضة النسرين، ص ص، 19–20.

170 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 23. ابن الأحمر، روضة النسرين، ص، 25.

171 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 225. ابن الأحمر، روضة النسرين، ص، 19.
Khaneboubi Ahmed, *Les premiers sultans mérinides*, *op. cit.*, p. 38.

172 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 225. ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 23. ابن الأحمر، روضة النسرين، ص ص، 19–20.

173 المصادر نفسها، الصفحات نفسها.

174 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 346. مصطفى أبو ضيف أحمد، أثر القبائل العربية، ص، 161–162.
Beck Herman, *L'image d'Idris II*, *op. cit.*, p. 128-163.

175 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 395. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 103.
Beck Herman, *L'image d'Idris II*, *op. cit.*, p. 99.

Scanned by CamScanner

176 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 55.

177 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 280.

178 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

179 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص ص، 333–335. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 117–146.
Marcais G, *La berbèrie musulmane*, *op. cit.*, p. 330.

180 شارل اندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ج. 2، ص، 228.

181 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 353. شارل اندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ج. 2، ص، 231.

182 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 354. شارل اندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ج. 2، ص، 231.

183 علي الماحي، المغرب في عهد أبي عنان، ص، 96.

184 انظر على سبيل المثال حالة الأميرة الحفصية التي أبدت رفضها للزواج من السلطان أبي الحسن، ثم تراجعت عن ذلك وقبلت فيما بعد، ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص ص، 353–354.

185 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 305. الذخيرة السنية، ص، 116–129. ابن الحاج النميري، فيض العباب، ص ص، 93–94. محمد المنوني، ورقات، ص، 103.

186 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 239. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 26.

187 محمد المنوني، ورقات، ص، 103. علي الماحي، المغرب في عهد أبي عنان، ص، 158.

188 Khaneboubi Ahmed, *Les premiers sultans mérinides*, *op. cit.*, pp. 132-133.

189 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 64.

190 Khaneboubi Ahmed, *Les premiers sultans mérinides*, *op. cit.*, p. 133.

191 ابن عذاري، البيان المغرب– قسم الموحدين، ص، 269.

192 ابن عسكر، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، سلسلة التراجم، ط. 2، 1977، ص، 23.

193 يمكن الاستشهاد هنا بما عرف عن النساء الصنهاجيات من شجاعة وإقدامهن في بعض المعارك، انظر، إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص، 50.

194 خاصة الصنهاجية منها. إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص، 50. إبراهيم الحيدري، النظام الأبوي وإشكالية الجنس عند العرب، دار الساقي، بيروت، لبنان، ط. 1، 2003، ص، 97. الحسين إسكان، الأسرة والتزايد الديموغرافي لدى الأرستقراطيات الحاكمة في المغرب الوسيط، نموذج الأرستقراطية المرابطية والموحدية، مجلة كنانيش، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة، العدد 1، 1999، ص ص، 32–33.

195 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 98.

196 الونشريسي، المعيار، ج. 2، ص، 115.

197 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص ص، 25–26. البادسي، المقصد الشريف، ص، 144. الونشريسي، المعيار، ج. 4، ص، 110. الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 334.
Jacques Heérs, *Esclaves et domestiques*, *op. cit.*, p. 25.

198 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 284.

199 راجع للتفصيل الفصل الأول من الباب الثاني.

200 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 353.

201 انظر المبحث الثاني من الفصل الأول من الباب الثاني.

202 وهو ما فصلنا فيه في المبحث الأول من هذا الفصل.

Scanned by CamScanner

[203] راجع المبحث الأول من الفصل الثاني ضمن الباب الأول.

[204] العمري، **مسالك الأبصار**، ص، 143.

[205] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[206] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[207] حددتها نازلة سئل عنها الفقيه ابن القاسم بشكل عام في «حج أو غزو أو سفر من الأسفار»، الونشريسي، **المعيار**، ج. 6، ص، 12.

[208] ابن هلال، **الدر النثير**، ص، 281. الونشريسي، **المعيار**، ج. 3، ص ص، 109–110.

[209] الونشريسي، **المعيار**، ج. 4، ص، 402.

[210] الونشريسي، **المعيار**، ج. 3، ص ص، 337–338. العلمي، **نوازل العلمي**، ج. 1، ص ص، 319–320. وانظر متن وهوامش الصفحات القادمة من هذا المبحث.

[211] وهو ما أكده أيضا أحد الباحثين المتخصصين، راجع إبراهيم القادري بوتشيش، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين**، ص ص، 40–41.

[212] الونشريسي، **المعيار**، ج. 6، ص، 12.

[213] ابن هلال، **الدر النثير**، ص، 310–376–377. الونشريسي، **المعيار**، ج. 4، ص، 54–110. ج. 7، ص، 43. ج. 10، ص، 125. القبلي، **مراجعات**، ص ص، 15–16. المليح السعيد، **التواصل الفكري والروحي**، ص، 170.

[214] ابن خلدون، **التعريف بابن خلدون**، ص، 84. البادسي، **المقصد الشريف**، ص، 61–74–95–111–112–134. ابن تجلات، **إثمد العينين**، ص ص، 230–231. ابن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن**، ص ص، 149–150. أحمد بابا التنبكتي، **نيل الابتهاج**، ص، 196.

[215] قاسم بن أحمد بن يامون، **زاد الراكب والراجل وسلاح الخائف الواجل**، مخ. خ. ع، الرباط، رقم د209، رقم الميكروفيلم، 2351 (ض.م)، و، 224أ.

[216] العبدري، **الرحلة**، ص، 4.

[217] ابن عباد النفزي الرندي، **الرسائل الصغرى**، تحقيق ونشر، بولس ربا اليسوعي، دار المشرق، بيروت، د.ت، ص ص، 66–68.

[218] ابن هلال، **الدر النثير**، ص ص، 376–377.

[219] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[220] راجع مقدمة هذا المؤلف (ت 1070هـ)، مصدر سابق، و، 224أ.

[221] لا شك في أن ما آلت إليه الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، وكذا السياسية، خلال فترات مهمة من الحكم المريني، نتيجة حروب هذه المرحلة، قد أثرت تأثيراً كبيراً في العلاقة بين الأزواج، وأفضت إلى كثرة النزاعات بينهم نتيجة الضعف الذي مس موارد الأسرة، وتواضع مداخلها، وقد كشفت نصوص هذا العصر عن هذا الوضع (راجع، العزفي، **دعامة اليقين**، ص، 62. الونشريسي، **المعيار**، ج. 4، ص، 94. ج. 3، ص، 20. محمد فتحة، **الأحكام والنوازل**، ص، 315). ومما يكشف عن ذلك حرص بعض الأزواج على سكنى مناطق يسهل فيها تحصيل معاشهم، وانتقالهم إلى غيرها بعد عسر العيش بمقامهم الأول، وإن رفضت الزوجة ذلك، (ابن مرزوق، أجوبة، ص ص، 25–26). إلا أن بعض الأزواج اضطروا، على ما يبدو، أمام استفحال تأزم أوضاعه الاقتصادية والاجتماعية إلى السفر بعيداً، والتخلي عن زوجاتهم، مما أذكى من حدة هذا المشكل، وأضاف إلى صفوف الزوجات المنتظرات لأزواجهن الغائبين عبئة أخرى من الزوجات المتضررات.

[222] ابن هلال، **الأجوبة**، ص، 58–69–70. الونشريسي، **المعيار**، ج. 3، ص، 18–97. ابن غازي، **الكليات**،

Scanned by CamScanner

ص، 18.

223 محمد فتحة، **الأحكام والنوازل**، ص، 315. محمد الطويل، **الفلاحة المغربية**، ص، 72. عمر بن ميرة، **المجتمع والنوازل**، ص، 348. محمد استيتو، **الفقر والفقراء**، ص ص، 194–195. وانظر للمقارنة عن هذه الظاهرة في أوربا،

Braudel, *La Méditerranée*, *op. cit.*, p. 57.

224 الونشريسي، **المعيار**، ج. 3، ص، 268. ابن القاضي، **ذرة الحجال**، م 3، ص، 345.

225 المصدر نفسه، ج. 3، ص، 338.

226 المصدر نفسه، ج. 4، ص، 114.

227 المصدر نفسه، ج. 3، ص، 338.

228 المصدر نفسه، ج. 4، ص، 240.

229 ابن مرزوق، **الأجوبة**، ص، 3. الونشريسي، **المعيار**، ج. 3، ص، 18.

230 العلمي، **نوازل العلمي**، ج. 1، ص، 54. الونشريسي، **المعيار**، ج. 3، ص ص، 337–338.

231 **المسألة الشهية الإمليسية**، ص ص، 134–135.

232 أجاب فقهاء العصر المريني عن نازلة في الموضوع ذاته، الونشريسي، **المعيار**، ج. 3، ص، 248.

233 الكيلالي، **المسألة الشهية الإمليسية**، ص ص، 134–135.

234 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

235 المصدر نفسه، 135. الونشريسي، **المعيار**، ج. 3، ص، 249.

236 يتعلق الأمر هنا بأبي محمد المقري الذي قصده بعضهم في مصاهرة، وكان ذلك في زمن الوباء، فقبل وسمى كل ما ينبغي أن يسمى، لكنه رفض الإشهاد عن وقوع الزواج و«قال، والله لا أفعل حتى يقرب وقت البناء ويزول هذا العارض من الوباء، العلمي»، **نوازل العلمي**، ج. 1، ص، 248.

237 **الحلال والحرام**، ص، 135.

238 العلمي، **نوازل العلمي**، ج. 1، ص، 317. الونشريسي، **المعيار**، ج. 4، ص، 19.

239 المصدر نفسه، ج. 3، ص، 338.

240 المصدر نفسه، ج. 4، ص ص، 490–491.

241 العلمي، **نوازل العلمي**، ج. 1، ص ص، 319–320.

242 ابن هلال، **الأجوبة**، ص، 58–69–70–114. الونشريسي، **المعيار**، ج. 3، ص، 18–97–114–115–125–126–185–187–353. ج. 4، ص، 19–114. السوسي، **نوازل السكتاني**، ص، 77. العلمي، **نوازل العلمي**، ج. 1، ص، 276–317.

243 ابن الزيات التادلي، **التشوف**، ص، 159.

244 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

245 الونشريسي، **المعيار**، ج. 3، ص، 319.

246 المصدر نفسه، ج. 2، ص، 114.

247 المصدر نفسه، ج. 5، ص، 175.

248 المصدر نفسه، ج. 4، ص، 97–125–126–185–187.

249 المصدر نفسه، ج. 1، ص، 392.

250 النوازل التي أوردناها في المتن والهوامش السابقة، والتي طرحت مسألة تضرر الزوجة من غياب الزوج أو أسره أو فقدانه ومشكل النفقة، كانت مقترنة بالمطالبة بالفراق والطلاق. انظر أيضا، ابن هلال، **الدر النثير**، ص، 50–58–60–69–70. الونشريسي، **المعيار**، ج. 3، ص، 353. ج. 4، ص ص، 114–115.

Scanned by CamScanner

العلمي، نوازل العلمي، ج. 1، ص، 317.

251 الونشريسي، المعيار، ج. 4، ص، 240-490-492. ج. 4، ص، 231-258-238. ابن مرزوق، الأجوبة، ص ص، 7-8. السوسي، نوازل السكتاني، ص، 77-98-124. العلمي، نوازل العلمي، ج. 1، ص ص، 319-320.

252 ابن هلال، الدر النثير، ص، 51-60.

253 ابن هلال، الأجوبة، ص، 70.

254 المصدر نفسه، ص، 58.

255 مجهول، أجوبة نفيسة لفقهاء غرناطة، ص، 211. ابن غازي، الكليات، ص، 109. الونشريسي، المعيار، ج. 3، ص، 318-230. ج. 4، ص، 19.

256 ابن سلمون، العقد المنظم للحكام، و، 13ب. ابن هلال، الأجوبة، ص، 77.

257 وتقول «بالله الذي لا إله إلا هو ما رجع إليها زوجها من مغيبة فلان سراً ولا جهراً إلى حين يمينها هذه ولا ترك لها نفقة، ولا وضعت ذلك منه، ولا وصل إليها شيء إلى الآن»، ابن هلال، الأجوبة، ص ص، 69-70.

258 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

259 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

260 الونشريسي، المعيار، ج. 4، ص ص، 114-115.

261 ابن هارون الكناني، اختصار النهاية والتمام، ص، 55-56-57. ابن عاصم، تحفة الحكام، ص ص، 276-277. وانظر للتفصيل، المبحث السابق.

262 الونشريسي، المنهج الفائق والمنهال الرائق والمعنى اللائق بآداب الموثق وأحكام الوثائق، مخ. خ. ع، الرباط، رقم 1354 د، (ض.م) و، 38أ خ 93أ.

263 ابن هلال، الأجوبة، ص، 70.

264 الونشريسي، المعيار، ج. 4، ص، 19.

265 ابن مرزوق، الأجوبة، ص ص، 7-8.

266 ابن مرزوق، أجوبة، ص، 13. الونشريسي، المعيار، ج. 4، ص، 114-483.

267 مجهول، أجوبة نفيسة لفقهاء غرناطة، ص، 219. الونشريسي، المعيار، ج. 3، ص، 230. ابن هلال، الأجوبة، ص، 61.

268 ابن مرزوق، الأجوبة، ص، 7. العلمي، نوازل العلمي، ج. 1، ص، 322.

269 الونشريسي، المعيار، ج. 3، ص، 112.

270 راجع الصفحات الأخيرة من المبحث السابق.

271 الونشريسي، المعيار، ج. 3، ص، 231.

272 المصدر نفسه، ج. 1، ص، 317.

273 عبد الرحمن الفاسي، شرح العمل الفاسي، ص، 20.

274 الونشريسي، المعيار، ج. 4، ص، 19. العلمي، نوازل العلمي، ج. 1، ص، 276.

275 الوليدي، الحلال والحرام، ص، 135. الونشريسي، المعيار، ج. 4، ص ص، 267-268. ج. 10، ص، 125.

276 الحسين بولقطيب، الهلالي الجيلالي، حول مسألة الجنس، ص، 103.

277 الونشريسي، المعيار، ج. 4، ص، 285.

278 محمد بن محمد النفزاوي، كتاب الروض العاطر في نزهة الخاطر، طبعة حجرية، مطبعة أحمد بن الحاج

Scanned by CamScanner

الطيب الأزرق، 1899–1900، ص ص، 40–41.

279 إن هذا الأسلوب في تفسير هذه القضية يمكن قراءته بشكل أعم ضمن التراث الإسلامي الذي يوفر بعضا من القرائن التي تعضده، ويمكن استحضار حكاية أوردها الأصبهاني لتأكيد ذلك تتعلق بزوجة غاب عنها زوجها ولحق بها من ذلك ضرر كبير، فقد «خرج عمر بن الخطاب ليلة يطوف بالمدينة، فمر بامرأة تقول،

تطاول هذا الليل تسري كواكبه وأرقني أن لا خليل ألاعبه

ثم تنفست وقالت، هان على ابن الخطاب وحشتي في بيتي وغيبة زوجي عني، فلما أصبح بعث إليها نفقة، وكتب إلى عامله يرد زوجها، وسأل ابنته حفصة، ما مقدار ما تصبر المرأة؟ قالت، أربعة أشهر». (أبو القاسم حسن بن محمد الراغب الأصبهاني، **في المجون والسخف، ضمن الجنس عند العرب، نصوص مختارة**، منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا، ط. 1، 1997، ج. 1، ص، 187). وفي رواية أخرى أن عمر ابن الخطاب سأل «حفصة كم تصبر المرأة عن زوجها؟ فقالت، ستة أشهر. فكان لا يبعث إلى الغزو بعثا إلا ستة أشهر بدون نظر لأهل البعوث وأنسابهم»، (الكيناني، **مختصر النهاية والتمام**، ص، 17).

280 **فيض العباب**، ص ص، 191–192.

281 المصدر نفسه، ص ص، 192–193.

282 «قال القاضي على الجماعة بفاس أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المقري رحمه الله، توقفت في أمرها لما نزلت لأن مذهب المدونة حدها إذا أتت بعد خمسة سنين وشهر، وإن كان القابسي ضعف ذلك، ولأن من الرواة من يقول بأكثر من ذلك. وقد قال عليه السلام ادرؤوا الحدود بالشبهات، فأمرت بثقافها، وشاورت فيها الفقهاء مصباح وابن عبد السلام وأبا الربيع الونشريسي وابن عبدون وإبراهيم بن موسى بن رقية، فأفتوا بما في المدونة». ويبدو أنهم أفتوا بحدها سيرا على مذهب المدونة، إلا أن القاضي أوقف الحد عنها، وألحق الولد بأبيه إلى أن يقدم الزوج، «فينفيه إن شاء باللعان»، راجع النازلة، الونشريسي، **المعيار**، ج. 4، ص ص، 492–493.

283 راجع المبحث السابق.

284 الفشتالي، **وثائق الفشتالي**، ص، 5. ابن هارون الكناني، **مختصر النهاية والتمام**، ص، 2. ابن مرزوق، **الأجوبة**، ص، 13. الونشريسي، **المعيار**، ج. 3، ص، 109–311.

285 الونشريسي، **المعيار**، ج. 4، ص، 484.

286 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

287 ابن مرزوق، **الأجوبة**، ص، 31. ويبدو أن هذه الظاهرة قد انتشرت في مختلف بلاد الغرب الإسلامي، انظر عن الأندلس وإفريقية، الونشريسي، **المعيار**، ج. 3، ص، 134–279.

288 الونشريسي، **المعيار**، ج. 4، ص، 54. العلمي، **نوازل العلمي**، ج. 1، ص، 110.

289 الونشريسي، **المعيار**، ج. 3، ص، 118.

290 الحسين بولقطيب، **الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى**، ق1، ص، 192.

291 العلمي، **نوازل العلمي**، ج. 2، ص، 354.

292 ولا يستبعد أن تكون تلك النسوة اللواتي كن يبعن الخيط والقماش بسوق خيط الكتان بفاس من هذه الشريحة المتضررة. الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 238.

293 فتحة، **الأحكام والنوازل**، ص، 726. محمد استيتو، **الفقر والفقراء**، ص ص، 232–239.

294 الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 247–278.

295 ومن الأمثلة على ذلك ما عبر عنه الكفيف الزرهوني عن نتائج حملة أبي الحسن المريني إلى إفريقية،

ولبحل هذا المطامع الغررا يتم الأولاد ورمل النسوان

ملعبة، ص، 70-82. ابن الخطيب، ريحانة الكتاب، ج. 1، ص، 68.

296 ابن رضوان، الشهب اللامعة، ص، 226-227-387. مجهول، مختصر كتب السياسة، ص، 201.

297 مجهول، مختصر كتب السياسة، ص، 201.

298 ابن رضوان، الشهب اللامعة، ص، 387.

299 ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، ص، 123.

300 أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، ص، 72.

301 يمكن اعتماد هذا التخريج إذا اعتبرنا كافة النصوص التي أحلنا إليها حول نساء المفقودين ومشكل النفقة.

302 البادسي، المقصد الشريف، ص ص، 95-96.

303 الونشريسي، المعيار، ج. 9، ص ص، 371-372.

304 المصدر نفسه، ج. 10، ص، 138.

305 محمد استيتو، الفقر والفقراء، ص، 194.

306 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

307 ابن عرضون، مقنع المحتاج، ص، 280.

308 انظر للتفصيل، محمد ياسر الهلالي، نظرة المجتمع للمرأة في مغرب القرنين الثامن والتاسع هـ، مساهمة في تاريخ الذهنيات، مجلة أمل، التاريخ والثقافة والمجتمع، عدد مزدوج 13-14، السنة 5، 1998. ص ص، 77-90.

309 الونشريسي، المعيار، ج. 10، ص، 138.

310 بالرغم من أن معلوماتنا عن الأطفال ضحايا الحرب في مغرب هذه المرحلة تظل نادرة، وبحكم المفقود؛ نتيجة تكتم الاسطوغرافيا التقليدية عن ذكر أخبارهم، فإننا لا نعدم بعض الإشارات والنتف التي تسمح بإلقاء بعض من الضوء على هذه الشريحة الضحية. وهو ما أكده مصطفى نشاط، الطفل والطفولة بالمغرب الوسيط، نماذج من العصر المريني، ضمن ندوة الأسرة البدوية في تاريخ المغرب، منشورات مجموعة البحث في تاريخ البوادي المغربية، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 2، جامعة ابن طفيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، ط. 1، 1427هـ/2006م، ص، 241.

311 على غرار ما لاحظناه بالنسبة للأسطوغرافيا التقليدية، أحجم الدارسون المعاصرون عن طرق ظاهرة أطفال الحرب في مغرب العصر الوسيط عموماً، إذا استثنينا بعض الدراسات النادرة في هذا الصدد، ومن أهمها، إبراهيم القادري بوتشيش، الإسلام السري في المغرب العربي، ص ص، 155-157.

312 عكس ما ميز الفترة الموحدية التي عرفت حالات لم يسلم فيها الأطفال من القتل. انظر، ابن القطان، نظم الجمان، ص، 148. مجهول، الحلل الموشية، ص، 101-139. ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص، 22-23-29. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 252. مارمول، إفريقيا، ج. 2، ص، 114.

313 راجع ابن هذيل، عين الأدب والسياسة، ص، 27. ابن الحاج، المدخل لتنمية الأعمال، ج. 2، ص، 181. الونشريسي، المعيار، ج. 2، ص ص، 113-114.

314 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 27.

315 ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ص، 325-326. ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 37. ابن خلدون، المقدمة، ص، 238.

316 محمد استيتو، الفقر والفقراء، ص، 192.

317 ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص، 413.

318 المصدر نفسه، ص، 422.

Scanned by CamScanner

319 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 131.

320 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 392.

321 الماجري، المنهاج الواضح، ص ص، 324–325.

322 البادسي، المقصد الشريف، ص ص، 111–112.

323 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 65.

324 المصدر نفسه، ص ص، 65–66.

325 الونشريسي، المعيار، ج. 2، ص، 117.

326 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

327 المصدر نفسه، ص، 428.

328 راجع المبحث السابق.

329 الونشريسي، المعيار، ج. 3، ص، 319.

330 ملعبة، ص، 82.

331 ابن الزيات التادلي، التشوف، ص، 159.

332 ابن مرزوق، الأجوبة، ص، 13. مجهول، أجوبة نفيسة لفقهاء غرناطة، ص، 219. الونشريسي، المعيار، ج. 4، ص، 240.

333 الونشريسي، المعيار، ج. 5، ص، 175.

334 ابن هلال، الدر النثير، ص، 281.

335 الونشريسي، المعيار، ج. 1، ص، 392.

336 ابن مرزوق، الأجوبة، ص، 13.

337 الونشريسي، المعيار، ج. 3، ص، 168.

338 المصدر نفسه، ج. 2، ص، 428.

339 راجع المبحث الأول من الفصل السابق للوقوف على كثرة ما خلفته حروب المرحلة من أيتام. ويكفينا دليلا على ذلك ما عبر عنه الكفيف الزرهوني عن نتائج حملة أبي الحسن المريني على إفريقية بقوله،

ولبحل هذا المطامع الغررا   يتم الولاد ورمل النسوان

ملعبة، ص، 70.

340 انظر ما توصل إليه إبراهيم القادري بوتشيش عن أوضاع هذه الشريحة في مرحلة سابقة عن زمن هذه الدراسة، الإسلام السري، ص ص، 151–157. ومحمد استيتو في فترة متأخرة، الفقر والفقراء، ص ص، 192–194.

341 ابن رضوان، الشهب اللامعة، ص، 387. مجهول، مختصر كتب السياسة، ص، 201.

342 ابن رضوان، الشهب اللامعة، ص، 387.

343 مجهول، مختصر كتب السياسة، ص، 201.

344 راجع، إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص ص، 188–189.

345 مجهول، الحلل الموشية، ص، 123.

346 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

347 الكفيف الزرهوني، ملعبة، 82.

348 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 285.

349 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 91.

350 ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، ص، 420.

Scanned by CamScanner

351 راجع للمقارنة تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي، **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين**، تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 1، 1998، مج. 6، ص، 14. ابن رضوان، **الشهب اللامعة**، ص ص، 226–227. ابن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة**، ج. 3، ص، 296.

352 **المسند الصحيح الحسن**، ص، 420.

353 مجهول، **مختصر كتب السياسة**، ص، 201.

354 محمد استيتو، **الفقر والفقراء**، ص، 194.

355 البادسي، **المقصد الشريف**، ص ص، 95–96.

356 مجهول، **أخبار أبي العباس السبتي**، و، 197 ب. إبراهيم القادري بوتشيش، **مباحث في التاريخ الاجتماعي**، ص، 189.

357 الونشريسي، **المعيار**، ج. 10، ص، 125. ج. 9، ص، 428–430.

358 المصدر نفسه، ج. 9، ص ص، 371–372.

359 الونشريسي، **المعيار**، ج. 10، ص، 235.

360 السكتاني، **الأجوبة**، ص، 117.

361 عبد الرحمان الفاسي، **شرح العمل الفاسي**، ص، 18.

362 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

363 الونشريسي، **المعيار**، ج. 9، ص ص، 371–372.

364 المصدر نفسه، ج. 5، ص، 108.

365 المصدر نفسه، ج. 3، ص، 134–188–189.

366 المصدر نفسه، ج. 10، ص، 125.

367 يمكن إثبات حضور الطفل في مختلف مشاهد الغزو أو الغارة من خلال كل النصوص التي أوردناها في المبحثين المتعلقين بقتلى الحروب وأسراها، إذ عادة ما تشير النصوص إلى ثنائية قتل الرجال، وأسر النساء والأطفال.

368 ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص، 116–129. **الأنيس المطرب**، ص، 305–284–290.

369 ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص، 71. **الأنيس المطرب**، ص، 292. ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 204. ابن غازي، **الروض الهتون**، ص، 35. الناصري، **الاستقصا**، ج. 4، ص، 68.

370 راجع النص الكامل لهذه القصيدة، ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص ص، 112–113.

371 ابن الأحمر، **روضة النسرين**، ص ص، 65–66.

372 ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص، 112.

373 البادسي، **المقصد الشريف**، ص، 61–75. ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 283. **الذخيرة السنية**، ص، 27. مجهول، **نبذة من تاريخ المغرب الأقصى**، ص، 126. ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 198–422. ابن الخطيب، **نفاضة الجراب**، ج. 2. ص ص، 326–327. ابن غازي، **الروض الهتون**، ص، 40. الناصري، **الاستقصا**، ج. 3، ص، 5.

374 لمزيد من التفصيل راجع الفصل الثالث من الباب الأول.

375 **المقدمة**، ص، 100.

376 المصدر نفسه، الصفحة نفسها. ويضيف في مكان آخر، أن «الملك إذا كان قاهراً، باطشا بالعقوبات، منقبا عن عورات الناس وتعديد ذنوبهم شملهم الخوف والذل». **المقدمة**، ص، 149.

377 **المدخل**، ج. 1، ص، 41.

378 الناصري، **الاستقصا**، ج. 4، ص، 41.

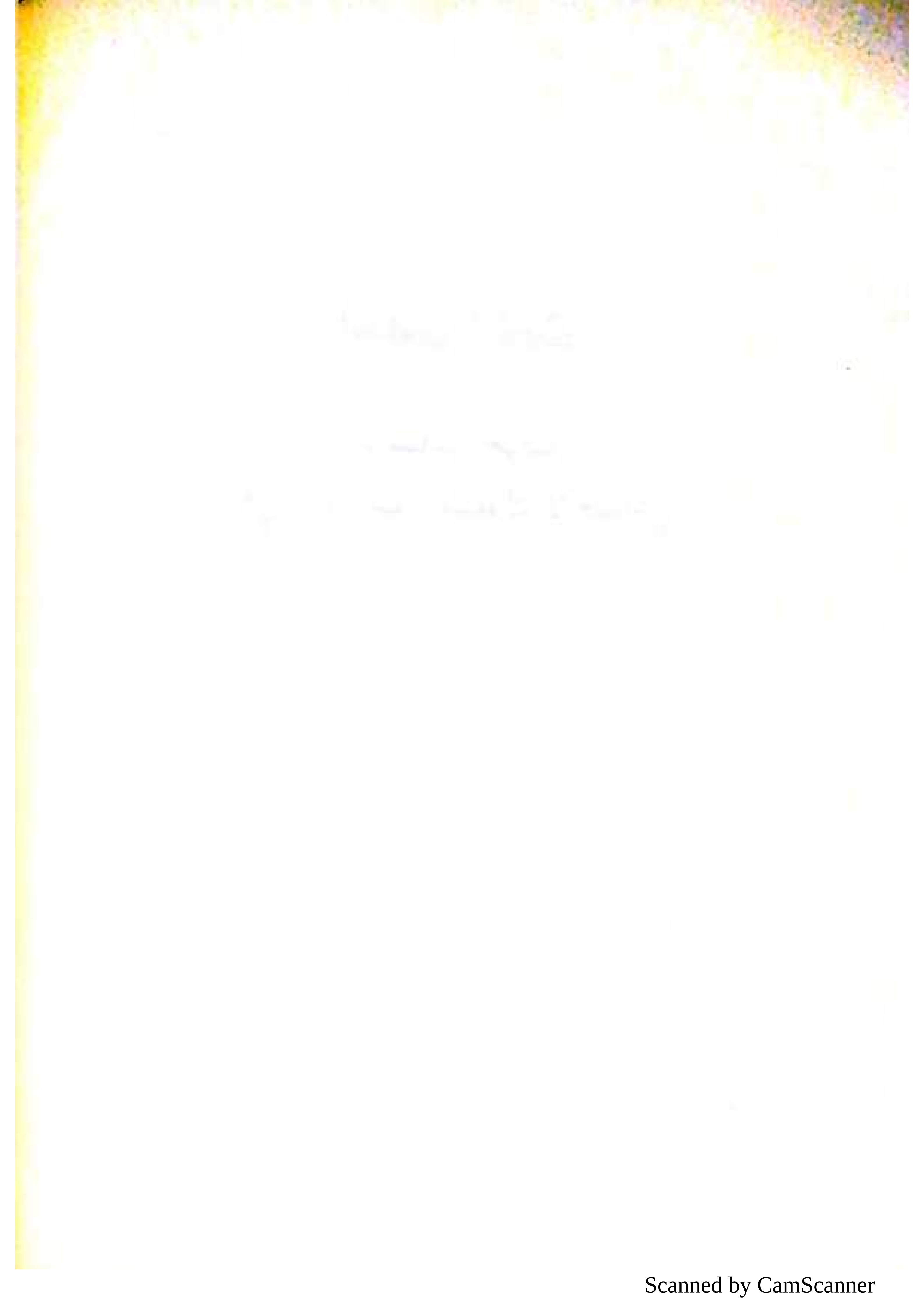
Scanned by CamScanner

[379] في تاريخ المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط، سيكون مهما لو بحثنا يوماً في شخصية الإنسان المغربي من جانب ما صادف طفولته من عوارض وظواهر، قبل أن نبحث في الجوانب الآنية المؤثرة فيها. وهو ما أكده أيضا، مصطفى نشاط، الطفل والطفولة، ص، 241.

الفصل الثالث

ترسبات الحرب
في الذهنيات والسلوك الاجتماعي

Scanned by CamScanner



Scanned by CamScanner

نهتم في هذا الفصل ببعض المظاهر الاجتماعية واليومية للإنسان والمجتمع المغربيين خلال الفترة مدار الدرس، من خلال طرح سؤال رئيس: كيف تفاعل السلوك الحربي مع ما هو غير حربي من قيم أخلاقية وممارسات وعادات اجتماعية؟ أو بتعبير آخر ما مدى سريان المظاهر الحربية وتغلغلها في مختلف الظواهر الذهنية في الحياة الاجتماعية واليومية، وموقعها ضمن العوامل المؤثرة في التمثلات الجماعية اللاشعورية، وفي شروط الإنتاج الثقافي؟

والحقيقة أنه بقدر ما نميل إلى الاعتقاد بقوة التأثير وكثافة الترسبات التي خلفتها الظاهرة الحربية في مختلف أشكال السلوك والذهنية الجماعية للمجتمع المغربي –بالموازاة مع المكان الضخم الذي احتلته في بنياته وتنظيماته كما رأينا– فإننا نصطدم بقلة الشواهد التاريخية الكفيلة بإثبات ذلك وتبيينه. إلا أن المتناثر من هذه الشواهد والدلائل في كتب الجغرافيا والرحلات، وكتب التصوف والمناقب والتنجيم وغيرها، كفيل بإماطة اللثام عن بعض هذا الأثر وترسباته.

المبحث الأول: ترسبات الحرب في القيم والتمثلات الجماعية

ترسبت في مجتمع المغرب المريني، نتيجة جملة من العوامل والمحددات، خصال وقيم اجتماعية مجدها المغاربة، وافتتنوا بمن حازها منهم، أو تلبس بها. وتدوولت أشكال من السلوك والقواعد الأخلاقية، والقيم الرمزية التي وجهت مشاعر الناس وتصرفاتهم واختياراتهم الاجتماعية، وانتظمت من خلالها علاقتهم بالواقع وبالآخرين. وقد كان للحرب، المتفشية والمنبثة في البنيات والتنظيمات، قسط وافر من تلك القيم وما ارتبط بها من سلوك. قيم تحيل على رغبة وإرادة فعالة لتنظيمات هذا المجتمع لتكريسها، وعلى رمزيات قيمية، وآثار مستمرة توحي بالدوام.

وغني عن البيان، أن الجماعات البشرية غالبا ما تنفعل في لحظات معينة من مسارها الاجتماعي لنوع من القيم، وتحيطها بالتبجيل والإعجاب أيضا، مدفوعة إلى ذلك بفعل نزعات جمعية تكتسي طابع الحاجة والضرورة.[1] ولا شك أن الحرب، التي شكلت في مغرب العصر المريني ظاهرة بنيوية مستمرة، قد أوجدت مظهرا أخلاقيا جديداً يجعل من القيم العسكرية نموذجا للقواعد الحياتية، والقيم الموجبة للتقدير.

Scanned by CamScanner

أولا: تبجيل قيم الشجاعة والفروسية

كثيرة هي القرائن التي تؤكد أن الشجاعة والبسالة والفروسية كانت من أهم الفضائل السامية والمبجلة لدى فئات واسعة من المجتمع المغربي؛ فقد اعتبرها الحضرمي،[2] في فترة سابقة عن زمن هذا البحث، «من محاسن الأخلاق، وغرائز الكرام»، وعدها ابن هذيل[3] «أم الخصال الشريفة، ومن فقدها لم تكمل فيه خصاله». وبينما جعلها البعض ضمن الفضائل الإنسانية الأربع وهي العقل والعفة والعدل والشجاعة،[4] لم يتردد آخرون في الإقرار بأن «الشجاعة هي أحد العناصر الأربعة للفضائل الإنسانية، وهي في المرتبة العليا منها، لما تدل عليه من كمال الذكورية، وما تقتضيه من الهيبة».[5]

ويبدو أنه لفرط الاهتمام بقيم الشجاعة والفروسية وتبجيل المتصفين بها، لم يتوان مؤلفو المرحلة مدار الدرس، عن تخليد مشاهير الشجعان في تاريخ الغرب الإسلامي، بل إن بعضهم خصصوا لذلك أبوابا من مؤلفاتهم.[6] وقد احتفظت لنا مصادر العصر المريني بأسماء بعض الشجعان الذين ذاع صيتهم بما حازوه من هذه القيمة، وما روي عنهم من مواقف أبانوا فيها عن علو كعبهم في هذا المجال؛ ومن هؤلاء يعيش بن يعقوب بن عبد الحق الذي «تعرض له مرة نحو خمسمائة فارس، وهو مرتحل بأهله وعياله من بلاد هسكورة إلى مراكش... ثم إنه دفع فيهم، ففرق جمعهم، ونجى جميع أهله ومن معه».[7] ويضيف العمري،[8] الذي أورد الخبر، أن كثيرا من أفراد بني مرين كانوا على غراره «جهلة لا تحطم أنوفهم، حتى قال رجل منهم اسمه أبو عامر عبد الله المعروف بالعجب: ما أسفي إلا كوني لم أكن في زمان علي بن أبي طالب حتى ألقاه، وعلى هذا فقس ما كان في رجال هؤلاء القوم من الشجاعة».

ومن النماذج الأخرى التي أوردتها مظان المرحلة، عثمان بن إدريس بن عبد الله (ت 731هـ/1330م) الذي «فاق في الفروسية... ويقال إن عثمان هذا شهد مائتي غزوة وأربعاً وثلاثين غزوة».[9] ومن هؤلاء أيضا «عثمان بن أبي العلاء، وأولاده... وغيرهم من المشاهير، ويقال إن كل واحد من هؤلاء يعد بخمسمائة فارس، وقد صورتهم الفرنج عندهم في كنائسهم لعظم ما لاقوا منهم».[10]

ومثل هذه الصورة التي رسمت عن هؤلاء الشجعان، نجدها مثبتة في ثنايا شواهد القبور التي أرخت لمسار بعض الأفراد المشهورين في حياتهم بالشجاعة والبسالة والجسارة.[11]

Scanned by CamScanner

كما نجدها منبثة أيضا في أمثال العامة التي تعكس بحق نظرة المجتمع وتصوره للأشياء والقيم التي يحددها، فمجدت الشجاعة والجرأة،[12] وافتتنت بمن ملكها واتصف بها، وبالمقابل ذمت الجبن والجبناء، واستنكرته فيمن اتصف وتلبس به.[13]

ويبدو أن المجتمع البدوي كان على وعي دائم ومستمر بهذه الفضيلة وأهميتها في ظل الحرب المستعرة بين القبائل، والحاجة المستمرة إلى أبناء شجعان تتباهى القبيلة بقوتهم الجسمانية، وقدرتهم على اقتحام المخاطرة، ومعرفتهم بأساليب الحرب والقتال، لإثبات وجودها بين القبائل، والحفاظ على استقلالها.[14] وارتباطا بهذا الوعي مجد المجتمع القبلي خصلة الشجاعة وبجل أبناءه المتصفين بها. وحسبنا دليلا على أهمية هذه القيمة الاجتماعية أن ابن خلدون في تقسيمه الاجتماعي للقبائل ميز أساسا بين قبائل العز، «أهل العدد والعدة»،[15] المتسمين بـ«الإباية عن الإنقاذ للنصفة»،[16] وأصحاب «عزة وعلياء»،[17] وقبائل الذل والخنوع من «المستضعفين وأهل العافية».[18] كما ميزهم جميعا عن أهل الحضر والمدينة الذين «تنزلوا منزلة النساء والولدان»،[19] وافتقدوا ميزة أهل البادية الذين «صار لهم البأس خلقا، والشجاعة سجية يرجعون إليها متى دعاهم داع، أو استنفرهم صارخ».[20]

وتعج مصادر المرحلة بأوصاف الشجاعة والبسالة والجرأة التي أردفت بها حديثها عن بعض القبائل، وثمنت بها أخلاق أفرادها وسلوكهم، فيما يوحي بتشبع مؤلفي تلك المظان أنفسهم بهذه القيم وتثمينهم لها؛ فقد وصف الزناتيون بالشجاعة «والإباية عن الانقياد للنصفة»،[21] ونعت المرينيون منهم بأنهم «أهل تصميم وصحة ويقين...لا يرضون بذل ولا هوان».[22] كما وسمت قبائل رياح بكونها «أقوى قبائل عرب المغرب وأشجعها»،[23] وقبائل سفيان من جشم بأهل «شدة وبأس».[24] فضلا عمن اعتبر العمارنة «نبلاء في غاية الشجاعة»،[25] ومن قال عن أهل حاحا إنهم «في غاية الشجاعة»،[26] إلى غير ذلك من الصفات التي قوبلت أحيانا بذم صفة الجبن وربطها بالعار والفضيحة، وكلها تثبت أن خصال الشجاعة والبأس والإقدام كانت قيما معيشة ومدركة من قبل الجميع.

ولتأكيد ذلك يكفي أن نذكر بالأوصاف التي تناسلت في مصادر الفترة عن شجاعة السلاطين المرينيين وبأسهم، فقد وصف يعقوب بن عبد الحق بأنه «كان فارساً شجاعاً بطلا مجربا حازماً عازماً»،[27] و«صارماً مهيب السلطان»،[28] وأثر عن أبي سعيد عثمان أنه كان «ليثا دامي المخالب، يقلب الأمر بجد غالب».[29] وبالمثل، قيل عن أبي عنان إنه كان «فارسا شهماً شجاعاً بطلا مجربا يقوم في الحرب مقام جنده، عارفا بركض الجياد».[30] ومثل هذه

Scanned by CamScanner

الأوصاف كثير،[31] وكلها تجمع على أن إتقان فن الحكم واستمرار حكم سلطان ما مرتبط بمدى تشبعه بقيم الشجاعة والفروسية والعمل بها.

ومن الأدلة التي تثبت أهمية هذه القيم، تلك النظرة التحقيرية التي نظر بها البدو المحاربون إلى المستقرين المتهنين للفلح والزراعة، والذين سماهم ابن خلدون[32] بقبائل الذل، وأهل العافية من البدو؛ فقد اعتبروا أن المهنة التي رضوا بها (الفلاحة) لا تليق إلا بالضعفاء الذين عجزوا عن الظعن ومتاعبه، لا بالرجال الأحرار الذين خلقوا للقتال،[33] وألحقوا ممتهنيها بتلك النظرة الدونية التي نظر بها إلى العبيد و«الحراطين»[34] والعناصر اليهودية.[35]

ومما يثبت ذلك أيضا، الصورة التي تكونت لدى تلك الجماعات البدوية التي تعتقد بقيم الشجاعة والفروسية، وتمارس بعناية فائقة عاطفة الشرف والرجولة تجاه أهل المدن والحواضر، الذين تنزلوا لضعفهم وافتقادهم لهذه الخصلة بمنزلة النساء والولدان.[36] ويكشف أحد الجغرافيين عن هذه الصورة في حديثه عن أهل فاس، فيصفهم بأنهم «أناس تسلية مترفهون لا يذهبون إلى الحرب إلا مكرهين... يستسلمون للمنتصر إذا اقترب من المدينة بنصف فرسخ دون أن يتهموا بالجبن ولا بالخيانة».[37] أما أهل سلا فيراهم ابن الخطيب[38] على «عدم مرانهم على المدافعة، وإغراقهم في الحضارة، وفقدانهم السلاح، إنما هم على الأيام حلجة قطن، ومواشط كتان، وأبطال مقاعد حياكة، وماعز مغرم، سواسية كأسنان المشط لا يوجبون مزية، ولا يشعرون برجحان كفة».

ولما كانت الحرب، في الغالب، تحدث تحولا جذريا في العقليات، فإن أهم النتائج التي تخلقها أن المواصفات التي ينبغي أن تتوفر في رأس الجماعة وزعيمها هي الشجاعة والبسالة قبل أي صفة أخرى؛ ففي القبيلة كانت من أهم الشروط التي ينبغي أن يتحلى بها الشيخ والأمغار ليكسب تقدير أفراد قبيلته وودهم، ويجمع قلوبهم وعقولهم تحت إمرته هي الشجاعة والفروسية.[39] وهو ما عده ابن خلدون[40] ضمن الخلال الحميدة التي تكمل النسب الصريح للقبيلة، لأن هذا الأخير وحده لا يكفي دون متمماته -كالشجاعة- وحضوره دونها «كوجود شخص مقطوع الأعضاء، أو ظهوره عريانا بين الناس».[41] وحسبنا دليلا على صدق هذا التحليل أن أبا معرف محمد الذي تولى رياسة بني مرين، كان «شهما بطلا شجاعاً مؤيداً في قومه مطاعا»،[42] كما كان أخوه أبو بكر بن عبد الحق الذي

Scanned by CamScanner

تولى الرياسة بعده، «أيسر أعسر يقاتل بكلتا يديه، ويطعن بحربتين في حالة واحدة، فارس زمانه في وقته وزمانه... يقوم في الحرب مقام جنده».[43]

وفي السياق نفسه، يمكن القول إن التحلي بخصال الشجاعة والفروسية كان أمراً ضروريا لكل سلطان أو أمير، مادام أن الملك لا ينال إلا بالحرب والقتال، والحفاظ عليه لا يتم إلا بهما.[44] ولا أدل على أهمية هذه الخصلة وفضلها بالنسبة للسلطان وللدولة من قول أحد المصنفين: «أو ليس من أعظم فضائل [الشجاعة] أن الممالك العظيمة، والدول الكبار، إنما تقوم وتثبت بأصحاب تلك الصفة!».[45] ومن جهته، ثمن ابن خلدون[46] ميزات البداوة، الموسومة بسجايا الشجاعة والجرأة والجسارة، وأكد دورها في الحفاظ على جسم الدولة وتماسكه، وأقر أن تخلي الأمراء عن هذه الصفة منذر بتخلي الدولة عنهم، وعن عصبيتهم لصالح ممتلك جديد لها.

وإذا كانت قيم الشجاعة والبسالة تحيل عادة إلى روح الشراسة والقسوة وعدم المبالاة بآلام الآخرين، مما يوحي بنزعة حربية لا تعرف الرحمة، فإنه يمكن للمحارب الشجاع في تصورات المجتمع المغربي أن يكون على قدر كبير من الرقة والوقار. وقد كان لسيادة قيم الجود وكرم الضيافة، والحياء والحشمة، في مجتمع هذه المرحلة،[47] خاصة بالبادية،[48] دور هام في تتويج صورة المحارب الشجاع بمظهر إيجابي أفضت به أحيانا إلى نجاح اجتماعي قد يصل إلى مستوى التقديس. ولا غرو، فقد كان شيوخ القبائل والأمراء والسلاطين يحظون بكثير من الاحترام والتوقير كلما اكتملت شجاعتهم، وتداخلت بالكرم والجود الذي قد يتحول أحيانا إلى مستوى التملق وتدبير الأموال.[49] وتكفي العودة إلى معظم الأوصاف التي أمدتنا بها مظان المرحلة في حق هؤلاء للتأكد من ملازمة صفتي الشجاعة والكرم لديهم.[50] وفي هذا الصدد نورد بيتين شعريين لأبي الحسن المريني يفتخر فيهما بشجاعته وقوته ثم كرمه وجوده في الآن نفسه، حين يقول:

أرضي الله في سري وجهري وأحمي العرض من دنس ارتياب
وأعطي الوفر من مالي اختيارا وأضرب بالسيوف طلى الرقاب.[51]

عموما فقد كان لبنيوية الحرب واستفحالها في مجتمع هذه المرحلة دور هام في تثمين قيم الشجاعة والفروسية، وتمجيد من امتلكها واتصف بمحاسنها.

Scanned by CamScanner

ثانيا: الثأر وحفظ الجوار والالتزام الجماعي

بقدر ما كان المجتمع المغربي، والبدوي على الخصوص، خلال العصر المريني يؤمن بقيم الشجاعة والفروسية ويبجل كل من تمثلت فيه وتكشفت في سلوكه، كان يؤمن أن الشجاعة لا تأخذ معناها إلا إذا اقترنت بقيمة أخرى هي التمسك بروح الجماعة،[52] وإفناء الذات في مصلحتها والاستعداد التام للفرد لنصرة قريبه وجاره، والدفاع عنه والنعرة عليه،[53] فيما اعتبره ابن خلدون[54] أساس الرابطة العصبية التي تجمع أفراد القبيلة وتوحدهم، بل إن هذا الأخير يحسم في القول، إن الغلبة والقوة وقدرة القبيلة على الحماية والمدافعة لا تتم بمجرد وجود أفراد شجعان، بل في توفر عصبية واحدة جامعة.[55]

ولعل أبرز ما يثبت حرص الإنسان المغربي، والبدوي خاصة، على التمسك بقيم الروح الجماعية وإفناء الذات في مصلحة الجماعة، عادة الثأر التي مارسها الأفراد والجماعات[56]؛ فخلال الحرب التي نشبت بين بني رياح وبني مرين سنة 614هـ/1217م قتل الأمير عبد الحق بن محيو، «فغضبت مرين لقتل أميرها، وأنفت لموت رئيسها وكبيرها... وأقسمت بأيمانها ألا يدفن حتى تأخذ بثأره وتحمي ذماره»،[57] ولعل في هذا الإصرار على الثأر من قاتل الأب والأخ، والشيخ والأمير قبل أي صفة أخرى، ما يكشف عن موقع هذه الظاهرة ضمن مجمل القيم التي ثمنها المغاربة في هذا العصر. ومن الأمثلة الأخرى في هذا الصدد ما ورد في مناقب المتصوف الولي عبد السلام بن مشيش، أن أفراد قبيلة قتلوا رجلا ممن عرف بالشر والحرابة، فعلمت أمه بمقتله، وأخبرت أهل قبيلتها، فذهبوا إلى حيث دفن، «فأخرجوه وذهبوا به إلى مدشره ودفنوه، واتفقوا على قتل أهل مدشر المحروقة»،[58] والأخذ بثأره منهم.

وتعتبر خصلة حفظ الجوار ونصرة الجار المظلوم والذود عنه، مما ثمنه المغاربة وحثوا على التحلي به؛ فقد كان من الشهامة والرجولة أن ينهض المرء ليجير من استصرخ به وطلب عونه ويدفع عنه الخطر.[59] وحسبنا أن من خصال بني مرين، حرصهم على «شرف الجار، وحفظ الجوار، وحماية الذمار، ووقود النار».[60] ويظل أبرز مثال في هذا الصدد، ما ذكره ابن الخطيب[61] عن عرب تامسنا ودأبهم على حفظ الجوار، حتى قيل إن طائرا عششت فراخه بجوار شيخ إحدى هذه القبائل، فداسته ناقة ترعى، وقتلت الفراخ، فثارت نخوة الشيخ لأنهم في جواره، وتقاتلت القبائل، وسقطت ضحايا، وبددت أموال من أجل هذه القيمة الممجدة، وبالمثل وردت في بعض نوازل «المعيار» أن قبيلة تعرضت للغزو فأغاثها الله بجيرانها الذين نهضوا للذود عن جارتهم.[62]

Scanned by CamScanner

وإجمالا فإن التمسك بروح الجماعة، وإفناء الذات في مصلحتها، واستعداد الفرد التام لنصرة قريبه وجاره، والدفاع عنه والنعرة عليه، كانت تمثل مقوما من المقومات المادية والمعنوية في مجتمع غاب فيه التعايش السلمي بين جماعاته؛ لذلك كان طبيعيا أن يثمن الإنسان المغربي هذه القيم، ويشجع على التمسك بها.

ثالثا: الخصوبة وتكثير النسل

الجدير بالملاحظة، أن الحرب لم تسهم فقط في بروز قيم الشجاعة، والتمسك بروح الجماعة، والتضحية من أجلها، بل أسهمت أيضا في تغذية تصور كان سائداً نتيجة طبيعة وسائل الإنتاج البسيطة، والوضع الطبيعي والمعاشي السائد في كثير من مناطق المغرب الأقصى، والذي أفضى إلى أن يكون الإنسان محور الأنشطة الاقتصادية، وعماد أي انتعاش اقتصادي، مما أثر في بروز الاعتقاد بقيم الكثرة والعدد، المرتبطة بشكل كبير باعتقاد الخصوبة والإكثار من الولد.[63] ولا شك أن الحاجة إلى الذكور المحاربين الذين تتقوى بهم الجماعة الاجتماعية أسرة كانت، أو عشيرة، أو قبيلة، قد غذى هذا التصور، وجعل من قيم تكثير النسل حاجة ملحة، وقيمة هامة لمن يملكها.[64]

عموماً، ففي مغرب العصر المريني كانت مكانة الأسرة داخل العشيرة والقبيلة تحسب بمقدار ما تملكه من الذكور المحاربين، كما أن مكانة هذه الأخيرة داخل الجسم القبلي تقدر بما أنتجته من هؤلاء.[65] ومن الأمثلة على ذلك أن زعيم إحدى القبائل كادت الأرض أن «تهتز لوطأته، والجبال تميد لسطوته؛ لأن إخوانه الخلط كانوا أزيد من اثني عشر ألفا من الفرسان، ومعهم من الأتباع والحشود مثلهم»،[66] كما أن عرب تامسنا «كانوا يخيفون ملوك فاس ويرعدون فرائصهم، إذ يقدر أن عددهم يصل إلى ستين ألف فارس، ومائتي ألف راجل».[67] ولا أدل على ذلك أيضا من أن ابن خلدون –الذي خبر أحوال هذا المجتمع– كان يقيس قوة القبيلة أو ضعفها بمقدار عدد أفرادها قبل شجاعتهم؛ من قبيل من كانت لهم «عزة وعلياء... لمكان الكثرة»،[68] ومن كانت لهم القوة والغلبة لأنهم «كانوا أولي عدد وقوة»،[69] أو لكونهم «أهل عدد وعدة.... وفيهم الرجالة والخيالة».[70] وقس على ذلك حرص أحد الجغرافيين[71] على تقدير قوة أي قبيلة أو ضعفها من خلال ما تملكه من الفرسان المحاربين.

Scanned by CamScanner

ومن نافلة القول التأكيد أن هذه الفكرة لم تكن وليدة العصر المريني، بل تعود جذورها إلى الفترات التاريخية السابقة. وحسبنا دليلا على هذا معارضة قبائل صنهاجة الملثمين لدعوة عبد الله بن ياسين، حين أمرهم بالاقتصار في الزواج على أربع نسوة، وهو ما فهم منه بعض الدارسين على أنه حرص من قبل هذه القبائل على الإكثار من المحاربين فيها.[72]

رابعا: تمجيد الذكورة

بقدر ما كان الناس يعتقدون بقيمة الكثرة والعدد، ويتمسكون بثقافة الخصوبة والإكثار من الولد، فإنهم اعتقدوا بأهمية الذكر وفضلوه عن الأنثى؛ فمجدت خلال هذه المرحلة قيمة الذكورة والرجولة، واحتقرت النساء، وصغرت قيمتهن لدرجة الإذلال.[73] وقد كانت للحرب، على ما يبدو، قدم راسخة في ترسيخ هذا الاعتقاد؛ ففي رأي سيمون دي بوفوار وأوليفر براكفلد أن أحد الأسباب الرئيسة لعقدة النقص عند المرأة يكمن في أنها لا تشارك بصورة تقليدية في الحرب، إذ أن «لدى البشر لا يمنح التفوق للجنس الذي يلد، بل للجنس الذي يقتل».[74]

وعلى الرغم من عنف مثل هذا الخطاب وقسوته، فإننا لا نعدم ما يثبت فكرته بالنسبة للفترة مدار الدرس؛ فالشجاعة عدت على رأس الفضائل الإنسانية، «لما تدل عليه من كمال الذكورية»،[75] كما اعتبر إتقان العمل بالسلاح، وإجادة أساليبه «من كمال الرجولة وحلية الذكورة».[76] وغير هذا الخطاب الذي يربط كل القيم المثلى بالذكورة كثير في مظان المرحلة، حتى روي عن بعض المغاربة في زمن عمر بن الخطاب حينما قدموا إليه للدخول في الإسلام أنهم قالوا: «نحن قوم نكرم الخيل ونهين النساء».[77] وقس على ذلك ما عبرت عنه أمثال العامة[78] في هذا الصدد.

ونستطيع أن نعثر على صدى هذا الخطاب في ذهنية مؤلفي المرحلة.[79] ففي مقدمة ابن خلدون نجد مجتمعين اثنين: مجتمع يملك صفات التوحش والخشونة وسجايا الشجاعة وخلق البسالة والرجولة، وهي صفات تفضي به إلى الغلبة فالحكم، ومجتمع فقد كل هذه الخصال، وأضحى «يتنزل بمنزلة النساء».[80] وفي تعبيرات ابن الأحمر[81] عن غلبة بني مرين على بني عبد الوادي، لم يتردد في استعمال كلمات الخشونة والشجاعة المرتبطة بالرجولة والذكورة بالنسبة لبني مرين الغالبين، وكلمات الذل والضعف الخاصة بالنسوة بالنسبة لبني

Scanned by CamScanner

عبد الوادي؛ فكلما حل الأولون بظاهر تلمسان تفرق الآخرون في مدينتهم يختفون عن الأنظار «كنسائهم من السودان والبيضان».

ويبدو أن هذه الصورة في تمجيد الذكورة كانت تتكرس منذ الولادة، فالفاسيون على سبيل المثال «إذا كان المولود أنثى، قل استبشارهم بها».[82] كما أن هوس البحث عن المولود الذكر يرافق أبداً الزوجين اللذين قدر لهما أن لا يلدا غير الإناث.[83] وفي تفضيل الذكر عن الأنثى يذكر ابن عباد أن رجلا كان له ابن وابنة «يحبهما حباً شديدا والولد أكثر».[84] وكان غيره «يؤثر الذكر عن الأنثى ويفضله ويمنيه دونها»،[85] لا لشيء إلا لأن من يرزق بالذكر يعتقد فيه بميلاد الفارس الحامي لأسرته. وهو ما عبر عنه ابن الخطيب في تهنئته لابن خلدون بعد أن رزق بمولود ذكر، فقال «الآن اعتضدت الحلة الحضرمية بالفارس، وأمن السارح في حمى الحارس».[86]

ولعل ما يثبت أن الحاجة إلى الولد الذكر، والاعتقاد بقيمته بالنسبة لأسرته لحمايتها والذود عنها، أن العرب اعتادوا «أن يختاروا لأبنائهم من الأسماء ما فيه البأس والشدة ونحو ذلك كمحارب ومقاتل ومزاحم ونحو ذلك. ولمواليهم ما فيه معنى التفاؤل كفرح ونجاح وسالم ومبارك، وما أشبهها، ويقولون: أسماء أبنائنا لأعدائنا، وأسماء موالينا لنا».[87] ويفسر القلقشندي[88] ذلك بقوله «إن الإنسان أكثر ما يدعو في ليله ونهاره مواليه للاستخدام دون أبنائه، فإنه إنما يحتاج إليهم في وقت القتال ونحوه».

وقد زودتنا بعض كتب التراجم والطبقات بأسماء لكثير من الرجال تحيل إلى معاني الشدة والقوة والقسوة[89]؛ مثل حرب،[90] وليث،[91] وغالب،[92] وفارس،[93] ومقاتل،[94] ومزاحم.[95] فضلا عن ألقاب مثل مجاهد،[96] وأبي الجيش،[97] وابن أبي الجيوش،[98] وابن أبي الحسام،[99] والمحاربي[100] وغيرها. ومن سوء حظنا أننا لم نصادف في مظان المرحلة ما يثبت هذا التوجه في تحديد الأسماء بالنسبة للقبائل الأمازيغية، وإن كنا نميل إلى تأكيده.

حصيلة القول إن المجتمع المغربي على عهد المرينيين قد تميز بسيادة قيم تمجد الشجاعة والفروسية، والتمسك بروح الجماعة وإفناء الذات في خدمتها، فضلا عن عادات الثأر وحفظ الجوار وتبجيل الذكور، وإهمال الإناث والتصغير من شأنهن. وكلها قيم جاءت انعكاسا أمينا لتفشي الظاهرة الحربية واتساع نطاقها، وعكست رغبة المجتمع في تطويع ظروف الواقع معها والتكيف مع مستجداتها. وهو ما تمظهر بشكل جلي في مجموعة من

Scanned by CamScanner

السلوكات الاجتماعية التي مثلت تجليات مادية لهذه القيم وترسيخاً لها على مستوى الواقع العياني المعيش، وهو ما سنلاحظه في المبحث الثاني.

المبحث الثاني: ترسبات الحرب في السلوك الاجتماعي

ما من شك أن الحضور المكثف للحرب في بنيات المجتمع المغربي وتنظيماته ومؤسساته خلال العصر المريني طبع الحياة الاجتماعية بالطابع الحربي والعسكري، كما أن القيم التي مجدت خلال هذه المرحلة، وكان للحرب دور هام في صياغتها وصقلها في الذهنية والسلوك الجماعيين، تجلت في جملة من المظاهر والعادات. بل إن المتأمل في مجموع المادة المصدرية المتوفرة لا يجد صعوبة واضحة في تحديد امتدادات الحرب وترسباتها في مجتمع امتزجت فيه مظاهر الحياة المدنية بالحياة العسكرية، إن على مستوى اللباس، أو على مستوى المظاهر الاحتفالية وأشكال التسلية واللعب.

أولا: في الزي ومظاهر الزينة

لا مراء في أن الزي[101] يعد شكلا ثقافيا يجسد رؤية الجماعة والفرد لمجموعة من القيم والعادات والمعايير الاجتماعية،[102] أو بتعبير آخر يجسد اللحظة التي يصبح فيها المحسوس دالا، أي أنه يجسد ما يتخذه الجسد البشري كي يصبح حاملا لمجموعة من الدلالات والعلامات.[103] ولا شك في أن الحيز الضخم الذي احتلته الحرب في ذهنية الإنسان المغربي من خلال مجمل القيم المرعية التقدير لديه قد تجلى في زيه وملبوسه اليومي، فانطبع هذا الزي بكثير من المظاهر الحربية، وترجمت أشكاله ومظاهر الزينة عليه القيمة الهامة التي أضحت لهذه الظاهرة في رؤية الجماعة وتصوراتها.

1. محاكاة لباس أهل السيف

لعل في استقراء المصادر التاريخية ما يؤكد بقوة هذا الأثر وكثافته. فبالرغم من أن اللباس الحربي الذي اختص به السلطان والأشياخ وعامة الجند كان مميزا وخاصاً خلال هذه المرحلة،[104] وبالرغم من أن تمييز أرباب السيوف عن غيرهم من خلال شكل اللباس كان ممكنا وسهلا،[105] فإن ما يثير الانتباه هو أن الزي العسكري انسحب في معظم قطعه وأشكاله على لباس مختلف الفئات الاجتماعية الأخرى؛ ذلك أن لباس «القضاة والعلماء والكتاب وعامة الناس، قريب من هذا الزي، إلا أن عمائمهم خضر... وليس لهؤلاء،

Scanned by CamScanner

سيوف»،[106] ومع ذلك فقد كانوا يحملون خناجر أو سكاكين كبيرة لا تفارقهم كما سنفصل فيما بعد. مما يحيل إلى غلبة الزي العسكري على غيره من الأزياء في مغرب هذه المرحلة.

وبصرف النظر عما أكدناه في السابق، في أن تعاظم ظاهرة الحرب قد حولت الكثير من الذكور إلى محاربين وفرسان،[107] مما قد يفسر طغيان الزي الحربي باعتباره مظهراً جماليا وقيميا قبل كل شيء، نعتقد أن الهيمنة التي كانت الدولة تسعى إلى إبرازها وترسيخها وصقلها في ذهنية الإنسان المغربي[108] أفضت إلى ميل الناس إلى محاكاة أهل الدولة والسيف في لباسهم وسلوكهم اليومي وفق القاعدة التي أكدها ابن خلدون[109] في أن «المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده». وقد أقر ذلك بمثال جيد، أن «انظر إلى كل قطر من الأقطار كيف يغلب على أهله زي الحامية، وجند السلطان في الأكثر، لأنهم الغالبون».[110]

ولدينا من المؤشرات ما يكشف عن انسحاب الزي العسكري وخصائصه على مختلف الفئات الاجتماعية لمغرب هذه المرحلة، ويثبت الأثر الذي خلفته الحرب في الأزياء؛ ميل الناس إلى تقلد السيف أو الخنجر في لباسهم اليومي. ولا أدل على ذلك من أن الشروط التي وضعها بعض الفقهاء على أهل الذمة كان من بينها أن لا يتشبهوا بالمسلمين في شيء من لباسهم، في قلنسوة ولا عمامة، ولا تقلد للسيف، أو ركوب للسروج،[111] مما يحيل على أن من خصائص زي الإنسان المغربي توشيحه بالسيف أو الخنجر وتحليته بهما.

2. توشيح الزي بالسلاح

إذا كان أهل المدن والحواضر، على ما يبدو، لا يضيفون السيف، أو غيره من السلاح، إلى ملبوسهم اليومي،[112] كما يفهم من بعض كتب الحسبة التي حاربت هذه العادة،[113] وإن كانت تعكس واقعاً حدث بالفعل، فإن مناسبات الأعياد والاحتفالات التي كان الناس يتجملون فيها بأحسن الثياب،[114] مثلت فرصة أيضا لتقلد السيف، وتزيين اللباس به. ومن ذلك ما كان يحدث في ليلة عيدي الفطر والأضحى في فاس، حيث يخرج أهل كل سوق إلى ناحية من البلد «وقد توشح جميعهم بالبياض، واحتملوا القسي، وتقلدوا السيوف»[115] في مظهر احتفالي، يكشف عن القيمة الرمزية التي كانت للسيف وحامله في ذهنية مغربي العصر المريني.

Scanned by CamScanner

ومما يعزز هذا التخريج، ما رددته مؤلفات المرحلة عن السيف، في كونه «الصاحب الولي، والصديق الوفي»[116]؛ لأنه «يغني عن غيره، ولا يغني عنه غيره في الأكثر»،[117] حتى قيل إن العرب لا تزال «عربا ما لبست العمائم، وتقلدت السيوف».[118] فلا عجب إذن إن كان تقلده وتوشيح الزي به من الأمور الشائعة في مجتمع يثمن خصال القوة والجراة والفروسية، ويفتتن بمن يحوزها. ولا عجب أن يتباهى به صاحبه، إذ السيف بتعبير أحد الفقهاء جمال لصاحبه، وإرهاب لعدوه في الآن نفسه.[119]

ويزداد الأمر تأكيدا ورسوخاً، إذا ما ألقينا نظرة على البدو وأهل البادية الذين أضحى السيف أو الخنجر جزءاً من ملبوسهم اليومي[120]؛ امتزج فيه الضروري الذي اقتضته ظروف البادية غير الآمنة، بالجمالي الذي تمخض عن القيمة الاجتماعية الكبرى التي أعطيت لحامل السلاح دون غيره، فأصبح بذلك تقلد السلاح وتوشيح الزي به مما جرت به العادة في البادية خلال هذه المرحلة؛ وفي هذا الصدد يشير أحد المؤلفين المعاصرين لبني مرين أن المغاربة في البادية كانوا يتسترون بكساء من صوف، وجبة من الأرجوان، وجلموس أو طاقية خشنة، ويتقلدون خنجراً أو سرافا (سكينا كبيرة) يستعملونها سلاحاً وزينة.[121]

ومما يثبت ذلك أيضا، ما عرف عن القبائل العربية، والتي كان لها تأثير واضح في الحياة الاجتماعية المغربية خلال هذه الفترة،[122] من تقلد دائم للسيف سلاحاً وزينة. وفي هذا السياق، أكد الفقيه أبو عمران موسى المشدالي (ت. 745هـ/1344م) أن السيف بالنسبة للعرب «ملبوسهم في المجالس والمحافل، لا تفارقه العرب على حال، تدخل به المساجد والأسواق والبيوت، وتحضر به مقامات السرور والحزن»،[123] مما يحيل إلى ظاهرة متأصلة في الملبوس اليومي المغربي، وإلى القيمة الاجتماعية السامية التي كان يحظى بها حاملو السلاح في مجتمع هذا العصر.

ومن حسن حظنا في هذا الصدد، أن كتب الجغرافيا والرحلات أمدتنا بمعلومات جيدة عن حضور السلاح في الزي المغربي اليومي؛ فقد عرف عن بعض قبائل المغرب الشرقي «أن صغيرهم وكبيرهم لا يمشي من موضع إلى موضع غيره إلا وهو شاكي السلاح».[124] وأن غيرهم لا يفارقون السيف أو الخنجر في زيهم اليومي، كما هو حال سكان جزولة الذين يرتدون ثيابا بلا أكمام، ويتقلدون دائما «بخناجر مقوسة عريضة ذات حدين ورأس متناه في الدقة».[125] أما سكان حاحا فكانوا «يتقلدون دائما خناجر»،[126] وكذلك أهل

Scanned by CamScanner

جبل مرنيسة بالريف،[127] وجبل سكيم من زناكة، وغيرهم ممن كانوا «يسيرون دائما مسلحين بدبابيس، أو رماح، أو خناجر، أو سيوف».[128]

3. السلاح زينة الرجال

لعل ما يثبت أهمية السيف في الملبوس اليومي للإنسان المغربي خلال هذه الفترة، والقيمة الرمزية التي يمنحها لمتقلده، إصرار الناس على تجميله وتحسين صورته باستعمال كافة أنواع الزينة عليه،[129] بل إننا نكاد نجزم أنه بقدر ما كانت المرأة تسعى إلى إظهار جمالها من خلال تزيين عنقها، أو يديها، أو ساقيها، بالحلي والجواهر، كان الرجل يسعى إلى إبراز قوته ورونقه من خلال تزيين سلاحه الذي لا يفارقه، وتحليته بكل ما هو متاح من وسائل التحلية والتزيين.

ويرى أحد الدارسين[130] أن أجمل الحلي التي أبدعها الإنسان في جميع الحضارات كانت لأجل زينة المحارب دون غيره، وأن المعادن النفيسة، والخوذات المزخرفة، والريش والأقمشة ذات الألوان الزاهية والنقوش والتطعيم بالأحجار الكريمة، كل ذلك كان من نصيب المحاربين المألوف. ولا غرو، فقد اعتبر فقهاء العصر المريني أن الزينة والتحلية للرجال لا تكون «إلا في السلاح، إما لتعظيم المحلى وتكريمه، وإما لإرهاب العدو فيما يقاتل به، أو لا ينفك عنه المقاتل».[131]

واعتبارا لما سبق، فقد اعتاد الناس، خاصة ذوو المال والجاه، استخدام الذهب والأحجار الكريمة في تحلية ملبوسهم من السلاح، أو الزي العسكري، وحسبنا أن زي السلطان والأشياخ والجنود المرينيين كان يشد بمضمات من الذهب والفضة، «منها ما يبلغ ألفي مثقال».[132] كما تكشف فتوى فقهية بتاريخ 740هـ/1339م عن إفراد السيوف بكل مظاهر الزينة واتخاذ نصلها من الذهب الخالص وغيره.[133] وبالمثل فقد أورد التيفاشي، في حديثه عن الأحجار الكريمة، أن المغاربة كانوا يطلبون جوهر الفيروز، «ويتغالون في ثمنه (...) ويجعلونه في حلي أسلحتهم»،[134] كما كانت العرب، حسب المؤلف نفسه، تستحسن حجر الجمشت «وتزين به آلات الحرب وأسلحتها».[135]

قصارى القول، إن الحضور المكثف للحرب في واقع الإنسان المغربي وذهنيته خلال هذه المرحلة قد أفضى إلى ميل واضح إلى توشيح الزي بكل المظاهر العسكرية والحربية، ارتباطا بالقيمة الاجتماعية السامية التي منحت للسيف ولحامله. وتجدر الإشارة أيضا إلى أن

Scanned by CamScanner

الضرر الذي لحق بالكثير من أفراد المجتمع المغربي جراء الحرب وانعكاساتها، وما أفرزته في نفسيتهم من شعور عميق بالعجز والخوف والقلق على الأمن والوجود والرزق، وفقدان الثقة في المستقبل، كل ذلك أفضى إلى أن يتخذ السلاح دلالات مبالغاً فيها تكاد تكون سحرية، يتمادى في حمله الفرد ويتماهى في شخصية حامله الحقيقي (المحارب) ويتباهى باستعراضه، كما لو أنه يستعرض كيانه الجديد الذي قضى على كل الخوف والقلق إزاء الماضي والحاضر وثقل المستقبل في ظل تفشي الحرب وأضرارها. ويصبح آنذاك حمل السلاح وتقلده، قبل استعماله، القيمة الحقيقية الوحيدة التي تعطي بعض التوازن للمتضرر من الحرب وآفاتها.

ثانيا: الحرب والاحتفالية

تعددت في مغرب العصر المريني المناسبات واللحظات التي يتوقف فيها المجتمع ليحتفل بها، أو يحتفي فيها ببعض أفراده، أو يتسلى فيها، كما تنوعت بالقدر نفسه أشكال الاحتفال ومظاهر التسلية.[136] لكن المثير للانتباه حقا، أنه بقدر ما كانت هذه المناسبات فرصة للترويح عن النفس، وتكسير نمط الحياة العادية، فإنها كانت لحظة هامة لتكريس بعض القيم وترسيخها في الذهنية والسلوك. والحقيقة أن المتأمل في أشكال الاحتفال والتسلية ومظاهرهما لا يستطيع أن ينكر الحضور المكثف للحرب فيها، إذ لا تمر مناسبة دون أن يتم فيها استعراض الخيل أو السلاح كقيمة حاضرة لا في أوقات الصراع الجدي فحسب، بل في مناسبات اللهو والمرح أيضا.

وقد سبق لبعض الدراسات الأجنبية، وإن تعلق الأمر بفترات من تاريخ المغرب الحديث والمعاصر، أن وقفت عند الحضور البين للحرب في مظاهر الاحتفالية واللعب الاجتماعي، مثيرة الانتباه إلى الامتزاج الكبير بين المظاهر العسكرية والأشكال الاحتفالية، سواء في الغناء الذي تداخلت فيه تعابير الحب والحرب في العيطات وإزلان، أو في الرقص الذي امتزجت فيه ضربات السيوف مع دقات الطبول، وحركات الرقص مع حركات المحاربين في ميدان القتال.[137] وفضلا عن ذلك، فإن من يلقي نظرة على الفنون الشعبية في المغرب الحالي لا يمكنه إلا أن يندهش أمام اللمسات العسكرية، والمظاهر الحربية المنبثة بين ثنايا الغناء والرقص في هذه الفنون، مما يشي بأثر عميق ودفين تعود جذوره إلى فترات تاريخية سابقة، ومن ضمنها العصر المريني، استشرت فيها الحرب وتداخلت مع غيرها من الظواهر الاجتماعية.

Scanned by CamScanner

1. مظاهر التشابه بين الاحتفالات والخروج إلى الحرب

ليس غريبا أن تنطبع مظاهر الاحتفال والتسلية بكثير من المظاهر الحربية؛ إذ الحرب في حد ذاتها استعراض راقص لكنه خطر، أو إنها الاحتفال الأسمى، إن صح التعبير، لكنه يتلف الذوات والنفوس، وقلما تخلو أي معركة من سمات جمالية تقارب بينها وبين المظاهر الترفيهية. وحتى نقتنع بمثل هذا الرأي يكفي أن نذكر بأن من المحبذ لدى مصنفي المرحلة «التزين في الميدان [الحربي]، ولبس الحرير، ولبس الأبيض، وتزيين الخيول بالصوف الأبيض».[138]

ولا غرو، فقد كان من العادة في حروب المرحلة مدار الدرس انتقاء اللباس الحسن والجديد، وتلبيس الخيل والمراكب بكل مظاهر الزينة والتحلية.[139] ويرافق الجيش مغنون وشعراء، وأصحاب الطبول يحولون الطريق للحرب إلى عرس تنشد فيه الأشعار والأهازيج، تحدث في النفس فرحاً «فتبعث الشجاعة، كما تبعث نشوة الخمر».[140] ولعل أبرز مثال لهذه الصورة، حملات المرينيين العسكرية التي تخرج فيها النساء مع الفرسان في أبهى زي، وفي «الجمال المحلاة، والمراكب الملبسة بالديباج، والقباب المزينة، والجواري المولدات، تقودها الرجال في أحسن زي وأتم جمال».[141]

ونستطيع أن نتبين تشابها كبيراً بين الخروج إلى الحرب والخروج يوم العيد للاحتفال لتأكيد هذا التداخل والامتزاج بين المظهرين؛ فقد عرف عن فاس مثلا، خروج الناس يوم العيد إلى ظاهر المدينة «متجملين في أحسن الثياب»،[142] فيبيت في ليلة العيد «أهل كل سوق بذاتهم خارج البلد، ومع أهل كل سوق علم يختص بهم عليه صور الآلات التي يستعملونها، وقد توشح جميعهم بالبياض، واحتملوا القسي، وتقلدوا السيوف. وفي صباح يوم العيد، يركب السلطان، ويصطف الناس من حوله، والعسكر على جوانبه، والعلوج خلفه ملتفون به، والأعلام منشورة وراءه، والطبول خلفه، حتى يصلي».[143] ولا شيء أبلغ من هذا المشهد لفرز ذلك التشابه وتوضيحه، بل إن أحد مؤلفي هذه المرحلة أكد أن أشكال الاحتفال هذه، كان الغرض منها أن «تضفي على الموكب صبغة الحرب، وتبعث في النفوس الهيبة والوقار».[144]

1. الفروسية واللعب بالخيل

ليس ثمة شيء أكبر تمثيلا للمظاهر الحربية في الاحتفال والتسلية من ظاهرة الفروسية

Scanned by CamScanner

واللعب بالخيل والسلاح التي مورست هواية واحتفالا في مختلف المناسبات والأفراح. ولا شك أن الحاجة الملحة إلى المحاربين الذين يتقنون ركوب الخيل وإجادة إصابة الهدف والقتال بها، هو ما أعطى لهذه اللعبة قيمتها، وجعل منها هواية يمارسها الجميع تدريبا وتسلية. ولا غرو، فقد عدها بعض العارفين بأمور الحرب «من أفضل الصناعات، وأحسن الطاعات، بنية الجهاد في سبيل الله تعالى»،[145] وهي من قبل غيره «تنبيه للأمة، وعون على شرف الهمة»،[146] حتى قيل إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: «إن الملائكة لا تحضر من لهوكم إلا الرهان والنصال».[147]

ومما يثبت انتشار هذه اللعبة الهواية،[148] كونها كانت تمارس من قبل الخاصة والعامة؛ فقد كان السلاطين والأمراء المرينيون يأخذون أنفسهم على إتقانها،[149] ويخصصون لها أوقاتا هامة من يومياتهم «بقصد الثقافة ومعرفة ركض الخيل، وهي عادة مطردة لهم»،[150] حتى إن ابن الأحمر آخذ على الأمير أبي حمو الزياني عدم إتقانه لها فعد ذلك منقصة له، واعتبر أن «من لا يفعل ذلك منهم فهو خواف على نفسه أن يقع من الفرس من جهله بالفروسية».[151] وبالمثل، كان من عادة الجنود الفرسان أن يجتهدوا في كل حين لتعلم ممارسة هذه اللعبة تدريبا وتسلية.[152] كما أن أهميتها بالنسبة للبدو جعلتها من أفضل الهوايات وأكثر الألعاب انتشاراً وتداولا في الأعياد والأفراح والمناسبات،[153] لذلك خصصت لها ميادين خاصة عرفت بـ«المضمار»،[154] أو «الملعب»،[155] أو «إكـرن إمناين»[156] لدى بعض القبائل الأمازيغية.

ويبدو أن هذه اللعبة كانت تمارس في ضواحي المدن من قبل السلطان وخاصته وجنوده بشكل يومي؛ إذ «الغالب أن يركب بعد العصر في عسكره ويذهب إلى نهر هناك، ثم يخرج إلى مكان فسيح من الصحراء فيقف على نشز من الأرض، وتتطارد الخيل قدامه، وتتطاعن الأقران وتمثل الحرب لديه، وتقام صفوفها على سبيل التمرين حتى كأنها يوم الحرب حقيقة».[157] ورغم الطابع التدريبي الذي يطغى على هذه الخرجات اليومية، إلا أنها تدخل فيما يمكن تسميته بـ «تسلية منفعة»[158] تمارس تدريبا وتسلية في آن واحد.

أما بالنسبة للعامة، وفي البادية بشكل خاص، فقد مورست هذه الهواية في مختلف المناسبات، التي كانت فرصة لإبراز المهارات القتالية والحربية لأفراد القبيلة، والتنافس في إتقانها؛ وحسبنا أن قبائل فازاز كان الغالب على أفرادها الفروسية،[159] كما كانت القبائل

Scanned by CamScanner

العربية «تخاطر على سباق خيلها وتسمي ما تجعله في ذلك السوابق (...) رهانا، وتضعه في طرف الغاية التي تجري إليها على رأس قصبة من قصب الرماح».[160]

وقد كانت الأعراس فرصة لكثير من أبناء القبائل لإثبات فروسيتهم وإجادتهم لفنونها، وهي عادة متصلة إلى يومنا هذا في بعض المناطق، فكان من العادة عند كثير من القبائل المغربية أن تنظم في إطار الاحتفال بعرس أحد أفرادها مباراة في الفروسية واللعب بالخيل والسلاح. فقد كان من كرامات محمد بن عمر الهواري (ت. 843هـ/1439م)، أن بعض العرب ومفسديهم أخذ مال بعض أصحابه، فدعا الشيخ عليه «وفي الوقت قام الظالم يلعب بخيله في بعض عرسهم، فلما حرك خيله والناس ينظرون، فإذا رجل أبيض الثياب أخذه على فرسه وضربه بالأرض»[161] فقتله.

وإذا كانت هذه الهواية–اللعبة قد تميزت، فيما بعد المرحلة مدار البحث، باللعب بالمكاحل والبارود عند القبائل والجيش في الأعياد والأفراح، وأيام النصر فيما يعرف بـ «الحركة»[162] أو «التبوردة» أو «أصباحي»،[163] فإن الأصل فيها، وكما موررست خلال هذه الفترة، أن تستعمل فيها الرماح والسيوف. وقد قدمت فرقة من المغاربة أمام البعثة الإنجليزية التي زارت المغرب عام 1134هـ/1721م مشهداً استعراضيا يحمل كثيراً من موروث زمن هذا البحث وقبله أيضا، ووصفه أحد الحاضرين بقوله: «وقد أظهر هؤلاء الرجال مدى مهارتهم في تسديد رماحهم مهاجمين مرات عديدة، كما كانوا أحيانا يقذفون برماحهم في الهواء ثم يلتقطونها مرة ثانية، وجيادهم تركض بسرعة كبيرة».[164]

عموماً، فقد كانت هواية الفروسية واللعب بالخيل والسلاح من أهم ما تمخض عن تغلغل الحرب في بنى المجتمع المغربي وذهنيته خلال العصر المريني، كما كان لها دور هام في استمرارها وتطورها بحسب تطور السلاح والمهارة في استعماله. ويكفي أن نتأمل الآن في حفلات الفروسية التي تنظم في المواسم السنوية للأولياء والمتصوفة، وفي مناسبات الأعياد الدينية، للوقوف على مثل هذه الخلاصة.

3. الرماية والمبارزة بالسلاح

يظهر أن الحاجة الملحة لحامل السلاح في القبيلة والحاضرة على السواء، والرغبة في إتقان فنون القتال وإجادتها، قد أسهمت في الاهتمام أكثر بالرماية بواسطة الرماح والسهام، وأحيانا حتى بالحجر وغيره مما يلقى به بعيداً،[165] وتحويلها إلى لعبة وهواية تمارس

Scanned by CamScanner

بدورها في مختلف الأيام، والمناسبات، واعتمدت أسلوبا في التدريب، وعادة للتسلية وتمضية الوقت. فقد كان السلاطين المرينيون مولعين بممارسة هذه الهواية،[166] مثلهم في ذلك مثل الجنود الذين يجمعون فيها بين التدريب على إصابة الهدف وإتقان فنه، وبين اللعب والترفيه.[167] كما عرف عن بعض الفقهاء، ممارستهم لهذه اللعبة، ومنهم محمد السعيدي الغماري (ت. 772هـ/1370م) الذي كان «مولعا بالرمي، ملازماً للرباط».[168]

ويكشف محمد بن القاسم الأنصاري عن ولع أهل سبتة بهذه الهواية وكثرة ممارستهم لها؛ فـ«الرمي طبع لأهل سبتة طبعوا عليه، فلا تلفي منهم شريفا ولا مشروفا، ولا كبيرا ولا صغيراً، إلا وله بصر بالرمي، وتقدم فيه، ومعظم رميهم بالقوس العقارة، وهو من جملة الأشياء التي تميزوا بها».[169] وفي هذه الجملة الأخيرة ما يثبت أن هذه الهواية لم تكن حكراً على أهل سبتة، إذ كانت تخصص أماكن لهذه اللعبة في مدن المغرب تسمى المرامي ويعبر عنها بالجلسات،[170] وقد كانت سبتة وحدها تحوي أربعة وأربعين مرمى، اختلف فيها كل مرمى عن غيره بحسب المسافة الموضوعة بين الرامي والهدف، على حسب قوة الرامي، أو بحسب شدة القوس أو ليونته.[171]

وقد أكد صاحب «البدائع والأسرار» انتشار هذه الهواية وتداولها بين الناس في أوقات الترفيه والتسلية،[172] كما بين أساليب هذه اللعبة وقوانينها، وعدد مختلف الحيل التي يمكن الأخذ بها في لعبة الرماية، وحكم التناصل والرهان الذي يفوز بهما الرامي المتفوق في الرمية من حيث حلاله أو حرامه. وكل ذلك يثبت أن لعبة الرماية عرفت انتشارًا واسعاً في أوساط العامة والخاصة بمغرب العصر المريني.

ويبدو أن هواية الرماية قد مورست في كثير من الأحيان احتفالا ببعض الأعياد الدينية، وهو ما يفهم من قول أحد الرحالة، بالرغم من تأخره عن زمن هذا البحث، وبالرغم من أن الأمر يتعلق بالرمي بالبنادق بعد انتشار استعمالها بدل القوس والسهام؛ فيذكر أن من عادة أهل بوصمغون، قرب فكيك، يوم العيد «أنهم يخرجون إلى المصلى بسلاحهم، لا يخرج أحد بغير سلاح صغيراً كان أو كبيراً، ويبنون في المصلى أحجاراً يتخذونها غرضا للرمي، فلا يذكر الله في المصلى إلا أناس قليلون، وغالب الناس منشغلون بالرمي حتى في حال الصلاة والخطبة».[173]

وإلى جانب الفروسية والرماية انتشر في مغرب العصر المريني لعبة المبارزة بالسلاح،[174] والتماهي في استعماله على شكل رقصات تتناغم مع وقع الدفوف والمزامير، يجسد فيها

Scanned by CamScanner

الراقصون مشاهد المبارزة الحربية، وأساليب القتال والتمويه فيه. ومن ذلك ما ورد عن صاحب «الروض الهتون»،[175] في حديثه عن انتقال القاسم بن عبد الله بن زغبوش للإقامة في مكناسة سنة 597هـ/1200م حيث «خرج للقائه أهل تاورا أوفر ما كانوا عدداً وثروة، ومعهم السودان المسمون هنالك بعبيد الحرمة، ورجال السودان يلعبون الثقاف بالحديد ويرقصون، ونساؤهم يضربن آلة اللعب ويغنين». كما كان من عادة بعض الطلبة في احتفالهم بختمة القرآن أن يرفعوا ذكر الله «بالسهو واللهو وتعلية السكاكين والنبابيل والشطح بها».[176]

4. القنص

من وجهة نظر سوسيولوجية، هناك مجال للحديث أيضا عن علاقة وطيدة بين الصيد والحرب؛ فلطالما اعتبر لدى الكثير من الأنثروبولوجيين والسوسيولوجيين، صنوا للحرب وأصلا له.[177] كما أن هناك تشابها شديدا بين مشهد العرض العسكري والغارة، وبين مشاهد الخروج للقنص والصيد. وفي مغرب العصر المريني مورست هذه الهواية بدافع الحاجة والضرورة قبل دافع التسلية والترفيه[178]؛ فبنو مرين قبل مرحلة الدولة لم يكونوا «يشتغلون بغير الصيد، وطراد الخيل والغارة».[179] كما أن بعض قبائل الجنوب مثل سكان أقا وتبليت،[180] كانت تعتمد الصيد أسلوبا لتدبير القوت اليومي. لكنه من الطبيعي أن يصبح هواية للتسلية كلما توفر الضروري من العيش.

على أن الصيد مرتبط بمظهر حربي لا يفترق عنه، وهو اتصاف ممتهنيه وهواته بمظهر الفروسية والشجاعة، وكونه هواية للمحارب الفارس قبل غيره،[181] حتى إن المؤلفين في الحرب والفروسية عدوه من الهوايات التي يجب أن يمارسها السلطان والأمير المحارب تدريبا وتسلية.[182] ويفهم من «ملعبة» الكفيف الزرهوني أن من جملة الهوايات التي كان يتقنها أبو الحسن المريني صيد الأسود واقتناصها،[183] كما كان أبو عنان «مولعا بقتل الأسود» أيضا.[184]

ويبدو أنه مع انتقال القبيلة المرينية إلى مرحلة الترف والحضارة تحولت هواية الصيد إلى مظهر احتفالي يقام في المناسبات والأعياد، وتحضره الخاصة والعامة،[185] وخصصت له في القصور السلطانية ميادين واسعة يجري فيها مشهد صيد الأسد،[186] سماها ابن الخطيب[187] «ملاعب الليث المفترس»، يحضرها السلطان المريني مرفوقا بحاشية، وكان يعهد إلى رجال

Scanned by CamScanner

من جبل زرهون باصطياد الأسود ونقلها إلى الحلبة بالقصر السلطاني[188] لتنظيم هذه الحفلات، والتي يصارع فيها الرجال الأسود، ويحاولون فيها إثبات شجاعتهم وبسالتهم الحربية.

وقد اهتم مؤلفو هذه المرحلة بوصف هذه المشاهد الاحتفالية، وطريقة تنظيم اللعب فيها، لكن وصف الحسن الوزان،[189] على تأخره، يبدو أكثر غنى ووضوحا، يقول: «ينظم الملك مشهد صيد الأسد داخل القصبة السلطانية في ساحة واسعة، يرتب في هذه الساحة عدد من صناديق كبيرة يسع كل واحد منها رجلا يقف داخلها ويتحرك بسهولة، لكل صندوق باب صغير، ويجلس فيه الرجل مسلحاً، وحينئذ يطلق الأسد في الساحة فيفتح الرجال المسلحون أبواب صناديقهم بالتناوب، مرة هذا ومرة ذاك، ويجري الأسد فوراً نحو الذي يراه. وعندما يقترب منه يغلق بابه، ويستمر العمل هكذا إلى أن يهيج الأسد هيجانا شديدا، فيطلق ثور داخل الساحة، وتنشب معركة دامية بينهما، فإذا قتل الثور الأسد، انتهى المشهد ذلك اليوم، وإذا قتل الأسد الثور كان على الرجال المسلحين أن يخرجوا من صناديقهم ويحاربوه، وهم اثنا عشر رجلا يحملون بأيديهم حراباً في طرف كل منها نصل حديد طوله ذراع ونصف ذراع، وإذا أظهر الرجال تفوقا على الأسد أمر الملك بنقص عددهم، وإذا تفوق الأسد على الرجال سدد إليه الملك وأفراد حاشيته قاذفاتهم. وكثيرا ما يحدث أن الأسد قبل أن يموت يقتل أحد المحاربين، ويجرح آخرين، وتبلغ الجائزة التي يمنحها الملك لكل محارب عشرة مثاقيل، وكسوة جديدة».

5. ألعاب وأشكال احتفالية أخرى

بقي أن نشير إلى ألعاب حملت بعضا من ترسبات الحرب، أو عبرت من خلال قوانينها عن قوانين الحرب والصراع؛ ومنها لعبة الشطرنج التي عرفت انتشاراً واسعاً لدى الخاصة، وعلية القوم، إذ تقوم قواعدها على أساس الهجوم والدفاع عن السلطان، وحماية الجنود له.[190] ولعبة الكرة التي مورست في عدة جهات بالمغرب،[191] وفي القصور السلطانية، والتي غالبا ما كانت عبارة عن نارنجة أو ما يشبهها بالنسبة للوجهاء،[192] وعن خرق بالية ملفوفة أو «وظفة» محشوة تبنا بالنسبة للعامة، تدحرج بالعصي وتقذف بالأرجل،[193] وأحيانا ما تفضي إلى حوادث مؤسفة،[194] منها ما وقع للوزير عامر بن محمد بن عبد الله بن علي المستبد بحكم السلطان بعد وفاة أبي عنان، وعبر عنها ابن الخطيب[195] في مراسلة له لهذا الوزير بقوله: «فتعرفت أن بعض ما يتلاعب به بين أيدي السادة الخدام، وتتفكه به

Scanned by CamScanner

المناقبة والإقدام، من كرة مرسلة الشهاب، أو نارنجة ظهر عليها من صبغها الالتهاب، حومت حول عينك، لا كدر صفاؤها».

وتظل أبرز لعبة مارسها الشبان في بعض المدن، المناجزة بين فتيان الأحياء، لا سيما في مناسبات الأعياد، ويصفها أحد الجغرافيين بقوله: «يجتمع الشبان في أوقات معينة من السنة، فيحمل أهل زقاق منهم العصي ليحاربوا أهل زقاق آخر، وقد يشتد الخصام بينهم فيأخذون السلاح، ويموت عدد من كل فئة، ولا سيما في أيام الأعياد، حيث يجتمع الشبان في ظاهر المدينة، وبعد انتهاء الاشتباك يأخذون في التراشق بالأحجار، حتى لقد يعجز رئيس الشرطة عن تفريقهم والحجز بينهم».[196]

خلاصة القول إن الألعاب والاحتفالات وأشكال التسلية التي انتشرت في المجتمع المغربي لهذه المرحلة لم تكن سوى انعكاس أمين للظاهرة الحربية، ومحاكاة واضحة لها، إن لم نقل إنها مثلت إعادة إنتاجها في المتخيل والرمز.

المبحث الثالث: الحرب والمنتوج الثقافي

لا مراء أن المنتوج الثقافي لأي مجتمع من المجتمعات له ارتباط وثيق بالمكونات والعوامل التي تنتج شروط المعرفة شكلا وكيفا.[197] وقد تنبه البعض إلى العلاقة الجدلية التي تجمع بين شكل المعرفة وأبنيتها المؤطرة وأساساتها الفاعلة،[198] وكذا تحكم الظروف السوسيو-اقتصادية في توليد الخطابات، وإنتاج آليات الثقافة،[199] فضلا عن أهمية المزاوجة بين الفكر والواقع والخيال في تحليل العملية الثقافية.[200] ومن ثمة لا نشك أن الحرب، التي مثلت ظاهرة بنيوية في مجتمع هذه المرحلة، اخترقت المعارف وشكلت حجر الزاوية أحيانا في نحت المصطلحات والمفاهيم التي تم تداولها في الساحة الفكرية. وقراءة عجلى للخطاب الثقافي، بشقيه العالم والشعبي، في مغرب هذا العصر كفيلة بالكشف عن حضور هاجس الحرب وإشكالياتها في مختلف أشكال الوعي الاجتماعي والسياسي والفكري والثقافي. وفي ضوء هذه الأهمية سنرصد بعض معالم هذا الحضور، والرجاء أن تجتمع أقلام الباحثين للتتبع الشامل والدقيق لأثر الحرب في إنتاج الخطاب الثقافي وتمفصلات حضورها في الساحة الثقافية لمغرب العصر المريني، والوسيط بشكل عام.

Scanned by CamScanner

أولا: أثر الحرب في الإنتاج الثقافي العالم

لعل في تجاوز مستوى القراءة، فيما أنتجته النخبة العالمة لمغرب العصر المريني، إلى مستوى التأمل في الخيط الناظم الذي يجمعها، كفيل بإدراك مساحة الوعي بظاهرة الحرب في كتابات هذا الجيل. ولا غرو، فقد عاشت النخب المتعلمة الحروب الضارية التي اندلعت في أكثر سنوات هذه المرحلة، وأسهمت في بعضها بالخطاب أحيانا، والفعل والتوجيه أحيانا أخرى. ولبس من الطبيعي أن يتعطل حس العلماء أهل القلم بها، وأن لا يتأثروا بوقعها على أنفسهم وأهلهم وشيوخهم وأهل بلدهم، وألا تغيب فيما أنتجه بعضهم خلال هذا العصر.

1. موقع النخبة العالمة في واقع الحرب

ليس غريبا أن يتأثر أهل العلم والقلم بهدير السيوف وصليل الرماح ورائحة غبار المعارك، وهم من كانوا أحياناً محرضين عليها، ومشاركين فيها، ومساهمين في قراراتها أحيانا كثيرة. ونتوفر على فيض من المؤشرات الدالة على صدق هذا الاستخراج؛ فأمام اشتداد الهجمات الإيبيرية على الأندلس، واقتراب حرارتها إلى السواحل المغربية ذاتها، عمل العلماء والفقهاء على شحن العزائم، والدعوة للتعبئة، والتحريض على الجهاد وحرب الكفار.[201] وبرز في هذا الاتجاه خطباء عديدون[202] اتخذوا المساجد فضاء مناسبا للتواصل مع أفراد المجتمع، وحضهم على المرابطة والجهاد، وتقديم العون لمن خرج إليه.[203] كما وجدوا فيها مجالا للتشهير بقضية الأسرى وضرورة إيجاد حلول لها عبر أشكال التضامن والتكافل الاجتماعيين.[204]

وقد أبدع العديد من أهل العلم في خطاباتهم وكتاباتهم التحريضية على الجهاد؛ ومنهم ابن الخطيب،[205] فمما قاله مفضلا الجهاد على الحج –على غرار ما أفتى به فقهاء هذا العصر وعلماؤه [206]– «فإنكم إذا أحججتم أعدتم فرضا أديتموه، فائدته عليكم مقصورة (...) وإذا أقمتم الجهاد جلبتم إلى حسناتكم عملا غريبا، واستأنفتم سعيا من الله قريبا، وتعدت المنفعة إلى ألوف الناس المستشعرة لباس البؤس».[207] ومما ذكره محرضا المغاربة على نصرة إخوانهم الأندلسيين قوله: «نستنصر على العدو والباغي بالولي الحبيب».[208] بل نجده يوصي أبناءه بالجهاد، الذي أصبح ضرورة ملحة، في قوله: «فكونوا ممن يسمع نفيره ويطيعه، وإن عجزتم فأعينوا من يستطيعه».[209]

Scanned by CamScanner

ولم يكتف أهل العلم والكتابة على التحريض والدعوة للجهاد، بل شاركوا بأنفسهم في معاركه،[210] وعبروا إلى العدوة الأندلسية للجهاد والمرابطة؛ من مثل ابن بطوطة الذي عبر البحر إلى الأندلس «ليكون له حظ من الجهاد والرباط»،[211] وغيره من العلماء الذين ترجمت لهم كتب التراجم والطبقات، وأرخت لوفاة بعضهم بمعارك في الأندلس،[212] خاصة معركة طريف التي «محق الله بها المسلمين حسبما هو مشهور»[213]؛ ومن هؤلاء محمد بن أحمد بن جزي،[214] ومحمد بن يحيى بن سعيد الأشعري،[215] ومحمد بن عبد الملك[216] وغيرهم. كما أنه من نافلة القول التنويه بدور العلماء في المرابطة والجهاد بالثغور الشمالية للمغرب الأقصى، التي هددتها الغارات المسيحية، وعمليات القرصنة الأوربية.[217]

على أن العلماء والفقهاء وأصحاب القلم عامة لم يشاركوا في العمليات الجهادية بالأندلس فقط، بل خرجوا مع السلاطين المرينيين في حملاتهم العسكرية إلى المغرب الأوسط وإفريقية،[218] وشاركوا السلطان المريني في تدبير قرارات هذه الحملات.[219] كما شغلوا مناصب عسكرية هامة خاصة منصب قاضي العسكر.[220] وحسبنا دليلا على أهمية هذه المشاركة وكثافتها، فاجعة غرق حوالي أربعمائة عالم وفقيه في سواحل تونس، ممن رافقوا السلطان أبي الحسن في حملته على إفريقية.[221]

2. الحرب في الإنتاج الثقافي العالم، ابن خلدون نموذجا

الظاهر إذن أن النخبة العالمة لم تكن بمعزل عن هدير الحروب، وخرجات الجيش ودخلاته، وأحاديث المعارك بهزائمها وانتصاراتها. لذلك بات بديهيا أن تخترق الحرب مختلف أشكال الإنتاج الأدبي والثقافي الذي أنتجته تلك النخبة، حيث احتلت مساحة كبرى في الحيز الجغرافي لنصوصها، وشكلت نسبة مئوية هامة في الأبنية اللغوية المكونة لعمران المتون التي ألفها علماء هذا العصر.[222]

ولا شك أن الذوات البشرية الممثلة «للجيل الواحد»، والمنفعلة بواقع الحرب في مجتمع المغرب المريني سلبا وإيجابا تبقى شهادات ناطقة لا يمكن أن يستغني عنها الباحث. وإذا كان المجال لا يتسع لتعداد حجم العبء الذي مثله كل واحد من أعلام هذا العصر في معترك الواقع المفعم بالحروب والصراعات، فإننا نود أن نقف وقفة قصيرة عند علم ملأ الدنيا وشغل الناس بإبداعاته في مجال التاريخ وعلم الاجتماع الإنساني، ويتعلق الأمر بابن خلدون الذي عاصر هذا الوضع واستوعبه، فنظر له وبسط خلاصاته في مقدمته المشهورة.

Scanned by CamScanner

ونحن في غنى عن الإسهاب في التأكيد على أن تأملات ابن خلدون مرتبطة أشد الارتباط بالواقع المريني الذي عاصره، وبتجربته الشخصية داخله[223]؛ فمن الثابت لدى الباحثين المعنيين بالدراسات الخلدونية أن تجربته السياسية والاجتماعية شكلت مصدراً أساسيا من مصادر فكره الاجتماعي والسياسي.[224] ونعتقد أن مكوثه لمدة طويلة في حواضر المغرب والأندلس، وعلاقته بسلاطين بني مرين وبني عبد الواد، وإقامته الطويلة بين قبائل المغرب الأوسط، جعلته يطلع عن كثب على أنماط العمران الحضري والبدوي وأحواله.[225] ولا شك أنه اطلع على أصناف المغالبات والمدافعات والحروب التي ميزته، مما يدفعنا إلى السؤال عن موقع الحرب في «المقدمة»[226].

إن ما كتبه ابن خلدون عن الحرب بشكل صريح ومباشر في مقدمته قليل لا يتعدى العشر صفحات، وسمها بعنوان «في الحروب ومذاهب الأمم في ترتيبها».[227] وميز فيها بين أربعة أنواع من الحروب، قسمها بدورها إلى قسمين، قسم يهم حروب العدل؛ وتتعلق بحروب الجهاد غضبا لله ولدينه، ثم حروب الدول على الخارجين عليها، والمانعين لطاعتها. وقسم آخر يهم حروب البغي والفتنة، ومنها حروب القبائل المتجاورة فيما بينها،[228] ثم عدوان البدو الرحل الذين «جعلوا أرزاقهم في رماحهم، ومعاشهم فيما بأيدي غيرهم».[229] ثم فصل بعد هذا التقسيم في أنواع القتال،[230] وفي أسباب الانتصار والانهزام، وما يتبعها من الحيل والخدع على غرار من سبقه إلى هذا الموضوع.[231]

تقودنا هذه القراءة العجلى إلى نوع من الإقرار بأن الرجل أغفل وقع الحرب على العمران والمجتمع. غير أن هذه الخلاصة تتهاوى أمام زخم من القرائن التي تثبت أن الحرب شكلت حجر الزاوية في معظم تحليلات ابن خلدون وتنظيراته لمجتمع المغرب الأقصى خلال العصر المريني وقبله أيضا.[232] وقد صدق عبد الله العروي[233] في قوله: إن «كل شيء مهم، مما يمس الحرب، موجود ضمنيا في أبواب المقدمة، وفي نفس الوقت لا شيء من ذلك موجود صراحة في المكان المقرر له». أما السبب، في نظرنا، فيرجع إلى أن ابن خلدون بنى معظم تنظيراته على أساس الحرب والعدوان.

لقد شيد ابن خلدون نظريته في العمران البشري والاجتماع الإنساني على أساس عدوانية الانسان الغريزية؛ إذ من طباع البشر «أن يدفع بعضهم عن بعض، لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم»،[234] كما أن «الشر أقرب الخلال إلى [الإنسان] (...) ومن أخلاق البشر فيهم الظلم والعدوان بعض على بعض»،[235] وبذلك فكل عمل بشري، كل

تحرك، كل نشاط إنما هو هجوم أو دفاع، تطاول أو احتراس،236 لذلك لم يجد ابن خلدون غضاضة في تأكيد بيولوجية هذه الظاهرة؛ ف «الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليقة منذ برأها الله (...) وهو أمر طبيعي في البشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل».237

يجمع ابن خلدون بين التطور البيولوجي الوظيفي، وبين طبيعة العدوان، وبيولوجية السلاح بقوله إنه «لما كان العدوان طبيعيا في الحيوان جعل [الله] لكل واحد منها عضوا يختص بمدافعته ما يصل إليه من عادية غيره، وجعل للإنسان عوضا من ذلك كله الفكر واليد. فاليد مهيأة للصنائع بخدمة الفكر، والصنائع تحصل له الآلات التي تنوب له عن الجوارح المعدة في سائر المخالب الجارحة، والتراس النائبة عن البشرات الجاسية».238 ثم إنه يؤلف بين نوع العدوان وتطوره، وبين الوازع والسلطة بقوله إنه لما كان الظلم والعدوان من طباع البشر «ومن امتدت عينه إلى متاع أخيه، امتدت يده إلى أخذه إلا أن يصده وازع».239 ولما كانت آلة السلاح التي وهبت له غير كافية «للدفع العدوان عنه لأنها موجودة لجميعهم، فلا بد من شيء آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض (...) فيكون ذلك الوازع واحداً منهم، له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة، حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان».240

الحرب إذن عند ابن خلدون ظاهرة اجتماعية من طبع البشر، ملازمة لهم في جميع أطوار تاريخهم. والحال هذه، فالأولى ألا تفصل عن العمران، ويجب أن ينظر إليها في الحالين؛ حال العمران البدوي حيث لا نظام ولا دولة، وحال العمران الحضري حيث تتعدد فتتنوع أجهزة التدبير والتسيير.241 وفي كلا العمرانين يحدد ابن خلدون ثلاثة أنواع من العدوان والدفاع لرد العدوان؛ الأول عدوان المدن والأمصار بعضهم على بعض، ويدفعه الحكام والدولة بما قبضوا على أيدي من تحتهم. والثاني عدوان على المدينة من خارجها وتصده الحامية من أعوان الدولة، كما يدفعه سياج الأسوار. أما الثالث فعدوان أهل البدو بعضهم على بعض، ويرده المشايخ والكبراء بما ترسخ لهم من نفوذ في نفوس أهليهم.242

غير أن الحرب التي يراها ابن خلدون محركة للتاريخ وموجهة للأحداث، هي بالتعريف النشاط الطبيعي للعمران البدوي، نشاط من «جعلوا أرزاقهم في رماحهم، ومعاشهم فيما بأيدي غيرهم»،243 والذين يبتغون الرزق من «تحيف السابلة وفي ظل الرماح المشرعة».244 لذلك يقر أن «أهل البدو لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي، وبعدهم عن

Scanned by CamScanner

الحامية، وانتبادهم عن الأسوار والأبواب، قائمون على المدافعة عن أنفسهم، لا يكلونها إلى سواهم، فهم دائما يحملون السلاح»،[245] وملزمون بمعرفة أساليب الحرب والقتال للحماية قبل المدافعة والمطالبة،[246] وبالتضامن والاتحاد،[247] لأن دفاعهم وذيادهم لا يتم إلا إذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد[248]؛ فإذا «انقرضت العصبية، قصر القبيل عن المدافعة والحماية فضلا عن المطالبة، والتهمتهم الأمم سواهم».[249]

وبعد أن يؤكد ابن خلدون على التلازم، الوثيق الصلة، بين القوة والعصبة والعصبية والمغالبة والتفوق والرئاسة والملك والقدرة على الغزو والتوسع، وكذا على الدفاع والحماية،[250] يقر بحكم التلازم أن الرئاسة والملك لا تكون إلا بالغلبة والتغالب والحرب؛ «فلا بد في الرئاسة على القوم أن تكون من عصبية غالبة لعصبياتهم واحدة واحدة».[251] كما أن الحماية والمدافعة والمطالبة لا تكون إلا بالعصبية، «وصاحب العصبية إذا بلغ إلى رتبة طلب ما فوقها؛ فإذا بلغ رتبة السؤدد والاتباع ووجد السبيل إلى التغلب والقهر لا يتركه لأنه مطلوب للنفس (...) ثم إذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها، طلبت بطبعها التغلب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها. فإن كافأتها، أو مانعتها كانوا أقتالا وأنظارا، ولكل واحدة منهما التغلب على حوزتها وقومها (...) وإن غلبتها واستتبعتها التحمت بها أيضا، وزادتها قوة في التغلب إلى قوتها، وطلبت غاية من التغلب والتحكم أعلى من الغاية الأولى وأبعد، وهكذا دائما حتى تكافئ بقوتها قوة الدولة. فإن أدركت الدولة في هرمها، ولم يكن لها ممانع من أولياء الدولة وأهل العصبيات، استولت عليها، وانتزعت الأمر من يدها، وصار الملك أجمع لها».[252]

منطق المجتمع البدوي، في نظر ابن خلدون إذن، هو منطق المغالبة والمقاتلة والمدافعة والمطالبة لتأمين البقاء والاستمرار، ولحفظ الذات واستقلالها.[253] وهو منطق يقود بالضرورة إلى السلطة والملك؛ لأن هذا الأخير «منصب شريف ملذوذ يشتمل على جميع الخيرات الدنيوية والشهوات البدنية والملاذ النفسانية، فيقع فيه التنافس غالبا، وقل أن يسلمه أحد لصاحبه إلا إذا غلب عليه، فتقع المنازعة وتفضي إلى الحرب والقتال والمغالبة».[254]

وإذا كان الملك هو «الغاية التي تجري إليها العصبية»،[255] فإن على بالغه أن يحافظ عليه بمنطق الحرب والمغالبة أيضا؛ لذلك يؤكد ابن خلدون[256] أن «مبنى الملك على أساسين لا بد منهما، فالأول الشوكة والعصبية، وهو المعبر عنه بالجند، والثاني المال الذي هو قوام أولئك الجند (...) وإن الخلل إذا طرق الدولة طرقها من هذين الأساسين». وهكذا، فكما ربط

Scanned by CamScanner

صاحب المقدمة بين العمل العسكري والحربي للقبيلة ووجودها المادي،[257] يربط أيضا بين الطابع الحربي للدولة وبقائها واستمرارها، فكلما تخلى السلطان عن الحرب ورموزها تخلت عنه الدولة، وانتقلت لغيره ممن توفرت فيه شروط الحماية والمدافعة والمطالبة، كثرة الإنفاق في هذه المناسبة، ووجوب التزام أن.[258]

بهذا الأسلوب يجعل ابن خلدون من الحرب نقطة البداية والنهاية؛ فـ «نكد العيش وشظف الأحوال وسوء المواطن»[259] عند البدو الرحل دفعهم إلى البحث عن أسلوب للعيش وتأمين البقاء،[260] فكانت الحرب وسيلتهم ودينهم في ذلك؛ فـ«جعلوا أرزاقهم في رماحهم»،[261] واتخذوا من خلق التوحش الذي استحكم فيهم،[262] بسبب «تفردهم عن المجتمع، وتوحشهم في الضواحي، وبعدهم عن الحامية»،[263] سلاحهم لتحقيق أهدافهم. فكانوا بذلك «أقدر على التغلب واستعباد الطوائف لقدرتهم على محاربة الأمم سواهم».[264] أما نجاحهم في مقصدهم، فراجع أيضا إلى أن من يقصدونهم بالغزو والحرب «ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة، وانغمسوا في النعيم والترف (...) فلا يهيجهم هيعة، ولا ينفر لهم صيد (...) قد ألقوا السلاح (...) وتنزلوا منزلة النساء والولدان».[265]

تنتقل الجماعة الغازية من «نكد العيش، وشظف الأحوال»[266] إلى التفنن في الترف واستجادة أحوالها،[267] سلاحها في ذلك القدرة على التغلب والاقتتال. ثم تنشأ حضارة قوامها المال الذي تجمعه بقوة السلاح أو التهديد به،[268] أو بالجاه الذي اكتسبته بسلطة السيف وسطوته.[269] ويحدث أن تنغمس هذه الجماعة في الحضارة وعوائدها، وتنسى خلق الحرب والبسالة، ويتكاسل أهلها عن الحرب والتغلب،[270] ويقصرون «عن المتاعب التي كانوا يتكلفونها في طلب [الملك]، ويؤثرون الدعة والسكون».[271] وتنضب تبعا لذلك موارد الحرب وغنائمه،[272] فـ «تزيد نفقاتهم على أعطياتهم، ولا يفي دخلهم بخرجهم (...) ثم يزداد ذلك في الأجيال المتأخرة»،[273] ويزيد ذلك في أواخر الدولة زيادة بالغة، «فتكسد الأسواق لفساد الآمال، ويؤذن ذلك باختلال العمران، ويعود على الدولة، ولا يزال ذلك يتزايد إلى أن تضمحل».[274]

في واقع تطغى فيه الحرب كحال الواقع المريني، يؤكد ابن خلدون أن الطرق غير الطبيعية في الكسب والمعاش هي التي تسود، ففي العمران البدوي تبدو الصفات المطلوبة في قوى الإنتاج محصورة في الخبرة الحربية، والشجاعة والفروسية،[275] أما الفلاحة وشق الأرض وبذرها فكانت «معاش المستضعفين»[276] «مما تتناوله أيدي القهر والاستطالة»[277]؛ لذلك لم

Scanned by CamScanner

يخض فيها ابن خلدون في مقدمته الا بسطور. أما في العمران الحضري، فالصنائع والتجارات لم تكن تدر أرباحا إلا إذا اعتمدت على جاه صاحب السيف والسطوة، «فإن كان الجاه متسعاً، كان الكسب الناشئ عنه كذلك، وإن كان ضيقا فمثله».[278] لذلك كله، يؤكد ابن خلدون أن «أكثر التجار، وأهل الفلاحة في الغالب، وأهل الصنائع كذلك، إذا فقدوا الجاه، واقتصروا على فوائد صنائعهم، فإنهم يصيرون إلى الفقر والخصاصة في الأكثر، ولا تسرع إليهم ثروة، وإنما يرمقون العيش ترميقا، ويدافعون ضرورة الفقر مدافعة».[279]

ولما كانت السلطة في واقع العصر المريني، سلطة البدو والمحاربين «مثل العرب وزناتة» فإن ابن خلدون يقر أن الصنائع «قليلة غير مستحكمة الأماكن إلا ما كان من صناعة الصوف من نسجه، والجلد في خرزه ودبغه (...) وكون هذين أغلب السلع في قطرهم، لما هم عليه من حال البداوة»، وواقع الحرب والمغالبة.[280] ولكونهم «يتلفون على أهل الأعمال من الصنائع والحرف أعمالهم، لا يرون لها قيمة ولا قسطا من الأجر والثمن».[281]

استجمع ابن خلدون هذه الأفكار كلها، ولملمها بعد أن تشبع وعيه بمعطيات واقعه، وأخذت بجماع فكره، واستفزته للتفكير في العوامل الفاعلة فيه، فوجد الحرب عنصراً أساسا في هذه السيرورة. ولم يجد بدأ من أن يثبت الحرب في التعريف الذي منحه للتاريخ وعلم العمران الذي أبدعه، فقال بأنه «خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتآنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال».[282]

ثانيا: آثار الحرب في الإنتاج الأدبي

1. أثر الحرب في الشعر

من المتعارف عليه بين المهتمين بالشعر أن ما جادت به قرائح الشعراء في مغرب العصر المريني[283] لم يبتعد كثيرا عن الاتجاهات التقليدية للشعر، والمتمثلة –أساسا– في فنون المديح والفخر والرثاء والهجاء،[284] إلا أن للقاعدة استثناءات عديدة ساهمت الظروف العامة لهذا العصر في اتساعها، والميل أكثر نحو أغراضها.[285]

Scanned by CamScanner

ولا غرو، فلقد أوجدت الحروب والفتن والقلاقل مجالا واسعاً لهذه الاستثناءات؛ فبقدر ما وجد المداحون المتزلفون منها مادة ضافية لصناعتهم، صاغوا منها طرفا رائعة من التملق والأكاذيب،286 فإن مآسيها وما أفرزته من آلام وأضرار وفرت الأرض القاسية التي سلم فيها الشعور من دواعي البطن، ودوافع التملق، فعبر الشعر بصدق عن الكيان الباطني للفرد والأمة، وعن خلجات الضمير في حالات شعرية معيشة، خالية من الكلف والتكلف والتكليف.287

وإلقاء نظرة سريعة على القصائد التي احتوتها أشهر دواوين العصر، والمقطوعات الشعرية التي ضمنها بعض مؤلفي المرحلة كتاباتهم، تبين أن الحرب، بنتائجها الكارثية، وجدت سبيلها تلقائيا إلى ما نظمه الشعراء خارج أوحال الرتابة المعهودة في أدب المديح والهجاء والرثاء، فإذا بهذا الشعر يعكس على صفحة مرآته وخز الفتن والحروب في الضمير. وحسبنا دليلا على كثافة ما أنتجه الشعراء في هذا المضمار، حرص بعضهم، خاصة المقربين من السلطة المرينية، على نظم الوقائع الحربية في أرجوزات أشهرها «نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك» لعبد العزيز الملزوزي، و«رقم الحلل في نظم الدول» لابن الخطيب.

الظاهر أن موقع الحرب في الأدبيات الشعرية للمغرب المريني يتجلى عبر مستويين أساسيين:

أ. الشعر المتغني بالحروب وأمجادها

تضرب أرجوزة عبد العزيز الملزوزي مثالا بارعاً في هذا الاتجاه، فقد نظم هذا الشاعر وأمثاله من المقربين للسلطة المرينية قصائد طوالاً، حرصوا فيها على طبع غزواتها، سواء داخل المغرب الأقصى أو خارجه، بطابع «الحرب العادلة» وصبغها بالطابع الجهادي؛ فصنف دخول القبائل المرينية للمغرب الأقصى في بداية القرن 7هـ/13م ضمن الحركات المصححة للأوضاع المضطربة اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا بعد تراجع نفوذ الدولة الموحدية،288 واعتبر الشعراء بني مرين حماة المغرب، وحاملي لواء العدل، وقامعي أهل الفجور والجور.289 و لم يترددوا في تبرير عنف الغزوات التمهيدية لهؤلاء، ووسمها بالطابع الإيجابي البناء، دون أن يتمكنوا من إخفاء معالم هذا العنف، وما لزمه من ضروب التخريب والعيث والإبادة.290

وبالنظر للأهمية القصوى التي حظي بها الجهاد في الأندلس في واقع الإنسان المغربي ومخياله خلال هذا العصر، خلفت الحركات العسكرية التي قادها المرينيون اتجاه الأندلس زخما من القصائد والمنظومات، نسج فيها الشعراء صوراً عديدة عن صليل السيوف، واشتجار القنا، وصهيل الخيل، وأجواء الحروب ضداً على مسيحي إسبانيا. ونحن في غنى عن الإسهاب في إبراز دور الجهاد في الأندلس في بروز ما سمي بشعر الجهاد وأدب الحرب،[291] خاصة في المرحلة التي أعقبت هزيمة المسلمين في العقاب سنة 609هـ/1212م، وما أعقبها من انحسار للقوة الإسلامية أمام تزايد الضغط المسيحي وحروب الاسترداد النصرانية.[292]

وقد أدرك الشعراء هذه الحقيقة، فتماهوا في لبس لبوس المنتصر المتمكن من معسكر العدو. وكشفت أوصافهم للمعارك التي قادها المرينيون في الجبهات الأندلسية عن إصرار مستميت لإثبات هذه الصورة[293]؛ فتغنوا بانتصارات المرينيين، وثمنوها؛ لأنها أعادت إلى الأذهان المعارك الكبرى بالأندلس،[294] ومن الأمثلة في هذا الصدد قول أبي محمد عبد الله بن اشقيلولة، وهو ممن عاصر يعقوب بن عبد الحق:

لله جيشك والصوارم تنتضي | والخيل تجري والأسنة تشرع
من كل من تقوى الإله سلاحه | ما إن له إلا التوكل مفزع
لا يسلمون إلى النوائب جارهم | يوماً إذا أضحى الجوار يضيع.[295]

وفي كل حملة قادها الأمراء المرينيون خلال الجوازات الأربع ليعقوب بن عبد الحق نحو الأندلس، لم يتوان الشعراء في ترديد ما أحدثته جيوشهم في المعسكر المسيحي من تدمير ونهب وقتل وأسر وسبي، مما يكشف عن مظهر دفاعي، هدفه إبراز قوة الجانب الإسلامي، وعودة العز لأهل الأندلس، وإذلال العدو الذي أصبح الواقع لا يخفي تفوقه.[296] ولا شك أن في تكرار مفردات النصر والبروز في هذه القصائد، ما يفصح عن الهوس والحلم الساكنين في نفوس الشعراء نحوه.[297] فهذا شاعر متأخر قليلا عن زمن هذا البحث يقر بالهدف المتمنع والبعيد المنال الذي تغياه المرينيون في معاركهم، وتوسله الشعراء في قصائدهم، فقال:

ولولا الذي وافى به من فعاله | لما كان فيها للإله موحد
وحسبك فخراً في التصانيف وارداً | بتقييده فيها اعتنى من يقيد.[298]

Scanned by CamScanner

ومن نافلة القول، التأكيد على أن التغني بالحروب وتمجيدها، ارتبط أيضا بتماهي الشعراء في رسم صورة البطل كما نسجتها مخيلة هذه المرحلة، وتتمثل في المحارب الشجاع الجريء، الذي يقدم في المعارك ولا يدبر.[299] ولا شك أن الطابع الحربي للقبائل والدولة المرينية انعكس على مرآة شعر هذه المرحلة، فردد الشعراء أوصاف الشجاعة والفروسية والقوة كالوا بها الأمراء المرينيين، مما يكشف عن تشبع شعراء هذا العصر بقيم الحرب وتمجيد رجالاتها؛ فقد وصف الملزوزي[300] أبا بكر المريني بالنجد المطلق اليدين الذي لا يطيق أحد مبارزته ومناجزته. كما وسم ابن الخطيب[301] أبا ثابت عامر بالشجاعة، وشبهه بالأسد، ورماه بصفة سفاك الدماء. في حين أن بعضهم في وصفه للسلطان يعقوب بن عبد الحق،[302] تمم صورة البطل كما بدت لشعراء هذا العصر، فجمع بين الرفق والحلم والسياسة من جهة، وبين الشجاعة والعنف والحدة من جهة أخرى، بل إن أبا الحسن المريني أنشد يفخر بهذه القيم التي ثمنها المغاربة، فقال:

أرضي الله في سري وجهري	وأحمي العرض من دنس ارتياب
وأعطي الوفر من مالي اختياراً	وأضرب بالسيوف طلي الرقاب.[303]

عموما، وجدت الحرب التي استشرت في مغرب هذا العصر، سبيلها إلى الشعر، فأمسى الشاعر يهب فنه صوراً جديدة من الحياة اليومية المرتبطة بظروف عصره وملابساته، وأضحت الحرب ظاهرة الشعر كما كانت بالنسبة لغيره من الأصناف الأدبية.

ب. شعر الحرب والقلق الثاوي في اهتمامات مبدعيه

إذا كان الشعراء الذين تغنوا بالحروب، ومجدوا رجالاتها، لم يستطيعوا أن يصوروا في الحرب وجهها الأسود الخانق على الأقل في قصائدهم التي كانت مادتها ذات صلة بالسلطة المرينية، فإن غيرهم أنتجوا شعراً إنسانيا يضرب بعروقه في أعماق النفس البشرية، اكتسب صدق العاطفة، وروعة الفن، بل إن شعراء البلاط أنفسهم خانتهم جوارحهم في لحظات كثيرة، فانسلخوا بقوة عن دواعي البطن، ودوافع التملق، وأجاد هؤلاء جميعهم في وصف مأساة الحروب، والتعبير عن جوائحها في المادة والوجدان.

وعديد هم الشعراء الذين تجردوا للتعبير عما خالج الوجدان المغربي في شتى نبضاته من أسى وخيبة أمل مما آلت إليه الأوضاع نتيجة استفحال الحروب والفتن؛ فقد نحى البعض منحى الاستسلام لواقع الحرب الذي لا محيد عنه،[304] ونسج آخر مقطوعة يعلن فيها

Scanned by CamScanner

انسحابه من هذا الواقع الذي ملأت أرجاءه أخبار الجند، مفضلا عنه عالم العزلة والاعتكاف،305 بينما آثر غيره الدعوة إلى الهجرة بعيداً عن المغرب لما فيه من الأهوال والحروب والكروب.306

بات من الطبيعي في ظل الحروب المكثفة، والانفلات الأمني، أن يتضمن الخطاب الشعري «معرفة حربية» تشدد على مأساة الحرب وآلامها، وتضع الاعتبارات الضرورية لمنعها، لكن الشعراء جانبوا العقل، ومالوا إلى الاعتقاد بالغيبيات والخرافة؛ فقد اجتمع شعراء فاس في يوم من أيام ربيع الآخر عام 764هـ/1362م بجامع القرويين، فتكلموا في السيف الذي يعلو صومعة هذا الجامع، وأجمع أكثرهم على أنه بسبب هذا السيف «لا يبيت إنسان بفاس إلا مغموما»،307 مما يفصح عن موقف رافض لواقع السيف والقتال وسفك الدماء، وعن قلق متفاحش جراء هذا الواقع، ومما قاله أبو زيد عبد الرحمن الصنهاجي المليلي آنذاك:

ألم بفاس، ولا تسمع لقائلهم ... سيف المنار كساها ثوب مكتئب
أما ترى الشمس راقت تحت كاتبها ... والسيف أصدق أنباء من الكتب.308

والحقيقة أن هذه المواقف الرافضة والمشمئزة من الحرب وكل ما يرمز إليها، ما كانت لتتأصل في ذهنية أصحابها لولا الصورة القاتمة التي خلقتها هذه الظاهرة، وقد أمدنا الشعراء بمشاهد من هذا القبيل؛ فمما قاله ابن الخطيب309 يصف وضع الجنود والمتطوعة في هزيمة طريف (741هـ/1341م) التي «سحق الله بها المسلمين (...) وأهلكت نفوسهم»:

تراهم من هولها سكارى ... قد أشغل الروع بها الأفكار.310

ومما وقع في هذا المعنى لبعض الشعراء أثناء نكبة الجيوش المرينية بالقيروان، قول أبي القاسم الروحي من أهل تونس:

استغفر الله كل حين ... قد ذهب العيش والهناء
أصبح في تونس وأمسي ... والصبح لله والمساء
الخوف والجوع والمنايا ... يحدثها الهرج والوباء
الناس في مرية وحرب ... وما عسى ينفعها المراء.311

لم يكن موقف الشعراء لينحو هذا المنحى من التشاؤم والأسى اتجاه الحرب وطوارقها، لولا تراكم مشاهد القتل وسفك الدماء وإزهاق الأرواح، فهذا أبو محمد الأزدي المعروف

Scanned by CamScanner

بابن المرابع (ت. 750هـ/1349م) ينظم ضجراً، في رسالة بعث بها لابن الخطيب، يدعو على يوم طريف الذي ذهب بخيرة الرجال، ويصفه قائلا:

لا كان يومها الكريه فكم وكم | فيه المجلي والمصلي قد كبا
يوم لوى ليانه لم يبق لل | إسلام حد مهند إلا نبا[312]

ويضيف معزيا ابن الخطيب الذي رزئ فيها بموت الأب والأخ الأكبر، فقال:

خطب ألم فأذهب الأخ والأب | رغما لأنف شاء ذلك أو أبا.[313]

ومثل هذا الإحساس المتدفق بلهيب الشعور اتجاه من فقد في معارك هذا العصر، نجده في وصف أبي القاسم الروحي لنكبة الجيش المريني في القيروان، فيقول:

فأحمدي يرى عليا | حل به الهلك والثواء
وآخر قال سوف يأتي | به إليكم صبا رخاء
والله من فوق ذا وهذا | يقضي لعبده ما يشاء[314]

وإلى جانب ما سبق، رسم شعراء هذا العصر صورة درامية حزينة عن واقع من وقع في ربق الأسر والرق. فانبرى بعضهم لوصف هذه المشاهد والتعبير عن حالهم لحظة الأسر والسبي،[315] بينما عبر آخرون عن تضامنهم مع الأسرى في وضعيتهم المزرية،[316] بل إن أحدهم أنشد شعراً ملوّه اليأس والأسى، وكتبه من موضع أسره إلى بلده يقول لصاحبه:

لو كنت حيث تجيبني | لأذاب قلبك ما أقول[317]

واللافت للنظر في هذا السياق، أن الشعر لم يكتف بمواكبة وضع الناس زمن الحرب، وما تعرضوا له من ضروب القتل والأسر وغيرها، بل إن بعض الشعراء حبكوا بعض قصائدهم في الشوق والغياب والفرقة التي فرضها واقع الحرب على الجند وأسرهم وأهليهم؛ فقد أنشد محمد بن أحمد بن قحطبة يتشوق لأهله، متذمرا من البعد الذي اقتضاه ارتسامه في ديوان الجند والتنقل الدائم لهذا الأخير:

أليلى أن أقوت معاهد أنسنا | أقفر منها كل ماء ومعهد
وسارت بي الأظعان عسكر زائل | مناي ولا بلغت غاية مقصدي
فما يئست نفسي، ولا قطعت رجا | ولا استمسكت إلا بحبل التجلد[318]

Scanned by CamScanner

صفوة القول إن الحروب وما خلفته من انعكاسات سلبية على الفرد والمجتمع انعكست على صفحة مرآة الشعر في مغرب العصر المريني، وخلعت آثارها عليه سمة القلق المتفاحش في الأمن والرزق والوجود.

2. أثر الحرب في الزجل، الكفيف الزرهوني نموذجا

يمثل الزجل أبرز أشكال التعبير الفني الذي ساد مغرب العصر المريني،[319] فلمعت فحوله في أوساط الفئات المستضعفة، وبرعوا في هذا الفن وأصنافه، وجاءوا فيه بالغرائب، واتسع فيه للبلاغة مجال.[320] وقد عبر ابن خلدون[321] عن انتشار هذا الصنف من فنون التعبير بقوله، إن أهل فاس وغيرهم استحسنوا هذا الفن «وولعوا به ونظموا على طريقته، وتركوا الإعراب الذي ليس من شأنهم، وكثر سماعه بينهم، واستفحل فيه كثير منهم».

ونرجح أن يكون استفحال الزجل، وكثرة سامعيه في مغرب هذا العصر، راجعاً بالأساس لكون هذا الفن لامس قلوب العامة والمستضعفين، وقارب همومهم، وتوسل أساليب للتعبير عنها، فكان بذلك انعكاسا أمينا للمجتمع، والقناة التي مررت الفئات المغبونة عبرها آلامها وأفراحها، وعبروا من خلالها عن موقفهم مما يجري حولهم.[322] وقد كان للحرب التي تفشت في زمانهم، ومست آلامها الكثير منهم، نصيب هام فيما جادت به قريحة الزجالين، بل إن بعضهم عرف بما أنتجه في هذا المجال؛ ومنهم الكفيف الزرهوني الذي «أبدع في مذاهب هذا الفن»،[323] ونظم ملعبته عن «رحلة السلطان أبي الحسن وبني مرين إلى إفريقية يصف هزيمتهم بالقيروان»،[324] فكانت من أرق وأقسى ما أبدعه زجالو هذا العصر.

إن مجرد إلقاء نظرة سريعة على «ملعبة» الزرهوني، تكشف عن حجم القلق الثاوي في وجدان هذا العصر، والساكن في شعور أهله بفعل رائحة الاحتراق المنبعثة من دخان الواقع الخانق. وقد ترجم صاحبها عنف هذا الواقع بطريقة ساخرة لا تخفى معالم اليأس فيها، وسنعمد في هذا العنصر إلى سرد بعض الأمثلة من هذه «الملعبة»، والتي تكشف اختراق الزجل لواقع الحرب، وإفصاحه عن الأبعاد والمسافات التي انتهت إليها آثارها في مجتمع هذا العصر.

يميل الزرهوني إلى مشاطرة غيره ممن عاصروا زمن الحركات العسكرية المتواصلة و«حالة الحرب الدائمة» في معارضتهم لهذا الوضع، وميلهم إلى نوع من «السلم الأهلي»

Scanned by CamScanner

و«الحرب المشروعة» ضداً على الكفار المسيحيين خاصة. وقد تأكد هذا الموقف أكثر في حركات السلاطين المرينيين اتجاه الشرق، سواء نحو تلمسان أو إفريقية، والتي لقيت رفضا قاطعاً من قبل النخبة العالمة والمتصوفة.[325] وينحو الزرهوني منحى هؤلاء، فيكشف عن موقف العامة، وأكثر الشرائح الاجتماعية عدداً، وأشدهم تضرراً منها؛ فهو يعلن منذ البداية أن النصر والهزيمة مرتبطان بإرادة الله، وقدرة المخلوق –والسلطان خاصة باعتباره الراعي والمسؤول على رعيته– على تبين أوامره ونواهيه، وكأنه يعلن أن لا مكان للحرب إلا في خطوط التماس مع المسيحيين:

سبحان مالك خواطر الأمراء	ونواصيها في كل حين وزمان
إن طعناه أعظم لنا نصراً	وإن عصيناه عاقب بكل هوان[326]

والحقيقة أن الكفيف الزرهوني لم يتردد في التعبير بضجر متعال عن تذمره من تلك الحملات التي أهلكت النفوس، وغربت الرجال، وخلفت وراءهم قطاعا من الشيوخ والأطفال والنساء المنتظرين، فنجده في كل مرة يردد عبارة «ترجع الأخبار للطامة الكبرى وقضية حربنا مع العربان». وبعد أن يؤكد الأعداد الضخمة من الجنود والمتطوعة التي خرجت في جيش أبي الحسن نحو تونس،[327] يصف أحوالهم أثناء تغريبتهم بعبارات ملؤها القلق والحزن عن وضعهم ومصيرهم،[328] فيعدد ما نالوه من الجوع والخوف والمنايا، ويتسائل بسخرية لاذعة عن قدرة هؤلاء على اقتحام القيروان،[329] وإليك هذه المقاطع مما نظمه الزرهوني في هذا الخصوص.

–أحجاجا تخللوا السحرا	ودروا شرح البلاد مع السكان
عسكر فاس المدينة الغرا	إين صارت به عزايم السلطان
احجج النبي الذي زرتم	وقطعتم له كلاكل البيدا
عن جيش الغرب جيت نسالكم	المتلوف في إفريقيا السودا[330]
–إلا ناس عارين بلا سترا	وناس جافلا، لا مكان ولا إمكان
مادروا كف إسوروا الكسرا	أم كيف إدخلوا مدينة القيروان[331]
–في تلمسان جمع الجيوش واطلع	هذا والزرع كف بدا يحصاد
أمارا من شلف لمن جمع	من فقد الماء والغلا في الزاد[332]

في ظل هذه الأوضاع المزرية التي وصفها الزرهوني بكلمات بليغة، كانت النتيجة انهزاما سحيقا للجيوش المرينية أمام القبائل العربية بالقرب من القيروان، وتشتت ما تبقى

Scanned by CamScanner

من هذا الجيش بعد ما ناله من القتل والأسر، وقد عبر الزرهوني عن هذه اللحظة القاتمة بأبيات يتفجع فيها، فقال:

ما أعوصها من أمور وما شرا   لو تقرا كل يوم على الديوان
لجرت بالدم، وانصدع حجرا   وهوت الخراب، وخافت الغزلان333

ويضيف:

هذا وكثر بني مرين فقرا   فرس مهزول، وصاحب جيعان
قل لي ألصح من ينوح ومن يقرا   فوق ذا الميت، ومن يسوق الأكفان.334

أما السبب في هذه الهزيمة فيفسرها الزرهوني بدقة لا متناهية، فيكشف عن العناصر التي تزعمت التمرد، لكنه يبرر لهم تخاذلهم في نصرة السلطان؛ لأنهم غربوا وأبعدوا عن ديارهم، وقلت نفقاتهم ورواتبهم، وعانوا من الغلاء والجوع وأهوال الصحراء، وفي هذا يقول:

–وفي كل شهر من العرب يكسي   سبعين ويجد من الذهب بحمل
والعربي كالندى على الغرس   يوما تقطع عنو العطا يخذل
– والعلة الثانية دشم ومرين   وعظم الدولا القديمة البانيا
قالو ما خصنا سوى أرض الصين   لو قال قوموا لها لقلنا أيا335
– هتكنا قالوا بكثرة الرحلات   لبلاد الحر والغلا والجوع
ورواتبنا على سبو أو ردات   كرواتبنا في قابس المقطوع
ويريد عاد افتح بن رمدات   عاد وكنزها المجموع
لو قام في واد بجاية الغرا   من ثم كان يزيد فملك شان
إلا طوى البيد وطول السفرا   ورمى الناس في حلاقم الثعبان336

أما المتضرر الأكبر من ذلك كله، فهم الأطفال الذين فقدوا أباءهم، والنساء اللواتي افتقدن أزواجهن نتيجة هذه الحملة وغيرها، لذلك نجد الكفيف يذكر في كل مرة بأوضاع تلك الشرائح المتضررة، فمرة يتحدث عنها ويجمع بين مصيرها، وبين أطماع السلطان أبي الحسن في إفريقية التي أهلكت النفوس فيقول:

ولبحل هذا المطامع الغرا   يتم الأولاد، ورمل النسوان337

Scanned by CamScanner

ومرة أخرى يتحدث باسم الجنود الذين تذمروا من تلك الحملات، وأبعدوا عن أهليهم وأولادهم، فيقول:

أولادنا تيتموا بنات وبنين ونسانا ترملوا ونحن أحيا[338]

خلاصة القول إن الزجال المغربي، والزرهوني على سبيل المثال، استطاع أن يشخص الأبعاد والمسافات التي انتهت إليها آثار الحرب المتفشية في المغرب المريني أكثر مما استطاعت كتب التاريخ؛ لأن هناك حدوداً يستطيع أن يرتادها الفن في الوقت الذي يعجز عن ذلك التاريخ.[339]

3. أثر الحرب في الأمثال الشعبية

شكلت الأمثال الشعبية[340] التي صاغها المجتمع المغربي مدار الدرس للتعبير عن فلسفته في الحياة، ونظرته إلى الأمور، مرآة موضوعية وتمثلا دقيقا لعقلية هذا المجتمع ووجدانه، وجس لنبضات مشاعره الروحية، فكشفت النقاب عن موقفه من الحرب وآفاتها، وأدلت بدلوها في التعبير عما خالج الناس من مشاعر في لحظات القلق وانعدام الثقة في المصير.

بات من البديهي في ظل تفشي ظاهرة الحرب، واتساع قاعدة آثارها في المجتمع وفئاته، أن يتضمن الخطاب اليومي للعامة والمستضعفين «معرفة شعبية» تشدد على قساوة هذه الظاهرة؛ فهي في تقديرهم سبب في المآسي والآلام التي مست الكثير منهم، لذلك اعتبروا الحديث عن الجيش في مغرب هذا العصر جرا للحديث عن آلامهم، فنهوا عن الخوض فيها.[341] كما قللوا من شأن من يستصغر هذه الظاهرة ويسهلها ويبسط نتائجها.[342] بل إننا نجد أمثالا تحبذ العمل في الأرض أو الحرف أو التجارة عن الجهاد في سبيل الله، إذ يبدو أن ذلك قيل بعدما تزايدت أعداد من تخلوا عن حرفهم الأصلية والتحقوا بالجند.[343]

وبالنظر للآثار الاجتماعية الوخيمة التي خلفتها الحروب، فقد صاغت العامة تجارب تعكس خلاصة احتكاكها اليومي مع هذه الظاهرة، من قبيل التأكيد على أن المنتوج الذي يسعى الفلاح إلى تحصيله في آخر الموسم لا يسمى محصولا ما لم يحصد ويجمع في مكان آمن قبل أن تناله أيدي الجند والغصاب والمعتدين.[344] كما عبرت عن خبرة في التعامل مع الحروب والحصارات والتدبير لتلافي آثارها؛ فبينما اعتقد البعض أن التحصين كفيل بها، واللجوء إليه كاف ليمنع هجمات الأعداء فقال: «حصني ولا من يقسني»[345]، لم يتردد

البعض الآخر في التأكيد على أن «كل محصور موخود»346 مما يعكس نظرة متشائمة نحو واقع الحرب وانعكاساته.

وإذا كانت العامة أدركت أهمية قيم الشجاعة والجرأة، فثمنتها في المتصفين بها، وقالت عن الزناتيين مثلا: «لا حر إلا زناتي، ولا فرس إلا مكلاتي»،347 فقد عدت أن إبراز الشجاعة في غير محلها لا يمكن أن يخفي معالم الضعف في صاحبها، فقالت: «مواضع الجراح ما يسترها السلاح».348 كما أن قيم الشجاعة لا يمكن أن تنجي صاحبها من أضرار الحرب، إن لم يسند ظهره بإخوانه وبني عصبيته، فثمنت الكثرة وحضت عليها، وقالت مستهزئة من جيش غمارة، «بحال ميز غمارة، نفسي في كدية».349

ولا شك أن وضع الأسير وظروفه قد وشمت الذاكرة الشعبية بآلامها، فعبرت أمثال العامة عن اهتمام خاص بالأسير وحاله، بأمثال عدة، منها:

- «أمر ما على الأسير، المستنصر».350
- «غدوة مارس، وعشية أبريل، تشيب الأسير».351
- «أسير الصلح، أش له فدية».352

ويبدو أن إدراك العامة لوضع الأسير وحاله المأساوي هو ما دفعها إلى التأكيد على أن الفرار إلى الجبال، واللوذ بالمرتفعات، أحسن بكثير من الدخول في مطالبة ومدافعة لا تسلم من إمكانية الوقوع في الأسر، فقالت:

- «رجل في الجبل، أخير من رجل فالكبل».353

ومن نافلة القول، الإشارة إلى أن الأمثال الشعبية نحت منحى التنديد بالظلم، ورصد تذمر المجتمع من تصرفات الجند الذين لا يتوانون في استعمال القوة لغصب أموال الناس، والتعدي على أملاكهم.354 وقد رصدنا أمثلة في هذا الاتجاه، يبدو أنها تخص أهل الأندلس الذين تذمروا من تصرفات الجند الغازي المغربي، ومنها:

- «بحال غازي، لا ينكرك، ولا يعطيك».355
- «عطي للبربري شبر، إطلب ذراع، عطيه ذراع، إطلب مرا فاش إتمتع».356
- «كل ما يجي من الغرب مليح، إلا ابن آدم والريح».357

Scanned by CamScanner

خلاصة القول، إن الأدب كان بحق مرآة عكست آثار الحرب في المجتمع المغربي على عهد بني مرين، فقد عبر بصدق عن الكيان الباطني للفرد والمجتمع، والقلق الثاوي في النفوس من آلام الحرب ومآسيها، وكشف عن خلجات الضمير في حالات معيشة خالية من الكلف والتكلف، دون أن يهتم بإرضاء الذوق الأرستقراطي لأصحاب القرار، والمعشين المفترضين لحالة الحرب حتى تدوم.

المبحث الرابع: انعكاسات الحرب على ظاهرة التصوف والمعتقدات الشعبية

تطرح علينا دراسة آثار الحرب وانعكاساتها على المجتمع مهمة منهجية ذات وزن، إذا أردنا أن نعطي عنها صورة متماسكة وديناميية تجمع شتاتها الظاهري، فتلزمنا بطرح البعد الذاتي من هذه الآثار والترسبات، الذي يكمل البعد الموضوعي، ويتفاعل معه جدليا في حالة من تبادل الثأر والتأثير. ونقصد هنا بالبعد الذاتي ما يتعلق بالأساليب والممارسات والسلوكات التي يبدعها المجتمع لتجاوز هذه الآثار، أو للتخفيف من وطأتها على الأقل. وإذا كانت آثار الحرب في ظاهرها اقتصادية واجتماعية وسياسية، فإنها في العمق تشكل استلابا نفسيا على المستوى الذاتي لابد من الخوض فيه حتى تكتمل أمامنا الصورة.

الظاهر أن الحرب ولدت أسلوبا في الحياة ينبت في كل ميل أو توجه، وأنتجت نمطا من الوجود له معتقداته وخرافاته وأساطيره، كما أفرزت آلاماً معنوية وقلقا دائما هدم التوازن النفسي لإنسان هذه المرحلة، لذلك برزت لديه وسائل وإواليات دفاعية ضداً على القلق والخطر المهدد لوجوده المادي والمعنوي، إواليات تجعل تحمل آثار الحرب ممكنا، والاستعداد لها وتقبل نتائجها ممكنا أيضا.

وغير خفي أن الفكر الغيبي والمعتقدات الشعبية، من كرامات وخوارق وولاية وصلاح وسحر وانتحال للنبوة، والكهانة والتنجيم وغيرها، تمثل تعبيراً عن مواقف ووسائل لتجاوز الأزمات والمعوقات، لكونها تقدم للإنسان حلولا للسيطرة على الواقع بآفاته وغوائله، وتحاول أن تعالج نزعات الخوف والاضطهاد ومختلف ردود فعله الانفعالية المتطرفة التي تفرزها الحرب.358 كما تحاول أن تدخل بعضا من التنظيم والتوازن النفسي لإلغاء الاعتباطية التي يعيشها الإنسان في واقعه، وفي تطلعه للمستقبل، لكنها حلول غارقة في الخيال والخرافة، لا تعدو أن تكون من قبيل الاستكانة للقدر المكتوب، أو من قبيل تبرير الواقع باعتباره جزءاً من طبيعة الحياة نفسها التي يجب قبولها كما هي.359

Scanned by CamScanner

أولا: الآثار النفسية لحروب العصر المريني

لا يخامرنا شك في أن الحرب المستشرية في مجتمع المرحلة مدار الدرس أفرزت آلاما معنوية، وآثارا نفسية في الذهنية المتلقية لمشاهدها المؤلمة والمتكررة. وقد أثبت المتخصصون في علم النفس الحربي أن آثارها النفسية تستمد خطورتها من كونها لا تنتهي بانتهاء الحرب، بل تستمر حية في نفسية من حضرها وفعلت فعلها فيه،[360] كما صنفوا حالات عدوها من أعراض أمراض ضغوط ما بعد صدمتها.[361] وبالرغم من إقرارنا بصعوبة الكشف عن مثل هذه الأعراض المرضية أمام ضعف المادة المصدرية، وشحها في هذا المجال، وقبل ذلك صعوبة المقارنة بين حروب العصر الوسيط وحروب المرحلة الراهنة، إلا أننا لا نعدم من الإشارات التي من شأنها أن تساعد على إثارة السؤال، وتشجع على البحث في مثل هذه المواضيع.

من الطبيعي أن تفضي الحرب شبه الدائمة في مغرب حقبة هذه الدراسة إلى تشكيل واقع قاس مصبوغ بالتشاؤم، وفقدان الثقة في إمكانية الخلاص من عودها الدائم والمتكرر؛ فمشاهد الغارة والنهب والغصب للممتلكات، ومظاهر الهروب، والطرد الجماعي، والتهجير من المواطن الأصلية إلى مناطق أخرى، وحالات الإفلاس المتعددة في المال والمتوج معا،[362] فضلا عن مناظر القتل والأسر التي كانت تهدد الإنسان، وتهدد أسرته في كل حين،[363] وتراكم الانعكاسات الاجتماعية لتلك الظواهر،[364] كلها عوامل لا شك أنها ساهمت في بناء واقع مرير انعدمت فيه سبل حماية الذات، وغاب فيه الشعور بالأمن إزاء ما تشكله من تهديد.

ومن حسن حظنا، أن المصادر احتفظت بأسماء بعض من تضرر من الحرب وتوابعها؛ ويتعلق الأمر بأسرى قدرت لهم العودة إلى بلادهم، إلا أنهم لم يسلموا من تبعات التعذيب والإذلال التي تعرضوا لها في محنتهم، والتي رافقتهم إلى مواطنهم، وأضحوا يعيشون آثارها النفسية، ومن هؤلاء الفقيه علي بن عبد الله الأنصاري (كان حيا سنة 609هـ/1212م) الذي «كان محدث رواية، علالا في ما يأثره، ثقة فيما يحدث به، صحيح السماع، غير أن أصول سماعه كانت قد ذهبت حين امتحن بالأسر».[365] ويظل أفضل مثال في هذا الاتجاه، وضع الأمير تاشفين بن علي أبي الحسن المريني الذي أصيب بمرض نفسي نتيجة أسره في وقعة طريف، وفي ذلك يقر الناصري أن «نقص عقل تاشفين، [كان] من أجل الأسر الذي أصابه

Scanned by CamScanner

بوقعة طريف أيام والده السلطان أبي الحسن، إلى أن افتدي وبقي ناقص العقل، مختل المزاج».[366]

ولدينا من القرائن ما يثبت أن المشاهد التي ألمحنا إليها أعلاه ضخمت من مشاعر الخوف والرعب والقلق في نفوس من شهدها؛ فأهل مكناسة الذين عانوا الأمرين من الاقتحامات الدموية المتكررة لمدينتهم منذ بداية العصر الموحدي،[367] لم يترددوا بعد علمهم بقدوم السعيد الموحدي لاسترجاع مدينتهم من أيدي بني مرين؛ حيث كان المغرب كله قد اهتز «بقدومه خوفا من سطوته، لكون أكثرهم كان قد بايع لبني مرين»،[368] فسلموها إياه بمشاهد الاستعطاف والتذلل والتوسل إليه بوجوه أبنائهم ونسائهم خوفا من تكرار مشاهد القتل والأسر وغيرها.[369] كما أن أهل تلمسان بعد تواتر الغارات والحملات العسكرية على بلادهم أضحوا يعيشون كابوس الخوف والقلق الدائم من تجددها، وهو ما عبر عنه أبو سعيد عثمان في خطاب شفاهي بعثه مع سفيره ابن مرزوق إلى أهل تلمسان، حيث قال: «كونوا في أمان، فوالله لا يراني الله أحاصركم وأضركم ما دمت حيا، فإننا نعلم ما يكابده الضعفاء من الروع والاستعداد لأرباب الحصار».[370]

ومن غير المستبعد أن تكون الأطراف المتحاربة على وعي بما سماه البعض بـ«قصف العقول»، أو الحرب النفسية[371]؛ إذ يبدو أن إسرافها في إلحاق الأذى بالطرف المغزو، أو المهزوم كانت تهدف من ورائه التأثير في نفسية الآخرين، وزرع الرعب فيهم، وترسيخ فكرة أن إعادة التجربة تعني إعادة العقاب نفسه. ولدينا من الحجج ما يكشف عن هذا التوجه في معاملة المغلوبين؛ فنتيجة للعنف الذي ميز اقتحام الحشود المرينية لبلاد المغرب الأقصى «هابهم جميع من في المغرب من الناس»،[372] وبسبب ما ألحقه أبو بكر المريني من أذى بمن ثاروا عليه من شيوخ مدينة فاس، «ضرب الرعب في قلوب [غيرهم من الرعية]، فخشعت منهم الأصوات، وانقادت منهم الهمم، و لم يحدثوا بعدها أنفسهم بغمس يد في فتنة».[373]

وفضلا عن ذلك تثبت كثير من النصوص حرص الطرف الغالب على إذلال المغلوب لبث الرعب في نفوس غيره؛ فقد أمر يعقوب بن عبد الحق أن يطاف برأس أبي دبوس الموحدي في شوارع فاس «ليعتبر برؤيته الناس»،[374] ولمثل هذا القصد أيضا شهر يوسف بن يعقوب برأس طلحة بن علي البطوئي الذي تمرد عليه، وأمر أن يطاف به «في جميع بلاده، ويعلق على باب رباط تازة».[375] كما تذكر النصوص أن أبا سالم المريني، لما تقبض على

Scanned by CamScanner

الحسن بن عمر الفودودي الثائر عليه، طيف به على جمل أمام موكبه «فصار عبرة لمن اعتبر».[376]

ويبدو أنه كلما تراكمت هذه المشاهد، تكررت وتضخمت مشاعر العجز والقلق، فأصبح مغربي العصر المريني نتيجة ذلك في حالة تهديد دائم لحياته، صريحا كان أم مضمرا، وأضحى القلق على الصحة والرزق والأمن يلازمه على الدوام. ومعلوم أنه كلما انعدمت الضمانات المستمرة على الأمن والرزق والوجود ماضيا وحاضرا اصطبغ المستقبل بالتشاؤم، فانسدت آفاقه وفقد الإنسان الثقة بإمكانية الخلاص.[377]

وقد لا نخطئ الصواب إن تلمسنا بعض هذه الآثار النفسية المتفاقمة بين ثنايا كتابات علماء هذه المرحلة؛ فقد عبر هؤلاء عن مشاعر القلق، وغموض المصير، نتيجة استفحال الأزمة.[378] فهذا العزفي[379] يتحدث عن سكوت «العلماء عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، [وتماطل] السلطان في تغييره، فوقع الناس... في أمر عظيم». وهذا العقباني[380] يتحدث عن «زمن يستعيذ منه الأولون والآخرون». ولم يكن ابن عباد[381] أقل وضوحا في تأسفه عن «هذا الزمان الذي بلغ الغاية من الفساد»، وعلى منواله يستعيذ الماجري[382] من زمانه فيقول: «عافانا الله وإياك من هذا الزمان البشع». وقس على ذلك قول الشيخ زروق[383]: «هذا زمان الفتن والمحن»، واشتراط العبدوسي العزل «في النكاح فراراً من الولد لفساد الزمان»،[384] وغيرها من العبارات التي تكشف عن أزمة وجودية تضخمت فيها آلام الماضي، وتأزمت أوضاع الحاضر، فانسدت آفاق المستقبل القريب قبل البعيد.

إزاء هذه الأزمة الوجودية، لم يملك إنسان مغرب العصر المريني حلا سوى الغرق في الماورائيات، والتعلق بالخرافة والغيبيات، والإيمان بالخوارق، والتمسك بأوهام الخلاص السحري، وغيرها من الإيمانيات التي أسسها مجتمع هذه المرحلة في عالمه «الخيالي» كآليات دفاعية لمجابهة الواقع المأزوم،[385] وإدخال بعض التنظيم على اعتباطيته. فساد الاعتقاد بالمتصوفة والصلحاء والمجاذيب والبهاليل،[386] وترسخ الإيمان بخوارقهم وكراماتهم القادرة على دفع كل مضرة أو أذى بقدرة من الله، وتعلق الناس ببركة هؤلاء أملا في حمايتهم المادية والمعنوية من مآسي الحرب وقهرها.

ثانيا: الحرب والتصوف

لا مراء أن التصوف وظاهرة الأولياء والصلحاء،[387] تعد من أبرز الظواهر الاجتماعية التي

Scanned by CamScanner

عرفها مغرب العصر الوسيط، والمريني منه على وجه التخصيص، حيث أضحت قوة اجتماعية وسياسية اكتسحت النسيج المجتمعي، وفعلت فيه فعلها الخاص،[388] كما كان لها أثر عميق في مجرى الحياة اليومية للإنسان المغربي خلال هذه المرحلة،[389] وذلك نتيجة شروط وظروف اجتماعية وتاريخية وفرت لها التربة الملائمة للنمو والتجذر.

1. دور الحرب في صناعة المجال الحيوي لتدخل الأولياء

من الثابت لدى بعض الدارسين المعاصرين أن «التصوف إيديولوجية أزمة أنتجها مجتمع متأزم»،[390] وأن عوده يشتد ويترسخ إبان الأزمات.[391] والواقع أن ظاهرة الحرب المستشرية وما أفرزته من مشاكل اقتصادية واجتماعية ونفسية، أسهمت من جانبها في رسم معالم الشروط التاريخية لتعاظم مكانة الولي واتساع قاعدة اللاجئين إليه، وقامت بأدوار، قد تكون حاسمة في بعض الأحيان، في ترسيخ ثقافة الاعتقاد بأهل التصوف والولاية، حين فتحت مجالات واسعة لتدخل هؤلاء بالفعل أو بالرمز والتمويه لتصحيح وتنظيم بعض ما أفرزته من انعكاسات وآثار.

انتشرت في مغرب هذه الحقبة التاريخية ظاهرة التعلق بالأولياء واللجوء إليهم لاستجلاب بركاتهم،[392] وشاع الاعتقاد في الأوساط الحضرية والبدوية أن الصلحاء والصوفية هم القادرون على التوسط لدى العناية الإلهية لتتحقق الحاجات، وتعم البركات، وتسود الرحمة الإلهية على عباده.[393] كما أسقطت على هؤلاء خوارق وكرامات ساهمت الإشاعة في ذيوعها،[394] وكتب المناقب في تزكيتها،[395] فأضحى الولي قادرا على إظهار الطعام في أوان فاقة، وتفجير الماء والغيث في زمن العطش والمسغبة، وقطع مفازات خطرة في وقت قريب، وتخليص من وقع في يد عدو،[396] إلى غير ذلك من الخوارق التي عبرت عن ارتفاع حظوة الولي ومكانته، وعن قدرة خفية خارقة له في مقابل ضعف وقصور من لجؤوا إليه، وراهنوا على قدراته الأسطورية في تجاوز الأزمات واختناقاتها.

في ضوء تلك الكرامات التي منحت للولي رصيداً معنويا لا يستهان به،[397] اضطلع هذا الأخير بأدوار اجتماعية وسياسية ودينية ازدادت من خلالها ثقة الجموع بهم وتعاظمت مكانتهم الاجتماعية، وقد رددت كتب المناقب هذه الأعمال في صيغ متكررة من قبيل من «انتفع به خلق كثيرون»،[398] ومن كان «كثير الاجتهاد في قضاء حوائج المسلمين»،[399] أو «كثير الاشتغال»[400] بها، ومن كان «مغرماً بإطعام الطعام، رحيما بالمساكين، شفيقا على

المستضعفين»[401] وكلها أعمال أسهمت في تعزيز مكانتهم الاجتماعية، ورسخت من استحواذهم على قلوب العامة وعقولها، بل إن السلطة اضطرت إلى طلب ودهم والتقرب إليهم بالعطاءات، وبراءات الاحترام والتوقير.[402]

ويبدو أن الحرب أسهمت بدور رئيس في ترسيخ مكانة الولي وحظوته[403]؛ فما نسب لأوليائه من خوارق وكرامات، وقدرة خفية على دفع المضرات، وجلب المنافع، هو ما جعل الناس -ومنهم المتضررون من الحرب طبعا- يطمعون في التقرب إليهم، ويسعون إلى طلب حمايتهم، واستدرار بركاتهم في ظل الخوف الذي أضحى سيداً، عززت من وطأته ظواهر الحرب والغارة والفتن والغصب والتعدي، إلى جانب ظواهر أخرى مرتبطة بسطوة الطبيعة وكوارثها، وقهر السلطة وأعوانها.[404]

وبناء على هذه الصورة الخيرة للأولياء والمتصوفة، وللأدوار الاجتماعية التي اضطلعوا بتنفيذها، وارتباطا بالوظيفة النفسية التي كانت للممارسات الغيبية والماورائيات في ذهنية الإنسان المغربي وواقعه خلال هذه المرحلة، لم يتردد هذا الأخير في الهروب نحوها، واللوذ بها، كلما اشتدت وطأة الواقع ومآزقه. ولاشك أن المتضررين من آثار الحرب، والفلتان الأمني، كانوا من أشد المحتاجين لأمن الولي وحمايته وخوارقه لتسكين بعض من الخوف الذي اعتراهم في وجودهم المادي والمعنوي، والتدخل لصد العدوان عليهم، وحمايتهم من المعتدين والغصاب وأهل الحرب والحرابة. فشكل الولي بذلك قبلة لكل من رام الصلح بين الأطراف المتحاربة، ومن طلب حرمته من الغزو والغارة، ومن افتقد ماله، أو أفلست حرفته، أو تجارته، ومن افتقد عزيزا عليه في الأسر وغيرها من المواقف التي تدخل فيها المتصوفة، وعززت بالتبعية من مكانتهم وموقعهم الاجتماعي.

وتكشف مجموعة من النصوص المنقبية عن هذا الواقع، في تأكيدها الأمان والحرمة التي وفرها الأولياء والصلحاء لأفراد المجتمع، نتيجة الخوف الذي ألم بهم بسبب الحروب والقلاقل والاضطرابات؛ فقد تواتر الحديث في مناقب أبي مروان عبد الملك أنه كان «جواب الآفاق، ومجير الرفاق».[405] والأهم من هذا ما أورده ابن مريم[406] في ترجمته للشيخ محمد الهواري الذي قال له الصوفي سيدي منصور بن عمر الدليمي؛ «إن لي زاوية، وإن الناس يتعلقون بي طلبا للأمان على أنفسهم وأموالهم»، فرد عليه الشيخ أنه «لا ينبغي أن يتخذ زاوية، ولا يتعرض لتأمين الناس، إلا من كان محفوظا لا يقدر أحد أن يتعدى عليه وعلى حرمته... وإلا كان غاراً بالناس». وفي السياق ذاته أجاب الفقيه قاسم العقباني عن

Scanned by CamScanner

حكم إنشاء المرابط والزوايا في الطرق والمفازات، فاعتبر أن ذلك من «باب إعانة اللهفان، ودفع الفساد، عن أهل الزمان».407

ونتيجة لما سبق، تكاثر الأولياء والصلحاء، ومدعو التصوف، وأصحاب الأحوال في مغرب العصر المريني، وأضحت أرض المغرب «تنبت الصالحين كما تنبت الكلأ».408 وتكاثرت الزوايا والرباطات التي يشد الناس إليها ركابهم للانزواء بعيداً عن هموم الحرب وآفاتها، أو التماسا لبركات أصحابها، لعلها تطعمهم من جوع أو تؤمنهم من خوف.409 وبموازاة ذلك، تكاثر المريدون ومعتنقو مذهب الصوفية والصلاح، حتى قيل إن الشيخ محمد بن سليمان الجزولي (ت. 869هـ/1464م)، «ورد عليه من طالبي القرب إلى الله تعالى، وابتغاء ثوابه، خلق كثير، حتى اجتمع عليه من المريدين بين يديه... إثنا عشر ألفا وستمائة وخمسة وستون، كلهم ممن نال منه خيراً جزيلا على قدر مراتبهم وقربهم منه».410 كما «كان كثير من أصحابه أيضا تصحبه الآلاف من المريدين، وترد عليه الآلاف من الزوار والوافدين».411

عموما، فقد ساعدت ظروف الأزمة التي تعددت أسبابها، والحرب في مقدمتها، على خلق الجو الملائم لادعاء الولاية والجذب والصوفية، وكثرة مريديها واللاجئين إليها، هروبا ولوذاً بها من العجز والقلق المتفاحش في الأمن والرزق والوجود. ومن الأزمة الوجودية التي نالت من تطلعهم للمستقبل والآتي من الأيام. فكانت الأدعية والأذكار والشطحات الصوفية،412 بل وبعض السلوكات الاجتماعية غير الأخلاقية والغريبة عن قيم المجتمع وضوابطه،413 وسيلتهم لتفجير الديمومة، وتناسي الواقع المؤلم واعتباطيته. ونعتقد أن ذلك ما كان ليتم لولا الأدوار الاجتماعية الذي اضطلع الصالح بتنفيذها في مواجهة الحرب. أدوار اختلط فيها الرمزي الكرامي بالواقعي المادي، لكنها آنست الفرد، وخففت من خوفه، وأعادت بعضا من التوازن لنفسيته.

2. جهود الصلحاء في مواجهة الحرب وآثارها

لم يكن الولي والمتصوف بمعزل عن الحروب التي استشرت في بنيات مغرب هذه المرحلة وتنظيماته، ولم يقف ساكنا أمام آثارها الاقتصادية والاجتماعية على شرائح واسعة من المستضعفين والمتضررين، لكنه في الآن نفسه لم يكن يملك قوة الصد والمعالجة الضرورية لمنع هذه الحروب ووقفها. من أجل ذلك وظف الكرامة414 بكل أشكالها ورموزها للتعبير عن

Scanned by CamScanner

موقفه، ومعارضته الشديدة لاندلاع الحرب وتفشيها، كما استعمل كراماته لوقفها أو للحد من آثارها، مستندا على ما لهذه الكرامات من وظيفة نفسية بالنسبة لشرائح المتضررين.

أ. موقف معارض للحرب والاقتتال الداخلي

إذا كان التيار الصوفي في مغرب العصر المريني قد اتخذ شكل أعمال تستهدف تجاوز وضع ما،[415] فإنه يمكن القول إن الحرب بكوارثها كانت من أهم ما سعى المتصوفة إلى وقفه، والدعوة إلى نوع من السلم، لكنه سلم معتدل يضفي على الحرب بعدا أخلاقيا بدلا من استنكارها بشكل رسمي، ما دام أن الحرب في الضفة الشمالية ضداً على «الكفر» و«دار الحرب» تظل مشروعة،[416] بل هي الغاية بالنسبة لبعضهم.[417] وتبعا لذلك فإن الخطأ ليس في الميل إلى الغزو والقتال، وإنما في توجيه حرابه وسيوفه ضد المسلمين بدلا من الكفار المسيحيين.

وعلى أساس هذا الموقف، الذي يربط الحرب بجهاد العدو الكافر، أفرزت الحروب الجهادية ضداً على «دار الحرب» بالديار الأندلسية، مواقف وردود أفعال لدى المتصوفة والأولياء بالمغرب الأقصى، تجلت في المشاركة بأنفسهم في حملات الجهاد[418]؛ إذ أدى اشتداد الهجمات الإيبيرية على الأندلس، وبداية وصول طلائعها إلى السواحل المغربية في تحفيزهم على الاضطلاع بدور هام في تعبئة المسلمين للجهاد.[419] وفي هذا السياق، وصف الشيخ الولي أبو محمد صالح بالصالح الصوفي الذي «لا يفتر عن الجهاد»،[420] كما وسم الولي إبراهيم بن عيسى بن أبي داوود بميسم «المرابط المجاهد».[421]

ويبدو أن العجز الذي بدأ يتسرب إلى الجيوش المغربية أمام الحشود المسيحية قد أفضى إلى بروز كرامات للأولياء، عبرت عن قدرتهم الخفية والخارقة على نصرة المسلمين، وتحويل الهزيمة إلى انتصار[422]؛ فقد ورد في بعض مناقب أبي محمد صالح أنه «قامت الحرب في جزيرة الأندلس، وغلب الروم على المسلمين، فأخذ الشيخ سيفه وخرج إلى الصحراء في نفر يسير، ثم جلس على كثيب من الرمل، وإذا بين يديه خنازير من الروم قد ملأت البرية كثرة، فوثب الشيخ، وصار بينهم، فاستل سيفه وعلا به رؤوسها، فيضرب به الفارس فيصرعه وفرسه، وما زال كذلك حتى صرع الكثير منهم... وجاء المجاهدون بعد ذلك واكبوا على رجليه وقالوا: يا سيدنا لو لم تغثنا لهلكنا، وأقسموا له أنه لو لم يكن بين الصفين لأفناهم الكفار».[423]

Scanned by CamScanner

وبالموازاة مع نصرة كل من حمل السيف ضداً على الكفار المسيحيين، لم يتوان الأولياء والصلحاء عن إظهار معارضتهم الشديدة للحروب الداخلية بالمغرب الأقصى، وحركات السلاطين المرينيين في اتجاه تلمسان أو تونس، ويبدو أن موقفهم هذا نابع من إحساسهم بكونهم ناطقين باسم المغبونين المستضعفين،[424] الذين هدتهم الحروب، وسببت لكثير منهم متاعب اقتصادية واجتماعية ونفسية.[425] فكان حضورهم هاماً لمحاولة منع الحرب ووقف اندلاعها، وكانت دعوتهم لنوع من «السلم الأهلي»، من أهم ما نادوا به في هذا المجال.

وتطالعنا كتب المناقب والتصوف بمواقف لكثير من الأولياء في هذا الاتجاه؛ فعندما خرج عمر بن أبي بكر عن طاعة عمه يعقوب بن عبد الحق وتحرك إليه هذا الأخير، «دخل الصلحاء والأشياخ بينهما في الصلح»[426] لمنع اندلاع الحرب بينهما، ودفع الضرر على المستضعفين. وهو الموقف نفسه الذي اتخذه الصلحاء عندما خالف مسعود بن كانون السلطان المذكور، وخرج إليه هذا الأخير فتدخلوا لدى أطراف النزاع بالتضرع والترغيب لمنع نشوب الحرب بينهما.[427]

علاوة على ذلك، أعلن الصلحاء معارضتهم الشديدة للسياسة التوسعية المرينية اتجاه تلمسان وتونس، وتدخلوا في أكثر من مرة لوقفها. فقد عبر الولي أبو زيد عبد الرحمن الهزميري عن استنكاره ورفضه الشديد لهذه السياسة في زمن أبي يعقوب يوسف أثناء حصاره لتلمسان،[428] وعارض الولي أبو هادي حركة أبي الحسن نحو إفريقية.[429] ومثل هذا الموقف أبداه الشيخ أبو عبد الله الصفار أثناء حملة أبي عنان نحو تلمسان وإفريقية.[430] وقس على ذلك مواقف الرفض والتنديد الصريح التي أعلن عنها صلحاء تلمسان والمغرب الأوسط وصوفيتهما، كموقف سيدي الحسن بن مخلوف أبي علي الشهير بأبركان[431] (ت. 857هـ/1453م) وموقف سيدي عبد الله بن منصور المغراوي[432] (874هـ/1469م)، والتي تتفق كلها مع الآراء السابقة في رفضها الصريح والمباشر للحرب، والعمل بشتى الوسائل الممكنة على منعها.

وبالمثل، كان موقف المتصوفة واضحاً إزاء الفتن والحروب القبلية وغارات القبائل على المدن والقرى؛ فقد كان من عادتهم التدخل في «مفاتنة القبائل وتحزبهم للحروب، وقتالهم للغوائل، وغضبهم للعصبية»،[433] وكان من عادة الشيخ الولي أبي يعزى، ومن «علامات الهدى والتخلق بآداب العلماء، تسكينه للفتن الثوائر، وإطفاؤه لما شب الشيطان من قود النوائر».[434] وعلى أثره، مضى غيره في الصلح بين القبائل ودعوتها للسلم والعافية

«يزعمون أن ذلك طاعة لله عز وجل»[435]؛ فكان الولي كلما «هاجت الفتن بالقبائل يدعو الناس إلى العافية، فمن تأبى عنه أظهر الله فيه اعتباراً بقدرته في الحال».[436] ولا أدل على حرصهم على منع الحرب والاقتتال بين القبائل من أن الشيخ محمد بن سليمان الجزولي حين شب قتال بين قبيلتين أفضى إلى سقوط قتيل، آثر أن يدعي أنه قاتله، ليحقن الدماء، ويمنع نشوب حروب الثأر ورد الاعتبار.[437]

وتكشف إحدى الكرامات موقف الصوفية من الحرب، ومجتمع السلم الذي ينشدون تحقيقه على أيديهم، ففي تراجم «ممتع الأسماع»،[438] أن الولي أبا محمد عبد العزيز التباع أرسل شيخا إلى أحد شيوخ القبائل المحاربة يدعوه إلى التوقف عن الفتن والغارة؛ «فسار إليه وذكر له ذلك، وبات عنده، ومن الغد نزع ثيابه، ولبس ثياب الفقراء، وكسر رمحاً، وجعل منه عكازاً وقدم بين يديه جميع ما يملكه»، وتكسير الرمح هنا وتحويله إلى عكاز له دلالته الواضحة، إذ يحيل إلى الانتقال من دنيا الحرب والقتال وسفك الدماء، إلى دنيا التصوف والسلم والعافية.

ب. حضور الولي إلى جانب المستضعفين المتضررين من الحرب

من نافلة القول، إن موقف الصوفية من الحرب اكتسى في الغالب صفة الفعل، اكثر من الوعظ والقول. والفعل هنا يندرج في إطار علاقة الولي بمثيري هذه الحروب أولا، والتي اكتست فيه الكرامة صفة سلطة تعظ فتأدب وقد تنتقم، أو بعبارة أحد الباحثين،[439] تأخذ بأسلوبي الترغيب والترهيب، ويتمثل الترغيب في الحفظ على القيم النبيلة بما فيها السلم والعافية،[440] وفي إجابة دعوة الولي وقضاء حاجته. أما الترهيب فيحضر لزجر المخالفين لتلك القيم، ومنهم مثيرو الحرب والفتن. كما يندرج الفعل ثانيا في إطار علاقة الولي بالمتضررين من الحرب والخائفين منها، حيث اكتست الكرامة الصوفية صفة السلطة القادرة على حمايتهم، والانتقام لهم إن تطلب الأمر ذلك أيضا.

وتفيض كتب المناقب بنماذج كثيرة عن دور المتصوفة في التخفيف من وطأة الحروب على العامة والمستضعفين. فقد توجه الصلحاء في أكثر من مرة إلى الأمراء والسلاطين لنهيهم عن استعمال العنف والقتل أثناء اقتحامهم المدن. وفي هذا السياق تدخل الأولياء عند السعيد الموحدي لكفه عن اقتحام مدينة أزمور بالسيف، بعد أن أعلن أهلها تمردهم عليه، حين كان في فاس لمواجهة بني مرين، فطالب الأولياء من الأمير الموحدي العفو عنهم.[441]

Scanned by CamScanner

وخلال انسحاب أبي بكر المريني من مدينة مكناس أمام الأمير الموحدي نفسه، تدخل بعض المتصوفة، ومنهم الشيخ الصالح أبو علي منصور بن حرزوز، على رأس أطفال الكتاتيب القرآنية حاملين ألواحهم شفعاء لأهل مدينتهم، فقبلت شفاعتهم لمكانة الولي ونفوذه الروحي.[442]

ولا نعدم من الدلائل ما يكشف انسجام المتصوفة مع موقفهم المتعاطف مع المتضررين من الحروب، وعملهم على التخفيف من مآسيها عليهم؛ فقد روي عن الشيخ عبد الرحمن أبي زيد الهزميري أنه شق عليه ما تكبده أهل تلمسان من مشاق ومعاناة جراء الحصار الطويل الذي ضربه أبو يعقوب يوسف عليهم؛ فـ «رحل من بلده أغمات لقضاء الحاجة من أمير المؤمنين... ونيته باطنا صرفه عن ذلك الحصار، ويكف عن حصره عليهم لشدته حتى بلغ ثمن الدجاجة عشرة دنانير ذهبا للقوت، لا للدواء، وللفأر ثمن معتبر، فلم يقبل منه. فرجع إلى فاس، ونزل بجامع الصفارين (...) فبعد أيام قتل السلطان أبو يعقوب ورجع جيشه»،[443] مما يحيل إلى دعوة مستجابة للولي في السلطان بعد أن رفض وساطته في فك الحصار، ويحيل أيضا إلى عقاب دعا به الولي لصالح المتضرر منه.

وفي السياق ذاته، ونتيجة لما تمخض عن حركة أبي الحسن إلى إفريقية من مشاكل في تمويلها، اضطر فيها إلى فرض ضرائب المعونة على السكان، ومشاكل في التجنيد بسبب خروج البعض إليها مكرها، فضلا عما يمكن أن تسببه من هلاك في الأنفس والأموال، لم يتردد الشيخ ابن هادي في اللجوء إلى السلطان لصده عن هذه الحركة، ومنعه من الاستمرار فيها. إلا أن هذا الأخير رفض طلبه، فرجع الولي «إلى قسنطينة وصرف أكثر أتباعه، وتحمل في نفسه ولازم خلواته، ولغط كثير من الناس أنه متوجه إلى الله تعالى في السلطان المذكور، وكان من عاقبة السلطان بإفريقية ما كان من الفساد، وذلك بعد موت الشيخ ابن هادي بأشهر».[444]

من جانب آخر، أبدى الصلحاء والصوفية تعاطفا ميدانيا مع العامة برفضهم للسياسة الجبائية التعسفية التي ألزموا على الخضوع لها، لتمويل الحملات العسكرية للدولة ونفقات الجيش وغيرها؛ فعبروا عن رفضهم لهذه السياسة،[445] ومن الأمثلة على ذلك رسالتان بعث بهما ابن عباد إلى السلطان عبد العزيز المريني سنة 774هـ/1372م عبر فيهما عن تنديده واستنكاره لـ «رسوم الجور»،[446] وطالب السلطان بإزالتها «والاستغناء التام عما أحدث من

المظالم والمراسم والمغارم الضارة. والعائد ضررها عليكم في الدنيا والآخرة، أعاذكم الله من ذلك».[447]

ومن الكرامات المتواترة عن تدخل الأولياء في مواجهة ضرائب الحرب التي فرضتها الدولة المرينية في مراحلها الأخيرة، ما جاء في ترجمة سيدي يوسف بن عمر الأنفاسي إمام جامع القرويين (ت. 761هـ/1395م)، أن من كرامات ابنه أبي الربيع سليمان (ت. 779هـ/1377م)، ما تحدث به بعضهم أن «وزير فاس عزم على تمكيسه الديار والرباع كما فعل الوزير قبله، فطلع إليه أبو الربيع المذكور مع الفقيه القباب، فكلماه فقال: أنا متبع فيه من قبلي، فرفع أبو الربيع رأسه إليه وقال: أترى أن تكافأ بما كوفئ به من قبلك، فقال لا يا سيدي، قال القباب: فحصل لي خوف شديد منه حتى كادت الأرض تبلعني، وحصل للوزير خوف أشد وأكثر مني».[448]

وبقدر ما تعاظمت ظاهرة الحرب القبلية، وغارات القبائل المحاربة على القرى والمداشر والمدن، تعاظم دور الولي والصالح في تسكين هذه الفتن والدعوة إلى العافية، كما أشرنا سلفا. وفي هذا السياق، لم يتردد بعض الصوفية في استعمال كراماتهم لترغيب مثيري هذه الفتن والحروب، في القيم المثلى الرافضة للغصب وسفك الدماء. ومن ذلك ما حدث لشيخ من أشياخ قبائل الشاوية وعتاتها الذي صدق فيه دعاء الشيخ أبي الحسن علي صالح، أحد أولياء فاس، فتحول من محارب غاصب إلى متصوف زاهد في الدنيا وغنائمها.[449] وبين الترهيب باستعمال الدعاء بالهلاك والموت ضداً على من سولت له نفسه التغاضي عن تدخل الولي ودعوته للهدوء والسلم، حيث غالبا ما تواتر، في كرامات هذا النوع من القضايا، أن الله استجاب لدعاء الصالح فيقضي المحارب، ويهلك بسبب ذلك.[450]

وفي هذا الصدد نسوق هذه المشاهد عن تدخل الولي لمنع الحرب وانتقامه من مثيريها:

المشهد الأول: يتعلق بإحدى كرامات الولي عبد السلام بن مشيش الذي تدخل لمنع إحدى القبائل المحاربة عن الأخذ بثأر فرد لها اتهمت قبيلة أخرى بقتله، لكنهم رفضوا دعوته، فدعا عليهم الولي بقوله: «اللهم اجعل ريحهم منهم كالمقصبة، اللهم اجعل الفتنة فيهم وفي عقبهم إلى يوم القيامة»، فأحرقت مداشرهم بالطريقة التي أحرقوا بها مدشر القبيلة التي اتهمت بقتل ذلك المحارب.[451]

المشهد الثاني: يحكي إحدى خوارق الصالح محمد الشريف بن عبد الله الحسن، عندما

وقعت فتنة بين بني وانجن وبني عيسى، فغصب بنو عيسى امرأة من بني وانجن، فتوجه فيها أبو عبد الله الشريف، فوعدوه بردها، فانصرف على ثقة من ذلك، ثم بدا لهم فأمسكوها ثماني عشرة ليلة، فقيل له في ذلك، فقال: «كل ليلة أمسكوها بقتيل منهم، فقصدهم بنو وانجن في عدد قليل، وبنو عيسى في عدد كبير، فقتل منهم بنو وانجن ثمانية عشر رجلا».452

المشهد الثالث: لا يتعلق بإلحاق الولي الضرر بمثيري الحروب والفتن، بل بنفسه كعقاب لذاته على قبوله للوساطة بين قبائل محاربة غاصبة وأخرى مغبونة مغلوبة على أمرها. فعندما تغلب عرب المعقل على بلاد الريف في بداية الدولة المرينية، طلبت بعض هذه القبائل من الصالح إبراهيم بن عيسى بن أبي داوود (ت. 650هـ/1252م) أن يتوسط بينها وبين قبيلة بني ورترد قرب بادس، في مغرم يجبرون القبائل على دفعه، فقالوا له: «حاول الصلح بيننا وبينهم، وأرادوا منه الوصول إليهم، فامتنع كل الامتناع، فلما ألحوا عليه، قال اللهم لا تردني من عندهم، فتوجه إلى جماعة بني ورترد وعرفهم بما طلبه العرب منهم فأبوا من الانقياد إليهم، فكر راجعاً على الساحل فوقع في رضك النصارى، فأخذوه أسيرا، وأقام ببلاد النصارى دون الثلاث سنين».453

وبالمثل، فرضت الحرب القبلية، وغارات المحاربين على القرى والمداشر، تدخل الصلحاء والصوفية لحماية المجال، والاضطلاع بأدوار الحماية، وتوفير الأمن، وصد الغارات؛ ومن الأمثلة على ذلك ما قيل يوم وفاة الشيخ الصوفي أبي محمد عبد الصمد الدكالي بالمشرق، أنه «مات اليوم عبد الصمد الدكالي بدمشق، وارتفعت بموته حمايته عن دكالة، قالوا فما بلغ الظهر من ذلك اليوم حتى وقع النهب في أرض دكالة، وشنت الغارة عليهم حتى سبيت أموالهم».454

وفضلا عن ذلك، انتشرت ظاهرة بناء الزوايا والرباطات في المسالك والطرق لحماية المسافرين والتجار من هول الطريق وغارات القبائل والمحاربين؛ فقد أجاب سيدي قاسم العقباني عن مسألة في هذا الخصوص، فقال: «إن إقامة هذه المرابط بهذا الموضع الذي كان مأوى المحاربين ومهلكة للمسافرين من باب إغاثة اللهفان، ودفع الفساد عن أهل الزمان، وما أعظم المثوبة في ذلك... وما ذكرت من قتال من تقع منهم المفسدة، وقد يكون معهم من هو سالم من الفساد لا يفعل ذلك ولا يقدم عليه إلا بإذن الإمام».455

Scanned by CamScanner

ولا تعوزنا النماذج الكاشفة للدور الهام الذي اضطلع به الصلحاء في توفير الأمن، وحماية المسافرين من غارات المحاربين؛ فقد ورد في بعض كرامات أبي العباس بن جعفر الأنصاري السبتي (ت. 701هـ/1301م)، أن يهوديا كان في قافلة، فوقرت دابته، وتأخر عن الركب، وخاف على نفسه من المحاربين، «فنادى: يا سيدي أبا العباس، وإذا بعارض عرض للقافلة فوقفت، [قال اليهودي] وإذا بدابتي خف عرجها ولحقت بالقافلة، وخلصت من اللصوص».456 كما أن أبا زيد الهزميري كان ذات يوم في سوس، فلقيه بعض العرب، وطلبوا منه أن يعطيهم ما يملك بما فيه لباسه فرفض، وحرك بعضهم فرسه ليضربه، «فأخذت الأرض قوائم فرسه إلى الركب، فلما رأى أنها لا تتحرك نزل عنها، فلما نزل عليها ابتلعته الأرض إلى الركب، فصاح بأصحابه، فلما رأوا ما نزل به وبفرسه ترجلوا كلهم»، وأخذوا يستعطفون الولي ويطلبون عفوه.457

ونعتقد أن ما عاناه كثير من أفراد المجتمع نتيجة الحروب المتواصلة مع مسيحيي إسبانيا، ونتيجة لعمليات القرصنة والغارة التي كانت تنفذها السفن المسيحية في المناطق الساحلية، أسهم في اضطلاع الولي بدور رئيس في مساعدة المتضررين منها وحمايتهم من غاراتها؛ فأنشأوا لذلك مرابط للعبادة والجهاد في آن واحد، ومن أشهرها الرباط الذي كان يتعبد فيه الشيخ الولي إبراهيم بن عيسى بن أبي داوود،458 وكان من فضائله ما أكده بعضهم بقوله إنه «ما رأينا قط منها مكروها من النصارى».459 ولا أدل على أهمية هذا الرباط من أنه كان ملجأ للناس، يضعون فيه ودائعهم وأموالهم خشية من الغارة،460 و«كان النصارى يرونها نهاراً، فإذا قصدوها ليلا وجدوا عليها شبه سور لا يقدرون على اقتحامه، ولا يجدون له بابا».461

وإلى جانب ما سبق، دفعت كثرة عمليات السبي والأسر التي عانى منها أفراد المجتمع المغربي خلال هذه المرحلة، بضحايا هذه المأساة إلى اللجوء إلى المتصوفة لطلب مساعدتهم، بعد أن استنفدوا كل الحلول الممكنة للافتكاك من ربق الأسر.462 ولا مجال للشك أن الفقر، وغياب الإمكانات المادية لتوفير أموال الفدية463 لدى كثير من هؤلاء هو ما عجل بهم لطلب بركة أولياء الله أحيانا، ومساعدتهم المادية أحيانا أخرى.

وتمدنا كتب المناقب بنصوص كثيرة تثبت الدور الاجتماعي الذي قام به الأولياء والصلحاء في التخفيف من تبعات الأسر وقضاياه، والتدخل لصالح المتضررين منه، تارة بالدعاء والبركة، وتارة أخرى بالمساهمة الفعلية في توفير مال الفدية لافتكاكهم. وفي هذا

Scanned by CamScanner

السياق، جاء في إحدى مناقب أبي محمد صالح أن رجلا قصده بغرض النظر في فداء زوجته وأولاده المأسورين بـ «دار الحرب»، فأعطاه الوالي مائتي دينار هي ما قاطع عليهم عند من أسرهم.[464] وأورد ابن قنفذ في ترجمته للولي الشيخ أحمد بن محمد بن عاشر أن أسيرا قصده يوماً، فنظر في حاله، وأعطاه سكينا هي كل ما لديه، فباعها الأسير بالمزايدة في السوق بسبعة عشر دينار ذهبية، افتك نفسه بها من الأسر.[465]

وبالمثل لا تعوزنا البينة عمن لجأ إلى أحد الأولياء طمعاً في دعائه وبركته للافتكاك من الأسر، فأسعفه الولي بها، وقضيت حاجته؛ فقد قصد أبو العباس الزقاق الولي أبا زيد الهزميري بعد أن أسرت والدته وأخته «عسى أن يدعو لهما بالسراح»، فكان له ما أراد.[466] كما أن امرأة أسر زوجها ولها منه عدة أولاد، فضاق عليها الحال، ولجأت إلى الولي ريحان الأسود تشكو حالها، «فقال لها يجيء يوم كذا وكذا، وعين لها ذلك اليوم، فلما جاء اليوم الذي ذكره لها، جاء زوجها وقد أطلق من الأسر».[467] وقس على ذلك أيضا ما ورد في كرامات الولي علي بن عبد الله النميري (ت. 668هـ/1269م)، «أن رجلا من أصحابه أسر فسمعه الفقراء يقول، إلينا يا أحمد... وفي الغد ورد هو وأصحابه بلاد فاس».[468] وما ذكر في كرامات الشيخ أبي يعقوب ابن الشفاف أن سيدة قصدته تشكو حالها وحال يتيمها بعد أسر ابنها الأكبر الذي يعيلهما، فمسح الشيخ على رأس اليتيم، وقال له: «يرجع أخوك إن شاء الله»[469] فرجع، بل إن البادسي أكد أن بركة دعاء الشيخ ظلت تحرص ذلك اليتيم من الأسر طيلة حياته، فـ «مازال يسافر في البحر طول عمره، فما نكب قط، ببركة وضع الشيخ يعقوب يده على رأسه».[470] وثمة نصوص ضافية أخرى حول دور الأولياء في هذا المجال.[471]

وكيفما كان الحال، فقد ساهم الأولياء والصوفية بدور هام في تقديم الحلول لأزمة الأسير، بل إننا نكاد نجزم أن بعضا منهم، خاصة في شمال المغرب حيث نشطت هذه الظاهرة، قد اختصوا في قضايا الأسير ومتاعبه، وحسبنا أن أبا داوود مزاحم من أولياء بادس قد عرف بـ «جابر الكسر، والمنقذ من الأسر»،[472] كما تدوول بين الناس أن سيدة بنت عبد الغني العبدرية كانت على طريق التصوف، و«السعي في الخيرات، والقيام على أعمال البر من فداء الرقاب»،[473] وعرف عن غيرهما أنهم كانوا يقصدون «لأداء الديون، وفك المأسورين».[474]

Scanned by CamScanner

3. التبرك بقبور الأولياء للحماية، والتماس النصر في الحروب

إلى جانب الدور الهام الذي اضطلع به الأولياء في التخفيف من وطأة الحرب وآثارها، والوظيفة النفسية التي أدتها كراماتهم لخلق بعض من التوازن الوجداني للمتضرر، ساد كذلك الاعتقاد باستمرار قدرات الأولياء الخفية على دفع الضرر، وجلب المنافع حتى بعد موتهم، فشاع التبرك بقبورهم،[475] والتوسل إليهم من خلالها عن طريق السجود لها، وتقبيل التوابيت، والتمسح بالستور أو القبر ولمسه، ووقد القناديل عليه، وحمل ترابه تبركا به،[476] وغيرها من الطقوس سعيا وراء كسب شفاعة صاحب القبر في الدنيا قبل الآخرة، وأملا في إيجاد حلول للأزمات.[477]

ومن الأمثلة الدالة على صدق هذا التخريج، ما اعتقده الناس في قدرة أضرحة الأولياء وقبورهم وروضاتهم على صد الأعداء، ومنع غاراتهم عن القرى والمدن؛ فقد اعتقد بنو عيسى من جبال غمارة أن وجود روضة الشيخ إسماعيل بن سيد الناس البطوي ببلدهم تمنع عنهم غزوات أعدائهم، فأضحوا يتحصنون بداخل حصنهم «عند تغلب القبائل عليهم، فتحيط بهم القبائل من جهة روضة الشيخ إسماعيل، فإن خرج بنو عيسى عن حيز الروضة، نال منهم أعداؤهم ما شاءوا من قتل وسبي، فإذا قاموا في حوز الروضة ووصلهم أعداؤهم، نال منهم بنو عيسى ما أرادوا من قتل وسبي، فإذا تكاثرت الوفود، وراموا افتتاح الحصن والتغلب عليه، كان حد مبلغهم الروضة، ثم ينهزمون عند وصولهم، وربما كبروا عند ذلك، وقالوا يا بركة سيدي أبي إبراهيم».[478]

وساد الاعتقاد خلال هذه المرحلة أيضا بأن المدن ينبغي أن تتسور بأضرحة الأولياء قبل أسوار الحجر والطين، فحرص الناس على أن يدفنوا أولياءهم في أبواب مدنهم حماية لها من هجمات الأعداء، وتنافسوا أحيانا في من يدفن الولي بقريته أو مدينته حتى صار لبعضهم قبران أو ثلاثة، وكل ذلك للحصول على حمايتهم وحرمتهم. وحسبنا أنه في كل باب من أبواب تلمسان ضريح لولي من الصلحاء؛ ففي باب الجياد ضريح سيدي بومدين، وفي باب العقبة روضة سيدي احمد الداودي، وفي باب الزاوية ضريح سيدي الحلوي.[479] في حين افتقد باب القرمادين إلى ضريح أحد الأولياء، لذلك اختاره أحد السلاطين الحفصيين ليدخل منه، إلا أن وليا صالحا منعه من ذلك حين طلب أهل المدينة أن يحمي بابه.[480]

فضلا عن ذلك شاع الاعتقاد بقدرة أضرحة الأولياء على منح البركة والثقة والأمن في الطريق والحماية من غارات المحاربين، وقطاع الطرق، وفي ذلك يقول ابن قنفذ أنه زار قبر

Scanned by CamScanner

أبي مدين سنة 776هـ/1374م، «وكان أمر الطريق في الخوف والجوع ما مقتضاه أن كل من يقع قدومنا عليه يتعجب من وصولنا سالمين، ثم يتأسف علينا عند ارتحالنا حتى إن منهم من يسمعنا ضرب الأكف تحسراً علينا، حتى انتهى سفرنا على وفق اختيارنا»،[481] ببركة قبر الولي أبي مدين وحرمته.

حصيلة القول إن الحرب، باستفحالها في مغرب العصر المريني، وبتفاقم انعكاساتها السلبية على الاقتصاد والمجتمع، أسهمت في بروز التصوف كظاهرة اجتماعية، كبرى اعتقد الناس بالقدرة الخارقة لأبطالها على درء مخاطر الحرب وآفاتها، مما أفضى إلى اتساع قاعدة الملتحقين بالتصوف في صفوف المتضررين، بحثا عن الأمن والحماية والحرمة. لذلك بات بديهيا أن يضطلع الولي بدور خاص في هذا المجال؛ فعارض الحرب، وقاوم من أسهم في تحريكها، كما تدخل بأدوار ذات بال لحماية ضحاياها، وتقديم الدعم المعنوي ثم المادي لهم.

ثالثا: الحرب والخرافة

لم يكن الفكر الصوفي والاعتقاد في خوارقه وكراماته، سوى جزء من المعتقد الشعبي الذي آمن –نتيجة للظروف التي شرحناها في بداية هذا المبحث– بأفكار غيبية تعود إلى ظاهرة الخوف والاعتباطية التي عاشها أفراد المجتمع المغربي في هذه الحقبة التاريخية، وشكلت بالنسبة إليهم وسيلة للهروب من واقعهم المأزوم، وأسلوبا لتجاوز الأزمات والاختناقات التي كانت الحرب من أهم مسبباتها، فساد الاعتقاد أيضا بخوارق المنجمين[482] والكهان[483] والسحرة[484] والحرازين،[485] وانتشرت ظواهر التنبؤ بالغيب،[486] إن بفك رموز كتف الشاه ودلالاته،[487] و«الأجسام الشفافة من المرايا وطساس المياه، وقلوب الحيوان، وأكبادها وعظامها»،[488] أو بفك خطوط الرمل أو الجداول،[489] أو بمخاطبة الجن والأرواح،[490] وغيرها من الظواهر المستندة إلى الاعتقاد في القدرات الخفية والخارقة لبعض الناس على قراءة المستقبل، ودفع الأذى والضرر، أو جلب المنافع.[491]

ولعل المطلع على متون المرحلة مدار الدرس، وبخاصة كتب الفلك والتنجيم، ومصنفات النوازل والأحكام، يلحظ مدى حضور الحرب في مجمل القضايا التي أرقت أفراد المجتمع، وسعوا إلى إيجاد حلول لطوارقها وتبعاتها الاقتصادية والاجتماعية في تلك المعتقدات، والغرق في إيمانياتها وخوارقها. فكيف كانت إجابات المنجم والساحر

Scanned by CamScanner

والعراف والمعتقد الشعبي عامة على هذه المستعصيات؟ وأي حلول قدمت لدرء مخاطر الحرب ومعالجتها؟

1. التنبؤ بأيام الحروب والسلم

يخيل إلينا أن أهم ما سعى الإنسان إلى إيجاد حلول له عند المنجم والعراف والكهان هو توقع وتبين أيام الحرب من أيام السلم، وبالتالي الاستعداد لها، ودرء ما أمكن من نتائجها. من أجل ذلك اشتغل المنجمون في تحديد وقت وقوع الفتنة والحرب بمراقبة «كوكب السلطان وطالعه»،[492] واعتبروا أن كوكب المريخ «يدل على القواد والأجناد والقتال والبطش»،[493] فجعلوا من اقتراب كوكب آخر منه بداية للحرب والفتن.[494] وكان للسلاطين بسبب ذلك منجمون رسميون يعملون لصالحهم، ويعرضون عليهم ما يرونه في حركات النجوم وطوالعها.[495] كما اعتقد العامة في قدرة هؤلاء المنجمين على إصابة الحقيقة، وتبين الغيب من الآتي من الأيام، فقد ذكر الكفيف الزرهوني[496] أن أحد المنجمين، شاهد في حركات الكواكب أن أبا الحسن المريني سينهزم في وقعة القيروان.

ونتيجة لفقدان الثقة في المستقبل، وللأزمة الوجودية التي خلقتها طوارق الحرب ومشاكلها، فجر الإنسان المغربي ديمومته في ظواهر مثل الاعتقاد في الفأل، وقوة بعض الأسماء والأجسام، والتطير لرؤية بعضها، فقد ذكر ابن أبي زرع[497] أنه أثناء خروج السعيد الموحدي في اتجاه تلمسان لمواجهة بني عبد الواد (646هـ/1248م) «سار خطوات، فانكسر لواؤه المنصور الذي يحمل أمامه، فتطير به فرجع ونزل، ولم يرتحل ذلك اليوم حتى إلى الغد». كما يذكر ابن عذاري[498] أنه أثناء خروج أبي دبوس الموحدي لقتال بني مرين (666هـ/1269م) «كان نزوله يوم خروجه من مراكش بالبحيرة الشهيرة ببولحرب، فكان فألا له ذلك الموضع، فإنه لم يزل طول مدته في هول وحرب». ويخبرنا ابن الأحمر[499] أن كثيرا من طلبة فاس وأدبائها اجتمعوا ذات يوم من عام 764هـ/1362م بجامع القرويين للتناظر في السيف الذي بأعلى صومعة القرويين، ولم جعل هناك «فقال قائل: جعل طلسما على البلد، لما كان عليه الناس حينئذ من الافتتان على الأمراء وقلة الانقياد، ولأجل ذلك لا يبيت إنسان بها إلا مغموماً».

2. التنبؤ بحال الوضع الاقتصادي والاجتماعي زمن الحرب

ليس غريبا أن تنتشر، في وسط مجتمع ذي بنية اقتصادية تتهددها الحرب والفتن، المزاعم

Scanned by CamScanner

الشعبية بقدرة بعض الناس على التنبؤ بحال الوضع الاقتصادي والاجتماعي في مستقبلهم من حيث حضور الحرب أو غيابها، وتبعاً لذلك الغلاء أو الرخص في الأسعار،[500] وهو ما يميط اللثام عنه فتوى لابن رشد، بالرغم من أنها متقدمة عن زمن هذا البحث، إلا أن لها أهمية خاصة، جاء فيها أن «معرفة ما يستتر الناس به من أسرارهم، وما ينطوون عليه من أخبارهم، وما يحدثه الله من غلاء الأسعار ورخصها، ونزول المطر، ووقوع القتل، وحلول الفتن وارتفاعها، وغير ذلك من المغيبات، إبطال لدلائل النبوات، وتكذيب للآيات المنزلات».[501] لكن الناس لم يأخذوا آراء الفقهاء بمحمل الجد، بل تابعوا سبلهم في توقع مصائرهم ومصير أرزاقهم كأسلوب للتخفيف من وطأة الخوف من المستقبل، وما تحمله أيامه لهم من مفاجآت كان فيها لتضخم آلام الماضي، وتأزم الحاضر، دور هام في صبغها بطابع السلبية وفقدان الثقة.

ولا تعوزنا الدلائل الكاشفة لهذا الواقع وغيبياته، ومنها «ما اجتمعت عليه جماعة [من المدركين للغيب] (...) أنه مهما خرج خارجي على ملك، وكان الظفر للخارجي، فإنه يكون بأثره غلاء لا يشك فيه، بشرط أن تقع بينهما حرب، وعلى قدره يكون، وبطوله يطول ويرتفع السعر».[502] ويضيف ابن هيدور[503] أنه اعتبر ذلك مرارا فوجده صحيحا. ومن ذلك أيضا تخصيص بعض المنجمين لصورة فلكية مرتبطة بعلاقة الفلاح بالحرب، ووضع فلاحته طيلة السنة من حيث حضور الحرب أو غيابها، بالتبعية نجاح الموسم الفلاحي أو فشله.[504] وقس على ذلك توقع الإفلاس لمشتر، أو بائع في تجارة،[505] وتوقع الهبوط أو النزول في المراتب والخطط السلطانية لكاتب أو صاحب خطة.[506] وغير ذلك من الغيبيات التي اعتمدها المغربي لإيجاد نوع من التوازن في حياته في ظل التقلب السياسي والأمني.[507]

ومما يثبت ذلك أيضا، اعتقاد العامة في بعض الظواهر الطبيعية، وما تعنيه بالنسبة إليهم من حقائق متوقع حدوثها من قبيل خسوف القمر،[508] أو دوي الرعد في يوم محدد من السنة،[509] أو دخول السنة بيوم الجمعة أو الاثنين أو السبت،[510] وغير ذلك من العلامات التي اعتقدوا أنها تحيل إلى ما سيحدث في السنة من ظواهر كالحرب والغلاء وكثرة الموتان وغيرها.

Scanned by CamScanner

جدول رقم 14: عينة من المعتقدات الغيبية التي تحيل إلى ما سيحدث في السنة من ظواهر

العلامة	المعتقد الشعبي الذي يناسبها	المصدر والصفحة
دخول السنة بيوم الجمعة	خلاء السنة من الحروب والفتن	«ملعبة»، ص: 145-147-148
دخول السنة بيوم السبت	سفك كثير للدماء، وأحقاد وفتن	المصدر نفسه، الصفحة نفسها
دخول السنة بيوم الاثنين	حصار يتبعه فرج ونصر وتمكين	المصدر نفسه، الصفحة نفسها
رعد في أول شهر يناير إلى نصفه	سنة لا خير فيها	«أمثال العوام»، ج. 1، ص ص: 249-248
رعد في أول شهر فبراير إلى نصفه	فتن وحروب وغلاء في الأسعار	المصدر نفسه، الصفحة نفسها
رعد في شهري أبريل ومايو	فتنة وهرج وفساد في الطعام	الطغنري: «زهرة البستان ونزهة الأذهان»511، ص: 37-39
رعد في اليوم الثالث من أكتوبر	غلاء في الأسعار	المصدر نفسه، الصفحة نفسها
هلال مائل في أبريل ومايو	كثرة الموتان	المصدر نفسه، الصفحة نفسها
هلال مائل في يونيه	كثرة الموتان	المصدر نفسه، الصفحة نفسها
خسوف القمر كله	هزيمة في حرب	«الذخيرة السنية»، ص: 71

3. التماس النصر في الحرب والحماية من الموت بالأدعية والتعاويذ

ارتباطا بطبيعة العلاقة بين القبائل التي حكمتها الحرب في معظم أبعادها، ونتيجة لكثرة ما أفضت إليه غارات القبائل بعضها على بعض من آثار سلبية، سادت بين القبائل اعتقادات غيبية بالسحر والجن وغيرها، وتوظيف بعضها في تحقيق النصر، أو تبين الهزيمة، والعمل على تفاديها، فقد عرف عن قبائل غمارة أنها كانت تستغيث في حروبها وقحوطها بدبو الكاهنة.512 كما تحدث أحد الجغرافيين513 عن قبائل بني ورسيفان الذين كانوا «إذا أرادوا مباشرة الحرب تقربوا بذبح بقرة سوداء للشماريخ، وهم عندهم الشياطين (...) فإذا غذوا للقتال توقفوا حتى يروا زوابع الريح، فيقولون قد جاءت الشماريخ أولياؤكم لينصروكم، فيحملون عند ذلك فينتصرون بزعمهم». كما اعتقد البعض بقدرة بعض الأدعية والتعاويذ على منع الحرب بين القبائل، وقطع دابر الفتنة؛ فقالوا «إذا كانت خصومة بين قوم فأردت الصلح بينهم فصل ركعتين، واقرأ بهذه الأسماء، ثم ادع بدعائها، ثم قل عقدت ألسنتكم وقلوبكم، وقطعت شحناءكم وإدباركم بهذه الأسماء وبهذا الدعاء».514

ونظرا لكثرة القتل وانعدام الثقة في المصير، خاصة خلال خوض المعارك والحروب، ساد الاعتقاد ببعض الأمور الغيبية التي تقي المحارب من القتل، وتمنع عنه عدوه؛ فقد شاع بين الناس أن من قرأ بعض الأدعية «في التراب ورماه في وجه العدو انهزموا».515 ومن نقش

Scanned by CamScanner

حروفا معينة «في صحيفة من نحاس أحمر، وحمله الشخص معه، كان منصوراً على الأعداء في الحروب»،516 ومن وضعها في تميمة من «عقد الحرير، فتح البلدان، ولا يقدر أحد على حامله في حرب ولا قتال».517 ومن تلك الأدعية الغريبة التي تدوول استعمالها في الحروز والتمائم: «صل الله باسمك الأعظم، وجلالك الأفخم، وسلطانك الأقدم (...) أن تجعل الألف المستقل ركن تالص، والحرف الهوائي قبالة وجهة توجهي، والميم النوراني المحيط والسين الفاعل الشعشعاني البسيط، درع تحصني من المخاوف (...)»،518 وغير هذه الأدعية كثير!

كما ساد الاعتقاد في بعض الجواهر الكريمة، وقدرتها على منع الموت عن حاملها، فأصبح الناس يتنافسون في ترصيع سلاحهم بها؛ فقد شاع بين العامة أن حجر الجمشت «يشجع لابسه في الحرب».519 وعرف عن جوهر الفيروز أن الناس «يجعلونه في حلي أسلحتهم، ويتختمون به كثيرا (...) ويتغالون فيه لأجل ما ذكر من خاصيته في دفع القتل».520 والأمر نفسه قيل عن حجر عين الهر القريب من الماس والمعروف عنه، «أنه إذا كان في يد رجل، أو معه، وحضر مصاف حرب، ثم هزم حزبه بحيث لا ينجيه إلا الفرار، فألقى نفسه بين القتلى، رآه كل من يمر عليه من أعدائه كأنه مقتول متشحط بدمه، فتنفر عنه النفوس حتى لا يقربه بشر منهم».521

ويبدو أن الإنسان المغربي وجد لنفسه بعضا من المواساة في كثير من الاعتقاد بقدرة بعض أساليب الشعوذة والخرافة على درء مخاطر الحرابة والفلتان الأمني الذي ساد معظم سنوات هذه المرحلة، وأسهم في تضخم مشاعر العجز والقلق لديه إزاء المستقبل والمصير؛ فقد تحدث ابن الحاج عمن كانوا «يتركون تنظيف البيت وكنسه عقب سفر من سافر من أهلهم، ويتشاءمون بفعل ذلك بعد خروجه، ويقولون إن ذلك إن فعل لا يرجع المسافر»،522 كما اعتاد البعض أن يخرجوا إلى توديع المسافر «فيؤذنون مرتين أو ثلاثا، ويزعمون أن ذلك يرده إليهم».523 ويورد ابن ميمون524 أبياتا شعرية يذكر أن من قرأها ثلاث مرات عند مصافحته للمسافر أثناء الوداع، «وتكون يده حال القراءة متلاصقة بيديه، فإنه يمشي محفوظا بإذن الله حتى يرجع سالماً».525 وتحدث أيضا عن تعاويذ وأدعية كان الناس يقرؤونها في الطريق كلما تبدى لهم محارب، أو سارق، أو غاصب، فتمنعه عنهم.526

وإلى جانب تلك الأدعية والتعاويذ، اشتغل المنجمون بتوقع مصير المسافر، والبحث في إمكانية عودته من عدمها527؛ فخصصوا للمسافر طالعاً ينظرون من خلاله إلى حال الفلك

Scanned by CamScanner

وتحولاته، ليفتوا عليه في أحوال الطريق وطوارئها.528 كما نظروا لأهل المسافر في طالعه إن كان مقيما بالبلد الذي خرج إليه أم أنه عاد منها إليهم،529 وإن كان سليماً معافى أو ميتا مقبوراً.530 كما تحدثت بعض النوازل عمن كتبت لزوجها الغائب كتاب (حرز) استعطاف لدى بعض المشعوذين رجاءً في عودته.531 وورد في بعض كتب التنجيم أن من الناس من لجأ إلى المنجمين والعرافين لمعرفة مصير الأسير وأوضاعه، وإمكانية افتكاكه من أسره.532

خلاصة القول إن الإنسان المغربي خلال المرحلة مدار الدرس قد توسل أساليب عدة للسيطرة على واقعه الحافل بالحروب والأزمات، لكنها أساليب خرافية كشفت عن عجز وقلق متفاقم أمام تضخم نتائج الحرب وانعكاساتها. وبقدر ما استفحل انكفاؤه على ذاته، واطمئنانه إلى حلول المنجمين والعرافين، وظواهر الفأل والرؤيا وغيرها، أسهم ذلك في اتساع قاعدة المشعوذين والمشتغلين في أحلام الناس وأمانيهم، ولا نستبعد أن يكون هؤلاء بدورهم ممن أفلستهم الحرب، أو عطلت مجالات عملهم الطبيعية.

---

1 جاستون بوتول، الحرب والمجتمع، ص ص، 85.

2 الإشارة في تدبير الإمارة، ص، 147.

3 ابن هذيل، تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس، مخ.خ.ع، الرباط، رقم 904 د، ص، 62.

4 المصدر نفسه، ص، 64.

5 المصدر نفسه، ص، 65. التذمري، فضل الخلافة، ص، 30–32. مجهول، مخطوط الحرب، ورقة، 49.

6 راجع، ابن هذيل، تحفة الأنفس. مجهول، مخطوط الحرب. مجهول، رسالة السائل والمجيب وروض نزهة الأريب، [كتبها مؤلفها لأبي زكريا، يحيى بن زيان بن يغمراسن]، مخ.خ.ع، الرباط، رقم 1138د، رقم الميكروفيلم 4919–B64.

7 العمري، مسالك الأبصار، ص، 112.

8 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

9 ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج. 2، ص، 437.

10 العمري، مسالك الأبصار، ص ص، 111–112. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج. 4، ص ص، 423–424.

11 المقري، نفح الطيب، ج. 1، ص، 453. مارمول، إفريقيا، ج. 2، ص ص، 47–48.

12 قالت العامة تمجد شجاعة الزناتي، «لا حر إلا زناتي، ولا فرس إلا مكلاتي»، الزجالي، أمثال العوام، ج. 2، مثل رقم 1985، ص، 457.

13 وهو ما عبرت عنه بعض الأمثال الأمازيغية، فقالت، «أوكرن وينا موتين، وينا درنين» (أمواتنا أكثر من أحيائنا)، حميد تيتاو ومحماد لطيف، ملامح من التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لقبائل آيت عطا من خلال أمثالها، مساهمة في تدوين الأمثال الأمازيغية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2003، مثل رقم 296. وقالوا أيضا، «إبريرن س إبرزن آر ربي» (أبدا لن يغيثك غير الشجعان)، مثل رقم 405.

14 إبراهيم القادري بوتشيش، تاريخ الغرب الإسلامي، ص، 25.

Scanned by CamScanner

- Cheddadi (A), "Le système du pouvoir en Islam", *op. cit.*, p. 542.

15 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 77.

16 المصدر نفسه، ص، 3.

17 المصدر نفسه، ج. 6، ص، 43.

18 ابن خلدون، المقدمة، ص، 310.

19 المصدر نفسه، ص، 99.

20 المصدر نفسه، ص، 100.

21 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 3.

22 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 25. ووسموا بـ «الفرسان الشجعان»، ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج. 4، ص، 480.

23 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 286.

24 ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص، 37–39.

25 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 55.

26 المصدر نفسه، ص، 108. وانظر أوصاف أخرى من هذا القبيل عند المؤلف نفسه، ج. 1، ص، 53–82–170–196–337–357.

27 ابن الأحمر، روضة النسرين، ص، 27. مجهول، ذكر تاريخ مراكش، ص، 343.

28 المصدر نفسه، ص، 31.

29 ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص، 73.

30 ابن الأحمر، روضة النسرين، ص، 73.

31 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 10–59–64. الأنيس المطرب، ص ص، 289–291. الملزوزي، نظم السلوك، ص ص، 72–73. ابن الخطيب، شرح رقم الحلل، ص، 237. ابن بطوطة، الرحلة، ص، 665. ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ق1، ص، 103. ق 2، ص، 508.

32 المقدمة، ص، 310.

33 ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص، 116. محمد أعفيف، مساهمة في دراسة التاريخ الاجتماعي والسياسي لواحات الجنوب المغربي، توات في القرن XIXم، رسالة لنيل د.د.ع، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1982، ص، 173.

34 محمد أعفيف، المرجع نفسه، ص، 173. محمد ياسر الهلالي، مجتمع المغرب الأقصى، ص، 387.

35 حاييم الزعفراني، ألف سنة من حياة اليهود، ص، 158. ومثل هذه الصورة نجدها في الأمثال الأمازيغية، فقالوا، «أسار يوربي ووداي الغيمت» [أبدا لن يحوز اليهودي غنيمة]، حميد تيتاو ومحماد لطيف، ملامح من التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، مثل رقم 462.

36 ابن الأحمر، روضة النسرين، ص، 55.

37 مارمول، إفريقيا، ج. 2، ص، 145.

38 نفاضة الجراب، ج. 2، ص ص، 326–327.

39 إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص، 236.

40 المقدمة، ص، 105.

41 المصدر نفسه، ص، 113.

42 الملزوزي، نظم السلوك، ص، 72.

43 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 64.

Scanned by CamScanner

44 لذلك قال أحد المصنفين، «الشجاعة لمن كانت له الدولة»، وهي من الحكم المتواترة في هذا المجال، التذمري، فضل الخلافة، ص، 32.
45 ابن هذيل، تحفة الأنفس، ص، 65.
46 المقدمة، ص، 134–109–110.
47 إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص ص، 120–121.
48 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 278. الذخيرة السنية، ص، 13. الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 123.
49 إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص، 120.
50 انظر على سبيل المثال، ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 10–64. الملزوزي، نظم السلوك، ص، 73. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج. 4، ص، 421.
51 ابن الأحمر، روضة النسرين، ص، 37.
52 إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص، 120.
53 محمد عابد الجابري، العصبية والدولة، ص، 258.
54 المقدمة، ص، 102.
55 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
56 محمد عابد الجابري، العصبية والدولة، ص ص، 266–267.
57 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ص، 286–287.
58 الوراق، مناقب سيدي عبد السلام بن مشيش، ص، 247–284. وفي الأمثال الأمازيغية، «يثايت أمي ياناي أنطليب نس» [نظر إليه، كما ينظر صاحب الثأر إلى مطلوبه]، حميد تيتاو– محماد لطيف، ملامح من التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، مثل رقم 927.
59 مصطفى أبو ضيف أحمد، أثر القبائل العربية، ص ص، 235–236.
60 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 13.
61 نفاضة الجراب، ج. 2، ص، 89.
62 الونشريسي، المعيار، ج. 2، ص، 116.
63 ابن عرضون، مقنع المحتاج، ص، 18. وانظر للمقارنة مع بلاد المشرق الإسلامي، عبد الهادي عباس، المرأة والأسرة في حضارات الشعوب وأنظمتها، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط. 1، 1987، ج. 1، ص، 396.
64 إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين ، ص، 35. عبد الله حمودي، الانقسامية والتراتب الاجتماعي، ص، 196.
65 محمد عابد الجابري، العصبية والدولة، ص، 29.
66 ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص، 310.
67 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 196.
68 ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص، 43.
69 المصدر نفسه، ص، 40.
70 المصدر نفسه، ج. 7، ص، 77.
71 انظر الجدول رقم 2، حول عدد ما تتوفر عليه كل قبيلة من المحاربين من خلال وصف إفريقيا، للحسن الوزان.
72 إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، ص، 41.

Scanned by CamScanner

[73] المرجع نفسه، ص، 44. وانظر عن استمرار هذا التصور إلى يومنا هذا، المختار الهراس، **الرئيسي والثانوي في الأسرة المغربية**، ضمن **الأسرة والطفل في المجتمع المغربي المعاصر**، منشورات عكاظ، جمعية موظفي كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1992، (69-77) ص ص، 70-71. كنزة لمراني العلوي، **الأسرة المغربية، ثوابت ومتغيرات**، سلسلة معالم، التجديد للنشر والتوزيع، الرباط، 1986، ص، 57-63.

[74] جاستون بوتول، **الحرب والمجتمع**، ص، 91. باربرا ويتمر، **الأنماط الثقافية للعنف**، ترجمة ممدوح يوسف عمران، سلسلة عالم المعرفة، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع. 337، مارس، 2007م، ص، 23.

[75] ابن هذيل، **عين الأدب والسياسة**، ص، 65.

[76] مجهول، **سيرة أجواد الأنجاد في مراتب الجهاد**، حقق بعض صفحاته محمد العربي الخطابي، **الخيل والفروسية في مؤلفات الأندلسيين**، مجلة الأكاديمية، المملكة المغربية، ع. 8، دجنبر 1991، ص، 87.

[77] نقلا عن ثريا برادة، **الجيش المغربي**، ص، 177.

[78] قالت العامة في هذا الصدد، «هم البنات للممات»، الزجالي، **أمثال العوام**، ق 1، ص، 243. وأيضا، «من كثر بنات، كانوا الكلاب ختان»، المصدر نفسه، ق 2، مثل رقم 1446. وأيضا «وي على من مات وخلى سبع بنات»، المصدر نفسه، ق 2، مثل رقم 1965. كما عبرت الأمثال الأمازيغية عن هذا بقولها، «فغ أبو تشيراتين، أد إيغجدام بويشبران» [قم يا أبا البنات، ليجلس أبو البنين]، حميد تيتاو ومحماد لطيف، **ملامح من التاريخ الاقتصادي والاجتماعي**، مثل رقم 766.

[79] راجع محمد ياسر الهلالي، **نظرة المجتمع للمرأة**، ص ص، 76-98.

[80] ابن خلدون، مصدر سابق، ص، 99.

[81] ابن الأحمر، روضة النسرين، ص، 55.

[82] الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 258. وانظر أيضا عن العصر المرابطي، إبراهيم القادري بوتشيش، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين**، ص، 44. والحقيقة أن هذا التصور لم يكن خاصا بمجتمع المغرب الأقصى ولا بالمرحلة التي ندرسها، بل عرفته مجتمعات مختلفة حتى قبل الإسلام، بقول تعالى، ﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون﴾، سورة النحل، الآية 58-59.

[83] الدرعي، **الأجوبة الناصرية**، ص، 98.

[84] ابن عباد، **الرسائل الكبرى**، ص، 203.

[85] السوسي، **نوازل السكتاني**، ص، 162.

[86] ابن خلدون، **التعريف بابن خلدون**، ص، 225.

[87] القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج. 5، ص، 401.

[88] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[89] وإن كنا لا نملك ما يؤكد أن هذه الأسماء قد تدوولت بشكل كبير خلال الفترة مدار الدرس، فالمادة المعتمدة في هذا الصدد تتوزع على مراحل متعددة خلال العصر الوسيط.

[90] ابن مريم، البستان، ص، 227.

[91] الوراق، **مناقب سيدي عبد السلام بن مشيش**، ص، 247.

[92] ابن الآبار، **معجم**، ص، 260.

[93] مثل أبي عنان فارس (751-759هـ).

[94] ابن الزبير، **صلة الصلة**، ق 4، ص، 53.

[95] البادسي، **المقصد الشريف**، ص، 50.

Scanned by CamScanner

96 ابن الآبار، معجم، ص، 197.

97 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

98 أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، ص، 221.

99 ابن الآبار، التكملة لكتاب الصلة، ص، 64.

100 ابن القاضي، درة الحجال، ج. 3، ص، 13.

101 لا نميل في هذا العنصر إلى وصف الملبوس اليومي للإنسان المغربي وتفاصيله وتفصيلاته، بقدر ما نهدف إلى البحث عن المظاهر الحربية فيه. وانظر للتفصيل في مظاهر اللباس بالمغرب الأقصى، محمد مقر، اللباس المغربي، من بداية الدولة المرينية إلى العصر السعدي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، المملكة المغربية، دار ابي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط. 1، 1427هـ-2006م، ص ص، 97-291.

102 إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، ص، 75.

103 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

104 حدده البعض في عمائم طوال رقاق قليلة العرض من كتان، وفوقها إحرامات من الجباب تلقى على الأكتاف، وأخفاف في الأرجل تسمى الأمقة والمهاميز، ومضمات تشد على المناطق خاصة في حالة الاستعراض أو الحرب، وسيوف تقلد تقليداً بدويا. راجع فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص، 141. القلقشندي، صبح الأعشى، ج. 5، ص، 198. محمد مقر، اللباس المغربي، ص ص، 200-202، 220-240. محمد المنوني، ورقات، ص، 102. علي الماحي، المغرب في عصر أبي عنان، ص، 157-261. إبراهيم حركات، معالم من التاريخ الاجتماعي، ص ص، 232-233.

105 الحلال والحرام، ص، 66-65-69-91.

106 فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص، 142. القلقشندي، صبح الأعشى، ج. 5، ص، 198.

107 راجع المبحث الرابع ضمن الفصل الأول من الباب الأول، وكذا ما وقفنا عليه في المبحث السابق.

108 راجع المبحث الثالث من الفصل الثاني ضمن الباب الأول.

109 المقدمة، ص، 116.

110 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

111 المجيلدي، كتاب التيسير في أحكام التسعير، ص، 453. عبد الله المغيلي، تأليف فيما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار، ص، 212.

112 استنادا إلى قول العمري أن زي القضاة والكتاب وعامة الناس يشبه زي أهل السيف إلا في عدم تقلدهم لهذا الأخير، مسالك الأبصار، ص، 142.

113 ومن ذلك قول ابن عبدون، في مرحلة متقدمة عن زمن هذا البحث، على أنه «يجب أن لا يمشي أحد في المدينة بسلاح؛ فإن ذلك داعية إلى الفساد لا سيما البربر، فإنهم قوم إذا غضبوا قتلوا وجرحوا»، ثلاث رسائل في الحسبة، ص، 28.

114 العمري، مسالك الأبصار، ص، 148. إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص، 88-89-91.

115 القلقشندي، صبح الأعشى، ج. 5، ص، 201.

116 ابن هذيل، تحفة الأنفس، ص ص، 156-157.

117 المصدر نفسه، ص، 157.

118 المصدر نفسه، ص، 156.

119 يتعلق الأمر بأبي عمران موسى المشدالي (ت. 745هـ)، الونشريسي، المعيار، ج. 6. ص، 339.

120 التادلي الصومعي، المعزى في مناقب أبي يعزى، ص، 151. ابن الحاج، المدخل لتنمية الأعمال، ج. 1، ص،

Scanned by CamScanner

23. ابن أبي الرجال، شرح أرجوزة في الأحكام النجومية، ص، 104. محمد المهدي الفاسي، ممتع الأسماع، ص، 41-137. ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج. 2، ص، 530.

121 البادسي، المقصد الشريف، ص، 59.

122 راجع مصطفى أبو ضيف أحمد، أثر القبائل العربية، ص ص، 231-271.

123 الونشريسي، المعيار، ج. 6، ص، 339.

124 الإدريسي، نزهة المشتاق، ص، 268.

125 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 145.

126 المصدر نفسه، ص ص، 102-103.

127 المصدر نفسه، ص، 334.

128 مارمول، إفريقيا، ج. 2، ص، 121.

129 ابن الحاج، المدخل لتنمية الأعمال، ج. 2، ص، 90.

130 جاستون بوتول، الحرب والمجتمع، ص، 79.

131 الونشريسي، المعيار، ج. 6، ص ص، 329-331.

132 العمري، مسالك الأبصار، ص، 141. القلقشندي، صبح الأعشى، ج. 5، ص، 198.

133 الونشريسي، المعيار، ج. 6، ص، 329-331.

134 التيفاشي (أحمد بني يوسف ت. 651هـ)، أزهار الأفكار في جواهر الأحجار، حققه وعلق عليه وشرحه، محمد يوسف حسن، محمود بيوني خفاجي، الهيئة المصرية للكتاب، 1977، د.م.ط، ص ص، 144-145.

135 المصدر نفسه، ص، 190.

136 ليس غرضنا تعداد هذه المناسبات، ووصف مظاهر الاحتفال بها، بقدر ما يهمنا أن نبحث دائما في تداخل الحربي مع غيره في صياغة هذه المظاهر. انظر للتفصيل في هذه الاحتفالات وأشكال التسلية، إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص ص، 86-101. محمد استيتو، الفقر والفقراء، ص ص، 392-425.

137 Victor Piquet, *Le peuple marocain : le bloc berbère*, Emile Larose, Paris, 1925, p. 55. G. Biarnay, "Notes sur les chants populaires du RIF", *A.B*, T1, pp. 100-109.

138 ابن هذيل، تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس، ص، 48.

139 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 115. الأنيس المطرب، ص، 305. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 26.

140 مجهول، مخطوط الحرب، و، ظهر 17.

141 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 129.

142 العمري، مسالك الأبصار، ص، 148. القلقشندي، صبح الأعشى، ج. 5، ص، 201.

143 المصدرين نفسهما، الصفحتين نفسهما.

144 النميري، فيض العباب، ص ص، 66-67.

145 مجهول، (كان حيا في ق 8هـ)، كامل الصناعة في الفروسية والشجاعة، مخ.خ.ع، الرباط، رقم ق 32، (ض.م)، ص، 472.

146 ابن هذيل، تحفة الأنفس، ص، 140.

147 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

148 راجع عن انتشار هذه الهواية في المراحل السابقة لهذا العصر، وممارستها في مختلف المناسبات والأعياد، إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص، 96.

Scanned by CamScanner

149 ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص ص، 289–291. **الذخيرة السنية**، ص، 10–59–64. المزروزي، **نظم السلوك**، ص، 72–73. ابن الخطيب، **شرح رقم الحلل**، ص، 237. ابن الأحمر، **روضة النسرين**، ص، 16–29–69. ابن القاضي، **جذوة الاقتباس**، ق 1، ص، 103. ق 2، ص، 50.

150 ابن الأحمر، **روضة النسرين**، ص، 69.

151 المصدر نفسه الصفحة نفسها.

152 العمري، **مسالك الأبصار**، ص، 144. القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج. 5، ص، 200. ابن هذيل، **تحفة الأنفس**، ص، 82.

153 الحميري، **الروض المعطار**، ص، 605. ابن هذيل، **تحفة الأنفس**، ص، 140.

154 ابن هذيل، **تحفة الأنفس**، ص، 140.

155 ابن مريم، **البستان**، ص، 233.

156 حميد تيتاو ومحماد لطيف، **ملامح من التاريخ الاقتصادي والاجتماعي**، ص، 174، مثل رقم 907.

157 العمري، **مسالك الأبصار**، ص، 144. وانظر للمقارنة ما يذكره ابن جبير في حديثه عن بعض أساليب التسلية في دمشق، ذلك أنه يوجد في «خارج البلد في جهة الغرب، ميدانان كأنهما مبسوطان خز الشدة خضرتهما، وعليهما حلقا، والنهر بينهما، وغيطة عظيمة من الحور متصلة بهما، وهما من أبدع المناظر، يخرج السلطان إليهما، ويلعب فيهما بالصوالجة، ويسابق بين الخيل فيهما. ولا مجال للعين كمجالها فيهما، وفي كل ليلة يخرج السلطان إليهما للرماية والمسابقة واللعب بالصوالجة»، **الرحلة**، ص ص، 201–202.

158 محمد استيتو، **الفقر والفقراء**، ص، 417.

159 الحميري، **الروض المعطار**، ص، 605.

160 ابن هذيل، **تحفة الأنفس**، ص، 140.

161 أحمد بابا التنبكتي، **نيل الابتهاج**، ص، 519. ابن مريم، **البستان**، ص، 233.

162 محمد استيتو، **الفقر والفقراء**، ص، 418.

163 حميد تيتاو ومحماد لطيف، **ملامح من التاريخ الاقتصادي والاجتماعي**، ص، 161، مثل رقم 161.

164 محمد استيتو، **الفقر والفقراء**، ص، 418، هامش، 291.

165 المرجع نفسه، ص، 417.

166 مجهول، **مختصر كتب السياسة**، ص، 162.

167 ابن هذيل، **تحفة الأنفس**، ص، 24.

168 مجهول، **بلغة الأمنية**، ص ص، 36–37.

169 **اختصار الأخبار**، ص، 47.

170 المصدر نفسه، ص ص، 47–48.

171 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

172 مجهول [يرجح أن يكون أبا بكر محمد بن أصبغ الهواري]، **كتاب البدائع والأسرار في حقيقة الرد والانتصار وغوامض ما اجتمعت عليه الرماة بالأمصار**، مخ. خ. ع، الرباط، رقم 32 ق، (ض.م)، ص، 281–283.

173 أبو سالم العياشي، **الرحلة العياشية**، ج. 2، ص، 419. وفي كل الأحوال، فإن هذه اللعبة مورست بشكل كبير بمغرب العصر المريني، كما مورست بعده أيضا، ويخبرنا المختار السوسي أنها كانت تمارس في السوس حتى بداية الاستعمار، إذ يقول «هناك لعب آخر كنا نعرفه قبل الاحتلال وهو الرماية للأهداف في عشايا العيد، فيخرج كل أهل القرى يتعلمون الرماية، فيخرج الصغار والكبار، وهذا مما

Scanned by CamScanner

طوى بدخول المستعمر». المعسول، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 1961، ج. 1، ص، 63.
174 إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص، 96.
175 ابن غازي، مصدر سابق، ص، 34.
176 العلمي، النوازل، ج. 3، ص ص، 198–199.
177 علي حرب، الهوية، الثقافة، السياسة، ص، 79. عبد الله حمودي، مصير المجتمع المغربي، ص، 121.
178 محمد استيتو، الفقر والفقراء، ص، 417.
179 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 282.
180 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 2، ص، 117–118–129.
181 مجهول، سيرة أجواد الأمجاد، ص، 84.
182 مجهول، مختصر كتب السياسة، ص، 162.
183 ملعبة، ص، 83.
184 ابن الأحمر، أعلام المغرب والأندلس، ص، 343.
185 المنوني، ورقات، ص ص، 59–61.
186 ابن الأحمر، أعلام المغرب والأندلس، ص، 343–327. نثير فرائد الجمان، ص، 45–351.
187 معيار الاختيار، ص، 176.
188 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 295.
189 المصدر نفسه، ج. 1، ص ص، 294–295.
190 مجهول، بلغة الأمنية، ص، 26. ابن القاضي، ذرة الحجال، ج. 2، ص، 83–126. الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 259.
191 مجهول، مختصر كتب السياسة، ص، 262. الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 259.
192 ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج. 3، ص، 96.
193 محمد ستيتو، الفقر والفقراء، ص، 424.
194 ريحانة الكتاب، ج. 2، ص، 105.
195 العلمي، النوازل، ج. 3، ص، 111.
196 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص ص، 259–260.
197 محمد تضغوت، البنية الثقافية وقضايا الفكر في المجال العربي الإسلامي، ضمن سلسلة قضايا تاريخية، ع. 5، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص، 12.
198 انظر مثلا، الطاهر لبيب، سوسيولوجيا الثقافة، دار قرطبة، الدار البيضاء، 1986، ط. 2، ص، 5–9–24.
199 محمود إسماعيل، دراسات في الفكر والتاريخ الإسلامي، دار سينا للنشر، 1994، ط. 1، ص، 97.
200 انظر لمزيد من التفصيل عن هذه الدراسات، محمد تضغوت، البنية الثقافية وقضايا الفكر، ص ص، 12–31.
201 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 331. الذخيرة السنية، ص، 102–107–108–148. محمد فتحة، الأحكام والنوازل، ص ص، 522–529.
202 ومن الأمثلة في هذا الصدد، قول العزفي حاكم سبتة يحرض على الجهاد، ويخص العلماء بقوله، "وأنتم معشر العلماء والصلحاء، تلزمكم دون غيركم عهدة التذكير والتبصير (...) وحرضوا على الجهاد عن أرجائكم (...) و لم لا تحرضون بأمكنتكم وتجاهدون قبل الجهاد بالسنتكم". ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 107. وانظر للتفصيل، محمد المنوني، ورقات، ص ص، 324–325.

Scanned by CamScanner

الهلالي، مجتمع المغرب الأقصى، س 1. ص، 199. محمد ياسر

203 محمد فتحة، الأحكام والنوازل، ص، 529. ابن بطوطة، الرحلة، ص، 679. الونشريسي،

204 ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، س 8، ق 1، ص، 268. محمد المنوني، دور الأوقاف في التكافل الاجتماعي، ص ص، 27-33. محمد فتحة، المعيار، ج. 2، ص، 211.

الأحكام والنوازل، ص، 529.

205 لمزيد من التفصيل راجع، مصطفى الزباخ، تجليات التحدي الحضاري الأندلسي من خلال رسائل لسان الدين ابن الخطيب، مطبعة بني ازناسن، سلا، 2001م، ص ص، 33-70.

206 الونشريسي، المعيار، ج. 1، ص ص، 432-433. محمد فتحة، الأحكام والنوازل، ص، 527.

207 المقري، نفح الطيب، ج. 1، ص ص، 188-189.

208 ابن الخطيب، ريحانة الكتاب، ج. 1، ص، 367.

209 المقري، نفح الطيب، ج. 7، ص، 391.

210 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 331. الذخيرة السنية، ص، 102- 108-148. ومما يدل على حضور العلماء ضمن من عبروا للجهاد في الأندلس قول ابن الخطيب، «ولما جعل الله الدولتين الساهرتين النصرية والمرينية على هدى (...) بأن أتحف الدولة المرينية بالإمداد والإنجاد، وأتحف الدولة النصرية بأجر الجهاد (...) فورد على هذه الأبواب الجهادية منهم صدور ميادين وأعلام فضل ودين». ريحانة الكتاب، ج. 1، ص، 96.

211 الرحلة، ص، 436-438.

212 محمد فتحة، الأحكام والنوازل، ص، 528.

213 ابن الخطيب، شرح رقم الحلل، ص، 276.

214 ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج. 3، ص، 356. ابن القاضي، ذرة الحجال، ج. 2، ص، 118.

215 أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، ص، 398.

216 ابن القاضي، ذرة الحجال، ج. 2، ص ص، 120-121.

217 محمد فتحة، الأحكام والنوازل، ص، 522.

218 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص ص، 516-518. ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، ص، 173. النميري، فيض العباب، ص، 216. أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، ص ص، 409-410. محمد فتحة، الأحكام والنوازل، ص، 140.

219 ولعل أبرز مثال في هذا الصدد، حادثة استشارة أبي الحسن للعلماء في مجلسه، ومنهم الفقيه أبو زيد ابن الإمام، في شأن فرض ضريبة المعونة على أهل الجزائر الذين «تثاقلوا في بعض ما وظف عليهم من الرماة»، فرفض الفقيه المشار إليه هذه الضريبة، وأغضب السلطان برأيه. انظر ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، ص ص، 161-162.

220 وممن شغل هذا المنصب، محمد بن عبد الله بن عبد النور الندرومي (ت 749هـ) [ابن خلدون، التعريف بابن خلدون، ص، 47. أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، ص، 405]. وإبراهيم بن أبي يحيى (ت. 748هـ) [ابن خلدون، المصدر نفسه، ص، 42. ومحمد بن محمد بن عبد الرحمان المقري (ت. 758هـ) [ابن القاضي، ذرة الحجال، ج. 2، ص، 136. أحمد بابا التنبكتي، المصدر نفسه، ص، 421]. وعبد الملك بن شعيب القشتالي، ومحمد بن يحيى البرجي الأندلسي (ت. 786هـ) وأحمد بن العجل الزروالي (ت. 856هـ) [محمد المنوني، ورقات، ص، 104].

221 ابن قنفذ، شرف الطالب، ص، 19. أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، ص، 409. ابن القاضي، ذرة الحجال، ج. 2، ص، 136. أحمد بن عاشر الحافي، تحفة الزائر، مقدمة المحقق، ص، 10. محمد فتحة، الأحكام والنوازل، ص، 140.

Scanned by CamScanner

[222] انظر على سبيل المثال، الدراسة التي خصها مصطفى الزباخ لرسائل ابن الخطيب، مرجع سابق. وجدير بالإشارة تأكيد أهمية الكتاب الالكتروني، الذي لازال يخطو خطواته الأولى، والذي من شأنه أن يساعد على إنجاز دراسات إحصائية مقارنة للأبنية اللغوية المكونة لمؤلفات ومصادر التاريخ المغربي، ارتباطا بالقاعدة القائلة إن التكرار هوس المعنى، إذ من شأن مثل هذه الدراسات الكشف عن سمات القاموس اللغوي للمؤلفات المعنية عن طريق إحصاء الكلمات الدالة وتسجيل الحالات اللاشعورية الثاوية وراء التكرار اللفظي لبعض الكلمات.

[223] محمد عابد الجابري، **العصبية والدولة**، ص ص، 133–134. علي أومليل، **الفكر التاريخي**، ص ص، 76–77.

[224] محمد عابد الجابري، المرجع نفسه، ص، 87.

[225] عبد الله العروي، **مفهوم العقل**، ص، 329.

[226] في كل الأحوال نؤكد، على غرار من سبقنا، أن الحرب تحضر بقوة في كل آراء ابن خلدون في المقدمة، وهو ما أكدناه في الصفحات السابقة من هذا البحث، راجع للتفصيل، مقدمة البحث ومدخل الفصل الثاني منه.

[227] ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 211–217.

[228] المصدر نفسه، ص، 211.

[229] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[230] المصدر نفسه، ص ص، 212–214.

[231] المصدر نفسه، ص، 215–217.

[232] تكفي العودة إلى مباحث وفصول هذا البحث للتأكد من هذا الإقرار. كما يمكن العودة إلى بعض الأبحاث الرصينة التي اعتمدت مقدمة ابن خلدون لتفسير بعض القضايا في تاريخ المغرب الوسيط، انظر للتفصيل في الجديد الذي أتت به هذه الدراسات، الفصل الثاني من هذا البحث.

[233] **مفهوم العقل**، ص، 323.

[234] ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 34.

[235] المصدر نفسه، ص، 101.

[236] عبد الله العروي، **مفهوم العقل**، ص، 326.

[237] ابن خلدون، المقدمة، ص، 211.

[238] المصدر نفسه، ص، 33.

[239] المصدر نفسه، ص، 101. مدني صالح، **الحرب وابن خلدون، التناقض والاضطراب**، مجلة آفاق عربية، ع، 11–12، السنة 1995، ص، 9.

[240] ابن خلدون، المقدمة، ص، 34.

[241] عبد الله العروي، **مفهوم العقل**، ص، 323.

[242] ابن خلدون، المقدمة، ص ص، 101–102.

[243] المصدر نفسه، ص، 211. إبراهيم القادري بوتشيش، **حلقات مفقودة**، ص ص، 12–13.

[244] ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 71. المقدمة، ص، 114.

[245] ابن خلدون، **المقدمة**، ص ص، 99–100.

[246] محمد عابد الجابري، **العصبية والدولة**، ص، 27.

[247] انظر ما يقرره ابن خلدون في الفصل الموسوم بـ في أن سكنى البدو لا يكون إلا للقبائل أهل العصبية، المقدمة، ص ص، 101–102.

Scanned by CamScanner

248 المصدر نفسه، ص، 102.

249 المصدر نفسه، ص، 111.

250 انظر ما يقرره الباب الثاني «في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك من الأحوال وفيه فصول وتمهيدات»، المصدر نفسه، ص، 96.

251 المصدر نفسه، ص، 105.

252 المصدر نفسه، ص ص، 110–111.

253 راجع الفصل الأول من هذا البحث.

254 ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 122.

255 المصدر نفسه، ص، 110.

256 المصدر نفسه، ص، 230. وهو بذلك يقر ببديهية جوهرية اتفقت عليها كتب السياسة في مغرب هذا العصر وقبله أيضا، انظر رضوان **الشهب اللامعة**، ص، 87. عز الدين العلام، **السلطة السياسية والأدب السلطاني**، ص ص، 27–160.

257 إبراهيم القادري بوتشيش، **حلقات مفقودة**، ص ص، 12–13.

258 ابن خلدون، **المقدمة**، ص ص، 134–135.

259 المصدر نفسه، ص، 103.

260 راجع المبحث الثاني من الفصل الأول ضمن هذا البحث.

261 ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 211.

262 المصدر نفسه، ص، 118.

263 المصدر نفسه، ص، 99.

264 المصدر نفسه، ص، 114.

265 المصدر نفسه، ص، 99.

266 المصدر نفسه، ص، 103.

267 المصدر نفسه، ص ص، 132–136.

268 «فإن الغلب الذي يكون به الملك إنما هو بالعصبية وبما يتبعها من شدة البأس وتعود الافتراس»، المصدر نفسه، ص، 136.

269 المصدر نفسه، ص ص، 306–307.

270 المصدر نفسه، ص ص، 132–133.

271 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

272 المصدر نفسه، ص، 131–219.

273 المصدر نفسه، ص، 131.

274 المصدر نفسه، ص، 219.

275 راجع المبحث الرابع من الفصل الأول.

276 ابن خلدون، **العبر**، ج. 6، ص، 116. **المقدمة**، ص، 310.

277 ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 310.

278 المصدر نفسه، ص، 308.

279 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

280 ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 211.

281 المصدر نفسه، ص، 118.

Scanned by CamScanner

282 المصدر نفسه، ص، 27.

283 انظر، شقور عبد السلام، **الشعر المغربي في العصر المريني، قضاياه وظواهره**، بحث لنيل دكتوراه الدولة في الآداب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 89-1990.

284 برز في هذه المرحلة عديد من الشعراء، منهم مالك بن المرحل وأبو فارس الملزوزي، فضلا عن ابن الخطيب «إمام النظم والنثر في الملة الإسلامية غير مدافع»، ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 520. انظر، محمد المنوني، ورقات، ص ص، 321-326.

285 انسحبت قاعدة هذه الاستثناءات في مغرب العصر المريني، ببروز أدب النكبات والمولديات والنبويات والحجازيات، المنوني، مرجع سابق، ص ص، 321-323. عز الدين السلاوي، **شعر النبويات في عصر بني مرين**، بحث لنيل د.د.ع في اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 86-1987.

286 تكفي العودة إلى أرجوزة أبي فارس الملزوزي، **نظم السلوك**، للوقوف على مثل هذه التملقات.

287 جمعة شيخة، **الفتن والحروب، وأثرها في الشعر الأندلسي، من سقوط الخلافة إلى سقوط غرناطة**، تقديم لمحمد الطالبي، ضمن دراسات أندلسية، ع. 12، 1994، ص، 76.

288 وفي هذا يقول الملزوزي،

فانتشر مرين كالجراد ... في الغرب قد عمت البلاد
لما أراد الله إحياء الورا ... وأن يؤمن البلاد والقرى
من بعدما كانت بها القبائل ... في الغرب لا تردها القنابل
قتل النفوس عندهم مباح ... لا سيما فازازا أو رياح
قد أوقدوا في المغربين النارا ... ولم يجد خلق بها قرارا
من كثرة الأهوال والمجاعة ... وكل من في الغرب خلى الطاعة
وكل من يريد أمرا يصنعه ... إذ لا أمير بالجيوش يمنعه

نظم السلوك، ص ص، 68-69.

289 ومما قاله الشاعر السابق ذكره، في هذا السياق،

فأمن الغرب من الفساد ... وانتشر العدل على البلاد
ولم يدع في الأرض من يجور ... وزالت الأهوال والفجور
فعاد كل ثائر يخشاه ... مخافة للجيش أن يغشاه

المصدر نفسه، ص، 80.

290 وحسبنا دليلا على هذا، قول ابن الخطيب في نظمه، يؤرخ للسنة التي خرج فيها يعقوب بن عبد الحق لقتال الموحدين في مراكش 665هـ،

وسار سلطان مرين نحوه ... ومستجيزا حربه وغزوه
لنكث العهد الذي كان عهد ... فعاث في الزرع وأفنى ما وجد

شرح رقم الحلل، ص، 266.

وانظر أيضا وصف الملزوزي لحملات يعقوب بن عبد الحق لتمهيد البلاد حيث يقول،

فخرج المنصور يبغي درعة ... لعسكر كان بها في منعه
يخرب البلاد والحصون ... ولم يدع ملقى ولا مصونا
ووجدت لرأيها الغربان ... فيها فباد أهلها وبانوا

نظم السلوك، ص، 87-90.

291 انظر، جمعة شيخة، **الفتن والحروب وأثرهما في الشعر الأندلسي، من سقوط الخلافة ق 5هـ/11م إلى سقوط**

Scanned by CamScanner

غرناطة ق 9هـ-15م، الدار المغاربية، تونس، 1994-1997، 3 مج، مج. 2 الحروب. علي الغزيوي، اليعقوبي مصطفى، مفاهيم شعر الحرب في ديوان ابن الآبار القضاعي، ضمن قراءة في أعمال ابن الآبار البلنسي الأندلسي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، 2003، ص ص، 87-106. جمعة شيخة، البطل في شعر الحرب بالأندلس، مجلة المؤرخ العربي، ع. 84-85، س 1991، ص ص، 71-77. شفيق محمد عبد الرحمن، شعر الجهاد في عصر الموحدين، مكتبة الأقصى، عمان، 1984. الهرفي، محمد بن علي، شعر الجهاد عند ابن هانئ الأندلسي، دار الإصلاح، الدمام، 1982.

292 محمد المنوني، ورقات، ص، 322.

293 انظر، الملزوزي، نظم السلوك، ص، 100-101-125-142 ... ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ص، 370-372. وانظر قصائد أخرى لشعراء آخرين، جمعة شيخة، الفتن والحروب وأثرها في الشعر، ص ص، 260، 283.

294 جمعة شيخة، مرجع سابق، ص، 262.

295 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 320. ابن الخطيب، رقم الحلل، ص، 79.

296 جمعة شيخة، الفتن والحروب وأثرها في الشعر، مج. 2، ص ص، 260-283.

297 ومن الأمثلة في ذلك، انظر تكرار الملزوزي للفظة البروز، في نظمه لمعارك الجيش المريني في الأندلس من مثيل،

- ولا أنسى البروز على شريش ... فأهل البرج قد ذاقوا العذاب
- هناك بروز أهل الدين ردت ... محاسنه على الدهر الشباب

جمعة شيخة، الفتن والحروب وأثرها في الشعر، ص ص، 268-269.

298 جمعة شيخة، الفتن والحروب وأثرها في الشعر، ص، 278.

299 جمعة شيخة، البطل في شعر الحرب، ص ص، 71-77.

300 ويقول في هذا الصدد،

وكان نجداً مطلق اليدين ... يرمي الذي يلقى بحربتين
ولا يطيق أحد يبارزه ... ولا زعيم في الوغى يناجزه
وكان في الحرب نسيج وحده ... يقوم في الجيش مقام جنده

نظم السلوك، ص ص، 72-73.

301 يقول ابن الخطيب،

وكان ليثا دامي المخالب ... يقلب الأمر بحد غالب
أباد بالسيف نفوساً عدة ... فلم تطل في الملك منه المدة

اللمحة البدرية، ص، 73.

302 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 91.

303 ابن الأحمر، روضة النسرين، ص، 37.

304 ومن ذلك قول محمد بن إبراهيم الشران (كان حيا سنة 837هـ)،

وعادة الأيام معهودة ... حرب وسلم والليالي سجال

أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، ص، 533.

305 يتعلق الأمر بأحمد بن زاغوا المغراوي (ت. 782هـ) الذي أنشد لغيره وكان يستحسنه،

انست لوحدتي، ولزمت بيتي ... فدام الأنس لي، ونما السرور
ولست بسائل ما دمت حيا ... أسار الجند، أم ركب الأمير

القلصادي، رحلة القلصادي، ص ص، 104-105. أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، ص، 120.

Scanned by CamScanner

[306] في هذا الصدد أنشد ابن الأحمر لبعض الشعراء ممن عاصروه في القرن 8هـ يقول،

تمام بلاد المغرب ما عشت ... ظلام وحزن دائم وحروب
وخيم بلاد المشرق تلق بها المنى ... فللخير أنواع بها وضروب
ففي الشرق من أجل الشروق مسرة ... وفي الغرب من أجل الغروب كروب

إلا أننا نميل إلى الاعتقاد أن الأندلس هي المقصودة أكثر في أنها «ظلام وحزن دائم وحروب». ابن الأحمر، المصدر نفسه، ص، 371.

[307] ابن الأحمر، أعلام المغرب والأندلس، ص، 451.

[308] المصدر نفسه، ص، 455. ومما انشده أبو عبد الله محمد بن موسى بن إبراهيم الماجري في هذا الموضوع (كان حيا سنة 764هـ)

يقولون زجراً إن فاساً قضى بها ... بذلتها سيف المنار المشيد
لقد أخطؤوا في زجرهم، ضل سعيهم ... هل العز إلا تحت ظل المهند

المصدر نفسه، ص، 453. وانظر قصائد أخرى في الموضوع، المصدر نفسه، ص ص، 451-461.

[309] شرح رقم الحلل، ص، 276.

[310] المصدر نفسه، الصفحة نفسها، وأنشد أبو محمد عبد الله الأزدي المعروف بابن المرابط ت 750هـ عن مأساتها متفجعاً

آها لعز المحتدين صرامة ... لأذل عز المهتدين وأذهبا
دهم المصاب فعم إلا أنه ... فيما يخصك ما أمر وأصعبا

المقري، نفح الطيب، ج. 5، ص، 13. جمعة شيخة، الفتن والحروب وأثرها في الشعر، مج. 2، ص، 317.

[311] ابن خلدون، المقدمة، ص، 448. الكفيف الزرهوني، ملعبة، ص، 20.

[312] المقري، نفح الطيب، ج. 5، ص، 13.

[313] المصدر نفسه، ص 12.

[314] ابن خلدون، المقدمة، ص، 448.

[315] ومن ذلك الوصف الذي قدمه الفقيه أبو محمد صالح بن شريف الرنكي عن وضع الأسرى في أواخر القرن السابع الهجري، وإن تعلق الأمر بالأندلس،

لو تراهم حيارا لا دليل لهم ... عليهم من ثياب الذل ألوان
لو رأيت بكاهم عند بيعهم ... لهالك الأمر، واستهوتك أحزان
كم من أسير بحبل الذل معتقل ... كأنه ميت، والذل أكفان
يا رب أم وطفل حيل بينهما ... كما تفرق أرواح وأبدان
وطفلة ما رأت الشمس قد برزت ... كأنها من ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة ... والعين باكية والقلب حيران

ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص ص، 112-114.

[316] ومن ذلك ما نظمه عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى بن محمد بن سعيد اللخمي،

سمحت وقد ضن الغمام بقطرة ... فكنت بعون الله عونا على القطر
ووصيت في الأسرى بخير وصية ... فدى كل عضو منك ناج من الأسر

ابن الزبير، صلة الصلة، ج. 3، ص ص، 216-217.

[317] انظر، ابن سعيد، المغرب في حلي المغرب، ج. 2، ص، 121.

[318] ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج. 4، ص، 17. وانظر أيضا المقريزي، نظم السلوك، ص، 102. ويجدر بنا أن نشير إلى أن آثار الحرب في مغرب العصر المريني وجدت صداها أيضا فيما نظمه الشعراء.

Scanned by CamScanner

في مدنهم وصفا أو مدحاً أو رثاءاً. وقد كان لهذا الأخير نصيب مما وصلنا من قصائد هذا العصر إذ انبرى عديد من الشعراء لرثاء مدنهم بعد أن استولى التهدم والخراب على معظم ديارها. انظر الحلل الموشية، ص، 170. مجهول، ذكر تاريخ مراكش، ص، 308 - ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج. 2، ص، 381. ج. 3، ص، 96. ابن غازي، روض الهتون، ص، 10.

319 محمد المنوني، ورقات، ص، 324.

320 ابن خلدون، المقدمة، ص، 518-523-525.

321 المصدر نفسه، ص، 524.

322 انظر للتفصيل، الجراري عباس عبد الله، الزجل في المغرب، ص، 452.

323 ابن خلدون، المقدمة، ص، 525.

324 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

325 انظر، ابن قنفذ، أنس الفقير، ص، 70. ابن الحاج النميري، فيض العباب، ص ص، 219-220. ابن مريم، البستان، ص ص، 79-80، 136-137. أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، ص، 242.

326 ملعبة، ص، 81.

327 المصدر نفسه، ص ص، 70-72.

328 المصدر نفسه، ص ص، 58-59.

329 المصدر نفسه، ص، 60.

330 المصدر نفسه، ص ص، 58-59.

331 المصدر نفسه، ص، 60.

332 المصدر نفسه، ص، 72.

333 ابن خلدون، المقدمة، ص، 526.

334 الكفيف الزرهوني، ملعبة، ص ص، 99-100.

335 المصدر نفسه، ص، 82.

336 المصدر نفسه، ص، 83-48.

337 المصدر نفسه، ص، 70.

338 المصدر نفسه، ص، 82.

339 مصطفى الزباخ، تجليات التحدي الحضاري للأندلس، ص، 99.

340 من نافلة القول التأكيد أن الباحث لا يتوفر في تاريخ المغرب الوسيط إلا على كتاب وحيد لصاحبه أبي يحيى عبد الله بن أحمد الزجالي، أمثال العوام، نعتمده في هذا البحث لأن مؤلفه وجامعها المتوفى عام 694هـ، بالرغم من أنه من أهل الأندلس، إلا أنه عاش ردحاً من الزمن في المغرب الأقصى. محمد ياسر الهلالي، مجتمع المغرب الأقصى، ج. 1، ص، 89.

فضلا عن تقارب البيئتين الأندلسية والمغربية، وتقاسمهما لكثير من الروابط الاجتماعية والثقافية.

341 قالت العامة، «حديث الجيش، مالوا آخر»، الزجالي، أمثال العوام، ج. 2، مثل رقم 1083، ص، 253.

342 قالوا، «ما أسهل الحرب عند النظارة»، المصدر نفسه، مثل رقم 1356، ص، 314.

343 قالوا، «القائم على شغله، كالمجاهد في سبيل الله»، المصدر نفسه، مثل رقم 296، ص، 70.

344 قالوا، كل شيء حشيش، حتى يحصل فالبليس، المصدر نفسه، ج. 2، مثل رقم 1083، ص، 253.

345 المصدر نفسه، ج. 1، ص، 210.

346 المصدر نفسه، ج. 1، ص، 213.

347 المصدر نفسه، ج. 2، مثل رقم 1985.

Scanned by CamScanner

348 المصدر نفسه، ج. 2، مثل رقم 1522.

349 المصدر نفسه، ج. 1، ص، 208.

350 المصدر نفسه، ج. 2، مثل رقم 174.

351 المصدر نفسه، ج. 2، مثل رقم 1733.

352 المصدر نفسه، ج. 1، ص، 213.

353 المصدر نفسه، ج. 2، مثل رقم 981.

354 انظر، المصدر نفسه، ج. 1، ص، 207.

355 المصدر نفسه، ج. 1، ص، 208.

356 المصدر نفسه، ج. 2، مثل رقم 1644.

357 المصدر نفسه، ج. 2، مثل رقم 1082، ص، 253.

358 علي زيعور، **في العقلية الصوفية ونفسانية التصوف**، ص، 141.

- Bel. Alfred, *La religion musulmane en Berbérie : esquisse d'histoire et de sociologie religieuses : établissement et développement de l'islam en Berbérie du VII^e au XX^e siècles*, Librairie orientaliste, Paul Guethner, Paris, 1938, T1, p. 342.

359 مصطفى حجازي، **التخلف الاجتماعي، سيكولوجية الإنسان المقهور**، معهد الإنماء العربي، بيروت، ط. 6، 1992، ص ص، 36–37.

360 انظر، يعقوب غسان، **سيكولوجيا الحروب والكوارث ودور العلاج النفسي، اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة**، دار الفارابي، بيروت، 1999، ص، 9–14–15. نجاتي محمد عثمان، علم النفس الحربي، دار النهضة المصرية، القاهرة، 1956، ص ص، 6–7.

361 يعقوب غسان، **سيكولوجيا الحروب والكوارث**، ص، 14.

362 انظر للتفصيل الفصل الثالث من الباب الأول.

363 انظر للتفصيل الفصل الرابع من هذا البحث.

364 راجع الفصل الخامس من هذا البحث.

365 ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، س 8، ق 1، ص، 156.

366 الناصري، **الاستقصا**، ج. 4، ص، 41.

367 إبراهيم القادري بوتشيش، **إسهامات في التاريخ الاقتصادي-الاجتماعي**، ص ص، 113–118.

368 ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص، 70.

369 ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص ص، 228–229.

370 ابن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن**، ص، 121.

371 أنظر، فيليب تايلور، **قصف العقول، الدعاية للحرب منذ العالم القديم حتى العصر النووي**، ترجمة سامي خشبة، سلسلة عالم المعرفة، ع. 256، أبريل 2000، ص ص، 23–30.

372 ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 284.

373 الناصري، **الاستقصا**، ج. 3، ص، 17.

374 ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 307.

375 المصدر نفسه، ص، 378.

376 الناصري، **الاستقصا**، ج. 4، ص، 32. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 162.

377 مصطفى حجازي، **التخلف الاجتماعي**، ص ص، 36–37.

378– محمد ياسر الهلالي، **قراءة في كتب البدع بالمغرب الأقصى أواخر العصر الوسيط**، ص ص، 11–42.

379 أبو العباس أحمد اللخمي العزفي السبتي، **كتاب الدر المنظم في مولد النبي المعظم**، تقديم وتحقيق، فاطمة

Scanned by CamScanner

اليازدي، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في اللغة العربية وآدابها، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 86–1987، ص، 18.

380 تحفة الناظر، ص، 206–235.

381 الونشريسي، المعيار، ج. 2، ص، 297.

382 المنهاج الواضح، ص، 80.

383 عدة المريد، ص، 142.

384 ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج. 2، ص، 425.

385 انظر، إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص، 111–125. واقع الأزمة والخطاب الإصلاحي في كتب المناقب والكرامات، ضمن كتاب، الاسطوغرافية والأزمة، دراسات في الكتابة التاريخية والثقافية، تنسيق عبد الأحد السبتي، الدار البيضاء، 1994، ص ص، 27–28. بنسالم حميش، التشكلات الإيديولوجية في الإسلام، الاجتهاد والتاريخ، الرباط، 1981، ص، 70. الحسين بولقطيب، كرامات أولياء دكالة خلال عصري المراطين والموحدين نموذجا، مجلة دراسات عربية، س32، ع. 3–4، 1996، ص، 72. محمد الشريف، المستفاد، قسم الدراسة، ص، 226. علي زيعور، في العقلية الصوفية ونفسانية التصوف، ص، 135–141.

386 محمد مفتاح، التيار الصوفي والمجتمع المغربي أثناء القرن 8هـ/14م، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب، 1980–1981، ج. 1، ص، 48.

387 حظيت ظاهرة التصوف بالمغرب الوسيط باهتمام كبير من قبل الباحثين المعاصرين ومن هؤلاء، إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين. المؤلف نفسه، الإسلام السري في المغرب العربي. المؤلف نفسه، القيم الإنسانية في الممارسة الصوفية خلال القرن السادس الهجري، ضمن أعمال ندوة من ابن برجان إلى أبي إسحاق البلفيقي، جوانب من التواصل الفكري بين المغرب والأندلس، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مراكش، ع. 12، 1995. المؤلف نفسه، الخطاب الاجتماعي في الكرامة الصوفية بالمغرب خلال عصري المرابطين والموحدين، مساهمة في دراسة الفكر الاجتماعي للبلدان المتوسطية، ضمن كتاب جوانب من التاريخ الاجتماعي للبلدان المتوسطية خلال العصر الوسيط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، مطبعة فضالة، المحمدية، 1991. المؤلف نفسه، وثيقة في التصوف بالغرب الإسلامي، وصية أبي الفضل يوسف بن محمد النحوي التوزري، مجلة المناهل، ع. 53، 1996. أحمد التوفيق، التصوف بالمغرب، معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، سلا، ج. 7، 1994. محمد القبلي، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط. المؤلف نفسه، الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط. المؤلف نفسه، حول تاريخ المجتمع المغربي في العصر الوسيط. مفتاح محمد، التيار الصوفي. لحمنات عبد الجليل، التصوف المغربي في القرن السادس الهجري، مقدمة لدراسة تاريخ التصوف بالمغرب، د.د.ع، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط 1990. عبد اللطيف الشاذلي، التصوف والمجتمع نماذج من القرن العاشر، منشورات جامعة الحسن الثاني، مطابع سلا، 1989. الحسين بولقطيب، كرامات أولياء دكالة خلال عصري المرابطين والموحدين. محمد الشريف، المستفاد أو استقطاب تيار التصوف على عهد الموحدين، ضمن كتاب نصوص جديدة ودراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، تطوان، 1996. المؤلف نفسه، المستفاد في مناقب العباد، لأبي عبد الله محمد بن عبد الكريم التميمي، قسم الدراسة. غريغني عبد السلام، المدارس الصوفية المغربية والأندلسية في القرن السادس الهجري، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 2000... وانظر مقالات أخرى ضمن كتاب، أبو محمد صالح، المناقب والتاريخ، منشورات المجلس البلدي لمدينة أسفي وكلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، النشر العربي الإفريقي، 1990. وكتاب، التاريخ وأدب المناقب، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، منشورات عكاظ، الرباط، 1989.

Scanned by CamScanner

Benchekroune (M), *La vie intellectuelle sous les Mérinides et Wattassides (XIII^e-XIV^e-XV^e-XVI^e siècles)*, Rabat, 1974.

Ferhat (H) et Triki (H), "Hagiographie et religion au Maroc médiéval", *op. cit.*

388 محمد فتحة، **الأحكام والنوازل**، ص، 378. محمد القبلي، **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط**، ص، 113.

Kably, *Société, pouvoir...*, *op. cit.*, p. 303.

389 عبد الأحد السبتي، **قضايا في دراسة التاريخيات**، مجلة أمل، السنة 5، ع. 15، 1998، ص ص، 21-22. محمد مفتاح، **التيار الصوفي**، ج. 1، ص، 48-81-82-89-96.

Ferhat .H et Triki .H, "Hagiographie et religion..., *op. cit.*, p. 42.

390 بنسالم حميش، **التشكلات الإيديولوجية في الإسلام**، ص، 70.

391 إبراهيم القادري بوتشيش، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين**، ص، 125. بل إن كثيراً من الباحثين يتفقون على أن حضوره وانتشاره في المغرب الأقصى ارتبط بأزمة محددة تاريخيا هي المرحلة الأخيرة من عمر الدولة المرابطية حين دب الضعف والوهن في كيان الدولة المركزية، واستشرت الفتن والحروب، وتفشت المجاعات والأوبئة والكوارث، فأضحى تدخل الولي والصوفي آنذاك ضروريا لإعادة التوازن السياسي والاجتماعي. المرجع نفسه، ص ص، 125-126. عبد الجليل لحمنات، التصوف المغربي في القرن السادس الهجري، ص، 153-154-176. محمد القبلي، **مراجعات حول المجتمع والثقافة**، ص، 26. عبد اللطيف الشاذلي، **التصوف والمجتمع**، ص ص، 70-71. وانظر للتفصيل في مظاهر هذه الأزمة، إبراهيم القادري بوتشيش، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين**، ص ص، 125-130.

392 انظر عن مفهوم البركة، الميلودي شغموم، **المتخيل والقدسي في التصوف الإسلامي، الحكاية والبركة**، منشورات المجلس البلدي لمدينة مكناس، مطبعة فضالة، المحمدية، ط. 1، 1991، ص، 20.

393 محمد مفتاح، **التيار الصوفي**، ج. 1، ص، 48.

394 عبد الوهاب الدبيش، **فاس المرينية**، ص، 178.

395 A. Bel, La religion, *op. cit.*, T1, p. 342.

396 إبراهيم القادري بوتشيش، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين**، ص، 141.

397 ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 287. الذخيرة السنية، ص، 31. ابن الخطيب، **نفاضة الجراب**، ج. 2، ص، 69. ابن قنفذ، **أنس الفقير**، ص، 79. ابن مريم، البستان، ص، 299. علي أومليل، **السلطة الثقافية والسلطة السياسية**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط. 1، 1996، ص، 18. محمد فتحة، **الأحكام والنوازل**، ص، 377.

R. Le Tourneau, Fès, *op. cit.*, p. 559.

398 محمد المهدي الفاسي، **ممتع الأسماع**، ص، 35.

399 الحضرمي، **السلسل العذب**، ص، 61.

400 الملالي (محمد بن إبراهيم بن عمر بن علي)، **المواهب القدسية في المناقب السنوسية**، مخ، خ.ع، الرباط، رقم 66د، رقم الميكروفيلم 016، ص، 66.

401 الحضرمي، **السلسل العذب**، ص، 47-89-95.

402 ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 278-399. الذخيرة السنية، ص، 13-86. ابن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن**، ص، 122-155-253-254. التميري، **فيض العباب**، ص، 219-220-315-370. الحضرمي، **السلسل العذب**، ص، 39. ابن الخطيب، **نفاضة الجراب**، ج. 2، ص، 69. الأزموري، **بهجة الناظرين**، ص ص، 53-54. ابن القاضي، **جذوة الاقتباس**، ج. 2، ص، 456. وانظر، محمد فتحة، **الأحكام والنوازل**، ص، 400.

Scanned by CamScanner

403 من نافلة القول الإشارة إلى أن انتشار الجهل وتوابعه متمثلا في العقلية القبلية الساذجة، والاعتقاد الجازم بالخوارق والغيبيات والإيمان الأعمى بالسحر والشعوذة، فضلا عن إحكام الفقهاء للقبضة على كل محاولات التجديد والاجتهاد كانت من أهم ما خدم انتشار التصوف وكثرة مريديه. إبراهيم القادري بوتشيش، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين**، ص، 127. محمد ستيتو، **الفقر والفقراء**، ص، 145. عبد الأحد السبتي، **قضايا في دراسة التاريخيات**، ص، 21.

404 محمد فتحة، **أنس الفقير لابن قنفد أو الانتصار لزاوية ملارة**، ضمن كتاب **محطات في تاريخ المغرب الفكري والديني**، أعمال مجموعة الأبحاث في التاريخ الديني (1)، جامعة الحسن الثاني، عين الشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، د.ت، ص، 167. عبد الأحد السبتي، **أخبار المناقب ومناقب الأخبار**، ضمن كتاب **التاريخ وأدب المناقب**، ص، 113. عبد الوهاب الدبيش، **فاس المرينية**، ص، 178.

405 البادسي، **المقصد الشريف**، ص، 99.

406 **البستان**، ص ص، 234—235.

407 الونشريسي، **المعيار**، ج. 2، ص، 403. وقد عبر الشيخ أحمد زروق في أبيات شعرية عن مجتمع الأمن والعدل الذي يوفره الصوفية، والذي ينشده الناس في ظل غياب المن، فقال،

وأعزل قوماً ثم أولي سواهم	وأعلي منار البعض فوق المنصة
وأجبر مكسوراً وأشهر خاملا	وأرفع مقداراً بأرفع همتي
واقهر جباراً وأدحض ظالما	وانصر مظلوما بسلطان سطوتي
أنا لمريدي جامع لشتاته	إذا ما سطا جور الزمان بنكبة
وإن كنت في كرب وضيق ووحشة	فناد يا زروق، آت بسرعة

أحمد بابا التنبكتي، **نيل الابتهاج**، ص، 132.

408 ابن قنفد، **أنس الفقير**، ص، 63.

409 البادسي، **المقصد الشريف**، ص، 51. الونشريسي، **المعيار**، ج. 11، ص، 29. ابن مريم، **البستان**، ص ص، 234—235. وانظر الجرد الذي قدمه محمد مفتاح لرباطات وزوايا العصر المريني، ص ص، 49—57. وعن أسماء الطوائف الصوفية وطرقها والاختلافات بينها. المرجع نفسه، ص ص، 160—199.

410 محمد المهدي الفاسي، **ممتع الأسماع**، ص، 3.

411 المصدر نفسه، الصفحة نفسها. وانظر أيضا، الونشريسي، **المعيار**، ج. 2، ص، 396.

412 ابن عباد، **الرسائل الكبرى**، ص، 8—35—36. الونشريسي، **المعيار**، ج. 1، ص، 160. ج. 3، ص، 252، ج. 11، ص ص، 38—39.

413 البادسي، **المقصد الشريف**، ص، 101—109. ابن الحاج، **المدخل لتنمية الأعمال**، ج. 3، ص، 118. الونشريسي، **المعيار**، ج. 2، ص، 396. ج. 7، ص، 117. ج. 12، ص ص، 371—372. ابن القاضي، **درة الحجال**، ج. 1، ص، 165.

414 لا شك أن بعض الدراسات الحديثة التي عمدت إلى استنطاق المادة المنقبية، وقراءة الكرامات عن طريق توظيف بعض المناهج الحديثة المتعلقة بعلوم اجتماعية أخرى مثل السيميائيات واللسانيات والانثروبولوجيا، واستعانت بها لتفكيك لغة الكرامة ورموزها، واستنباط معانيها، وربطها بالواقع الذي أفرزها، قد توصلت إلى نتائج هامة أسعفت في فهم الواقع التاريخي، وجددت من معطيات البحث فيه، أنظر الدراسة القيمة التي قام بها إبراهيم القادري بوتشيش، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين**، ص ص، 140—150. ودراسته حول **الخطاب الاجتماعي في الكرامة الصوفية**، ص ص، 97—114. وأيضا **واقع الأزمة والخطاب الإصلاحي في كتب المناقب والكرامات**، ص ص، 29—50. وانظر أيضا دراسة محمد مفتاح، **الواقع والممكن في المناقب الصوفية**، ضمن كتاب التاريخ وأدب المناقب، ص ص، 29—42.

Scanned by CamScanner

[415] علي أومليل، الخطاب التاريخي، ص، 180.

[416] وفي هذا الصدد يقول ابن الحاج في حديثه عن الجهاد الأصغر والجهاد الأكبر، «والكلام هنا إنما هو على الجهاد الأصغر، وهو جهاد أهل الكفر والعناد، وهو من أجل الطاعات وأعظمها. وقد تقدم أن أفضل الأعمال طلب العلم لأن به يعرف المجاهد فضيلة الجهاد، وكيف يجاهد، وبماذا يصح له الجهاد، وبماذا يفسد...»، المدخل إلى تنمية الأعمال، ج. 2، ص ص، 179–181. ج. 1، ص، 22–23.

[417] ولا أدل على ذلك من أن لفظ «الرباط» و«الزاوية»، قد ارتبط حسب الأدبيات الإسلامية، وفي التصرف المغربي، خاصة خلال القرن الرابع عشر الميلادي الذي بدأت فيه البحرية المسيحية تهدد السواحل المغربية، بمعنى الجهاد الأكبر (العبادة) والجهاد الأصغر (الحرب)، وقد تفطن بول نويا إلى أن الرباط والزاوية كان يأخذ في عصر الدراسة معاني متعددة أهمها المعنى العسكري والصوفي والتعاوني، ولم يتردد محمد مفتاح بعد جرده لمعاني الرباط في الكتابات الفقهية والصوفية أن يجمله في احتباس النفس للجهاد والحراسة والعبادة. انظر للتفصيل، محمد مفتاح، التيار الصوفي، ص ص، 23–37.

[418] ففي حملة يعقوب ابن عبد الحق إلى الأندلس سنة 678هـ كان ممن ركب الأجفان في سبتة للغزو والجهاد «الفقهاء والصلحاء والطلبة»، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 331. الذخيرة السنية، ص، 145–148. البادسي، المقصد الشريف، ص، 118–134.

[419] ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 102. ابن الخطيب، ريحانة الكتاب، ج. 2، ص، 61.

[420] ابن الزيات التادلي، التشوف، ص، 13.

[421] البادسي، المقصد الشريف، ص، 60.

[422] ابن مريم، البستان، ص، 35.

[423] احمد التادلي الصومعي، المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى، ص، 151.

[424] محمد مفتاح، التيار الصوفي، ج. 1، ص، 195.

[425] وهو ما عبر عنه بعض الصلحاء، في مراحل مختلفة من العصر الوسيط أثناء تدخلهم لمنع بعض الحملات العسكرية؛ فقد ورد في بعض تراجم «التشوف»، أن أحد المتصوفة اعترض طريق تاشفين بن علي المرابطي لمنع حركته إلى وهران وقال له، «أين تذهب بهذا الخلق تهلك عباد الله»، ابن الزيات التادلي، التشوف، ص، 116. كما ورد في ترجمة لأحد أولياء المغرب الأوسط أنه اعترض سبيل أمير حفصي حرك إلى تلمسان وقال له، «آش تسال لهذا الناس، تخرب بلاد الإسلام»، ابن مريم، البستان، ص، 137.

[426] ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص ص، 88–89.

[427] ابن تجلات، إثمد العينين، ج. 1، ص ص، 173–174.

[428] ابن قنفذ، أنس الفقير، ص، 70. أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، ص، 242.

[429] ابن قنفذ، أنس الفقير، ص، 70.

[430] النميري، فيض العباب، ص ص، 219–220.

[431] انظر ترجمته عند ابن مريم، البستان، ص ص، 79–80.

[432] انظر ترجمته في المصدر نفسه، ص ص، 136–137. محمد ياسر الهلالي، اغتيال السلطان يوسف بن يعقوب المريني (قراءة في نصوص تاريخية ومناقبية لحادثة المنصورة)، ضمن «التاريخ والفقه»، أعمال مهداة إلى المرحوم محمد زنيبر، إنجاز الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، تنسيق محمد حجي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 2003، ص ص، 242–243.

[433] العزفي، دعامة اليقين، ص، 41.

[434] المصدر نفسه، ص، 42.

[435] ابن تجلات، إثمد العينين، ج. 1، ص، 173.

Scanned by CamScanner

436 محمد المهدي الفاسي، **ممتع الأسماع**، ص، 85.

437 أحمد بابا التنبكتي، **نيل الابتهاج**، ص، 545. محمد المهدي الفاسي، **ممتع الأسماع**، ص، 48. انظر أيضا، مارمول، **إفريقيا**، ج. 2، ص، 69.

438 محمد المهدي الفاسي، مصدر سابق، ص، 41.

439 عبد الأحد السبتي، **قضايا في دراسة التاريخيات**، ص ص، 21–22.

440 راجع تلك القراءة القيمة التي أنجزها إبراهيم القادري بوتشيش عن المجتمع الذي ينشد المتصوفة تحقيقه، والقيم التي ناضلوا من أجل تكريسها. **المغرب والأندلس في عصر المرابطين**، ص، 140–150.

441 ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**، ص، 66.

442 المصدر نفسه، ص ص، 70–71. **الأنيس المطرب**، ص، 292. ابن غازي، **الروض الهتون**، ص، 35.

443 احمد بابا التنبكتي، **نيل الابتهاج**، ص، 242. التنسي، **تاريخ بني زيان**، ص، 133. ابن قنفذ، **أنس الفقير**، ص، 70. وتبتغي الإشارة هنا إلى كرامة أخرى مرتبطة بفك هذا الحصار، وتتعلق بما أورده ابن مريم في ترجمته لسيدي محمد بن أحمد التلمساني الشهير بالمقري أن «من عجائب أبي عبد الله القرموني في تفسير الرؤيا أنه كان في سجن أبي يعقوب يوسف بن عبد الحق مع غيره من أهل تلمسان أيام حصره لها، فرأى في منامه أبا جمعة علي الجرائحي منهم كأنه قائم على سانية دائرة وجميع أقداحها وأفواهها تصب في نقير في وسطها، فجاء يشرب فاغترف الماء فإذا فيه فرث ودم، فأرسله واغترف فإذا هو كذلك ثلاثا أو أكثر، ثم عدل إلى خصة ماء فجاء وشرب منها ثم استيقظ وهو في النهار فأخبره، فقال، إن صدقت الرؤيا فنحن خارجون عن قريب من هذا السجن، قال كيف؟ قال، السانية الزمان، والنقير السلطان، وأنت الجرائحي تدخل يدك في جوفه فينالها الفرث والدم، وهذا لا نحتاج معه إلى دليل. فلم يكن إلا ضحوة الغد فإذا النداء عليه فخرج فوجد السلطان مطعونا بخنجر، فأدخل يده في جوفه فناله الفرث والدم فخاط جراحته، وخرج فرآى خصة ماء فغسل يده وشرب، فلم يلبث السلطان أن توفي وسرح المسجونون». ابن مريم، **البستان**، ص، 160. احمد بابا التنبكتي، **نيل الابتهاج**، ص، 424.

444 ابن قنفذ، **أنس الفقير**، ص، 51.

445 ابن تجلات، **إثمد العينين**، ج. 1، ص ص، 238–239. المقري، **أزهار الرياض في أخبار عياض**، تحقيق عبد السلام الهراس وسعيد أعراب، مطبعة فضالة، المحمدية، 1988، ج. 5، ص ص، 24–25. ابن عباد، **الرسائل الكبرى**، ص، 254. ابن مريم، **البستان**، ص، 299. محمد القبلي، **مراجعات**، ص ص، 112–113. ابن القاضي، **جذوة الاقتباس**، ج. 2، ص، 451. عبد الوهاب الدبيش، **فاس المرينية**، ص، 180. محمد فتحة، **الأحكام والنوازل**، ص، 147.

446 ابن عباد، **كتب موجهة**، ص، 60.

Kably, *Société, pouvoir...*, *op. cit.*, p. 226.

447 المصدر نفسه، ص ص، 58–59. الحافي، **تحفة الزائر**، ص، 17.

448 ابن مريم، **البستان**، ص، 299.

449 محمد المهدي الفاسي، **ممتع الأسماع**، ص، 41.

450 انظر على سبيل المثل، ابن الزيات التادلي، **التشوف**، ص، 151. ابن مريم، **البستان**، ص، 80–81–233.

451 أبو عبد الله الوراق، **مناقب سيدي عبد السلام بن مشيش**، ص ص، 247–248.

452 البادسي، **المقصد الشريف**، ص، 144.

453 المصدر نفسه، ص، 61.

454 الماجري، **المنهاج الواضح**، ص، 327.

455 الونشريسي، **المعيار**، ج. 2، ص ص، 403–404.

Scanned by CamScanner

التادلي الصومعي، المعزى في مناقب أبي يعزى، ص، 168.

456 إثمد العينين، ج. 1، ص، 213.

457 كان أبو داوود مزاحم (ت. 578هـ) جد هذا الأخير هو من بني هذا الرباط، انظر ترجمته عند

البادسي، المقصد الشريف، ص ص، 50-52.

458 المصدر نفسه، ص، 60.

459 المصدر نفسه، ص، 61.

460 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

461 راجع المبحث الثاني من الفصل الأول ضمن الباب الثاني من هذا البحث.

462 راجع عن هذه النقطة المبحث السابق ذكره.

463 الماجري، المنهاج الواضح، ص ص، 324-325.

464 ابن قنفذ، أنس الفقير، ص، 9. الحافي، تحفة الزائر، ص، 50. ابن القاضي، ذرة الحجال، ج. 1، ص،

465 جذوة الاقتباس، ق 1، ص، 153.

149. ابن تجلات، إثمد العينين، ج. 1، ص ص، 230-231.

466 ابن الزيات التادلي، التشوف، ص، 159.

467 أحمد باب التنبكتي، نيل الابتهاج، ص، 322. ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ق 2، ص، 487.

468 البادسي، المقصد الشريف، ص ص، 95-96.

469 المصدر نفسه، ص، 96.

470 انظر ابن الزيات التادلي، التشوف، ص، 159-188. البادسي، المقصد الشريف، ص، 51-52-74-75-

111-112-97. ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج. 1، ص، 335. ابن الطواح، سبك المقال، ص، 56.

أحمد بابا التنبكي، نيل الابتهاج، ص، 451.

471 البادسي، المقصد الشريف، ص، 50.

472 ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ق 2، ص، 522.

473 محمد المهدي الفاسي، ممتع الأسماع، ص، 82.

474 إبراهيم القاردي بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص ص، 113-114. محمد استيتو، الفقر

475 والفقراء، ص، 458.

476 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 398. ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، ص، 137. النميري،

فيض العباب، ص، 481.

477 ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره ابن الخطيب عن روضة أبي العباس السبتي التي «يلج ذو الحاجة بابها خالعاً نعله، مستحضرا نيته، ويقعد بإزاء القبر قعدة لذلك، ومن عجز عن النقدين تصدق بالطعام ونحوه، فإذا خف الزائر آخر النهار، عمد القائم على التربة إلى ما أودع في تلك الأواني، فقسمه على المحاويج الحافين بها، ويحصون كل عشية، ويعمهم الرزق المودع فيهاب وإلى الآن مازال الحال على ما كان عليه في الروضة من ازدحام الخلق عليها، وقضاء حوائجهم، ولكن قل ذلك العطاء لفساد الزمان»، انظر، أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، ص، 75.

478 البادسي، المقصد الشريف، ص، 58.

479 ابن مريم، البستان، ص، 136.

480 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

481 التادلي الصومعي، المعزى في مناقب أبي يعزى، ص، 244-225. الناصري، الاستقصا، ج. 4، ص، 83.

482 ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص، 385. الزجالي، أمثال العوام، ج. 1، مثل رقم 1632،

Scanned by CamScanner

ص، 263. ابن ابي الرجال، **شرح أرجوزة في الأحكام النجومية**، ص، 9. ابن هيدور التادلي الفاسي، **الاعتبارات النظرية في الأحكام النجومية**، مخ. خ. ع، الرباط، رقم 291 د (ض.م)، ص، 236.

483 فقد سئل سيدي أحمد القباب «عمن يشتغل بضرب الخط وغيره من أنواع الكهانة»، الونشريسي، **المعيار**، ج. 12، ص، 55. ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 86.

484 الونشريسي، **المعيار**، ج. 11، ص، 171. والحقيقة أن السحرة، وعلى غرار الصوفية، قد حظوا بمكانة وهيبة كبيرة في مجتمع المغرب الوسيط خاصة في بعض المناطق التي انتشروا فيها بكثرة، من مثيل غمارة التي تشبع سكانها بكثير من ممارستاهم. فقد كان بجبال مجكسة من هذه المنطقة ساحر يعرف بأبي كسية «كان أهل موضعه يسمعون منه ولا يعصونه طرفة عين، [وكان] ... لبنيه ... وعقبه في تلك الناحية مزية وحظوة على من سواهم» (مجهول، **الاستبصار**، ص، 192). ولا شك أن تلك الهيبة قد ارتبطت بما كان يملكه، في اعتقادهم، من قدرة على التأديب والعقاب لمن عصى أوامره (البكري، **المغرب في أخبار المغرب**، ص، 101. مجهول، **الاستبصار**، ص، 193). وإذا كانت هذه الممارسات قد ارتبطت بفترة سابقة (راجع عنها للتفصيل، إبراهيم القادري بوتشيش، **الإسلام السري**، ص ص، 38–44). فإنها استمرت خلال العصر المريني حيث ظل أهل غمارة يمارسون هذه الأعمال. (انظر، ابن الخطيب، **معيار الاختيار**، ص، 143). كما مورست في مناطق أخرى غير غمارة (ابن الحاج، **المدخل لتنمية الأعمال**، ج. 1، ص، 16–105. أحمد زروق، **عدة المريد**، ص، 28–81).

485 قالت العامة في أمثالها، «حروز حطاب»، الزجالي، **أمثال العوام**، مثل رقم 843. وقالوا أيضا، «حرز أبي دجانة»، مثل رقم 844، ج. 1، ص، 263.

486 خصص ابن خلدون صفحات من مقدمته للحديث «في أصناف المدركين للغيب من البشر بالفطرة أو بالرياضة»، **المقدمة**، ص ص، 73–95. العزفي، **دعامة اليقين**، ص، 36.

487 ابن حجر التميمي، **منتهى الأعلام بوفاة الصحابة وملوك الإسلام**، مخ. خ. ح، رقم 1507، ص، 470.

488 ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 85.

489 المصدر نفسه، ص، 89. عبد الواحد المراكشي، **المعجب**، ص، 265. المختار بن أحمد التنبكتي، **فوائد نورانية في اسم الله الأعظم**، مخ. خ. ع، الرباط، رقم 209د، (ض.م)، ص ص، 217–218.

490 **فوائد نورانية**، ص، 217. قالت العامة، «جن رحا، أسود مغبر»، الزجالي، **أمثال العوام**، مثل رقم 365، ج. 1، ص، 262.

491 إبراهيم القادري بوتشيش، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين**، ص، 110–120. محمد استيتو، **الفقر والفقراء**، ص، 219.

492 ابن قنفذ، **شرح أرجوزة في الأحكام النجومية**، ص، 123–127.

493 المصدر نفسه، ص، 9، وتجدر الإشارة في هذا الصدد أن استشراء الحروب والفتن في المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط قد دفع ببعض المؤلفين إلى القول إنه كان صاحب الأحكام المريخية بامتياز، انظر العمري، **مسالك الأبصار**، ص، 106. القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج. 5، ص، 173. القزويني، **آثار البلاد وأخبار العباد**، ص، 163.

494 ابن أبي الرجال، **شرح أرجوزة في الأحكام النجومية**، ص، 142.

495 ابن عذاري، **البيان المغرب**، **قسم الموحدين**، ص، 385. الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 136.

496 وفي ذلك يقول،

كان قالي شخص، ريتها في مقام	ما نذكر اسمه لا نفشيه
رايت بدر السما نزل برج حمام	حتى دخل طاق فيه وسد عليه
فابق مدة يقال في ذا الثغرة	تسمع له حمحم كصهل حصان
أن السلطان في مدتوا يجرا	مالا يسع لا سطور ولا ديوان

Scanned by CamScanner

ملعبة، ص ص، 102–103.

497 الذخيرة السنية، ص، 71.

498 البيان المغرب، قسم الموحدين، ص، 450.

499 أعلام المغرب والأندلس، 451–455–459.

500 ابن هيدور التادلي، الاعتبارات النظرية، ص، 236.

501 ابن رشد، نوازل ابن رشد، ص، 361. نقلا عن إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص، 117.

502 ابن هيدور التادلي، الاعتبارات النظرية، ص، 236.

503 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

504 ابن أبي الرجال، شرح أرجوزة في الأحكام النجومية، ص، 142.

505 المصدر نفسه، ص، 29.

506 فوائد نورانية، 218–219. وقد قدم أحد المصنفين في هذا المجال مثالا لذلك فقال، «هذه صورة الفلك لوقت ولادة تاريخها في ليلة الأحد التاسع عشر لذي القعدة من عام اثنين وستين وسبعمائة ولطول فاس، والأب حينئذ في منزلة شريفة وقدر عظيم، فحكمت عليه بالسقوط من منزلته، وأن النكبة تصيبه لوقوع سهم الأب في الجوزاء، وصاحبه سهم المريخ (...) واتفق ذلك بعد أربعة أيام، وهي مقدار ما بين عطارد والمريخ، وفي الخامس سقوط مرتبته»، ابن أبي الرجال، شرح أرجوزة في الأحكام النجومية، ص، 35.

507 وقد خصص المنجمون لتقلبات العمال والولاة والحكام في المراتب وما يرتبط بذلك من فتن وسفك الدماء، أقساما هامة في مؤلفاتهم، انظر، ابن قنفذ، مصدر سابق، ص، 47–75.

508 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 71.

509 إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص ص، 190–191.

510 الكفيف الزرهوني، ملعبة، ص، 145–147–148.

511 نقلا عن إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص ص، 190–191.

512 ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص، 288. إبراهيم القادري بوتشيش، الإسلام السري، ص، 42–39.

513 البكري، المغرب في أخبار المغرب، ص، 189.

514 فوائد نورانية، و، 218.

515 المصدر نفسه، الورقة نفسها.

516 المصدر نفسه، و، 210.

517 المصدر نفسه، و، 212.

518 المصدر نفسه، و، 217–218. ومنها أيضا، «اللهم يا سلام سلمني من آفات الدنيا والآخرة، يا قاهر اقهر لي عدوي واجعلني قاهراً غير مقهور»، المصدر نفسه، و، 219.

519 التيفاشي، أزهار الأفكار في جواهر الأحجار، ص، 190.

520 المصدر نفسه، ص ص، 144–145.

521 المصدر نفسه، ص، 114.

522 ابن الحاج، المدخل لتنمية الأعمال، ج. 1، ص، 185.

523 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

524 وتقول هذه الأبيات،

يا مزمعاً للرحيل عنا — أسعدك الله في ارتحالك
كان الله لك خير واق — أمنك الله في المسالك

Scanned by CamScanner

زاد الراكب، و، 288.

525 المصدر نفسه، و، 228.

526 المصدر نفسه، و، 228.

527 ابن أبي الرجال، شرح أرجوزة في الأحكام النجومية، ص، 66. ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص، 385.

528 المصدر نفسه، ص، 32.

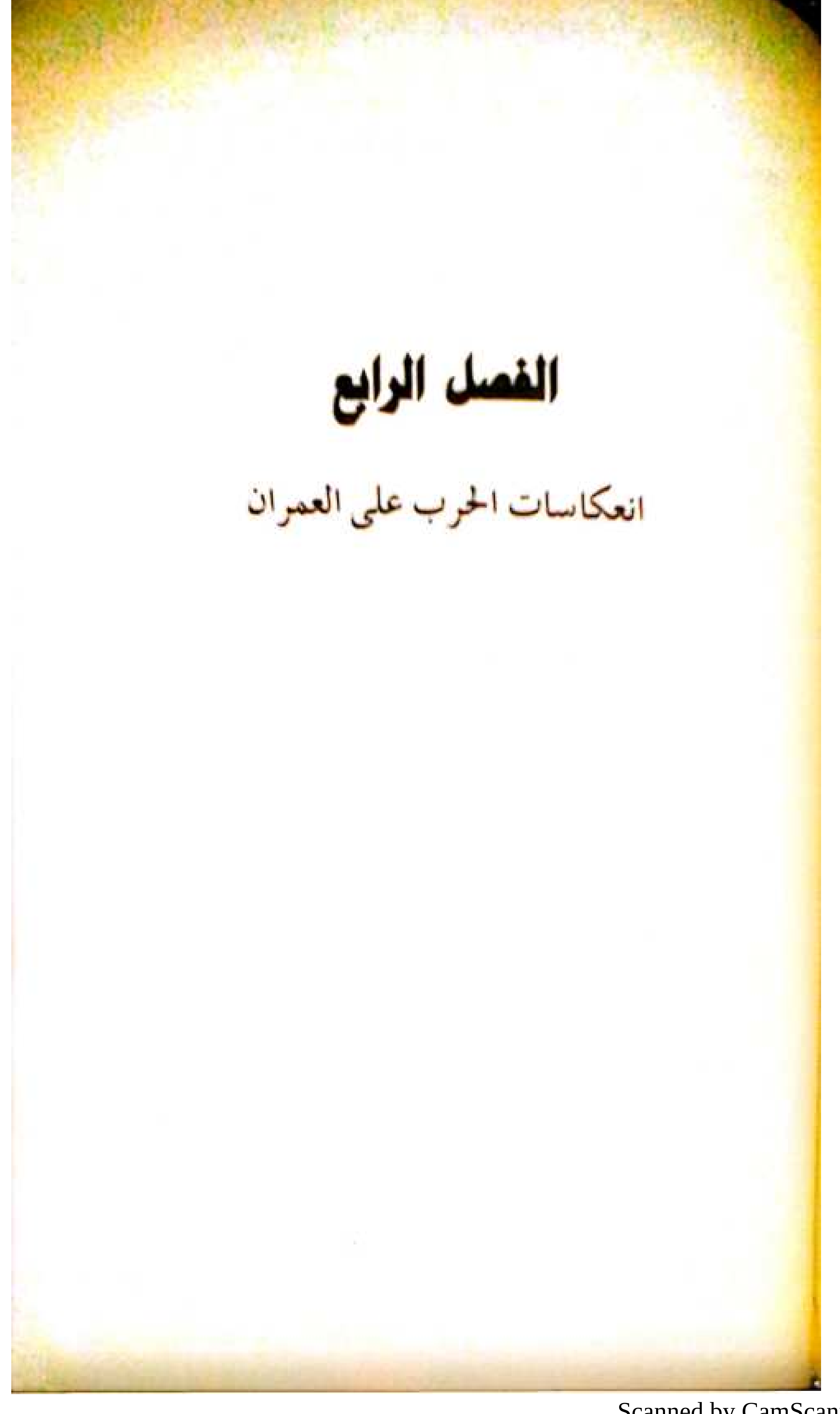
529 المصدر نفسه، ص، 55.

530 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

531 الونشريسي، المعيار، ج. 11، ص، 171.

532 ابن قنفذ، شرح أرجوزة في الأحكام النجومية، ص، 70.

Scanned by CamScanner



الفصل الرابع

انعكاسات الحرب على العمران

Scanned by CamScanner



Scanned by CamScanner

لا حاجة إلى كبير عناء لإثبات عمق الأثر الذي مس البنية العمرانية من جراء الحروب والتقلبات السياسية والاجتماعية التي درت بقرنها في بلاد المغرب الأقصى طولها وعرضها خلال فترات طويلة من العصر المريني. فقد كان لهذه الظاهرة دور خطير في تراجع العمران وانهياره، كما أفضت إلى تخريب[1] مدن[2] بكاملها، والقضاء بصفة نهائية على أخرى. وبالمقابل سمحت ببروز أشكال أخرى من العمران تنسجم وطبيعة الواقع الموسوم بكثرة الحروب والنزاعات.

الحال أن مجتمعاً يتنفس الحرب، بتعبير أحد الباحثين،[3] ويعتبرها مصدراً هاماً للكسب والمعاش، كان طبيعيا أن يوجه كل إمكاناته المجتمعية والحضارية لخدمتها، فتضرر تبعا لذلك ميدان العمارة من طغيان الهاجس الحربي والعسكري، وتقلصت سبل تطوره وازدهاره؛ إذ بقدر ما نشطت معاول الهدم والتخريب في المنجزات المعمارية السابقة، نشطت – ولو جزئيا – حركة العمران المصبوغة بالهاجس الأمني والطابع الدفاعي العسكري.

المبحث الأول: أثر الحروب في تهيئة المجال المعماري

ما كان لاستفحال الاضطرابات السياسية، والحروب القبلية، والفلتان الأمني الذي رافقها في فترات طويلة من عصر هذه الدراسة، إلا أن يرسخ الطابع العسكري/الدفاعي في المجال المعماري، ويدفع نحو مراجعة الهيكلة المعمارية وفق معايير وأسس جديدة، تأخذ عامل الظاهرة الحربية وتفشيها بعين الاعتبار؛ فكان الاهتمام أكثر بالتحصين، ورفع الأسوار، فضلا عن مظاهر أخرى كثيرة تفصح عن مدى تماهي البعد العسكري بالهندسة المعمارية وتطبيقاتها في مغرب العصر المريني.

أولا: الهاجس الأمني– الدفاعي في تخطيط المدن

إن في استقراء تاريخ المدن بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط عامة، والمريني بوجه خاص، ما يكشف هيمنة العوامل العسكرية بهواجسها الأمنية والدفاعية على بقية العوامل المتحكمة في تأسيسها؛ فلم يفت أصحاب القلم، وأهل الحكمة، تأكيد أهمية «السور الحصين، والسلطان القاهر [لكل مدينة]، به صلاح حالها، وتأمين سبلها، وكف جبابرتها»،[4] وأن لجوء الإنسان إلى المدينة والاستقرار بها، إنما لـ«يقر بها قراره، ويتوجه إليها ركونه وفراره، إذا رابه أضراره، ويختزن بها أقواته التي بها حياته».[5] و لم يحد غيرهم عن

Scanned by CamScanner

هذا الاتجاه، حين أقر بأن أحسن المدن من جمعت بين خمسة أشياء هي الماء الجاري، والمحرث الطيب، والحطب القريب، لكن أهمها «سور حصين، وسلطان قاهر، إذ به صلاح أهلها، وتأمين سبلها».[6]

أما ابن خلدون[7] الذي خبر أحوال العمران بالمغرب الأقصى خلال هذه المرحلة، فلم يخف حضور الهاجس الأمني والدفاعي، والطابع العسكري في الهندسة المعمارية لكثير من المدن المختطة في عصره، فالمدن تبنى وتشيد، لا لتقوم بأدوار اقتصادية واجتماعية،[8] بل لتحمي أهلها وساكنتها بمن فيهم الحكام والأمراء، ولتكون «شجا في حلق من يروم العزة»،[9] وليعتصم بها من الإستيلاء والتغلب؛ ذلك أن «مغالبة المصر على نهاية من الصعوبة والمشقة، والمصر يقوم مقام العساكر المتعددة لما فيه من الامتناع، ونكاية الحرب من وراء الجدران من غير حاجة إلى كثير عدد، ولا عظيم شوكة... وثبات هؤلاء بالجدران، فلا يضطرون إلى كبيرة عصابة ولا عدد، مما يفت من عضد الأمة التي تروم الاستيلاء، ويخضد شوكة استيلائها».[10]

ولما كانت المدينة في منظور ابن خلدون -وهو منظور المرحلة كلها- إنما تشيد وتعمر لـ«دفع ما يتوقع على الملك من أمر المنازعين والمشاغبين»،[11] ويراعى في تشييدها «دفع المضار بالحماية من طوارقها»،[12] فإن أهم شرط اعتبر في تأسيس المدن واختطاطها تمثل في «أن يدار على منازلها سياج الأسوار، وأن يكون وضع ذلك في ممتنع من الأمكنة، إما على هضبة متوعرة من الجبل، وإما باستدارة بحر أو نهر بها، حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة، فيصعب منالها على العدو، ويتضاعف امتناعها وحصنها».[13]

ونستطيع أن نجد صدى لهذا التصور في المدن المختطة في مغرب العصر الوسيط عموما، فبقدر ما تنافس مختطو المدن في تحصينها، تنافس الجغرافيون والرحالة في المفاضلة بينها بشروط الحصانة دون غيرها. وحسبنا أن من فضائل فاس «بعدها عن أطراف الأرض التي تخاف بها الغارات وغير ذلك»،[14] وما عرفت به فاس الجديدة من «الحصانة والمنعة».[15] كما أن مدينة تلمسان بلغت من الحصانة والمناعة حد التواتر، «مع أنها في وطاءة من الأرض، ولكنها محصنة البناء، وبلغ من حصانتها أن أبا يعقوب المريني صاحب فاس حاصرها، عشر سنين... وأعجزه فتحها».[16] بل إن البعض لم يتردد في تأكيد أن مراكش، بحصانتها، ليست في حقيقتها سوى قصبة كبيرة محصنة، «كأنها مدينة، ذات أسوار سميكة

Scanned by CamScanner

متينة فتحت فيها أبواب في غاية الحسن، قوائمها وأعاليها من الحجر المنحوت، ومصاريعها مصفحة بالحديد».[17]

وعلى عكس حصانة هذه المدن، والتي سمحت لها بأن تستمر معمرة، وإن بدرجات متفاوتة بالرغم من تردد الغارات، وكثرة المطالبين عليها، فإن بعضها الآخر وسم بالضعف والوهن من حيث الحصانة مما أفضى إلى خرابها، ولا أدل على ذلك من أن مدينة أغمات خربت ودمرت وأضحت حصنا صغيرا لا يأوي إلا القليل من الناس[18]؛ لأن «اعدوها نفيق، لكثرته، السهول، وأموالها لعدم المنعة في غير ضمان، ونفوسها لا تعرف طعم أمان».[19] كما أن سلا، التي لم تشيد في مرتفع من الأمكنة، ولم تراع فيها شروط التحصين المتداولة،[20] أصبحت في متناول الأعداء، فسورها «حقير وثور، إلى التجنيد والتشييد فقير، إطام خاملة، وللروم آملة، وقصبتها بالبلد متصلة، ومن دعوى الحصانة متنقلة، وسورها مفرد، لا سلوقية نقية، وبابها تقصد لا ساتر تحميه...وفي عهد قريب استباحتها الروم في اليوم الشامس، ولم ترد يد لامس... وقد سقطت دعوى المنعة».[21]

تحملنا هذه القرائن على الاعتقاد بقوة الأثر الذي رسمته الظاهرة الحربية في المجال المعماري، ودورها في ترسيخ الطابع العسكري والدفاعي فيه. وإذا كان الأمر يتعلق بتحولات هيكلية تعود جذورها إلى مرحلة سابقة على العصر المريني، فإننا نميل إلى القول بأن تفاقم الاضطرابات السياسية والصراعات المحلية، وغارات القبائل، فضلا عن توالي الهجمات الخارجية (بنو عبد الوادي، المسيحيون، بنو الأحمر ...) في هذه المرحلة، ما كان إلا أن يدعم هذا المنحى الدفاعي في الجانب المعماري، ويرسخ الطابع الحربي في ما أنشئ خلال هذا العصر من عمران، على قلته وضعفه.

فعلى الرغم من أن المتعارف عليه لدى القدامى أن «حظ السلطان من عمارة البلدان أوفى من حظ رعيته»،[22] وأن «استبحار العمران ... إنما يجيء من قبل الدولة»،[23] فإننا نعتقد أن عمليات البناء والتشييد، والتي كانت تتطلب عنصري الاستقرار والأمن،[24] ما كانت لتتحرك وتنمو أمام كثرة الحروب والغزوات التي قادها السلاطين المرينيون،[25] والأموال الضخمة التي كان عليهم توفيرها وتوجيهها لتمويل هذه الحروب وتغطية نفقاتها.[26] والحال أن المتتبع لكافة النصوص ذات الارتباط بالمنشآت العمرانية خلال العصر المريني، يكتشف بما لا يدع مجالا للشك، ضعف المشاريع العمرانية الكبرى وقلتها، واتصاف ما أنجز منها بالطابع العسكري الذي يخدم طبيعة الدولة الحربية ويحقق أهدافها.

والحقيقة أنه منذ أن توقفت الإنجازات العمرانية الموحدية في عهد الخليفة الموحدي محمد الناصر،[27] لم يسمح الوضع الأمني، واستفحال الحروب في أواخر الموحدين وبداية الدولة المرينية، بوجود نشاط يذكر في ميدان البناء والتشييد طيلة قرن تقريبا.[28] بل إن الهدم والتخريب قد مس ما أنجز منها،[29] ووجب انتظار آواخر القرن 7هـ/13م ليتبنى أبو يوسف يعقوب مشروع فاس الجديد، إذ لما «سكن غرب الثوار، وتمهد أهل الغرب، ورأى أمير المسلمين أن أمره قد استفحل، وملكه قد استوثق، واتسع نطاق دولته، وعظمت حاشيته، وكثر وافده، رأى أن يختط بلدا يتميز بسكناه في حاشيته وأهل خدمته وأوليائه، حاملين سرير ملكه، فأمر ببناء البلد الجديد لصق فاس بساحة الوادي المخترق وسطها من أعلاه»[30] غربا، وكان وضع حجرها الأساس يوم ثالث شوال من عام 674هـ/1275م،[31] «فكانت أعظم آثار هذه الدولة وأبقاها على الأيام».[32]

ونستطيع أن نتبين الهاجس العسكري الذي حكم بناء الملحقة الجديدة لمدينة فاس الأصلية؛ فبصرف النظر عن الاعتقاد الشائع لدى القدامى أن تشييد مدينة يساوي تشييد دولة،[33] لأن المدينة التي كانت قبلا عاصمة للدولة السابقة بساكنيها وأحوالها تكون «منكرة عند أهل الدولة الجديدة، ومستبشعة وقبيحة»[34]؛ ولأن سكناها يعرض أولي الأمر الجديد لتآمر «أهل الدولة السابقة وأشياعها»[35] وغائلتهم، مما يفسر عدول بني مرين عن سكنى مدينة مراكش، واستبدالها بمدينة فاس القريبة من تخومهم،[36] نعتقد أن للأحداث التي عرفتها هذه الأخيرة في بداية الدخول المريني لها، يفسر بعضا مما نسعى إلى تأكيده.

فبينما اعتقد المرينيون خلال تحركاتهم الأولى بإمكانية اتخاذ مدينة فاس معقلا آمنا لهم، بعيدا عن مراكش الموحدية ومجالاتها المصمودية المساندة، لتوجيه حملاتهم ضداً على هذه الأخيرة، فاجأتهم ثورة أهل فاس على السعود مولى أبي بكر المريني الذي تركه واليا عليها في قصر القصبة الموحدية– والتي كان محمد الناصر الموحدي قد بناها على مقربة من باب الشريعة عام 600هـ/1203م، واتخذها أبو بكر سكنا له خلال اقتحامه للمدينة،[37] فقتلوا السعود، ونهبوا أموال أبي بكر، واستباحوا حريمه،[38] لكن هذا الأخير أوقف حملاته التمهيدية، وتفرغ لاستعادة فاس، إلى أن اقتحمها، وعاقب رؤوس الفتنة، «ونهبت ديارهم وأموالهم، وأخذت رباعهم»،[39] وأغرم منهم ما أخذ له من المال.[40]

ويبدو أنه، وابتداء من هذه الأحداث، بدأ تفكير بني مرين يتجه نحو اتخاذ مدينة تخصهم، لذلك فمبجرد أن «سكن غرب الثوار، وتمهد أهل المغرب»،[41] وبعد سلسلة

Scanned by CamScanner

الانتصارات التي حققها بنو مرين في الأندلس،[42] رأى أبو يوسف «أن يختط بلدا يتميز بسكناه في حاشيته، وأهل دولته، وأهل خدمته وأوليائه، حاملين سرير ملكه، فأمر ببناء البلد الجديد»،[43] ليكون معقلا له ولخاصته من الأشياخ وقواد الجيش، احترازا «ممن يروم منازعتهم، والخروج عليهم»،[44] واستعدادا لـ «ما يتوقع على الملك من أمر المتنازعين والمشاغبين».[45] وفي هذا كله ما يبرز الهاجس العسكري، والهم الأمني المؤطر لما بني وشيد في مغرب هذه الفترة.

ومما يكشف الطابع الحربي في بناء هذه المدينة، ما تذكره النصوص عن حرص المرينيين في تحصينها بكل مظاهر التحصين والمناعة؛ فبينما كانت فاس كلها محاطة «بأسوار دائرة محصنة ذوات بروج وبدنات، وجميع أبنيتها من الحجر والكلس والأجر، موثقة البناء، مشيدة الأركان».[46] أصبحت فاس الجديدة بطابعها العسكري «تزيد على (...) العتيقة في الحصانة والمنعة؛ فالعتيقة بسور من الحجارة، والجديدة بسورين من الطين المفرغ بالقالب من التراب والرمل والكلس المضروب، وهو أشد من الحجر ولا تعمل فيه المجانيق، ولا تؤثر فيه»،[47] مما يشير إلى رغبة مؤسسها في اتخاذها قلعة منيعة تحميه من تمردات الثوار، وغارات الأعداء.[48]

ومن أبرز المدن الكاشفة عن مظاهر اختلال البنيات القديمة، والاتجاه نحو مراجعة الهيكلة المعمارية وفق معايير وأسس جديدة، تأخذ عامل الحرب وتفشيها بعين الاعتبار، بل تخضع له، مدينة المنصورة التي أسسها يوسف بن يعقوب بالقرب من تلمسان أثناء حصاره الشهير لها. وتثبت كثير من النصوص الهاجس العسكري الذي كان وراء تأسيس هذه المدينة؛ ففي ظل عجز الجيوش المرينية عن اقتحام المدينة، لم يجد السلطان المريني بدا من أن يضرب عليها «سياجا من الأسوار محيطا بها، وفتح فيه أبوابا مداخل لحربها، واختط لنزله إلى جانب الأسوار مدينة سماها المنصورة، وأقام على ذلك سنين يغاديها بالقتال ويراوحها».[49]

إن في الدافع الحربي والعسكري الذي كان وراء بناء المنصورة ما يدفع إلى مراجعة تفسيرات بعض الباحثين الذين ربطوا بناءها بدوافع تجارية واقتصادية محضة.[50] وإذا كنا لا نقلل من أهمية تفسيرات هؤلاء الباحثين، فإننا قد لا نبالغ إن قلنا إن مدينة المنصورة لم تكن في حقيقتها سوى مرحلة متطورة لنظام المحلة السلطانية في ظل التحركات العسكرية المستمرة للسلطان والدولة،[51] ونموذجا آخر للمدن التي أسست لغرض عسكري حربي،

Scanned by CamScanner

تمثل في هذه الحالة في حصار بني عبد الواد بتلمسان التي استعصى اقتحامها على بني مرين، وطال بهم المقام في ظاهرها.

من أجل ذلك، وبسبب طول مدة الحصار تحول «أفراك» السلطان إلى قصر «بناه في موضع نزوله حيث ضرب قبابه، ثم بنى جامعا كبيرا، وأقام فيه الخطبة بإزاء قصره»،[52] وتحولت جوانب «الأفراك» السلطاني في المحلة إلى بيوت ومنازل حيث أمر السلطان «الناس بالبناء، فانتشر الناس في البنيان بالمحلة يمينا وشمالا، فأدار السور على قصره وعلى الجامع الذي بإزائه»،[53] ثم ختمه بـ «بناء السور الأعظم على تلمسان الجديدة»،[54] وفي هذا ما يفصح على ما أكدناه أعلاه. ويكفي أخيرا للتأكيد على الطابع العسكري لهذه المدينة أنها خربت بمجرد نهاية الغرض الذي أسست من أجله.[55]

ومما يعزز هذا التخريج، ويفصح عن الدوافع العسكرية التي تحكمت في ما بني وشيد بمغرب هذه المرحلة، القصبة التي بناها يعقوب بن عبد الحق بخارج الجزيرة الخضراء لتكون موضعا لنزوله واستراحة جنوده، أثناء جوازاته للعدوة الأندلسية، «فكان يسكنها هو وقرابته ووزراؤه وحشمه إذا جاز إلى الجهاد؛ لأن لا يضيق على أهل الجزيرة في سكناهم».[56] والقصبة المعروفة في سبتة بـ«أفراك» التي بناها السلطان أبو سعيد عثمان سنة 729هـ/1328م،[57] وفي إسمها الذي يحيل على المحلة السلطانية، ما يغنينا عن البحث في الدوافع العسكرية التي كانت وراء بنائها.[58] ثم المدينة التي أسسها السلطان أبو عنان في السوس لأجل حصار أحد المتمردين، حيث «اختط مدينة لمعسكره وتجهيز كتائبه بسفح الجبل سماها القاهرة».[59] ولعل في هذه النماذج ما يكشف الحضور المكثف للحرب، وللهاجس العسكري في عمران المغرب الأقصى خلال هذا العصر.

ثانيا: الحرب والهندسة المعمارية: عسكرة المجال

1. الأسوار

يظل تسوير المدن، ورفع تحصيناتها لجعلها بمنأى عن الحروب والفتن والغارات والغزوات، من أبرز المظاهر الكاشفة عن طغيان الهاجس الأمني، والطابع العسكري في المجال المعماري بمغرب هذه المرحلة. وقد كان من الطبيعي أمام تزايد نسبة الحصارات، وأعمال العنف، واقتحام المدن والإغارة عليها، أن ينفسح المجال لبعض أصحاب القلم

Scanned by CamScanner

تأكيد أهمية السور الحصين بالنسبة لمدن هذه الفترة، «به صلاح حالها وتأمين سبلها، وكف جبابرتها».[60] ولم يجد ابن خلدون[61] الذي عايش هذه الأوضاع بدا من تأكيد ذلك، إذ يرى أن المدينة يجب «أن يدار على جميع منازلها سياج الأسوار»، مادام أن هذه الأخيرة تجعل الحكام وأهل المدينة «في غير حاجة إلى كثير عدد، ولا عظيم شوكة»،[62] فضلا على أن «نكاية الحرب من وراء الجدران» أشد تأثيرا على نفوس الأعداء.

ولعل أبرز ما يثبت الأهمية القصوى التي أضحت للأسوار في مغرب العصر المريني أن الفقهاء لم يترددوا في التأكيد على نفقات الدولة ينبغي أن توجه نحو بناء الأسوار، لـ «سد مخاوف المسلمين»،[63] واعتبر بعضهم أن توفير تلك الأموال لمعالجة الأسوار وترميمها «آكد، إذ لاغناء عنه».[64] ولم يكن أحدهم أقل وضوحا في الاقرار أن «أسوار المسلمين من مصالحهم، مجراها مجرى أحباسهم وأوقافهم التي لا يجوز تغييرها، ولا نقلها من مواضعها، ولا هدم شيء منها، ولا تغييره من حالته المتقررة».[65]

ولا أدل على أهمية التحصين، وتسوير المدن والقرى بالمغرب الأقصى خلال هذه الفترة، من أن متانة السور وقوته وضخامته كانت من أهم المعايير التي اعتمدها المصنفون في الجغرافيا والرحلات للمفاضلة بين المدن، وتبيان محاسن بعضها، ومساوئ بعضها الآخر. وفي هذا الصدد عد ابن الخطيب[66] مدينة أسفي من «لبنات التمام للمسورات بالمغرب»، بينما وصف آخر تلمسان فقال: «لها سور حصين متقن الوثاقة»،[67] واعتبر غيره مدينة مراكش من أهم المسورات بالمغرب وأحصنها؛ لأنها «مسورة بأسوار متينة، مبنية بالحجر والرمل الممزوجين بتراب جيد يجعل الخليط صلبا لدرجة أنه إذا أصيب بضربة معول تطاير منه الرشاش كأنه صخر، بالرغم من كون المدينة تعرضت للنهب مرارا، فإنه لا توجد بالسور ولو ثلمة واحدة».[68] أما مدينة فاس فقد فضل بعض المصنفين جديدها عن عتيقها، معياره في ذلك ما كانت عليه فاس الجديدة من «الحصانة والمنعة، فالعتيقة بسور واحد من الحجارة، والجديدة بسورين من الطين المفرغ بالقالب من التراب والرمل والكلس المضروب، وهو أشد من الحجر، ولا تعمل فيه المجانيق ولا تؤثر فيه».[69]

وبالمقابل لم يجد ابن الخطيب، في مفاضلاته بين بعض المدن المغربية ومثيلاتها في الأندلس، بدا من إعلان بعض مساوئ الأولى، اعتمادا على معيار الحصانة، وقوة السور أو ضعفه. وفي هذا الصدد اعتبر أن من نقائص مدينة سلا أن سورها «حقير وثور، إلى التجديد والتشييد فقير، إطام خاملة وللروم آملة»،[70] ويمثل هذا وصف أسوار مدينة مكناسة حين

اعتبرها أطمار مرقعات، كأنها من ثياب أهلها.[71] وعموما فإن هذه القرائن مجتمعة تحملنا على الاعتقاد بقوة الأثر الذي خلفته حروب المرحلة في العمران، ودورها في ترسيخ الطابع العسكري والدفاعي فيه.

عموما، فأمام الوضع الأمني المتردي في مغرب هذه المرحلة لم تتردد الدولة في التدخل على أعلى مستوى لإعادة هيكلة البنية المعمارية، وتسويغها لمواجهة التقلبات السياسية والقلاقل الداخلية، فعمدت إلى تسوير ما لم يسور من المدن، وإعادة بناء ما تهدم منها خلال حروبها الأولى. ففي سنة 657هـ/1258م أقدم عمر بن أبي بكر المريني على بناء «قصبة مكناسة، وبنى لها الستارة الدائرة بالسور» إحكاما لها وتوثيقا لحصانتها.[72] وعندما اقتحم القشتاليون مدينة سلا سنة 658هـ/1259م أقدم يعقوب بن عبد الحق على «بناء السور الغربي من سلا الذي يقابل الوادي منها، فإنها كانت لا سور لها من تلك الجهة (...) ومن هذه الثلمة كان دخول النصارى إليـ»ها[73]

ولم يتوقف الأمر عند هذه المحاولات، بل تضافرت الجهود لتحصين مدينة فاس، وتوثيق منعتها؛ فحصنت فاس الجديدة بسور موثق من قبل بانيها يعقوب بن عبد الحق،[74] ثم تراكمت جهود من بعده لتحصينها أكثر، فأدار أبو سعيد عثمان الستارة الخارجية لهذه المدينة،[75] كما حصنها أحمد بن أبي سالم المريني أثناء استعداده لحصار جيش الأمير عبد الرحمان المريني بسياج آخر من الأسوار.[76]

ولم تقتصر عمليات التحصين والتسوير على المدن الداخلية، بل شملت بشكل هام التخوم والأطراف خاصة الشرقية والشمالية، استعدادا لأي هجوم خارجي عليهما؛ فقد أقدم أبو قاسم العزفي في عهد يعقوب بن عبد الحق على تحصين مدينة سبتة لجعلها بمنأى من غارات القراصنة المسيحيين، فأقام السور المجانب للمنارة.[77] كما عمل أبو يعقوب يوسف على بناء ما هدمه أبوه من أسوار وجدة، فأوعز ببنائها وتحصين أسوارها،[78] وتجرد أبو سعيد عثمان إلى تحصين مدينة كرسيف، ورفع أسوارها، لمجابهة غارات بني عبد الواد والقبائل الموالية لهم.[79] وكلها نماذج تكشف اهتمام الدولة بتسوير المدن، وإن كنا نعتقد أنها استفادت بشكل كبير من مجهودات الدولة المرابطية والموحدية في هذا المجال.[80]

ويستشف من متون المرحلة، أن الدولة المرينية لم تتكفل في جميع الحالات بمسؤولية بناء الأسوار وصيانتها وترميم ما تهدم منها، خاصة في مرحلة ضعفها، وتراجع ظلها على

Scanned by CamScanner

الساكنة والمجال، فألزم السكان بتوفير أموال البناء والصيانة والترميم وقسطت عليهم نفقات ذلك؛ فقد سئل أبو عبد الله بن مرزوق من مدينة مكناس عن المدينة «تهدم بعض سورها، ويحتاج إلى الإصلاح، ولا حبس عليه، ولا فيه مال، فهل يجب إصلاحه على من بالمدينة من غني أو فقير سواء بينهم».[81] وسئل غيره عن «أمر سور مدينة فاس ... تهدم بعض أرجائه، هل ينبغي أن يقوم عليه من جبره وبنائه، وأن الذي يحتاج إلى ذلك من المال كثير، وأن على أرباب الأملاك وظيف ذلك كله عليهم».[82] بل إننا لا نعدم من الإشارات ما يثبت حضور «السخرة» والإجبار على العمل في تحصين بعض الأسوار؛ من مثيل ما أقدم عليه الوزير عمر الياباني أثناء استعداده لحصار الأمير المريني عبد الحليم بن عمر، فعهد إلى جلب «الفعلة والصناع من البنائين والنجارين ... ولم يدع معروفا بصناعة.. ولا صاحب مهنة... إلا حصله خلف سوره إجحافاً».[83]

وبينما راعى بعض الفقهاء الوضع الاجتماعي لساكنة المدن، وأصروا على أن تتكفل الدولة بهذه المهمة، لأن بناء الأسوار بتعبير أبي عبد الله بن مرزوق، إنما «وجوبه على بيت المال»،[84] بينما اعتبروا أن تكليف الرعية بوظيف المعونة على بناء الأسوار وترميمها «عبء ثقيل، وحمل كبير، لا سيما في حق من هو منهم ضعيف أو يتيم أو صغير»،[85] لم يتردد غيرهم في أن يجيب على من تحفظ في ذلك بقوله : «أما تردد نظركم في مسألة إصلاح السور للشفقة على الرعية ... فإن المعلوم في هذه المسألة ... أن تقدم مراعاة المصالح العامة على المصالح الخاصة».[86]

ونعتقد أن الأهمية الحيوية التي أصبحت للأسوار في ظل الحرب المستعرة، والفلتان الأمني، قد عجل بترجيح الرأي الأخير في إجبار الرعية على توفير أموال البناء والصيانة.[87] كما أن تلك الأهمية أفرزت أشكالا من التضامن والتكافل الاجتماعي اضطلعت فيه مؤسسة الأوقاف بدور ريادي، حيث حضيت أسوار المدن بأحباس خاصة،[88] يشرف عليها ناظر أحباس السور، وهو ما تكشف عنه نازلة مؤرخة بتاريخ 744هـ/1343م تتحدث عن اختلاسات مست أموال سور مدينة فاس من قبل ناظره، وإنفاقه لأموال أحباس السور في بناء سجن المدينة وترميمه.[89] كما لا نعدم من القرائن ما يثبت مساهمة الناس بأملاكهم وأموالهم في هذا المجال؛ كمن حبس أملاكا[90] أو حوانيت[91] لصالح سور المدينة، ومن اختاروا تحويل أحباس مسجد،[92] أو ضريح، أو روضة[93] لصالح ترميم السور وصيانته. وكل ذلك يثبت طغيان الهاجس الأمني والدفاعي على غيره من المظاهر في هذه المرحلة.

Scanned by CamScanner

2. القلاع والحصون

ما قيل عن الأسوار يمكن تطبيقه أيضا على القلاع والحصون التي أضحت في هذا العصر بمثابة العنصر الأساس المميز للمنظر العمراني بعموم المنطقة. وهو ما تثبته بعض النصوص التي تحدثت عن فرار ساكنة المغرب الأقصى أمام الاقتحام المريني العنيف في بداية القرن 7هـ/13م، ولجوئهم «إلى معتصماتهم ومعاقلهم»،[94] وإلى «الجبال المنيعة لتكون لهم حصنا ومآلا»،[95] وما تكشف عنه أخرى في سياق حديثها عن تمكن بني مرين من تمهيد البلاد؛ إذ لم يتم لها ذلك إلا بعد أن فتحوا «كثيراً من جبال المغرب وقلاعه المنيعة».[96] فضلا عما قيل عن جبل درن الذي ضم وحده «جملة من قلاع وحصون تشف على نيف وسبعين حصنا»،[97] أو جبال غمارة التي «لحقت بأعنان السماء علواً، وفيها حصون كثيرة تتأبى فيها غمارة»،[98] وما لاحظه العبدري[99] في رحلته لبلاد القبلة كلها (السوس الأقصى) في كونها عبارة عن قلاع وحصون ومسورات، وفي ذلك كله ما يبرز الأهمية الحيوية التي أضحت للقلاع والحصون في ظل الوضع الأمني المضطرب، وبفعل كثرة الحروب واستشرائها.

ويزداد الأمر تأكيداً، عندما نصادف نصوصاً تثبت الدور المنوط بالحصن في هذه المرحلة، والغرض الذي بني من أجله، من قبيل ما يذكره الجغرافيون عن قلعة قريبة من أجرسيف في أنها «حصن حصين في أعلى الجبل لا متناول له، ولا مطمع فيه».[100] وما تحدث به آخر عن حصن تينملل الذي اتخذه ابن تومرت معقلا له في بداية الدولة الموحدية، وتمكن المرينيون فيما بعد من اقتحامه وتخريبه، بالرغم من أنه «الحصن المنيع القليل مثله في حصون الأرض بنية وتحصنا ومنعة».[101] إلى جانب ما تحدثت به بعض المصادر عن الجبل الذي «يجعل سكانه في مأمن دون تحصين آخر»،[102] والمنطقة التي تقوم فيها «وعورة الجبل الشديدة مقام الدفاع»،[103] أو القلعة «الحصينة بسبب وعورة الجبل»،[104] إلى غير ذلك من النصوص التي تفصح عن تهميش الجانب الإقتصادي والإجتماعي في الهندسة المعمارية بمغرب هذا العصر، وإفساح المجال لتألق المهندس المعماري الخبير في شؤون التحصين والهندسة العسكرية.

ونظرا لأهمية التحصينات، ودورها الأساس في دفع الخطر، وصد الغارات، لم يتردد الفقهاء في التأكيد على أن نفقات الدولة ينبغي أن توجه أساسا لـ«سد مخاوف المسلمين من الحصون»،[105] خاصة منها التي بالمناطق الثغرية، والتي يجب أن تزود «بما تحتاج إليه من المقاتلين والعدد المانعة والقوة النافعة، والطعام، وغير ذلك مما يحتاج إليه؛ لأن الثغور يتقى

Scanned by CamScanner

عليها العدو، فهي عورة يجب الاهتمام بها، والاعتناء بحالها، لأنها تؤدي إلى حفظ الدماء، والأموال، والحرم وغير ذلك».[106] ولم يكن أحد الفقهاء أقل وضوحاً حين حرم المكوس التي تفرضها الدولة على الرعية اللهم إلا إذا «وقع بالناس مصيبة تفتقر لمال، ولا شيء في بيت المال (...) وذلك كسقوط حصن بمكان مخوف».[107]

وإذا كان المرينيون قد استفادوا من القلاع والحصون التي خلفها المرابطون والموحدون من قبلهم،[108] فإننا نعتقد أن تفاقم الانفلات الأمني خلال هذه المرحلة، وتحول جبهات القتال إلى الداخل والأطراف، ما كان إلا أن يدفع إلى مزيد من الإهتمام بهذا النوع من العمران[109]؛ فليس صدفة أن يعمد الأمراء المرينيون إلى تحصين القلاع والحصون الشرقية مثل وجدة[110] وتاوريرت[111] وكرسيف[112] ودبدو[113] حيطة عليها من غارات بني عبد الوادي، ولتكون منطلقا لغارات مضادة ضداً عليهم. كما أنه ليس من قبيل المصادفة أن يقوم أبو سعيد عثمان ببناء القصبة المسماة «أفراك» بالقرب من سبتة،[114] وما أقدم عليه أبو الحسن حين أنشأ، على امتداد السواحل المغربية، كلها «من المحارس والمناظر ما لم يعهد بمثله في عصر من الأعصار، وحسبك أن مدينة أسفي وهي آخر المعمورة إلى بلد الجزائر، جزائر بني مزغنة [كلها] محارس ومناظر»،[115] لمواجهة كل الطوارئ الناشئة في الداخل، أو الآتية من الخارج، خاصة الغارات المسيحية التي بدأت آنذاك تهدد هذه السواحل.[116]

ولا شك أن استفحال الحروب القبلية في البوادي المغربية، وتقلص ظل الدولة عنها في أكثر من فترة خلال هذا العصر، أفضى إلى اهتمام كبير بالتحصينات وسكنى الحصون والقرى المسورة، وحسبنا أن أكثر بادية المغرب عبارة عن «قلاع منيعة»،[117] و«حصون مجموعة (...) قل ما تخلو من الحروب والفتن»،[118] فضلا عن «قرى مسورة آهلة».[119] ويظل أبرز مثال في هذا الصدد نظام المخازن الجماعية التي عرفتها أكثر من منطقة في بادية المغرب الأقصى،[120] والتي اتخذت شكل حصون تبنى في مرتفعات منيعة ومحصنة لتخزن فيها القبيلة طعامها وأقواتها خوفا عليها من الغارة والغصب.[121] وتخضع لتقاليد وأعراف تنظم تعميرها واستغلالها والدفاع عنها، وهو ما عرف في بعض المناطق بـ «أكادير» أو «إغرم» أو «تيغرمت».[122]

وقد زودتنا المصادر بأسماء كثيرة لهذه الحصون، ومنها على سبيل المثال، قلعة مهدي بجبال فازاز التي يتحصن فيها بعض أهل هذا الجبل، «ويخزنون فيها طعامهم»،[123] وقلعة تزوطة التي اتخذها بعض بني مرين معقلا لهم «يحفظون فيها حبوبهم وأمتعتهم، وبذلك

Scanned by CamScanner

كانوا يستطيعون الانتجاع في الصحاري بكل طمأنينة»،[124] ثم قلعة كرسيف التي أسسها بنو مرين «ليتخذوها مخزنا لحبوبهم، وحصنا لهم، عندما كانوا يقيمون في الصحاري»،[125] وقلعة «تاسكدلت» التي يحمل إليها جميع أهل حاحا «حبوبهم (...) خوفا من أن يسلبهم إياها الأعراب».[126]

3. أساليب معمارية أخرى

الجدير بالملاحظة، أنه بالموازاة مع سياسة بناء الحصون والقلاع، وتسوير المدن والقرى وتحصينها، لم يدخر الإنسان المغربي وسعا في إبداع أساليب عمرانية جديدة تكشف تغلغل الطابع الحربي في بنية المعمار المغربي خلال هذه المرحلة. وعلى الرغم من أن المعاينات الأركيولوجية، وعمليات السبر الأثري في المعمار المريني لا تزال في بداياتها الأولى، ولم تصل بعد إلى تأكيد هذا أو نفيه، فإن المتوفر من الإشارات في مظان المرحلة يفصح بما لا يدع مجالا للشك عن دور بارز للحرب وللهاجس الأمني في بروز هذا النوع من العمران.

أ. المطامير

ينطبق هذا القول على أساليب التخزين التي أبدع الإنسان المغربي في ابتكارها، وفي مقدمتها المطامير والأهراء المعدة لتخزين الطعام، والحفاظ على طراوته لمدة طويلة.[127] وعلى الرغم من أن العوامل الطبيعية، والجوائح التي عصفت في أكثر من مرة بمعاش مغاربة العصر الوسيط، كانت من أهم ما أفضى إلى ظهور هذا النوع من العمران،[128] فإننا نعتقد أن ما كانت تسببه الجوائح من غارات، وحروب عوز تستهدف انتزاع الطعام ممن يملكه،[129] فضلا عن الحصارات التي كانت تضرب ولمدد طويلة على القرى المسورة والمدن، أدت إلى مزيد من الطلب على هذا الشكل من العمران.

ولعل في ما أثبتناه أعلاه عن بروز المخازن الجماعية للقبائل في قمم الجبال، نتيجة لاستفحال الحروب والغارات، ما يؤكد صدق هذا التحليل. كما أن في ما يذكره بعض المصنفين حول مطامير وأهراء مدينة فاس التي جمعت «في مكان واحد، يستدير به سور منيع به باب وغلق»[130] لحمايتها ولإضفاء مزيد من التحصين عليها، وما أكده أحد الجغرافيين في أن أهراء مراكش ومطاميرها تحولت –لحصانتها– فيما بعد العصر المريني إلى مجال يسجن فيه الأسرى المسيحيون خوفا من فرارهم،[131] ما يفصح عن الهاجس الأمني الذي حكم بناء هذه الأهراء والمطامير.

Scanned by CamScanner

وفي كل الأحوال، فقد تواتر الحديث في مغرب العصر المريني عن كثرة هذه المطامير، إلى درجة أنه لا يكاد يخلو بيت منها، فضلا عن أهراء المدينة ومخزنها. وحسبنا أنه كان في مدينة وحدها من هذه «المطامير المعدة لخزن الزرع أربعون ألفا متفرقة بالديار، وبعض الحوانيت، ما عدا مخازن الفندق الكبير (...) والأهراء التي بالقصبة».[132] وغير بعيد عن هذا السياق، كثر الحديث في هذه الفترة عمن صمم على أن يحدث في «دار محبسة على مسجد، وهي خربة (...) مطمورتين للزرع، ويعطي من عنده إجارة حفرهما ويكريهما»،[133] ومن «غصب دارا وحفر فيها مطامير، ثم استحقها ربها»،[134] والمرأة التي «اكترت مطمرا فخزنته فوجدت القمح مسوسا، وصاحب المطمر عالم بأنه يسوس»،[135] والرجل الذي «اكترى منه رجل بيتا يجعل فيه طعامه أو في بيته حيث يسكن، فضاع الطعام».[136] بل عم الحديث أيضا عمن دفع أموالا من ماله الخاص لشيخ قبيلة غازية «مصانعة عن مطامير الناس وأمتعتهم، حاضرهم وغائبهم»،[137] وعن الرجلين اللذين «كانت نوبتهما في الليل في حفظ القرار، فباتا فيه كما هي عادة البلد، ثم إن أحدهما ذهب إلى رجل من أهل المنزل وقال له: سر إلى هراك فإني وجدته سرق».[138] إلى غير ذلك من العبارات التي تفصح عن انتشار هذا النوع من العمران في مدن المغرب المريني وقراه، وبروز أعراف وقوانين تنظم حمايته والذود عنه.[139]

ب. الأبراج والسراديب والملاجئ السرية (الفجوج)

إذا كانت المطامير أعدت للحفاظ على الطعام من الغارة والغصب والتعدي، فإن الخوف على الذات من القتل والأسر دفع بالإنسان المغربي خلال هذه المرحلة إلى بناء أبراج محصنة، ومطامير وسراديب تحت الأرض يحتمي بها وأهله من الغرة والغارة. وعلى الرغم من افتقادنا إلى نص معاصر لزمن هذه الدراسة يثبت انتشار هذا النوع من العمران، فإننا نميل إلى تأكيد هذا القول اعتمادا على ما أورده أحد المؤرخين بخصوص أهل فاس في عصر زناتة عشية ظهور المرابطين بالمغرب. ذلك أنه خلال هذه المرحلة، التي اشتدت فيها الفتن والفوضى والحروب القبلية، اتخذ «أهل فاس المطامير في ديارهم وبيوتهم للخزن والطحن لئلا يسمع دوي الرحى، وفيها اتخذوا غرفا لا درج لها إذا مضى النهار طلع الرجل بسلم هو وعياله وأولاده، ثم يرجع السلم معه لئلا يدخل عليه فجاة»،[140] وخشية من الغارة ونهب المحاربين وأذاهم. ولا نستبعد أن يظل هذا الشكل من العمران المصبوغ بالهاجس الأمني حاضرا وبقوة خلال العصر المريني.

Scanned by CamScanner

ومما يعزز هذا الاحتمال ويقربه إلى الحقيقة، ما كان سائدا بالأندلس إبان المرحلة مدار الدرس؛ إذ «لا تخلو ضيعة منها أن يكون بها برج أو سرداب يمتنع فيه العامرون لها من العدو، وأهل الثغور في عملها يخرجون الأموال من الوصايا والصدقات»،[141] وقد ذهب القزويني بعيدا عن صاحب هذا النص بتوضيحات أكثر، تفصح عن دور الحرب في تهيئة المجال وتدبيره؛ في حديثه عن عمل لاردة بالأندلس التي تتوفر بيوتها على «سراديب تحت الأرض كثيرة، وهي عندهم ملجأ من العدو إذا طرقهم. وصفتها أنها بئر ضيقة الرأس واسعة الأسفل، وفي أسفلها أزقة كثيرة مختلفة كنافقاء اليربوع، فلا يوصل إليها من أعلى الأرض، ولا يجسر الطالب على دخولها. وإن انتشر فيها الدخان دخلوا في الأزقة، وسدوا أبوابها حتى يرجع الدخان عنهم، وإن طموها يكون لها باب آخر خرجوا منه، وتسمى هذه السراديب عندهم الفجوج».[142] ولأهمية هذه الفجوج في حماية الناس من أذى الحروب وآثارها، فقد أفضت إلى نوع من التضامن الاجتماعي في بنائها وإنشائها، إذ «يخرج في عملها الأموال بالوصية وغيرها، و(...) [صار] ذلك عندهم من أبواب البر».[143]

ج. الخطارات والمواجل

لما كان عنصر الماء ضرورة حيوية ملحة، وحاجة أساسية لا غنى عنها خلال هذه الحقبة التاريخية،[144] فإن استغلاله كورقة ضغط بالنسبة للطرف الغازي أو المحاصر لأي مدينة أو قرية، واعتماده في أكثر من مرة أسلوبا ناجعا لإرغام المطلوبين المحاصرين على الاستسلام وتسليم موقعهم مدينة كان أو قرية،[145] دفع بمغربي هذه المرحلة إلى التفكير في أساليب معمارية تجعله في منأى عن أي استغلال لعنصر الماء ضداً عليه.

وإذا كانت الخطارات من أهم ما أنتجه الفكر المغربي خلال العصر الوسيط في مجال الهندسة المائية ودورها في تدبير المجال، وكان لها الفضل في توفير المياه للمدينة من خلال جلبه من مواقع بعيدة، فإن إنشاء بعضها لم يخف الهاجس الأمني الدفاعي الذي كان حافزا أساسيا وراءه، شفيعنا في ذلك ما يذكره الحسن الوزان،[146] وإن بأسلوب لا يخلو من الطرافة، «أن الملك الذي أسس مراكش توقع، بفضل معطيات بعض المنجمين أنه سوف يخوض معارك كثيرة، فأنجز بواسطة الفن السحري جميع هذه العوائق الطارئة في تلك القناة حتى لا يعرف العدو من أين يأتي الماء إلى المدينة، فلا يستطيع أن يقطعه عنها». ويزداد الأمر رسوخا، إذا ما ذكرنا بما أورده فضل الله العمري[147] في حديثه عن حصانة تلمسان،

Scanned by CamScanner

ودور الهاجس الحربي في إنشاء خطارتها. فقد كان لهذه المدينة «عين تزودهم بالمياه مخبأة لا يعرف لها أثر، اكتشفها أحد مهندسي أبي الحسن، فدمرها و لم تعد تزودهم بالماء، واكتفوا بما لديهم من عيون داخل المدينة».

ويجرنا حديث العمري في هذا النص عن عيون المدينة إلى قضية أخرى لا تقل أهمية، تكشف عن الخلفية الأمنية التي أطرت بروز نماذج معمارية أخرى، ومنها على الخصوص المواجل أو الصهاريج المعدة لتجميع مياه الأمطار، والتي عادة ما تنشأ في المدن والتحصينات، وفي البيوت المغربية،[148] توقعا لأي حصار قد يضرب على المدينة. ولتأكيد دور الحرب في صياغة مثل هذه الأشكال من العمران، يكفي أن نذكر بحديث ابن مرزوق[149] عن إقدام أبي الحسن المريني على تحصين جبل الفتح وإعادة بنائه، فكان من أهم ما وجه إليه «أحمال الذهب، وأهل النجدة من الخدام»، تجديد الحصن وإحكام «مواجله وآثاره، وتحصين المواضع التي يحذر منها عليه».[150]

ومن القرائن الدالة على أهمية هذه المواجل بصفتها شكلاً من أشكال التحصين والاستعداد لإكراهات الحرب، ما وصف به أحد الجغرافيين مدينة تازا التي تضررت مرارا من الجبليين المجاورين، لأنهم كلما اختصموا مع سكان المدينة يغيرون مجرى النهر الذي يخترق تازا «ويصرفونه إلى مكان آخر، فتتأذى المدينة كثيرا، إذ لا يمكن حينئذ طحن الحبوب، ولا الحصول على ماء صالح للشرب، ويضطر السكان إلى الاكتفاء بماء الخزانات العكر».[151]

وإذا كان هذا النوع من العمران يستمد مياهه من الأمطار، فلطالما حصنت المدينة أيضا بما كان يعرف بالقورجة (Courça بالإسبانية وCoracha بالبرتغالية)، وهي عبارة عن ركن في الجدار يبرز عن سور المدينة، على شكل بئر يستمد ماءه من الأعماق، أو من الوادي، لإغاثة المهددين بالتطويق،[152] ولا نستبعد أن يكون سور القورجة الذي بناه علي بن يوسف المرابطي بفاس «بمال وظفه على أهل المدينة»،[153] وزاوية القورجة التي بناها يعقوب بن عبد الحق بالقرب من الباب المعروف بهذا الاسم في مكناسة،[154] قد استمدا اسمهما هذا من وجود هذه البئر بالقرب منهما.

وإجمالا فقد أسهمت الحرب، باستفحالها خلال المرحلة مدار الدرس، في رسم معالم المجال العمراني بالمغرب الأقصى، وفرضت مواصفاتها عليه، وقامت بدور هام في تحديد أشكاله وهندسته والوظائف المنوطة به.

Scanned by CamScanner

المبحث الثاني: أثر الحروب في خراب العمران

لا مراء أن العمران بالمغرب الأقصى أصيب بنكسات عميقة جراء الحروب التي عرفها العصر المريني؛ تجلى ذلك في خراب العديد من المدن والقرى والمناطق العمرانية حتى «خلت المحاشر من العمارات»،[155] كما اضطر الناس إلى فراق مداشرهم وقراهم بعد أن أجلتهم الفتن، وأرجفوا إلى الحصون، «ولجأوا إلى الجبال المنيعة لتكون لهم حصنا ومآلا»،[156] مما ينبئ بتحول عميق في الميدان العمراني،[157] على غرار ما لاحظناه بالنسبة للنشاط الاقتصادي، وما أثبتناه في المبحث المتعلق بالديموغرافيا.

أولا: في المجال الحضري

يبدو أن في استقراء بعض ملامح تاريخ المدن بالمغرب الأقصى خلال فترات طويلة من العصر المريني، ما يفصح عن الضرر الذي لحق بالعديد منها نتيجة الاضطرابات السياسية المتلاحقة الناتجة عن اختلال أحوال الدولة الموحدية، وصراعات أمرائها على السلطة، ثم الاقتحام المريني لمجال المغرب الأقصى، وتوالي الحملات العسكرية الداخلية لهؤلاء بعد إحكام سيطرتهم عليه، وما ميز المرحلة الأخيرة من حروب داخلية بين الأمراء المرينيين المتغلبين وبعض المتمردين والمنتزين، فضلا عن توالي الحملات والهجمات الخارجية على السواحل والثغور الشرقية والشمالية، وكل ذلك كان له بالغ الأثر في الظاهرة العمرانية وتطورها خلال عصر الدراسة.[158]

ما كان لتوالي هذه الاختلالات المحلية والحروب الداخلية والإقليمية إلا أن تعصف بالبلد، وتدفع بكثير من المدن إلى حافة الانهيار والخراب، تجلى ذلك في شهادة ابن عذاري[159] الذي أكد أن بلاد المغرب الأقصى نتيجة تلك القلاقل قد «خربت ودثرت بالأزمنة آثارها، وامتحت من بعض الجهات رسومها وقرارها، لاسيما مراكش، فقد كانت خربت بكثرة الدخلات ديارها»، واستولى التهدم والخراب على معظمها،[160] ومن ذلك مكناسة التي أتت الحروب والفتن على الحوائر المكونة لها «ودثرت، ولم يبق منها إلا الصوامع والجدارات العتيقة (...) وآخر ما خرب منها ودثر وورزيغة بعدما كانت هذه الحوائر شاركت المدينة في كثرة العمارة».[161] ولم تكن مدينة فاس –خاصة في المرحلة الأولى من زمن هذه الدراسة– أقل تأثرا بمستجدات هذه المرحلة؛ فقد اضمحل كثير من منشآتها الصناعية والعمرانية، «وكانت مدة توالي الخراب عليها عشرين سنة».[162]

Scanned by CamScanner

ولدينا فيما يذكره بعض المصنفين، بخصوص مدينة صغيرة تدعى الجمعة بناحية مراكش، ما يؤكد الخراب الذي طال الكثير من حواضر هذه المرحلة؛ إذ لم «يبق منـ[ـها]غير آثار قليلة»،[163] كما أتى الخراب أيضا على مدينة مغيلة التي لا تزال أطلالها قائمة غرب فاس.[164] فضلا عن مدينة أغمات التي اقتحمها بنو مرين، قبل استيلائهم على مراكش، فـ «دمروها، وثلموا الأسوار في أماكن عديدة، وخربوا الدور، وتركوها مأوى للوحوش».[165] ثم التخريب الذي طال مدينة معدن عوام سنة 660هـ/1261م من قبلهم،[166] مما يكشف عن المستويات غير المعهودة التي بلغها الخراب في مجمل العمران الحضري المغربي. وهو ما يؤكده أحد المؤرخين[167] في حديثه عن مدينة الرباط، التي لم تسلم هي الأخرى من هذا الوضع، بقوله إن «الحروب التي نشبت بين الموحدين والمرينيين، والتي دمرت عدة مدن أخرى، لم تبق فيها إلا عشر السكان». أما تارودانت فقد أضحت «قفراً خلاءاً إلا قلائل من الدور بخارجها»،[168] والمصير نفسه تعرضت له مدينة اصيلا التي أقدم العزفيون بسبتة على هدمها، «وتخريب قصبتها؛ لأنها قد خلت من الناس».[169]

وعلى غرار هذه المدن، سرعان ما دب الوهن، وتوالت موجات الخراب على المدن والحصون الشرقية التي غدت ميدانا للفتن، وبوابة للصدام بين بني مرين وبني عبد الوادي؛ فأثناء عودة يغمراسن ابن زيان إلى تلمسان مهزوماً أمام يعقوب بن عبد الحق وقومه (657هـ/1258م)، مر «في طريقة بتافسريت من بلاد بطوية، فأحرق وانتسف واستباح وأعظم فيها النكاية».[170] وبعد ذلك بسنوات، وبينما كان يعقوب المريني بنواحي مراكش برسم حصار أبي دبوس الموحدي (666هـ/1267م)، خرج يغمراسن الزياني لمساندة هذا الأخير، فـ «شن الغارات على ثغور المغرب، وأضرمها ناراً».[171]

علاوة على ذلك، لم تسلم المدن الساحلية من الضرر والتخريب الذي ميز هذه المرحلة؛ فقد شدد الجنويون الحصار على سبتة سنة 633هـ/1235م، ونصبوا عليها آلات الحصار، وأسرفوا في التضييق عليها حتى صالحهم أهلها بأربعمائة ألف دينار فأقلعوا عنها.[172] مثلما هاجم القشتاليون مدينة سلا (658هـ/1259م)، «واستولوا بالغدر عليها (...) وخربوا المساجد والديار».[173] ولدينا من الدلائل ما يثبت عمق الضرر الذي لحق بهذه المدينة، ليس فقط بسبب هذا الاقتحام المسيحي، بل وكذا بفعل الهجوم المريني المضاد لاستعادتها؛ فقد كان هذان الهجومان «مفاجئين عنيفين بحيث إن المدينة أصبحت منذ يومئذ في حالة لم تسمح لها قط بأن تتجدد، ولا بأن تستعيد ازدهارها القديم».[174] ومعلوم أيضا أنه في سنة

668هـ/1269م، دخل النصارى حصني العرائش وتشمس، وأضرموهما ناراً، ثم ارتحلوا،[175] مما يحيل إلى شمول الخراب لعديد من المدن المغربية خلال هذه الفترة.

وتحملنا كثير من القرائن على الاعتقاد بأن الوضع الأمني في المغرب الأقصى لم يعرف استقرارا كاملا على امتداد الفترة التي تلت إحكام المرينيين لقبضتهم على المجال، مما يعني أن المشهد العمراني لم يسلم من تبعات الحرب حتى في هذه المرحلة، وإن كنا لا نستبعد أن يسمح هذا الاستقرار الجزئي لبعض المدن لتستعيد بعضا من استقرارها ونموها.[176]

ولدينا فيما تذكره بعض النصوص، بخصوص وضع المدن والحواضر المغربية في ظل الحروب المرينية المستمرة لقمع المتمردين، وحركاتها العسكرية الدؤوب في اتجاه الشرق أو الشمال، فضلا عن الغارات الخارجية على بعض المجالات الساحلية والشرقية، ما يدل على أن تخريب المدن والمعالم العمرانية قد شكل ثابتا أساسا ضمن السياسة العسكرية للأطراف المتحاربة في مغرب هذه المرحلة؛ فبمجرد دخول يعقوب بن عبد الحق للعاصمة الموحدية مراكش، وخلال حملته الأولى على تلمسان (670هـ/1271م)، «وصل مدينة وجدة فوقف عليها حتى هدمت، وعفا رسمها، وجعل عاليها سافلها، ولم يبق لها رسماً، وتركها قاعا صفصفاً».[177] وفي عام 673هـ/1274م عندما وجه بنو مرين عزمهم لاسترجاع سجلماسة من أيدي بني عبد الواد المتغلبين عليها، «نصبوا عليها آلات الحصار إلى أن سقط جانب من سورها، فاقتحموها منه عنوة (...) واستباحوها».[178] كما اقتحم يعقوب بن عبد الحق مدينة كرسيف وأخذها «عنوة واستولى على كل شيء، وخربها، وهدم أجزاء من السور في أماكن مختلفة».[179]

وليس أدل على رسوخ مثل هذه الأعمال التخريبية واستمرارها من أن يوسف بن يعقوب خلال إحدى حملاته المستمرة على تلمسان، لم يتردد في أن يحمل على وجدة، كما حمل أبوه عليها من قبل، «فهدم أسوارها»[180] سنة 695هـ/1295م، قبل أن يأمر بعد ذلك بسنتين «ببنائها وتحصين أسوارها، واتخذ فيها قصبة وداراً لسكناه».[181] وبالموازاة مع ذلك، أرسل الأمير المريني جيشه إلى قلعة تزوطة بعد أن ثار أميرها بها، فـ«حاصرها طوال شهرين تقريبا (...) إلى أن سقطت وخربت (...) وظلت خربة».[182] كما أقدم السلطان نفسه على «هدم تارودانت قاعدة أرض السوس»[183] (704هـ/1304م)، ثم عاد بعض أمراء بني يدر لبنائها بعد ذلك سنة 706هـ/1306م،[184] وفي هذا ما يحيل إلى ثنائية العمران

Scanned by CamScanner

والخراب والبناء والهدم، التي لطالما عكستها مصادر المرحلة،[185] وإلى أعمال «سيزيفية» عبثية قطباها الأساسيان التعمير ثم التخريب.[186]

وتنطبق هذه القاعدة أكثر على مدينة توريرت التي غدت ميدانا للحروب، وللصدامات المستمرة بين بني عبد الواد وبني مرين. ويكفي أن نشير إلى النص الذي أورده أحد الجغرافيين[187] عن حال هذه المدينة في ظل الحروب المستمرة بين الكيانين المذكورين، إذ يقول: «توريرت مدينة متحضرة آهلة بالسكان، تحتوي على نحو ثلاثة آلاف كانون، وعلى قصور جميلة، ومساجد مبنية بالحجر الكلسي، غير أنه لما استولى بنو مرين على مملكة الغرب أصبحت هذه المدينة موضع نزاع وميدان حروب عديدة ؛ فقد رغب المرينيون في أن تتبع توريرت مملكة فاس، بينما أراد بنو زيان ملوك تلمسان أن يضموها إلى مملكتهم، فأدى ذلك إلى أن احتلها بنو مرين، ودمروا قسما كبيراً منها كان يسكنه أعداؤهم (...) [ثم بعد ذلك] وثب عليها ملك تلمسان، فاستردها، وخربها، ونهب الجانب الذي يسكنه أعداءه منها، وهكذا استبدلت توريرت رؤساءها عشر مرات في ظرف خمسين سنة تارة تخضع لملك فاس، وتارة لملك تلمسان، إلى أن دمرت أخيراً».

و لم تكن مدينة سبتة، فرضة المجاز إلى العدوة الأندلسية، أقل تأثراً بالتحولات الإقليمية الجديدة، والحروب المستجدة بين الدول التي اقتسمت مجال الغرب الإسلامي خلال هذه المرحلة؛ فقد لاقت هذه المدينة المصير نفسه من لدن أمير غرناطة محمد بن الأحمر حين هاجمها واستولى عليها، و لم يكتف بتخريبها بل أجلى بعض سكانها إلى غرناطة.[188]

وتجمع المصادر التاريخية التي تعرضت لتاريخ المدن المغربية لهذه الفترة، على أن الخراب الذي أصاب بعضها لم يكن بسبب حروب القوى الكبرى فقط، بل أيضا بسبب غارات بعض المنتزين والخارجين عن سلك الدولة المرينية وتمرداتهم، وحسبنا أن متمرداً يعرف بالعباسي ادعى أنه الفاطمي، ظهر في أغمات في أواخر القرن 7هـ/13م، استطاع أتباعه الدخول إلى مدينة فاس عنوة، حيث قاموا بإحراق أسواقها وتخريب بعض بنيانها.[189]

وإذا كانت هذه المرحلة عرفت تقلصا في الحروب والصراعات الداخلية، مما أنعش، ولو إلى أجل، بعض المدن، مثل فاس[190] ومكناسة،[191] وسمح كذلك ببناء أخرى جديدة، وترميم ما تهدم من غيرها -كما سنرى فيما بعد- فإن الفترة التي أعقبت وفاة السلطان أبي عنان المريني قد عصفت بهذا الانتعاش،[192] وأفضت إلى حالة من الانهيار العمراني لم تشهد

البلاد مثله، عبر عنه ابن خلدون[193] في حديثه عن تزامن الطاعون الجارف مع بداية تدهور أحوال الدولة المرينية، وما ميزها من حروب داخلية، وغارات قبلية. فكانت النتيجة أن «انتقض عمران الأرض بانتقاض البشر، فخربت الأمصار والمصانع ودرست السبل والمعالم، وخلت الديار والمنازل، وضعفت الدول والقبائل، وتبدل الساكن (...) وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض، فبادر بالاستجابة».

وقد تمت الإشارة، فيما سبق، إلى الاختلالات التي مست مجمل الأوضاع في بلاد المغرب الأقصى بسبب تفشي الظاهرة الحربية، وغياب الأمن والاستقرار، عقب وفاة السلطان أبي عنان (759هـ/1357م). وبقدر ما تجلت في الاقتصاد والديموغرافيا، وفي الوضع السياسي، ومصير الدولة المرينية عامة، انعكست في العمران أيضا؛ فقد آل وضع كثير من المدن إلى الخراب، وهجر بعضها من سكانها، ومن ذلك مدينة توريرت التي اضطر «سكانها القليلون، بعد أن هدتهم الحروب (...) وغلبهم اليأس، فعزموا على الهجرة، وترك المدينة (...) وبقيت توريرت خالية موحشة».[194] وكذلك كان حال «مدن» أخرى مثل فنزارة[195] والمعمورة[196] وتيفلفلت[197] وخميس مطرغة[198] وجامع الحمام[199] وبولعوان[200] وسيرنوا أو مائة بئر وبئر[201] (...) وكلها «خربت أثناء حروب سعيد»[202] المريني (800–824هـ/1397–1421م)، ولم يعمر معظمها إلا بعد ذلك «بنحو مائة وعشرين سنة».[203]

وخلال هذه المرحلة أيضا، بلغ الخراب ذروته في أمهات المدن المغربية وتقلص العمران فيها؛ فقد تضاءل عمران مراكش إلى نحو الثلثين عن ذي قبل، وكان سيماط الكتبيين الذي بلغ عددهم فيما مضى نحو المائة قد تحول إلى مكان مقفر، وضاع أثره بجوار جامع الكتبيين.[204] وقد زار ابن بطوطة[205] المدينة خلال هذه الفترة فهاله ما رآه من حالتها، وعبر عن ذلك بقوله: «وبها الصومعة الهائلة العجيبة صعدتها وظهر لي جميع البلد منها وقد استولى عليه الخراب». والراجح أن مدينة فاس نفسها لم تسلم من عوامل التخريب والهدم في هذه المرحلة، فقد حاصرها السعيد المريني «بمساعدة بعض الجبليين من الأعراب، ودام الحصار سبعة أعوام خرب أثناءها قرى ومدنا وقصوراً في جميع أنحاء المملكة»،[206] وبرزت فاس بعد تلك المعاطب وقد تناقص عمرانها، وتحولت كثير من المباني الفخمة فيها إلى مواخير تقيم فيها الباغيات وغيرهن بتعبير أحد الباحثين.[207]

Scanned by CamScanner

وعلى غرار مراكش وفاس، لم تسلم مدينة مكناس بدورها من واقع الحرب وتأثيرها، إذ تضررت هي الأخرى «كثيرا في الماضي من الحروب التي نشبت بين أمراء هذه النواحي، وقد كلفتها كل حرب خسارة تتراوح ما بين ثلاثين وأربعين ألف مثقال، وحوصرت المدينة مراراً عديدة، ودام الحصار في كل مرة ست أو سبع سنوات».[208] لكن الحروب التي أضرت بها كثيراً تمثلت بالأساس في تلك التي شنها السعيد المريني، والتي أفضت إلى تخريب هذه المدينة وتراجع عمرانها بشكل كبير.[209]

ويبدو أن حال مدينة أغمات كان أسوأ بكثير من باقي المدن الأخرى؛ إذ «لم يبلغ الخراب من مدينة ما بلغ من هذه الأيم المهتضمة، فتشعثت محاسنها، وأخلقت ملابسها، وأوحش عمرانها، لتتابع الفتن، وعيث الشرار الذين لا تعبدهم الطاعة، ولا تزعهم الشريعة».[210] وقد وصف الحسن الوزان[211] هذه المدينة في فترة متأخرة بأنها «أصبحت اليوم مأوى للذئاب والثعالب والغربان، وما شاكلها من الطيور والوحوش، ولم يعد يسكن الحصن في هذه الأيام سوى ناسك مع مائة من مريديه».

صفوة القول إن جميع القرائن تثبت أن الحرب تعد مسؤولة في جزء كبير عن الانهيار المعماري الذي شهدته بلاد المغرب الأقصى خلال المرحلة مدار الدرس، حين أفضت إلى تخريب مدن بكاملها فلم تعد تعمر بعد، كما حالت دون تطور أخرى بسبب استمرار عمليات الهدم والتخريب بعد عمليات البناء والترميم.

ثانيا: في المجال البدوي[212]

لم تكن البادية المغربية بأحسن حال من الحواضر، إذ تثبت كثير من النصوص المتوفرة عمق الأثر الذي مس العمران البدوي جراء الحروب، وتكشف عن تحولات هيكلية في طبيعة هذا العمران؛ نتيجة سيطرة القبائل ذات النجعة والحرب (زناتة والقبائل العربية) على معظم مناطق هذا المجال؛ فهؤلاء البدو المحاربون الآخذون «في سكنى الخيام، واتخاذ الإبل، وركوب الخيل، والتقلب في الأرض، وإيلاف الرحلتين، وتخطف الناس من العمران»،[213] إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب. والسبب في ذلك -حسب التحليل الخلدوني- طبيعتهم البدوية التي تظل «منافية للعمران ومناقضة له، فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب، وذلك مناقض للسكون الذي به العمران ومناف له. فالحجر مثلا إنما حاجتهم إليه لنصب أثافي القدر، فينقلونه من المباني ويخربونها عليه ويعدونه لذلك.

والخشب أيضا إنما حاجتهم إليه ليعمدوا به خيامهم، ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم فيخربون السقف عليه لذلك، فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران».[214] لذلك فقد كان طبيعيا أن يتسم تحرك هذه القبائل ضداً على العمران بطابع العنف والتخريب.

ويتضح من خلال استقراء مضامين عدد من المصنفات الجغرافية وكتب الرحلات وغيرها، حجم التجمعات القروية التي اندثرت خلال هذا العصر؛ إذ يبدو أن توالي الحروب، وعدم الاستقرار السياسي، وغارات القبائل المحاربة في فترات هامة منه، قد قضت على الحركة العمرانية التي عرفتها البوادي أيام الموحدين.[215] وهو ما عبر عنه ابن غازي[216] في حديثه عن التحول الخطير الذي أصاب مكناسة منذ بداية القرن السابع الهجري، فقال، بعد أن وصف ازدهار باديتها: إن ذلك كان «قبل أن يستولي على المغرب تخريب بني مرين عند اختلال أمر الموحدين»، ثم يضيف أنه حتى بعد استقلالهم بالأمر، وتوحيدهم للبلاد «لم تعد العمارة بعد ذلك لحوائرها، بل صارت جنات وغرس الناس على ردومها».[217] بل إن ذلك كله دمر وخرب من جديد في المرحلة الأخيرة من عمر هذه الدولة، إذ أتت الحروب على أكثر قرى مكناسة ومداشرها، «فخلت المجاشر وانجلى عنها أهلها، ويقال خلى من مجاشرها حينئذ إثنا عشر ألف مجشر».[218]

ولا تنقصنا البينة عن شمول هذا التحول العمراني الخطير لباقي بوادي المغرب الأقصى،[219] والتخريب الذي طال الكثير منها في مراحل مختلفة من هذا العصر؛ فقد تحدث ابن عذاري[220] عن التدمير الذي طال البوادي كلها في مدة طويلة من القرن 7هـ/13م. وكتب غيره عن جلاء مهول للسكان نحو الجبال في هذه الفترة التاريخية فراراً من غارات القبائل المرينية وغيرها من القبائل المحاربة،[221] وعن فراغ عمراني خطير في المنبسطات والسهول حتى إن أولي الأمر من بني مرين طلبوا من القبائل النزول «لسكنى الأوطية وعمارة القرى والمداشر الخالية».[222] ولم يقتصر الأمر على هذا الحد، بل كثر الحديث في هذه المرحلة «عن قرية خربت وخلت من العمارة»،[223] وأخرى «خلت من أهلها»،[224] وعن «حصن خال من الناس»،[225] وغير ذلك من التعابير التي تحيل إلى فراغ عمراني مهول نتيجة سطوة الحروب والفتن.

ولم يخف أهل القلم المعاصرون لهذه التحولات، عمق ما أصابهم من أسى وخيبة أمل مما آلت إليه أوضاع بعض المناطق البدوية. وحسبنا أن ابن الخطيب[226] يكشف عن وضع

Scanned by CamScanner

أحواز مراكش وأغمات في وصفه للطريق الرابطة بين هاتين المدينتين مؤكدا الخراب الذي حل بهذه المجالات جراء الحروب والفتن، فأصبحت «أدواح الزيتون والأشجار تساوقها جريات الأنهار، تتخللها أطلال الحلل والديار نيف سطر البريد لا تنال صفح ثراه الشمس ولا ترتاده الحرباء، وقد اقتطعت ذلك الجذب الخصيب أيدي الوشحة (...) وسكن ربوعه الآهلة البوم».

ولعل في ما حدث من خلل وتراجع في الوضع الأمني وغياب الوازع القاهر لغارات القبائل والمحاربين، ما أدى إلى اتساع ظاهرة التخلي عن سكنى المنبسطات وتركها فراغا وخراباً. وتقدم كتب الجغرافيا معلومات مستفيضة عن مناطق شاسعة بلغ منها الخراب مبلغه، من مثيل أزغار الذي «سكنته أقوام كثيرة، وقامت فيه مدن وقصور، إلا أن هذه الأمكنة قد خربت بسبب حرب نشبت في الزمن القديم».[227] ومنبسطات الهبط التي «كانت في قديم الزمان أكثر نبلا وشهرة من أيامنا هذه».[228] وقس على ذلك ما قيل عن سهول سايس والناحية المجاورة لفاس، التي «كان بها العديد من القصور والقرى، و لم يبق منها (...) أي أثر، لكن أسماء المواقع المندثرة ما تزال حية».[229]

ومن الطبيعي في ظل الحروب والقلاقل وغارات البدو المحاربين أن يتم الانكفاء عن سكنى السهول والمنبسطات وتركها خراباً، والامتناع عنهم بأوعار الجبال ليكون الناس بمنجاة من عيثهم وفسادهم،[230] طالما أن البسائط «متى اقتدروا عليها بفقدان الحامية وضعف الدولة، فهي نهب لهم، وطعمة لآكلهم، يرددون عليها الغارة والنهب والزحف لسهولتها عليهم، إلى أن يصبح أهلها مغلبين لهم، ثم يتعاورونهم باختلاف الأيدي، وانحراف السياسة، إلى أن ينقرض عمرانهم»،[231] وفي هذا ما يفسر تزاحم الناس في سكنى الجبال، والتخلي عن تعمير المنبسطات والسهول.

ولا تعوزنا القرائن التي تفصح عن هذا الواقع؛ فقد تحدثت بعض المصادر عن القسم المجاور للأطلس بالسوس الذي تكثر فيه «القرى والمداشر، بينما يحتل أعراب السهول الجنوبية، ويرعون فيها ماشيتهم».[232] كما وصف أحد الجغرافيين منطقة جبلية أخرى بالسوس، فقال إنها كثيرة «القرى والمداشر، لكن القسم الغربي منها غير مسكون لأنه سهل بيد الأعراب».[233] وبالمثل فإن المجال البدوي المحيط بفاس «تقوم فوق جميع رباه قرى كثيرة وكبيرة جداً، لأن السهول قليلة السكان بسبب الحروب الماضية، غير أن بعض الأعراب يعيشون بها»،[234] إلى غير ذلك من النصوص التي تكشف عن تحول هيكلي في العمران

Scanned by CamScanner

البدوي، وعن هيكلة جديدة لمواجهة زحف القبائل ذات النجعة والحرب. لكننا نعتقد أنه بقدر ما أسهمت الحرب في تعمير المجال الجبلي، فإنها أفضت أيضا إلى فراغ المناطق السهلية والمنبسطات، وأدت إلى صبغها بالطابع البدوي غير المستقر.

ويقدم ابن الخطيب[235] في رحلته مادة هامة للكشف عن التحول العمراني الذي خضعت له البادية المغربية في هذا العصر نحو سيادة طابع الرحلة والتغلب –بتعبير ابن خلدون– على حساب الاستقرار والتعمير، باعتبار أن حياة التنقل والترحال والتغلب في الأرض إنما هو طبع مناف للإستقرار و«مناقض للسكون الذي به العمران».[236] وهكذا وصف تامسنا، التي كانت قبل هذا العصر عبارة عن مدن وقرى تمثل زهرة البلاد كلها،[237] بأنها بلد الرعاة غير المستقرين. وعلى طول هذه المنبسطات، تحدث ابن الخطيب عن «خيام قد استدارت كالوذائل، واشتملت على الولائد والعقائل، ودشر ركبت الهضاب بأخصاصها، وملأت الوهات ببهمها وقلاصها»،[238] ثم يختصر ذلك كله بقوله إن بلاد تامسنا كلها «مدائن، دورها شعر، ووقودها بعر، وسورها سدر».[239]

ولا نعدم من الدلائل ما يثبت مسؤولية القبائل ذات النجعة والغزو في تخريب هذه المناطق والحد من إعادة تعميرها؛ فمن الأمثلة على ذلك ما ذكره بعض الجغرافيين عن بادية بأحواز مراكش «دمرها بنو مرين (...) ولم يتركها أعراب هذه النواحي تسترجع عمرانها منذ ذلك الوقت ليتمكنوا من استغلال أراضيها في أمان».[240] ومن ذلك أيضا ما أورده أحد المصنفين عن بادية تامسنا التي « لم تعمر بعد التخريب العام الذي أصاب البلاد (...) ويتردد أهل الشاوية كثيراً على هذه الأماكن لوجود الماء والمرعى فضلا عن الحرث الجيد فيها، (...) فبسببهم وبسبب الأعراب لم تعمر من جديد، لأن ذلك من شانه أن يسلبهم حرية التجول في الضواحي مع قطعانهم، وهذا هو السبب الذي من أجله صارت معظم المدن الأخرى بهذا الإقليم خالية، ولو أن هذه البلاد أغنى وأجود بلدان البربر بأسرها التي يمكن العيش فيها بأكثر من الرفاهية».[241]

لقد أسهمت الحرب بشكل كبير في تخريب العديد من بوادي المغرب المريني، كما أفضت سيطرة القبائل ذات النجعة والحرب على مجالات شاسعة من هذه البادية إلى تحول هيكلي في طبيعة العمران المتبقي، وتحويله إلى مجال رعوي غير مستقر، وهو ما نجد له صدى واضحاً في وصف ابن خلدون[242] لجغرافية المغرب البشرية والعمرانية، والمتميزة بتعمير المناطق الجبلية، لحصانتها، من قبل المصامدة والصنهاجيين، وخلو «البسائط من المغرب مثل

Scanned by CamScanner

أزغار وتامسنا وتادلا ودكالة، [حيث] اعتمرها الظواعن من البربر الطارئين عليه من جشم ورياح»، فضلا عن القبائل الزناتية.

صفوة القول إن الحروب والفتن والقلاقل التي عصفت بمغرب العصر المريني في معظم مراحله أسهمت في بلورة واقع عمراني جديد، اتسم بخراب العديد من المدن والقرى والمداشر، وتقلص معمار غيرها، كما عدلت من الخريطة العمرانية بمجموع بلاد المغرب الأقصى، حيث أضحى المجال الجبلي -بالرغم من ضعفه وقلته وصعوبة تدبيره- مجالا استقطابيا جديدا للبناء والتعمير.

الحال إذن أن الحروب التي شهدتها بلاد المغرب الأقصى خلال العصر المريني تتحمل الجزء الأكبر من المسؤولية، عن الركود المعماري الذي ميز هذه المرحلة؛ فقد كان تخريب المدن والقرى والمعالم العمرانية من أهم الثوابت التي ميزت الاستراتيجية العسكرية للأطراف المتحاربة. كما أن ما هدمه المرينيون وعادوا فيما بعد إلى بنائه، مع ما بذل من المال في سبيل ذلك، فوت عليهم وقتا ثمينا كان بالإمكان استغلاله لبناء منشآت جديدة. وفضلا عن ذلك، وإلى جانب دور الحروب في التقليل من أعداد المدن بمغرب هذه المرحلة، والحد من ظهور أخرى، يبدو أن سياسة التسوير والتحصين قد أفضت إلى قوقعة المدن وانغلاقها ومنعها من التوسع والإنفجار الطبيعي خارج حدودها. كما أن الحصون والقلاع التي أصبحت من أهم مظاهر العمران البدوي، بقدر ما كانت مجالا هاما للدفاع عن الأرض والحوزة، ومجالا لاستقطاب الفلاحين والفارين من أهوال الحروب والغارات، فإنها غيرت من بنية القرية وحولتها إلى مجرد ثكنة عسكرية معدة للدفاع والهجوم ليس غير.

[1] الخراب لغة ضداً على العمران، ومن المثير أن التضاد يحيل هنا على التقابل بين حالتين، وأن نصوص الفترة الوسيطية تلح على هذا التقابل بصيغ مختلفة، فهي تعمل على تضخيم الانتقال من العمران إلى الخراب، وتعمل أحيانا أخرى على تأكيد المزاوجة بين الخراب، وتعاقب العمران والخراب. انظر لمزيد من التفصيل حول دلالات الخراب في مظان العصر الوسيط، عبد الأحد السبتي، **علامات المدينة المغربية في الأدب الجغرافي الوسيط، في دلالات الخراب**، ضمن كتاب، التاريخ واللسانيات، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، محمد الخامس، الرباط، 1992، ص ص، 11-25.

[2] لا يزال مدلول لفظ «المدينة»، خلال العصر الوسيط في حاجة إلى مزيد من التدقيق؛ فالجغرافيون وغيرهم استخدموا هذا اللفظ في كثير من الحالات حتى على التجمعات السكانية التي لا ترقى إلى مستوى المدينة. ونعتقد أن الجانب الاصطلاحي في الأدب الجغرافي بمغرب العصر الوسيط لا يزال في حاجة إلى بحوث متخصصة تزيل اللبس عن هذا النوع من القضايا.

[3] الحسين بولقطيب، **أسلوب الإنتاج الحربي**، ص، 83.

[4] مجهول، **ورقات في التاريخ**، ص، 57. ابن القاضي، **جذوة الإقتباس**، ق 1، ص، 42.

[5] ابن الخطيب، **معيار الاختيار**، ص، 72.

[6] **جذوة الإقتباس**، ق 1، ص، 44. وانظر عن شمولية الظاهرة في مجمل العالم الإسلامي، ابن جبير، الرحلة، ص، 172.

[7] راجع للتفصيل الباب الرابع من الكتاب الأول ضمن المقدمة، والموسوم بـ، في البلدان والأمصار وسائر العمران وما يعرض في ذلك من الأحوال وفيه سوابق ولواحق، ص ص، 270–298.

[8] الحسين بولقطيب، **الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى**، ق 2، ص، 225.

[9] **المقدمة**، ص، 271.

[10] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[11] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[12] المصدر نفسه، ص، 273.

[13] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[14] ابن القاضي، **جذوة الاقتباس**، ج. 1، ص، 44.

[15] العمري، **مسالك الأبصار**، ص، 116. القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج. 5، ص، 150.

[16] القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج. 5، ص، 145.

[17] الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 130.

[18] المصدر نفسه، ج. 1، ص، 136.

[19] ابن الخطيب، **معيار الاختيار**، ص ص، 164–165.

[20] ابن خلدون، المقدمة ، ص، 275. محمد زنيبر، **المغرب في العصر الوسيط، الدولة–المدينة–الاقتصاد**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1999، ط. 1، ص، 307.

[21] ابن الخطيب، **ريحانة الكتاب**، ج. 2، ص، 356.

[22] الماوردي، **تسهيل النظر وتعجيل الظفر**، ص، 210.

[23] ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 291.

[24] الحسين بولقطيب، **أسلوب الإنتاج الحربي**، ص ص، 83–84.

[25] راجع للتفصيل المبحث الثاني والثالث من الفصل الثاني ضمن الباب الأول من هذا البحث.

[26] راجع المبحث الثاني من الفصل السابق ذكره.

[27] انظر للتفصيل في هذه الإنجازات، الحسين بولقطيب، **الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى**، ص ص، 228–291.

[28] شارل أندري جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية**، ج. 2، ص، 239.

[29] راجع المبحث السابق من هذا الفصل.

[30] ابن خلدون، **العبر**، ج. 7، ص، 258.

[31] المصدر نفسه، الصفحة نفسها. محمد المنوني، ورقات، ص، 24. روجي لو تورنو، **فاس في عصر بني مرين**، ص، 26.

[32] **العبر**، ج. 7، ص، 258. وانظر للتفصيل في منشآت هذه المدينة محمد المنوني، **ورقات**، ص ص، 23–76. روجي لو تورنو، **فاس في عصر بني مرين**، ص، 33–57.

[33] الحسين بولقطيب، **الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى**، ص، 226.

Scanned by CamScanner

Bernard (A), *Les capitales de la Berbérie*, Recueil de mémoires de textes publiés en l'honneur du XIVe congrès des orientalistes, Alger, 1905, p. 118.

34 المقدمة، ص، 295.
35 المصدر نفسه، ص، 296.
36 مجهول، ذكر تاريخ مراكش، ص، 341.
37 المنوني، ورقات، ص، 23.
38 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 295. ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 230.
39 المصدرين نفسهما، الصفحات نفسها.
40 ابن أبي زرع، المصدر نفسه، ص، 295.
41 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 258.
42 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 322.
43 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 258. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 322. الذخيرة السنية، ص، 90. روجي لو تورنو، فاس في عصر بني مرين، ص، 26.
44 ابن خلدون، المقدمة، ص، 271.
45 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
46 العمري، مسالك الأبصار، ص، 116.
47 المصدر نفسه، الصفحة نفسها. القلقشندي، صبح الأعشى، ج. 5، ص، 150.
48 روجي لو تورنو، فاس في عصر بني مرين، ص ص، 27–33.

Bressolette (H) et Delaroziere (J), *Fès-Jdid de sa fondation en 1276 au milieu du XXe siècle*, Hésperis Tamuda, Vol XX-XXI, Fac-unique, 1982-1983, p, 246.

49 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 127.
50 انظر ما كتبه مصطفى نشاط بشأن تأسيس هذه المدينة، التجارة بالمغرب الأقصى، ص، 228.
51 انظر للتفصيل المبحث الثالث من الفصل الثاني ضمن الباب الأول.
52 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 387.
53 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
54 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
55 ويقول ابن خلدون في هذا الصدد أن مدينة المنصورة «كانت أحد مدائن المغرب» ولكن «خربها آل يغمراسن عند مهلكه [السلطان أبي يعقوب يوسف] وارتحال كتايته عنهاب وطمسوا معالمها طمسا ونسفوها نسفا»، العبر، ج. 7، ص، 262–278. ثم إن أبا الحسن جدد بنائها، لكنها ما لبثت أن خربت من جديد. محمد المنوني، ورقات، ص، 18.
56 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 90. وقد جدد أبو الحسن في بداية جوازه إلى الأندلس هذه القصبة «ووجه أحمال الذهب وأهل النجدة من الخدام لذلك، فابتدؤوا ببناء الحصن، فأحكموا سوره ودوره ومواجله وآثاره، وتحصين المواضيع التي يحذر منها عليه»، ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، ص، 391.
57 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 327. محمد المنوني، ورقات، ص، 18.
58 انظر،

Ferhat (H), "Sabta des origines", *op. cit.*, p. 254.

59 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 389.
60 مجهول، ورقات في التاريخ، ص، 57. ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ق 1، ص، 42.

Scanned by CamScanner

61 ابن خلدون، المقدمة، ص، 273.

62 المصدر نفسه، ص، 271.

63 مجهول، الرسالة الوجيزة في علوم الخلافة، ص، 50.

64 الونشريسي، المعيار، ج. 8، ص، 44.

65 الونشريسي، المعيار، ج. 5، ص، 352. إبراهيم القادري بوتشيش، وجدة والمدينة الأوروبية المتوسطية، وجدة والمدينة الأروبية المتوسطية، مجلة كلية الاداب والعلوم الإنسانية، وجدة، ع. 3، 1992م، ص، 84.

66 ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ص، 71.

67 الإدريسي، نزهة المشتاق، ص، 248.

68 مارمول، إفريقيا، ج. 2، ص، 47.

69 القلقشندي، صبح الأعشى، ج. 5، ص، 150.

70 ابن الخطيب، ريحانة الكتاب، ج. 2، ص، 356.

71 وفي هذا يقول، «أسوار مكناسة مرقعة كأنها من ثياب أهليها» نفاضة الجراب، ج. 3، ص، 96.

72 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 89.

73 الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 22. ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 94. الأنيس المطرب، ص، 301.

74 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 322. الذخيرة السنية، ص، 90.

75 محمد المنوني، ورقات، ص، 45.

76 ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج. 2، ص ص، 305–306.

77 القبتوري، رسائل ديوانية، ص، 17.

78 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 385.

79 المصدر نفسه، ص، 401.

80 راجع الحسين بولقطيب، الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى، ص ص، 254–852.

81 الونشريسي، المعيار، ج. 5، ص ص، 347–348.

82 المصدر نفسه، ج. 7، ص، 303.

83 ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج. 2، ص ص، 305–306.

84 الونشريسي، المعيار، ج. 5، ص، 348.

85 المصدر نفسه، ج. 7، ص، 303.

86 المصدر نفسه، ج. 7، ص، 304.

87 راجع للمقارنة، الأعراف التي نظمت مساهمة السكان في بناء الأسوار وصيانتها في أوربا الفترة نفسها، محمد حمام، بناء الأسوار وصيانتها في أوربا، نموذج منطقة كاسكونيا الفرنسية في القرن الثالث عشر للميلاد، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ع. 17، 1992، ص ص، 87–94.

88 الونشريسي، المعيار، ج. 5، ص، 352–347–348.

89 المصدر نفسه، ج. 7، ص، 222.

90 المصدر نفسه، ج. 10، ص، 330.

91 المصدر نفسه، ج. 7، ص ص، 58–59.

92 المصدر نفسه، ج. 7، ص، 132.

93 المصدر نفسه، ج. 7، ص، 18–20.

Scanned by CamScanner

94 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 224. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 5.

95 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 27. الأنيس المطرب، ص، 283.

96 المؤلف نفسه، الذخيرة السنية، ص، 59.

97 الإدريسي، نزهة المشتاق، ج. 1، ص، 230.

98 ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج. 1، ص، 80.

99 الرحلة، ص، 8.

100 البكري، المغرب في أخبار المغرب، ص، 88.

101 الإدريسي، نزهة المشتاق، ج. 1، ص، 230.

102 مارمول، إفريقيا، ج. 2، ص، 226.

103 المصدر نفسه، ج. 2، ص، 112.

104 المصدر نفسه، ج. 2، ص، 45.

105 مجهول، الرسالة الوجيزة في علوم الخلافة، ص، 50.

106 المصدر نفسه، ص، 47. الونشريسي، المعيار، ج. 5، ص، 352. ج. 9، ص، 547. الوليدي، الحلال والحرام، ص، 211.

107 مجهول، رسالة فيما يجب على الأمير، ص، 235. الونشريسي، المعيار، ج. 5، ص، 353.

108 راجع الحسين بولقطيب، الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى، ق 2، ص ص، 251–254.

109 محمد المنوني، أبحاث مختارة، منشورات وزارة الشؤون الثقافية، المملكة المغربية، فبراير، 2000م، ص ص، 141–143. محمد زنيبر، المغرب في العصر الوسيط، ص، 313.

110 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 112–126–127–290. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 385.

111 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 385.

112 المصدر نفسه، ص، 401.

113 الحسن الوزان، وصف افريقيا، ج. 1، ص، 351.

114 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 327. محمد المنوني، ورقات، ص، 18.

115 ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، ص، 398.

116 محمد المنوني، أبحاث مختارة، ص، 142.

117 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 59.

118 العبدري، الرحلة، ص، 8–9. البادسي، المقصد الشريف، ص، 58. الناصري، الاستقصا، ج. 4، ص، 3–4.

119 مارمول، إفريقيا، ج. 2، ص، 114. وانظر أيضا، ص ص، 10–19.

120 Laoust Emile, *Mots et choses berbères*, Casablanca, 1983, pp. 1-20.

121 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 104.

122 انظر، هامش العلوي القاسمي، مجتمع المغرب الأقصى، ج. 2، ص ص، 283–285.

123 ابن سعيد، الجغرافيا، ص، 141.

124 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 342.

125 مارمول، إفريقيا، ج. 2، ص، 270.

126 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 104.

127 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 153–248. الأنصاري السبتي، إختصار الأخبار، ص، 42.

مارمول، إفريقيا، ج. 2، ص، 51.

Scanned by CamScanner

128 محمد الأمين البزاز، أوبئة ومجاعات، ص، 101.

129 فصلنا في هذه النقطة في المبحث الثاني من الفصل الأول ضمن الباب الأول.

130 العمري، مسالك الأبصار، ص، 116. القلقشندي، صبح الأعشى، ج. 5، ص، 151.

131 مارمول، إفريقيا، ج. 2، ص، 51.

132 الأنصاري السبتي، اختصار الأخبار، ص، 42.

133 الونشريسي، المعيار، ج. 7، ص، 87.

134 ابن غازي، الكليات، ص، 23.

135 الونشريسي، المعيار، ج. 8، ص، 285.

136 المصدر نفسه، ج. 8، ص، 268.

137 المصدر نفسه، ج. 2، ص، 116.

138 العلمي، النوازل، ج. 3، ص، 43.

139 ابن غازي، الكليات، ص، 128. رحال أبو عباد، كشف القناع في تضمين الصناع، طبعة حجرية، فاس، د.ت، ص، 34.

140 مجهول، نبذة من تاريخ المغرب الأقصى، ص، 167.

141 الحميري، الروض المعطار، ص، 507.

142 القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص، 549.

143 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

144 انظر، سعيد بنحمادة، الماء والإنسان بالأندلس خلال القرنين 7 و8هـ/13 و14م، مساهمة في دراسة المجال والمجتمع والذهنيات، أطروحة لنيل الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة المولى إسماعيل، مكناس، مرقونة، 2005–2006.

145 انظر في هذا الصدد، محمد استيتو، الماء والحرب في تاريخ المغرب، أية علاقة، ضمن ندوة الماء في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني –عين الشق– الدار البيضاء، دجنبر، 1996، ص ص، 177–190.

146 الحسن الوزان، وصف افريقيا، ج. 1، ص، 136. مرمول، إفريقيا، ج. 2، ص، 56.

147 مسالك الأبصار، ص، 136. الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 354.

148 محمد بن إبراهيم اللخمي بن الرامي البناء، الاعلان في أحكام البنيان، ص، 37. الونشريسي، المعيار، ج. 8، ص، 277–429.

149 المسند الصحيح الحسن، ص، 391.

150 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

151 الحسن الوزان، وصف افريقيا، ج. 1، ص، 354.

152 ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص، 306. هامش المحقق.

153 مجهول، ورقات في التاريخ، ص، 63. علي الجزنائي، جنى زهرة الآس، ص، 42.

154 ابن غازي، الروض الهتون، ص، 37.

155 يتعلق الأمر في هذه العبارة بالاكتساح المريني لمجال المغرب الأقصى في بداية القرن 7هـ/13م، (ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 27. الأنيس المطرب، ص، 283). لكننا لا نلبث أن نصادف عبارات مماثلة كثيرة تتعلق بفترات تاريخية أخرى من زمن هذا البحث، كما سنرى في الصفحات القادمة.

156 المصدرين نفسهما، الصفحات نفسها.

157 يجدر بنا أن نشير إلى أن هذا التحول على المستوى العمراني ترجع جذوره إلى فترة سابقة لزمن هذا

Scanned by CamScanner

البحث، ونعني بها النصف الثاني من القرن 5هـ/11م. انظر للتفصيل في هذه النقطة، محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، ج. 3، ص، 91. أحمد الطاهري، عامة إشبيلية، ص، 25. وانظر عن الأثر الحربي في هذا التحول، الحسين بولقطيب، الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى، ق 2، ص ص، 224-291.

158 راجع للتفصيل عن الوضع العمراني في مغرب هذا العصر، سالم حميش، الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ، ص ص، 54-81.

159 البيان المغرب، قسم الموحدين، ص، 357.

160 مجهول، الحلل الموشية، ص، 170.

161 ابن غازي، الروض الهتون، ص ص، 32-34.

162 علي الجزنائي، جنى زهرة الآس، ص ص، 44-45.

163 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 122.

164 محمد المنوني، ورقات، ص، 12.

165 مارمول، إفريقيا، ج. 2، ص، 61.

166 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 204. مارمول، افريقيا، ج. 2، ص، 132.

167 مارمول، مصدر سابق، ج. 2، ص، 130.

168 ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص، 353.

169 ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 101.

170 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 112-532. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 20.

171 ابن خلدون، المصدر نفسه، ج. 7، ص، 115.

172 محمد المنوني، ورقات، ص، 12.

173 ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص، 419. ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص ص، 93-94.

174 مارمول، إفريقيا، ج. 2، ص، 135.

175 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 403. الذخيرة السنية، ص، 121. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 31. محمد المنوني، ورقات، ص، 13.

176 جمال حيمر، مدينة مكناس من التأسيس إلى مطلع العصر الحديث، دراسة في التاريخ السياسي والعمراني، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، جامعة المولى إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، (مرقونة)، 2003-2004، ص، 129-263-264. عبد الوهاب الدبيش، فاس المرينية، ص، 135. روجيه لو تورنو، فاس في عصر بني مرين، ص، 28.

177 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 310. الذخيرة السنية، ص، 132. المزوزي، نظم السلوك، ص، 90.

178 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 114.

179 مارمول، إفريقيا، ج. 2، ص، 270.

180 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 290.

181 المصدر نفسه، الصفحة نفسها. وللإشارة فإن أبا الحسن المريني أمر بعد ذلك سنة 735هـ/1334م بتخريب هذه المدينة «فأصرعها أرضا»، المصدر السابق، ص، 304. راجع للتفصيل عن وضع وجدة في ظل هذا الصراع المحتدم بين بني مرين وبني عبد الواد، إبراهيم القادري بوتشيش، وجدة والمدينة الأوربية المتوسطية، ص ص، 85-87.

182 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 342.

183 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 201-305.

Scanned by CamScanner

184 المصدر نفسه، ص، 305.
185 عبد الأحد السبتي، علامات المدينة المغربية، ص، 21.
186 الحسين بولقطيب، **الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى**، ق 2، ص، 227.
187 الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص ص، 349-350.
188 المصدر نفسه، ص ص، 317-318. ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص، 388.
189 ابن خلدون، **المقدمة**، ص، 258.
190 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص ص، 314-315.
191 ابن غازي، **الروض الهتون**، ص، 35.
192 شارل أندري جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية**، ج. 2، ص، 239. ابراهيم حركات، **المجتمع والسياسة**، ص، 34-35-245.
193 **المقدمة**، ص، 25. ومما يفصح عن رأي ابن خلدون ودور القبائل العربية خاصة في هذا المجال، ما أكده في مكان آخر من مقدمته، حيث يقول، «وإفريقية والمغرب لما جاز إليها بنو هلال وبنو سليم منذ أول المائة الخامسة، وتمرسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها [الخراب] وعادة بسائطه خرابا»، المصدر نفسه، ص، 119.
194 وكان ذلك في حدود سنة 780هـ/1378م، انظر الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص ص، 349-350.
195 المصدر نفسه، ص، 210.
196 المصدر نفسه، ص، 213.
197 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
198 المصدر نفسه، ص، 217.
199 المصدر نفسه، ص، 216.
200 المصدر نفسه، ص، 154.
201 المصدر نفسه، ص، 217. ابراهيم حركات، **السياسة والمجتمع**، ص، 245.
202 المصدر نفسه، الصفحات نفسها.
203 المصدر نفسه، الصفحات نفسها.
204 ابراهيم حركات، **السياسة والمجتمع**، ص، 35.
205 **تحفة النظار**، ص، 683. وقد علق أحد المؤرخين على قول ابن بطوطة بقوله، «قول ابن بطوطة وقد استولى عليها الخراب، فإنه دخل مراكش بعد خرابها بكثرة الفتن والحروب وانتقال كرسي الملك منها لفاس في الدولة المرينية ويرحم الله لسان الدين ابن الخطيب حين وقف على مصانع مراكش وقصورها وقصبتها، واعتبر بما صار إليه أمرها بعد الموحدين فقال،

بلد قد غزاه صرف الليالي — وأباح المضون منه هبيج
فالذي خر من بناه قتيل — والذي خر منه بعض جريح»

مجهول، **ذكر تاريخ مراكش**، ص، 308.
206 الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 210.
207 إبراهيم حركات، **السياسة والمجتمع**، ص، 35.
208 الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج. 1، ص، 215.
209 ابن غازي، **الروض الهتون**، ص، 40. وقد وصف ابن الخطيب هذه المدينة بعدما نالها من الخراب بقوله،

أسوار مكناسة مرقعة كأنها من ثياب أهليها
دور خراب على بحار خرا تناسبت حالها بمن فيها

نفاضة الجراب، ج. 3، ص، 96. كما أنشد الشاعر ابن جابر الغساني (ت. 827هـ/1423م) يقول فيها،

لا تنكرن الحسن من مكناسة فالحسن لم يبرح بها معروفاً
ولأن محت أيدي الزمان رسومها فلربما أبقت هناك حروفا

ابن غازي، الروض الهتون ، ص، 10. ابراهيم القادري بوتشيش، إسهامات في التاريخ الاقتصادي-الاجتماعي، ص ص، 113–118. جمال حيمر، مدينة مكناس من التأسيس إلى مطلع العصر الحديث، ص، 132–133–141.

210 ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج. 2، ص، 58. معيار الاختيار، ص، 164.

211 وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 136.

212 لا نملك تعريفا دقيقا للمجال البدوي؛ فكتب الجغرافية والرحلات وغيرها من المصادر تورد أسماء ومفاهيم يصعب ضبطها، (محمد الناصري، مستويات المجال والبحث التاريخي في البادية، ضمن كتاب البادية المغربية عبر التاريخ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1999، ط. 1، ص، 161)، ونعني به هنا المجال الخارج عن نطاق المدينة وأسوارها، والذي استطاع الإنسان أن يفعل فيه، سواء كان قرية أو مدشرا أوغيرهما من المسميات التي عبرت بها المصادر عن المجال المعمر من البادية بشكل عام.

213 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 3. الناصري، الاستقصا، ج. 3، ص، 3.

214 ابن خلدون، المقدمة، ص، 118.

215 المصدر نفسه، ص، 289. ابراهيم حركات، السياسة والمجتمع، ص، 245.

216 الروض الهتون، ص، 42.

217 المصدر نفسه، ص، 35.

218 المصدر نفسه، ص، 40.

219 انظر، سالم حميش، الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ، ص ص، 54–81.

220 البيان المغرب، قسم الموحدين، ص، 357.

221 ابن خلدون، العبر، ج. 7، ص، 224. ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص، 27.

222 مجهول، نبذة من تاريخ المغرب الأقصى، ص، 132. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص، 294.

223 الدرعي، الأجوبة، ص، 153.

224 الونشريسي، المعيار، ج. 7، ص، 62.

225 السكتاني، الجواهر المختارة، ص، 60.

226 نفاضة الجراب، ج. 2، ص، 58.

227 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 301.

228 المصدر نفسه، ص، 306.

229 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 299.

230 ابن خلدون، المقدمة، ص، 117.

231 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

232 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج. 1، ص، 118.

233 المصدر نفسه، ص، 116.

234 المصدر نفسه، ص، 207.

235 نفاضة الجراب، ج. 3، ص، 89–90.

Scanned by CamScanner

236 ابن خلدون، المقدمة، ص، 118.

237 مولود عشاق، حركة المتنبئين بالمغرب الأقصى، ص، 13.

238 ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ج. 3، ص ص، 89–90.

239 المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

240 مارمول، إفريقيا، ج. 2، ص، 42.

241 المصدر نفسه، ص، 131. وانظر للتفصيل عن وضع المجالات البدوية المحيطة بوجدة، إبراهيم القادري بوتشيش، وجدة والمدينة الأوروبية المتوسطية، ص ص، 88–89.

242 العبر، ج. 6، ص، 116.

Scanned by CamScanner

خاتمة

أسفرت الدراسة عن تفكيك العلاقة بين الحرب والمجتمع، ومحاولة تحليل شامل لمختلف الآثار والانعكاسات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والذهنية التي خلفتها الحرب، انطلاقا من حضورها الوازن والمكثف خلال العصر المدروس. وقد بدأ التمهيد لذلك بتأكيد الأهمية التي أضحت لمفهوم «الحرب والمجتمع» في التخصصات العلمية المعاصرة، وكذا أهميتها في حقل التاريخ لفهم المنعطفات الحضارية للمجتمعات المدروسة، ودور الحرب في إحداثها. كما توقفنا عند مفهوم الجهاد وأحكامه في التشريع الفقهي لغرب العصر المريني، فاتضح أن أحكامه أتت في الغالب على شكل نظري تتفق في عمقها مع روح الإسلام المبنية على عدم السبق في العداء والتسامح الديني، والدفاع عن الحوزة وأمن المسلمين، فضلا عن جملة تعاليم أخرى تخص التعامل مع غير المسلمين في حال وقوعهم مغلوبين، والرفق بهم، واحترام العهود المعقودة بينهم، وعدم المغالاة في النكاية بهم وبثرواتهم، كما تخص التربية النفسية تحاشيا لأسباب الضعف واحتماء من مكائد العدو، وبعضها يهم الحفاظ على أمن الأمة ووحدتها بمحاربة أصحاب الفتن والمحاربين.

وبعد هذا الرصد فضلنا أن يكون الواقع العياني وحده الوسيلة المثلى لتبين هذه القضايا وتوضيح موقع الحرب في مجتمع المغرب الأقصى زمن المرينيين.

وقد أبانت الدراسة أن الحرب ببعدها الاجتماعي المفارق لحالة السلم والتبادل أضحت ظاهرة حاضرة باستمرار في أسلوب اشتغال القبيلة المغربية خلال العصر المريني؛ فوطأة الطبيعة، وندرة الموارد، وعدم تكافؤ توزيعها في المجال، وإكراهات المناخ، ودورية الجوائح الطبيعية، فضلا عن ضعف التقنيات، كلها عوامل تفاعلت لتجعل من الحرب ظاهرة سوسيو-اقتصادية مهيكلة وراسخة في الجسم القبلي المغربي، تعتمدها القبيلة لتأكيد وجودها المادي، وتحسين وضعها الاقتصادي في إطار ما أسميناه بـ «حروب العوز».

وحرصا منا على تبني المقاربة الشمولية المراعية لتداخل الأسباب المفسرة للظاهرة الواحدة، وإيمانا منا أن من تبعات القول بالعامل الوحيد أو الواحد في تفسير ظاهرة الحرب من شأنه أن يسقطنا في إحدى الحتميات، لم نتردد في الكشف عن كل العوامل التي اقتنعنا أنها كانت هي المتحكمة في ترسيخ هذه الظاهرة في الجسم القبلي. وقد أبانت الدراسة أن الحرب تبدو في بعض دواعيها وسيلة لغاية سياسية هي تدبير الاختلاف بين القبائل، ورسم

حدود الحقل السياسي للجماعات القبلية؛ ذلك أن الحرب تمثل في هذه الحالة الوسيلة التي تستخدمها القبيلة للحفاظ على وحدة عناصرها، والأسلوب الذي يمكن أن تبقى بواسطته مستقلة عن أي جماعة على صلة بها.

وبالمثل كشفت الدراسة عن جملة من المظاهر والتنظيمات التي شكلت إفرازا واضحا لتعمق الظاهرة الحربية في المكون القبلي المغربي زمن هذه الدراسة؛ إذ ولدت الحرب أنساقا من السلوك الاجتماعي لمسايرة حضورها المكثف، والمساهمة فيها بعقد تحالفات واتفاقيات ومصاهرات. كما فرضت نوعا من التقسيم الاجتماعي للأدوار الحربية؛ ففضلا عن الاهتمام بما اقتضته من ضرورة إنتاج الرجال حاملي السلاح الذين بهم تتحدد مكانة القبيلة داخل الجسم القبلي، برزت قبائل متخصصة في حمل السلاح وبيع الخدمة الحربية لمن يدفع مقابلا عنها، وهو ما عبرنا عنه بـ «**الحاميات العسكرية**»، فيما بدا لنا وكأنه بداية لتشكل قبائل الكيش التي سيعرف العصر الموالي بروزها وتنظيمها. وفضلا عن ذلك، أفرزت الحرب جملة من الأعراف لتأطيرها واستيعاب نتائجها، كما ألقت هذه المستجدات بظلالها على الوضع القانوني التنظيمي، وألزمت الفقيه والمفتي أن يجيبا عن كثير منها استنادا إلى العرف والضرورة، وغير ذلك من أصول ما جرى به العمل، مما أسهم في ترسيخ «فقه الواقع» في تدبير قضايا الحرب ونوازلها.

وعلى صعيد آخر، توصلنا من خلال مقاربتنا لتنظيم الدولة خلال عصر هذه الدراسة، وتتبع مكوناتها، وميكانزماتها وتنظيماتها وسير مؤسساتها، إلى أن الحرب شكلت رمز وجودها، والأصل في بنائها واستمرارها، لكن أيضا في انهيارها ونهايتها. ومن خلال تحليلنا لمقومات الدولة، كما حددتها الأدبيات الإسلامية في مجال السياسة، وبالأخص كما عاينها ابن خلدون، تبين لنا أن الطبيعة الحربية للدولة المرينية فرضت نوعا من التعدد الإثني في مكونات الجيش، وامتاز حضور مجمل هذه المكونات ومساهمتها الحربية بتبدل الولاء، والتأرجح ما بين تقديم الخدمة العسكرية والامتناع عنها حسب قوة الدولة أو ضعفها، كما أسهمت في أن يصبح العطاء وتوفير النفقات مفتاحا هاما لإنجاح مشاريع الدولة أو فشلها.

علاوة على ذلك، أوضح هذا العمل أيضا التلازم الوثيق بين المال واستخدام العنف، أو بين الحرب والغنيمة في بناء الدولة واستمرارها؛ فركزنا على الدور الذي قامت به الغنيمة في تأسيس الدولة واستمراريتها، إذ مثلت الحرب وما تدره من أموال وغنائم مصدراً هاما من مصادر الثروة خلال الفترة مدار الدرس، وموردًا أساسيا من موارد بيت مال الدولة

Scanned by CamScanner

السلطانية، وعنصرا أساسيا في تدبير توازناتها. وحرصنا في إطار المقارنة مع الحقب التاريخية السابقة على توضيح مميزات هذا العصر، والتحولات العميقة التي ميزته. وفي إطار سعينا لفهم أدق لدور الحرب في تحديد المسار السياسي للدولة المرينية، وجهنا اهتمامنا لضبط أوجه صرف أموال الفتح وغنائمه، وسبل إنفاقها وما تتطلبه الحرب من نفقات قبل أن تصبح مورداً للأموال.

وتبين لنا أن الحرب، بمكاسبها المادية، التي أسهمت في انتقال قبائل بني مرين من طور القبيلة إلى طور الدولة ودفعت بها غنائمها نحو التفكير والعمل على استعادة التجربة الموحدية، هي نفسها الحرب التي تطلبت من هذه الدولة تكاليف ضخمة لتجهيز الجيش بالعتاد والأسلحة وصرف الرواتب للجند، ومحاباة الحلفاء، بالإضافة إلى مصاريف المؤونة والتنقل وبناء التحصينات، وغيرها من التكاليف التي كان حجمها وثقلها لا يتناسبان والحجم الحقيقي الذي أصبح للمغرب خلال هذه المرحلة. ومن ثم اتضح أن الحرب بقدر ما كانت جماعة للمال وموردا هاما له، كانت بالقدر نفسه مستنزفة إياه، خاصة في المراحل الأخيرة من عمر الدولة حين تنضب الخزينة العامة، وتكثر بالمقابل نفقات الحرب ومطالب منفذي خططها، ويعجز المجتمع عن أداء ما تطالب به الدولة لتمويل حاجياتها العسكرية، وتعجز عن تدبير توازناتها المالية، فتنهار بالمرة.

غير أن الحرب في اعتقادنا لم تكن بالنسبة للدولة مجرد وسيلة للحصول على الأموال، وأسلوبا للحماية والاستمرار فقط، بل شكلت ممرا واسعا لتمرير جملة هامة من الرموز والتصورات، وتنفيذ أدوار رمزية لا تقل أهمية عن الدور المباشر للجيش وسلاحه؛ أبرزها إظهار سلطة الدولة في المكان، وإبراز عظمة السلطان في مجال يتميز بالمقاومة المستمرة للدولة، وكذا إضفاء مزيد من الهيبة والهالة والتعظيم على نظامه، وهو ما تبدى لنا من خلال دراسة بعض مظاهر الدولة المرينية، من قبيل التنقل العسكري المستمر للجهاز السياسي المريني، ونظام المحلة السلطانية، وأشكال المواكب والاستعراضات، ثم الوظيفة العسكرية، ومؤسسة السلطان.

وسعيا منا للكشف عن وضع المنتجين والأنشطة الاقتصادية في ظل الحضور الوازن للحرب خلال عصر الدراسة، تبين لنا أن هذه الظاهرة أضرت كثيرا بالإنتاج الفلاحي ومنتجيه بفعل نهب المحاصيل، وتخريب المشهد الزراعي، وتهجير الفلاحين، وإجبارهم على تقديم الخدمة العسكرية. واتضح أن دورية هذه الأوضاع طيلة العصر المريني أفضى إلى

Scanned by CamScanner

بروز تحولات هيكلية على مستوى المجال وأنظمة الاستغلال والإنتاج، إذ نتج عن تخلي الفلاحين، الذين تشكلت لديهم تقاليد هامة في تدبير الأرض وفلحها، عن أراضيهم لحساب القبائل ذات التقليد الرعوي والحربي تغيرات جذرية في المشهد الفلاحي، تمثلت في تحول السهول الخصبة إلى مجالات ممتدة للرعي والانتجاع، وحصر الرقعة الزراعية في المرتفعات وداخل أسوار المدن والمسورات كأسلوب لتأطير الخراب في غالب الأحيان، كما شجعت على الرعي الذي يتلاءم مع التوغل في الجبال، لأن الاقتصاد الرعوي يصبح أكثر ضمانا لأمن القبائل من الاقتصاد الزراعي.

وأوضحت الدراسة كذلك أن الحرب أسهمت بشكل كبير في إرباك تطور النشاط الحرفي بسبب تعرض الكثير من الورشات الحرفية للنهب والتخريب، وتوقف العديد من الوحدات الإنتاجية، وإلزام الحرفيين بالخدمة العسكرية، وتعرض الكثير منهم للإفلاس، وبروز النزاعات بين الصناع والمستهلكين في ما يتعلق بتضمين الأموال المنهوبة. كما طفحت إلى السطح ظواهر عدة تثبت عمق الأثر الذي خلفته الحرب في هذا النشاط؛ كمزاولة بعض المهن داخل البيوت، ولجوء الحرفيين إلى عقد شركات في كراء حانوت واحد، ثم اتساع قاعدة الصناع المتجولين. غير أن ذلك لم يمنع من انتعاش بعض الحرف والصنائع التي كانت الأطراف المتحاربة -بما فيها الدولة المرينية- في حاجة ماسة إلى موادها ومصنوعاتها، أو إلى سواعد ممتهنيها لتنفيذ توجهاتها الحربية، فانتعشت بذلك جل الحرف والصنائع ذات الارتباط بالميدان العسكري والحربي؛ من مثيل صناعة الأسلحة، وصناعة السفن، وحرف النجارة والبناء وغيرها، فتنامت أعداد الحرفيين المتعاطين لمثل هذه الصنائع والحرف.

وكان طبيعيا أن تتعرض التجارة أيضا للكساد لاعتمادها على الزراعة والصناعة أصلا، إذ وجهت الحرب ضربات موجعة لهذا النشاط، لارتباطه بشروط الأمن والسلم الاجتماعي، وقد أدى انعدام هذا الشرط في أكثر سنوات العصر المريني إلى تراجع رغبة التجار في ولوج الأسواق البعيدة، وانحصر لذلك النشاط التجاري داخل أسوار المدن، أو توقف نهائيا أثناء الحصارات والاجتياحات الكبرى. وإذا كنا قد وقفنا عند دور الحرب في تخريب البنى التحتية لهذا القطاع، واستهلاك أموال أصحابه، وما رافق ذلك من ظواهر من قبيل الاحتكار، وبيع المغصوب، وأساليب الغش والتدليس، فقد أكدنا أيضا أن الحرب كانت عاملا هاما في تنمية أموال التجار في بعض الأحيان، سواء بالنسبة لأولئك الذين

Scanned by CamScanner

يرافقون الحملات العسكرية في تنقلاتها، أو بالنسبة للمهربين والمحتكرين من التجار الذين يترصدون مثل هذه الحروب لتنمية أموالهم.

بالنسبة لانعكاسات الحرب على التجارة الخارجية، اتضح أن استفحال ظاهرة الحروب والنزاعات بين الكيانات التي حكمت بلاد المغرب، بعد انهيار الإمبراطورية الموحدية، والانفلات الأمني في البر والبحر الذي ساد في معظم مراحل الفترة موضوع الدراسة، فضلا عن استمرار الصراع بين الضفتين الجنوبية والشمالية للبحر المتوسط، في إطار الصراع التاريخي بين «دار الإسلام» و«دار المسيحية»، كل ذلك أعاق تطور هياكل هذا النشاط، ووقف حاجزا سميكا أمام سيولة انتقال التجار والبضائع بين هذه الأقطار.

وبناء على النتائج السابقة، جرى تتبع مختلف المظاهر والانعكاسات الاجتماعية التي أفرزتها الحرب، واتضح أن تدمير الحيوات البشرية والقتل الجماعي للناس مثل أبرز مظهر للحرب لدرجة يمكن اعتباره جوهر الظاهرة نفسها. وبعد أن أكدنا ضعف الأرشيف المغربي لهذه المرحلة في توضيح جوانب تخص التاريخ الديموغرافي، وافتقاره إلى النصوص الإحصائية الدقيقة التي من شأنها إضاءة الجوانب المعتمة من هذا التاريخ في علاقته بالعوامل الفاعلة فيه، ومنها الحرب، سعت الدراسة إلى تتبع مختلف آثار الحرب في الديموغرافيا، من خلال جرد موسع- محكوم بما توفر من المادة المصدرية- لمستويات المنحنى الديموغرافي منذ بداية القرن 7هـ/13م، وبالضبط منذ هزيمة العقاب التي خلفت آثارا ديموغرافية كارثية حتى منتصف القرن 9هـ/15م.

وقد بينت الدراسة أن الحرب التي استفحلت في مغرب هذه المرحلة، خاصة في مرحلتي التمهيد وبناء الدولة المرينية، وفي مرحلة تراجعها وانهيارها، أفضت إلى ارتفاع غير عادي في أعداد الوفيات، وتقلص مؤقت، لكنه مؤثر، في أعداد المواليد بسبب جملة من العوامل أبرزها تراجع نسبة الزواج ونسبة الإنجاب في فترات الحرب نتيجة الغياب المستمر للأزواج في الغزو، وكذا التفاوت الجنسي في نسب الموت بين الرجال والنساء، إذ عادة ما تعمل الحرب في إطار وظيفتها التدميرية على استهداف أقوى الرجال دون غيرهم من الفئات العمرية الأخرى، وتفضي إلى هلاكهم؛ وبصفة أكثر حدة دون النساء، وهو ما أفضى في اعتقادنا إلى خلخلة التوازن الديموغرافي، وتمييع الحياة الاجتماعية باتساع قاعدة النساء، وانتشار ظاهرة العنوسة، وتراجع نسبة الزواج والولادات. وفي كل الأحوال فإن الحرب أفضت إلى ارتفاع غير عادي في أعداد الوفيات، وخفضت من أعداد المواليد، وأخرت

Scanned by CamScanner

السير العادي للنمو الديموغرافي، وأخلت بتوازنه لفترات طويلة من هذا العصر؛ فعمقت بذلك ما وسمناه بحالة «الإسترخاء الديموغرافي».

وعلاوة على ذلك، أبانت الدراسة أن الحرب قامت بدورين أساسين في علاقتها بالمنحنى الديموغرافي تمثل أولهما في ما سميناه أسلوب «التجميع»، إذ أسهمت بشكل أو بآخر في النمو الديموغرافي الذي ميز واسطة الدولة المرينية. ذلك أن الطبيعة الحربية لهذه الأخيرة حولت المغرب الأقصى إلى مجال مستقطب لمزيج من الأجناس من مرتزقة ومصطنعين وأسرى وسبايا، فضلا عن الأندلسيين الذين تزايدت نسبة نزوحهم بسبب حملات الاسترداد المسيحية. وثانيهما أسلوب «الإفناء المفاجئ»؛ إذ لم يكن النمو الديوغرافي المنوه به ذا قيمة نظرا لقصر فترة الاستقرار، وما شابها من اضطرابات، والهزائم التي مني بها الجيش المريني في أواخر هذه المرحلة، وموافقتها للطاعون الجارف الذي طوى البساط بما فيه، كل ذلك أفضى إلى انهيار مستجد للوضع السكاني. ولا شك أن حروب المرحلة الأخيرة أسهمت في تعميقه وترسيخه.

وفضلا عن القتل الذي اعتبرناه مرادفا بديهيا للحرب، توقفت الدراسة عند قضية الأسر والاسترقاق التي مثلت المظهر الآخر الأكثر ارتباطا بالحرب. وبعد أن سجلنا صعوبة تبني المنهج الإحصائي في مقاربة هذه الظاهرة؛ بسبب قلة النصوص الرقمية، وغلبة النصوص الانطباعية في متون المرحلة المدروسة- على غرار ما أثبتناه بالنسبة للديموغرافية- تبين أن أعداد السكان الأحرار الذين وقعوا في ربق الأسر نتيجة الحروب، كانت بحجم أعداد القتلى وأكثر. كما أوضحت الدراسة أن تعدد جبهات القتال في معظم فترات هذا العصر أسهمت بشكل كبير في ارتفاع أعداد الأسرى، واتساع قاعة المسترقين بسبب الحرب.

وفيما يتعلق بأوضاع الأسرى ورقيق الحرب، فقد حرصنا على مقاربة هذا الموضوع من خلال استحضار الأحكام الفقهية في تدبير قضية الأسير التي تراوحت بين القتل، أو الاسترقاق، أو المن، أو الفداء؛ فتبين لنا أن الخيار الأول لم يطبق في معظم الحالات التي وقفنا عندها، وفسرنا ذلك بأهمية الأسرى من الناحية المالية بالنسبة للأطراف المتحاربة، وأكدنا ما توصل إليه باحثون متخصصون في أن الأسرى شكلوا رأسمالا مهما بالنسبة لدول المرحلة، بل وشكل الحصول على الأسرى، ومن ثم بيعهم، سببا في نشوب بعض الحروب واستفحالها. كما أثبتنا موقف الفقهاء المغاربة الذين حرصوا على عدم تطبيق هذا الخيار حتى بالنسبة للأسير المسيحي، مستندين في ذلك إلى العادة أولا، وإلى الخصوصية المغربية

Scanned by CamScanner

الأندلسية ثانيا، وأخيرا لوضع الأسرى المغاربة في دار الحرب، وتفادي إمكانية التعامل بالمثل في حقهم، في حالة تطبيق هذا الخيار.

أما خيار الاسترقاق فقد أثبتنا أنه كان أكثر الخيارات تطبيقا؛ لذلك سعينا إلى تبين أوضاع الأسرى الرقيق، سواء في دار الحرب بالنسبة للأسير المغربي، أو في بلاد المغرب الأقصى بالنسبة للأسير المسيحي، وغيره من أسرى الجبهة الداخلية والشرقية. وإذا استثنينا بعض من سلموا من أشكال الاستغلال والتمييز، يمكن القول إجمالا إن أوضاع الأسرى المسترقين بصفة عامة كانت مأساوية في الأمكنة التي نقلوا إليها، لذلك شكل الفداء، والفدية الوجه المضيء والمنقذ لهذه الشريحة الاجتماعية المتضررة. وقد تبين لنا أن دول هذه الحقبة التاريخية بالرغم من اهتمامها بافتكاك أسراها، إلا أن ما قامت به لم يصل إلى مستوى إيجاد حلول جذرية لهذه المسألة. مما فسح المجال لجهود المجتمع الذي أسهمت مختلف فئاته في افتكاك الأسرى في إطار من التضامن والتكافل الاجتماعي، مما جعلنا لا نجد حرجا في الإقرار بأن مآسي الحرب يمكن أن تمجد أحيانا، لأنها بقدر ما كانت تمزق وتفرق، كانت أيضا تجمع وتحيي مشاعر التضامن والتآزر بين الأفراد والجماعات.

وتطرقنا كذلك للحياة العسكرية للجنود والمشاكل المترتبة عنها؛ ومن خلال جرد إحصائي للحملات العسكرية التي قادها السلاطين المرينيون، والمدد التي كان الجند يقضونها بعيدا عن مواطنهم وأسرهم، تبين أن هذه الحملات تميزت بتتابعها وتواليها وطول مددها، وأدت إلى ردود فعل قوية من قبل الجند تراوحت بين التذمر والتمرد، وأفضت إلى توقف الحملات العسكرية في بعض الحالات، وحبك المؤامرات والتدبير للانقلاب في حالات أخرى، واغتيال الحاكم في أقصى الحالات. وقد كانت هذه التذمرات والتمردات التي وقعت في صفوف الجند دافعا قويا لنا للبحث في خبايا الحياة العسكرية، ووضع الجند الاقتصادي والاجتماعي والنفسي في ظل غياباتهم المطولة عن مواطنهم وأسرهم؛ فتبين لنا أن الوضع الاقتصادي لأفراد الجيش، خاصة ذوي الرتب الدنيا، لم يكن في المستوى المطلوب، سيما وأن معظمهم تخلوا عن أنشطتهم الاقتصادية الأصلية أملا في تحسين وضعهم المعيشي في الجيش. كما أن التحول المفاجئ في نمط العيش بالنسبة لذوي الرتب العليا في هرم الجيش بفضل اتساع ثرواتهم، وإغداق السلطة عليهم الأموال والأعطيات، أحدث شرخا شاسعا بين خدمتهم العسكرية، وميلهم نحو حياة الدعة والسكون، بعيدا عن متاعب الحياة العسكرية، ومخاطر الحرب والقتال.

Scanned by CamScanner

غير أن الوضع الاجتماعي الذي حتمته الحياة العسكرية على الجند، والتي فرضت عليهم نوعا من الغياب المستمر عن أسرهم وزوجاتهم وأبنائهم ومواطنهم كان سببا مباشرا في حالات كثيرة من التفكك الأسري، وخلق القطيعة الاجتماعية بين الجند وعائلاتهم، خاصة بعد إعلان الكثير من نساء الجند عدم قدرتهن على التكيف مع الوضع الاستثنائي لأزواجهن. كما أن الظواهر الطارئة على الحياة العسكرية للجندي نتيجة الحرب من قبيل الأسر أو الفقدان، طبعت حياتهم بكثير من الصعوبات؛ كان أبرزها احتجان أموالهم أثناء غيابهم، والضرر الذي كان يلحقه في زوجه وولده وماله كلما طالت غيبته وترجيح عدم إمكانية عودته، فضلا عن عدم القدرة على التكيف وصعوبة الاندماج في المجتمع بعد عودته. وعلاوة على ذلك، توقفنا عند الوضع النفسي للجند، وبالخصوص حياتهم الجنسية؛ فتوصلنا إلى أن غيابهم المستمر عن زوجاتهم سبب نوعا من عدم التكيف مع الحياة العسكرية المطبوعة بالطابع الذكوري، مما أفضى إلى بروز إواليات للتكيف تمثلت أساسا في مرافقة بعض الجند لزوجاتهم أثناء الحملات العسكرية، ولجوء بعضهم إلى التسري أو إلى دور الدعارة في الأماكن التي نقلوا إليها. بل سجلنا حالة لم نستطع تعميمها وهي بروز زواج المتعة في صفوف الجند.

من جانب آخر، تطرقنا إلى وضع الأسرة المغربية في ظل الحضور المكثف للحرب، وركزنا -مجاراة للمادة المصدرية المتوفرة- على الأسرة العسكرية، التي مثلت أكثر الأسر المتضررة من واقع الحرب الدائمة. ومن خلال دراسة عضوين هامين في الأسرة، وهما المرأة والطفل، توصل البحث إلى أن المرأة لم تنج بدورها من آثار الحرب ومآسيها؛ إذ تعرضت للقتل والأسر والاسترقاق، وتحولت في حالات كثيرة من امرأة حرة إلى أمة تباع وتشترى وتمارس عليها مختلف أنواع الحقوق المكتسبة من قانون الحرب، والتي تبيح للرجل التسري والتمتع بما ملكت أيمانه. وإذ استثنينا بعض الحالات التي قامت فيها المرأة بأدوار هامة لمنع الحرب أو التقليل من آثارها على أهلها، فإننا لم نتردد في اعتبارها الحلقة الأضعف ضمن باقي الشرائح الاجتماعية المتضررة من الحرب.

وقد كشفت الدراسة عن أوضاع طوابير من النساء المنتظرات لأزواجهن الغائبين بقصد الحرب أو بسببها، ووقفت عند الوضع المزري لنساء من طالت غيبته، ومن فقد أو أسر في المعارك؛ إذ أصبح معظمهن يرزحن تحت وطأة الفقر والخصاصة، خاصة ذوات الأولاد اللواتي تضاعفت مشاكلهن، خاصة في مجال الإنفاق، وكفالة الأبناء، وتوفير متطلبات

Scanned by CamScanner

الأسرة. وأوضحت الدراسة أن ردود أفعالهن تراوحت بين الاذعان للواقع، وانتظار الزوج رجاء في عودته، وبين المطالبة بالتطليق. وإذا كان بعضهن قد تمكن من تحقيق مطلبهن نتيجة توثيقهن لشرط المغيب في عقد النكاح، فإن غيرهن تهن في دواليب مجالس القضاء، وتعقيدات الفقهاء في نوازل الطلاق بحكم الإعسار في النفقة. وفضلا عن ذلك تطرق البحث أيضا للأضرار المعنوية والجنسية التي لحقت بكثير من الزوجات نتيجة غياب قرنائهن بقصد الحرب أو بسببها، وتوقف عند حاجياتهن الجنسية. وعلاوة على ذلك، خصصنا جانبا هاما لتتبع أوضاع أرامل الحرب؛ فكشف عن أوضاعهن المادية المزرية، وعن نظرة المجتمع إليهن، ودور الدولة والمجتمع في معالجة أوضاعهن. كما أشارت الدراسة إلى بعض الظواهر الشاذة التي برزت في صفوف المتضررات من الحرب كالخيانة الزوجية والدعارة.

وقد تناولنا بالدراسة والتحليل أوضاع من سميناهم بـ«أطفال الحرب». فخلصنا إلى أن واقع الطفل زمن الحرب لم يختلف في شيء عن مصير غيره من الشرائح الاجتماعية، إذ عانى من الأسر والاسترقاق والارتهان وغير ذلك من أشكال الغبن الأساسي الذي لم نشك في أنه كان أكثر حدة حين مس هذه الفئة على الخصوص. كما توصلنا إلى أن أبناء الأسرى والمفقودين والغائبين بقصد الحرب أو بسببها اتسعت قاعدتهم في هذه الحقبة التاريخية، إلى جانب «أيتام الحرب» الذين تكاثرت أعدادهم بسبب كثرة من هلكوا في هذه المرحلة، وتركوا أبناءهم كلاً وضياعاً دون معيل. وتبين لنا أن هؤلاء جميعا تعرضوا لشتى ألوان البؤس والخصاصة، وأثبتنا ما أولته كتب الأحكام والسياسة المعاصرة لزمن هذه الدراسة من اهتمام بهذه الشريحة المتضررة، خاصة الأيتام. وسجلنا أن الإجراءات التي اتخذتها الدولة للنهوض بأوضاع هؤلاء الأطفال لا تعدو أن تكون مجرد أعمال إحسان وصدقات موسمية، ولا تشي بأي اهتمام قار ودائم من قبلها. ومن خلال محاولة استكشاف الآثار النفسية للحرب على أطفال هذه المرحلة أوضحت الدراسة أن انعكاسات الحرب امتدت لتطول الجوانب النفسية والحياتية، ونمط الوجود الذي نشأ عن الحرب، ولم نستبعد أن تكون أكبر ضرر وأعمق أثر على التوازن النفسي، والتكيف الاجتماعي المستقبلي لهؤلاء الأطفال.

أما بخصوص الذهنية الجماعية للمغاربة، فقد كشفت الدراسة عن قوة التأثير البنيوي وكثافة الترسبات التي خلفتها الظاهرة الحربية في مختلف أشكال السلوك والذهنية الجماعية

للمجتمع المغربي، وأماطت اللثام عن جملة من القيم كان للحرب دور هام في صياغتها وصقلها في الذهنية والسلوك الجماعيين، وانفعل بها المجتمع المغربي وأحاطها بكثير من التبجيل والإعجاب؛ من مثيل الشجاعة والفروسية، والتمسك بروح الجماعة، وإفناء الذات في خدمتها، وحفظ الجوار، وتمجيد الذكورة، وغيرها من القيم التي مثلت انعكاسا أمينا لتفشي الظاهرة الحربية واتساع نطاقها، وعكست رغبة المجتمع في تطويع ظروف الواقع، والتكيف مع مستجداتها.

وبالمثل، وقفنا عند أنماط السلوك الاجتماعية التي مثلت تجليات مادية لهذه القيم، وتكريساً لها على مستوى الواقع العياني المعيش؛ من قبيل الميل المتفاحش إلى تقليد أهل السيف في لباسهم، وتوشيح الزي بكل المظاهر العسكرية والحربية، ارتباطا بالقيمة الاجتماعية السامية التي منحت للسيف وحامله. وكذا طغيان المظهر الحربي على مختلف الألعاب التي مارسها المغاربة زمن المرينيين، والامتزاج الكبير بين المظاهر الحربية، ومظاهر الاحتفال والتسلية، وأثبتنا أن ذلك يمثل انعكاساً أمينا للظاهرة الحربية، ومحاكاة واضحة لها، إن لم نقل إنه مثل إعادة إنتاجها في المتخيل والرمز.

وفيما يتعلق بالإنتاج الفكري والثقافي، حرصنا على وضعه في إطار محيطه الاجتماعي والتاريخي، فخلصنا إلى أن الحرب، التي مثلت ظاهرة بنيوية في مجتمع هذه المرحلة، اخترقت المعارف، وشكلت حجر الزاوية أحيانا في نحت المصطلحات والمفاهيم التي تم تداولها في الساحة الفكرية، وفي مختلف أشكال الإنتاج الأدبي والفقهي والثقافي الذي أنتجته تلك النخبة العالمة. وإذا كنا في هذا المجال لم نتمكن من توضيح حجم العبء الذي مثله كل واحد من أعلام هذا العصر في معترك الواقع المفعم بالحروب والصراعات، فإن اعتمادنا على ابن خلدون الذي عاصر هذا الوضع واستوعبه، فنظر فيه وبسط خلاصاته في مقدمته المشهورة، كان كافيا بالنسبة لنا لتأكيد هذه الخلاصة.

وبخصوص الإنتاج الأدبي، بشقيه العالم والشعبي، توصلت الدراسة إلى أن ما أفرزته الحرب من آلام وأضرار، وفرت الأرضية المناسبة للتعبير عن النفسية الجماعية المتمزقة؛ فعبر الأدب بصدق عن الكيان الباطني للفرد والمجتمع، وعن القلق الثاوي في النفوس من آلام الحرب ومآسيها. كما تأكد لنا أن الأدب الشعبي استطاع أن يشخص الأبعاد والمسافات التي انتهت إليها آثار الحرب المتفشية في المغرب المريني أكثر مما استطاعت كتب التاريخ، لأن هناك آفاقاً يستطيع أن يرتادها الفن في الوقت الذي يعجز عن ذلك التاريخ.

Scanned by CamScanner

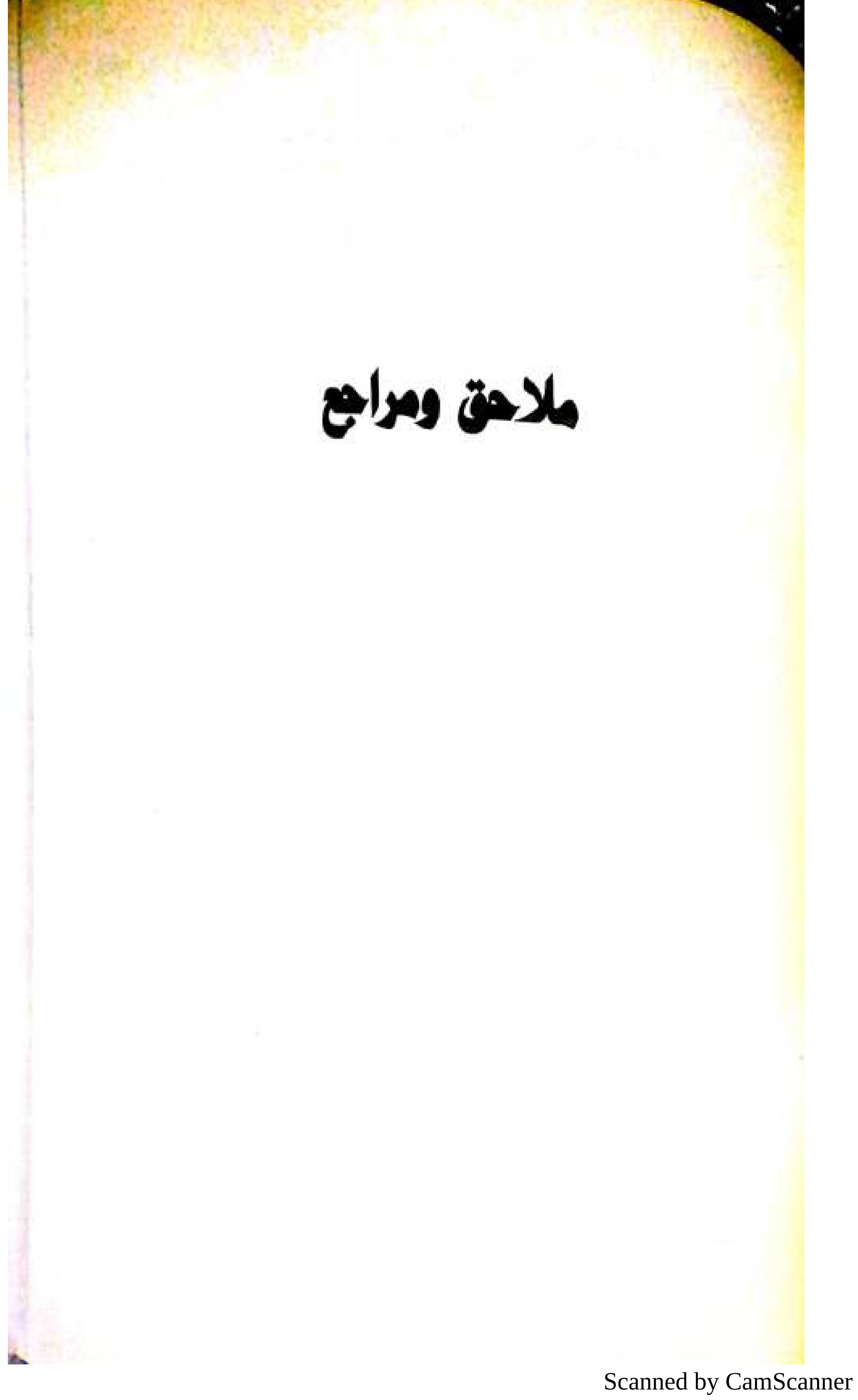
وحرصا منا على تقديم صورة متماسكة وديناميةً عن آثار الحرب وانعكاساتها في ذهنية المجتمع، بحثنا في مختلف الأساليب والممارسات والسلوكات التي يبدعها المجتمع عادة لتجاوز مثل هذه الآثار أو للتخفيف من وطأتها. وأوضحت الدراسة أن الحرب أبدعت أسلوبا في الحياة، وأنتجت نمطا من الوجود له معتقداته وخرافاته وأساطيره، كما أفرزت آلاماً معنوية وقلقا دائما هدم التوازن النفسي لإنسان هذه المرحلة. لذلك برزت لديه وسائل وإواليات دفاعية ضداً على هذا القلق، إواليات تجعل تحمل آثار الحرب ممكنا، والاستعداد لها وتقبل نتائجها ممكنا أيضا. وقد كان أبرزها الإغراق في الماورائيات، والتعلق بالخرافة والغيبيات؛ فساد الاعتقاد بالمتصوفة والصلحاء والمجاذيب والبهاليل، وترسخ الإيمان بخوارقهم وكراماتهم، وتعلق الناس ببركتهم أملا في حمايتهم المادية والمعنوية من مآسي الحرب وقهرها. كما توصلنا إلى أنه بقدر ما أسهمت الحرب في رسم معالم الشروط والظروف التاريخية لتعاظم مكانة الولي، واتساع قاعدة اللاجئين إليه، فإنها أسهمت أيضا في إيجاد مجالات واسعة لتدخل هؤلاء بالفعل، أو بالرمز والتمويه لتصحيح وتنظيم بعض ما أفرزته من انعكاسات وآثار؛ لذلك تعددت الأدوار الاجتماعية التي اضطلع الصالح بتنفيذها في مواجهة الحرب، واختلط فيها الرمزي الكرامي بالواقعي المادي، لكنها آنست الفرد، وخففت من خوفه، وأعادت بعضا من التوازن لنفسيته.

علاوة على ذلك، كشفت الدراسة عن دور الحرب في إفراز بعض المعتقدات الشعبية، واتضح أن الأزمة الوجودية التي خلقتها طوارق الحرب ومشاكلها، والعجز والقلق المتفاقمان أمام تضخم نتائجها وانعكاساتها، أسهم بقوة في انتشار الاعتقاد بخوارق المنجمين والكهان والسحرة والمعزمين والحرازين، وانتشار ظواهر التنبؤ بالغيب، والتطير، وبقوة بعض الأسماء والأجسام، من أجل التنبؤ بأيام الحرب وفرزها عن أيام السلم، وبحال الرزق والأمن في حال وقوعها، وكذا استعمال تعاويذها وأدعيتها لمنع آثار الحرب ومهلكاتها.

أما العمران فقد بينا عمق الأثر الذي مس البنية العمرانية جراء حروب هذا العصر، وأبان دور هذه الأخيرة في بلورة واقع عمراني جديد اتسم بخراب العديد من المدن والقرى والمداشر، وتقلص عمران غيرها، ودورها في تعديل الخريطة العمرانية بمجموع بلاد المغرب الأقصى، حيث أضحى المجال الجبلي -بالرغم من ضعفه وقلته وصعوبة تدبيره- مجالا استقطابيا جديدا للبناء والتعمير. فضلا عن مظاهر أخرى كثيرة كشفت عن تصاعد أهمية

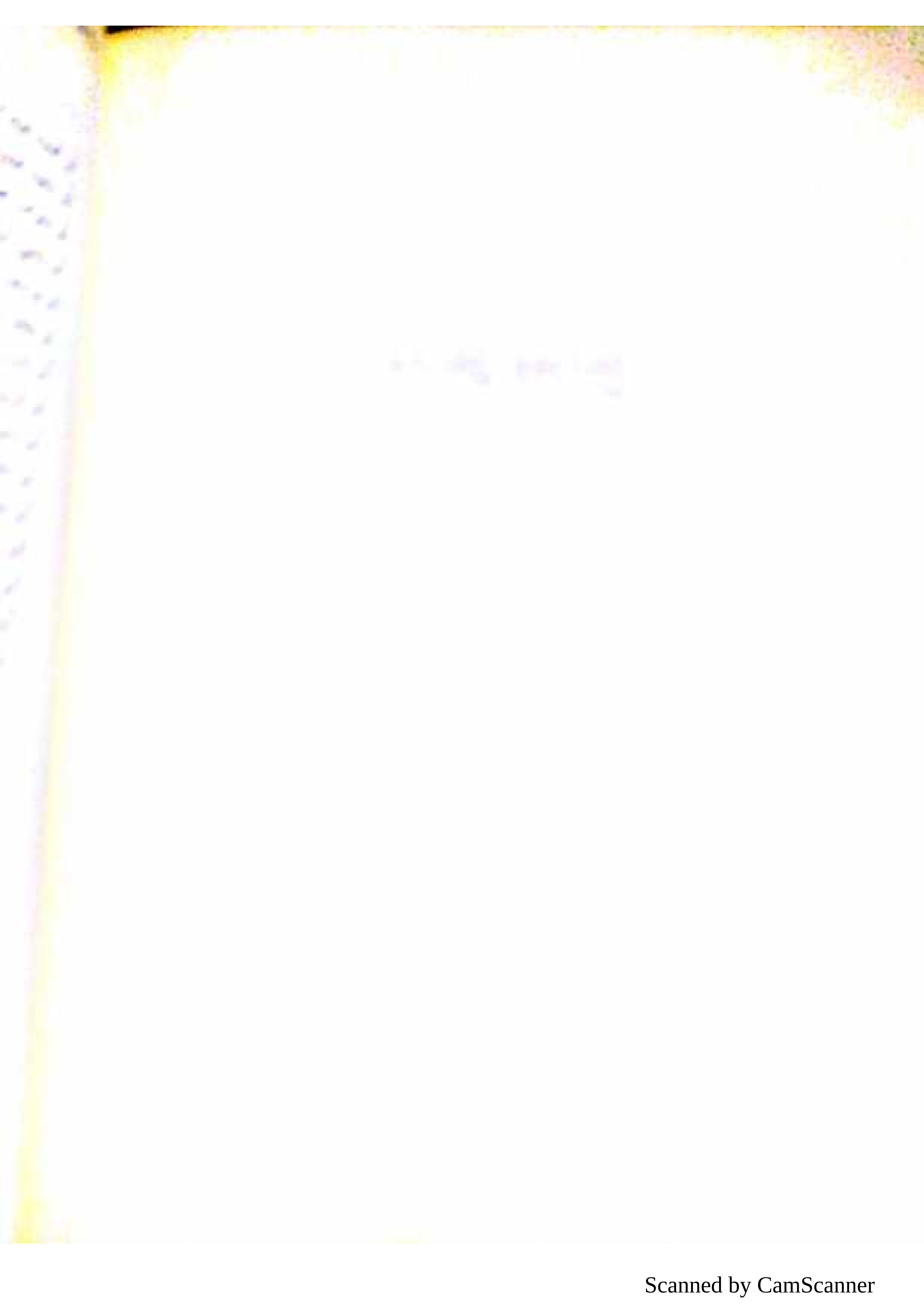
الطابع العسكري الدفاعي في المجال المعماري على حساب المظاهر الأخرى، وعن مدى تماهي الظاهرة الحربية في الهندسة المعمارية وتطبيقاتها في مغرب العصر المريني. كما أوضحت الدراسة دور الدولة والمجتمع في إعادة هيكلة البينة المعمارية، وتكييفها لمواجهة التقلبات السياسية والفتن الداخلية، وفق معايير وأسس جديدة تأخذ عامل تفشي الحرب بعين الاعتبار.

Scanned by CamScanner



ملاحق ومراجع

Scanned by CamScanner



Scanned by CamScanner

ملحق رقم 1: أمراء وسلاطين بني مرين ومدة حكمهم

الأمراء والسلاطين	مدة حكمهم
أبو محمد عبد الحق بن أبي خالد محيو بن أبي بكر بن حماة المريني	592-614هـ/1195-1217م
أبو سعيد عثمان بن عبد الحق	1239-1217/637-614
أبو معرف محمد بن عبد الحق	1244-1239/642-637
أبو يحيى أبو بكر بن عبد الحق	1258-1244/656-642
أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق	1286-1258/685-656
أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق	1306-1286/706-685
أبو ثابت عامر بن عبد الله بن يوسف بن يعقوب	1308-1306/708-706
أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن يوسف بن يعقوب	1310-1308/710-708
أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق	1331-1310/731-710
أبو الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق	1348-1332/749-731
أبو عنان فارس بن علي بن عثمان	1357-1348/759-749
أبو زيان محمد بن أبي عنان	1357/759
أبو بكر محمد السعيد بن أبي عنان	1358-1357/760-759
أبو سالم إبراهيم بن علي	1360-1358/762-760
أبو عمر تاشفين بن علي	1361-1360/763-762
أبو زيان محمد (الثاني) المنتصر بن أبي عبد الرحمان	1366-1361/767-763
أبو فارس عبد العزيز المستنصر بن علي	1372-1366/774-767
أبو زيان محمد الثالث السعيد بن عبد العزيز	1374-1372/776-774
أبو العباس أحمد المستنصر بالله بن إبراهيم (بفاس)	1384-1374/786-776
ومعه عبد الرحمان ابو يفلوسن (بمراكش)	1386-1384/788-786
موسى بن أبي عنان المتوكل على الله أبو فارس	1386/788
أبو زيان الثالث محمد المنتصر بالله بن أحمد	1387-1386/789-788
أبو زيان الرابع الواثق بالله محمد بن أبي الفضل	1393-1387/796-789
أبو العباس أحمد بن أبي سالم	1396-1393/799-796
المستنصر بالله أبو فارس عبد العزيز	1397-1396/800-799
المستنصر بالله أبو عامر عبد الله	1420-1397/823-800
أبو سعيد عثمان الثاني بن أحمد بن أبي سالم	1465-1420/869-823
أبو محمد عبد الحق بن أبي سعيد	

Scanned by CamScanner

ملحق رقم 2: الحملات السلطانية المرينية ومددها الزمنية

إسم السلطان	وجهة الحملة	تاريخ انطلاق الحملة	تاريخ نهاية الحملة	مدة الحملة	المصدر والصفحة
يعقوب بن عبد الحق	تلمسان	أول صفر 670هـ	غرة محرم 671هـ	سنة (1)	الأنيس، 309
	مراكش-طنجة	11 محرم 671هـ	ما بعد ربيع الأول 672هـ	3 أشهر	الأنيس، 311-312
	سجلماسة	رجب 672هـ	ما بعد ربيع الأول 673هـ	8 أشهر	الأنيس، 312
	الأندلس	1 شوال 673هـ	منتصف شعبان 674هـ	10 أشهر	الأنيس، 313-321
	مراكش-الأندلس	محرم 675هـ	العشر الأول من محرم 677هـ	سنتين (2)	الأنيس، 322-329
	مراكش	صفر 677هـ	قبل رجب 678هـ بأيام	5 أشهر	الأنيس، 329-335
	طنجة	رجب 678هـ	آخر شوال 678هـ	3 أشهر	الأنيس، 335
	تلمسان	ذي الحجة 679هـ	رمضان 680هـ	9 أشهر	الأنيس، 337
	مراكش-الأندلس	أول ذي الحجة 680هـ	شعبان 682هـ	سنة و5 أشهر	الأنيس، 338-340
	مراكش-الأندلس	1 شوال 682هـ	22 محرم 685هـ	سنتين و3 أشهر	الأنيس، 340-373
أبو يعقوب يوسف	مراكش-سوس	رمضان 685هـ	محرم 687هـ	سنة و4 أشهر	الأنيس، 377-379
	تلمسان	27 ربيع الثاني 689هـ	ذو القعدة 689هـ	6 أشهر	الأنيس، 379-380
	الأندلس	ربيع الثاني 690هـ	محرم 691هـ	9 أشهر	الأنيس، 380
	تلمسان	698هـ	706هـ	9 سنوات	الأنيس، 383-388
أبو ثابت عامر	مراكش	رجب 707هـ	ذي القعدة 707هـ	5 أشهر	الأنيس، 390
	سبتة	ذي الحجة 707هـ	صفر 708هـ	3 أشهر	الأنيس، 392
أبو سعيد عثمان	رباط الفتح	ذي القعدة 710هـ	محرم 711هـ	3 أشهر	العبر، 7، 320
	هسكورة	713هـ	–	–	الأنيس، 399
	تلمسان	714هـ	–	–	الأنيس، 400
	مراكش	715هـ	–	–	الأنيس، 400
	طنجة	719هـ	–	–	الأنيس، 400
	مراكش	شعبان 720هـ	ذي القعدة 720هـ	5 أشهر	الأنيس، 400
	مراكش	722هـ	–	–	الأنيس، 400
	سبتة	728هـ	–	–	العبر، 7، 320

Scanned by CamScanner

إسم السلطان	وجهة الحملة	تاريخ انطلاق الحملة	تاريخ نهاية الحملة	مدة الحملة	المصدر والصفحة
أبو الحسن	سجلماسة–تلمسان	محرم 732هـ	بداية 733هـ	سنة (1)	العبر 7، 334–337
	تلمسان	أواسط 735هـ	بعد رمضان 737هـ	سنتين (2)	العبر 7، 339–341
	الأندلس	أواخر 740هـ	أواخر 741هـ	سنة (1)	العبر 7، 346–347
	سبتة	بداية 742هـ	بداية 743هـ	سنة (1)	العبر 7، 348
	تلمسان–إفريقية	بعد رجب 747هـ	جمادى 749هـ	سنتين (2)	العبر 7، 355–366
أبو عنان	سجلماسة–مراكش	آخر صفر 751هـ	بعد ربيع الثاني 752هـ	3 أشهر	العبر 7، 380
	تلمسان	فاتح 753هـ	بعد ربيع الثاني 756هـ	3 سنوات و3 أشهر	العبر 7، 381–389
	قسنطينة–إفريقية	ربيع الأول 758هـ	ذي الحجة 758هـ	10 أشهر	393–394

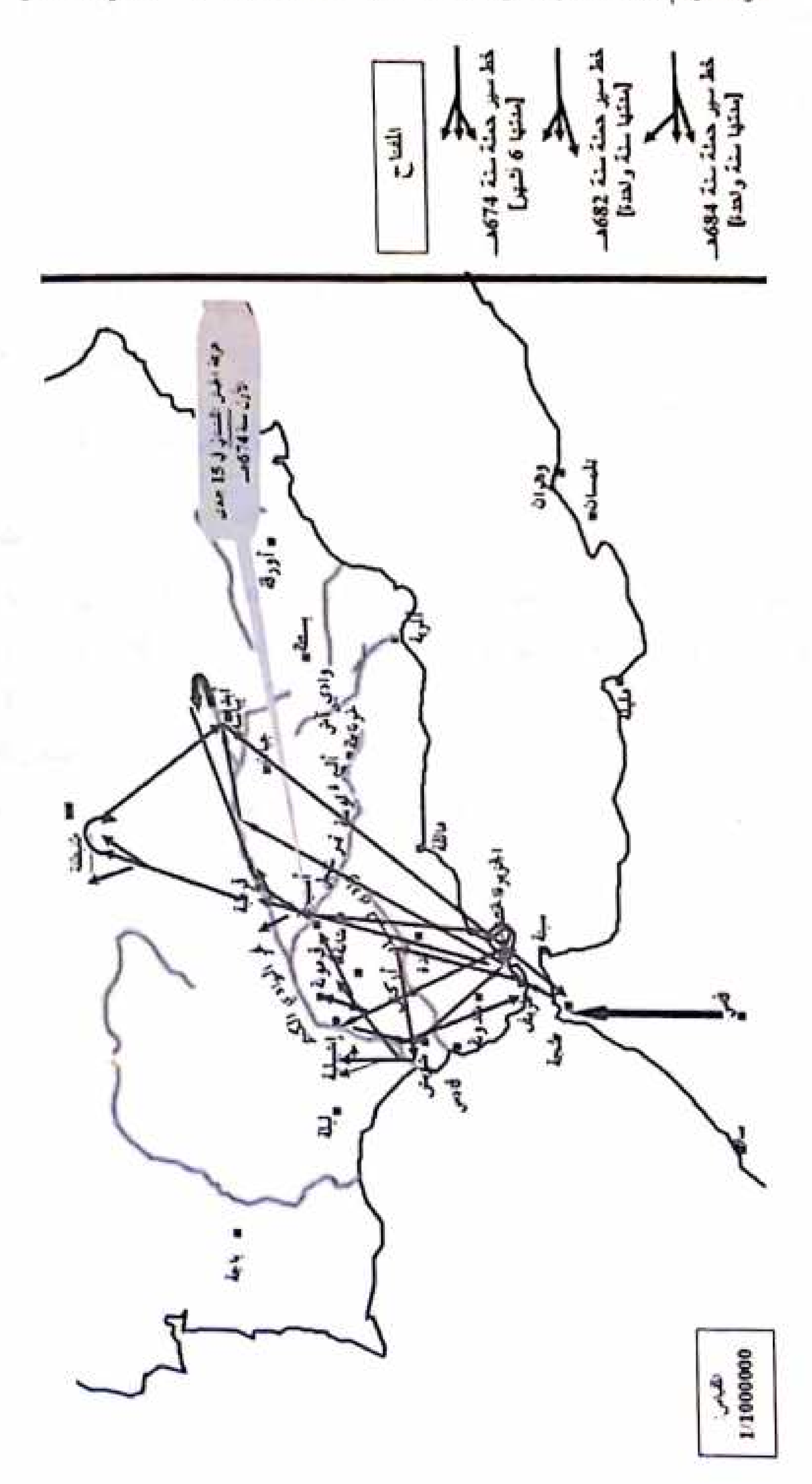
ملاحظة:

أدرجنا في هذا الجدول معظم الحملات التي قادها السلاطين المرينيون بأنفسهم خارج فاس والتي نتوفر على تاريخ انطلاقها من فاس، وتاريخ نهايتها بعودة السلطان إلى حضرته. مع الإشارة إلى أنه في بعض الحملات كان السلطان يستقر في إحدى المدن المقصودة، وينطلق منها نحو مدينة أخرى.

المصدر: ابن أبي زرع: «الأنيس المطرب». ابن خلدون: «العبر»، الجزء السابع.

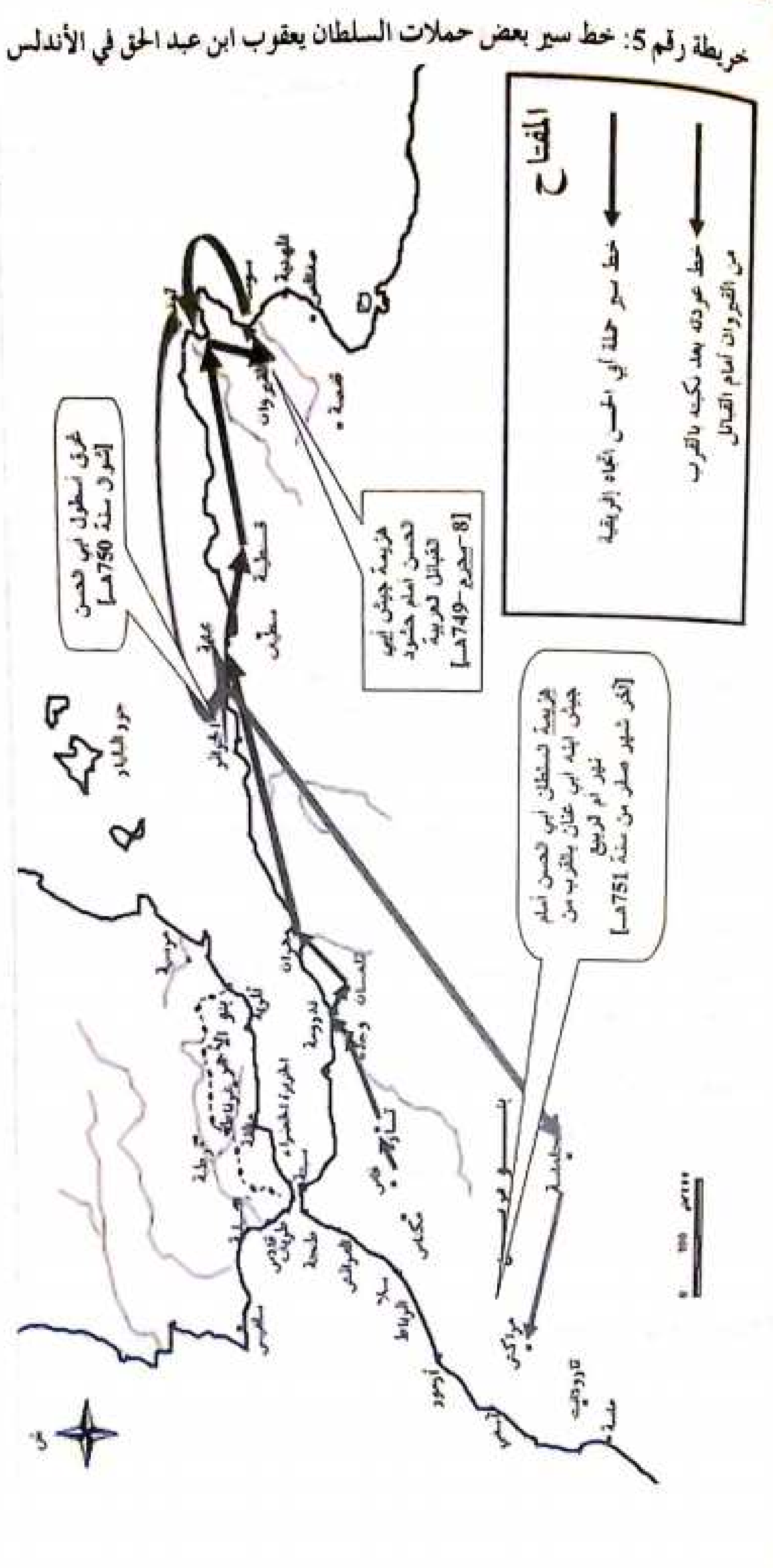
Scanned by CamScanner

خريطة رقم 4: خط سير بعض حملات السلطان يعقوب ابن عبد الحق في الأندلس



Scanned by CamScanner

خريطة رقم 5: خط سير بعض حملات السلطان يعقوب ابن عبد الحق في الأندلس



ملحق رقم 5: معجم لأهم المصطلحات المرتبطة بالحرب في التشريع الإسلامي من خلال كتاب «شرح حدود ابن عرفة»

المصطلح	المفهوم	الصفحة
الجهاد	«الجهاد قتال مسلم كافرا غير ذي عهد، لإعلاء كلمة الله أو حضوره له، أو دخوله أرضه له»	193
الرباط	«الرباط المقام حيث يخشى العدو بأرض الإسلام لدفعه (...) ولو بتكثير السواد»	197
الديوان	«لقب لرسم جمع أسماء أنواع المعدين لقتال العدو لعطاء»	197
الأمان	«رفع استباحة دم الحربي ورقه وماله حين قتاله، أو العزم عليه مع استقراره تحت حكم الإسلام مدة ما»	198
المهادنة	«عقد المسلم مع الحربي على المسالمة مدة ليس هو فيها تحت حكم الإسلام»	199
الاستيمان	«تأمين حربي ينزل لأمر ينصرف بانقضائه»	200
الجزية	«ما ألزم الكافر من ماله باستقراره تحت حكم الإسلام وصونه»	201
الجزية الصلحية	«ما التزم كافر لمنع نفسه أداءه على إبقائه ببلده تحت حكم الإسلام حيث يجري عليه»	202
الغنيمة	«الغنيمة ما كان بقتال أو بحيث يقاتل عليه»	203
المختص بآخذه	«ما أخذ من مال حربي غير مؤمن دون علمه، أو كرها دون صلح ولا قتال مسلم. ولا قصده بخروجه إليه مطلقا على رأي، أو بزيادة من أحرار الذكور البالغين على رأي»	203
الفيء	«الفيء ما سواهما»	204
النفل	«ما يعطي الإمام من خمس الغنيمة لمستحقها لمصلحة»	207
السلب	«كل ثوب عليه وفرسه الذي هو عليه أو كان يمسكه لوجه قتال عليه لا ما تجنب أو كان منفلتا عنه»	208
الغلول	«هو عرفا، أخذ ما لم يبح الانتفاع به من الغنيمة قبل حوزها»	208
البغي	«الامتناع من طاعة من ثبتت إمامته في غير معصية ولو تأولا»	690
الردة	«الردة كفر بعد إسلام تقرر»	691
الحرابة	«الخروج لإخافة سبيل لأخذ مال محترم بمكابرة قتال أو خوفه أو لذهاب عقل أو قتل خفية أو لمجرد قطع الطريق لا لإمرة ولا نائرة ولا عداوة»	715

المصدر: الرصاع التونسي، [ت. 894هـ]: شرح حدود الإمام الأكبر البركة القدوة الأنور أبي عبد الله بن عرفة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1412هـ /1992م

Scanned by CamScanner

ملحق رقم 6: السلاح في الميتولوجيا الإسلامية

«إن أول من رمى بالقوس العربية أبونا آدم، وذلك لما أمره الله بالزراعة حين أهبط من الجنة، فزرع فأرسل الله عليه طائرين يأكلان ما زرع، فشكا ذلك إلى الله تعالى، فهبط عليه جبريل عليه السلام وبيده قوس ووتر وسهمان، فقال له يا آدم خذ، فقال له وما هذا؟ فأعطاه القوس وقال له هذه قوة الله، وأعطاه الوتر وقال له هذه شدة الله، ثم أعطاه السهمين، فقال له هذه نكاية الله. وعلمه الرمي بها، فرمى الطائرين فقتلهما، وسر بذلك وجعلها عدة في غربته، وأنسا عند وحشته. وبعض هذا ما رويناه عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ارموا فإن أباكم كان راميا. وحباها أدم عليه الصلاة والسلام إلى ابنه إبراهيم عليه الصلاة والسلام وعلم بها الرمي ابنه إسماعيل وإسحاق (...) واختلف العلماء في قوس اليد، هل هي القوس التي أهبطت على آدم من الجنة أو غيرها. فمنهم من قال إنها هي، وإن آدم عليه السلام خبأها فلم ينتفع بها أحد من بعده إلا موسى عليه السلام، وصارت في يده حية تسعى كما قال الله عز وجل. ومنهم من قال إنها غيرها وأن الله تعالى أهبط على إبراهيم عليه السلام من الجنة قوسا غيرها»

مؤلف مجهول (ق 8هـ): كتاب البدائع والأسرار في حقيقة الرد والانتصار وغوامض ما اجتمعت عليه الرماة بالأمصار، مخ.خ.ع، الرباط، رقم 32 ق، [ض.م]، ص ص: 66—69.

Scanned by CamScanner

ملحق رقم 7: الخيل في الميتولوجيا الإسلامية

«قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لما أراد الله تعالى أن يخلق الخيل، قال للريح إني خالق منك خلقا فأجعله عزا لأوليائي، ومذلة لأعدائي، وحمى لأهل طاعتي. فقالت الريح أخلق، فقبض منها قبضة، فخلق فرسا. فقال سميتك فرسا، وخلقتك عربيا، وجعلت الخير معقودا بناصيتك، والغنائم محوزة على ظهرك، والعز معك حيث ما كنت، وآثرتك على غيرك من الدواب، وجعلتك لها سيرا، وعطفت عليك صاحبك، وجعلتك تكير بلا جناح، فأنت للقلب، وأنت للهرب، وسأحمل على ظهرك رجالا يكبرونني ويهللونني»

ابن هذيل [كان حيا في 763هـ]: تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس، مخ. خ. ع، الرباط، رقم 904د، ص: 97.

Scanned by CamScanner

ملحق رقم 8: وجه من أوجه تصريف غنائم الحرب

«تقييد من كتاب بعض ملوك بني مرين، وهو أبو العباس أحمد المريني رحمه الله على سبيل الاختصار، وهو يخاطب فيه أولاد الشيخ الولي الصالح السيد أبا علي حسون الحسني وأولاده مولاي عبد الله بن أبي الحركات الحسني أهل السيفة، وأولاد السيد أحمد بن محمد بن علي الشريف الحسني أهل صوص، وأولاد مولاي أحمد بن علي بن يوسف الشريف الحسني أهل خنوس بالقدوم إلى حضرته من المدينة البيضاء لما جاء من الغنائم، وهي ستون ألفاً من النصري وعشرون ألف قنطار من الريال الرومي، وغنائم كثيرة، ليأخذوا ما هي عادتهم من الخراج، وأن من لم يحضر لا لوم على من جانبه، وكتب به»

مؤلف مجهول [ق. 8هـ]: مجموع مؤلف من ظهائر شريفة وعقود وأنكحة متعلقة بالشرفاء السجلماسيين، مخ.خ.ع، الرباط، رقم د723، ص: 116.

Scanned by CamScanner

ملحق رقم 9: بضائع التجار بين جائحة الحرب ومسألة الضمان

«سئل مفتي تونس أبو القاسم الرصاع عن رجل أعطى بضاعة أمانة يتجر بها في بلاد المغرب والمواضع المأذون فيها عادة، فذهب المبعوث معه بالمال إلى المغرب، ثم قدم وادعى أنه أودعه ببلد المغرب، وأن العدو أخذ تلك البلد وما فيها من متاع، وادعى رب البضاعة أن الرجل[؟] في مسيره لتلك البلدة لأنه مسافر بالمتاع من بلد فاس إليها، وطريقها مخوف، وتعلق الضمان بذمته، فلا يسقط الضمان عنه بدخول المتاع إلى البلدة المأمونة، وأثبت أن الطريق مخوف».

ابن مرزوق الحفيد، [ت. 842هـ]: أجوبة وفتاوى، مخ.خ.ع، الرباط، رقم د134، ميكروفيلم 036، ص: 305–306.

Scanned by CamScanner

ملحق رقم 10: أحكام مفقودي الحرب في التشريع المالكي

وحكم مفقود بأرض الكفر	في غير حرب حكم من في الأسر
تعميره في المال والطلاق	ممتنع ما بقي الإنفاق
وإن يكن في الحرب فالمشهور	في ماله والزوجة التعمير
وقد أتى القول بضرب عام	من حين يأسر منه كالقيام
ويقسم المال على مماته	وزوجته تعتد من وفاته
ومن بأرض المسلمين يفقد	فأربع من السنين للأجل
وباعتداد الزوجة الحكم جرا	مبعضا والمال فيه عمرا
وحكم مفقود بحرب الفتن	في المال والزوجة حكم من فني

ابن عاصم، [ت. 829هـ]: تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام، مخ. خ. ع، تطوان، رقم 542 [ض.م]، ص: 276–277.

ملحق رقم 11: شرط المغيب [لغزو أو تجارة أو حج أو سفر من الأسفار] في عقد النكاح

«أصدق فلان بن فلان الفلاني زوجته فلانة بنت فلان الفلاني، أصدقها كذا وكذا دينار من سكة كذا وكذا نقداً وهدية وكالئا ولنقد العجل لها من ذلك مع هدية كذا وكذا لجهازها وإصلاح شأنها الجميع مال على الزوج المذكور، ولا يبرأ منه إلى بالواجب وإن حمله عنه حامل. قلت حمله على الناكح المذكور لزوجة فلانة بنت فلان بن فلان حملا لا حمالة صلة منه له والكالئ الباقي كذا وكذا من الصفة مؤجلا على الناكح فلان إلى انقضاء كذا وكذا عاماً من تاريخ. والتزم الزوج لزوجه فلانة شروطا تبرع بها استجلابا لمودتها وكسبا لمسرتها وهي...ولا يغيب عنها غيبة متصلة قبل البناء ولا بعده أزيد من ستة أشهر، إلا في حج الفريضة، فإن له في ذلك مغيب ثلاثة أعوام إذا خرج من وطنه معلنا بذلك، فإن زاد على هاذين الأجلين أو واحدهما فأمرها بيدها والقول قولها في المغيب وانقضاء أجله بعد أن تحلف على ذلك في بيتها بالواجب ثم يكون أمرها ولها التلوم عليه ما أحبت لا يقطع تلومها عليه شرطها.»...

أبو عبد الله محمد بن هارون الكناني: «اختصار النهاية والتمام في معرفة الوثائق والأحكم»، وهو اختصار لكتاب ابي الحسن علي بن عبد الله بن ابراهيم بن محمد اللخمي المتيطي: «النهاية والتمام في معرفة الوثائق والأحكام»، مخ.خ.ع، الرباط، رقم 728 د. رقم الميكرو فيلم 3172، ص: 2.

Scanned by CamScanner

ملحق رقم 12: الحرب والحلم والرمز

«ولما كنت عزمت على الدخول بأهلي، وكنت أقيد شيئا من آداب ذلك، رأيت ذات ليلة فيما يرى النائم كأني أنظر في كتاب ووجدت فيه قضية وهو أن جيشاً من المسلمين تقابل مع جيش للكفار للحرب، فقام رجل من زعماء المسلمين للبراز، فلما أراد الخروج من صف جيش المسلمين، وذكر الله عز وجل تقهقر وقال: يا معشر المسلمين، من كانت له ذنوب موبقات مثل ذنوبي لا يخرج للبراز، إلا بعد التوبة والاستغفار، وأمهلوني حتى استغفر ربي أو نحو هذا من الكلام، فرأيت في النوم كأن القضية مثال لأمري، وأن الدخول شبه البراز، فتذكرت في نومي ذنوبي الموبقات».

ابن عرضون، أحمد بن الحسن [ت. 992هـ]: مقنع المحتاج في آداب الأزواج، مخ. خ. ع، الرباط، رقم ك 1026، ص: 207.

ملحق رقم 13: الحرب والتنجيم (1)

«لا فرق في النظر بين المخاصمة والمحاربة ووجه الدلالة لهما على السواء، فمتى سئلت عن متخاصمين أو متحاربين أيهما يظفر بصاحبه، ويعلو عليه، فصحح الطالع، واجعله هو وجه للسائل، وإلى صاحبه أشار بقوله فانظر له من نجمه المعلوم، فإن وجدت بينهما مواصلة من مقابلة أو تربيع، فإن الشر يحدث بينهما، ويشتد بسببه الكرب»

علي ابن أبي الرجال: شرح أرجوزة في الأحكام النجومية، [ألفها ابن قنفذ القسنطيني (ت. 810هـ)]، مخ، خ.ع، الرباط، رقم 101د، رقم الميكروفيلم 34-46-17، ص: 55-56.

Scanned by CamScanner

ملحق رقم 14: الحرب والتنجيم (2)

«والمعتبر أيضا في ذلك ما اجتمعت عليه جماعة المنجمين دليله عندهم أنه مهما خرج خارجي على ملك، وكان الظفر للخارجي، فإنه يكون بأثره غلاء لا شك فيه، بشرط أن يقع بينهما حرب، وعلى قدره يكون، وبطوله يطول ويرتفع السعر. وقد اعتبرته مرارا فوجدته كذلك»

ابن هيدور، علي بن عبد الله التادلي الفاسي [ت. 816هـ]: **الاعتبارات النظرية في الأحكام النجومية**، مخ.خ.ع، الرباط، رقم 291 د [ض.م]، ص: 236.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

المخطوطات

- ابن أبي الرجال: شرح أرجوزة في الأحكام النجومية، [ألفها ابن قنفذ، أبو العباس أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب القسنطيني (ت. 810هـ)]، مخ.خ.ع، الرباط، رقم 101د، رقم الميكروفيلم 34-46-17.
- ابن الحاج، أبو عبد الله الشهيد [ت. 529هـ]: نوازل ابن الحاج، مخ.خ.ع، الرباط، رقم ج 55.
- ابن حجر التميمي [ق. 10هـ]: منتهى الأعلام بوفاة الصحابة وملوك الإسلام، مخ.خ.ح، رقم 1507.
- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله السلماني [ت. 776هـ]: في عرض السياسة، مخ.خ.ع، الرباط، رقم د72 9 [ض.م].
- ابن الرامي البناء، محمد بن إبراهيم اللخمي [ت. 734هـ]: الإعلان في أحكام البنيان، مخ.خ.ع، الرباط، رقم 668 د.
- ابن طركاط، أبو القاسم العكي [ق. 8هـ]: أجوبة نفيسة لفقهاء غرناطة، مخ.خ.ع، الرباط، رقم د1447 [ض.م].
- ابن عاصم، أبو بكر محمد بن محمد الغرناطي [ت. 829هـ]: تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام، مخ.خ.ع، تطوان، رقم 542 [ض.م].
- ابن عباد، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم النفزي الرندي [ت. 792هـ] : كتب موجهة إلى الخليفة أبي فارس عبد العزيز، مخ.خ.ح، الرباط، رقم 255 [ض.م].
- ابن عرضون، أحمد بن الحسن [ت. 992هـ]: مقنع المحتاج في آداب الأزواج، مخ.خ.ع، الرباط، رقم ك 1026.
- ابن غازي، محمد العثماني المكناسي [ت. 919هـ]: الكليات في المسائل الجارية عليها الأحكام، مخ.خ.ع، الرباط، رقم د1729 [ض.م].
- ابن مرزوق الحفيد، أبو عبد الله محمد ابن أحمد التلمساني [ت. 842هـ]: أجوبة وفتاوى، مخ.خ.ع، الرباط، رقم د134، ميكروفيلم 036.
- ابن هارون الكناني، أبو عبد الله محمد [ت. 750هـ]: اختصار النهاية والتمام في معرفة الوثائق والأحكام، مخ.خ.ع، الرباط، رقم 728 د. رقم الميكروفيلم 3172. [وهو اختصار لكتاب أبي الحسن علي بن عبد الله بن إبراهيم بن محمد اللخمي المتيطي، النهاية والتمام في معرفة الوثائق والأحكام].
- ابن هذيل، أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن هذيل الفزاري الأندلسي [كان حيا في 763هـ]: عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة، [قدمه هدية للسلطان محمد بن يوسف بن نصر سنة 723هـ]، مخ.خ.ع، الرباط، رقم 581 د.
- ــــــ : تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس، مخ.خ.ع، الرباط، رقم 904 د.

Scanned by CamScanner

- ابن هلال، أبو سالم إبراهيم بن علي الفيلالي السجلماسي [ت. 903هـ]: **الدر النثير على أجوبة أبي الحسن الصغير** [ت. 719هـ]، مخ.خ.ع، الرباط، رقم د68، ميكروفيلم 016.
- ابن هيدور، علي بن عبد الله التادلي الفاسي [ت. 816هـ]: **الاعتبارات النظرية في الأحكام النجومية**، مخ.خ.ع، الرباط، رقم 291 د [ض.م].
- ــــــ : **رسالة في ماهية المرض الوبائي**، الخزانة الحسنية، الرباط، رقم: 9605.
- ابن يامون، قاسم بن أحمد التليدي الأخماسي [كان حيا سنة 1070هـ]: **زاد الراكب والراجل وسلاح الخائف الواجل**، مخ.خ.ع، الرباط، رقم د209، رقم الميكروفيلم، 2351 [ض.م].
- أبو البركات، عبيد الله يحيى بن عبد الله الغماري الفاسي [ت. 910هـ]: **كتاب بشائر الفتوحات والسعود في أحكام التعزيرات والحدود**، مخ.خ.ح، الرباط، رقم 103.
- التدمري، وليد بن محمد الكاتب [ق. 9هـ]: **فضل الخلافة**، مخ.خ.ع، الرباط، رقم 77ق، رقم الميكروفيلم: 1033.
- التنبكتي، المختار بن أحمد [ت. 1226هـ]: **فوائد نورانية في اسم الله الأعظم**، مخ.خ.ع، الرباط، رقم 209د، [ض.م].
- الجدامي أبو العباس أحمد بن قاسم بن عبد الرحمان الفاسي الشهير بالقباب [ت. 778هـ]: **أسئلة وأجوبة القباب**، مخ.خ.ع، الرباط، رقم 1447د، [ض.م].
- الدرعي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن ناصر [ت. 1085هـ]: **أجوبة فقهية**، مخ.خ.ع، الرباط، رقم د1644، ميكروفيلم 2583، [ض.م].
- الريفي، محمد بن عبد الله: **جواهر السماط في ذكر مناقب الشريف الرفاعي سيدنا ومولانا الخياط**، مخ.خ.ع، الرباط، رقم: 1185د.
- الزياتي، عبد العزيز بن أبي الحسن بن يوسف المهدي [ت. 1055هـ]: **الجواهر المختارة فيما وقفت عليه من النوازل في جبال غمارة**، مخ.خ.ع، الرباط رقم: د 1698، [الجزء الثاني].
- السوسي، أحمد بن الحسن: **نوازل أبي مهدي عيسى بن عبد الرحمان الرجراجي السكتاني**، مخ.خ.ع، الرباط، رقم 84ق.
- العياشي أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر [ت. 1090هـ]: **النوازل**، مخ.خ.ع، الرباط، رقم د1644، ميكروفيلم 2583، [ض.م].
- الغزالي، أبو حامد بن محمد [ت. 505هـ]: **فتوى متضمنة في مجموع أوله كتاب الأنساب لأبي حيان**، مخ.خ.ع، الرباط، رقم ك 1275.
- الفاسي، عبد الرحمان بن عبد القادر، [ت. 1096هـ]: **شرح العمل الفاسي**، مخ.خ.ع، الرباط، رقم 1447 د، [ض.م].
- الفشتالي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الملك بن شعيب [ت. 777هـ]: **وثائق الفشتالي**، مخ.خ.ع، الرباط، رقم د 1086.
- الكلالي، إبراهيم بن عبد الرحمان بن عيسى [ت. 1047هـ]: **المسألة الشهية الإمليسية على عوائد البلاد الغربية**، مخ.خ.ع، الرباط، رقم د2577.
- مؤلف مجهول [أبو بكر محمد بن أصبغ الهواري؟]: **كتاب البدائع والأسرار في حقيقة الرد والانتصار وغوامض ما اجتمعت عليه الرماة بالأمصار**، مخ.خ.ع، الرباط، رقم 32 ق، [ض.م].

Scanned by CamScanner

- مؤلف مجهول [ت. أواخر ق 8هـ]: كامل الصناعة في الفروسية والشجاعة، مخ.خ.ع، الرباط، رقم ق32، [ض.م].
- مؤلف مجهول [ق 9هـ]: البيوتات النازحة من الأندلس بعد نكبة بني الأحمر، وما قيل من القصائد في فقد الأندلس، مخ.خ.ع، الرباط، رقم 28 د، [ض.م].
- مؤلف مجهول [ق. 8هـ]: مجموع مؤلف من ظهائر شريفة وعقود وأنكحة متعلقة بالشرفاء السجلماسيين، مخ.خ.ع، الرباط، رقم د723.
- مؤلف مجهول [ق. 8هـ]: نبذة من تاريخ المغرب الأقصى، مخ.خ.ع، الرباط، رقم د2152، [ض.م].
- مؤلف مجهول [كتبها لأبي زكرياء يحيى بن زيان بن يغمراسن]: رسالة السائل والمجيب وروض نزهة الأريب، مخ.خ.ع، الرباط، رقم 1138 د، رقم الميكروفيلم B64-4919.
- مؤلف مجهول [مغربي من أهل القرن 9هـ]: مختصر كتب السياسة مما يحتاج إليه الملوك، مخ.خ.ع، الرباط، رقم 77 ق، [ض.م].
- مؤلف مجهول: [كتاب الحرب]، مخ.خ.ع، الرباط رقم د1584، [ض.م].
- مؤلف مجهول: ذكر قضية المهاجرين المسمون اليوم بالبلديين، مخ.خ.ع، الرباط، رقم 1155 د.
- مؤلف مجهول: مناقب الشيخ الولي الصالح الإمام الغوث سيدي أحمد بن جعفر السبتي، مخ.خ.ع، الرباط، رقم د 896.
- مؤلف مجهول: ورقات في التاريخ، مخ.خ.ع، الرباط، رقم د773، [ض.م].
- المغيلي، أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم [ت. 909هـ]: تأليف فيما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار، مخ.خ.ع، الرباط، رقم 1602 د، [ض.م].
- _____ : رسالة فيما يجب على الملوك من الاستقامة والعدل والنظر في المصالح، مخ.خ.ع، الرباط، رقم 364 د [ض.م].
- الملالي، محمد بن إبراهيم بن عمر بن علي [ق. 9هـ]: المواهب القدسية في المناقب السنوسية، مخ.خ.ع، الرباط، رقم 66د، رقم الميكروفيلم 016.
- الهبطي، عبد الله بن محمد: كتاب الألفية السنية في تنبيه العامة والخاصة على ما أوقعوا من التغيير في الملة الإسلامية، مخ.خ.ح، الرباط، رقم 2808.
- الوراق، أبو عبد الله بن محمد: مناقب سيدي عبد السلام بن مشيش، مخ.خ.ع، الرباط، رقم:1484د، [ض.م].
- الونشريسي، أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحد علي [ت. 914هـ]: المنهج الفائق والمنهال الرائق والمعنى اللائق بآداب الموثق وأحكام الوثائق، مخ.خ.ع، الرباط، رقم 1354د، [ض.م].

المصادر المطبوعة

- ابن الآبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي [ت. 658هـ]: المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي، مطبعة روخص، مجريط، 1885م.
- _____ : كتاب الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، الشركة العربية للنشر، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1963. [الجزء الأول]

Scanned by CamScanner

– ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم السعدي الخزرجي [ت. 668هـ]: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، دار الثقافة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1981م.
– ابن أبي زرع، أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي [ت. 726هـ]: **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م.
– ـــــــ : **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م.
– ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، الملقب بعز الدين [ت. 630هـ]: **الكامل في التاريخ**، دار الفكر، بيروت، 1978م، [الجزء السادس].
– ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل بن يوسف الغرناطي الأندلسي [ت. 807هـ أو 810هـ]: **بيوتات فاس الكبرى**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م.
– ـــــــ : **روضة النسرين في دولة بني مرين**، تحقيق، عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الثانية، 1411هـ/1991م.
– ـــــــ : **أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن**، وهو كتاب نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان، حققه وقدم له، محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، 1407هـ/1987م.
– ـــــــ : **نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان**، ودراسة في حياته وأدبه، دراسة وتحقيق، محمد رضوان الداية، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1967م.
– ابن الأزرق، محمد بن علي بن محمد بن علي بن قاسم بن مسعود أبو عبد الله [ت. 896هـ]: **بدائع السلك في طبائع الملك**، تحقيق وتعليق، علي سامي النشار، منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1977–1978م. [جزءان]
– ابن بطوطة، اللواتي محمد بن عبد الله الطنجي [ت. 779هـ]: **رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، شرحه وكتب هوامشه، طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت، دون تاريخ.
– ابن تومرت، أبو عبد الله محمد بن عبد الله [ت. 524هـ]: **أعز ما يطلب**، تحقيق عبد الغني أبو العزم، نشر مؤسسة الغني للنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 1997م.
– ابن جبير، أبو الحين محمد بن أحمد الكناني الأندلسي البلنسي [ت. 614هـ]: **رحلة**، قدم لها، محمد مصطفى زيادة، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، دون تاريخ الطبع.
– ابن جزي، أبو القاسم محمد بن أحمد الكلبي الغرناطي [ت. 741هـ]: **القوانين الفقهية**، دار القلم، بيروت، د.ت.
– ابن الحاج، العبدري أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد [ت. 737هـ]: **المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع والعوائد التي انتحلت وبيان شناعتها وقبحها**، طبع على نفقة مصطفى أفندي فهمي الكتبي، وشريكه، المطبعة العامرة الشريفة، 1320هـ. [3 أجزاء]
– ابن الحاج، النميري إبراهيم: **فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب**، دراسة وإعداد، محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1990م.

Scanned by CamScanner

- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد [ت. 456هـ]: **الرسائل**، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1980، الجزء الأول.

- ابن حوقل، أبو القاسم [ت. 367هـ]، **صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1992م.

- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله السلماني: **الإشارة إلى أدب الوزارة - مقامة السياسة**، تحقيق ودراسة، محمد كمال شبانة، مطبعة الساحل، الرباط. دون تاريخ.

- ــــــ : **اللمحة البدرية في الدولة النصرية**، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، 1978م.

- ــــــ : **رقم الحلل في نظم الدول**، المطبعة العمومية، تونس، 1316هـ.

- ــــــ : **روضة التعريف بالحب الشريف**، عارضه بأصوله وعلق على حواشيه وقدم له، محمد الكتاني، دار الثقافة، الدار البيضاء، بيروت، الطبعة الأولى، 1970م. [جزءان]

- ــــــ : **ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب**، حققه ووضع مقدمته وحواشيه، محمد عبد الله عنان، الناشر، مكتبة الخانجي، القاهرة الجزء الأول، الطبعة الأولى، 1400هـ/1980م. الجزء الثاني، الطبعة الأولى، 1401هـ/1981م. [جزءان]

- ــــــ : **شرح رقم الحلل في نظم الدول**، أعده للطبع وعلق عليه وقدم له، عدنان درويش، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، دمشق، 1990م.

- ــــــ : **كتاب عمل من طب لمن حب**، طبع النص العربي مع بيان المصطلحات ومعجم الأسماء الطبية، ماريا كنثبثيون فاثكز بنيتو Maria Concipcion Vazquez De Beneto، الجامعة من سلمنقة، 1972م.

- ــــــ : **كناسة الدكان بعد انتقال السكان**، تحقيق، محمد كمال شبانة، مراجعة حسن محمود، وزارة الثقافة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1966م.

- ــــــ : **معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار**، تحقيق، محمد كمال شبانة، نشر اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة، مطبعة فضالة، المحمدية، 1976م.

- ــــــ : **نفاضة الجراب في علالة الاغتراب**، الجزء الثالث، تقديم وتحقيق، السعدية فاغية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1401هـ/1989م.

- ــــــ : **نفاضة الجراب في علالة الاغتراب**، الجزء الثاني، نشر وتعليق،أحمد مختار العبادي، مراجعة عبدالعزيز الأهواني، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985م.

- ــــــ : **مثلى الطريقة في ذم الوثيقة**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973م.

- ــــــ : **الإحاطة في أخبار غرناطة**، حقق نصه ووضع مقدمته وحواشيه، محمد عبد الله عنان، الناشر، مكتبة الخانجي، القاهرة، المجلد الأول، الطبعة الثانية، 1393هـ/1973م. المجلد الثالث، الطبعة الأولى، 1395هـ/1975م. المجلد الرابع، الطبعة الأولى، 1397هـ/1977م.

- ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمان بن أبي بكر الحضرمي [ت. 808هـ]: **مقدمة ابن خلدون**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 1، 1993م.

Scanned by CamScanner

- ــــــ : تاريخ ابن خلدون المسمى، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، الجزء السادس والسابع، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس، خليل شحادة، مراجعة، سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، 1988م.
- ــــــ : التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1979م.
- ابن خلدون، أبو زكريا يحيى بن أبي بكر محمد بن محمد بن الحسن: كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، الجزء الأول، نشره ألفرد بيل Alfred BEL، مطبعة بيير فونطانا الشرقية، الجزائر، 1322هـ/1904م.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر [ت. 681هـ]: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، دون.تاريخ، [المجلد السابع].
- ابن الدراج، السبتي: كتاب الإمتاع والانتفاع بمسألة سماع السماع، أو اتجاهات أدبية وحضارية في عصر بني مرين، دراسة وإعداد، محمد بن شقرون، مطبعة الأندلس، القنيطرة، دون تاريخ.
- ابن رشد الجد، أبو الوليد بن محمد بن أحمد القرطبي [ت. 520هـ]: فتاوى ابن رشد، تحقيق المختار بن الطاهر التليلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1987م، [السفر الأول والثاني].
- ــــــ : البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة، الجزء الثاني، تحقيق سعيد أعراب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1408هـ، 1988م.
- ــــــ : البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة، الجزء الثالث، تحقيق أحمد الحبابي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1408هـ، 1988م.
- ــــــ : المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات والتحصيلات المحكمات لأمهات مسائلها المشكلات، تحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1988م.
- ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد الحفيد [ت. 595هـ]: بداية المجتهد ونهاية المقتصد، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، 1419هـ.
- ابن رضوان، عبد الله أبو القاسم المالقي [ت. 783هـ]: الشهب اللامعة في السياسة النافعة، تحقيق علي سامي النشار، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1404هـ/1984م.
- ابن الزبير، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم [ت. 708هـ]: كتاب صلة الصلة، القسم الثالث، تحقيق، عبد السلام الهراس، سعيد أعراب، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، مطبعة فضالة، المحمدية، 1993م.
- ــــــ : كتاب صلة الصلة، القسم الرابع، تحقيق، عبد السلام الهراس، سعيد أعراب، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، مطبعة فضالة، المحمدية، 1994م.
- ابن الزيات، أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي [ت. 617هـ]: التشوف إلى رجال التصوف، وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، الطبعة الأولى، 1984م.
- ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك الغرناطي المغربي [ت.ما بين

Scanned by CamScanner

673هـ و 685هـ]: **كتاب الجغرافيا**، حققه ووضع مقدمته وعلق عليه إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 1970م.

- ـــــ : **المغرب في حلى المغرب**، وضع حواشيه، خليل منصور، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، [جزءان].

- ابن صاحب الصلاة، أبو مروان عبد الملك بن محمد بن يحيى بن إبراهيم الباجي [ت. 594هـ]: **تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين**، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1987م.

- ابن الطواح، عبد الواحد محمد بن عبد العزيز [كان حيا س. 718هـ]: **سبك المقال لفك العقال**، تراجم وأعلام من القرنين السابع والثامن الهجريين، تحقيق ودراسة محمد مسعود جبران، دار الغرب الإسلامي، ط. 1، 1995م.

- ابن عاشر، أحمد الحافي [ت. 1163هـ]: **تحفة الزائر بمناقب الحاج أحمد بن عاشر**، تحقيق وتقديم، مصطفى بوشعراء، منشورات الخزانة العلمية الصبيحية بسلا، مطابع سلا، الطبعة الأولى، 1409هـ/1988م.

- ابن عباد، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم النفزي الرندي [ت. 792هـ]: **الرسائل الصغرى**، تحقيق ونشر، بولس نويا اليسوعي، دار المشرق، بيروت، لبنان، دون تاريخ.

- ـــــ : **الرسائل الكبرى**، طبعت بتصحيح، أحمد بن محمد المهدي بن العباس بن صابر البوعزاوي، طبعة حجرية، 1320هـ.

- ابن عبد الملك، أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي [ت. 703هـ]: **كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، السفر الثامن، القسم الأول والثاني، تقديم وتحقيق وتعليق، محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1984م.

- ابن عبدون، أبو محمد عبد المجيد [منتصف ق 6هـ]: **رسالة في القضاء والحسبة**، نشر ليفي بروفنسال، ضمن ثلاث رسائل أندلسية في أدب الحسبة والمحتسب، مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1955.

- ابن عذاري، أحمد بن محمد المراكشي [ت. بعد 712هـ]: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1980م. [الجزء الرابع]

- ـــــ : **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين**، تحقيق الأساتذة، محمد إبراهيم الكتاني، محمد بن تاويت، محمد زنيبر، عبد القادر زمامة، دار الثقافة، الدار البيضاء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1406هـ/1985م.

- ابن عسكر، محمد الحسني الشفشاوني [ت. 986هـ]: **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**، تحقيق، محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والنشر، سلسلة التراجم، طبعة ثانية، مصورة بالأوفسيط، الرباط، 1397هـ/1977م.

- ابن غازي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد العثماني المكناسي [ت. 919هـ]: **الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون**، تحقيق، عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الثانية، 1408هـ/1988م.

- ـــــ : **فهرس ابن غازي التعلل برسوم الإسناد بعد انتقال أهل المنزل والناد**، تحقيق، محمد الزاهي،

مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، سلسلة الفهارس 3، الدار البيضاء، 1399هـ/1979م.
– ابن فرحون، برهان الدين أبو الوفاء إبراهيم [ت. 799هـ]: **تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام**، نشر مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1986م.
– ابن القاضي، أبو العباس أحمد بن أحمد بن أبي العافية المكناسي [ت. 1025هـ]: **ذيل وفيات الأعيان المسمى درة الحجال في أسماء الرجال**، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، المكتبة العتيقة، تونس، دون تاريخ. [3 أجزاء]
– ــــــ : **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973م. [جزءان]
– ابن القطان، أبو محمد حسين بن علي بن محمد بن عبد الله الكتامي المراكشي [ت. منتصف ق 7هـ]: **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**، تحقيق محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1990م.
– ابن قنفذ، أبو العباس أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب القسنطيني [ت. 810هـ]: **شرف الطالب في أسنى المطالب**، ضمن **ألف سنة من الوفيات**، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، سلسلة التراجم [2]، الرباط، 1396هـ/1976م.
– ــــــ : **أنس الفقير وعز الحقير**، اعتنى بنشره وتصحيحه، محمد الفاسي، أدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، مطبعة أكدال، الرباط، 1965م.
– ابن مرزوق، محمد التلمساني [ت. 781هـ]: **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا الحسن**، دراسة وتحقيق، ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم، محمود بوعياد، إصدارات المكتبة الوطنية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1401هـ/1981م.
– ابن مريم، الملياني المديوني أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد التلمساني [ت. 1014هـ]: **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986م.
– ابن المناصف، أبو عبد الله محمد بن عيسى الأزدي [ت. 620هـ]: **كتاب الإنجاد في أبواب الجهاد**، دراسة وتحقيق قاسم عزيز الوزاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 2003م.
– ابن منظور، المكرم علي بن أحمد الأنصاري [ت. 711هـ]: **لسان العرب المحيط**، إعداد وتصنيف، يوسف الخياط ونريم مرعشلي، قدم له، الشيخ عبد الله العلايلي، دار لسان العرب، بيروت، دون تاريخ.
– ابن هلال، أبو سالم إبراهيم بن علي الفيلالي السجلماسي: **أجوبة ابن هلال**، رتبها علي بن أحمد الجزولي الجياني، طبعة حجرية، دون مكان الطبع، دون تاريخ.
– ابن يوسف، الحكيم أبو الحسن علي الفاسي [كان حيا في العشرة الثامنة من ق 8هـ]: **الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة**، حققه وذيل عليه، حسين مؤنس، دار الشروق، القاهرة بيروت، الطبعة الثانية، 1406هـ/1986م.
– الإدريسي الحمودي الحسني، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس [ت. 562هـ]: **كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، دون تاريخ. [الجزء الأول]

Scanned by CamScanner

- الأصبهاني، أبو القاسم حسن بن محمد الراغب: **في المجون والسخف**، ضمن، الجنس عند العرب، نصوص مختارة، منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا، ط. 1، 1997، ج. 1.
- الأنصاري، محمد بن القاسم السبتي [فرغ من تأليف هذا الكتاب س. 825هـ]: اختصار الأخبار عما كان بسبتة من سني الآثار، تحقيق، عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الطبعة الثانية، الرباط، 1403هـ/1983م.
- البادسي، عبد الحق بن إسماعيل [كان حيا سنة 722هـ]: **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف**، تحقيق، سعيد أحمد أعراب، المطبعة الملكية، الرباط، 1982م.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن المغيرة الجعفري [ت. 256هـ]: **الجامع الصحيح**، اعتنى به، أبو عبد الله محمود بن الجميل، مكتبة الصفا، القاهرة، ط. 1، 2003م.
- البكري، أبو عبيد الله بن عبد العزيز الأندلسي [ت. 487هـ]: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دون تاريخ.
- البيذق، أبو بكر بن علي الصنهاجي [ت. أواخر ق 6هـ]: **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971م.
- التجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد [ت. 717هـ]: **رحلة التجاني**، قدم لها، حسن حسني عبد الوهاب، تونس، 1958م.
- التفاشي، شهاب الدين أحمد [ت. 651هـ]: **نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب**، تحقيق، جمال جمعة، رياض الريس للكتب والنشر، لندن وقبرص، الطبعة الاولى، 1992م.
- التميمي، أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم [ت. 603هـ أو 604هـ]: **المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد**، تحقيق، محمد الشريف، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد الملك السعدي، تطوان، مطبعة طوب بريس، الرباط، الطبعة الأولى، 2002م.
- التنبكتي، أحمد بابا السوداني [ت. 963هـ]: **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، إشراف وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، وضع هوامشه وفهارسه طلاب من كلية الدعوة الإسلامية، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، الطبعة الأولى، 1398 من وفاة الرسول/1989م. [جزءان]
- التنسي، محمد بن عبد الله: **تاريخ بني زيان ملوك تلمسان**، مقتطف من الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، حققه وعلق عليه، محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب والمكتبة الوطنية الجزائرية، 1405هـ/1985م.
- التيفاشي، أبو العباس أحمد بن يوسف بن حمدون القيسي [ت. 651هـ]: **أزهار الأفكار في جواهر الأحجار**، حققه وعلق عليه وشرحه، محمد يوسف حسن، محمود بوني خفاجي، الهيئة المصرية للكتاب، 1977م، دون مكان الطبع.
- الجزنائي، أبو الحسن علي [ق 8هـ]: **جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس**، تحقيق، عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الأولى، 1967م.
- الحضرمي، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر: كتاب **السلسل العذب والمنهل الأحلى**، تحقيق، مصطفى النجار، منشورات الخزانة العلمية الصبيحية، سلا، 1988م.
- الحميري، أبو عبد الله محمد عبد الله بن عبد المنعم [ت. 866هـ]: **الروض المعطار في خبر الأقطار**، معجم جغرافي، تحقيق، إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية، 1984م.

Scanned by CamScanner

- خليل بن اسحاق المالكي [ق 8هـ]: **مختصر العلامة خليل**، أشرف على تصحيحه والتعليق عليه أحمد نصر، دار الفكر، بيروت، 1397هـ، 1978م.
- الداودي، أبو جعفر أحمد بن نصر [ت. 402هـ]: **كتاب الأموال**، تقديم وتحقيق، رضا محمد سالم شحادة، مركز إحياء التراث المغربي، الرباط، دار الثقافة للطباعة والنشر، دون تاريخ.
- الرصاع التونسي، أبو عبد الله محمد الأنصاري [ت. 894هـ]: **شرح حدود الإمام الأكبر البركة القدوة الأنور أبي عبد الله بن عرفة**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1412هـ/1992م.
- الزجالي، أبو عبد الله أحمد بن أحمد بن يحيى القرطبي [ت. 694هـ]: **ري الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام (أمثال العوام في الأندلس)**، تحقيق ودراسة، محمد بن شريفة، مطبعة محمد الخامس، فاس، الجزء الأول صدر عام 1395هـ/1975م. والجزء الثاني، صدر عام 1391هـ/1971م. [جزءان]
- الزرهوني، الكفيف [ق 8هـ]: **ملعبة**، تقديم وتحقيق، محمد بن شريفة، المطبعة الملكية، الرباط، 1407هـ/1987م.
- الزهري، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر [ت. أواسط ق 6هـ]: **كتاب الجغرافية**، تحقيق محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، الظاهر [بورسعيد]، دون تاريخ الطبع.
- الساحلي المالقي، أبو عبد الله [ت. 754هـ]: **بغية السالك في أشرف المسالك**، تحقيق، عبد الرحيم العلمي، منشورات وزارة الأقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، مطبعة إليت، 1424هـ، 2003م، [الجزء الثاني].
- السقطي، أبو عبد الله محمد بن أبي محمد [ق 6هـ]: **رسالة في آدب الحسبة**، نشر ليفي بروفنصال، باريس، 1931.
- الصومعي، أحمد التادلي [ت. 1013هـ]: **كتاب المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى**، تحقيق علي الجاوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1996م.
- العبدري، أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الحيحي [قام برحلته سنة 668هـ]: **رحلة العبدري المسماة الرحلة المغربية**، حققه وقدم له وعلق عليه، محمد الفاسي، نشر جامعة محمد الخامس، سلسلة الرحلات، نشر وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، الرباط، 1968م.
- العزفي، أحمد أبو العباس السبتي [ت. 633هـ]: **دعامة اليقين في زعامة المتقين**، مناقب الشيخ أبي يعزى، تحقيق، أحمد التوفيق، مكتبة خدمة الكتاب، الرباط، 1989م.
- العسقلاني، ابن حجر شهاب الدين أحمد [ت. 852هـ]: **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، دار الجيل، بيروت، دون تاريخ الطبع، [4 أجزاء]
- العلمي، عيسى بن علي الحسني [حيا. 996هـ]: **كتاب النوازل**، الجزء الأول، تحقيق المجلس العلمي بفاس، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، 1043هـ/1983م.
- ــــــ : **كتاب النوازل**، الجزء الثالث، تحقيق المجلس العلمي بفاس، منشورات وزارة الأوقاف

والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، 1989م.
- العمري، أحمد بن يحيى بن فضل الله [ت. 749هـ]: **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، من الباب الثامن إلى الباب الرابع عشر، ممالك إفريقيا ما وراء الصحراء، وممالك إفريقية وتلمسان وجبال البربر وبر العدوة والأندلس، تحقيق وتعليق، مصطفى أبو ضيف أحمد، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1409هـ/1988م.
- العياشي، أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر [ت. 1090هـ]: **ماء الموائد، أو الرحلة العياشية**، طبعة الأوفسيط، نشر محمد حجي، الرباط، 1977م.
- الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد الحسني المكي [ت. 832هـ]: **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين**، تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1998م، [المجلد السادس].
- الفاسي، محمد المهدي [ت. 1109هـ]: **ممتع الأسماع في الجزولي والتباع وما لهما من الأتباع**، تحقيق وتعليق، عبد الحي العمروي وعبد الكريم مراد، مطبعة محمد الخامس، فاس، الطبعة الأولى، 1989م.
- الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب: **القاموس المحيط**، دار الجيل، بيروت، [الجزء الرابع].
- القاضي عبد الوهاب، أبو محمد بن نصر البغدادي [ت. 422هـ]: **كتاب التلقين في الفقه المالكي**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1993م/1413هـ.
- القبتوري، خلف الغافقي: **رسائل ديوانية من سبتة في العهد العزفي**، تقديم وتحقيق، محمد الحبيب الهيلة، المطبعة الملكية، الرباط، 1399هـ/1979م.
- القزويني، زكرياء بن محمد بن محمود [ت. 682هـ]: **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت، دون تاريخ الطبع.
- القلصادي، أبو الحسن علي بن محمد القرشي البسطي [ت. 891هـ]: **رحلة القلصادي**، دراسة وتحقيق، محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978م.
- القلقشندي، أحمد بن علي المصري [ت. 821هـ]: **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه، نبيل خالد الخطيب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 1987م. [الجزء الخامس]
- مؤلف مجهول [كان حيا بعد 820هـ]: **بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب**، تحقيق، عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1404هـ/1984م.
- مؤلف مجهول [من أهل القرن الثامن الهجري]: **كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق: سهيل زكار، عبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1979م.
- مؤلف مجهول: **الرسالة الوجيزة إلى الحضرة العزيزية في علوم الخلافة**، [وجهها صاحبها إلى السلطان أبي فارس عبد العزيز بن أبي الحسن المريني 767- 774هـ. والتخريج هنا لمحقق هذه الرسالة]، إعداد وتقديم أحمد الدغيرني، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، الطبعة الأولى، 1987م.

Scanned by CamScanner

– مؤلف مجهول: **سيرة أجواد الأمجاد في مراتب الجهاد**، حقق بعض صفحاته محمد العربي الخطابي، الخيل والفروسية في مؤلفات الأندلسيين، مجلة الأكاديمية، المملكة المغربية، ع. 8، دجنبر 1991م.
– مؤلف مجهول، [من مؤلفي القرن السادس الهجري]: **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق، سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985م.
– الماجري، أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن أبي محمد صالح بن ينصارن المغربي [ق 8هـ]: **المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح**، المطبعة المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1923م.
– مارمول، كاربخال [ق 16م]: **إفريقيا**، ترجمة عن الفرنسية، محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد بن جلون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، الجزء الأول، 1404هـ/1984م. الجزء الثاني والثالث 1408-1409هـ/1988-1989م.
– مالك بن أنس: **الموطأ**، مراجعة وإشراف نخبة من العلماء، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، مطبعة فضالة، المحمدية، ط. 1، 1412هـ، 1992م.
– الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب [ت. 450هـ]: **تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك**، تحقيق رضوان السيد، بيروت، 1987م.
– ــــــ : **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي وأولاده، القاهرة، 1966م.
– المجيلدي، أحمد سعيد: **كتاب التيسير في أحكام التسعير**، تقديم وتحقيق، موسى لقبال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دون تاريخ.
– المراكشي، محيي الدين أبو محمد عبد الواحد بن علي [ت. 647هـ]: **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، ضبطه وصححه وعلق على حواشيه وأنشأ مقدمته، محمد سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي، دار الكتاب، الدار البيضاء، الطبعة السابعة، 1978هـ.
– ــــــ ؟: **وثائق المرابطين والموحدين**، تحقيق حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، الظاهر، الطبعة الأولى، 1997م.
– مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري [ت. 261هـ]: **الجامع الصحيح**، دار الفكر، بيروت، دون تاريخ.
– مقديش، محمود [ت. 1228هـ]: **نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار**، تحقيق علي الزواوي ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1988م. [المجلد الأول]
– المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني [ت. 1041هـ]: **أزهار الرياض في أخبار عياض**، ضبط وحقق وعلق على الثلاث أجزاء الأولى، مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة فضالة، صندوق إحياء التراث الإسلامي، الرباط، 1398هـ/1978م.
– ــــــ : **أزهار الرياض في أخبار عياض**، الجزء الخامس، تحقيق، عبد السلام الهراس، وسعيد أحمد أعراب، صندوق إحياء التراث الإسلامي، مطبعة فضالة، المحمدية، 1980م.
– ــــــ : **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب**، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، دار

Scanned by CamScanner

صادر، بيروت، 1388هـ/1968م. [الجزء الخامس]
- المزوزي، أبو فارس عبد العزيز بن عبد الواحد [ت. 697هـ]: **نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك**، نشر عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1382هـ/1963م.
- الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد [ت. 1315هـ]: **كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق، جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954م.
- النفزاوي، محمد بن محمد [ق 8هـ]: **كتاب الروض العاطر في نزهة الخاطر**، طبعة حجرية، مطبعة أحمد بن الحاج الطيب الأزرق، 1899-1900م.
- النويري، أحمد بن عبد الوهاب [ت. 732هـ]: **تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط**، من كتاب «نهاية الأرب في فنون الأدب»، تحقيق، مصطفى أبو ضيف أحمد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1984م.
- الوزان، الحسن بن محمد الفاسي المعروف بليون الأفريقي [ت. بعد 957هـ]: **وصف إفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية، محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الطبعة الثانية، 1983م. [جزءان]
- الوليدي، أبو الفضل راشد بن أبي راشد [ت. 675هـ]: **الحلال والحرام**، دراسة وتحقيق، عبد الرحمان العمراني الإدريسي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، بالمملكة المغربية، مطبعة فضالة، المحمدية، 1410هـ/1990م.
- الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى [ت. 914هـ]: **إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك**، دراسة وتحقيق، أحمد بوطاهر الخطابي، طبع بإشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الإمارات العربية المتحدة، الرباط، مطبعة فضالة، المحمدية، 1400هـ/1980م.
- ــــــ : **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، بالمملكة المغربية، الرباط، ودار الغرب الإسلامي، بيروت، 1401هـ/1981م. [21 جزءا]
- اليفراني، محمد الصغير [ت. 1155هـ]: **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، مكتبة الطالب، الرباط، د.ت.

المراجع باللغة العربية

- أبو ضيف مصطفى أحمد: **أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين** [425-678هـ/1130-1472م]، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1982م.
- أبو زيد محمد عبد الحميد: **السلم والحرب في الإسلام**، النسر العربي، القاهرة، 2001م.
- أبو هنطش فايز، محمد توهيل: **علم الاجتماع السياسي، قضايا العنف والحرب والسلام**، دار المستقبل العربي، عمان، 1998م.
- إسماعيل محمود: **دراسات في الفكر والتاريخ الإسلامي**، دار سينا للنشر، الطبعة الأولى، 1994م.
- ــــــ : **سوسيولوجيا الفكر الإسلامي**، الجزء الثالث، سينا للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، 1992م.

Scanned by CamScanner

– أكنوش عبد اللطيف: السلطة والمؤسسات السياسية في مغرب الأمس واليوم، مكتبة بروفانس، الدار البيضاء، 1988م.
– إنجلز: أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة، بمناسبة أبحاث لويس هنري مورغان، ترجمة إلياس شاهين، دار التقدم، موسكو، دون تاريخ.
– أومليل علي: الخطاب التاريخي: دراسة لمنهجية ابن خلدون، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1404هـ/1984م.
– ــــ : السلطة الثقافية والسلطة السياسية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 1996م.
– ابن زيدان: العز والصولة في معالم نظم الدولة، المطبعة الملكية، الرباط، الجزء الأول، 1962م.
– ابن معجوز محمد: أحكام الأسرة في الشريعة وفقه مدونة الأحوال الشخصية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1994م.
– أحمد زينة، المرأة في التراث العربي، دار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 1993.
– استيتو محمد: الفقر والفقراء في مغرب القرنين 16 و17م، مؤسسة النخلة للكتاب، وجدة، الطبعة الأولى، 2004م.
– باربرا ويتمر: الأنماط الثقافية للعنف، ترجمة ممدوح يوسف عمران، سلسلة عالم المعرفة، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 337، مارس، 2007م.
– باستيفا سفيتلانا: العمران البشري في مقدمة ابن خلدون، ترجمة رضوان إبراهيم، الدار العربية للكتاب، ليبيا–تونس، 1398هـ/1978م.
– بالانديه جورج: الأنتروبولوجيا السياسية، ترجمة جورج أبي صالح، معهد الإنماء القومي، بيروت، 1983م.
– برادة ثريا: الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 37، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1997م.
– برانشفيك روبير: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، ترجمة حمادي الساحلي، الجزء الأول، بيروت، 1988م.
– بن منصور عبد الوهاب: قبائل المغرب، المطبعة الملكية، الرباط، 1968م، الجزء الأول.
– بنميرة عمر: الثقافة والفقه والمجتمع، نماذج من الغرب الإسلامي –دراسة تاريخية–، جذور للنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2006م.
– بوتول جاستون: الحرب والمجتمع، تحليل اجتماعي للحروب ونتائجها الاجتماعية والثقافية والنفسية، ترجمة عباس الشربيني، مراجعة وتقديم محمد علي محمد، دار النهضة العربية، بيروت، 1983م.
– ــــ : هذه هي الحرب، منشورات عويدات، بيروت، الطبعة الأولى، 1981م.
– ــــ : تحدي الحرب، 1740–1974، قرنان من الحروب والثورات، ترجمة هيثم كيلاني، دار طلاس، دمشق، 1988م.
– بورقية رحمة، الدولة والسلطة والمجتمع، دراسة في الثابت والمتحول في علاقة الدولة بالقبائل

في المغرب، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1991م.
- بوطالب محمد نجيب: **سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي**، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 2002م.
- بوند براين: **الحرب والمجتمع في أوربا: 1870-1970**، ترجمة سمير عبد الرحيم الجلبي، دار المأمون، بغداد، 1988م.
- تايلور فيليب: **قصف العقول، الدعاية للحرب منذ العالم القديم حتى العصر النووي**، ترجمة سامي خشبة، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 256، أبريل 2000م.
- الترمانيني عبد السلام: **الرق**، **عالم المعرفة**، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 23، نوفمبر 1979م.
- تضغوت محمد: **البنية الثقافية وقضايا الفكر في المجال العربي الإسلامي**، سلسلة قضايا تاريخية، العدد 5، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.
- تيتاو حميد ولطيف محماد: **ملامح من التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لقبائل آيت عطا من خلال أمثالها**، مساهمة في تدوين الأمثال الأمازيغية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2003م.
- الجابري محمد عابد: **فكر ابن خلدون، العصبية والدولة، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي**، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1979م.
- ـــــ : **نقد العقل العربي 3، العقل السياسي العربي، «محدداته وتجلياته»**، المركز الثقافي العربي، طبعة دار النشر المغربية، الدار البيضاء، الطبعة السادسة، 2003م.
- الجراري عباس بن عبد الله: **الزجل في المغرب: القصيدة**، الناشر مكتبة الطالب، مطبعة الأمنية، الرباط، د.ت.
- جغلول عبد القادر: **الإشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون**، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 1980م.
- جوليان شارل أندري: **تاريخ إفريقيا الشمالية**، تعريب محمد مزالي والبشير سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، الطبعة الثانية، 1983م.
- حجازي مصطفى: **التخلف الاجتماعي، سيكولوجية الإنسان المقهور**، معهد الإنماء العربي، بيروت، الطبعة السادسة، 1992م.
- حركات إبراهيم: **السياسة والمجتمع في العصر السعدي**، نشر وتوزيع دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1987م.
- ـــــ : **المغرب عبر التاريخ**، الجزء الثاني، من بداية المرينيين إلى عهد السعديين، نشر وتوزيع دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الثالثة، 1414هـ/1993م.
- الحريري محمد عيسى: **تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني**، دار القلم، الكويت، الطبعة الأولى، 1405هـ/1985م.
- حسن محمد: **القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط**، دار الرياح الأربع للنشر، تونس، 1986م.

Scanned by CamScanner

– الحسن إحسان محمد: علم الاجتماع العسكري، دار الطليعة، بيروت، 1990م.
– الحمودي عبد الله: مصير المجتمع المغربي: رؤية أنتروبولوجية لقضايا الثقافة والسياسة والدين والعنف، سلسلة دفاتر وجهة نظر، العدد الخامس، 2004م.
– حميش بنسالم: التشكلات الإيديولوجية في الإسلام، الاجتهاد والتاريخ، الرباط، 1981.
– ــــ : الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 1988.
– الحيدري إبراهيم: النظام الأبوي وإشكالية الجنس عند العرب، دار الساقي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2003م.
– خضر، أحمد إبراهيم: الجيش والمجتمع: دراسات في علم الاجتماع العسكري، تصدير بقلم محمد الجوهري، دار المعارف، القاهرة، 1985م.
– الديالمي عبد الصمد: المعرفة والجنس: من الحداثة إلى التراث، منشورات عيون المقالات، مطبعة دار قرطبة للطباعة والنشر، الدار البيضاء، 1987م.
– ديورانت وول: قصة الحضارة، المجلد الرابع، الجزء الثالث، ترجمة محمد بدران، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1964م.
– الزباخ مصطفى: تجليات التحدي الحضاري للأندلس من خلال رسائل لسان الدين بن الخطيب، دراسة حضارية في المكونات والدلالات، مطبعة بني أزناسن، سلا، 2001م.
– الزحيلي وهبة: آثار الحرب في الفقه الإسلامي: دراسة مقارنة، دار الفكر، المطبعة العلمية بدمشق، دمشق، الطبعة الرابعة، 1992م.
– الزعفراني حاييم: ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب: تاريخ– ثقافة– دين، ترجمة أحمد شحلان، عبد الغني أبو العزم، الدار البيضاء، 1987م.
– زنيبر محمد: المغرب في العصر الوسيط، الدولة–المدينة–الاقتصاد، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 24، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1999م.
– زيعور علي: في العقلية الصوفية ونفسانية التصوف، نحو الاتزانية إزاء الباطنية والأوليائية في الذات العربية، دار الطليعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1979م.
– ريحانا سامي: المجتمعات العسكرية عبر التاريخ، دار الحداثة، بيروت، 1966م.
– السوسي المختار: المعسول، الجزء الأول، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 1961م.
– السيد غلاب والجوهري يسري: الجغرافية التاريخية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1968م.
– الشاذلي عبد اللطيف: التصوف والمجتمع نماذج من القرن العاشر، منشورات جامعة الحسن الثاني، مطابع سلا، 1989م.
– الشريف محمد: نصوص جديدة ودراسات في تاريخ الغرب الإسلامي، منشورات مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي، جامعة عبد الملك السعدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مطبعة الحداد يوسف إخوان، تطوان، الطبعة الأولى، 1996م.
– شغموم الميلودي: المتخيل والقدسي في التصوف الإسلامي، الحكاية والبركة، منشورات المجلس البلدي لمدينة مكناس، مطبعة فضالة، المحمدية، الطبعة الأولى، 1991م.
– شيخة جمعة: الفتن والحروب وأثرهما في الشعر الأندلسي، من سقوط الخلافة ق 5هـ/11م إلى سقوط

غرناطة ق 9هـ/15م، الدار المغاربية، تونس، 1994-1997، المجلد الثاني: الحروب.
- صليبا جميل: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت، الجزء الثاني، د.ت.
- ضريف محمد: مؤسسة السلطان الشريف، منشورات المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، الطبعة الأولى، 1992.
- عامر عبد اللطيف: أحكام الأسرى والسبايا في الحروب الإسلامية، دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، 1985م.
- عباس عبد الهادي: المرأة والأسرة في حضارات الشعوب وأنظمتها، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، 1987، الجزء الأول.
- العروي عبد الله: مجمل تاريخ المغرب، الجزء الثاني، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1984م.
- ـــــ : مفهوم الدولة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثالثة، 1984م.
- ـــــ : مفهوم العقل، مقالة في المفارقات، منشورات المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، الطبعة الأولى، 1996م.
- عشاق مولود: حركة المتنبئين بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط، الأحمدية للنشر، الدار البيضاء، 1999م.
- عطية الله أحمد: القاموس السياسي، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1968م.
- عمارة محمد : الإسلام والحرب الدينية، دار الوحدة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1982م.
- العلام عز الدين: السلطة والسياسة في الأدب السلطاني، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1991م.
- العلوي القاسمي هاشم: مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري/منتصف القرن العاشر الميلادي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، مطبعة فضالة، المحمدية، 1995م.
- الغريمي عبد السلام: المدارس الصوفية المغربية والأندلسية في القرن السادس الهجري، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 2000م.
- فريد وجدي محمد: دائرة المعارف، مطبعة دائرة معارف القرن العشرين، الطبعة الثانية، 1923م.
- القادري بوتشيش إبراهيم: إسهامات في التاريخ الاقتصادي - الاجتماعي لمدينة مكناس خلال العصر الوسيط، منشورات عمادة جامعة المولى إسماعيل، مكناس، مطبعة فضالة، المحمدية، 1997م.
- ـــــ : الإسلام السري في المغرب العربي، سينا للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، 1995م.
- ـــــ : تاريخ الغرب الإسلامي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 1994م.
- ـــــ : حلقات مفقودة من تاريخ الحضارة في الغرب الاسلامي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2006.
- ـــــ : مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، دار الطليعة،

Scanned by CamScanner

بيروت، الطبعة الأولى، 1998م.
– ـــــ : المغرب والأندلس في عصر المرابطين، المجتمع، الذهنيات، الأولياء، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 1993م.
– القبلي محمد: الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط، علائق وتفاعل، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1997م.
– ـــــ : حول تاريخ المجتمع المغربي، مقدمات أولية وقضايا، نشر الفنك، الدار البيضاء، 1998م.
– ـــــ : مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1987م.
– كريم زكي حسام الدين: القرابة، دراسة انثرولغوية لألفاظ وعلاقات القرابة في الثقافة العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1990م.
– كلاوزفيتز كارل فون: الوجيز في الحرب، ترجمة أكرم ديري، الهيثم الأيوبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980م.
– لاكوست إيف: العلامة ابن خلدون، ترجمة ميشال سليمان، دار ابن خلدون للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1974م.
– لبيب الطاهر: سوسيولوجيا الثقافة، دار قرطبة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1986م.
– لكرك جيرار: الأنتروبولوجيا والاستعمار، ترجمة جورج كتورة، معهد الإنماء العربي، كتاب الفكر العربي، بيروت، 1982م
– لمراني العلوي كنزة: الأسرة المغربية، ثوابت ومتغيرات، سلسلة معالم، التجديد للنشر والتوزيع، الرباط، 1986م.
– لوطورنو روجيه: فاس في عصر بني مرين، ترجمة نقولا زياده، مكتبة لبنان، بيروت، 1967م.
– ـــــ : فاس قبل الحماية، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م.
– المانحي علي حامد: المغرب في عصر السلطان أبي عنان المريني، دار النشر المغربية، الدار البيضاء 1986م.
– مان ميشيل: موسوعة العلوم الاجتماعية، نقلها إلى العربية عادل مختار الهواري، سعد عبد العزيز مصلوح، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1999م.
– مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، قام بإخراجه، إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، وأشرف على طبعه، عبد السلام هارون، الجزء الأول، المكتبة العلمية، طهران، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
– مجموعة من الباحثين: قاموس الفكر السياسي، ترجمة أنطوان حمصي، دراسات سياسية وفكرية-12، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، 1994م.
– مجموعة من المؤلفين: الحروب والحضارات، إصدار المؤسسة الفرنسية لدراسات الدفاع الوطني، ترجمة أحمد عبد الكريم، دار طلاس، دمشق، 1984م.
– مجموعة من المؤلفين: ظاهرة الحروب والنزاعات المسلحة، رؤية جغرافية تحليلية، ضمن حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، رقم 190، 2002-2003م.

Scanned by CamScanner

- محجوب محمد عبده: مقدمة لدراسة المجتمعات البدوية، منهج وتطبيق، وكالة المطبوعات، الكويت، دون تاريخ.
- محمد رزوق: الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 و17م، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1989م.
- محمد عبد الرحمن شفيق: شعر الجهاد في عصر الموحدين، مكتبة الأقصى، عمان، 1984م.
- محمد عثمان نجاتي: علم النفس الحربي، دار النهضة المصرية، القاهرة، 1956م.
- المحمودي أحمد: عامة المغرب الأقصى في العصر الموحدي، منشورات جامعة المولى إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، مطبعة عكاظ، الرباط، 2001م.
- المرزوقي محمد: مع البدو في حلهم وترحالهم، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، 1980م.
- معن خليل عمر: علم اجتماع الأسرة، دار الشروق للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1994م.
- المليح السعيد: التواصل الفكري والروحي بين المغرب الأقصى والمشرق الإسلاميين [مصر والحجاز]، أسسه ومظاهره، من بداية القرن السابع إلى أواخر القرن الثامن الهجريين، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 1425هـ/2005م.
- المنوني محمد: أبحاث مختارة، منشورات وزارة الشؤون الثقافية، المملكة المغربية، فبراير، 2000م.
- ـــــــ : وثائق ونصوص عن أبي الحسن علي بن منون وذريته، المطبعة الملكية، الرباط، 1396هـ/1976م.
- ـــــ : ورقات عن حضارة المرينيين، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 20، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1996م.
- موسى عمر أحمد عز الدين: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، بيروت، الطبعة الأولى، 1983م.
- ـــــ : دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، دار الشروق، بيروت، القاهرة، الطبعة الأولى، 1403هـ/1983م.
- الموسوعة العربية، منشورات الجمهورية العربية السورية، دمشق، الطبعة الأولى، 2003، المجلد الثامن.
- ميتشيل دينكن: معجم علم الاجتماع، ترجمة ومراجعة إحسان محمد الحسن، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1981م.
- نشاط مصطفى: نصوص مترجمة ودراسات عن العلاقات الإيطالية المغربية في العصر الوسيط، مكتبة الطالب، وجدة، الطبعة الأولى، 1426هـ/2005م.
- الهراس المختار: القبيلة والسلطة: تطور البنيات الاجتماعية في شمال المغرب، المركز الوطني للتنسيق وتخطيط البحث العلمي والتقني، مطبعة الرسالة، الرباط، 1988م.
- الهرفي، محمد بن علي: شعر الجهاد عند ابن هانئ الأندلسي، دار الإصلاح، الدمام، 1982م.
- الهندي إحسان: أحكام الحرب والسلام في دولة الإسلام، دار النمير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، 1993م.

Scanned by CamScanner

- وافي علي عبد الواحد: **قصة الملكية في العالم**، دار نهضة مصر، القاهرة، 1987، المعارف، مصر، 1969.

- يعقوب غسان، **سيكولوجيا الحروب والكوارث ودور العلاج النفسي، اضطراب ضغوط ما بعد الصدمة**، دار الفارابي، بيروت، 1999م.

الدراسات المنشورة في المجلات والدوريات [باللغة العربية]

- أبو العزم عبد الغني: **الدولة والمدينة: مرحلة التأسيس**، ضمن أعمال ملتقى: مراكش من التأسيس إلى أواخر العصر الموحدي، مركز الدراسات والأبحاث حول مراكش بتنسيق مع كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة القاضي عياض، مراكش، مطبعة فضالة، المحمدية، 1989م. [ص ص: 53-58]

- أبو سمرا مروان: فردناد بروديل مؤرخ المتوسط والعالم المتوسطي: **الصحراء، البدو، والإسلام قطب المتوسط التاريخي**، مجلة الاجتهاد، العدد 17، السنة الرابعة، خريف 1992م. [ص ص: 183-198]

- أزايكو علي صدقي: **حول النظرية التجزئية مطبقة على المغرب**، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، العدد 14، 1988م.

- إسكان الحسين: **الأسرة والتزايد الديموغرافي لدى الأرستقراطيات الحاكمة في المغرب الوسيط**، نموذج الأرستقراطية المرابطية والموحدية، مجلة كنانيش، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة، العدد الأول، 1999م. [ص ص: 31-39]

- إكلمان ديل: **الأنتروبولوجيا والتاريخ ووضعهما في المجال الأكاديمي**، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، العدد 18، 1993م. [ص ص: 117-123]

- ألماني خوسي: **الكتائب المسيحية في خدمة الملوك المغاربة**، ترجمة أحمد مدينة، مجلة دعوة الحق، العدد 5، السنة 19، ماي 1978م.

- استيتو محمد: **الماء والحرب في تاريخ المغرب، أية علاقة**، ضمن ندوة: الماء في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني -عين الشق- الدار البيضاء، دجنبر، 1996م. [ص ص: 177-190]

- بارتوف عمر: **العنف المفرط والمجتمع الأكاديمي**، ضمن أعمال ندوة العنف المفرط، المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية، منشورات اليونسكو، العدد 174، ديسمبر 2002م. [ص ص: 117-131]

- البزاز محمد الأمين: **الطاعون الأسود بالمغرب في القرن 14م**، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، العدد 16، 1991م. [ص ص: 109-122]

- ــــــ: **حول المجاعات والأوبئة بالمغرب خلال العصر الوسيط**، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، العدد 18، 1993م. [ص ص: 93-114]

- بورقية رحمة: **حول القبيلة في المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر**، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، العدد 14، 1998م. [ص ص: 35-48]

- بولقطيب الحسين، الهلالي الجيلالي: **حول مسألة الجنس بمغرب العصر الوسيط**، مقدمات من أجل بحث، مجلة دراسات عربية، العدد 10-11-12، 1993م. [ص ص: 95-104]

Scanned by CamScanner

- بولقطيب الحسين: أسس ومكونات الدولة المغربية في العصر الوسيط، مجلة أبحاث، العدد 24-25، 1990م. [ص ص: 41-65]
- ______ : أسلوب الإنتاج الحربي والتحول المعاق، حالة المغرب الوسيط، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجديدة، العدد الثاني، 1995م. [ص ص: 73-91]
- ______ : كرامات أولياء دكالة خلال عصري المرابطين والموحدين نموذجاً، مجلة دراسات عربية، العدد 3-4، السنة 32، 1996م. [ص ص: 70-80]
- بيجن. هـ: تنظيم المجال المغربي عبر التاريخ، المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، عدد مزدوج 7-8، السنة الثانية، صيف/خريف 1988م. [ص ص: 44-74]
- بيرك جاك: في مدلول «القبيلة» في شمال إفريقيا، ضمن كتاب: الأنتروبولوجيا والتاريخ، حالة المغرب العربي، ترجمة عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، دار توبقال، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1988م. [ص ص: 113-131]
- تابر ريتشارد: الأنتروبولوجيون والمؤرخون والقبيلة: حول القبيلة ونشوء الدولة في المشرق العربي، مجلة الاجتهاد، العدد 17، السنة الرابعة، خريف 1992م. [ص ص: 105-141]
- تركي علي الربيعو: نحو تأسيس إناسة لدراسة المجتمع البدوي، مجلة الاجتهاد، العدد 17، السنة الرابعة، خريف 1992م. [ص ص: 144-182]
- التوفيق أحمد: التصوف بالمغرب، معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، سلا، الجزء 7، 1994م. [ص ص: 2391-2396]
- الجابري محمد عابد: من أجل إعادة بناء الفكر السياسي في الإسلام، المقالة 44، ضمن سلسلة مواقف، العدد 28، الطبعة الأولى، يونيو 2004م. [ص ص: 24-29]
- حرب علي: الهوية- الثقافة- السياسة من منظور أنتروبولوجي، تقديم لأثريات العنف لكلاستر، مجلة الفكر العربي، العدد 33-34، السنة الخامسة، 1983م. [ص ص: 76-100]
- حركات إبراهيم: الحياة الاجتماعية في العصر المريني (الأطعمة والأفراح)، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، العدد 5-6، عدد مزدوج، 1979م. [ص ص: 45-57]
- ______ : معالم من التاريخ الاجتماعي للمغرب على عهد بني مرين، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، العدد الثاني، 1977م. [ص ص: 205-243]
- حمام محمد: بناء الأسوار وصيانتها في أوربا: نموذج منطقة كاسكونيا الفرنسية في القرن الثالث عشر للميلاد، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، العدد 17، 1992م. [ص ص: 87-94]
- حمودي عبد الله: الانقسامية والتراتب الاجتماعي والسلطة السياسية والقداسة، ملاحظات حول أطروحة كيلنر، ترجمة عبد الأحد السبتي، عبد اللطيف فلق، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، العدد 11، 1985م. [ص ص: 193-224]
- حميش بنسالم: في سيميائية الاستبداد، أو ابن خلدون أمام الدولة المغاربية، ضمن كتاب: جدلية الدولة والمجتمع بالمغرب، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1992م. [ص ص: 167-189]

- زنيبر محمد: أزمة الحكم الموحدي في النصف الأول من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، ضمن كتاب: الاسطوغرافية والأزمة، دراسات في الكتابة التاريخية والثقافة، إنجاز الجمعية المغربية للبحث التاريخي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1994م. [ص ص: 9-23]
- ــــــ : الصناعة في نسق ابن خلدون الاجتماعي، ضمن أعمال ندوة ابن خلدون، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1979م. [ص ص: 277-324]
- زوادزكي بول: الانشغال بموضوعات بغيضة: بعض الاعتبارات الأخلاقية والمعرفية، ضمن أعمال ندوة العنف المفرط، المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية، منشورات اليونسكو، العدد 174، ديسمبر 2002م. [ص ص: 133-146]
- الزين عبد الفتاح: السوسيولوجيا في المغرب: من إعلان الحماية الفرنسية إلى المرحلة الراهنة، مجلة المستقبل العربي، العدد 146، السنة 13، أبريل 1991م.
- السبتي عبد الأحد: أخبار المناقب ومناقب الأخبار، ضمن كتاب التاريخ وأدب المناقب، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي 1، منشورات عكاظ، الرباط، 1989م. [ص ص: 93-113]
- ــــــ : علامات المدينة المغربية في الأدب الجغرافي الوسيط، في دلالات الخراب، ضمن كتاب: التاريخ واللسانيات، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1992م. [ص ص: 11-25]
- ــــــ : قضايا في دراسة التاريخيات، مجلة أمل: التاريخ، الثقافة، المجتمع، السنة 5، العدد 15، 1998م. [ص ص: 18-23]
- شقرون محمد: البادية المغربية، معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، المجلد الثالث، 1991م. [ص ص: 972-975]
- شقير محمد: أزمة الأسس المجالية للدولة المغاربية، المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، عدد مزدوج 7-8، السنة الثانية، صيف/خريف 1988م. [ص ص: 35-43]
- شيخة جمعة: البطل في شعر الحرب بالأندلس، مجلة المؤرخ العربي، العدد 84-85، السنة 1991م. [ص ص: 71-77]
- صالح محمد أبو دياك: المواكب والرسوم السلطانية للدولة المرينية في المغرب الإسلامي، مجلة المنهل، العدد 494، المجلد 53، فبراير، 1992م. [ص ص: 22-28]
- صالح مدني: الحرب وابن خلدون: التناقض والاضطراب، مجلة آفاق عربية، العدد 11-12، 1995م. [ص ص: 9-12]
- الطالبي محمد: تقديم لكتاب جمعة شيخة: الفتن والحروب، وأثرها في الشعر الأندلسي، من سقوط الخلافة إلى سقوط غرناطة، دراسات أندلسية، تونس، العدد 12، 1994م. [ص ص: 76-77]
- الطويل محمد حجاج: المسألة الديموغرافية، نحو منهجية ديموغرافية، محاولة إحصائية (العصر الوسيط نموذجا)، مجلة كنانيش، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة، العدد 1، 1999م. [ص ص: 19-28]
- العروي عبد الله: ابن خلدون وماكيافيلي، ضمن أعمال ندوة ابن خلدون، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1979م. [ص ص: 183-204]

Scanned by CamScanner

- العسري عبد السلام: نشأة نظرية الأخذ بما جرى به العمل عند فقهاء الأندلس والمغرب، مجلة دار الحديث الحسنية، العدد 3، 1402–1982م. [ص ص: 321–340]
- العلوي عبد العزيز: البعد الاجتماعي للتجارة الصحراوية في العصر الوسيط، التجار المغاربة نموذجا، المصباحية، مجلة تصدرها في سلسلتين، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس فاس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، العدد الأول، 1995م. [ص ص: 44–74]
- فتحة محمد: أنس الفقير لابن قنفذ أو الانتصار لزاوية ملارة، ضمن محطات في تاريخ المغرب الفكري والديني، أعمال مجموعة الأبحاث في التاريخ الديني (1)، سلسلة ندوات ومناظرات (8)، جامعة الحسن الثاني، عين الشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، مطبعة فضالة، المحمدية، 1996م. [ص ص: 163–170]
- ـــــ : البدعة بين سلطتي الفقهاء والمتصوفة، أمثلة من الغرب الإسلامي أواخر العصر الوسيط، ضمن: البدع في تاريخ المغرب، قضايا ونصوص، مجلة دفاتر البحث، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق، الدار البيضاء، المجلد الأول، العدد الأول، شوال 1422هـ، دجنبر 2001م. [ص ص: 43–55]
- ـــــ : جوانب من الحياة الاقتصادية المغربية خلال العصر المريني، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، العدد 2، 1985م. [ص ص: 133–181]
- فتحة محمد، مصطفى نشاط: المجتمع والسلطة والدين في نهاية العصر الوسيط، ضمن دراسات في تاريخ المغرب، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية 1، عين الشق، الدار البيضاء، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، العدد 7، عدد خاص، 1990م. [ص ص: 167–181]
- فرحات حليمة: بادس، معلمة المغرب، الجزء الثالث، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر، مطابع سلا، 1411هـ/1991م. [ص ص: 965–969]
- فضة مصطفى: حول مفهوم القبيلة في علم الاجتماع الاستعماري، مجلة الثقافة الجديدة، العدد 29، 1983م.
- الفضل شلق: القبيلة والدولة والمجتمع، مجلة الاجتهاد، العدد 17، السنة الرابعة، خريف 1992م. [ص ص: 9–33]
- القادري بوتشيش إبراهيم: أثر الحروب في المجال الضرائبي، مجلة الاجتهاد، العددان الرابع والثلاثون والخامس والثلاثون، السنة التاسعة، شتاء وربيع العام 1417هـ/1997م. [ص ص: 79–92]
- ـــــ : أثر قيام الدول وسقوطها في التطور الديموغرافي بالمغرب في العصر الوسيط (دراسة حالة)، مجلة كنانيش، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة، العدد 1، 1999م. [ص ص: 41–49]
- ـــــ : تجديد التاريخ الإسلامي: كيف ومن أين نبدأ، مجلة الاجتهاد، العدد 22، السنة السادسة، 1994م. [ص ص: 131–145]
- ـــــ : الخطاب الاجتماعي في الكرامة الصوفية بالمغرب خلال عصري المرابطين والموحدين، مساهمة في دراسة الفكر الاجتماعي للبلدان المتوسطية، ضمن كتاب: جوانب من التاريخ الاجتماعي للبلدان المتوسطية خلال العصر الوسيط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية،

Scanned by CamScanner

جامعة المولى إسماعيل، مكناس، مطبعة فضالة، المحمدية، 1991م. [ص ص: 97-114]
- ـــــــ : القيم الإنسانية في الممارسة الصوفية خلال القرن السادس الهجري، ضمن أعمال ندوة: من ابن برجان إلى أبي إسحاق البلفيقي، جوانب من التواصل الفكري بين المغرب والأندلس، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض، مراكش، العدد 12، 1995م. [ص ص: 31-40]
- ـــــــ : لماذا غيبت الفئات الشعبية من تاريخ المغرب الشرقي الوسيط، تساؤلات وتطبيق، ضمن ندوة: المغرب الشرقي بين الماضي والحاضر، الوسط الطبيعي، التاريخ، الثقافة، أيام 13-14-15 مارس 1986م، منشورات جامعة محمد الأول، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، سلسلة ندوات ومناظرات رقم : 2. [ص ص: 307-323]
- ـــــــ : واقع الأزمة والخطاب الإصلاحي في كتب المناقب والكرامات (أواخر ق 6 وبداية ق 7هـ/12-13م)، ضمن كتاب: الاسطوغرافية والأزمة، دراسات في الكتابة التاريخية والثقافة، إنجاز الجمعية المغربية للبحث التاريخي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1994م. [ص ص: 25-50]
- ـــــــ : وثيقة في التصوف بالغرب الإسلامي: وصية أبي الفضل يوسف بن محمد النحوي التوزري، مجلة المناهل، العدد 53، 1996م.
- ـــــــ : وجدة والمدينة الأوروبية المتوسطية، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة، العدد الثالث، السنة الثالثة، 1992م. [ص ص: 71-95]
- كلاستر بيار: أثريات العنف أو الحرب في المجتمعات البدائية، ترجمة علي حرب، مجلة الفكر العربي، العدد 33-34، السنة الخامسة، 1983م. [ص ص: 101-124]
- مفتاح محمد: الواقع والممكن في المناقب الصوفية، ضمن كتاب التاريخ وأدب المناقب، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي 1، منشورات عكاظ، الرباط، 1989م. [ص ص: 29-42]
- المنوبي خالد: محاولة تشخيص التشكيلة الاجتماعية المغاربية قبل الاستعمار، تعريب محمد الأمين البزاز، عبد العزيز التمسماني خلوق، مجلة دار النيابة، السنة 4، العدد 13، شتاء 1987م. [ص ص: 6-17]
- المنوني محمد: دور الأوقاف في التكافل الاجتماعي عبر عصر بني مرين (657-869هـ)، مجلة دعوة الحق، العدد 230، يوليوز-غشت، 1983م. [ص ص: 27-33]
- ناصح محمد: مكانة التجار بين الفئات الاجتماعية المكونة للمجتمع المغربي خلال القرن السادس الهجري، ضمن ندوة: التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب، الجزء الثاني، منشورات جامعة الحسن الثاني، عين الشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، مطبعة فضالة، المحمدية، 1992م. [ص ص: 71-84]
- الناصري محمد: مستويات المجال والبحث التاريخي في البادية، ضمن كتاب: البادية المغربية عبر التاريخ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، الطبعة الأولى، 1999م.
- ناعمي مصطفى: أهمية التجارة بالنسبة للبنية الاقتصادية والاجتماعية لغرب الصحراء بلاد تكنة،

Scanned by CamScanner

مجلة البحث العلمي، الجزء الأول، العدد 35، 1985م. [ص ص: 133-201]
- ــــــ : أهمية التجارة بالنسبة للبنية الاقتصادية والاجتماعية لغرب الصحراء بلاد تكة، البحث العلمي، الجزء الثاني العدد 36، 1986م. [ص ص: 237-254]
- نشاط مصطفى: الارتزاق المسيحي بالدولة المرينية، ضمن ندوة: الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، الطبعة الأولى، 1995م. [ص ص: 117-135]
- ــــــ : جوانب من الديموغرافيا التاريخية لليهود والنصارى بالمغرب في العصر المريني، مجلة كنانيش، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة، العدد 1، 1999م. [ص ص: 65-80]
- ــــــ : الطفل والطفولة بالمغرب الوسيط: نماذج من العصر المريني، ضمن ندوة: الأسرة البدوية في تاريخ المغرب، منشورات مجموعة البحث في تاريخ البوادي المغربية، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 2، جامعة ابن طفيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، ط. 1، 1427هـ/2006م. [ص ص: 241-251]
- الهراس المختار: الرئيسي والثانوي في الأسرة المغربية، ضمن: الأسرة والطفل في المجتمع المغربي المعاصر، منشورات عكاظ، جمعية موظفي كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1992م. [ص ص: 69-77]
- الهلالي محمد ياسر: أثر القحوط والمجاعات والأوبئة على الأنشطة الاقتصادية في المغرب الأقصى خلال أواخر العصر الوسيط، ضمن ندوة: المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب، جامعة شعيب الدكالي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجديدة، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، سلسلة ندوات ومناظرات، العدد 4، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2004م. [ص ص: 167-226]
- ــــــ : قراءة في بعض «كتب البدع» بالمغرب الأقصى أواخر العصر الوسيط، ضمن: البدع في تاريخ المغرب، قضايا ونصوص، مجلة دفاتر البحث، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق، الدار البيضاء، المجلد الأول، العدد الأول، شوال 1422هـ، دجنبر، 2001م. [ص ص: 11-42]
- ــــــ : اغتيال السلطان يوسف بن يعقوب، قراءة في نصوص تاريخية ومناقبية لحادثة المنصورة، ضمن كتاب: التاريخ والفقه، أعمال مهداة إلى المرحوم محمد المنوني، إنجاز الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 2004م. [ص ص: 229-259]
- ــــــ : نظرة المجتمع للمرأة في مغرب القرنين الثامن والتاسع هـ/XIV-XVم، مساهمة في تاريخ الذهنيات، ضمن ندوة حلقات في تاريخ المرأة بالمغرب، مجلة أمل: التاريخ، الثقافة، المجتمع، عدد مزدوج، 13/14، السنة الخامسة، 1998م. [ص ص: 76-98]
- الهنتاتي نجم الدين: الجهاد بين النظرية والواقع لدى علماء المالكية بإفريقية خلال العهدين الأغلبي والفاطمي، ضمن الكراسات التونسية، مجلة العلوم الإنسانية، المجلد 48، العدد 169-170، 1995م. [ص ص: 45-71]

Scanned by CamScanner

- اليعقوبي حسين: في الفكاكة والفكاكين، مجلة دراسات أندلسية، العدد 7، مطبعة المغاربية، تونس، 1992م. [ص ص: 59-62]
- اليعقوبي مصطفى: مفاهيم شعر الحرب في ديوان ابن الآبار القضاعي البلنسي، ضمن: قراءة في أعمال ابن الآبار البلنسي الأندلسي، أعمال اليومين الدراسيين مهداة إلى بلدية أندة التي تهتم بتراث ابن الأبار البلنسي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، 2003م. [ص ص: 87-106]

الرسائل والأطروحات الجامعية المرقونة

- ابن تكَلات، أبو عبد الله [كان حيا. 720هـ]: إثمد العينين ونزهة الناظرين في مناقب الأخوين، تحقيق ودراسة، محمد رابطة الدين، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، 1986م. [جزءان]
- ابن عيشون، أبو عبد الله محمد الشراط [ت. 1109هـ]: الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس، دراسة وتحقيق، زهراء النظام، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، السنة الجامعية، 1409هـ/ 1989م. [جزءان]
- أزريكم عبد الرزاق: أغمات وما إليها بالعصر الوسيط: دراسة اجتماعية اقتصادية، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، 1993م.
- الأزموري، أبو عبد الله محمد بن عبد العظيم: بهجة الناظرين وأنس الحاضرين، تحقيق، الجاوي علي، شهادة الدراسات الجامعية العليا، شعبة التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، 1985-1986م.
- أعفيف محمد: مساهمة في دراسة التاريخ الاجتماعي والسياسي لواحات الجنوب المغربي، توات في القرن XIXم، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، 1982م.
- بنحمادة سعيد: الماء والإنسان بالأندلس خلال القرنين 7 و8هـ/13-14م: مساهمة في دراسة المجال والمجتمع والذهنيات، أطروحة لنيل الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة المولى إسماعيل، مكناس، السنة الجامعية، 2005-2006م.
- بنمليح عبد الإله: الرق في المغرب والأندلس خلال القرنين 5 و6 هـ، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، السنة الجامعية، 1999-2000م.
- بنميرة عمر: النوازل والمجتمع، مساهمة في دراسة تاريخ البادية بالمغرب الوسيط [القرنان 8-9هـ/14-15م]، دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، 1988-1989م.
- البوزيدي أحمد: التاريخ الاجتماعي لدرعة [مطلع القرن 17 مطلع القرن F2]، دراسة في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية من خلال الوثائق المحلية، [جزءان]، بحث لنيل دبلوم

Scanned by CamScanner

الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، 1408هـ/1988م.

- بولقطيب الحسين: **الدولة الموحدية ومجال المغرب الأقصى**، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجديدة، السنة الجامعية، 1998-1999م.

- ــــــ : **المصامدة وقيام دولة الموحدين**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز، فاس، السنة الجامعية، 1989م.

- تضغوت محمد: **الحياة الاقتصادية في العراق وأثرها الاجتماعي والسياسي والثقافي في العصر البويهي**، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، السنة الجامعية، 1997-1998م.

- حيمر جمال: مدينة مكناس من التأسيس إلى مطلع العصر الحديث، دراسة في التاريخ السياسي والعمراني، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، جامعة المولى إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، السنة الجامعية، 2003-2004م.

- الديش عبد الوهاب: **فاس المرينية بين سنتي 674-759هـ/1276-1358م، وعلاقتها بالدولة**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، السنة الجامعية، 1408-1409هـ/1988-1989م.

- السلامي رشيد: **وثائق مرينية «مراسلات، معاهدات، ظهائر»**، دراسة وتحقيق، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، 1989م. [جزءان]

- السلاوي عز الدين: **شعر النبويات في عصر بني مرين**، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في اللغة العربية وآدابها، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، 1406-1407هـ/1986-1987م. [الجزء الأول]

- شقور عبد السلام: **الشعر المغربي في العصر المريني، قضاياه وظواهره**، بحث لنيل دكتوراه الدولة في الآداب، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، 1410-1411هـ/1989-1990م. [الجزء الأول]

- الطاهري أحمد: **عامة إشبيلية في عصر بني عباد**، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ الإسلامي، جامعة مولاي إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، السنة الجامعية، 1995م.

- الطويل محمد: **الفلاحة المغربية في العصر الوسيط**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، 1987-1988م.

- العزفي، أحمد أبو العباس السبتي [ت. 633هـ]: **كتاب الدر المنظم في مولد النبي المعظم**، تقديم وتحقيق، فاطمة اليازدي، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في اللغة العربية وآدابها، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، 1986-1987م.

- غوردو عبد العزيز: **الارتزاق بالدولة المركزية المغربية الوسيطة: من منتصف القرن الخامس هـ إلى منتصف القرن 9هـ**، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة، السنة الجامعية، 2001-2002م.

Scanned by CamScanner

– فتحة محمد: **الأحكام والنوازل والمجتمع: أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي من القرن 12م إلى 15م**، بحث لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق، الدار البيضاء، 1995م.

– الفكيكي حسن: **مقاومة الوجود الإيبيري بالثغور الشمالية المحتلة، 1415–1574م**، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، 1410هـ/1990م.

– القادري بوتشيش إبراهيم: **الحياة الاجتماعية في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين**، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ الإسلامي، جامعة مولاي إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، السنة الجامعية، 1990–1991م. [3 أجزاء]

– كريمي ماجدة: **العلاقات التجارية بين المغرب والسودان في العصر المريني [866–957هـ/1269–1358م]**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، 1987–1988م.

– لحمنات عبد الجليل: **التصوف المغربي في القرن السادس الهجري، مقدمة لدراسة تاريخ التصوف بالمغرب**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، 1990م.

– لمليح السعيد: **المدارس المرينية ودورها الفكري في المغرب، نموذج مدارس مدينة فاس**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، السنة الجامعية، 1408–1409هـ/1988–1989م.

– المحمودي أحمد: **عامة المغرب الأقصى في العصر الموحدي**، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، السنة الجامعية، 1999–2000م.

– مفتاح محمد: **التيار الصوفي والمجتمع في الأندلس والمغرب أثناء القرن 8هـ/14م**، القسم الأول، أسس وكيان. القسم الثاني، اتحاد وجهاد، أطروحة دولة، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية 1980–1981م.

– ناصح محمد: **جوانب من الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمغرب الوسيط، القرن 6هـ/12م نموذجا**، [جزءان]، بحث لنيل دبلوم الدراسات في العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، 1987–1988م.

– نشاط مصطفى: **التجارة بالمغرب الأقصى في العصر المريني الأول 668–759هـ**، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية [1]، عين الشق، الدار البيضاء، السنة الجامعية، 1988–1989م.

– ـــــــ : **جنوة وبلاد المغرب من سنة 609 إلى 759هـ/1212–1358م**، بحث لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ، جامعة محمد الأول، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، السنة الجامعية، 1996–1997م.

– الهلالي محمد ياسر: **مجتمع المغرب الأقصى خلال القرنين الثامن والتاسع هـ/XIV-XVم**، مساهمة في دراسة بعض مصطلحات التراتب الاجتماعي [العامة–الخاصة] [الطبقة–المرتبة]، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، 1999–2000م.

المراجع [باللغات الأجنبية]

– Beck Herman, L, *L'image d'Idris II : ses descendants de Fas et la politique sharifienne des sultans marinides, 656-869, 1258-1465*, E. J. Brill, Leiden, 1989 .

– Bel, Alfred, *La religion musulmane en Berbérie : esquisse d'histoire et de sociologie religieuses : établissement et développement de l'islam en Berbérie du VII^e au XX^e siècles*, Librairie Orientaliste, Paul Geuthner, Paris, 1938.

– Ben Ali, Driss, *Le Maroc précapitaliste : formation économique et sociale*, Société marocaine des éditeurs réunis, Rabat, 1983.

– Benchekroun, Mohamed, *La vie intellectuelle marocaine sous les Mérinides et les Wattasides (XIII^e -XIV^e -XV^e -XVI^e siècles)*, Rabat, 1974.

– Benchekroun, Mohamed, *Le milieu marocain et ses aspects culturels : étude sociologique, institutionnelle, culturelle et artistique à l'époque mérinide et wattaside*, Rabat, 1970.

– Berque, Jacques, *Structures sociales du Haut-Atlas*, P.U.F, Paris, 1955.

– Bouthoul, Gaston, *Traité de polémologie : sociologie des guerres*, Payot, Paris, 1991.

– Bouthoul, Gaston, *Essais de polémologie*, Denoël, Paris, 1976.

– Braudel, Fernand, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, Paris, 1966.

– Brignion, Jean et autres, *Histoire du Maroc*, Librairie Nationale, Casablanca, 1967.

– Contamine, Philippe, *Guerre, État et société à la fin du Moyen Age : études sur les armées des rois de France, 1337-1494*, École des hautes études en sciences sociales, Paris, 2 vol., 2004.

– Corvisier, André, *Arts et sociétés en Europe de 1494 à 1789*, P.U.F., 1976.

– Corvisier, André, *Les hommes, la guerre et la mort*, Economica, Paris, 2001.

– Cour, Auguste, *La dynastie marocaine des Beni Wattâs (1420-1554)*, Constantine, 1920.

– Dhina, Atallah, *Les États de l'Occident musulman aux XIII^e, XIV^e et XV^e siècles : institutions gouvernementales et administratives*, Alger, 1984.

– Dufourcq, Charles-Emmanuel, *L'Espagne catalane et le Maghrib aux XIII^e et XIV^e siècles : de la bataille de Las Navas de Tolosa, 1212, à l'avènement du sultan mérinide Abou-l-Hasan, 1331*, Presses Universitaires de France, Paris, 1966.

– El Alaoui, Abdelaziz, *Le Maghrib et le commerce transsaharien : milieu du XI^e - milieu du XIV^e s. : contribution à l'histoire économique, sociale et politique du Maroc médiéval*, Thèse en vue du doctorat de 3^e cycle, Université de Bordeaux III, Institut d'Étude Arabes et Islamique, Bordeaux, 1983.

Scanned by CamScanner

– Fatha, Mohamed, *Contribution à l'histoire de la ville marocaine des Mérinides aux Watassides XIVe-XVe siècles, (Étude socio-urbaine)*, Thèse en vue du Doctorat de 3e cycle, Université de Bordeaux III, Bordeaux, 1982.
– Ferhat, Halima, *Sabta des origines au XIVe siècle*, Éditions Al Manahil, 1993.
– Gaillard, Henri, *Une ville de l'Islam : Fès*, Paris, 1905.
– Gautier, Émile, *Le passé de L'Afrique du nord*, Paris ,1964.
– Heers, Jacques, *Esclaves et domestiques au Moyen Age dans le monde méditerranéen*, Librairie Arthéme Fayard, Paris, 1981.
– Janowitz, Morris, *Sociology and the Military Establishment*, New York, 1965.
– Kably, Mohamed, *Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen Age, XIVe-XVe siècles, Islam d'hier et d'aujourd'hui*, Maisonneuve et Larose, Paris, 1986.
– Kably, Mohamed, *Variations islamistes et identité du Maroc médiéval*, Maisonneuve et Larose, Paris, 1989.
– Khaneboubi, Ahmed, *Les premiers sultans mérinides, 1269-1331 : histoire politique et sociale*, L'Harmattan, Paris, 1987.
– Laoust, Émile, *Mots et choses berbères : notes de linguistique et d'ethnographie, dialectes du Maroc*, Société marocaine d'édition, Rabat, 1983.
– Laroui, Abdellah, *L'histoire du Maghreb : un essai de synthèse*, François Maspero, Paris, 1982.
– Laroui, Abdellah, *Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain*, François Maspero, Paris, 1977.
– Le Tourneau, Roger, *Fès avant le protectorat : étude économique et sociale d'une ville de l'Occident musulman*, La porte, Rabat, 1987.
– Lispon, Leslie, *Les grands thèmes de la pensée politique*, trad. de Anne-Emmanuelle Chaudesaigues, Fondation Nationale des Sciences Politiques, Paris, 1977.
– Mantagne, Robert, *Les Berbères et le Makhzen dans le sud du Maroc : essai sur la transformation politique des Berbères sédentaires, groupe chleuh*, F. Alcan, Paris, 1930.
– Marçais, Georges, *La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age*, Afrique Orient, Casablanca, 1991.
– Maslatris, *Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale au Moyen Age*, Paris, 1866–1875.
– Meunié, Jacques, *Le Maroc saharien des origines à 1670*, tome I, Librairie Klincksieck, 1982.
– Mezzine, Larbi, *Le Tafilalt : contribution à l'histoire du Maroc aux XVIIe et XVIIIe siècles*, Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences

Scanned by CamScanner

Humaines - Rabat, série Thèses, n° 13, 1987.
– Montesquieu, Charles de Secondat, *Œuvres complètes*, Seuil, Paris, 1964.
– Morabia, Alfred, *Le gihâd dans l'islam médiéval : le combat sacré des origines au XII*e *siècle*, Albin Michel, Histoire, Paris, 1993.
– Pascon, Paul, *Le Haouz de Marrakech*, tome I, Centre universitaire de la recherche scientifique, Rabat, 1983.
– Piquet, Victor, *Le peuple marocain : le bloc berbère*, Librairie Émile Larose, Paris, 1925.
– Shatzmiller, Maya, *L'historiographie mérinide : Ibn Khaldun et ses contemporains*, E.J. Brill, Leiden, 1982.
– Terrasse, Henri, *Histoire du Maroc : des origines à l'établissement du protectorat français*, tome I, Atlantides, Casablanca, 1946.
– Wallon, Henri, *Histoire de l'esclavage dans l'Antiquité*, Robert La Font, Paris, 1988.

الدراسات المنشورة في المجلات والدوريات [باللغات الأجنبية]

– Aznar Vallejo, Eduardo, « Course et piraterie dans les relations entre la Castille et le Maroc au bas Moyen Age », in : *L'Occident musulman et L'Occident chrétien au Moyen Âge*, Publications de la Faculté des lettres, Rabat, 1995, (pp. 61-90).
– Balletto, Laura, « Gênes et le Maghreb au XVe siècle », in : *L'Occident musulman et L'Occident chrétien au Moyen Âge*, Publications de la Faculté des lettres, Rabat, 1995, (pp. 91-106).
– Bel, Alfred, « Les premiers émirs mérinides et l'Islam », in : *Mélanges de Géographie d'Orientalisme*, Gautier, Tours, 1937. (pp. 34-44).
– Bernard, August, « Les capitales de la Berbérie », in : *Recueil de mémoires de textes publiés en l'honneur du XIVe Congrès des orientalistes*, Alger, 1905.
– Biarnay, S, « Notes sur les chants populaires du Rif », in : *Archives berbères*, tome 1, fasc. 1 (1915), (pp :101-109).
– Birben, Jean-Noël, « La Peste noire en terre d'Islam », in : *L'Histoire*, n° 11, 1979. (pp. 30-40).
– Bressolette, Henri et Jean Delaroziere, « Fès-Jdid de sa fondation en 1276 au milieu du XXe siècle », in : *Hespéris Tamuda*, vol. XX-XXI, fasc. unique, 1982-1983, (pp. 245-283).
– Bulliet, Botr et Baranis, *Annales de l'E.S.C*, n° 1, 1980.
– Canard, Marius, « Les relations entre les Mérinides et les Mamlouks au XIVe siècle », in : *Annales de L'I.E.O*, T.V, Alger, 1939-1941, (pp. 41-81).
– Cheddadi, Abdessalam, « Le système du pouvoir en Islam d'après Ibn Khaldun », in : *Annales de l'E.S.C.*, 35e année, n° 3-4, mai–août, 1980.
– Clasteres, Pierre, « Malheur du guerrier sauvage », in : *Libre*, Politique – Anthropologie – Philosophie, Libre 2, 8° Ac 77 (2), Paris, 1978, (pp. 69-109).

Scanned by CamScanner

– Dalché, J. Gautier, « Islam et chrétienté en Espagne au XII^e siècle : contribution à l'étude de la notion de frontière », in : *Hesperis*, 1959, 3ème trimestre, tome XLXII.
– Ferhat, Halima et Hamid Triki, « Hagiographie et religion au Maroc médiéval », *Hespéris Tamuda*, vol. XXIV, 1986, (pp. 17-51).
– Liauzu, Guy, « La condition des musulmans dans L'Aragon chrétien aux XI^e et XII^e siècles », in : *Hesperis*, vol. IX, fasc. 2.
– Oumlil, Ali, « Ibn Khaldun et la société urbaine », in : *La ville arabe dans l'Islam, histoire et mutations*, Actes du 2^e colloque de l'A.T.P, espaces socio-culturels et croissance urbaine dans le monde arabe, Carthage-Amilcar, 12-18 mars 1979. Imprimerie Al Asria, Tunis, 1982, (pp. 39-44).
– Rosenberger, Bernard, Hamid Triki, « Famines et épidémies au Maroc aux XVI^e et XVII^e siècles, 1^ère partie, *Hespéris Tamuda*, vol. XIV, fasc. unique, 1973, (pp :109-175)
– Sebti, Abdelahad, « Au Maroc, sharifisme citadin, charisme et historiographie », in : *Annales de l'E.S.C*, 41^e année, n° 2, mars-avril, 1986, (pp. 433-457).
– Talbi, Mohamed, « Effondrement démographique au Maghreb du XI^e au XV^e siècles », in : *Cahiers de Tunisie*, XXV, 1977, (pp. 51-60).

مراجع ودراسات مستخرجة من الإنترنيت والأقراص المدمجة

– *Dictionnaire De L'Académie Française*, 1762, sur CD.
– *Le Petit Larousse in Bibliorom*, sur CD .
– *Dictionnaire Littré*, sur CD .
– *Le Petit Robert*, Dictionnaire de la langue Française, Réimpression et mise à jour mars, 1995, sur CD.
– Colloque : *Guerre et Société, IX^e - XIII^e siècles*, Université Sorbonne-Paris IV, samedi 14 janvier 2006, http://www.paris4.Sorbonne.fr.
– *Polémologie*, http//fr.wikipedia.org.
– *La crise de la polémologie*, 24 juillet 2006, http//www.huyghe.fr.

Scanned by CamScanner

يسعى هذا الكتاب بالاستناد إلى النموذج النظري «الحرب والمجتمع» لإعادة قراءة العصر المريني (1212–1465)، وذلك من خلال مقاربة جديدة تتجاوز السرد التقليدي للأحداث العسكرية والوقائع الحربية، إلى البحث في ظواهرها وبناها ومتغيراتها الحضارية، والكشف عن آثارها في النظم والمؤسسات، وفي مختلف مظاهر الحياة الاقتصادية والسياسية والثقافية. ويأتي اختيار العصر المريني باعتباره يمثل المنعطف الأكبر الذي أثر بشكل قوي ودائم على التطورات اللاحقة التي طبعت المسار التاريخي للمغرب. كما يجسد زمن التحول الذي مالت فيه موازين القوى والثقل الحضاري لفائدة قوى الضفة الشمالية لحوض البحر الأبيض المتوسط.

الطباعة : منشورات عكاظ - 2010

توزيع خارج المغرب
منشورات زين، بيروت
الصياح - طريق صيدا القديمة - لبنان
00961 1 391 391 - 00961 3 433 733
watsom@zeinjuridique.com - www.zeinjuridique.com

Scanned by CamScanner